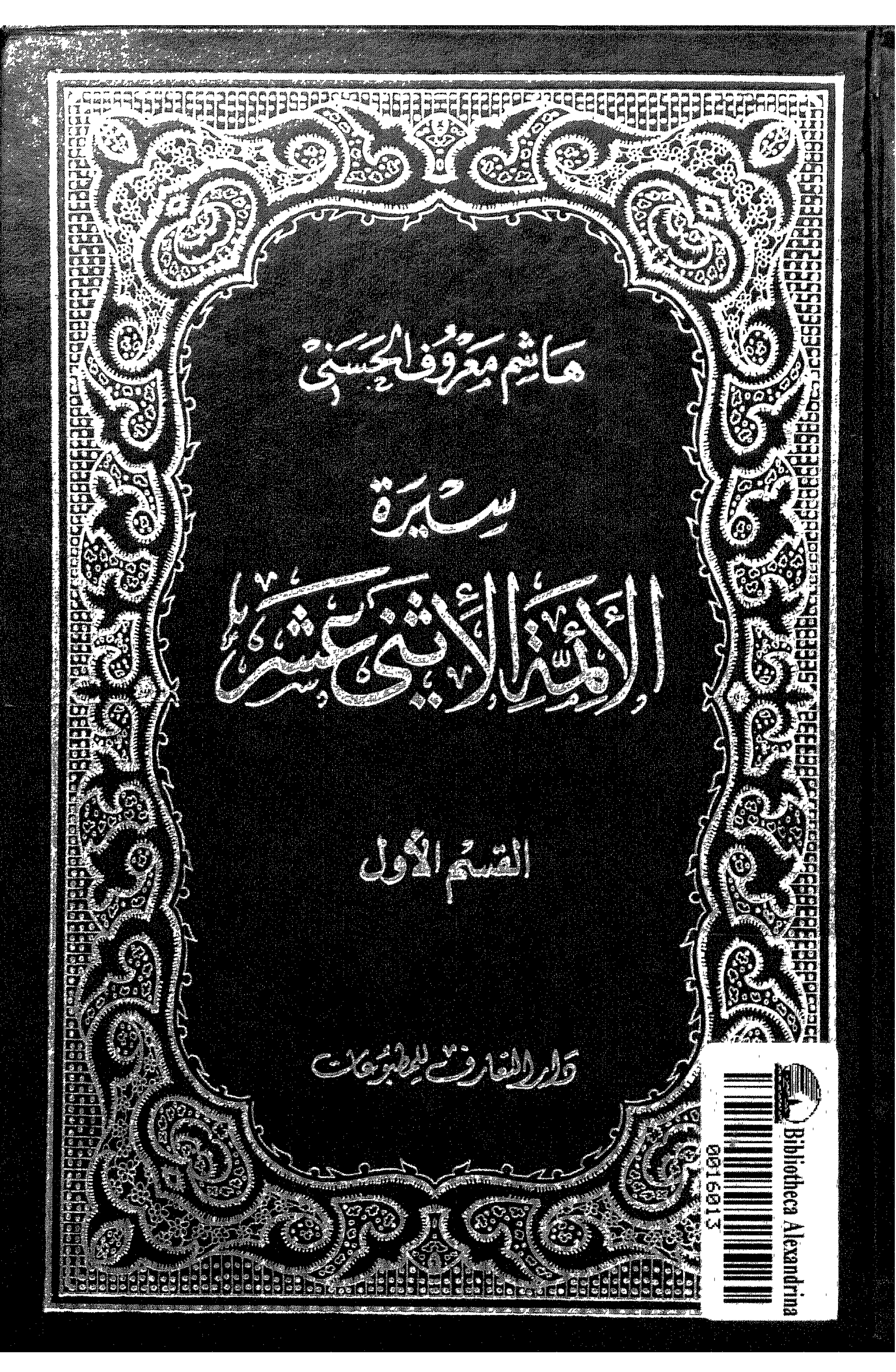

هاشم معروف الحسني
سيرة
الأئمة الاثني عشر
القسم الأول
دار التعارف للمطبوعات
Bibliotheca Alexandrina
0016013



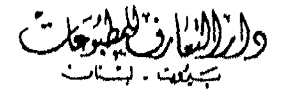




هاشم معروف الحسني

سيرة الأئمة الاثني عشر

القسم الأول



١٤١١هـ - ١٩٩٠م

الطبعـة السادسـة



المكتب : شارع سوريا ـ بناية دوريش ـ الطابق الثالث

الادارة والمعرض ـ حارة حريك ـ المشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسين

تلفون ـ ٨٣٧٨٥٧
ص. ب ٨٦٠١ ـ ١١

السيد هاشم معروف الحسني
سيرة نقيّة، وفكر نقيّ...

نقاء سيرته، ونقاء فكره حقيقتان تواكبان اسمه: حياً وميتاً، حاضراً وغائباً...

ولد السيد هاشم معروف الحسني عام ١٩١٩ في قرية جناتا (قضاء صور ـ لبنان الجنوبي) وفي بيت من بيوت الصلاح والتقوى في جبل عامل، وفي رعاية والده السيد معروف، ذلك الرجل الوقور وقار المؤمن، الوديع وداعة الناس البسطاء، الطيب كطيبة الأرض التي كانت تعطيه من خيرها الوفير بقدر ما يعطيها من جهده الجاهد، وصبره المحتسب، وبركة يديه الخيّرتين.. في ظل هذه المزايا الكريمة لوالده السيد معروف، نشأ السيد هاشم نشأة كريمة اكسبته منذ الفتوّة وقار الرجال، ووداعة المؤمنين، وطيبة الناس الطيّبين كأرضهم جبل عامل.. في ظل هذه المزايا بالذات تمرّس السيد هاشم بأخلاق التواضع والصدق وعفّة اليد واللسان والضمير وببساطة العيش رغم انه عاش فتوّته وشبابه في بيت ميسور الحال موفور النعمة..

ويشهد الذين عايشوه أو عاصروه في النجف الاشرف وهو يطلب علم الدين والشريعة هناك، ان هذه الاخلاق نفسها، وهذه العفة نفسها، وهذه البساطة الطيبة نفسها، ظلت من مميزاته المرموقة التي كانت تكسبه احترام اساتذته وزملائه واصدقائه وتلامذته، بل كانت تمنحه حبهم جميعا.

ونستطيع القول جازمين بأن هذه المميزات التي كانت تزداد ترسّخا في شخصية السيد هاشم، طول اعوام الدراسة في النجف الاشرف، هي اساس ما عُرف به ايام طلب العلم هناك من مثابرة مدهشة على الدرس والمدارسة، ومن انكباب نادر المثال على الكتاب لا تلهيه عنه مغريات المجالس العامرة، يعقدها ايام العطل الاسبوعية، زملاؤه واصدقاؤه ترفيهاً لنفوسهم من عناء الدرس والتدريس . . . هذا لا يعني ان السيد هاشم كان زمِّيتاً ، أو انطوائياً ، أو متحرِّجا من مجالس الانس البريئة، أو كان كزّ المزاج لا تطيب له مؤانسة الاصدقاء والزُّملاء. . بل كان أمره على عكس ذلك: كان الوفاً سريع الالفة طيب المؤالفة، تطرب نفسه للقاء الاصدقاء، يهتزُّ جسده كله سروراً ومرحاً للفكاهة اللاذعة الناقدة ويضحك لها مِلْء صدره، بل كثيرا ما كان هو يبادر بها ويرسلها عفوية ضاحكة محببة. . غير انه لم يَدَعْ لنفسه ان تسترسل في الاستمتاع بهذا كله، كيلا يطغى على استمتاعه الروحي بتحصيل المعرفة والعلم. . لذا كان حريصا على ان يقيم التوازن بين هذا وذاك في حياته اليومية، وكان ناجحاً جداً في إقامة هذا التوازن بالفعل. . .

السيد هاشم، طالب العلم، كان نموذجاً محترماً للطالب المنظَّم التفكير والعمل. . كان تنظيم عمله اليومي يتناسب مع نَسَق تفكيره الدقيق التنظيم. . فإنه بالرغم من تعدُّد عمله اليومي، كمياً ونوعياً، كان يبدو صافي الذهن، هادىء الاعصاب، متهلّل الوجه، فكأنه يعمل عملاً واحداً سهلاً. . مرجع هذه الظاهرة فيه هو قدرته الفائقة على تنظيم فكره وعمله. . هذه القدرة كانت له عوناً على إنجاز اعماله اليومية كاملة ومتقنة دون أن ترهقه ذهنياً ولا جسدياً. . بهذا القدر من حسن تصريفه الأمور كانت له الطاقة المدهشة في أن يحضر في اليوم الواحد أكثر من حلقة دراسية، وأكثر من حلقة مذاكرة، وأن يمارس التدريس لأكثر من حلقة وكتاب. . غير أن الأهم من كل ذلك انه كان يتعامل مع زملائه وتلامذته كأنه هو المستفيد دائماً منهم في حين كان هو يفيد أكثر مما يستفيد. . من هنا كان السيد هاشم نموذجاً في التواضع بقدر ما كان نموذجاً في تنظيم عمله وتفكيره. .

كل خلاقه ومزاياه هذه سواء ما اكتسبه في نشأته برعاية والده السيد معروف، أم ما ترسّخ فيه منها خلال طلبه العلم بالنّجف الاشرف، هي جميعا اخذت تبرز وتتوهّج، أكثر فأكثر، منذ انتهت مرحلة طلب العلم، وعاد الى جبل عامل ليمارس مهمّته كرجل دين.. في مرحلته الجديدة تغيرت كل الظروف السابقة، وجاءت ظروف مختلفة جداً.. وتبدلت شروط الحياة وشروط العمل، بل تبدّلت حتى شروط التفكير.. بمعنى ان شخصيته الانسانية اصبحت عرضة لأن تتكوّن من جديد بصيغة جديدة. وصار من الممكن والمحتمل أن تهتزّ شخصية طالب العلم حين ينتقل فورا الى مرحلة عليه أن يواجه فيها الحياة والناس والأشياء والقضايا بوجه جديد، بشخصية جديدة، بمواقف جديدة، بعادات جديدة، بمزاج جديد الخ، الخ...

وهنا الامتحان الكبير، العسير، الشاق... هنا التحوّل من شخصية طالب العلم الى شخصية رجل الدين بكل ما تحتمل شخصية رجل الدين من صفات وصيغ عيش وتفكير، ومن اشكال تعامل، مع الناس، مع الواقع الجديد... إنه التحول الصعب. فكيف إذن واجه السيد هاشم ظروفه الجديدة، واقعه الجديد... هل اهتزت شخصيته الطالبية النموذجية امام شخصية رجل الدين التي كان عليه ان يتقمّصها بسرعة دون اختلال؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع تحتشد في الذهن .. مع أن سيرة السيد هاشم النقية، وفكره النقي، يقدمان لنا الجواب عن كل هذه الاسئلة بارتياح دون مشقة.. فقد بقيا على نقائهما دون انكسار.. وبقي السيد هاشم الطالب النموذجي، هو نفسه السيد هاشم العالم رجل الدين المرتجى.. بل أصبح اكثر نموذجية، اي اكثر توهجا، أي اكثر حضورا في ظروفه الجديدة منه في ظروفه السابقة كطالب علم...

كل المزايا التي عرفناها في السيد هاشم طالب العلم في النجف الاشرف، اثبتت حضورها الابهى في العلامة السيد هاشم رجل الدين في جبل عامل:

أخلاق التواضع والصدق وعفة اليد واللسان والضمير وبساطة العيش

رغم وَفْرة اسباب العيش لديه. . كل هذه الاخلاق والصفات فيه، برزت عنده بصيغتها الجديدة منذ بدأ حياته الجديدة كرجل دين.

لكن هذه الاخلاق والصفات ذاتها اتخذت صيغتها الجديدة مسيّجة بسياج حصين منيع من الورع بأعمق معانيه وأكثرها شمولية، إنه الورع الذي يصون صاحبه لا من مقاربة المحرّمات الدينية التعبُّدية وحدها، بل يصونه ـ أولاً وآخراً ـ من مقاربة المحرّمات التعامليّة بخاصة: دينية، واجتماعية، وانسانية ووطنية. . إن هذا النوع التعاملي من الورع، هو ما يضع الفارق الحاسم بين الورع العادي والاستثنائي، أو بين الورع السطحي والعمقي، أو بين الورع الزائف والحقيقي. .

ورع العلاّمة السيد هاشم معروف كان ورعاً ذا طبيعة شمولية، أولاً، وكان ـ الى ذلك ـ ورعاً استثنائياً وعُمقياً وحقيقياً. . نقول هذا لا اعتباطا ولا امتداحا. . وإنما نقوله اعتقادا واستنادا الى الواقع والشاهد والملموس من سيرته النقية. . فنحن نعرف من سيرته هذه أنه:

اولا: كان له من صدق إيمانه الديني حصانة قوية وراسخة تمنع عنه الوقوع في شرك المغريات الأثمة مهما تكن عليه من قوة الاغراء وسحره. . وهذا هو الورع الديني. .

ثانيا: كان له من ادراكه السليم وحدسه الصائب ما يعصمه من كلا الشّرّين: شر العزلة المطلقة عن الناس دون تمييز بعضهم من بعض، وشر الاندماج المطلق بالناس دون الحيطة والحذر من بعضهم دون بعض. بفضل هذه العصمة أمكنه اجتناب اهل الشّر منهم، مع الافادة من صلته بالخيّرين فيهم. . وهذا الورع الاجتماعي.

ثالثاً: كان من سماحة القلب ونبل العاطفة ما يضعه قريباً من الناس الضعفاء والبؤساء والمعذّبين. . بفضل هذا القرب الحميم استطاع أن يبلْسم بعض الجراح قدر ما لديه من الممكنات. . وهذا هو الورع الانساني. .

رابعاً: كان له من شرف العقل ونزاهة الضمير ما يبعده عن اهل

الشبهات الذين لا يتورّعون عن بيع الوطن والمواطنين لقاء مكاسب شخصية . . بفضل هذا الشرف والنزاهة فيه كان قادرا ان يمتنع عن الانزلاق الى المنحدرات الموبوءة . . وهذا هو الورع الوطني . .

دخل العلاّمة السيد هاشم معروف الحسني عالم الوظيفة كقاضٍ في المحاكم الشرعية الجعفرية في لبنان . . لماذا فعل ذلك؟

نقول واثقين إنه لم يدخل عالم الوظيفة هذه إلا عن ضرورة دفعته الى ذلك . . هذه الضرورة لا يستطيع ان يدركها ويدرك قدرها إلا من عرف ظروف العيش التي يعانيها رجال الدين في جبل عامل، خصوصا منهم اهل العفّة والتواضع وصدق القول والعمل . . هؤلاء يعزّ عليهم أن تضطرهم ظروف العيش احيانا الى الخروج ـ ولو مقدار شعرة ـ عن الاخلاقية العفة والتواضع والصدق . . من هذا الوجه المشروع اضطر السيد هاشم ان يتجنّب حالة الخروج عن أخلاقيته الاصيلة فدخل عالم الوظيفة كارهاً لا مختارا . . لكنه فعل حسناً . . لقد أثبت ان الوظيفة ليست شرّاً بذاتها، وإنما هي تتشرّف بمن يصاحبها بشرفه، ويلطّخها بالدنس من يلصق بها دنس يده وضميره . . لقد شرّفها السيد هاشم بالفعل : شرّفها بنزاهة يده، وشرّف ضميره، وشرّفها بورعه الصارم . . وبسيرته النقية .

ولقد اثبت السيد هاشم ايضا خطأ الزعم أن الغرقَ في حياة الناس أو حياة الوظيفة يلغي فرص النشاط الفكري . أي يلغي ممكنات العمل في مجالات الفكر والعلم . .

إن سيرة السيد هاشم وفكره يقولان : لا . . بل إن الاتصال بالناس، مهما يكن واسعا وعميقا يكن باعثاً لنشاط العقل، ومصدرا لاغتناء الفكر، ومُلهماً للعمل والابداع . . فقد برهن السيد هاشم، عملياً، أن فرص الانتاج العقلي اكثر ما تكون توفراً حين يكون العالم والمفكّر بين الناس يتعامل معهم ويتعرف احتياجات عقولهم، ويتفهّم قضاياهم ومشكلات حياتهم . . برهن على ذلك بنشاطه الخصب منذ اخذت تتعدّد وتتشابك علاقاته بالناس، ثم منذ اخذت

مهمات القضاء الشرعي تزدحم وتتكاثر عليه في المحكمة وفي البيت على حد سواء.

وبعد، فليس اقوى دلالة على السيد هاشم معروف الحسني من مؤلفاته العلمية والفكرية.. مؤلفاته وحدها تقول لكم أية سيرة نقيّة، وأي فكر نقي، ترك لنا فقيدنا الكبير السيد هاشم معروف الحسني.

صديق المؤلف

السيد هاشم معروف الحسني : إنساناً وباحثاً إسلامياً

الانسان والباحث التقيا في السيد هاشم معروف حتى قبل أن أصبح السيد واحداً من أعلام المؤلفين الباحثين . . . التقى فيه الانسان والباحث ليتكون منهما ـ متلازمين متكاملين ـ هذا البنيان غير العادي : بنيانه الدينامي ، العصبي ، الخشن الاليف، الانيس، الرومانسي . . ورومانسيّته تكمن في ايمانه وتديّنه، وهي تبلغ بحرارتها وصفائها مبلغ الحالة التي اسمها: الورع . . لكن اسمها في حالة السيد هاشم معروف الحسني خصوصا: الورع العظيم . .

الانسان باحثاً : انسان يطلب الحقيقة . . والباحث انساناً : باحث يعشق الحقيقة . . والسيد هاشم: انساناً وباحثاً، هو: من عرفناه يطلب الحقيقة بشعور مرهف بالعشق وبالصدق . . أقول: الصدق، لأنه لا عشق إن لم يكن الصدق . . ومذ عرفت السيد هاشم في علاقات البحث والمدارسة في النجف حتى وقف قلمه وقلبه ، عرفته يبحث عن الحقيقة بعشق وصدق، لكن ايضا بمنهجيّة منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة . . .

لا بد الحدس الصُوفي الغيبي حدسْتُ فيه هذه المميزة الباهرة . . كان حدسي واقعيا جمعت عناصره الواقعية من تفاصيل كنت أرصدها في يوميات السيد هاشم الدراسية ، حتى كان ذلك اليوم السعيد عام ١٩٣٦ . . وهو السعيد بحق لأنني من ذلك اليوم حتى اخر ايام دراستي في النجف وجدت من حلاوة المعرفة ما لم يكن ميسراً لي أن أجد مثله من قبل . . لم يكن السيد هاشم واحداً من حلقة الاصدقاء لنا، ولا واحداً من زملاء الدراسة . . لكنّا جميعا كنا نلحظ كيف

يستخدم وقته بتنظيم بالغ الدقة، ونلحظ أن وقته المنظم بهذه الدقة موقوف على الدرس والمدارسة.. في حين كان وقتنا يتوزع على مشاغل متعددة متنوعة.. في ذلك العام بالذات (١٩٣٦) كنت قررت قراري الاخير: أن أبرمج وقتي ودراستي برمجة صارمة، وان أمسح من خارطة يومياتي كل شاغل يدخلها غريبا عن برنامجي الذي رسمت... لكن هذا الالتزام كان يقتضي - بالضرورة - التزاما آخر لا غنى عنه في نظام الدراسة النجفية وقتئذٍ... أعني كان يقتضي البحث عن رفيق يستطيع أن يلتزم معي هذا الالتزام، أو عن رفيق يكون له برنامجه الدراسي الصارم، الذي قررت ان يكون لي.. اي رفيق للمدارسة والمباحثة في موضوعات ومسائل علمية كان علينا استيعابها ذاتيا خارج حلقات الدروس مع الاساتذة. وكان قد ثبت عندي بالتجربة، خلال سنوات الدراسة هناك، ان هذا الشكل من الممارسة الذاتية في عملية التحصيل، هو الاجدى في كسب المعرفة، وهو الاكثر قدرة على تكوين الذاكرة المعرفية الغنية، وعلى تحقيق استقلالية الشخصية العلمية للدارسين... قلت: الممارسة الذاتية لأنها تعتمد لدى كل من طرفيها على التحضير الذاتي الجاد، يحفزه، الى جانب حب المعرفة، حب التكافؤ العلمي مع الطرف الاخر، واحيانا: حب التفوّق.

كان لا بد أن أبحث عن هذا الرفيق، وكان لا بد أن اقتحم اليه كل هذه العوائق... وبعد رصد طويل جاءني ذلك الحدس الواقعي الذي حدست في السيد هاشم معروف الحسني.. وجاءتني اللحظة السعيدة ووجدته كان اختياري مفاجأة له، وكان فرحه بالاختيار مفاجأة لي، وتقاسمنا بالتكافؤ فرح المفاجأة.. وبقي الفرح قسمة بيننا بالتكافؤ ايضا على مدى زمن الرفقة السعيدة هذه التي امتدت حتى عام ١٩٣٨، أي حتى آخر يوم من عمر دراستي في النجف.. كان فرحنا يزداد عمقا كلما ازددنا شعوراً بأن هذه الرفقة تعطينا المعرفة بقدر ما كنا نعطيها من جهد مشترك.

باعتزاز أقول الآن إن رفقة المدارسة والمباحثة مع السيد هاشم، اعطتني نعمة الفَرَحَيْن معا: فرح الصداقة، وفرح المعرفة... حتى الصداقة هنا كانت علاقة المعرفة تُرْبَتَها وجذرها اللذين منحاها ذلك الصفاء والنقاء... والمعرفة

ذاتها هنا كان لها تربتها وجذرها الكامنان في أن السيد هاشم معروف الحسني له شخصية الانسان الباحث، او الباحث الانسان، أو طالب الحقيقة بشعور مرهفٍ بالعشق والصدق. . من هنا كان للمعرفة التي نكتسبها معا، مدارسة ومباحثة، معنى آخر وطعم آخر. . كان لها معنى الاقتحام والمغامرة، ثم كان لها طعم الكشف والاكتشاف. .

برنامج المدارسة والمباحثة الذي وضعناه موضع التنفيذ فورا، هو نفسه كان شكلا من الاقتحام والمغامرة. . لقد قرّرنا أن نلتزم مُدارسة بعض الكتب الفقهية/ الاصولية غير الموضوعة للدرس وقتئذٍ في النجف، ككتاب «بُلغة الفقيه» مثلا، ومدارسة بعض الموضوعات الصعبة في الكتاب المعتمد والأهم لدراسة اصول الفقه هناك، كتاب «كفأية الأصول» للأخوند (الملا كاظم الخراساني)، كموضوع «مقدمة الواجب هل هي واجبة»، وموضوع «الأمر بالشيء، هل يقتضي النهي عن ضدّه؟»

لصعوبة في النص كانت الرهبة تسيطر على الطلبة حين تصل بهم الدراسة في كتاب «الكفاية» الى هذين الموضوعين بالاخص، حتى مع حضورهم حلقات الدروس على كبار الاساتذة. . فكيف إذن يقتحمها طالبان وحدهما دون الحضور في حلقات الدروس أي دون معرفة الاساتذة. .

لقد اقتحمنا بالفعل، واخترقنا سطوة الرهبة التقليدية. . وكان السيد هاشم معروف، بدأبه العظيم، وبإصراره على طلب الحقيقة بلهفة العاشق، يزيدني ثقة بجدوى الاقتحام، ويزيدني - بذلك توْقاً الى متابعة الجهد الطموح للكشف المعرفي بشجاعة تشبه المغامرة.

الانسان والباحث اللذان كأنهما السيد هاشم معروف الحسني، بقيا معا - متلازمين متكاملين - يرهفان رومانسيته الايمانية، ويؤكدان فيه انسانية الباحث عاشق الحقيقة بصدق. . تقيا هكذا مدة المرحلة الدراسية «في النجف» ثم تقيا بصورة أغنى وابهى، في مرحلته الأخرى، أي مرحلة الممارسة العملية المباشرة لصفته كرجل علم ودين، في الوطن، في جبل عامل من لبنان. . . كنا افترقنا في

هذه المرحلة، لكن ظل السيد هاشم معروف حقيقة نامية نضرة بين أنضر ما غرسته النجف في حياتي من حقائق نبيلة لن يصيبها الذبول ابدا. . كنا افترقنا في هذه المرحلة، لكن لم يفارقني الحنين الى أن أعرف كيف تصير علاقة الانسان والباحث بشخصيته الجديدة: كرجل علم ودين! . . ظل الحنين يتجدد ولا ينقطع، حتى رأيت كتبه تصدر تباعا، وقرأت معظمها، واطمأننت. . أقول: اطمأننت، ولا أزيد. . فالاطمئنان هنا عندي يُغني عن الكلام الكثير، لأنه يعني عندي أن جذوة العشق للحقيقة، أي لمقاربة الحقيقة، أي لاقتحام الصعاب اليها، والمغامرة حتى الوصول، هي لا تزال تلك الجذوة التي عَرَفْتُ من قبل، بل تحولت الى لهب يتأجج، الى مصابيح تتوهج. . وكما عرفت السيد هاشم معروف، في النجف، طالبا يبحث عن الحقيقة بعشق هو الصدق، لكن ايضا بمنهجية منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة، هكذا وجدت السيد هاشم ذاته، وأفضل منه، في كل واحد من مؤلفاته الاربعة والعشرون المطبوعة حتى الآن . . وجدته في المؤلفات ذلك الذي يُقبل على البحث بشوق العاشق، وذلك الذي يقتحم الصعاب بعزم المغامر، وذلك الذي لا تعرفه حماسة العاشق ولا عزيمة المقتحم عن الانصياع الى منهجيّته المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة . .

إذا استقصينا المؤلفات الاربعة والعشرون واستعرضنا الموضوعات التي تعالجها المؤلفات، وجدناها نوعين: نوعا يطرق ابوابا للبحث مطروقة ومألوفة، مثل: «عقيدة الشيعة الاماميّة» و«سيرة المصطفى» (السيرة النبوية) و«سيرة الأئمة الاثني عشر» و«الحديث والمحدّثون» و«تاريخ الفقه الجعفري». . ونوعا اخر يدخل في باب الاختصاص التشريعي والحقوقي، أو الفكري والنظري، وهذا باب له طابع البحث الاختصاصي العلمي أو الفكري، ومن هذا النوع كتبه التالية: «المبادىء العامة للفقه الجعفري» و«نظرية العقد في الفقه الجعفري» و«المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري» و«الولاية والشفعة والاجارة في الفقه الاسلامي» و«الوصية والوقف والارث من الاحوال الشخصية في الفقه الاسلامي» و«الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة» و«بين التصوف والتشيع» الخ . . .

لنقرأ ـ أولا ـ في مؤلفات النوع الأول. . هنا نجد السيد هاشم معروف يكتب موضوعه كمن يدخل بابا غير مطروق وغير مألوف. . هنا نجده مقتحماً مقداماً، لأنه واثق أنْ سيضيف جديدا الى الموضوع، أنْ سيقول شيئا يُضفي على المعالجة طابعه هو بالذات. . وهو نفسه يسجّل هذا الموقف الاقتحامي في عنوان كتابه «سيرة المصطفى» حين يضع تحت العنوان بحرف كبير: «نظرة جديدة». . وتسأل أنت: ما عساه يكتب جديدا أو ينظر نظرة جديدة في سيرة النبي. . وأنت تبحث في الكتاب نفسه عن النظرة الجديدة. . وتجدها. . لكن، لن تجدها في اسلوب الكتابة أو أسلوب التأليف. . فلا جديد هنا. . إنما هي تفاجئك مذ تبدأ القراءة. . تفاجئك كامنة في تلك المنهجية ذاتها التي عرفناها قبل. . أعني المنهجية المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة. . لنقرأ من بداية الكتاب. . فهنا «تمهيد» يفتتحه السيد هاشم بهذا الكلام: «يحاول فريق من الكتّاب، القدامى والمحدثين، أن يصوّروا العرب قبل الاسلام وكأنه بناء أصيب بزلزال شديد زعزعه من أساسه، فإذا كل شيء فيه غير قائم في محله، وأصبح الذئب راعيا والجائر قاضيا، والمجرم سعيدا، والصالح محروما، والعادات تتحكم في مصيرهم وتجرُّهم الى الفناء والدمار. . قد تمادى انسان ذلك العصر في الفجور والطغيان ـ على حد زعمهم ـ الى الاستهتار بالقيم ومحاربة الفضيلة، وتعاطى استعمال الربا الى حدود الاغتصاب والسلب، واستحوذ عليه الطمع الجامح والجشع والنهم وبلغت به القسوة الى حدود وأْد البنات وقتل الأولاد. . ومضى هؤلاء في تجريد العرب من جميع القيم حتى من إنسانيتهم، فقالوا: لقد تباهى العربي بالشجاعة والجود والانفة، وافتخر على سواه من أبناء الأمم الواقعة على حدود منطقته، وبرزت هذه الصفات في حياة الانسان العربي، ولكن بعد أن أساء استعمالها في المحل المناسب، عادت وبالاً عليه، فتحولت شجاعته الى الفتك بالابرياء، وجوده الى اسراف وتبذير، وأنفته الى حمية جاهلية، وذكاؤه الى صراع وايجاد الوسائل التي تهيّىء له ارتكاب الجرائم وتوفّر له اشباع شهواته».

يسترسل السيد هاشم هكذا في عرض الصور البشعة لعرب ما قبل الاسلام، كما يتصورها اولئك الكتّاب حتى يستنفد معظم ما كتبوه في هذا الصدد. . وحينئذ يقول موقفه من هذا كله: فلنقرأ موقفه:

«. . وفي عقيدتي أن هؤلاء الذين حاولوا أن يجعلوا من العرب في جاهليتهم الأولى والثانية لا تشبه إلا الوحوش الضارية في متاهات الأحراش والغابات، قد تخطّوا الواقع في احكامهم الى حدود الجور، وبالغوا في تجريحهم الى حدود الغلوّ والاسراف، ذلك لأن الباحث في تاريخهم لا يجد اكثر من بعض الفوارق بينهم، وبين غيرهم من الأمم كالفرس والرومان وغيرهما». . وهنا ينسب السيد تلك الفوارق القليلة الى «طبيعة الصحراء القاسية» من حيث كونها لا توفر لسكانها اسباب الاستقرار التي تستدعي التطور الحضاري. . ثم يتجاوز هذا العامل الطبيعي السلبي ليعرض مقابل ذلك جملة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت عوامل ايجابية ساعدت عرب ما قبل الاسلام على الدخول في ظروف التطور والاستفادة من اشكال التطور الحضاري الشائعة وقتئذ في العالم المحيط بهم والمتعامل معهم. . .

يستوقفنا هنا، خلال هذا النقاش الصدامي، أمران اثنان: أولهما، تصدي السيد هاشم معروف للرّد على ذلك الموقف الاعتباطي «اللاتاريخي» حيال عرب ما قبل الاسلام. . وأهمية المسألة هنا أن التصدي للرّد على هذا الموقف يأتي هذه المرة من موقعه الاسلامي نفسه، لا من موقعه القومي، فالسيد هاشم معروف يردّ هنا كمسلم مؤمن بالاسلام حقا وصدقا . وهو من هذا الموقع ذاته يتصدى لدفع تلك الخدعة الشائعة عن تاريخ العرب وتاريخ الاسلام كليهما. . فإن عرب ما قبل الاسلام هم انفسهم عرب الاسلام. وتاريخ هؤلاء هو الجزء الاساس من تاريخ الاسلام. .

أما ثاني الأمرين، فهو ان موقف السيد هاشم معروف هنا، ينهض على قاعدة صلبة راسخة تستمد صلابتها ورسوخها من كونها منطلقا صحيحا للتوجه نحو البحث العلمي. . . في هذا «التمهيد» لكتاب «سيرة المصطفى» يبرز السيد هاشم باحثاً يملك الاداة المعرفية والفهم العلمي للبحث بمنهجية واقعية، ويأخذ بهذه المنهجية بالفعل، ويرفض الأخذ بالاوهام والتصورات الذاتية في قراءة التاريخ. . . نجد هذه المنهجية الواقعية متبلورة بصفاء حين هو يأخذ، على مدى عشر صفحات من هذا «التمهيد» في تحليل الواقع التاريخي لحياة العرب قبل

الاسلام تحليلاً نقرأ خلاله مختلف الظروف والعوامل والعناصر والجوانب التاريخية المكونة لذلك الواقع بعلاقاته الداخلية والخارجية، وبشروط وجوده التاريخي . .

يستوقفنا السيد هاشم معروف مرة ثانية قبل أن نَصِل الى العالم الداخلي لكتابه «سيرة المصطفى» . . يستوقفنا «بالمقدمة» التي سبقت «التمهيد» . . وهي ليست مقدمة بالمعنى التقليدي المألوف . . إنها الى الابتهال أو المناجاة أقرب . . إنها تنويع ايماني إسلامي، ومنهجي واقعي في آن . . هنا أيضا موقف اقتحامي جديد، أو مواقف اقتحامية عدّة في مساحة تقلّ عن ثلاث صفحات . . والافضل لنا أن نُنصت اليه يناجي النبي المصطفى بهذا الصوت المضمّخ بتراب الارض . .

«ليست سيرتُك يا رسول الله، إلا قصة إنسان قد اتّسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم، فناضل وجاهد، ووقف بحزم وثبات وقوة، في وجه القوى الغاشمة المفترسة، من أجل الإخاء بين الناس، ومن أجل العدالة والحرية، ومن أجل المحبةِ والرحمة ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس بلا استثناء: الذين يؤمنون بك بنبوّتك ورسالتك، والذين لا يؤمنون بها على السواء».

«إن الملايين من المسلمين لا يعرفون عن سيرتك ورسالتك التي تشدّهم الى الارض وخيراتها في آن واحد . . إنهم لا يعرفون عنها إلا ما ألصق بها من القشور والخوارق والاساطير . . وهم إذ يعظمونك ويصلّون عليك ويسلّمون، يفعلون ذلك من تقليدٍ موروث بكلمات تدور على ألسنتهم في كل يوم مئات المرّات، ويحسبون أنهم عظّموك وقدّسوك إذا صلّوا وسلّموا عليك حتى ولو انحرفوا مع اطماعهم وشهواتهم عن تعاليمك وسيرتك ورسالتك التي تحدد الاسلام بالعمل لا بالقول وحده، وبالواقع لا بالشعارات الجوفاء، وبالتعاون مع الاخرين والعمل المخلص لخير الناس لا بالاستئثار واستغلال الانسان لأخيه الانسان».

« لقد اتخذوا من سيرتك قصة يتلونها يوم ميلادك ومبعثك صاغوها بكلمات ونعوت جوفاء تمتلىء بها حناجر أولئك الذين يتاجرون بميلادك ومبعثك ومعراجك لأغراض لا تمت الى الدين بصلة من الصلات، وانصرفوا عن واقعها

وجوهرها وما فيها من دروس وعظات. . كما انصرفوا عن اوامر قرآنك ونواهيه ومضامينه وما فيه من دعوة للجهاد والكفاح والصبر والتضحيات في سبيل الحق، والتمسك بمكارم الاخلاق. . لقد انصرفوا عن ذلك أو أكثر. . الى التغنّي به في الإذاعات من شرق الارض وغربها، وحتى من إذاعة اسرائيل وصوت بريطانيا وغيرها ممن يحاربون رسالتك وقرآنك لأنهما يشكلان خطراً على وجودهم واطماعهم ومصالحهم».

«لقد ضحيت كثيرا في سبيل الله وخير الانسان، وتحمّلت ما لا يطيقه احد من الناس، لتضع حداً للجشع والاستغلال والعنصرية، واستطعت بعد جهاد طويل ومرير أن تسيطر على تلك الأوضاع الفاسدة التي كان يعاني منها انسان ذلك العصر، ووضعت الحلول لكل ما يعترض البشرية من صعاب، ويعرقل مسيرتها نحو مستقبل أفضل يضمن لكل انسان عزّته وكرامته وسعادته في الدّارين (. . .) ونهيت الى الركون والاطمئنان الى الظالمين».

ذلك نموذج للنهج الاقتحامي الذي سلكه السيد هاشم معروف حتى في النوع الأول من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات التي تكتب في موضوعات كثرت الكتابة فيها إلى حد الاشباع. . فكيف، إذن، سيكون نهجه الاقتحامي في النوع الثاني من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات ذات الطابع التخصصي في العلم والمعرفة؟

نأخذ **أولاً** ـ من هذه المؤلفات كتاب «المبادىء العامة للفقه الجعفري».

الجانب الاستعراضي التاريخي لا يعنينا هنا من أمر الكتاب. وحده المنهج يعنينا، منهج البحث، والموقف الصدامي الاقتحامي الذي يتواصل مع المنهج. . ونحن نبدأ نرى هذا الوجه من الكتاب، منذ يبدأ المؤلف يعرض لمحة عن الوضع السياسي في عصر الامامين: محمد الباقر وجعفر الصادق. . خلال عرضه هذه اللمحة يلحظ أن المستشرق نيكلسون حين يضع فرقاً بين ثورة الخوارج الشهيرة وبين ثورة الموالي، يضع هذا الفرق على اساس أن الشيعة والخوارج لديهم حجّة تمنع الامويين من استخدام السّيف في وجههم، وهي المحافظة على القانون والنظام أو الاسلام. . أما الموالي فليس لهم هذا الحق. لذا

هم (أي الموالي) لا يملكون حجة تمنع الأمويين من استخدام السيف. . .

يتصدى السيد هاشم هنا لهذا النحو من التفريق، بالنقد والرد، لأنه يرى فيه خطأ، ويرى مصدر الخطأ جهلا بالنظام الذي فرضه الاسلام وأوجب على الحكام تطبيقه. . يعني بذلك «إن الاسلام لم يفرق بين لون ولون، ولا بين عنصر وعنصر، ولا بين السادة والعبيد، من حيث القانون والنظام العام، أو المبادىء الاسلامية، إلا في بعض الحقوق الخاصة بين الأسياد والعبيد. أما القانون أو الاسلام الذي كان الأمويون يستهترون بهما، فمن حق كل مواطن أن يحافظ عليهما ويرعاهما، لأنهما للجميع من غير فرق بين عنصر وعنصر. . . والحجة التي يملكها الخوارج والشيعة في وجه الأمويين يملكها الموالي ايضا»

هذا إذن موقف يتصل بالمنهج ويتواصل معه، فهو هنا يضع اساسا للدفاع عن المبادىء الثوابت للشريعة، وللدفاع ـ في الوقت نفسه ، ضمناً ـ عن حقوق الانسان التي هي المرجع والمصدر لتلك المبادىء الثوابت للشريعة. . وعلى هذا الاساس ذاته يأخذ الكتاب شرائح من الوضع السياسي في دولة الامويين ومن الظاهرات الاجتماعية، السلبية التي كان ينتجها هذا الوضع السياسي، والتي يقول السيد هاشم انه «كان لها أسوأ الأثر في نفوس الملايين من أبناء الشعب الذي كان الحكام يمتصّون دماءهم إذا نفذت اموالهم، وما ذلك إلا لإشباع شهواتهم». ثم يقول السيد: «وإذا اضفنا الى ذلك حِرمان الموالي حقوقهم المشروعة المفروضة لهم كمواطنين قد ساواهم الاسلام بغيرهم في الحقوق والواجبات وأضفنا ايضا اضطهاد الذمّيين ومعاملتهم بالعنف والقسوة، مع أن الاسلام قد ضمن لهم كرامتهم وحفظ دماءهم وأعراضهم وأموالهم، ثم اضفنا كذلك انغماسهم (أي الحكام الأمويين) بالشهوات والملذات حتى بلغ بهم الحال أن ينصرفوا عما هو مألوف عند العرب والمسلمين من العادات والتقاليد. .»، يقول: إذا اضفنا كل ذلك، وجدنا هذه الاسباب وغيرها هي الاساس في أن «شاع الاضطراب وعمّت الفوضى وانتشرت الفتن (. . .) واندلعت الثورة في انحاء البلاد شرقا وغربا. . .»

هنا يدخل السيد هاشم في عملية البحث الجادّ من طريق رَصده الاستقصائي لحركة الفعل ورد الفعل التاريخيين، أي المعبّرين عن حركة الصراع الاجتماعي في السطح وفي العمق... بهذه المنهجية الواقعية، ذات النبض التاريخي، يؤسس للبحث الاقتحامي في المبادىء العامة للفقه الاسلامي الجعفري. وحين يصل الى هذه المبادىء ذاتها بالتحديد والتعيين، نجده قد أكمل عملية التأسيس، بحيث أصبحت كل المبادىء العامة هذه محكومة بالمبدأ الاساس: مصلحة المجتمع... نرى ذلك يتجلى - مثلا - بمبدأ **تحريم الاحتكار**... يقول السيد هنا إن الفقه الاسلامي الجعفري قد تعرّض الى كل ما يتصل بحياة الانسان ويضمن له الراحة والسعادة» ... ثم يبادر الى وضع اعتراض يتعلق بنظرية الحرية آتياً من الفئات الاجتماعية التي يُضر مبدأ تحريم الاحتكار بمصلحتها، أي فئات التجار الاحتكاريين. والاعتراض هو أن مبدأ تحريم الاحتكار يتنافى مع مبدأ تشريعي آخر يقول بحق كل انسان في حرية التصرف بنفسه وبماله...

السيد هاشم يدفع هذا الاعتراض بأنه «إن كان الاسلام يعلن أن للانسان حُرّيته على نفسه وماله، هو - من جهة أخرى - يحد من حريته وسلطته على ماله وتصرفاته حين تكون هذه الحرية «مزاحمة لحقوق الأخرين في الحياة»، وهو - أي الاسلام - ينكر أشد الانكار أن يندفع بعض الافراد بدافع من أنانيتهم وشرههم الى استغلال الغير والاثراء من أقوات الشعب وضرورياته... من أجل ذلك نَهى الاسلام عن الاحتكار، وحدد موقف التجار من الاسواق»

وانطلاقا من موقف الدقة في البحث، ومن موقف الورع الفقهي، حَرَص السيد على تحديد المفهوم التشريعي الاسلامي للاحتكار. فإذا هو يحدده على النحو الآتي: ... «أن يقوم فرد أو جماعة بشراء نوع من الحاجيات التي هي في معرض الاستهلاك، وبعد شرائها ينتظر في بيعها الربح الفاحش، مما يؤدي الى ايقاع الضرر بالمستهلكين، وعلى الاخص الطبقات الفقيرة»

على أن هناك اختلافا في الحكم بالاحتكار يرجع الى اختلاف في تقدير نسبة حاجة الناس الى المادة المحبوسة عنهم، ومبلغ تأثير احتكارها على الحالة

العامة. قد يكون الاحتكار مكروها وقد يكون كرماً... وفي بعض الحالات يجب انتزاع المادة المحتكرة من مالكها قهراً لسدّ حاجة الناس اليها... أما الحكم بكراهية الاحتكار دون تحريمه، فذلك في حالة كونه لا يوجب الاضرار بالغير، وكون المادة الاستهلاكية موجودة في السوق، بمعنى انها مبذولة ولا يؤدي إمساكها الى ارتفاع سعرها والاضرار بالمستهلكين... يقول السيد هاشم هنا إن فقهاء الشيعة يجمعون انه يجب على الحاكم أن يجبر المحتكر مع الحاجة على عرض الطعام في الاسواق. ومصدر هذا الحكم الاجماعي هو أن الإمام علياً مرّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج الى الاسواق... وبعض فقهاء الشيعة يرى أن على الحاكم أن يضع سعراً محدداً يتفق مع مصلحة المستهلك والمستورد في مثل هذه الحالات، ولا يكفي مجرد عرض البضاعة في الاسواق، لأن ذلك وحده لا يرفع الضرر عن المستهلكين، بجواز أن يتحكم التجار في الاسواق بما يحقق لهم جشعهم ويضر بالمجموع

وفي معرض الكلام على مبدأ الزواج من الكتابيات، يعرض السيد هاشم اجتهادات عدة لفقهاء الشيعة في هذا الباب، ثم يستطرد الى قضية الاجتهاد نفسها، فيرى ان الاجتهاد عند الشيعة فسح المجال لكل فرد أن يحكم بما يفهم من النصوص الاسلامية، ولا يتقيّد برأي أحدٍ وفهمه، مهما بلغ من العظمة في العلم، وقد كان الحال على ذلك بين الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الاربعة (المصدر السابق).

وفي كتابه «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يعود السيد الى مسألة الاجتهاد عند الشيعة فيؤكد كلامه السابق، ويضيف اليه - أولاً - تحديد مفهوم الاجتهاد بانه بذل الجهد في سبيل تحصيل العلم والظن بالأحكام بطريق التتبع والدراسة واستقصاء الأدلة على نحوٍ يصبح الانسان قادرا على استنباط الاحكام من أدلّتها.. ويضيف - ثانياً - مسألة وجوب الاجتهاد على كل مسلم يناله التكليف الشرعي، أي أن الوجود هنا وجوب عيني يتوجه الى كل فرد بعينه دون استثناء، لكن تمنع من الوجوب العيني هذا أن تنفيذه يؤدي الى العسر والحرج للناس، والى اختلال النظام الاجتماعي العام، لأن طلب الاجتهاد يستلزم التفرغ من

سائر الأعمال المنتجة وغيرها . . في حين أن التفرّغ هكذا يعطل حركة العمل والنشاط الاجتماعي، فيقع العسر والحرج ويختلّ نظام الحياة . . . فينتج إذن أن الاجتهاد واجب وجوباً كفائياً أي أن قيام البعض به يكفي في تحقيق الغاية منه، وهي استمرارية حركة التشريع مع استمرارية تجدد الحياة (راجع نظرية العقد . . .) .

كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يطرح مسألة أخرى ذات شأن كبير في هذه المرحلة من عصرنا يقف السيد المؤلف منها موقفا اقتحامياً بحق، حين هو يعرضها بطريقته الاستقصائية الواثقة والمتعاطفة مع موضوعها . . . المسألة هنا هي مسألة «العقود المستحدثة» . . أي عقود التعامل بين الناس في العصر الحاضر خصوصا «التي لا ينطبق عليها أحد العناوين المدونة في كتب الفقه الاسلامي» . . إشكالية المسألة تتحدد بوضع السؤال الآتي :

ـ هل العقود المدونة في كتب الفقه هي المرجع في عصرنا، بحيث يكون كل عقدٍ أو تعامُل باطلاً لمجرد كونه لا ينطبق عليه واحد من العقود أو اشكال التعامل المقررة سابقا في فقه المسلمين الأولين؟

هذه الاشكالية يضعها السيد هاشم معروف مقتحما مجالها بسلاح العلم وسلاح الثقة بالعلم . . يبدأ معالجة الاشكالية بوضع الجانب الأخر من السؤال : هل العقود المقررة سابقا قد أقرّها التشريع الاسلامي : كتاباً وسنة، ودوّنها الفقهاء في مجاميعهم، لا لخصوصيته بها، ولا لأن الطريق الى التعامل والاتجار والتكسب يجب أن لا يتخطاها، بل لأن التعامل بين الناس في الغالب، في عصور التشريع وما بعده، لم يتعدَّ هذه الأنواع من العقود، ولازم ذلك أن الظروف والحضارات التي تختلف باختلاف العصور، إذا اقتضت نوعا آخر للتعامل والاتجار لا يخل بالنظام ولا بالآداب العامة، يكون مصداقا للعقود التي أقرّها التشريع الاسلامي في الكتاب والسنّة . . .

إن وضع المسألة بهذه الصيغة/ السؤال، يضعنا على طريق حل الاشكالية باتجاهه الاقتحامي . . فالسيد المؤلف ـ بادىء الأمر ـ يجد المبدأ العام في القوانين

المدنية المعاصرة يقضي بأن جميع الاتفاقات والالتزامات، مهما كان نوعها وبأي شكل وجدت، هي من العقود، وتصبح نافذة لدى المتعاقدين، إذا لم تخالف القانون والنظام العام. . ثم يجد السيد هاشم «من المستصعب أن ننتزع هذا المبدأ العام من الفقه الاسلامي» لعدم وجود النصوص والقواعد العامة التي تسمح بإدخال كل ما هو مستحدث في النصوص التي أقرّت العقود السابقة وأقرّت بالوفاء بها. . . لكن، بعد هذه التحفظات في المسألة، نجد السيد هاشم يتجه الى التيسير، أي الى العمل بما تقتضيه طبيعة ظروفنا المعاصرة، أي الى اثبات مشروعية العقود المستحدثة، استنادا الى أن النصوص الاسلامية لم ترد فيها ما يقتضي حصر العقود في نوع أو صنف بخصوصه، ولم تعيّن نوع العقد والبيع والتجارة، بل أمرت بالوفاء بالعقود، وأحلت التجارات، وفرضت على المسلمين أن يلتزموا بشروطهم والتزاماتهم، من غير أن تتعرض لأنواع تلك العقود واصنافها، ولا لماهية التجارة وكيفيتها، ولا لشكل الالتزام وموضوعه». .
هذا الموقف الاجتهادي الأخذ بعمومية النصوص كتابا وسنة، يدعمه السيد المؤلف بالتوجه السمح الذي يقول هكذا:

« . . . ومعلوم أن الناس، قبل عصر التشريع، كانوا يتعاملون بينهم بالبيع والشراء، ويتعاقدون بجميع الأنواع الشائعة في ذلك العصر وقبله، فلا بد أن يكون الذي يجب عليهم الوفاء به، والبيع المحل لهم، والتجارة المسوّغة لأكل المال، والالزام الذي يجب تنفيذه، وهو ما يسمّيه الناس عقداً وبيعاً وتجارةً والتزاماً في عصرهم، وفي جميع العصور، حسب حاجات الزمن ومقتضيات الحياة. . . وكل ما في الأمر أن الحاجة لم تدع في عصر التشريع وقبله الا لتلك الاصناف من العقود، فإذا دَعت في عصر من العصور الى صنف من العقود، كما حدث بالفعل في عصورنا المتأخرة، يكون المستحدث فردا (مصداقاً) للعقد الذي يجب الوفاء به بمقتضى نصّ الآية: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾، ثم يلخّص السيد موقفه الاجتهادي في المسألة قائلاً:

« . . . وبتعبير أكثر وضوحا، إنه بعد أن فرضنا ان المشرّع لم يخترع أنواعا وأصولا للتعامل تسمّى بيعاً وعقداً وتجارة. وما دام الأمر متروكا الى العرف، لكلّ

ما تفرضه حاجة المجتمع ويستعمله الناس ويسمّونه عقداً، يكون مشمولا لتلك الأدلة العامة التي جاءت لامضاء ما هو متعارف بين الناس في مقام التعامل والاتجار» (راجع كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري»

أطلنا الوقوف عند هذه المسألة، لأهمية المسألة بذاتها في زمننا هذا بالاخص، أولا. . . ولأهمية الموقف الاجتهادي الاقتحامي للسيد هاشم معروف من هذه المسألة، ثانيا. . . ولأهمية ما يقدمه السيد هنا من منهجيته المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة ثالثا. .

والسيد هاشم معروف: انساناً وباحثا، هو طالب الحقيقة وهو عاشق الحقيقة. . . ولأنه يجمع بين الطالب والعاشق في موضوع واحد، هو الحقيقة، لم يكن محايدا، لأن الحياد يناقض العشق، لأن الحياد نفي للعشق، لأن الحياد نفي للذات. . . نفي للقضية. . أي نفي للحقيقة نفسها . .

لم يكن السيد هاشم معروف، كإنسان وباحث، محايدا، كان منحازا لموضوع عشقه الذي هو موضوع علمه. . . كان منحازا لحقيقته التي وضع بتصرّفها كل حالات الانسان والباحث فيه. . . حقيقته هذه اثنان في وحدة. . . وحدة متكاملة وصلبة. . . الاثنان هما: الشيعة والمعرفة. . كل كتبه الأربعة والعشرون المطبوعة: دفاع عن الشيعة، وعطاء سخيٌّ للمعرفة. . هو هكذا، واكثر سطوعا، في كتابيه: «الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة» و«بين التصوّف والتشيّع». . الأول منهما: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة لكل من الاشاعرة والمعتزلة، ردّاً على خطأ شائع يساوي الشيعة بالمعتزلة. . . لكن الكتاب نفسه دَفق غزير وشهيّ من المعرفة، معرفة الفِرق الاسلامية السياسية وعوامل نشأتها، مع توسع في بحث تاريخ المعتزلة والاشاعرة والمرجئة وسائر الفِرق والمذاهب، وبحث آرائها ومعتقداتها، مع بحث مستفيض في مقارنة كل من هذه الآراء والمعتقدات بآراء الشيعة الامامية ومعتقداتها. .

أما كتاب «بين التصوف والتشيع» فهو كذلك: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة للمتصوفة وللفكر الصوفي، ردا أيضا على خطأ شائع بأن التشيع رافد من

أوسع الر افد التي انطلق منها التصوف وانتشر في الاوساط الاسلامية. . . لكن الكتاب مع ذلك يشكل مرجعاً غنياً وموفقاً وأميناً لدراسة حركة التصوف في الاسلام والمجتمع العربي ـ الاسلامي خلال العصر الوسيط وما بعده. . وهو كتاب يقدم فيضاً من المعرفة يوفّر حتى للباحثين مادة معرفية في الموضوع معروضة بمنهجية واقعية وبتعميق بحثي مثير.

السيد هاشم معروف: انساناً وباحثاً اسلامياً، هو من عاش فيه كل من الانسان والباحث بورع عظيم. . كان ورع الباحث فيه عظيما بقدر ما كان ورع الانسان فيه عظيما.

سلام عليك أبداً أيها الصديق الذي مَنَحتني رفقته نعمة الفرحين معا: فرح الصداقة، وفرح المعرفة. . وهذه كتبك تمنحني اليوم فرح اللقاء بك من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن المقاومة الوطنية زارعة النار والنور في تراب الجنوب ليدحر العدوّين: اسرائيل، واليأس من دحر اسرائيل. . . إنه الفرح الساطع أن نلقاك اليوم من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن انتفاض التراب الجنوبي دفاعا عن شرف الانسان في لبنان، وفي كل مكان.

رفيق الدراسة
صديق المؤلف



في هذا الكتاب

في هـذا الكتاب عـرض ودراسة لبعض الجـوانب من سيـرة الأئمـة الاثني عشـر (ع) وما قـدموه من بـذل وعطاء وتضحيـات لخير الإنسـان ومواقفهم من حكام زمانهم التي كلفتهم راحتهم وحيـاتهم فبذلـوها راضـين مطمئنـين في سبيل مجتمـع أفضل وانسـان انضل وحـاكم أفضل ووقفت حيث اقتضت الحـاجة مـع بعض المرويات والأحداث التاريخية التي لم تسلم من أيدي الدساسين والحاكمـين واتبـاعهم ملتزمـا الحياد والتجـرد في كل مـا كتبتـه ووقفت عنـده من المـرويـات والأحداث وأرجو أن أكون قد وفقت لذلك .



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على صفوة الخلق محمد واله الهداة المهديين الذين اجتباهم الله من خلقه وجعلهم الأدلاء على طاعته والدعاة إلى سبيله ورحمته وبركاته .

وبعد لقد كنت أفكر في الكتابة عن سيرة الأئمة الاثني عشر ، وأتمنى أن أوفق للقيام بذلك ، وقد تبلورت لديّ الفكرة وأيقنت برجحانها عندما وجدت وأنا أدرس سيرة النبي (ص) وأكتب فيها ، ان الذين دونوا الاثار الإسلامية في عصور التدوين الأولى لم تعنهم الحقائق اكثر من ارضاء عواطفهم المذهبية وتفاعلهم مع الفئات السياسية يوم كانت سياسة الحاكمين تجري لدى اكثر المسلمين مجرى الدين ، وأحسب اني بعد قناعتي بهذه الأفكار قد استطعت إلى حد ما أن أكتب سيرة النبي بعد دراسة موضوعية لاكثر المراحل التي مرت بها الدعوة من بدايتها إلى اخر مرحلة منها وخرجت منها بأفكار لعل أكثرها جديد على القراء اوحتها إليّ دراستي للأحداث التي فرضتها الظروف والملابسات خلال تلك الفترة من التاريخ ، ملتزماً في ذلك جانب الحياد في كل ما كنت اقف عنده من المواضيع وافكر فيه .

وإن كنت لا أزعم ان التزام النزاهة والحياد التام في موضوع يتعلق بالعقيدة بالأمر اليسير ، ولكنها محاولة أرجو أن أكون صادقاً بها كما أرجو أن لا

ينظر القراء إلى ما احسبه جديداً فيها من الزاوية التي اعتادوا أن ينظروا التاريخ ويحكموا عليه من خلالها .

وبعد فراغي من سيرة النبي (ص) أحسست من جديد وكأني مدفوع على المضي في الكتابة عن الأئمة الاثني عشر وفاء لحقهم ولأن سيرتهم امتداد لسيرة النبي ومن معينه كانوا يغرفون ، وقد اعترضتهم أحداث قاسية بسبب مواقفهم من أحفاد اولئك الذين اعترضوا الدعوة وحاربوها منذ أن بزغ فجرها حتى استنفدوا جميع امكانياتهم في هذا السبيل .

لقد وقف الأئمة من أهل البيت من أحفاد ابي سفيان والحكم بن العاص والعباس بن عبد المطلب ومن كل حاكم ظالم ومستغل شره ومنافق مضلل نفس الموقف الذي وقفه جدهم المصطفى من طغاة قريش وجبابرة مكة ويهود بني قريظة وتحدثوا عن الحرية والعبودية والغنى والفقر والعدل والظلم والجهل والعلم والحرب والسلم ، ووقفوا إلى جانب المظلومين والمستضعفين والأتقياء والصالحين والفقراء والمعذبين ومع العلم والسلم ، ووضعوا مع ذلك أسس النضال في سبيل عالم افضل وانسان افضل وحاكم افضل ومجتمع أفضل لانقاذ البشرية مما تعانيه من الفقر والجهل والظلم والعبودية والاستغلال وعالجوا جميع مشاكل الحياة بالحلول السليمة التي تتفق مع كل زمان ومكان ، وتركوا من العلم والفضائل والاثار في شتى المجالات ما لا تتسع له المجلدات الكبار ، وما أكثر ما تركوه للانسان أنى وجد وأين كان ، وليس ذلك بغريب عليهم وقد اخذوا عن علي ما اخذه عن النبي (ص) وقد اخذ عنه ألف باب من العلم ، وفتح الله له في كل باب الف باب ،وجعلهم النبي (ص) كالقران لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض وفي القران تبيان كل شيء .

لقد كابد الأئمة من أهل البيت من الحكام وأجهزتهم شتى أنواع المصائب والمحن ، وظلوا يكابدون حتى رحلوا عن الدنيا بين قتيل وسجين وأسير اقامة فرضت عليه ليبقى قريباً من الحكام الذين كانوا يحصون عليهم وعلى شيعتهم الأنفاس ، وكابدوا من المندسين في صفوف شيعتهم ليفسدوا عليهم أمرهم ويشوهوا تعاليم الإسلام بما أدخلوه بين آثارهم من البدع والاساطير ، وكابدوا

حتى من المحبـين الذين نسبـوا اليهم ما لم يصنعـوه وقالـوا فيهم ما لم يقـولـوه في انفسهم ، وكـانوا يتلوون من أولئـك وهؤلاء ويقولـون : والله مـا النـاصب لنـا العداء بأشد علينا ممن قال فينا ما لم نقله في انفسنا ، ويقولون : مـا جاءكم عنـا مما يجوز أن يكون من المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردوه الينـا ، وما جاءكم عنا مما لا يجوز أن يكون من المخلوقين فاجحدوه ولا تردوه الينا .

ولعلهم وهم في مـراقدهم يكـابدون ممن جمعـوا مـا رواه الـرواة عنهم من الآثار ودوّنوا جميع ما ينسب إليهم من الأقـوال والافعال بنيـة حسنة كـما أعتقد ، بدون غربلة وتمحيص ليظهر الحصى من الجوهر والدر من الصدف . هؤلاء على ما بذلوا من جهد مشكور قد امـدوا أعداء الإسـلام والحاقـدين عليه وعـلى أهل البيت (ع) بالسلاح ويسروا لهم بث سمومهم وتشويه العقيـدة الشيعية كـما يبدو ذلك من مؤلفاتهم التي تصدر بين الحين والآخر .

وسواء كتب هؤلاء بنية حسنة أم سيئة فهم يعتمدون فيما نسبوه إلى الشيعة وما ألصقوه بأئمة الشيعة على تلك المرويات المنتشرة في مجاميـع الحديث التي بـين أيدينا ، والتي لا يزال بعض التجار المتسببين إلى أهل البيت يعيدون طباعتهـا بما هي عليه ويهتمون باخراجهـا بثوب أنيق بـرّاق يتناسب مـع الزمن متجـاهلين ما فيها من المرويات التي تسيء إلى الشيعة وأئمتهم ولو بإشارة توحي بذلك .

وحتى أن الذين يكتبون عن الائمة في عصرنا هذا من الشيعة يكررون مـا قاله الكليني والصدوق والمفيد وغيـرهم من مئات السنـين لفظاً ومعناً وتـرتيباً ولم يأخذوا بعـين الاعتبار أن أولئـك قد كتبـوا ما كتبـوه وبذلـوا ما بـذلوه من جهـد مشكـور كان يتفق مـع عصرهم وكـان السبيل الأفضـل للتعبير عن واقعهم يـوم ذاك .

أما بعد ان طرأت على العقول والأفكار تلك التطوّرات ، وأصبح الانسان في عقله وتفكيـره ونظرتـه إلى الحياة غـريباً عن انسـان ذلك العصـر ، فلم يعـد التعبير عن عظمة الاشخاص بذلك الأسلوب وبالمعجزات والغيبيـات مقبولاً ولا مجدياً ، ولا بد من دراسة حياة العظيم على ضوء مـا جدّ من أحـداث وتطورات وما تركه من آثار ، وآثار أهل البيت (ع) أغنى بالأدلة على عظمنهم من الغيبيات

والكرامات ، ولا اكـون مغاليـاً إذا قلت : ان بامكـان الباحث أن يستخـرج من سيرتهم وآثارهم من الكرامات ما يباهي به عباقرة العصور مهما بلغوا من الشـأن والمكانة .

ولـو كان لغـير الشيعة مثـل علي والأئمـة من بنيه لـملأوا الكون بمفـاخرهم وآثارهم واستخرجوا منها كنوزا من الأسرار والمثل لا تحصى . لقد قال الحفناوي في كتابه الذي وضعه في ابي سفيان ، والشيخ الخضري في محاضـراته : ان قـول الرسول من دخـل دار ابي سفيان فهـو آمن ، لشرفٍ عـظيم لم ينله احد مثله إلى الآن في حين أن كل من يتتبـع سيرة النبي (ص) وأسلوبـه الذي اختـاره في نشر الـدعوة يعلم بـأنه قـالها لمنـاسبة خـاصة وحتى يستـدرج قريشـاً وأهالي مكـة إلى التسليم وعدم اراقة الـدماء ، مـع العلم بأنـه قال في نفس الـوقت من دخل دار حكيم بن حـزام فهو آمن ومن القى سـلاحه فهـو آمن ، ومن دخـل داره وأغلق عليـه بابـه فهو آمن . ومـع كل ذلـك فان شـرف ابي سفيـان لم ينله أحـد عنـد الخضري والحفناوي وغيرهما من شيوخ بعض السنة حتى عـلي بن أبي طالب (ع) الذي قال فيه النبي في عشرات المناسبات ما قال باجماع السنّة والشيعة وقـد حمله على منكبيه يوم ذاك ليحطم الاصنام التي كان يعبـدها أبـو سفيان وظـل يعبدهـا حتى مات كافراً بمحمد ورب محمد (ص) .

ومهما كان الحال فلقد وفقني الله لابراز بعض النواحي من سيـرتهم حسب طـاقتي وامكانيـاتي المحدودة وأحسست بـالغبطة والسعـادة بعد فـراغي منهـا لان سيرتهم تذكر بالله وتحيي النفوس الميتة كما تحيي الأرض وتنبت من كل زوج بهيج بغيث السماء وبمقدار ما يأخذ الانسان من علومهم ويتـأثر بسيـرتهم يأخـذ نصيبه من العظمة والخلود

لقـد برز في كـل عصر مئـات العلماء من شيعتهم تنحني الرؤوس إجـلالاً لقـدرهم ومقامهم ويـرتبط تاريـخ أكثر العلوم بتـاريخهم ، ولم يبلغوا هـذا المقام الرفيع إلا لأنهم تخرّجوا من مدرسة أهل البيت وتأثروا بسيرتهم وتعـاليمهم ولولا ذلك لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

ولا أدعي بأني قد جئت بجديد وأحطت بسيرتهم من كل جوانبها وأدركت

أسـرارها وغـوامضها ، لا أدعي ذلـك لأن الإحاطـة بسيرتهم وأسـرارهـا ليست بـالأمر اليسـير على من لم يـدرك واقعهم ولا أحسب أن ادراكـه ميسـور لغـير من اجتباهم الله واصطفاهم من خلقه .

وكل ما أدعيه هو اني قـد كتبت في سيرتهم وحـاولت ابراز بعض نـواحيها وأرجو ان اكون قد وفقت لذلـك ، كما حـاولت أن أختصر جهـدي فاختصـرت حيث وجدت مجالا لذلك ، واضطرتني الأحداث التـاريخية والـظروف السياسيـة التي رافقت حياة بعضهم وتلاعب المؤرخـين بحقائق التـاريخ وتحـريفه لمصلحـة الحاكمين ، لقـد اضطرني ذلـك إلى الاطالـة احيانـا حيث لم اجد عنهـا بديـلا ، لذلك أخرجته في مجلدين وافتتحت الأول منهـما بالحـديث عن الصديقـة الكبرى الصحابية الأولى خديجة بنت خويلد وفاء لحقها على كل مسلم وتقديـراً لخدمـاتها الجليلة التي قـدمتها لـلإسلام وتضحيـاتها في سبيله بكـل مالهـا وراحتهـا ، وعن الصديقة الزهراء التي ساهمت كأمها في خدمة النبي والإسلام وبذلت كل راحتها في هذا السبيل بعد ان فارقت أمها الحياة ، وصارت بعد ذلـك أمّاً لأكـرم عشرة عرفها التاريخ ، وبعد ذلك دخلت في سيرتهم على التوالي .

واني إذ أقدم اليهم هذه اللمحات من تاريخهم أقدمها وأنا أردد تارة مقـالة أخوة يوسف حينـما وفدوا عليـه بعد أن اجتبـاه الله وأكرمـه بالنبـوة كما حكى الله عنهم في كتابه :

● **﴿ يا أيها العزيز مسّنـا وأهلنا الضـر وجئنا ببضـاعة مـزجاة فـأوف لنا الكيل وتصدّق علينا أن الله يجزي المتصدقين ﴾ .**

وأخرى مقالة شاعرهم :

آل بـيت الـنبـي انـتـم غـيـاثـي	في حـيـاتي وعـدتي لـمـعـادي
مـا تـزودت لـلقـيـامـة إلا	صفـو ودي لكم وحسن اعتقـادي

والحمد لله الذي هدانا لولايتهم وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

المؤلف

هاشم معروف


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

من المتفق عليه بين المؤرخين والمحدثين أن كلمة أهل البيت الواردة في الكتاب الكريم وسنّة الرسول العظيم في عشرات المناسبات لا تعني خصوص ما لها من المعنى العرفي أو اللغوي ، بل أريد منها معنى أخص من ذلك لا يتعدى عليا وفاطمة ومن تناسل منهما من الأئمة الاطهار عند عامة الشيعة وأكثر محدثي السنّة وعلمائهم ، وعند الفريق الآخر من محدثي السنّة الذين وقفوا بجانب المفهوم العرفي واللغوي وتجاهلوا الظروف والملابسات والقرائن التي احاطت بهذه الكلمة في موارد استعمالها في الكتاب والسنّة والتي تعني ذرية الرسول منها لا غير ، هؤلاء وغيرهم ممن حاولوا تخصيصها بنسائه أو بهم وبغيرهم من آله لم يعتمدوا على منطق معقول أو سنّة مقبولة بل كانوا مسّيرين بدوافع أخرى ليست بعيدة عن التعصب والحقد على أهل البيت وشيعتهم كما هو شأنهم في تحوير وتأويل جميع ما ورد عن النبي (ص) في فضائل علي وبنيه ومصير الخلافة الاسلامية كما سنثبت ذلك بالارقام خلال الفصول الآتية من هذا الكتاب . كما وان الآية الكريمة من سورة الاحزاب التي اشتملت على كلمتي اهل البيت وإن كان موردها الخمسة اصحاب الكساء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) كما فهم منها ذلك اكثر المحدثين والمفسرين لكتاب الله إلا أن استعمال النبي (ص) لهذه الكلمة يعطيها معنى أوسع من ذلك يتسع للائمة الاثني عشر الذين يدين الشيعة بإمامتهم والبراءة من أعدائهم ، فقد جاء عنه أنه قال اكثر من مرة : اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا . وفي رواية ثانية : فانظروا كيف تخلفوني فيهما . فقد قرن

النبي (ص) أهل بيته إلى كتاب الله وجعلهم عدلا لـه يهتدي بهم الحـائرون كـما يهتدون به ويسترشد بهم الضالون كما يسترشدون بأحكامه وتـوجيهاتـه وتعاليمـه ولن يضل المقتدي بهم والموالي لهم لانهم يعكسون في سلوكهم وأقـوالهم وأفعالهم مبادىء القرآن وسنّة الرسول وسيرته ويجسدون الإسلام بكل ما يهدف إليه بدقـة وأمانة واخلاص ، وبلا شك فإن العترة الطاهرة التي قرنها النبي (ص) بـالكتاب ولن يضل المتمسك بها والموالي لها لا تنطبق إلا على الأئمة الاثني عشر الذين نوّه الرسول عنهم في مختلف المناسبات وذكرهم باسمائهم كما جاء في كثير من المرويات عن الأئمة وغيرهم .

ومجمل القول أن القرآن الكريم قد سبق السنّة في استعمال هذه الكلمة في الأقربين من آل النبي (ص) ودريته ولا بد لنا ونحن بصدد الحديث عن سيرة الائمة من اهل البيت من الرجوع إلى مصادر هذه الكلمة في الكتاب والسنّة وما تعنيه ودراسة موارد استعمالها وما أحيط بها من الملابسات دراسة موضوعية بروح بعيدة عن التعصب والهوى لكشف المراد منها .

فقد ورد في الآية رقم ٣٣ من سورة الاحزاب :

● **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .**

والخطاب في الآية التي قبلها لنساء النبي (ص) بلا شك في ذلـك ، حيث جاء فيها :

● **يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً .**

كـما وان صدر الآيـة السابقـة والآيات التي بعـدهـا رقم ٣٤ لنسـاء النبي وحـدهن بدليـل نون الإنـاث المقترن بجميـع الأفعال والصيـغ الموجـودة في هذه الآيات ، وبهذه الملابسات تكون الفقرة الأخيرة من الآية رقم ٣٣ وهي ﴿**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ وكأنها غير منسجمة مع

الآيات التي قبلها وحتى مع صدرها والآيات التي بعدها ، وبلا شك فانها لا تعني زوجاته بل تعني أهل بيته الذين دخلوا معه في كسائه ، ولو كانت تعنيهن لوجب حسب السياق والقواعد الحاق ضميرهن بنون الإناث بأن يقول : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن تطهيراً ﴾ .

هذا بالاضافة إلى أن الآية تنص على أنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم منه ، والرجس هو كل ما لا يرضي الله سبحانه من الخطايا والذنوب ، والتطهير بهذا المعنى يرادف العصمة وزوجات النبي (ص) لسن بهذا المستوى الرفيع كما أجمع على ذلك المؤرخون والمحدثون فقد أسأن اليه في حياته مرارا حتى اعتزلهن شهرا كاملا وهددهن بالطلاق ووقف على مقربة من حجرة احداهن يوما ومعه جماعة من اصحابه وقال مشيرا بيده إلى حجرتها .من ها هنا تخرج الفتنة ، ومرة ثانية وقف الى جانب حجرتها وقال : من ها هنا مشيرا اليها يطلع قرن الشيطان كما جاء في رواية البخاري جـ ٢ صفحة ١٨٩ .

ومن بقي منهن بعد وفاته لم يكن بالمستوى المطلوب من سائر نساء المؤمنين فضلاً عن نسائه اللواتي اراد منهن أن يكن القدوة الصالحة لغيرهن من النساء كما تنص على ذلك الآيات السابقة إذا استثنينا السيدة الجليلة ام سلمة رضوان الله عليها التي التزمت بيتها وعاشت من بعده زمنا طويلاً مثالاً كريماً للمرأة المسلمة التي وهبت حياتها لله وخير الناس أجمعين . في حين أن غيرها ممن بقين بعده من نسائه قد اشتركن فيما جرى بعده من الفتن والمشاحنات وبالتالي ارادت احداهن أن تكون في عداد الأبطال الذين يديرون المعارك ويستبيحون كل شيء للخروج منها ظافرين منتصرين ، فقادت جيشا لحرب إمام المسلمين من المدينة إلى البصرة تستبيح الدماء والأموال ، وكانت تلك المعركة التي كانت ولا تزال من أبرز الأحداث الداخلية الأولى في حياة المسلمين الاوائل ، والتي مهدت لمعاوية بن هند أن يستعصي بمن معه في الشام ويعتصم بها ومن ثم يطمع بالخلافة الاسلامية ويقاتل من اجلها بمن معه ممن غرر بهم وضللتهم مواقف السيدة عائشة في البصرة والمدينة وكانت المعارك الطاحنة في صفين وغيرها التي ذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين وأحدثت تحولا في تاريخهم كانت له اسوأ الآثار والنتائج في مختلف الميادين .

ومجمل القول : ان الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم هم أهل بيت النبي بلا شك في ذلك كما وان اختصاصها بعلي وفاطمة وبنيهما الاطهار قد ذهب اليه عامة الشيعة وأكثر محدثي السنّة ، ولم يذهب احد الى اختصاصها بنساء النبي (ص) . سوى عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، وليس ذلك بغريب عليه بعد ان اشتهر بالكذب ووضع الاحاديث ، وتبنى افكار الخوارج ودعا اليها في المغرب العربي كما تنص على ذلك المصادر التي تعرضت لتاريخه وهو المؤسّس الأول لمذهب الأزارقة من الخوارج في تلك البلاد الذي كان ولا يزال حتى اليوم وكان قد استغل ملازمته لعبد الله فنسب إليه جميع موضوعاته حتى اضطر ولده علي بن عبد الله إلى جلده وحبسه في الكنيف كما جاء ذلك في تاريخ حياته .

كما روي نزولها في نساء النبي مقاتل وهو من فصيلة عكرمة ومن المعروفين بالنصب والعداء لعلي وآله ، وقد عده النسائي من الكذابين المعروفين بوضع الأحاديث ، وقال الجوزجاني كما في ترجمته في ميزان الاعتدال : كان مقاتل كذابا جسورا يقول لأبي جعفر المنصور انظر ما تحب أن أحدثه فيك حتى أحدثه .

وقال للمهدي العباسي : ان شئت وصفت لك احاديث في العباس قال لا حاجة لي فيها . وإذا كان هو وزميله عكرمة بهذا المستوى عند المحدثين فالأمر في رأيهما وروايتهما لا يحتاج لاطالة الحديث وبخاصة إذا كان حديثهما عن علي وبنيه ، ومن ذلك تبين ان اختصاص الآية بنساء النبي لا مصدر له على ما يبدو من المصادر المعدة لهذه المواضيع الا عكرمة ومقاتل وهما من غير الموثقين حتى عند علماء السنّة ومحدثيهم ، والقولان الرئيسيان فيها هو أنها هل تعني النبي وعليا وفاطمة والحسنين لا غير كما أجمع على ذلك الشيعة وجمع كبير من متحدثي السنّة ، أو انها تعني بالاضافة اليهم نساءه كما ذهب إلى ذلك جماعة من محدثي السنّة ومفسريهم .

وإلى جانب هذه الأقوال أقوال اخرى منها أن المراد بأهل البيت في الآية جميع بني هاشم ، ونسب ابن حجر الهيثمي في صواعقه هذا القول إلى الثعلبي وأيده بحديث وصفه بالحسن جاء فيه أن النبي (ص) اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : يا ربي هذا عمي وصنو ابي وهؤلاء أهل بيته فاسترهم من النار

كستري اياهم بملاءتي ، ومضى يقول : والحاصل أن أهل بيت السكن داخلون في الآية لانهم المخاطبون بها (يعني بذلك أزواجه) ، ولما كان شمولها لاهل بيته النسبيين ليس واضحاً بيّن بما فعله أن المراد بأهل البيت ما يشمل جميع بني هاشم .

هذه الرواية التي اعطت لاهل البيت معنى يتسع لعترته ونسائه وحتى للعباس بن عبد المطلب وبنيه وجاء فيها أن النبي (ص) حينما جمعهم ودعا لهم بالنجاة من النار أمن سقف البيت وحائطه ثلاثا ، هذه الرواية ونظائرها بالرغم من ضعف أسانيدها ومخالفتها للروايات الكثيرة التي اعتمدتها صحاح أهل السنّة ومجاميعهم الموثوقة يبدو عليها الوضع والكذب فان نساءه وأقاربه من بني هاشم لم يكن لهم ميزة على غيرهم من سائر الناس ، وحسبها وهنا أن احداً من بني العباس لم يستدل بها في مقابل خصومهم العلويين وغيرهم ، مع ما فيها من الشرف العظيم لو صح نزولها فيهم ، هذا بالاضافة إلى أنه (ص) قبيل وفاته استدعى العباس وبني هاشم وتحدث اليهم بما لا يدع لهم امتيازا على احد من المسلمين ومضى يوصيهم بأن لا يستغلوا نسبهم القريب من رسول الله للاستعلاء على الناس والتفاخر به لان الانساب والاحساب لا تغني عنهم من الله شيئاً كما جاء في كثير من وصاياه لاهله وأسرته .

وقال الرازي في تفسير الآية : ان الله سبحانه ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله : ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم وأضاف والأولى أن يقال : هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبي وملازمته له[1] .

وممن رجح شمولها لازواجه وعلي وفاطمة وبنيهما ابن كثير في تاريخه وغيره ، ونقل الطبرسي في تفسيره مجمع البيان عن ابي سعيد الخدري ،

---

(١) انظر جزء ٢٥ من تفسير الرازي ص ٢٠٩ .

وانس بن مالك ووائلة بن الأسقع وعائشة وأم سلمة ان الآية مختصة برسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وأصاف إلى ذلك أن أبا حمزة الثمالي في تفسيره نقل عن شهر بن حوشب أن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى النبي (ص) تحمل حزيرة فقال لها ادعي زوجك وابنيك فجاءت بهم فطعموا ، ثم القى عليهم كساء له خيبريا فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم وتطهيرا ، فقلت يا رسول الله وأنا معهم فقال انت الى خير ، ومضى يقول : ان الثعلبي في الدر المنثور روى بالاسناد إلى أم سلمة ان النبي (ص) كان في بيتها فأتته فاطمة (ع) ببرمة فيها حزيرة ، فقال لها : ادعي زوجك وابنيك فدعتهما فأنزل الله تعالى ﴿**انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ .وروي عن مجمع أنه قال دخلت مع امي على عائشة فسألتها امي عن خروجها على علي (ع) يوم الجمل فقالت : انه كان قدرا من الله ثم سألتها عن علي (ع) فقالت تسأليني عن أحب الناس لرسول الله وزوج أحب الناس اليه ، لقد رأيت عليا وفاطمة والحسن والحسين وقد جمعهم رسول الله تحت ثوب وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقلت يا رسول الله وأنا من أهلك فقال تنحي فإنك إلى خير .

كما روى جماعة من المحدثين بسند ينتهي إلى جابر بن عبد الله الانصاري انه قال نزلت الآية على النبي (ص) وليس في البيت سوى علي وفاطمة والحسن والحسين فقال النبي (ص) اللهم هؤلاء أهلي .

وجاء في صحيح مسلم المجلد الثاني ص١١٦ أن عائشة قالت : خرج النبي (ص) غداة يوم وعليه مرط مرحل من برود اليمن من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه وجاء علي وفاطمة فدخلا معهما ، فقال النبي (ص) **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**، كما جاء في تفسير الطبري والبحر المحيط للأندلسي، والتسهيل للحافظ وغيرها من التفاسير بأسانيدهم الكثيره إلى السيدين عائشة وأم سلمة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد وغيرهم من ثقاة الصحابة .

إن الآيـة نزلت في الخمسـة النبي وعلي وفـاطمة والحسنـين ، واكـد هـذه الحقيقـة كل من الترمذي في صحيحـه وأحمـد بن حنبـل في مسنـده والحـاكم في مستـدرك الصحيحين ، وابن الاثـير الجزري في اسـد الغـابـة ، والمتقي في كنـز العمال ، والبيهقي في سننه ، والطحاوي في مشكل الآثار ، والخطيب البغدادي في تـاريـخ بغـداد ، والنسـائي في خصـائصـه ، والمحب الـطبـري في الـريـاض النضرة ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، والحافظ أبو القاسم الدمشقي في الموافقات والأربعين الطوال ، وأبو داود الطيـالسي في مسنده ، وغـير هؤلاء من المحدثـين الـذين نصوا عـلى نزول الآيـة في النبي وعلي وفـاطمـة وبنيهـما ، وان المتتبـع في مصادر الحديث ومجاميعه السنية والشيعية يخـرج وهو مـرتاح النفس إلى أن الآيـة الكريمة لا تعني نساءه وعمومته وعصبته ، بل تعني عترته وأهل بيته الذين عناهم بقوله في مختلف المناسبات : اني مخلف فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعـدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي .

ويبدو من الموارد الكثيرة التي كان يتلو فيها الآية أنـه كان يحـاول أن يقطع الطريق على كل مدع لدخوله في أهل البيت الـذين أذهب الله عنهم الرجس من نسائه وعصبته ، فقد جـاء عن أبي الحمراء أنـه قال : لازمت رسـول الله ثمانيـة اشهر في المدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا اتى باب عـلي (ع) فيضع يده عليه ويقول الصلاة الصلاة انما يريد الله ليـذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيرا .

وجاء عن عبد الله بن عباس انه قـال شهدت رسـول الله (ص) ستة اشهـر كان يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالـب في أوقات الصلاة ويقول السلام عليكم أهل البيت ورحمـة الله وبركـاته ، انمـا يريـد الله ليـذهب عنكم الـرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيرا .

واختصاصها بـالنبي وعلي وفـاطمة وبنيهما لا يتنافى مـع ورودها في ضمن الآيات التي كان الخـطاب فيها لنسـاء النبي (ص) ففي القرآن الكـريم أكثر من شاهد على عدم التقيد بالسياق والالتزام به ، وقد نقـل صاحب تفسـير المنار عن

استاذه الشيخ محمد عبده في المجلد الثاني ص ٤٥١ ان من عادة القرآن ان ينتقل بالانسان من شأن إلى شأن آخر ثم يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة .

وقال الطبرسي في مجمع البيان ما مضمونه أن من عادة العظماء في خطاباتهم أن يذهبوا من خطاب إلى غيره ثم يعودون لما كانوا يتحدثون عنه ، وأضاف إلى ذلك أن القرآن مملوء من ذلك وكذلك كلام العرب وأشعارهم .

وجاء في رواية عن الإمام الصادق (ع) أن الآية من القرآن يكون أولها في شيء وآخرها في شيء آخر .

فالسياق وحده لا يجب الاعتماد عليه كقاعدة عامة بالنسبة إلى القرآن الكريم بعد الذي نراه من عدم التقيد به في الغالب ، فلا بد من الرجوع إلى كل آية بمفردها وما قيل فيها من التفاسير التي تنسجم مع منطوقها أو ظاهرها ، ويتعين الأخذ بما صح عن النبي (ص) أو احد الأئمة في تفسيرها حتى ولو خالف السياق أو الظاهر أحيانا .

وقد استدل بها اكثر المحدثين والمفسرين على عصمة أهل البيت من الذنوب بما حاصله انه يستفاد من كلمة انما في موارد استعمالها التأكيد والاصرار على وقوع ما بعدها والارادة الواقعة بعدها لا بد وأن يتبعها التطهير من الذنوب الذي تعنيه كلمة الرجس ، ذلك لأن الارادة المطلقة لا تختص بأهل البيت من بين سائر الناس فلا يبقى لهم ميزة على غيرهم فيما لو أريد منها ذلك ، وقد جاءت الآية الكريمة لبيان فضلهم على من سواهم ، ولا يتم ذلك إلا إذا تحقق المراد وهو عين العصمة التي يدعيها الشيعة للنبي والزهراء والأئمة الاطهار ، وقد أيد هذه الحقيقة محي الدين المعروف بابن العربي في كتابه الفتوح المكية جـ ١ ص ١٩٦ من الطبعة القديمة ، فلقد جاء فيه أن الله سبحانه طهر نبيه وأهل بيته بدليل قوله تعالى : ﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ ، والرجس في اللغة الشيء القذر ولا شيء أقذر من الذنوب ، ومضى يقول : وعليه فلا يضاف لأهل البيت الا مطهر مقدس ، بل هم عين الطهارة ، وأضاف إلى ذلك أن سلمان الفارسي معصوم من الذنوب

أيضاً لأن أهل البيت معصومون بشهادة الله سبحانـه ، وقد ثبت عن رسـول الله (ص) أنه قال : سلمان منّا أهل البيت فيكون معصوماً بشهادة الله ورسوله .

وقـال في الجزء الثـاني من كتابـه الفتوحـات ص ١٢٧ : لا يبقى في النـار موحد ممن بعث اليه رسول الله لأن النار تكون على الموحدين بردا وسـلاما ببـركة أهل البيت عليهم السلام .

ومما يؤكد نزول الآية في النبي وعلي وفاطمـة والحسن والحسين ، مـا رواه مسلم في صحيحـه بأسـانيد مختلفـة تنتهي إلى الصحابي الجليـل زيد بن ارقم ، وجـاء فيما روي عنـه أنه سئل عن شمـول الآية لنسـاء النبي (ص) فقال لا وأيم الله أن المرأة تكون مع الرجل العصر من الـدهر ، ثم يـطلقها فتـرجع إلى أبيهـا وقومها ، وأهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة من بعده .

ومن الآيـات التي تشـير إلى قـداسـة أهـل البيت وحتى عصمتهم وتـأمـر بإطاعتهم الآية من سورة النساء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ .

وقد قرب الفخر الرازي في تفسيره جـ ١٠ ص ١٤٤ دلالتها عـلى عصمة أولي الأمـر فقال أن الله تعـالى أمر بـطاعة أولي الأمـر على سبيـل الجـزم في هـذه الآية ، ومن أمر بطاعته على سبيل الجـزم والقطع لا بـد وأن يكون معصـوماً من الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوماً من الخطأ وقدر إقدامه عليـه يكون الأمـر بإطـاعته أمـراً بفعل ذلـك الخـطأ ، والمفـروض أن الخـطأ منهي عنـه ، وهـذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وذلك محال عليه تعـالى ، وبـذلك يثبت أن كـل من أمر الله بطاعتـه عـلى سبيل الجـزم لا بـد وأن يكـون معصوماً .

والشيعة يتفقون مع الرازي في وجوب عصمة أولي الأمر لا سيما وقـد قرن أولي الأمر بالله والـرسول من نـاحية اطـاعتهم والتسليم لأمرهم وبـلا شك فـأن الرسول معصـوم عن الذنـوب في جميع حـالاته ، فـلا بد وأن تكـون لأولي الأمر

هذه الميزة على من سواهم من الناس ، ومن غير المعقول أن يأمر الله بإطاعتهم بهذا الأسلوب ومن غير تقييد مع صدور الخطأ منهم ومع أن الشيعة يتفقون مع الرازي في النتيجة التي انتهى إليها من هذه الآية ولكنهم يختلفون معه في المراد من أولي الأمر ، فهو يدعي أن المراد من أولي الأمر المعصومين من الخطأ هم أهل الحل والعقد من المسلمين بالتقريب التالي ، وحاصله أنه لا يمكن ارادة الإمام المعصوم من أولي الأمر كما تدعيه الروافض على حد تعبيره لأن اطاعته والرجوع اليه في مشاكل الحياة مشروطة بمعرفته والتمكن من الوصول إليه وهم يعترفون بغيبته وعدم التمكن من الوصول إليه والتكليف بإطاعته والحال هذه لا يغني شيئاً ، فلا بد وأن يكون المراد بأولي الأمر غير ما تدعيه الشيعة ، وليس ذلك إلا جماعة المسلمين من أهل الحل والعقد .

ومضى يقول : إن في الآية ما يدفع دعوى الشيعة ، ذلك لأن الله تعالى أمر بطاعة الله والرسول وأولي الأمر بأسلوب واحد ولفظ واحد ، واللفظ الواحد لا يجوز أن يكون مطلقاً ومشروطاً ، لأنه بالنسبة إلى الله والرسول مطلق ، وبالنسبة إلى أولي الأمر لا بد وأن يكون مشروطاً بمعرفتهم والتمكن من الوصول إليهم .

هذا أولاً ، وثانياً أن الله أمر بطاعة أولي الأمر وأولي الأمر جمع ، وعند الشيعة لا يكون في كل زمان إلا إمام واحد ، وإرادة الفرد من الجمع خلاف الظاهر، وثالثاً أن الله يقول: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ ولو كان المراد بأولي الأمر الإمام كما يدعيه الروافض لوجب أن يقول فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الإمام ، لأنه يعبر عن الله والرسول بزعمهم ، وانتهى اخيراً إلى القول بأن الحق في تفسير الآية ما ذكرناه لا ما ذكره الروافض وغيرهم .

والذي ينبغي أن يقال في تفنيد رأي الرازي ، هو أن المستفاد من الآية أن أولي الأمر هم الذين بلغوا مرتبة من العلم والدين لا يجوز عليهم معها افتراض الخطأ والانحراف عن الحق لا سيما بعد أن قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، وأهل الحل والعقد المجمعون على أمر من الأمور مهما بلغوا من الكثرة لا يتصور في حقهم أن يكونوا بهذا المستوى ، إلا إذا اتفقت الأمة كلها بحيث لم

يشذ منها أحد ، والاجماع عنـدهم لا يتوقف عـلى استقطاب رأي الأمـة بكاملهـا واتفاقها على رأي واحد ، بل ينعقد بالخمسة والستة وبالاقل من ذلك كما تصرح بذلك كتبهـم ومؤلفاتهم في هذا الموضوع .

ومن المعلوم أن أهل السنّة الذين اعتبروا الاجماع من أصول التشـريع التي لا يجـوز مراجعتهـا ولا التشكيك فيهـا ، وتساهلوا فيـه إلى هـذه الحـدود لم تكن غايتهم من ذلك إلا تصحيح خلافـة ابي بكر التي اتفق عليهـا عمر بن الخـطاب ونفر قليل غيرهما من المهاجرين والأنصار في بداية الأمر ، في حـين أن المخالفـين والمعارضين كانوا من سـراة المسلمين وأكـثر من المجمعين عليـه ومعهم علي (ع) الذي قال فيه النبي (ص) في حديث متفق عليه بين السنّة والشيعة علي مع الحق والحق معه يدور كيفما دار ، وقد جعله في حـديث الثقلين عدلا للقـرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفي حديث آخر جعله كسفينـة نوح لا ينجو من غضب الله وسخطه غير المتمسك بها .

وما أكثر الاخطاء التي ارتكبها المجمعون من المسلمين بالمعنى الذي ذكروه للاجماع ، تلك الاخطاء التي كان لها أثرها السيء على مصير المسلمين في تاريخهم الطويل ولا يزال المسلمون يعانون من أخطارها حتى اليوم .

وبلا شك فإن الرازي يعرف ذلك جيـداً ويعلم أن أولي الأمر الـذين قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس والـذين عنـاهم في حـديث الثقلين وغيـره من النصـوص الكثيـرة التي أشـادت بفضلهم وحثت عـلى ولائهم والسـير عـلى خـطاهم والاعتصـام بهم ولكن العلم شيء والتجـرد للحق وللحقيقة حتى ولـو خالف مـا نشأ عليـه وورثـه من الآبـاء والاجداد شيء آخر .

عـلى أن قولـه : إن طاعتهم مشـروطـة بمعـرفتهم والتمكن من الـوصـول إليهـم ، والتكليف بإطاعتهم بـدون ذلك تكليف بمـا لا يطاق إلى آخـر كلامـه ، هـذا القول في منتهى الغـرابة من عـالم كـالـرازي ، إذ لازمـه أن تتحـول جميع القضايا المطلقة إلى قضـايا مشـروطة ، ذلـك لأن كل حكم يتـوقف أمثالـه على معرفة متعلقة ، فامتثال أوامر الصلاة والصيام والـزكاة لا يمكن أن يحصـل بدون

معرفة هذه الموضوعات ، فلو اعتبرنا معرفة المتعلق شرطاً كما يدعي الرازي لزم ان يكون الوجوب مشروطاً ، وذلك لا يعدو أن يكون من الخلط بين مقومات الوجوب ومقومات الوجود ، ومن غير المعقول أن يتمكن المكلف من الامتثال بدون معرفة المتعلق المأمور به ، ولكن ذلك لا يعني أكثر من كونه شرطاً لامتثال التكليف لا لأصله كما هو الشأن في أكثر المقومات التي يتوقف عليها الامتثال ، وقد التزم أكثر الاصوليين بوجوب تحصيل هذا النوع من المقدمات ، في حين أنه لم يلتزم احد بوجوب تحصيل مقدمات الوجوب ، ذلك لأن الوجوب قبل حصولها غير موجود لكي يتولد منه وجوب تحصيل مقوماته ، وإنما يتحقق الوجوب بعد وجودها ، وبعد وجودها لم يعد لوجوبها أي فائدة للزوم تحصيل الحاصل .

هذا بالاضافة إلى أن معرفة المتعلق للتكاليف لا يمكن أخذه شرطاً للتكليف بما هو متعلق له لتأخره رتبة عنه وأخذه شرطاً له يستدعي تقدمه ، وتقييد المتقدم في المتأخر يقضي بكون المتأخر متقدم في واحد .

على أن الملاحظة التي أبداها الرازي على ما يدعيه الشيعة وبعض محدثي السنّة بعينها واردة على النتيجة التي انتهى إليها وهي تفسيره لأولي الأمر بإجماع الأمة على حد تعبيره ، لأن إجماع أهل الحل والعقد أو إجماع الأمة لا بد من معرفته ، وبلا شك أن معرفتهم أشق وأعسر من معرفة فرد أو أفراد في أزمنة متفاوتة ، لأن الاجماع هو اتفاق الكل أو أهل الحل والعقد ، وليس من السهل استقراؤهم والاطلاع على آرائهم فيلزمه على منطقه في إيراده على الشيعة ومن تبعهم من محدثي السنّة تقييد وجوب الاطاعة بمعرفة المجمعين ، وبالاضافة إلى تعسر هذا الشرط يكون وجوب الاطاعة مقيداً بحصوله ، وقبله لا وجوب وبعده يكون التكليف به من باب تحصيل الحاصل كما ذكرنا في تقريب أشكاله على من أسماهم بالروافض .

والشيء الغريب في كلامه دعواه العجز عن الوصول إلى الأئمة ومعرفة آرائهم ، ووجه الغرابة في ذلك هو أن إطاعة الله والرسول وأولي الأمر لا تعني إلا الرجوع إلى ما يقولون ويرتأون ولا يتوقف ذلك على الاتصال بأشخاصهم ،

ومعرفة أقوالهم وآرائهم ليست بذلك الأمر العسير بعد توفر الادلة على معرفتهم ومعرفة آرائهم في جميع المشاكل بواسطة من أخذوا عنهم من الرواة الموثوقين ممن عاصرهم أو اتصل بمعاصريهم ، وقد دأب الشيعة في أصولهم وفقههم على الرجوع إلى رواة أحاديثهم لا سيما بعد الغيبة التي أصبح الاتصال فيها بالإمام متعذراً على أي كان من الناس ، وحتى في عصر الظهور لم يكن الاتصال بهم مباشرة ميسوراً لكل إنسان ، فالبعيد عنهم كان يرجع إلى رواة أحاديثهم وبعد الغيبة خلال تلك القرون فالمرويات في مجاميع الحديث التي تنتهي بأسانيدها إلى النبي والأئمة (ع) هي المصدر بعد كتاب الله لكل ما ينسبه الشيعة من الاحكام والآراء إلى النبي والأئمة الهداة من أهل بيته الذين تعنيهم هذه الآية وغيرها من الآيات والمرويات عن الرسول (ص) كحديث الثقلين وغيره مما لا يقبل التفسير بغير الأئمة إلا بعد التأويل والتحوير البعيدين عن ظاهر تلك الآيات والروايات وما أحيط بها من القرائن والملابسات .

والجواب عن الاشكال الثاني الذي وجهه الرازي على الشيعة والذي جاء فيه أن أولي الأمر من صيغ الجمع وعند الشيعة لا يكون في الزمان الواحد إلا إمام واحد ، وحمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر . ومحصل الجواب عن هذا الايراد ، إن الظاهر من هذا النوع من العمومات هو العموم الاستغراقي الذي لا يشترط فيه اجتماع أفراده كلهم في وقت واحد ، فإذا قال القائل : أكرم العلماء فيصح هذا الحكم منه ولو كان وجود العلماء مترتباً بحسب الزمان ، فهو أشبه بما يسميه الاوصوليون بالقضايا الحقيقية التي يكون الحكم فيها متجهاً إلى الأفراد ما وجد منهم وما سيوجد ، كما هو الشأن في أكثر العمومات القرآنية ، نعم لا بد وأن يكون لأولي الأمر عدد يصح معه التعبير بصيغة الجمع سواء كان ذلك على التعاقب أو حين صدور الخطاب ، وهذا الشيء موفور لدى الشيعة الإمامية .

والجواب عن الايراد الثالث من الاشكالات التي وجهها الرازي على الشيعة ، والذي جاء فيه أن الآية لو كانت تعني أئمة الشيعة لوجب أن يقول فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الامام لأنه يعبر عندهم عن الله والرسول ، مع

أن الفقرة الثانية من الآية نصت على وجوب ردّه إلى الله والرسول لا غير . ومحصل الجواب أن عدم اشتمال الفقرة الثانية من الآية على ذكر أولي الأمر لا يخل بالمراد لجواز الحذف في الكلام اعتماداً على ذكر المحذوف في الفقرة الأولى الذي يغني عن إعادة ذكره ، بل يكون الحذف في بعض الأحيان من محسنات الكلام، وبعد أن فرضت الآية إطاعة الله والرسول وأولي الأمر لم يعد من موجب لذكر أولي الأمر . ثانياً لا سيما بعد أن قال في الآية الثانية ولو ردوه إلى الرسول وأولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم[1] .

ومجمل القول أن الآية تدل بمنطوقها على وجوب إطاعة الله والرسول وأولي الأمر ولكنها بمنطوقها ليست صريحة في الأئمة من أهل البيت ، فلا بد من الخروج عن نطاق الآية لمعرفة من هم أولئك الذين اقترنت إطاعتهم بإطاعة الله ورسوله ، وقد اعتمد الشيعة على مجموعة من الأدلة منها ما يدل على المراد بظهوره ومنها ما يدل عليه بواسطة القرائن والملابسات التي تحيط به ، فمن ذلك آية التطهير التي تحدثنا عنها وحديث الثقلين الصريح في أن المتمسك بعترة النبي كالمتمسك بالكتاب لن يضل أبداً ، والحديث الذي شبه فيه أهل بيته بسفينة نوح ، ومن المعلوم أن جهات الشبه بينهما مردها إلى أن من يتولاهم ويعتصم بهم ويسير على خطاهم ينجو من العذاب والعقاب كما نجا من كان مع نوح من الغرق .

وأحاديث : الأئمة الاثني عشر كلهم من قريش ، التي نص بعضها على أنهم من ولد علي وفاطمة بعددهم وأسمائهم فرداً فرداً ، وحديث : أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، إلى كثير من الآيات والروايات التي تدل بمجموعها دلالة قاطعة على أن أولي الأمر في الآية وعترته وأهل بيته في بقية الأحاديث هم الأئمة الاثنا عشر من عترته لا غيرهم من أصحابه وعصبته لعدم توفر المؤهلات المطلوبة في هؤلاء وغيرهم من الناس .

وقد حاول جماعة من مؤلفي السنّة أن يطعنوا في دلالة تلك الأحاديث على

---

(١) انظر الجزء العاشر من الرازي ص ١٤٥ و ١٤٦ .

ما تدعيه الشيعة بعد أن وجدوا أن اسانيدها لا تقبل المراجعة ، فقالوا بـأن تلك الأحاديث ليست نصاً على إمامة الاثني عشر ولا ظاهرة فيهم ظهـوراً تطمئن إليـه النفس ، ومن هؤلاء الشيـخ محمـد أبـو زهـرة في كتـابـه الامـام الصـادق (ع) ص ١٩٩ .

وقـد جاء فيـه : وبعـد التسليم بصحـة اللفظ أي لفظ العتـرة في حـديث الثقلين دون لفظ سنّتي الذي رجح أبو زهرة روايته على روايـة عترتي ، فقـد قال بأن لفظ عترتي عـلى تقديـر وروده في حديث الثقلين فـلا يعين من ذكـروهم من الأئمة المتفق عليهم عند الإمامية الفاطميين ، بل هو لا يعـين أولاد الحسين دون أولاد الحسن كما لا يعين واحـداً من هؤلاء بهذا التـرتيب ، وكما لا يـدل على أن الامامة تكون بالتوارث لا يدل على الامامة السياسية ، وإنه أدل على إمامـة الفقه والعلم من كل ذلك . وهذا الكلام وجيه في ذاته فإن جميع القضـايا لا تشخص موضوعاتها ، ولكن بعد القرائن والمناسبات التي أحيطت بتلك الأحاديث لم يعـد بعد أخذها بعين الاعتبار مجال للتردد فيما تعنيـه من كلمتي أهل البيت والعتـرة ، وقد جاء في مـلابسات آيـة التطهـير أن النبي (ص) بعد أن جمـع علياً وفـاطمة والحسنين (ع) تحت كساء خيبـري تلا الآيـة ، كما وأن حـديث الثقلين وسفينة نوح وغيرهما مما اشتمل على كلمتي أهـل البيت أو العترة وجعلهـما كالكتـاب تارة وكسفينة نوح أخرى وأمان لأهـل الأرض ثالثـة لا بد وأن يـرادفها من بلغ أعـلى درجات العلم والدين من أهـل بيته وعتـرته وليس ذلـك غير الأئمـة (ع) وبلا شك فإن المسلمين الأوائل كـانوا يعـرفون من يعنيـه النبي (ص) من أهل بيتـه وعترته لا سيما وقد شاهدوه خلال تسعة شهور يقف في أكثر الأيام على باب علي وفاطمة ويقول: **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**، كما جاء في رواية عبد الله بن العباس وغيره ، كما شاهدوه يخرج إلى المباهلة وليس معه غـير علي وفاطمة وولديها وهو يقـول : اللهم هؤلاء أهلي كـما جاء في صحيـح مسلم ج ٧ ص ١٣١ والترمذي والحاكم في المستدرك وغيرها من المصادر السنية .

وكما ذكرنـا في مطلع حـديثنا عـما تعنيه هـذه الكلمة أن النبي (ص) قـد استعملها في أكثر من مناسبة في معرض التنبيه والتنويه بفضل عترته ، فقد جـاء

فيما رواه جماعة من المحدثين بأسانيدهم إلى زيد بن أرقم ، وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري، والسيدة عائشة، وأبي ذر، وحذيفة بن أسيد، وغيرهم من الصحابة أن النبي (ص) قال : أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وجاء في أكثر النصوص أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض . وروى بعض الصحابة عنه أنه كان يقول في بعض المناسبات : أن الله سائلكم عن اثنتين عن القرآن وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

وفي رواية أخرى عنه أنه لما نزل الجحفة في طريقه إلى المدينة من حجة الوداع وقف خطيباً فيمن كان معه من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إني لا أجد لنبي إلا نصف عمر الذي قبله ، وإني يوشك أن أدعى فأجيب ، ومضى يقول : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق ، قالوا نشهد بذلك ، فرفع يده ووضعها على صدره ، ثم قال : وأنا أشهد معكم فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين ، فناداه مناد وما الثقلان يا رسول الله ، فقال كتاب الله طرف بيد الله وطرف بأيديكم وعترتي أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم . ثم أخذ بيد علي (ع) وقال من كنت أولى به من نفسه فعلي وليه إلى غير ذلك من الصيغ المختلفة التي روي بها الحديث الذي أوصى به النبي بالتمسك بكتاب الله وعترته من أهل بيته .

وبلا شك فإن هذا الاختلاف لا يوجب وهنا في الحديث المذكور ما دام الاختلاف ناتجاً عن صدوره من النبي (ص) أكثر من مرة حسب المناسبات مع وحدة المضمون[1]، ويكاد أن يكون متواتراً في معناه لكثرة من رواه من الصحابة

---

(١) فلقد روى جماعة عنه أنه قال ذلك في حجة الوداع بعرفة ، ورواه عنه آخرون في غدير خم وفي خطبة خطبها بعد رجوعه من الطائف ، وفي مرضه الأخير وحوله جمع غفير من أصحابه كما نصت على ذلك طائفة أخرى من المرويات إلى كثير من مواقفه التي كان يستغل فيها المناسبات ليؤكد على المسلمين حق أهل بيته وحرمتهم .

وغيرهم .

وجاء في فيض القدير عن السمهوري أن الذين رووه عن النبي من الصحابة يزيدون على عشرين صحابياً ، وأكد ذلك ابن حجر في صواعقه .

وممن رواه من المحدثين مسلم في صحيحه بأسانيد متعددة ، والترمذي ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك ، وأحمد في مسنده ، وابن سعد في طبقاته ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ، وابن الأثير الجزري في أسد الغابة ، والمتقي في كنز العمال ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، والمناوي في فيض القدير ، وابن جرير في تاريخه ، والمسعودي في مروجه ، وابن هشام في سيرته ، وابن كثير في بدايته ، إلى غير هؤلاء من المحدثين والمؤرخين الذين دوّنوه ووصفوه بالصحة حتى على شرط الشيخين على حد تعبير الحاكم في مستدركه .

وجاء في صواعق ابن حجر طبع شركة الطباعة الفنية في القاهرة ، لقد سمّى رسول الله (ص) القرآن وعترته ثقلين ، لأن الثقل كل نفيس خطير ومصون وهذان كذلك لأن كلا منهما معدن للعلوم الدينية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية ، ولذا حث رسول الله (ص) على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم وقال: الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت وأضاف إلى ذلك وقيل سمّيا ثقلين لثقل رعاية حقوقهما ومضى يقول : والذي حث على التمسك بهم هم العارفون بكتاب الله وسنّة رسوله ، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب ، ويؤيده الجزء السابق ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وشرفهم بالكرامات الباهرة ، والمزايا المتكاثرة ، واستطرد يقول : إن أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت تشير إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة كما هو الحال في الكتاب العزيز .

وبلا شك فإن أهل بيته الذين جعلهم النبي (ص) أحد الثقلين ولن يفترقا عن القرآن ولا يضل المتمسك بهم هم الذين عنتهم الآية من سورة الاحزاب إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ولم تتوفر هذه المزايا إلا بعلي وفاطمة والأئمة من بنيهما ، لأنهم هم الذين كانوا يعكسون نصوص

القرآن وأوامره ونواهيه ووصاياه في سيرتهم وسلوكهم في جميع مراحل حياتهم ، وليس باستطاعة أحد حتى ولو استبد به الحقد والهوى أن يجد في تاريخهم الطويل ولو خدشة تمس تاريخهم الحافل بالجهاد والتضحيات الجسام ، والعمل في سبيل الله وخير الناس جميعاً بلا استثناء ، وكما جعلهم عدلاً لكتاب الله الذي لا يضل من تمسك به وأمر بإطاعة الله ورسوله وإطاعتهم ، شبههم في حديث آخر بسفينة نوح التي لم ينج من عقابه إلا من ركبها أو تمسك بها ، ومقتضى التشبيه أنهم الباب الوحيد إلى النجاة من الهلكة والضلال كما كانت السفينة يوم ذاك هي السبيل الوحيد للنجاة من الغرق .

فقد جاء في المجلد الأول من مستدرك الصحيحين بسنده إلى حنش الكناني أنه قال : سمعت أبا ذر يقول : وهو آخذ بباب الكعبة أيها الناس من عرفني فأنا من عرفتم ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت رسول الله (ص) يقول : مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا من تخلف عنها غرق .

وقد روى هذا الحديث بهذه الصيغة أو بما يقرب منها مع الاتفاق في المعنى كل من المتقي في كنز العمال ، وعلي بن سلطان في مرقاته ، والبزاز الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والمحب الطبري في ذخائره ، والبغدادي في تاريخه ، والسيوطي في الدر المنثور ، والمناوي في كنوز الحقائق ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، وابن حجر في صواعقه ، وغير هؤلاء من المؤرخين والمحدثين ممن لا يسعنا استقصاؤهم ، ورواه الرواة بأسانيد مختلفة ومتعددة وأكثرها ينتهي إلى أبي ذر وابن عباس وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب (ع) كما جاء في كنز العمال ج ١ ص ١٩٠ .

ويبدو من الروايات الكثيرة المنتشرة في مجاميع الحديث السنية والشيعية أن النبي (ص) كان يحاول بمختلف الأساليب أن يهيء تلك الفئة الصالحة من عترته لقيادة الأمة ويلفت أنظار المسلمين إلى الرجوع إليهم فيما يعترض حياتهم من المشاكل والأحداث ما كان منها يتعلق بأمور الدين أو الدنيا ، فمرة كان يشبههم بسفينة نوح وأخرى بباب حطة فيقول : إنما مثل أهل بيتي فيكم كباب حطة في بني اسرائيل من دخله كان آمناً من عذاب الله ، ومرة ثالثة كان يشبههم

بنجوم السماء ، فيقول : النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي من الضلال والهلاك ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تؤكد بمجموعها وملابساتها وظروفها أنه كان في منتهى الحرص على أن تبقى القيادة من بعده بأيد أمينة صالحة مخلصة لكي تتابع المسيرة التي بذل في سبيلها كل راحته وإمكانياته واستطاع بعد جهود مضنية وشاقة أن يقطع بها أشواطاً واسعة إلى الامام في بضع سنوات معدودات ، وفي الوقت ذاته فإن تلك المواقف التي وقفها من أهل بيته وعترته توحي بأنه كان يتخوف من أن تلعب الاهواء والاحقاد دورها البالغ بعد وفاته وتقودهم إلى التنكيل بأهل بيته والصلحاء من أتباعهم وشيعتهم قتلاً وتشريداً وإمعاناً في البغي والفساد في الأرض .

وجاءت الآية من سورة الشورى لتؤكد على الأمة بأن الوفاء لمحمد والعرفان لجميله هو مودة قرباه وأهل بيته وحفظهم بعد وفاته حيث تقول :

قل لا أسألكم أجراً إلا المودة في القربى ، وقد جاء في الكشاف للزمخشري وهو يتحدث عن معطيات هذه الآية أن رسول الله قال : من مات على حب آل محمد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت ومنكر ونكير بالجنة وفتح الله له في قبره بابين اليها ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ولم يشم رائحة الجنة .

وأضاف إلى ذلك الفيروز أبادي في كتابه فضائل الخمسة أن الفخر الرازي في تفسيره الكبير وهو يفسر هذه الآية نقل ما تقدم عن الزمخشري ، وعقب عليه بقوله : أن آل محمد هم الذين يؤول أمرهم إليه ، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ومضى يقول ولا شك بأن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله من أشد التعلقات وهو معلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل لا غيرهم .

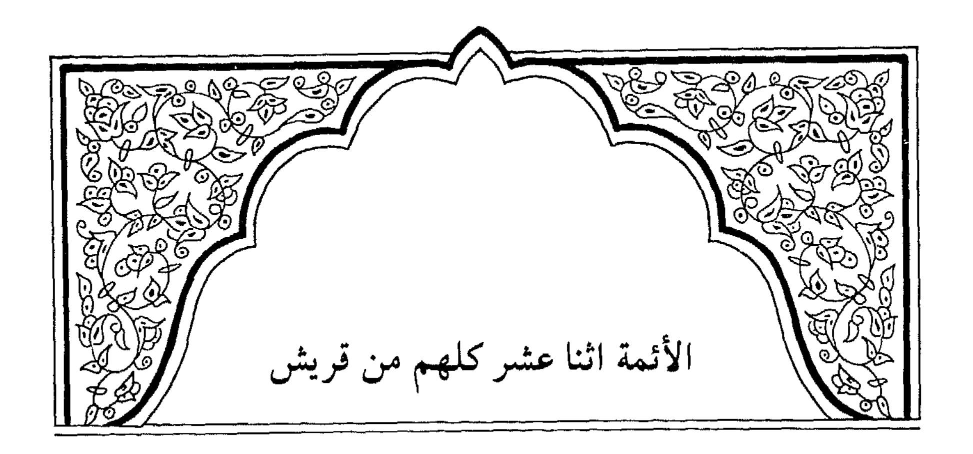
وأورد في مجمع الزوائد للهيثمي وكنوز الحقائق للمناوي وذخائر العقبى للمحب الطبري ، ونور الأبصار للشبلنجي بعض المرويات عن النبي (ص)

حول هذا الموضوع وكلها تلتقي في مضمونها مع رواية الزمخشري التي رواها في الكشاف وهو يفسر آية القربى[1].

وبلا شك فإن رواية الزمخشري التي وضعت محبي آل بيت محمد بتلك المنزلة العالية وحرمت على مبغضيهم الجنة وحرمتهم من رحمة الله على تقدير صحتها إنما تعني المحبين الذين يسيرون على خط آل محمد ويعملون بكل ما أمر الله وما نهى عنه ، أما الموالون والمتشيعون الذين لا يعملون ولا يتابعون آل محمد كما هو الحال في أكثر مدعي الولاء لهم فهم كغيرهم من الناس إن عذبهم الله فبعدله، وإن أدخلهم الجنة فبعفوه وكرمه ، وليس بكثير على محبيهم العاملين أن ينالوا تلك الدرجات الرفيعة إذا انتهى بهم الولاء إلى متابعة آل محمد فيما قالوا وفعلوا ولا بكثير على مبغضيهم الذين يتبعون أعداءهم ويتنكرون لتعاليمهم التي لا تنفصل عن تعاليم القرآن وسنّة الرسول ليس بكثير عليهم إذا كانوا في أسفل درك الجحيم مع المنافقين والكافرين .

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٧٨ و ٧٩ .



الأئمة اثنا عشر كلهم من قريش

لقد قال النبي كما جاء في المرويات السابقة أن أهل بيته كالقرآن والمتمسك بهم كالمتمسك بالقرآن والمنحرف عنهم كالمنحرف عن القرآن وأنهم كسفينة نوح وباب حطة ونجوم السماء وغير ذلك من النصوص التي تفرض على المسلمين أن يقتدوا بهم ويرجعوا إليهم في جميع أمورهم ومشاكلهم لم يكتف بذلك مخافة أن تستبد الاهواء والاحقاد بالمسلمين من بعده فيلجأوا إلى التأويل والتحوير والتضليل ويستأثروا بالسلطة من بعده فنص على الخلفاء من بعده بعددهم كما في المرويات السنية وبعددهم وأسمائهم كما في المرويات الشيعية حتى لا يبقى عذر لمنحرف ولا حجة لمتأول ومضلل ومع ذلك فقد فسرها السنّة بما يتفق مع واقعهم ومعتقداتهم ولو مضت الخلافة الاسلامية كما أرادها النبي (ص) لكانت هذه النصوص وغيرها بنظر أولئك الذين صوروها وتأولوها وكأنها من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومهما كان الحال فقد جاء في صحيح البخاري كتاب الاحكام بسنده إلى جابر بن سمرة أنه سمع النبي (ص) يقول : يكون اثنا عشر أميراً ، وأضاف إلى ذلك الراوي أن النبي قال كلمة خفيت عليه ولكن أباه سمعه يقول : كلهم من قريش .

وهذا الحديث بنصه رواه أحمد بن حنبل في المجلد الخامس من مسنده بطريقين .

وجـاء في كتاب الامـارة من صحيح مسلم ، أن جـابـر بن سمـرة قـال : دخلت مع أبي على النبي (ص) فسمعتـه يقول : إن هـذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . وفي روايـة ثانيـة رواها مسلم في صحيحـه أيضاً أن النبي (ص) قـال : لا يزال الـدين قائـماً حتى تقوم السـاعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

ورواه الترمذي في صحيحه بهذاالنص، وابن حجر في صواعقـه ، والحاكم في المستدرك ، وزاد فيه أن النبي قال: عدد نقباء بني إسرائيـل ، كما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، والمتقي في كنز العمـال . وجاء في كنـز العمال أن ابن عـدي وابن عساكر قد أسنداه إلى ابن مسعود عن النبي (ص) ورواه المناوي في فيض القدير وغيره من المحدثين والمؤلفين[1] .

وجـاء في روايـة أبي نعيم في حليـة الأوليـاء صفحـة ٨٦ من المجلد الأول بسنـده إلى عبـد الله بن عبـاس أن رسـول الله قـال : من سـره أن يحيى حيـاتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن فليوال علياً بعدي ويقتد بالأئمة من بعـدي فإنهم عتـرتي خلقوا من طينتي ورزقـوا فهـماً وعلماً وويـل للمكـذبـين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي لا أنالهم الله شفاعتي .

والذي لا يسع الباحث تجاهله والتنكر له أن هذه الروايات مع ما بينها من الاختلاف في صيغها كلها متفقة عـلى أن العدد المستحق لـلامامـة أو الخلافـة أو الامارة حسب اختلاف الروايات لا يتجاوز الاثني عشر عـدد نقباء بني اسـرائيل الذين بعثهم الله لارشاد قومهم وانقاذهم من الضلالة كما تشير إلى ذلك الآية :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ .

كما نصت رواية ابي نعيم السـابقة عـلى انهم من عترة النبي ومن طينتـه ، ونص غيرها على انهم باقون ما بقي الإسلام أو حتى تقوم الساعة كـما نصت على ذلك رواية مسلم في صحيحـه ، أو ما بقي اثنـان على وجـه الأرض كما جـاء في روايته الثانية .

---

(١) انظر فصائل الخمسة ج ٢ ص ٢٣ و ٢٤ .

وبلا شك فإن بقاءهم الطويل لا يعني بقاءهم مجتمعين ما بقي الدهر ولا بأشخاصهم لان ذلك لم يكتب لاحد من الناس ، بل يعني وجودهم على سبيل التعاقب إلى أمد لا يعلمه غير الله ويكون بقاؤهم بعد ذلك ببقاء تعاليمهم ومناهجهم ومبادئهم التي تمد البشرية والاجيال بالخير وتوفر لها أسباب الراحة والحياة الحرة الكريمة إلى حيث يشاء الله . ولو تخلينا عن تفسير الامامية لتلك المرويات المتفق على صدورها من النبي (ص) لم يبق لها معنى مقبول تطمئن اليه النفس ، ذلك لان الخلافة بالشكل الذي سارت عليه قد تولاها من قريش أضعاف هذا العدد ، ولا يمكن التوفيق بين الخلافة بهذا المعنى وبين العدد الذي حدده النبي (ص) بتلك المرويات الا بعد التمحل والتأويل الذي لا ينسجم مع تلك المرويات بنصها ومضمونها ولذا فان اكثر محدثي السنة وعلمائهم بعد أن وجدوا أن الذين تعاقبوا على الحكم بعد النبي (ص) من راشدين وأمويين وعباسيين يبلغون نحوا من ثلاثين حاكما اضطروا إلى تأويلها والانحراف بها عن الائمة الاثني عشر من ذريته مهما كان الحال .

فقد جاء عن البيهقي أن العدد الذي تضمنته المرويات عن النبي (ص) ينتهي بخلافة هشام بن عبد الملك ، ورد عليه ابن كثير في تاريخه بأن الذين تعاقبوا على الحكم باسم الخلفاء إلى هذا التاريخ إذا ضممنا اليهم عبد الله بن الزبير يبلغون ستة عشر حاكما .

وقال آخرون : ان الاثني عشر الذين اشار اليهم النبي ينتهون بانتهاء ولاية سليمان بن عبد الملك ، فيكون يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم الطريد ابن الطريد من الخلفاء الباقين ما بقي الدهر وممن لا يزال الدين قائما بخلافتهما ، ويخرج من العدد الذي حدده النبي عمر بن عبد العزيز المعروف بعدله وحكمته ونقمته على سياسة الطغاة الذين حكموا قبله من تلك الأسرة .

وذهب بعضهم إلى أن العدد الذي جاء في تلك المرويات يعني الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان وتسعة من حكام الامويين ممن اجتمعت الأمة عليهم ، وقد أخرج منهم أمير المؤمنين وولده الحسن بن علي لأن الأمة لم تجتمع عليهما على حد تعبيره .

وجاء في تاريخ ابن كثير أن البيهقي روى عن حاتم بن أبي صفرة عن ابي بحر انه قال : كان أبو الجلد جاراً لي فسمعته يقول ، ويحلف على ما يقول : ان هذه الأمة لن تهلك حتى يكون فيها اثنا عشر خليفة كلهم يعمل بالهدى ودين الحق منهم رجلان من أهل البيت احدهما يعيش اربعين سنة والآخر ثلاثين[1] .

ورأى بعضهم أن أحاديث الاثني عشر تشير إلى انهم يمثلون الاسلام تمثيلاً صادقاً ويعملون من أجل بقائه وانتشاره وهذه الصفات لا تنطبق إلا على النخبة المختارة من بين أولئك الذين تعاقبوا على السلطة خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام فعد الخلفاء الأربعة والحسن بن علي (ع) وعمر بن عبد العزيز وغيره ممن عرفوا بحسن السياسة والعدل في الرعية من العباسيين والأمويين ، وأضاف السيوطي إلى الخلفاء الأربعة الحسن بن علي وعمر بن عبد العزيز عبد الله بن الزبير والمهدي العباسي والملك الظاهر ومعاوية بن ابي سفيان . ومضى يقول أن المواصفات التي ارادها النبي لا تنطبق على الباقين ويبقى اثنان ليتم بهما العدد الذي حدده النبي (ص) منتظران على حد تعبيره وهما محمد بن الحسن المهدي المنتظر وشخص آخر لم يذكره باسمه . إلى غير ذلك من التحملات والمغالطات التي وقع بها بعض محدثي السنّة وعلمائهم بعد أن وجدوا أن لا مفر لهم من الاعتراف بصدورها عن النبي (ص) كما هو الحال في غيرها من المرويات التي وجدوا انفسهم ملزمين بتأويلها وتحويرها للتوفيق بينها وبين الواقع الذي انتهت اليه الخلافة الإسلامية .

ومجمل القول أن موقف السنّة من هذه المرويات بعد أن التزم اكثرهم بصدورها عن النبي (ص) لا يقره المنطق ويبدو عليه التكلف والتحيز ، في حين أن موقف الشيعة منها منسجم كل الانسجام مع ظواهرها ومضامينها ، وما كان النبي (ص) ليقف أكثر من مرة بين اصحابه ليعلن عليهم هذا العدد من الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم من بعده في حين أن جميع الخلفاء اذا استثنينا بعض الراشدين وعمر بن عبد العزيز كانوا اداة هدم وتخريب اكثر منهم اداة اصلاح

---

(١) انظر ج ٢ من تاريخ ابن كثير ص ٢٤٩ و٢٥٠

وهداية ، مع العلم أنه في بعض تلك المرويات قد ربط بين الخلفاء الاثني عشر وبين بقاء الدين كما جاء في رواية مسلم الثانية في صحيحه .

ومن غير المعقول والجائز أن يخبر النبي (ص) عن اثني عشر ممن تعاقبوا على الحكم من بعده من أصل ثلاثين أو اكثر كلهم قد حكموا بلون واحد وأسلوب واحد إذا استثنينا بعض المفارقات التي كانت تقتضيها طبيعة العصر ومصالحهم الخاصة .

والواقع الذي يجب المصير اليه كما هو الظاهر من تلك المرويات وصونا لكلام الرسول عن اللغو أن الاثني عشر المعنيين من تلك المرويات هم الأئمة من عترته على التعاقب ، والإمام الثاني عشر محمد بن الحسن باق وسيبقى ليخرج برسالته حتى ولو بقي على وجه الأرض اثنان لا غير وسيبقى الدين ببقاء تلك الآثار التي ورثوها عن جدهم وتركوها بين أيدي الاجيال مشعل هداية لبني الانسان تمده بكل أسباب السعادة والكرامة في حياته وبما يحقق له الفوز بنعيم الآخرة لو قدر له أن يسير على هديها ويستفيد من وحيها .

وقال الاستاذ توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت : لقد توفرت في أئمة أهل البيت حصنة الاسلام وحماته والادلاء على مرضاة الله وطاعته الصفات الآتية كما ذكرها الماوردي وابن خلدون :

العدالة بشروطها الجامعة وهي الامتناع عن ارتكاب كبائر الذنوب وصغارها ، والعلم بما تحتاج اليه الأمة في جميع مجالاتها ومعرفة النوازل والاحكام والشجاعة والنجدة والنسب لأن الامامة لا تكون إلا في قريش ، والعصمة وقد عرفها المتكلمون بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده ، وبها يمتنع من ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسهواً .

ومضى يقول أن الشيعة اجمعت على اعتبارها في الإمام ، ويدل عليها حديث الثقلين حيث قرن الله بين الكتاب والعترة وكما أن الكتاب معصوم من الخطأ والزلل فكذلك العترة الطاهرة ، وإلا لما صحت المساواة بينهما . وبعد أن عدّد المزايا والصفات التي حباهم الله بها انتهى إلى القول بأن هذه الاوصاف لم تتوفر إلا في أئمة أهل البيت حصنة الإسلام وحماته والادلاء على مرضاة الله

وطاعته .

واستطرد الاستاذ أبو علم في حديثه الذي يتسم بالاعتدال والتجرد لخدمة الحقيقة حتى انتهى إلى الحوار الذي دار بين الامام علي بن موسى الرضا من جهة وبين المأمون وبعض العلماء من جهة ثانية وجاء فيه كما نقل المؤلف عن عيون الاخبار أن الامام الرضا قال للمأمون ومن معه من العلماء في حديث طويل : إن الله فسر اصطفاء العترة في اثني عشر موضعا من كتابه ، وعد منها وانذر عشيرتك الاقربين وآية التطهير وآيه المباهلة التي نزلت على النبي حينما وفد عليه نصارى نجران بقيادة زعمائهم وخرج النبي اليهم ليباهلهم بعد حوار طويل ومعه علي وفاطمة والحسنان بأمر من الله سبحانه كما نصت على ذلك الآية : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ .

وقد اتفق اكثر المحدثين أن الآية تعني بأنفسنا عليا والنبي وبنسائنا فاطمة الزهراء (ع) وبأبنائنا الحسن والحسين لأنه لم يخرج إلى القوم بغيرهم كما أجمع على ذلك المؤلفون في سيرة الرسول (ص) .

كما عد من الآيات التي نزلت في عترة النبي الآية : ﴿**وآت ذا القربى حقه**﴾ ، ومضى يقول : فلما نزلت هذه الآية على النبي قال لفاطمة : هذه فدك مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب هي لي خاصة دون المسلمين وقد جعلتها لك بعد ان امرني الله بذلك فخذيها لك ولولدك . وعد منها الآية : **قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ، وعقب على ذلك الامام الرضا (ع) أن هذه المودة فريضة من الله تعالى على كافه المؤمنين لا يأتي بها أحد مؤمنا مخلصا الا استوجب الجنة لقوله تعالى :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم من يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ ، ومضى الإمام (ع) يقول : ولكن ما وفى بهذه الآية اكثرهم .

وأضاف إلى ذلك : حدثني ابي عن جدي عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) انه اجتمع المهاجرون والانصار إلى رسول الله (ص) فقالوا : ان لك يا رسول الله مؤونة لنفقة عيالك ولمن يأتيك من الوفود وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها بارا مأجوراً اعط ما شئت وامسك ما شئت من غير حرج ، فأنزل الله عليه الروح الامين وقال : يا محمد قل آية لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ، فقال المنافقون : ما حمل رسول الله على ترك ما عرضناه عليه إلا ليحثنا على مودة قرابته من بعده ، ان هو الا شيء افتراه في مجلسه ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

ولما تلا عليهم النبي الآية وعلموا بأن الله قد أخبر نبيه بمقالتهم ندموا وإشتد عليهم الأمر أنزل الله عليه الآية :

﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾ .

كما عد منها الآية : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ . فقيل يا رسول الله عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك ، فقال قولوا : اللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد ، وقد قال تعالى : ﴿ **سلام على آل ياسين** ﴾ ، يعني بذلك آل محمد ولم يسلّم على آل أحد من الأنبياء سواهم .

ومضى يقول ومنها قوله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ ، فنحن أهل الذكر ، لأن الذكر هو رسول الله ونحن أهله ، بدليل قوله تعالى في سورة الطلاق : ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله عليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم آيات بيِّنات** ﴾ .

واستمر الإمام عليه السلام يسرد الآيات التي تخص أهل البيت وتفضلهم على جميع الناس وفيما هو يتحدث إلى المأمون ومن معه من العلماء ، قال له المأمون ومن معه : نحن نشهد بأنكم أهل بيته المعنيون بهذه الآيات فجزاكم الله

عن أمته خيراً .

وبعد أن عرض الاستاذ أبو علم ما قيل وما يمكن أن يقال حول الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر أهل البيت تصريحاً وتلميحاً قال : وأخيراً لا آخراً فالرأي عندي والله أعلم أن أهل البيت هم أهل الكسا علي وفاطمة والحسن والحسين ومن خرج من سلالة الزهراء وأبي الحسن(ع). وعقب على ذلك بقوله : إن رأيي هذا يستقيم مع الروايات الصحيحة التي قدمناها ويجعل الباحث يعكف على بحثه وهو مطمئن ويخرج للناس تاريخاً صحيحاً عن هذه العترة النبوية الكريمة التي قال فيها أفضل الخلق (ص) حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد منها ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة ، وقال في جملة من الأحاديث رواها المحدثون في صحاحهم ومجاميعهم : والذي نفسي بيده لا يدخل قلب امرىء الايمان حتى يحب أهل بيتي لله ولقرابتي ، ومن أحب حسنا وحسينا وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة .



الصحابية الأولى

خديجة بنت خويلد





الصحابية الأولى خديجة بنت خويلد

لقد رأيت قبل الحديث عن سيرة الأئمة الاثني عشر أن أتحدث ولو يسيرا عن السيدتين خديجة أم الزهراء وجدة الائمة الاثني عشر التي ساهمت في بناء الإسلام بمالها وجاهها وتحملت في سبيل ذلك كل انواع الأذى والاضطهاد واستقبلت الدعوة بقلب مفتوح لكل تعاليمها وايمان راسخ بأن الله لن يخذل نبيه ، وحينما جاءها في اللحظات الأولى من نزول الوحي عليه خائفا غريب النظرات حاولت أن ترد اليه السكينة والأمن وتسبغ عليه ودّ الحبيبة واخلاص الزوجة وتضمه إلى صدرها فيجد فيها حنان الأم الذي يحميه من كل عدوان في هذه الدنيا .

وفي ذلك تقول بنت الشاطىء : هل كان لزوجة عداها ان تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته خديجة به من حنان مستثار وعطف فياض وايمان قوي دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب أو يتخلى عنها يقينها بأن الله غير مخزيه أبداً ، هل كان في طاقة سيدة غير خديجة غنية مترفة منعمة أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانب زوجها في أحلك اوقات المحنة وتشاركه في أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد في سبيل ما تؤمن به ، كلا بل هي وحدها التي اعدتها الأقدار لتملأ حياة النبي ، ولتكون له ثقة وطمأنينة وسلاماً .

فمن الوفاء لحقها العظيم على جميع المسلمين أن تتحدث عنها حسبما يسمح به الوقت ونحن بصدد الحديث عن أحفادها الأئمة الاثني عشر الذين

شاء الله أن تكون لهم امّاً وزوجها العظيم أباً .

وعن ابنتها فاطمة الزهراء التي آثرها الله بالنعمة الكبرى فحصر في ولدها ذرية الرسول وحفظ بها أشرف سلالة عرفها العرب في تاريخهم الطويل ، فكانت وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة والمنبت الطيب لعترة الرسول من أهله وذويه .

لقد ولدت خديجة بنت خويلد زوجة النبي الأولى من أبوين قرشيين ، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب .

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الاصم وتنتهي في نسبها إلى لؤي بن فهر بن غالب ، كما وأن أم فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث وتنتهي أيضاً إلى فهر بن لؤي بن غالب ، وبذلك كما يدعي الاخباريون تكون خديجة قد ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية وقد اجتمع لها بالاضافة إلى هذا النسب الرفيع الذكر الطيب والخلق الكريم والصفات الفاضلة وبلغ من علو شأنها أنها كانت قبل أن تتزوج بالنبي (ص) تعرف بالطاهرة وبسيدة نساء قريش وهي مع ذلك من أثرياء قريش وأوسعهم جاها ومفطورة على التدين بعامل الوراثة والتربية ؛ فأبوها خويلد هو الذي نازع (تبعاً الآخر) حين أراد أن يحمل الحجر الأسود معه إلى اليمن فتصدى له ولم ترهبه قوته وكثرة أنصاره حرصاً منه على هذا النسك من مناسك دينه . وابن عمها ورقة بن نوفل كان يعكف على دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منهما ، لا لأنه كان يعاشر النصارى واليهود ولا لأن مكة كانت مقراً لهما ، بل لأنه كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل ويبحث عن دين يطمئن إليه .

ويحدث الاخباريون والمؤلفون في سيرة الرسول أن النبي (ص) حينما رأى تباشير النبوة في غار حراء وسمع من يكلمه في الغار وعاد إلى بيته خائفاً غريب النظرات يقص على زوجته الوفية الصادقة ما رأى وما سمع ، اسرعت إلى ابن عمها لتقص عليه ما جرى للنبي (ص) فبشرها بمستقبله العظيم الذي سيهز العالم بأسره ويحدث تحولا في تاريخ البشرية ، وبما سيلاقيه من قومه من عسف

وجور واضطهاد .

لقد تزوجت السيدة خديجة قبل الرسول (ص) مرتين ، الزواج الأول من أبي هالة النباش بن زرارة فأولدت منه ولداً أسمته هندا أدرك الإسلام وكان من السابقين إليه ، وروى عنه الحسن بن علي (ع) حديث وصف النبي وتناقله عنه أكثر الرواة والمحدثين ، وشاع عنه أنه كان يقول : أنا أكرم الناس أبا وأماً وأخاً وأختاً .

وقد اشترك مع النبي (ص) في جميع حروبه وغزواته وكان مخلصاً للدعوة كأمه متفانياً في سبيلها إلى أبعد الحدود ، ولازم علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) وقتل معه في البصرة .

وبعد وفاة زوجها الأول أبي هند تزوجت من عتيق بن عايد المخزومي ورزقت منه بنتاً أسمتها هندا أيضاً بقيت في أحضان أمها وأسلمت منذ ظهور الإسلام وكانت من الصحابيات الكريمات اللواتي أخلصن للإسلام .

وبعد وفاة زوجها الثاني عتيق بن عايد المخزومي اعرضت عن الرجال وهي لا تزال في ريعان شبابها فخطبها أشراف قريش وقدموا لها العروض المغرية فلم تستجب لأحد منهم ، وظلت تعيش بعيدة عن الرجال ومشاكلهم طيبة النفس مرتاحة الضمير لأن أكثر الخاطبين كانوا يضعون في حسابهم ثروتها الواسعة حتى بلغت الأربعين من عمرها . ويروي المحدثون والمؤلفون في سيرة الرسول أنها كانت ترسل في تجارتها إلى الشام جماعة بأجر معين ، وقبيل زواجها بالنبي أرسلت اليه ليذهب في تجارتها وبذلت له ضعفي ما كانت تبذله لغيره لأنه كان حديث الناس رجالاً ونساء في أمانته وصدقه واستقامته ، فوافق على طلبها بعد ان استشار عمه أبا طالب ، وأرسلت معه غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها ، وكانت الرحلة ناجحة وموفقة نجاحا لم تصادفه رحلة قبلها ، وأسرع ميسرة قبل دخول القافلة مشارف مكة ليخبرها بما جرى وما حدث لمحمد في طريقه مع بحيرا وغيره من الأحداث التي لم يجدوا لها نظيرا من قبل .

وبدأت مكة تسمع ضجيج الركب وهو يقترب منها فخرج الناس لاستقباله وامتزج رغاء الابل بهتاف المستقبلين وضجيجهم ، هذا والصديقة

الكبرى خديجة في دارها تراقب طريق القافلة في لهفة ممزوجة بشيء في نفسها لا تجد له تفسيرا وإلى جانبها الغلام يملأ أذنيها بنجاح الرحلة وما جرى لمحمد في الطريق من الغرائب . وفيما هي غارقة في التفكير والتأمل وإذا بمحمد (ص) يدنو من دارها بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة فاستقبلته مرحبة بقدومه ومهنئة بسلامة العودة بكلمات تفيض عذوبة وحنانا ، ورد عليها شاكرا لها هذا الموقف ، وعاد يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارتها وما حمله معه من انتاج بلاد الشام مما تفتقر إليه أسواق الحجاز ،وأصغت إليه معجبة بحديثه وبشخصه الكريم الذي وجدت فيه من النبل وكريم الصفات ما لم تجده عند غيره من كهول مكة وشبابها المترفين حتى انتهى وخرج من دارها ، وظلت واقفة تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق متجهاً إلى حيث يقيم عمه الكفيل أبو طالب ، فاستقبله بلهفة وارتياح وهنأه بالعودة سالماً لم يمسه مكروه من أعدائه ولا من وعثاء السفر وبعد المسافة .

وبعد هذه الرحلة الموفقة يدعي المؤرخون أن خديجة التي أكبرت في محمد نبله وصدقه وجميع صفاته وما حدثها به ميسرة من غرائب الأحداث التي حصلت له في طريقه باتت ليلتها تفكر في أمره وبما سيكون له من شأن في مستقبله القريب ، وعادت تستعرض شمائله وسيرته الطيبة العطرة وتمنت لو أنها تصبح شريكة له فيما بقي من عمرها بعد أن نفضت يديها من الرجال وراحت تستعرض ما يحول بينها وبين ذلك ، وهل يستجيب ابن عبد الله مع شبابه الغض وفتوته الساحرة وصيته الذي ملأ القلوب والاسماع لعاطفة أرملة كهلة بلغت الأربعين وهو لا يزال في ريعان شبابه قد انصرف عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم ، وما هي بالنسبة اليه إلا كخالة أو أم ، ولو عاشت آمنة بنت وهب لذلك التاريخ لما تجاوزت سن الأربعين فكيف بها وقد بلغت هذا السن وتزوجت قبله مرتين ، وفيما هي في تلك الغمرة الهائجة من القلق والصور تتزاحم في نفسها ، وإذا بنفيسة ابنة منبه احدى صديقاتها تدخل عليها زائرة وعبثا تحاول خديجة بنت خويلد أن تعود إلى طبيعتها ، ولم يغب عن الزائرة ما في نفسها من القلق والاضطراب فلم تتركها حتى كشفت لها عما في نفسها ، فهونت عليها الأمر وتعهدت لها بأن تفاتحه في الزواج منها وتعمل على تحقيق أمنيتها

الغالية بكل ما أوتيت من خبرة ودهاء .

فقصدته وهو يخلو بنفسه وابتدأت حديثها معه تسأله عن أسباب عزوفه عن الزواج وقد تجاوز العشرين من عمره وأصبح في أمسّ الحاجة إلى امرأة يسكن إليها وتملأ دنياه بهجة وانسا ، فأمسك عن جوابها وتراكمت في نفسه صور عن مشاكل الزواج ويتمه وفقره واستمر في صمته وتفكيره ولكنها أعادت عليه الحديث لتسمع منه الجواب وأحرجته في أسلوبها وإلحاحها فابتسم وقال : والله ما بيدي شيء من المال لكي أتزوج به . وهنا وجدت نفيسة منفذا للمصارحة ، فردت عليه تقول : إذا دعيت إلى الجمال والشرف والمال والكفاءة ألا تجيب ، تلك هي خديجة التي لا يساويها أحد من القرشيات والمكيات . فرحب بتلك البادرة وعرضها على عمه أبي طالب فأشرق لها وجهه وغلبته ابتسامته واطمأن على مصير ابن اخيه الذي كان يفكر فيه أكثر من تفكيره بأعز أولاده عليه . وفي فترة قصيرة من الزمن تم التفاهم بين الزوجين على كل شيء ، فأسرع إلى بيتها وفي صحبته عماه أبو طالب والحمزة ، وكان كل شيء مهيأ لهذا الزواج الذي حططت له مشيئة الله ليكون عوناً لمحمد على أداء الرسالة التي تنتظره بعد سنوات قليلات .

وتم الزواج بينهما بعد كلمة قصيرة ألقاها أبو طالب جريا على المتعارف في مجلس الخطبة كما يدعي ذلك أكثر المؤرخين والمؤلفين في سيرة النبي (ص) كما روى جماعة منهم إلى جانب هذه الرواية الشائعة التي نصت على أن رحلته في تجارتها إلى الشام وما رافقها من نجاح وأحداث قد مهدت لهذا الزواج على النحو الذي صورناه إلى جانب ذلك روى جماعة منهم أن زواجه منها لم يكن من نتائج رحلته إلى الشام في تجارتها ولم تكن الواسطة بينهما نفيسة بنت منبه ، بل كان بواسطة اختها هالة وبناء لطلبها .

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي عن عمار بن ياسر أنه قال : أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله ، لقد كنت صديقا له وإنا لنمشي يوما بين الصفا والمروة وإذا بخديجة وأختها هالة معها ، فلما رأت رسول الله جاءتني اختها هالة وقالت : يا عمار مالصاحبك رغبة في خديجة ؟ فقلت لها : والله لا

أدري . فرجعت اليه وذكرت ذلك له ، فقال لي : ارجع فواضعها وعدها يوما نأتيها فيه ، فلما كان ذلك اليوم ارسلت إلى عمها عمرو بن أسد ودهنت لحيته وألقت عليه حبرا ، ثم حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدمهم أبو طالب فخطب في الحاضرين وتم الزواج بينهما .

وأضاف عمار بن باسر إلى ذلك أنها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن اجيراً لأحد أبداً ، كما أورد حديث زواجه منها على هذا النحو ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد الصورة الأولى الشائعة بين المحدثين .

وجاء في تاريخ ابي الفداء أنه بعد أن رجع من الشام وحدثها ميسرة بما حدث له في طريقه تعرضت له مباشرة وخطبته لنفسها وتم الزواج بينهما على عشرين بكرا .

وقد عرضت في كتابي سيرة المصطفى مراحل حياة النبي منذ طفولته إلى زواجه من خديجة ، والمرويات التي تحدثت عن زواجه ورجحت رواية عمار بن ياسر وذكرت الاسباب التي اراها مرجحة لها .

ومهما كانت الأسباب والملابسات التي اقترنت بهذا الزواج فمما لا شك فيه بأن زواجهما كان بناء لطلبها ورغبتها بعد أن ردت عن بابها الخطّاب من سادة قريش وأشراف مكة ، كما وأن محمداً (ص) كان له من شبابه وفتوته وشمائله وصفاته الكريمة التي عرف بها في مكة وجوارها ما يوفر له الزواج من أي فتاة أرادها من عذارى مكة وزهرات بني هاشم ، ولكن مشيئة الله سبحانه قد هيأت لهذا الزواج الذي لم تشهد مكة زوجين ينعمان بحياتهما الزوجية ويرتشفان على مهل رحيق ودٍّ صاف سيظل حديث الزمان ، وظلا خمسة عشر عاما ناعمين بالإلفة والاستقرار وأتم الله عليهما نعمته بالبنين والبنات كانت آخرهم الزهراء سيدة نساء العالمين .

قال الاستاذ كتاني في كتابه الزهراء : أن خمساً وعشرين سنة كانت مليئة بالحب والتفاني ذابت خديجة في حبها لزوجها وأخذت منه كل ما اعطاها وأعطته كل ما أخذ منها لقد كان الأخذ والعطاء بنسبة واحدة بدون أي شعور من الطرفين بأن الأخذ هو غير العطاء أو أن العطاء هو غير الأخذ . ومضى يقول :

لقد اعطت خديجة زوجها حبا وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه حباً فيه كل السعادة ، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنها تعطي ، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الأرض وهو بدوره اعطاها حبا وتقديرا رفعاها إلى أعلى مرتبة وهو لا يشعر بأنه قد اعطاها ، بل قال ما قام الإسلام إلا بسيف علي ومال خديجة ، وأعطاها مع ذلك عمره وزهرة شبابه ولم يتزوج بغيرها حتى غابت عن الوجود وهو لا يشعر بأنه اعطاها .

وكان يقول :

(لا والله ما ابدلني الله خيراً منها آمنت بي اذ كذبني الناس وواستني بمالها اذ حرمني الناس) .

بعد خمسة عشر عاما من تاريخ زواجها الفريد من نوعه والذي كان وسيظل حديث الناس ، لأنه كان سخيا في البذل والعطاء والصبر والتضحيات في سبيل المبدأ والعقيدة في أحلك الساعات وأقسى المراحل التي لا يقوى على تحملها انسان .

بعد هذه الأعوام التي أطل بعدها الزوج العظيم على الأربعين استقبل الزوجان ذلك الحدث الخطير لا في حياة تلك الأسرة الوادعة فحسب ولا في حياة قريش والعرب وحدهم ، بل في حياة الانسانية جمعاء ، فقد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء ايذانا بحياة جديدة شاقة مليئة بالاضطهاد والمتاعب والنضال المرير .

وفي الحق أن ذلك الحادث الذي نريد أن نمر عليه مرورا خاطفا لنشير إلى دور تلك الزوجة الفاضلة فيه ، هذا الحادث لم يكن مفاجئاً لمحمد بن عبد الله بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولم يكن يستبعد أن ينتهي إلى شيء من تأملاته العميقة وتفكيره الطويل في خلواته بنفسه بعيداً عن الناس ليجد المناخ الملائم للتفكير والتأمل في الكون وتقلباته وما فيه من الكائنات ، ويستشف أدق ما فيه من أسرار ليلمح من ورائها قوة عظمى خفية تدبر وفق نظام دقيق ونواميس منتظمة متناسقة .

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون .

وهو مع ذلك يستخف بقومه ، ويستبشع منهم تقديس تلك الأصنام التي كدسوها حول الكعبة وقدموا لها القرابين وعبدوها من دون الله وهي لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم سوءاً .

لقد كانت مواقفه تلك توحي إليه أنه سينتهي إلى شيء ، ويحس من خلالها أنه سيدنو من الحقيقة الكبرى وسينجلي له السر الأعظم ، وظل يتابع مواقفه هذه وقد أشرف على الأربعين من عمره وألف الخلوة في غار حراء واستطابها ، وما كانت خديجة وقد قاربت الستين من عمرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحول بينها وبينه في أكثر الأحيان ، أو تحاول أن تعكر عليه صفو تأملاته ، بل كانت تحوطه بالرعاية والهدوء ما دام في بيتها ، فإذا انطلق إلى حراء ظلت عيناها تشخص إليه ولا تفكر بشيء سواه ، وترسل إليه من يحرسه ويرعاه ولو من بعيد بدون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه وحدته .

وهكذا كان يبدو على الزوج العظيم وكأنه مهيأ لاستقبال تلك الرسالة ، ولكنه بالرغم من ذلك فما جاءه الوحي وهو معتكف في الغار حتى انطلق يلتمس بيته مع ظلمة الفجر مرتعد الأوصال ، حتى بلغ حجرة زوجته الوفية الصادقة ، فأحس وكأنه قد بلغ مأمنه . وجلس إلى جانبها يحدثها بكل ما جرى وما حدث معه في الغار وقد بدا عليه الاجهاد ، فأقبلت عليه بلهفة الأم الرؤوف وهتفت به في ثقة ويقين قائلة أبشر يا ابن العم وثق بأن الله لا يخذلك أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر ، وما زالت به حتى هدأ روعه وأحس بالراحة والطمأنينة وهي تهيء له فراشه وتأخذ بيده إليه كما تفعل أم بطفلها الوحيد ، وما زالت به حتى اطمأن إلى النوم وغرق فيه ، فانسلت من الحجرة ثقيلة الخطا حتى إذا بلغت الطريق اندفعت تجري نحو ابن عمها ورقة بن نوفل ومكة لا تزال تنعم بغفوة الصبح ، وقد بدأت تباشير الفجر تسير على مهل نحو النهار . وجاءت ابن عمها فأقعدته من فراشه وقد ظهر عليه الإعياء من آثار الشيخوخة فأخذت تحدثه وهو يصغي إلى

ما تحدث بـه من أنباء محمـد وما جـرى له في الغـار ، فاستعـاد نشاطـه وأشرقت أساريره لحديثها وانتفض يقول :

قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي مـوسى وعيسى بن مريم ، وأنـه لنبي هذه الأمـة قولي له فليثبت ، وليكن على يقين من أمره .

فانطلقت نحو بيتها بسرعة من غير أن تنتظر منه المزيـد من البيان مـطمئنة وكـأنها تأخـذ من وحي السماء ، انـطلقت لتزف إليـه البشرى بـالنبـوة التي كـان يترقب ظهورها في شبه الجزيرة ابن عمهـا ورقة ، وعمـرو بـن نفيل وغيـرهما من المتألهين والكهنـة والرهبـان ، فإذا بـه لا يزال نـائماً كـما تركتـه فوقفت إلى جنبـه ووجهها يطفح بالبشر وغابت عنها جميع الهـواجس التي مرت بخيـالها حينـما رأته بعد رجوعه من الغار خائفاً شاحب اللون .

وعزَّ عليها أن تـوقظه من نـومه وظلت واقفـة إلى جانبـه تنظر إليـه بلهفة وحنان ، وفيما هي غـارقة في التفكـير بمستقبله السعيد وإذا بـه ينتفض في فراشـه ويثقل تنفسه ويتقاطر العرق من جبهته واستمر على ذلك فترة من الوقت قبل أن يعود إلى حالته الطبيعية وكأنه يستمع إلى محـدث ، كلّ ذلـك والصديقـة الكبرى تنظر إليه وقد عاودها القلق لحاله .

وانتبه بعد أن سرى عنه الوحي يتلو ما أوحي إليه .

يا أيها المدَّثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فـاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر .

ونظر إليها ملياً بنظرة تفيض بالشكر والامتنان وقد بـدا عليها القلق لحـاله فرغبت إليه أن يستمر في نومه فقال لها :

لقد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، هذا الأمين جبرائيل يـأمرني أن أنــذر النـاس وأدعــوهم إلى الله وعبـادتــه ، فمن ذا أدعــو ومن ذا يستجيب لدعائي .

فمضت به من ساعته إلى عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما جرى له ، ولم يكد يراه حتى صاح والذي نفسي بيده أنك لنبي هذه الأمة ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن وتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله فيك . ثم دنا منه وقبل يافوخة ، فقال له النبي :

أومخرجي هم .

فقال له :

نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي ، ليتني أكون جذعاً ليتني أكون فيها حياً .

فطابت نفس النبي (ص) بما سمع وآب إلى بيته ليبدأ نضاله في سبيل الدعوة مهما كلفه ذلك من جهد وتضحيات ، وهو يعلم أن قريش لا تتنازل عن كبريائها وجبروتها ، وهي ترى أن محمداً يسخر من الأصنام والأوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين من عشرات السنين ويدعو إلى إله واحد لا شريك له ولا نظير وإلى تحرير العبيد والمستضعفين من تسلط السادة والمترفين .

ووقفت زوجته إلى جانبه من اللحظات الأولى بنفسها ومالها وجاهها تنصره وتشد أزره وتشاركه كل أنواع الأذى والاضطهاد والحرمان في جميع المراحل التي مرَّ بها كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين والمحدثين .

ولما اتفقت قريش على مقاطعة الهاشميين والتضييق عليهم وحرمانهم حتى من ضرورات العيش وأخرجتهم من مكة إلى شعب أبي طالب وضيقت عليهم الحصار حتى يموتوا جوعاً أو يعودوا إلى قريش وآلهتها ، لما اتفقت قريش على ذلك ونفذت بنود الاتفاق لم تتردد السيدة الجليلة في الخروج مع زوجها العظيم وتخلت عن دارها ومالها تاركة كل ذلك بنفس طيبة مطمئنة بحسن المصير وأن الفوز في النهاية سيكون للمؤمنين بحقهم والصابرين على الأذى في سبيل الله .

وأقامت معه في الحصار نحواً من ثلاث سنوات تشاركه أهوال الحصار ومرارة الجوع والحرمان وقد أشرفت على الشيخوخة المضنية تكافح الوهن الذي أخذ طريقه إلى جسمها وقد تخطت الستين وظلت إلى جانب محمد (ص) والمحاصرين معه من القلة المؤمنة التي صبرت على كل أنواع الضيم وعلى صراخ

الأطفال من الجوع والحرمان وتحدت قريشاً وغطرستها وعددها وعدتها .

وكان من المحكوم على تخطيط قريش أن يفشل كما فشلت في التدابير التي اتخذتها من قبل فدب الخلاف بين الذين تعاقدوا على الحصار وأرسل الله الأرضة لتأكل الصحيفة ما عدا لفظ الجلالة ، واتفق جماعة من وجوه المكيين على رفع الحصار وإفساح المجال للهاشميين ليرجعوا إلى بيوتهم ، وعادت قريش تجر من ورائها الخزي والعار والخذلان ، وتعاظم أمر النبي (ص) واتخذت دعوته طابعاً جديداً بعد فشل محاولات قريش وخذلانها . وشاءت الأقدار والدعوة في عامها العاشر أن يفقد النبي عمه أبا طالب أقوى أنصار الدعوة وأصلبهم عوداً في وجه محاولات قريش وأتباعها ، وبعده بأيام أو شهور حسب اختلاف الروايات فقد شريكته في الجهاد والبذل والتضحيات التي صدقته وآمنت به منذ أن قص عليها حديث الوحي ، وبذلت في سبيله كل مالها وراحتها وظلت تبذل وتعطيه مما تملك من إمكانياتها حتى النفس الأخير ، فعز ذلك على النبي (ص) وتلفت إلى مكة فوجدها موحشة من عمه المحامي والكفيل ، وإلى داره فوجدها خالية موحشة من شريكته في البذل والعطاء والتضحيات .

واشتدت قريش عليه في ذلك العام الذي سماه عام الأحزان ، وظنت قريش بأن الظلمات قد تكاثفت من حوله وأن آماله وأمانيه قد تحولت إلى يأس وخيبة ، ولكن سرعان ما تبددت أمانيهم وخابت ظنونهم وبدا محمد (ص) ومن معه من المسلمين أشد ثباتاً وأكثر تصميماً وأمضى عزيمة من ذي قبل يفتدون الدعوة بالمهج والأرواح ويرون الاستشهاد في سبيلها مجداً وانتصاراً .

لم يمت أبو طالب وخديجة إلا بعد أن مرت الدعوة بمراحل واسعة وتخطت مكة وجوارها إلى جميع أطراف الحجاز وإلى ما وراءها من البلاد المتاخمة لحدوده ، وأصبحت حديث الناس في كل بقعة ومكان ، وحملتها فئة من صحابته عبر البحار إلى الحبشة تاركين أهلهم وديارهم ليعرضوا على الدنيا صوراً من الإيمان والبطولات والتضحيات التي برزت في حياة محمد وصحبه الأكرمين ليجمع الناس كلهم على صعيد الإيمان بالواحد الأحد والمحبة والعمل لخير الناس أجمعين .

لقد ماتت خديجة وغابت عن دنيا الناس ، ولكنها ظلت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي ودخلت في حياته من بعدها نساء عديدات حسبما يحدث بذلك التاريخ ، ولكن مكانها من قلبه وفي دنياه ظل خالياً لم تشغله امرأة غيرها ، ولم تستطع واحدة منهن أن تحتل مكانها وأن تفلح في ابعاد طيفها من قلبه ونفسه الذي كان يتبعه حيث يسير . وشهد بيته عائشة بنت أبي بكر وهي في مطلع صباها ونضرة شبابها تستبد بها الغيرة من خديجة التي سبقتها إلى قلبه ، لأنه ظل يردد اسمها ووفاءها في كل صباح ومساء .

لقد وفدت على المدينة اختها هالة ، فما أن سمع محمد صوتها حتى تذكر صوت اختها الراحلة ، فخفق لها قلبه وصاح مرحباً بك يا هالة . فلم تملك عائشة نفسها حتى هتفت به تقول .

ما زلت تذكر بحسرة وألم عجوزاً من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من عدة سنين وقد أبدلك الله خيراً منها[1] .

ومع أنه كان واسع الصدر صبوراً على الأذى لا ينفعل لكلمات عابرة من هذا النوع ، بدا عليه الانفعال وتغير لونه والتفت إليها وقد استولى عليه الغضب وقال :

والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء[2] .

فأمسكت عائشة عن الكلام وهي تقول :

والله لا أذكرها بعد اليوم .

ولكنها الغيرة كانت تستبد بها في أكثر الأحيان ، فلا تملك نفسها إذا ذكرها النبي (ص) لمناسبة من المناسبات وما أكثر المناسبات التي كانت تذكره بها ، فلا تملك نفسها أن تنال منها وتقول :

---

(١) المحب الطبري والسمط الثمين .

(٢) المصدر السابق والاستيعاب لابن عبد البر .

كأن لم يكن في الدنيا غيرها ، وعندما يسمع منها ذلك يأخذ في تعداد محاسنها ومواساتها له وبذلها السخي في سبيل الله والإسلام .

ويحدث الرواة عنه أنه كان إذا ذبح شاة يقول :

أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فيوزع عليهم منها .

فإذا عاتبته عائشة على ذلك يقول :

والله إني لأحب من كان يحبها(١) .

وجاء عن عائشة أنها قالت في أكثر من مناسبة :

ما حسدت أحداً كما حسدت خديجة وما تزوجني رسول الله إلا بعد أن ماتت .

وأحياناً تقول :

ما غرت من امرأة لرسول الله كما غرت من خديجة حينما كنت أسمع رسول الله يذكرها ، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين .

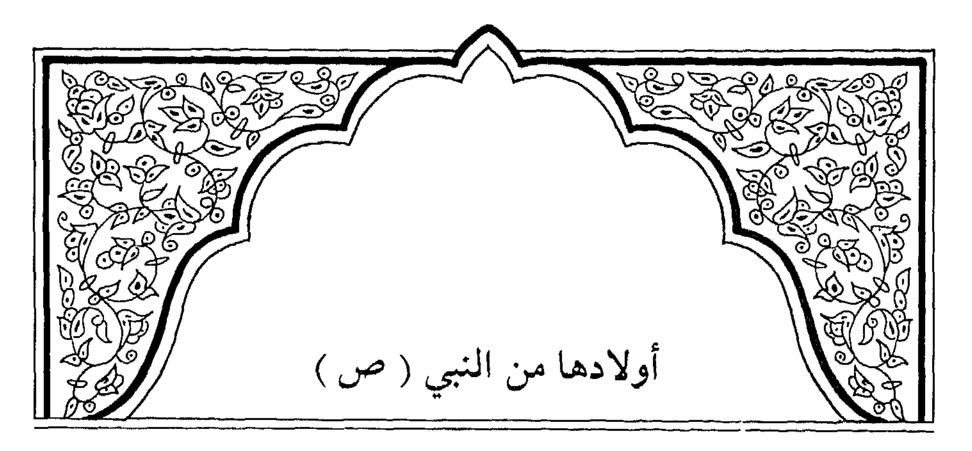
وحتى يوم الفتح وقد مضى على وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالأحداث نرى رسول الله وقد دخل مكة يختار مكاناً لينزل فيه قريباً من قبرها في قبة بنيت له إلى جوار القبر ليشرف منها على فتح مكة كما جاء في حوادث السنة الثامنة في المجلد الثالث من تاريخ الطبري .

وستدخل في الإسلام بعد خديجة مئات الملايين من النساء ، ولكنها ستبقى وحدها من تلك الملايين المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور العظيم في بناء الإسلام ، رمزاً للوفاء والمحبة والإيثار لزوجها الذي كانت أول من صدقه وآمن به وبذلت له راحتها ومالها وهان عليها كل شيء في سبيله .

وجاء في سيرة ابن اسحاق أن رسول الله (ص) كان لا يسمع شيئاً يكرهه ويحزنه إلا فرجه الله عنه بخديجة تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس حتى فارقت الدنيا .

---

(١) نفس المصدر .



أولادها من النبي (ص)

لقد أنجبت السيدة خديجة الكبرى للنبي (ص) من الذكور اثنين القاسم وبه كان يكنى وعبد الله الملقب بالطاهر والطيب ، وقيل أن الطاهر والطيب ولدان من أولادهما ماتا صغيرين ، والمشهور بين المؤرخين والمحدثين أنها لم تلد له من الذكور سوى القاسم وعبد الله كما ذكرنا ، وعاش القاسم نحوا من سنتين ، وقيل أكثر من ذلك ، وأنجبت له من البنات كما هو المشهور بين الرواة والمؤرخين أربعاً ، وهن زينب ورقية وأم كلثوم والزهراء ، وقيل أنها لم تلد له سوى زينب والزهراء ، أما رقية وأم كلثوم فمن صنع الوضاعين أضافوهما إلى بناته وزوجوهما لعثمان بن عفان على التوالي ليكون الكفء الكريم عند الرسول لبناته كغيره ممن صاهروه ولقبوه بذي النورين لمناسبة زواجه من بنتيه ، وليس ذلك ببعيد .

وقيل أنها قد أولدت له ثلاثاً زينب ورقية والزهراء ، والقول الأول هو الشائع والمشهور عند المحدثين والمؤرخين . ولا يهمنا تحقيق هذه الناحية في حين أني أرجح القول الأخير وقد أضاف الوضاعون إلى بناته الثلاثة أم كلثوم وزوجوها لعثمان بعد اختها رقية ليكون ذا النورين أو لغير ذلك من الأسباب التي ترفع من شأنه بنظر الوضاعين .

وقضت مشيئة الله سبحانه أن يفقد النبي (ص) البنين من أولاده في سن الطفولة ولا يبقى له سوى البنات ، في تلك البيئة التي كانت لا ترى للبنت وزناً مهما بلغ شأنها ، وبلغ اسرافهم في كراهية البنت إن فريقاً من العرب كانوا

يـدفنونها حيـة ويعدون من لا عقب لـه من الـذكـور مبتـوراً ، وقـد بـدا عليهم الاستخفاف بالنبي (ص) حينما مات صبيتـه الذكـور وقالـوا : لقد أصبـح يتيم عبد المطلب مبتور الذكر وسموه الأبتر ، فأنزل الله عليه بهذه المناسبة السورة :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وكان وأد البنات شائعاً قبيل نزول الـوحي على النبي عنـد بعض القبائـل العربية كتميم وقيس وأسد وهذيـل وبكر بن وائـل ، وقيل كما في مجمع الأمثـال للميداني وبلوغ الأرب في أحوال العرب للنويري أن وأد البنات كـان شائعـاً بين جميـع القبائـل ونظراً لبشـاعة تلك المأساة وعنف صـداها حـاول بعض الكتّاب تطويقها في مناطق محدودة وظروف خاصة ، وعلى أي الأحـوال فليس باستـطاعة أحد أن ينفي هذه الجريمة عن العرب ويطهـر تاريخهم منهـا بعد أن تـواترت بهـا الأنباء وندد بها القرآن الكريم في الآية من سورة التكوير :

﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ .

وفي الآية :

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهـو كظيم ﴾ .

﴿ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون ﴾ .

أما الأسباب التي كانت تدعوهم إلى ارتكاب تلك الجريمة البشعة والكيفية التي كانت تتم بها ، فالذي يبدو من بعض أخبارهم أنهم كـانوا يقـدمون عليهـا لأسبـاب اقتصاديـة وذلك عنـدما يتعـرض رب الأسرة لعـوادي الزمن وحـوادث الدهر مع عجزها عن العمل والمقاومة في حين أن البنين أقوى منهن ويتاح لهم ما لا يتاح للبنت وفي ذلك يقول بعض شعراء العرب :

وزادني رغبـة في العيش معـرفتي ... ذل اليتيمـة يجفـوهـا ذوو الـرحم
أخشى فـظاظـة عم أو جفـاء أخ ... وكنت أبكي عليها من أذى الكلم
تهـوى حياتي وأهـوى موتها شفقاً ... والموت أكـرم نـزال عـلى الحـرم
إذا تـذكـرت بنتي حـين تنـدبني ... فـاضت لعبـرة بنتي عبـرتي بـدم

ووصف حالته بعد وأدها بقوله :

فـالآن تمـت فـلا هـمّ يـؤرقـني بعـد ا لـدوء بـلا وجـد ولا حلم

كما وأن القرآن الكريم يشير إلى ذلك في الآ ية من سورة الإسراء :

﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ .

وفي الآية من سورة الانعام :

﴿ **قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألّا تشركوا بـه شيئاً وبالوالـدين إحسـانـاً ولا تقتلوا أولادكم من امـلاق نحن نـرزقكم وإيـاهم ولا تقربـوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ .

كما تؤكد بعض أخبارهم أنهم كانـوا يرتكبـون هذه الجـريمة خـوف العار والفضيحة فيما لو شذت البنت في سلوكها وخرجت على عادة الأسرة وتقاليدها ، وبهذه المناسبة يدعي بعض المؤرخين أن أول من فعل ذلـك لقمان بن عـاد من العرب البائدة بعد أن روع بخيانة نسـائه فقتلهن انتقـاماً وتشفيـاً كما قتـل بناتـه أيضاً .

ويرى بعض المؤرخين والمفسرين كالقرطبي والنيسابـوري أن النعمان بن المنذر اغار على تميم حينما امتنعت عن دفع الضريبة التي كان قـد فرضهـا عليها فقتل منهم وسبى نساءهم ، ولما ذهب قيس بن عاصم شيخ القبيلة ليسترد نساءه المسبيات تمنعت إحدى بنـاته من الـرجوع معـه وآثرت أن تبقى مـع النعمان بن المنذر فعاد قيس وكأنما أضيب بالجنون فوأد كل بناته ومضى على ذلك لا تولد لـه بنت إلا وأدها فاقتدى به رجال من تميم وغيرهم .

بينما يرى فريق آخر من الكتّـاب أن وأد البنات قـد انتقل إلى العـرب فيما انتقل إليهم من الأمم السابقة الذين كانوا يقدمون البنـات قرابـين إلى الآلهة كـما كان يفعل المصريون القدامى الذين يقـدمون كـل عام عـروساً من أجمـل فتياتهم قرباناً إلى النيل ، ومهما كان الحال فمما لا شك فيه بأن وأد البنات كـان موجـوداً عند العرب وشائعاً بينهم ، ومن مجموع المرويـات حول أسبـابه يمكن القـول بأن بعضهم كـان يفعله خوف الفضيحـة والعار وبعضهم كـان يهبها لله كـما تشير إلى ذلك بعض الآيات ﴿ **ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون ، أم له البنات ولكم**

البنون ، ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ .

وقد ذكرنا أن بعضهم كان يفعله مخافة الفقر والحاجة كما تشير إلى ذلك الابيات السابقة . وجاء في أخبار العرب أن صعصعة بن ناحية وعمرو بن زيد بن نفيل قد استنقذا عشرات البنات من آبائهن وتعهدا لهم بتربيتهن ، وكان أول عمل من هذا النوع قام به صعصعة بن ناحية فقد مرّ برجل من تميم يحفر حفرة وإلى جواره امرأة تبكي وهي متعلقة بوليدة لها ولما سألها عما بها قالت إن زوجي هذا يريد أن يئد ابنتي فانثنى صعصعة على الرجل يسأله عن السبب فأجابه بأن الفقر قد دعاني إلى ذلك فاقتداها منه بناقتين معهما أولادهما وظل لا يسمع بعمل من هذا النوع إلا وأقبل عليه وفي ذلك يقول بعض من ينتسبون إليه :

ومنا الذي منع الوائدات وحيا الوئيد فلم يوأد

أما كيف كان الوأد فيصفه لنا الزمخشري في المجلد الرابع من كشافه ص ١٨٨ فيقول :

كان يخرج الرجل بوليدته وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تسوي البئر وقيل غير ذلك .

ومهما كانت كيفيته فلقد حاربه الإسلام وندد به حتى محاه من الوجود وأصبح قصة على لسان الرواة من جملة ما يروونه من أخبار الماضي ، ولم يكتف بذلك بل رفع من شأن المرأة وساوى بينها وبين الرجل في كثير من شؤون الحياة ، وقال الرسول (ص) :

إن أحسن الناس عند الله من أحسن صحبة أزواجه وبناته .

ومهما كان الحال فجميع بنات الرسول قد بلغن الصبا وتزوجن في حياته فكانت كبراهن زينب من نصيب العاص بن الربيع وأمه هالة شقيقة خديجة وكان زواجها ناجحاً لم يتأثر بضغوط قريش ولا بالمغريات التي بذلتها له مقابل فراقها ، وظل وفياً لها حتى بعد هجرة أبيها في حين أنه لم يكن يوم ذاك قد أعلن إسلامه ، وقد اضطرته قريش للخروج معها إلى بدر فوقع أسيراً في أيدي المسلمين مع من أسر من المشركين ، وأطلقه النبي (ص) بدون فداء وشرط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه أن يرسل ابنته زينب إلى المدينة عند رجوعه إلى مكة ، فوفى للنبي بذلك فور وصوله كما عرضنا ذلك في كتابنا سيرة المصطفى .

وخلال السنة السادسة من الهجرة شاءت المقادير أن تقع تجارة قريش غنيمة بيد المسلمين ، وكانت بإشراف أبي العاص ، ففر من تلك السرية لينجو بنفسه تاركاً وراءه كل ما في القافلة من أموال وأمتعة ، ودخل في جوف الليل وسكونه بيت زوجته زينب وكان الإسلام قد فرق بينهما ، فاستجار بها لتكون له شفيعة عند أبيها والمسلمين فاستجابت لطلبه وأدخلته بيتها وخرجت منه في فجر تلك الليلة حيث يجتمع المسلمون مع أبيها لصلاة الفجر ، وفيما هم يتأهبون للصلاة وإذا بصوت زينب يدوي في أنحاء المسجد وهي تقول :

ألا وأني قد أجرت أبا العاص بن الربيع وطلبت من أبيها والمسلمين أن يجيروه ويردوا عليه ما غنموه من أموال وأمتعة فاستجاب لها المسلمون وردوا عليه ما أخذوه منه .

فأسرع يجدّ السير باتجاه مكة ليؤدي الاموال لأصحابها ، وفور وصوله وزع ما معه من الاموال والامتعة على اصحابها وأعلن اسلامه على ملأ من قريش وكرّ راجعا باتجاه يثرب ، وما أن دخلها حتى رد عليه النبي (ص) زوجته بعقد جديد وظل وفيا لها طيلة حياته إلى أن وافتها المنية في مستهل العام الثامن من هجرة الرسول (ص) متأثرة بعلتها التي لازمتها منذ القت جنينها على أديم الصحراء وهي خارجة من مكة يوم أرسلها زوجها مع أخيه إلى المدينة بعد معركة بدر الكبرى وسارت قريش في طلبها كما ذكرنا ذلك مفصلا في كتابنا (سيرة المصطفى) .

وأما رقية وأم كلثوم فقد استعان عبد العزى المعروف بأبي لهب بأخيه أبي طالب ليخطبهما إلى ولديه عتبة وعتيبة من أبيهما لعلمه بأن محمدا لا يرد لعمه أبي طالب طلبا ، وتم زواج الاختين إلى الشقيقين كما شاء أبو لهب وزوجته أم جميل حمالة الحطب ، وانتقلتا إلى بيتهما الجديد ، وقلب خديجة لم يكد يرتاح لحالهما أو ينساهما رحمة لهما واشفاقا عليهما مما كانت تتخوفه من أم جميل المعروفة بطبعها الجامح ولسانها السليط الذي لا يوفر احداً وقلبها المتحجر الذي لا يرق لأحد .

لقد كانت خديجة تعرف كل ذلك عن أم جميل وتتلوى اشفاقاً على ابنتيها فيمنعها احيانا من الرقاد ، ولكن لم تكن لتفضي بذلك إلى زوجها العظيم الذي تراه يزداد يوما بعد يوم ميلا إلى الوحدة واغراقا في التأمل ونزوعا إلى الصمت الطويل ، وعزوفا عن الدنيا ومفاتنها ومشاكلها ، وتتمنى لو انها تشاركه همومه وتحمل معه العبء الذي تحسه ثقيلا لا يقوى على حمله واحد من الناس .

ولم تكن أحاسيسها نحو ابنتيها من نسج الخيال ، ولا هي مخاوف لا تعتمد على أساس مقبول بل كانت عن خبرة بأخلاق جارتها أم جميل ، وما كان النبي (ص) يصدع بالدعوة ويدعو إليها حتى وقفت قريش بكل قوتها في وجهه ، ولم تكن أم جميل وزوجها عبد العزى بأقل حماسا وتهجما على محمد من غيرهما من زعماء قريش وقادتها الاشداء ، وقد بدأوا يعدون الخطط لحربه والوقوف صفا واحداً لاحباط مساعيه ، وكان من بين تلك ارجاع بناته إليه لايذائه ، ومشوا إلى اصهاره الثلاثة واحداً بعد واحد يحرضونهم على محمد وعلى ترك بناته ووعدوهم بالزواج بمن أرادوا من فتيات قريش ، فأما أبو العاص بن الربيع فقد أبى أن يتخلى عن زينب مؤثراً إياها على جميع النساء .

وأما عتبة وعتيبة فقد استجابا لطلب قريش وأم جميل على الفور تنفيذاً لرغبة أمهما التي كانت تكيد لبني هاشم الذين استأثروا بالمجد والجاه دون قومها بني عبد شمس ، وفي الوقت ذاته أرادت أن تشفي غليلها وحقدها من خديجة التي كانت السيدة الأولى في مكة بلا منازع .

وعادت البنتان إلى بيت أبيهما الذي عاشا فيه سعيدين حتى أدركهما الصبا ، وأقاما إلى جانب أمهما ومضى محمد يتابع دعوته من غير أن يرى في رجوعهما ضيقا أو حرجا يشغله عنها ، ولم تمض سوى مدة يسيرة حتى جاءه عثمان بن عفان خاطباً ابنته رقية فزوّجه إياها كما يدعي اكثر المؤرخين وهاجرت معه إلى الحبشة لما اشتدت قريش في مطاردة المسلمين ورجعت معه منها فأقامت معه إلى السنة الثانية من الهجرة ، وتوفيت والنبي (ص) خارج المدينة حيث خرج مع اصحابه لمعركة بدر وتخلف عنه عثمان ليساعد زوجته على مرضها فلم يشترك مع المسلمين في تلك المعركة ، وتم دفنها في اليوم الذي رجع فيه النبي

منتصراً إلى المدينة ، وبقيت أختها أم كلثوم في بيت أبيها مع أختها الزهراء ، فشهدت عودة أبيها منتصراً من بدر كما شهدت موت شقيقتها أم كلثوم . ويدعي المؤرخون أنه بدخول العام الثالث وخلال شهر ربيع الأول منه والنبي (ص) في بيته وإذا بعمر بن الخطاب يدخل عليه والغضب باد على جبينه ليشكو إليه أبا بكر وعثمان كما يدعي المؤلفون في سيرة الرسول ، فقال :

يا رسول الله لقد عرضت على احدهما بعد الآخر أن يتزوج من ابنتي حفصة .

فسكت أبو بكر وقال عثمان :

إني لا أريد أن اتزوج الآن .

ويضيف الراوي إلى ذلك أن النبي (ص) قال لعمر بن الخطاب ملاطفا :

سيتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة كما جاء ذلك في الاستيعاب والسمط الثمين للمحب الطبري .

وتزوج النبي (ص) بعد ذلك من حفصة بنت عمر ، وجاءه عثمان خاطبا أم كلثوم فزوّجه إياها كما يدعي اكثر المؤرخين ، وبقيت معه نحوا من ست سنين كان الإسلام خلالها قد قطع اشواطا إلى الامام ودخل فيه أكثر عرب الحجاز ، وأصبح مرهوب الجانب ، وبخاصة بعد صلح الحديبية وما تلاه من انتصارات في خيبر ومكة وهوازن وغير ذلك من الغزوات والمعارك التي كان النبي (ص) يخرج مؤيداً مظفراً .

وتشير المرويات الكثيرة أن عثمان بن عفان لم يحسن صحبتها ولم يراع رسول الله فيها فتزوج عليها اكثر من امرأة وماتت على اثر ضربات قاسية منه أدت إلى كسر أضلاعها ، وكان قد خرج لتشييعها جنبا والنبي كاره لوجوده بين المشيعين بعد أن تسبب بوفاتها ، فتوجه النبي إلى المسلمين وقال من كان منكم في جنابة فلا يحضر الجنازة وهو يعني بذلك عثمان بن عفان ، فتجاهل كلام النبي (ص) ولكنه (ص) ظل يردد قوله ويتهدد بأن يعلن عن اسمه إذا لم

ينسحب، وأيقن عثمان أن أمره سينكشف إذا بقي على موقفه، فترخص من النبي (ص) محتجا بأن ألما قد أصابه وانسل من بين المشيعين مرغما ، وكانت وفاتها خلال شعبان من السنة التاسعة لهجرة النبي (ص) .

وجاء في تاريخ الخميس عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة أن النبي (ص) قال للمشيعين :

هل منكم احد لم يقارف أهله الليلة .

فقال أبو طلحة :

أنا يا رسول الله .

فقال :

انزل قبرها فوارها .

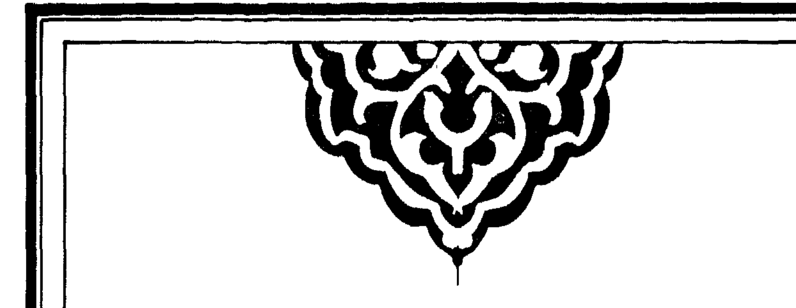
فنزل في قبرها أبو طلحة زيد بن سهل الانصاري ، وروى هذا الحديث البخاري وجماعة غيره من المحدثين .

وجاء في المجلد الثاني من الغدير ص **٢٣٢** عن الطبري عن جماعة عن النبي (ص) أنه قال أيكم لم يقارف أهله الليلة ؟ فسكت عثمان لأنه كان قد اتصل ليلة وفاتها ببعض نسائه ولم يشغله موتها عن ممارسة شهواته ، وذلك أمر قلما يصدر من رجل فقد امرأته وشريكة حياته .

وفسّر الخطابي أبو سليمان عدي محمد البستي الاقتراف بالذنب ، ومهما كان الحال فالحديث على تقدير صحته يدل على عدم اكتراثه بموتها ، وفي ذلك إشعار بعدم صحة الحديث الذي رواه جماعة عن النبي (ص) أنه قال له بعد موتها : لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان كما جاء في الطبقات الكبرى وغيرها . هذا في حين أني أشك في أصل وجودها وزواجها من عثمان وفي كل ما روي عن النبيّ وغيره خلال تشييعها ودفنها لأن ذلك ليس من خلق النبي (ص) .

هذا بالاضافة إلى أن المرويات التي تحدثت عن هجرة علي (ع) إلى المدينة بعد أنْ نفذ ما أوصاه به النبي (ص) لم تشر إلى أنه قد حمل معه من

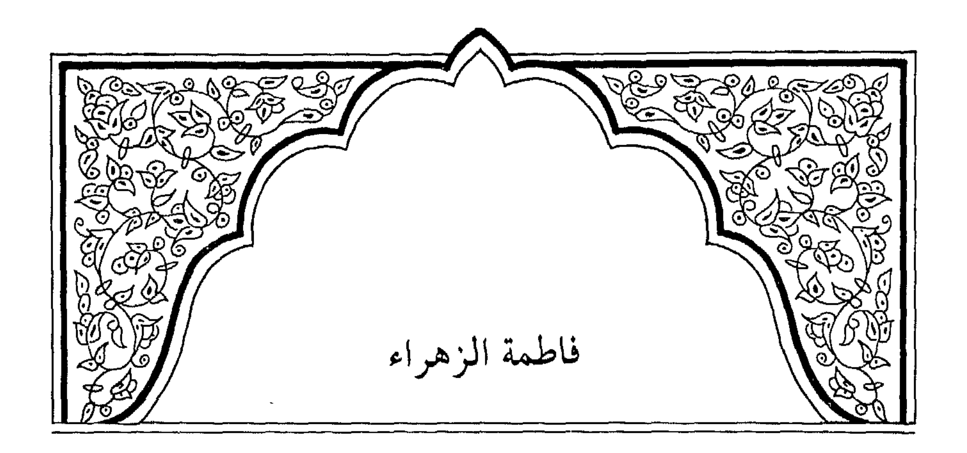
بنات النبي غير فاطمة الزهراء ومن غير المعقول أن يحمل معه الزهراء وفاطمة بنت الحمزة وأمه فاطمة بنت أسد وأم لبنى ويترك أم كلثوم بنت النبي تحت رحمة قريش في مكة والله أعلم بواقع الحال .



فاطمة الزّهراء

"سيّدة نساء العالمين"





فاطمة الزهراء

التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها كما جاء في بعض الروايات والتي قضت مشيئة الله أن تنحصر بها ذرية محمد بن عبد الله وأن يكون أشرف الخلق وسيد الأنبياء أباً لأولادها .

لقد كانت الزهراء رابعة بنات النبي (ص) واختلفت الروايات في تاريخ ولادتها . ففي رواية الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني عن حبيب السجستاني عن الامام محمد الباقر (ع) أنها ولدت بعد مبعث النبي بخمس سنين وتوفيت وهي في الثامن عشر من عمرها ، وفي رواية الشيخ الطوسي في مصباحه وغيره أن ولادتها كانت في العشرين من جمادى الآخرة بعد مبعث النبي بسنتين في يوم الجمعة .

وجاء في رواية ثانية في المصباح أن ولادتها كانت بعد خمس سنوات من مبعثه ، وأكثر الروايات السنية متفقة على أنها كانت قبل مبعثه بخمس سنوات ، وفي ذلك تقول بنت الشاطىء في حديثها عن بنات النبي (ص): لقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش محمدا حكما فيما شجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود عند تجديد بناء الكعبة المكرمة فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا به احتفالا لم تألفه مكة في مولد انثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد ، وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل اخواتها لها وبخاصة كبراهنّ زينب التي كانت لها بمثابة أم صغيرة .

ومهما كان الحال في تاريخ ولادتها فلقد نشأت بين أبوين ما عرف التاريخ أكرم منهما ولا كان لأحد في تاريخ الانسانية ما لأبيها من الآثار التي غيرت وجه التاريخ ودفعت الانسان العربي أشواطاً بعيدة إلى الامام في بضع سنوات معدودات ، ولا حدث عن أم كأمها اعطت مالها ووهبت كل ما لديها وحتى حياتها لزوجها العظيم مقابل ما اعطاها من هداية ونور حتى أصبحت السيدة الأولى بين نساء المسلمين اللواتي يبلغن آلاف الملايين إلى هذا التاريخ .

في ظل هذين الابوين درجت فاطمة الزهراء (ع) واستقبلت منذ طفولتها حدثا جليلا تخطى مكة والمدينة والجزيرة العربية بكاملها والعالم كله عصرا وراء عصر .

لقد نشأت في دار أبويها وحيدة يغمرها حنان أبيها الذي فقد بنيه ولم يبق له من عزاء بعدهم إلا عبء النبوة الذي تأهب له زمناً ونهض به زمناً وتحمَّل في سبيله ما تنوء به الجبال فأنى اتجه وأنى ذهب يرى قريشا وغلمانها وعبدانها له بالمرصاد وفاطمة على صغر سنها ترى كل ذلك وتساهم مع أمها في التخفيف من وقع ذلك في نفسه ، فكانت تتلوى من الألم لما يلقى من فادح الأذى ، وتتجرع مرارة ما كان يكابده المسلمون الاولون من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة وهي تلقى عليهم في حر الصيف وساعات اللهيب المحرقة ، وألم السياط التي كانت قريش تلهب بها ظهور المستضعفين والمعذبين بين أسوار الحصار المنهك عددا من السنين . وتوالت عليها المشاهد التي كان وقعها أليما على نفسها وقلبها وهي لا تزال في سن الطفولة ترى أباها يتلوى من أجل أولئك المعذبين ولا يستطيع أن يصنع لهم شيئاً .

وكان من أيسر ما لحقه من الأذى أن مرّ عليه أحد سفهاء قريش كما جاء في رواية الطبري فاغترف بكلتا يديه من التراب والاوساخ وصبها على رأسه ، فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه بنته فاطمة وجعلت تغسل التراب عن رأسه وتبكي وهي حديثة عهد بوفاة أمها الصديقة الكبرى خديجة ، وبالرغم من أن بكاءها كان موجعا لقلبه إلا أن ذلك وغيره من الصدمات القاسية لم يزده إلا صبراً وثباتا وايماناً بأنه سوف يتغلب على أعدائه في النهاية ، فالتفت إليها وعيناها

تهمي بالدموع وقال :

لا تبكي يا بنية إن الله مانع أباك وناصره على أعداء دينه ورسالته .

ورأته مرة وهو ساجد في الحرم وحوله نـاس من مشركي قـريش يسخرون منه ويعدون الخطط لايذائه فسمعت منهم ما يجرح نفسها ويدمي فؤادها . وفيما هي إلى جانبه وإذا بعتبة بنْ أبي معيط يحمل سلي جزور ويقـذفه عـلى ظهره وهـو ساجد ، فأقبلت إليه مسرعة باكية وأخذته عن ظهره وألقته جانبا ولمـا رفع رأسـه من سجـوده دعا عـلى جماعـة من أولئك الـذين كانـوا حولـه يخـططون لايـذائـه والزهراء تسمع دعاءه وشكـواه إلى الله ، ولم تمض سوى سنـوات معدودات حتى سمعت بأخبارهم صرعى على رمال بدر تنهشهم سباع البر وهوام الفلاة .

وقال الاستاذ توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت :

إن للسيدة فاطمة الزهراء تسعة أسماء فاطمة والصديقة والمباركة والطاهرة والزكية والمحدثة والزهراء .

وأضاف إلى ذلك أبو علم في الكتاب المذكور أنه كان يطلق عليها أم النبي لأنها كانت وحدها في بيته بعد موت أمها تتولى رعايته والسهـر عليه . ونقـل أبو علم عن علي (ع) أن الرسول قال له :

إنما سميت فاطمة لأن الله قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة[١] .

ومضى يسرد المناسبات التي استحقت بسببها تلك الصفـات حسبما تـرويه كتب الحديث ، وسواء صح ذلك أم لا فمما لا شك فيه أنها كانت المفضلة عنـد الرسول على شقيقاتها وأحب ولده إليـه كما تؤكـد ذلك عشـرات المناسبـات التي كان النبي يستغلها ليحدث عن فاطمـة وما حبـاها الله بـه من الفضـل عـلى جميع النسـاء ، وقال لهـا اكثر من مـرة : أن الله يرضى لـرضاك ويغضب لغضبـك ، وليس ذلك إلا لأنها لا ترضى إلا بما يرضي الله ، ولا تغضب إلا لما يغضبه .

وجاء في صحيح البخاري أن النبي (ص) كان يقول :

---

(١) كما جاء ذلك في الصواعق لابن حجر وغيرها من كتب الحديث .

فاطمة بضعة مني فمن اغضبها أغضبني .

وروى مسلم في صحيحه أنه قال :

فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها .

ورواها بنصها تارة وبمضمونها أخرى كل من ابن حجر في الإصابة والترمذي في صحيحه والنسائي وغيرهما من المحدثين . ولكثرة من روى ذلك عن النبي أصبح هذا النوع من المرويات من المتواتر في معناه إن لم يكن متواترا في لفظه .

وجاء في الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني أن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط دخل على عمر بن عبد العزيز فرفع مجلسه وأكرمه وقضى حوائجه . ولما سئل عن سبب اكرامه وتعظيمه له أجاب لقد حدثني الثقة كأني أسمع ذلك من فم رسول الله (ص) أنه قال :

فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها ، وعبد الله هذا بضعة من فاطمة بضعة رسول الله .

وجاء في المستدرك للحاكم بسند ينتهي إلى أبي ثعلبة الخشني أنه قال :

كان رسول الله (ص) إذا رجع من سفر أو غزاة أتى المسجد فصلى ركعتين ثم ثنى بفاطمة .

ويأتي أزواجه بعد ذلك كما روي عن عبد الله بن عمرانة أنه قال :

كان رسول الله إذا سافر كانت آخر الناس عهدا به فاطمة وإذا رجع من سفره كانت عليها افضل الصلاة والتحيات أول الناس عهدا به .

وفي الاستيعاب لابن عبد البر بسند ينتهي إلى السيدة عائشة أنها كانت تقول : **أحب الناس من النساء إلى رسول الله ابنته فاطمة ، ومن الرجال زوجها علي** . وتضيف إلى ذلك أنه كان **صواماً قواماً** .

وروي في المستدرك بسند ينتهي إلى جميع بن عمير أنه قال :

دخلت مع أمي على عـائشة فسمعتهـا من وراء الحجاب وأمي تسـألها عن علي (ع) تقول : تسألينى عن رجل والله مـا أعلم رجلا كـان أحب إلى رسول الله من علي ولا في الأرض امرأة كانت أحب إليه من فاطمة .

وجاء في كتاب أهل البيت لتوفيق أبو علم وهو يتحدث عن فاطمـة (ع) عن أبي سعيد الخدري أن علياً سأل فـاطمة ذات يـوم إذا كان عنـدها شيء من الطعام ليأكله ، فقالت له : لا والذي أكرم محمداً بالنبوة ما أصبح عنـدي شيء ولا أكلنا بعد شيئاً . فقال لها ألا اعلمتني حتى ابغيكم شيئاً . فقالت أني استحي من الله أن أكلفك ما لا تقـدر عليه . فخـرج من البيت واستقرض دينـاراً ليبتاع لعياله ما يصلح لهم وبينما هو بهذا الصدد وإذا بالمقداد بن الأسود يعترضه في يوم شديد الحر قد لـوحته الشمس ، فلما رآه عـلي (ع) أنكر حـاله وقـال ما الـذي أزعجك يا مقداد وأخرجك من رحلك هذه الساعة ؟ فقال له : خلّ سبيلي يا أبا الحسن ولا تسـألني عما ورائي . فقـال له يـا ابن أخي : لا يحل لـك أن تكتمني حالك فقال :

أما إذا أبيت فوالذي أكرم محمداً بالنبوة ما أزعجني إلا الجهد ولقد تركت أهـلي يبكـون من الجـوع فخـرجت من البيت لابحث لهم عن شيء يسـد ولـوْ بعض ما يحتاجون إليه .

ويدعي الراوي أن علياً لما سمع حديثه ورأى ما به من الجهد والحيرة آثره عـلى نفسه ودفـع له الـدينار ورجـع إلى البيت من غير أن يشتـري شيئاً لأهله ، وصلى مع النبي ذلك اليوم ، ولـمـا انتهى من صلاة المغـرب قام النبي من محـرابه وقال له : هل عندك شيء تعشينا به ؟ فأطرق علي (ع) برأسه حياء من رسول الله وأصيب بحيـرة من أمره وأخيـرا وبعد صمت طـويـل رحب بـالنبي (ص) وسارا معا حتى دخلا على سيدة النساء فاطمة فوجداها تصلي وخلفها جفنة تفـور دخانا ، ولـمـا أتمت الصلاة تـوجهت إلى النبي (ص) وسلمت عليه فمسـح بيده على رأسها وقال كيف أمسيت ؟ وطلب منها العشاء ، فأخـذت الجفنة ووضعتهـا بين يديه ، فنظر إليهـا علي (ع) كـالمستغرب لأنـه قد خـرج من البيت ليشتري شيئاً بعد أن قالت له مـا أصبح عنـدنا شيء ولا أكلنـا شيئاً فـأدركت سرّ نظرته

إليها وحلفت له أنها لا تعلم من أين جاءتها الجفنة فوضع رسول الله كفه بين كتفي علي (ع) وقال هذا جزاء الدينار يا علي : هذا من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ثم استعبر النبي (ص) وقال :

الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى جزاك يا علي وجعل لك ولفاطمة ما جعله لزكريا ومريم حيث قال تعالى :

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال : يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .

إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تصف النبي (ص) وأهل بيته بالفقر والبؤس ، وما كانوا يعانونه من الفاقة والجوع في كثير من الأوقات وبالتالي تنزل عليهم الموائد من السماء كما حدث للزهراء (ع) وحسبما أظن أن هذا اللون من المرويات اكثره من الموضوعات ، أولا لأن أكثرها من المراسيل والمرسلين لها من غير المعروفين بالوثاقة والاستقامة والارسال من عيوب الرواية حتى ولو كان المرسل مستقيما بذاته ، إلا إذا علمنا بأن المرسل لا يروي إلا عن ثقة كما هو الحال في مراسيل محمد بن عمير ، والمسند منها غير مستوفي شروط العمل بالرواية لضعف رواته .

وثانيا أن النبي (ص) بعد معركة بدر كان لديه مما أفاء الله عليه من الغزوات ما يكفيه لسد حاجته هذا بالاضافة إلى ما كان يملكه من أموال خديجة ، مع العلم بأن اغنياء الأوس والخزرج قد وضعوا كل اموالهم في تصرفه ومن البعيد أن يتركوه يتجرع مرارة الجوع يوما كاملا أو أياماً كما في بعض المرويات هو وابنته وابن عمه ونساؤه في حين أن البذل والعطاء من أبرز صفات العرب ومفاخرهم .

وبلا شك فإن النبي وعلياً وفاطمة لم تكن لتشغلهم طيبات العيش وملذات الحياة وكانوا يكتفون بالقليل منها مواساة للفقراء والمساكين كما تؤكد ذلك سيرتهم .

ولا أستبعد أن تكون من صنع القصاصين والمرتزقة وقد وضعوها

ليستدرجوا من كان يجتمع إليهم على تقديم الهبات لهم كما كانت عادتهم ، وإما من صنع بعض المحبين الذين لا يفهمون أهل البيت إلا من زاوية العيبيات وهذا النوع من الكرامات والاساطير .

وحدث عبد الله بن العباس عن النبي (ص) أنه قال يوماً :

إن الله خلق الناس من أشجار شتى وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة فما قولكم في شجرة أنا أصلها وفاطمة فرعها وعلي لقاحها والحسن والحسين ثمارها وشيعتنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة ومن تركها هوى إلى النار[1] .

وجاء في رواية ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال :

يا علي إن فاطمة بضعة مني ونور عيني وثمرة فؤادي يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرها وهي أول من يلحقني من أهل بيتي فاحسن إليها من بعدي ، والحسن والحسين ابناي وريحانتاي وسيدا شباب أهل الجنة فليكونا عليك كسمعك وبصرك .

وأضاف إلى ذلك ابن عباس : أن النبي (ص) رفع يديه إلى السماء وقال :

اللهم إني أشهدك أني محب لمن أحبهم ومبغض لمن أبغضهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم وعدو لمن عاداهم وولي لمن والاهم .

وروى الرواة أيضاً أن النبي (ص) كان جالساً ذات يوم وعنده علي وفاطمة والحسنان ، فقال :

اللهم إنك تعلم أن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس عليّ فأحب من يحبهم وأبغض من يبغضهم ووال من والاهم وعاد من عاداهم وأهن من أهانهم

---

(١) والمراد من التعلق بأغصانها العمل بتعاليمهم والاقتداء بهم ، كما وان تركها يعني عدم الاقتداء بهم فيما أمر الله وأحب وكره وبلا شك فان مصير العاملين بسيرة النبي وأهل بيته الى الجنة ومصير من انحرف منهم ولم يعمل بما أراد الله الى النار كائناً من كان .

واجعلهم مطهرين من كل رجس معصومين من كل ذنب وأيدهم بروح القدس يا رب العالمين .

وجاء في رواية ابن عبد البر في الاستيعاب أن النبي (ص) قال لها يا بنية :

ألا ترضين أنك سيدة نساء العالمين ، فقالت يا ابتي : اين مريم ابنة عمران فقال : هي سيدة نساء عالمها

وبهذا المضمون روى الصدوق في اماليه عن النبي (ص) أنه كان يقول فاطمة سيدة نساء العالمين ولما قيل له أنها سيدة نساء عالمها ، قال تلك ابنة عمران فأما ابنتي فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين ، إلى كثير من الاحاديث التي رواها محدثو الشيعة والسنّة في مجاميعهم وصحاحهم والتي تتفق في مضامينها على أن السيدة الزهراء قد فضلها الله على نساء العالمين لا لأنها بنت الرسول بل لأنها قد عملت بما أراد الله وأحب وأخلصت في عملها كأمها الصديقة الكبرى بما لم تعمله امرأة قبلها من الأولين والآخرين ، واختارها الله سبحانه من بين بنات الرسول لتكون أمّاً للذرية الطاهرة تلك الذرية التي ستكون امتداداً لحياة الرسول فتتحمل ثقل الكفاح وعبء الجهاد وتنطلق بعزيمة صادقة واستبسال لا نظير له لرفع كلمة الله ونشر المثل العليا التي دعا جدهم إليها وضحى في سبيلها براحته وبكل ما يملك هو والصفوة من أنصاره .

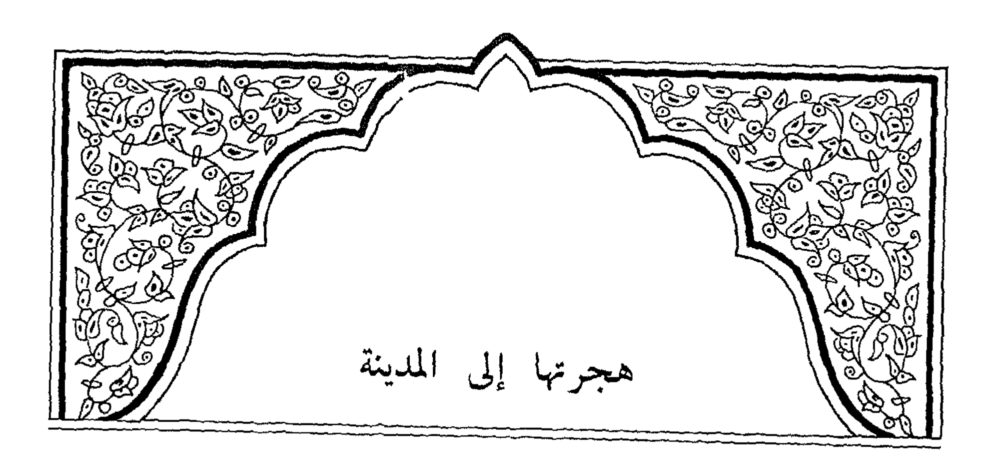
لقد روى الرواة عنه أنه قال اكثر من مرة كما جاء في مستدرك الصحيحين وتاريخ بغداد : كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم . وفي رواية كنز العمال ، أن لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم وقد خلقوا من طينتي فويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم فقد أحب الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله .

وجاء في رواية ذخائر العقبى : كل بني انثى فإن عصبهم لأبيهم إلا ولد فاطمة فأنا أبوهم وأنا عصبتهم .

لقد قال ذلك في أكثر من مناسبة لأنـه قد استشف من وراء الغيب وأدرك ادراكا لا يخامره أدنى شك أن الذرية الطاهرة من بضعته الزهراء لن يفترقـوا عن الكتـاب حتى يردوا عليـه الحوض وأنهم سيهبـون الناس مـا وهبهم الله من الحق والخير والمثل العليا ، وسيتابعون المسيرة التي بدأها لتحـرير الانسـان من شهواتـه ومن التسلط ويقفـون صامـدين في سبيل المعـذبين في الأرض وفي وجـه اعاصـير الشرك والضلال والاستغلال والاستعباد لتبقى للانسان حريته وكرامته .

لقد رأى النبي (ص) أن اهداف الرسالة التي جاء بها وضحى من أجلها بأكثر مما تتحمله طاقة الانسان وأن الاشواط التي قطعها في هذا السبيـل ليس لها من يحميهـا من غطرسـة الطغـاة وكبريـاء السادة اصحـاب النفـوذ والمـال الـذين يستخدمون هذين للتسلط على النـاس والبغي والعدوان ، ليس لتلك الاهـداف من يعمـل على تـرسيخها ويحميهـا من التلاعب والتحـريف لتستمر في عـطائهـا الواسع لجميع الناس بلا استثناء إلا نسله الطيب من بضعة فاطمة الزهراء (ع) فمنحهم حبه وعطفه وحباهم بالانتساب إليـه ، فقال فيهم كلمته التي اشتهرت على لسان المحدثين والـرواة : كل بني آدم ينتمـون إلى عصبتهم وآبائهم إلا ولـد فاطمة فأنا أبوهم وأنا عصبتهم ، وأنزل الله عليه قرآناً لا يـأتيه البـاطل من بـين يـديه ولا من خلفـه يفرض مـودتهم عـلى جميـع النـاس من بعـده في كـل عصـر وزمان .

﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ .



هجرتها إلى المدينة

لقد توالت على الزهراء المشاهد التي كان وقعها اليماً على نفسها وقلبها منذ طفولتها فمن المحن التي قاساها أبوها في سبيل الدعوة وما رافق ذلك من التعذيب والتنكيل بالمستضعفين من أتباعه إلى الحصار في الشعب الذي استمر نحوا من ثلاث سنين إلى وفاة عمها الكفيل أبي طالب وأمها خديجة في عام واحد إلى هجرة أبيها إلى المدينة خائفاً يترقب بعد أن اتفقت قريش على قتله وتعاهدت قبائلها على ذلك ولم يبق له في مكة مكان يستريح إليه ، وتمت الهجرة بسلام بالرغم من تحفظات قريش ومطاردتها له وبذلها الجوائز السخية لكل من يرشدها إلى مكانه أو يقبض عليه ، وكان قبل هجرته أمر علياً بالمبيت على فراشه وأوصاه بما أهمه وأن يلحق به مع من بقي من النسوة وهن فاطمة الزهراء وفاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الحمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ولم يرد ذكر لأم كلثوم مع النساء اللواتي خرجن مع علي (ع) من مكة إلى المدينه ، ولعل ذلك مما دعا إلى التشكيك بوجودها بين بنات النبي (ص) .

ومهما كان الحال فبعد أن نفذ علي (ع) وصايا الرسول وسلم الودائع لأهلها كما نصت على ذلك المؤلفات في سيرة النبي هيأ لهن الرواحل وأخرجهن من مكة في طريقه إلى يثرب وأشار على من بقي في مكة من المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى حيث يسير الركب منها باتجاه المدينة ، وخرج هو في وضح النهار بالفواطم ومعه أم أيمن وأبو واقد الليثي فجعل أبو واقد يجدّ السير مخافة أن تلحقهم قريش وتحول بينهم وبين إتمام المسيرة ، فقال له علي (ع) : ارفق

بالنسوة يا أبا واقد وارتجز يقول :

ليس إلا الله فـارفع ظنكـا يكفيك رب الخلق ما اهمكا

فلما قارب ضجنان أدركه طلب قريش وكانوا ثمانية من فرسانهم معهم مولى لحرب بن أمية يدعى جناح ، فقال علي (ع) لأيمن وأبي واقد انيخا الإبل واعقلاها . وتقدم هو فأنزل النسوة ناحية واستقبل القوم بسيفه ثم قالوا له : أظننت أنك ناج بالنسوة وناشدوه أن يرجع بهن طائعاً قبل أن يرجع بهن مكرهاً ، ولكن علياً استقبل القوم بسيفه ، وشد عليهم حتى فرقهم عن الركب يميناً وشمالاً ، ومضى في أثرهم الواحد تلو الآخر وضرب جناحاً مولى بني أمية على عاتقه فقدّه نصفين ودخل السيف إلى كتف فرسه ولاذ الباقون بالفرار ، وعاد علي (ع) يتابع المسيرة بمن معه من النسوة حتى دخل المدينة وقد أجهده السير على قدميه فرقّ النبي لحاله .

وجاء في بعض المؤلفات في السيرة : أن الحويرث بن نقيد بن عبد قصي كان أحد الفرسان الذين أرسلتهم قريش لمطاردة علي (ع) ومن معه من النسوة وكان ممن يؤذي النبي (ص) في مكة ، فأقبل الحويرث على البعير الذي يحمل فاطمة ومعها إحدى الفواطم فرماها إلى الأرض فأضر بها وكانت نحيلة الجسم قد أنهكت جسمها الأحداث التي سبقت هجرة أبيها ، وبخاصة بعد وفاة أمها .

ومرت سنوات على هذا الحادث وجاء العام الثامن للهجرة الذي فتح النبي فيه مكة وجريمة الحويرث لا تزال عالقة في الأذهان ترددها الألسن ، وإذا بالنبي (ص) يسميه مع النفر الذين أهدر دماءهم وان وجدوهم تحت استار الكعبة فقتله علي بـن أبي طالب (ع) .

وكان النبي (ص) بعد وصوله إلى المدينة استقر حيث بركت ناقته على باب أبي أيوب الأنصاري ونزل ضيفاً عليه وشرع في بناء مسجده واشترك مع المسلمين في العمل حتى أتموا بناءه ، وبعدها بنى بيته المتواضع المؤلف من عدة حجرات بعضها بالأحجار والبعض الآخر من جريد النخل والطين وكلها مسقوفة بجريد النخل ، أما ارتفاع الحجرات فقد وصفه الامام الحسن سبط الرسول (ص) فيما جاء عنه أنه قال : كنت أدخل بيوت النبي (ص) وأنا

غلام مراهق فأنال السقف بيدي .

أما الأثاث الذي هيأه النبي لبيته الجديد فهو في منتهى البساطة والخشونة والتواضع ، وأعد لنفسه فيه سريراً مؤلفاً من أخشاب مشدودة بالليف كما جاء في بعض الروايات .

إلى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمد (ص) مهاجرة من مكة لترى أباها بين أنصاره في يثرب يفدونه بالمهج والأرواح ومعه المهاجرون وقد اطمأن بهم المقام مع إخوانهم ممن أسلم من الأوس والخزرج وانصرفوا مع النبي (ص) إلى الدعوة للإسلام والتخطيط لغد أفضل وقد آخى النبي بينهم وبين مسلمي المدينة ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ويشد بعضهم إلى بعض بتلك الأخوة التي تجمعهم على صعيد واحد وهو الإيمان بإله واحد لا شريك له ولا نظير ، وترك علياً لنفسه فأخذ بيده ومعه حشد من المهاجرين والأنصار ، وقال هذا أخي ووصيّي ووارثي من بعدي ولم يمض وقت طويل على تلك المؤاخاة التي فاز بها علي (ع) حتى أصبح صهراً للنبي وزوجاً لأحب بناته إليه وأعزهن على قلبه وروحه .

لقد كانت الزهراء يوم زواجها من علي (ع) في حدود الخامسة عشرة من عمرها كما في أكثر الروايات ، وفي حدود الثامنة عشرة عند فريق آخر من المحدثين . وقيل غير ذلك .

وقد استغل جماعة من المستشرقين الحاقدين على الإسلام الذين يتخذون من الاستشراق وسيلة للدس على الإسلام وحماته والتبشير بالمسيحية والصهيونية وعلى رأسهم (المستشرق لامنس) استغلوا وجود بعض المرويات المدسوسة بين الأحاديث الصحيحة لبث أحقادهم والتشويش على الذرية الطاهرة ، فتحدث لامنس في كتابه عن الزهراء (ع) حديث الحاقد الحقير المشحون بالغيظ والحقد واعتمد أضعف الروايات في تحديد سن الزهراء (ع) حين زواجها من علي (ع) ليجد منفذاً للكذب ومسخ الحقائق وتحويرها بما يرضي أسياده أعداء الإسلام الألداء .

إن مواقف لامنس وغيره من الإسلام وحماته لا يصح وصفها بالجهل والغباء ، لأن الجهل يمكن علاجه بالبحث والتنقيب عن الحقيقة ، وما أيسر الوصول إليها في مثل هذه المواضيع لو أرادها المبشرون في المسيحية العالمية والصهيونية الحاقدة الذين اتخذوا صفة الاستشراق واتجهوا إلى البحوث الإسلامية لتسهيل مهماتهم . إن هؤلاء مصابون بمرض تزيده الحقائق الناصعة اشتعالاً وفتكاً في نفوسهم المريضة وقلوبهم المشحونة بالكراهية للإسلام والحقد على الرسول وذريته وأن هذه الأمراض لشرّ وأسوأ من الجهل بعشرات المرات بلا ريب في ذلك .

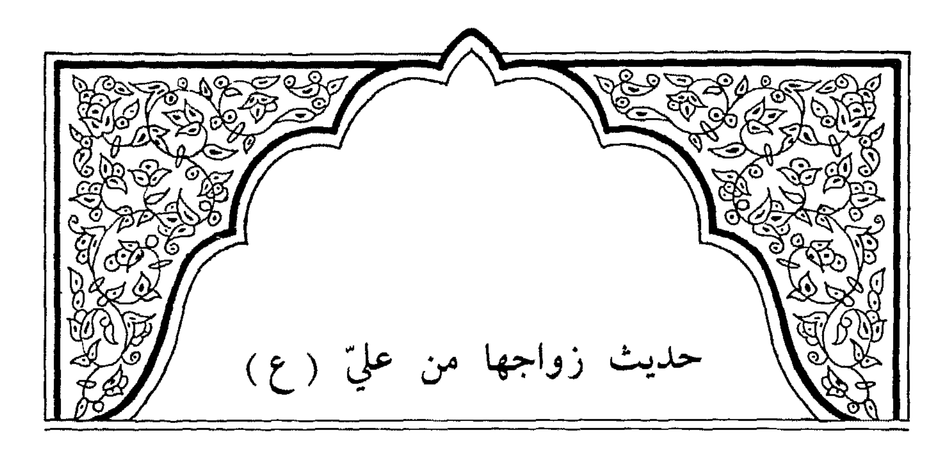
لقد قال لامنس : إن فاطمة بنت محمد لم يكن لها شأن يذكر حين زواجها وبعده وقد تناساها المؤرخون ولم يحفلوا بها قبل ظهور فكرة التشيّع في الإسلام ، فلما ظهرت فكرة التشيّع عادوا يُطيلون الحديث عنها وأخذت شهرتها تتسع وتذاع ، في حين ظلت اخواتها وليس لهن دكر ولم يرد بشأنهن حديث على لسان المحدثين .

ومضى يقول : لا يوجد سبب لتأخير زواجها إلى أن بلغت سن الثامنة عشر إلا أنها كانت محرومة الجمال لم يرغب بها أحد من الناس وهي نفسها لم تصدق أن أحداً يخطبها وقد بلغت هذا السن وهي تفقد ما يرغب به الخاطبون من الرجال ، وأضاف إلى ذلك : أن النبي بعد أن عرض عليها الزواج من علي (ع) سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلاً ، بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت وفي نفسها شيء مس التردد أن تتزوج من رجل فقير كعليّ بن أبي طالب .

بهذا الهراء الذي لا يعتمد على العلم ولا على المنطق والبحث تحدث عنها لامنس وغيره ممن انتحلوا صفة الاستشراق ، في حين أن الذين تحدثوا عن صفاتها وضعوها فوق نساء عصرها في جمالها وجميع مواهبها ، وقد ولدت لأبوين كانا في منتهى الجمال كما وصفهما الواصفون ، هذا مع العلم أن الروايات الكثيرة التي نصت على أن زواجها كان وهي في سن مبكر أكثر عدداً وأقرب إلى الصحة من تلك التي اعتمدها (لامنس) بدون أن يذكر الأسباب التي جعلته

يعتمد عليها دون سواها ، هذا بالاضافة إلى أن المؤلفين في سيرة الرسول والذين تحدثوا عن زواجها من علي (ع) رووا وحدثوا في الوقت ذاته عن جماعة من الصحابة وغيرهم أن أبا بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من ذوي الجاه والمال قد رغبوا في مصاهرة النبي وخطبوها واعتذر عن إجابتهم بأنه ينتظر فيها أمر الله سبحانه .

وجاء في جلال العيون للسيد عبد الله بشير عن الخوارزمي في المناقب وغيرها من كتب الخاصة والعامة على حد تعبيره عن أم سلمة وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين (ع) أن فاطمة الزهراء قد خطبها في مطلع صباها أكابر قريش من أهل الفضل والسابقة في الإسلام والشرف وذوي المال ، وكلما جاءها خاطب أعرض عنه النبي بوجهه حتى كان الرجل منهم يظن في نفسه أن رسول الله ساخط عليه ، أو نزل على رسول الله (ص) فيه وحي من السماء . ومضى الراوي يقول : ولقد خطبها من رسول الله أبو بكر فقال له النبي : أمرها إلى ربها ، وخطبها بعد أبي بكر عمر بن الخطاب فقال له رسول الله ما قاله لأبي بكر إلى غير ذلك مما رواه المؤرخون والمحدثون في مجاميعهم من المرويات الكثيرة التي تجاهلها الحاقدون على الرسول وآله وتعلقوا ببعض المرويات التي لا تثبت في مقابل النقد العلمي والتمحيص لأسانيدها وانطلقوا منها إلى أن تأخير زواجها إلى الثامنة عشرة من عمرها لم يكن إلا لأنها تفقد الجمال وما يرغب فيه الخاطبون من الصفات ، بدون أي إشارة في تلك الأحاديث توحي لهم بذلك .



حديث زواجها من عليّ (ع)

لم يكن غريباً هذا الزواج فأكثر المسلمين كانوا لا يرون لفاطمة كفؤاً غير عليّ الذي احتضنه والدها وهو صبي لم يتجاوز السادسة من عمره فدرج ونشأ في بيت النبي مع أولاده وبناته ترعاه خديجة كما ترعى بناتها ، ولم يبق في بيتها بعد أن تزوج بناتها غير علي وفاطمة وهو يوم ذاك في مطلع صباه فاستقبل ذلك الحدث العظيم الذي دعا إليه كافله ومربيه بقلب مفتوح وبصيرة نافذة يواسيه في الأزمات والشدائد ويفديه في الحروب والغزوات .

أما فاطمة فقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل وتستقبل ذلك الإعصار المارد الذي أثارته الوثنية العاتية في وجه الدين الجديد وواجهت جميع ما واجهته أمها من الأحداث الجسام ، وقبل أن تبلغ العاشرة من عمرها واجهت تلك الصدمة العنيفة التي أصيبت بها بوفاة أمها وألقت بها في دوامة الأحداث الهائلة التي أعقبت وفاة عمها أبي طالب ، واستقبلت حياتها الجديدة الحافلة بالمتاعب والآلام وهي تدرك إدراكاً سليماً ما أصبح عليها من المسؤوليات الجسام في ذلك البيت الذي كانت في طفولتها الباكرة تنعم في ظله مع ابن عمها علي بن أبي طالب الذي اختاره أبوها من بين أولاد أبي طالب واتخذه ولداً في صغره وأخاً يوم آخى بين المهاجرين في مكة وبينهم وبين الأنصار في يثرب وصاحباً من أعز أصحابه وأقربهم إلى قلبه وروحه وخليفة من بعده في مطلع الدعوة يوم دعا بني هاشم إلى الإسلام ومناصرته على الدعوة إليه ، وأباً للعترة الطاهرة من بضعته الزهراء .

لقد استقبلت الزهراء حياتها الجديدة بعقل نيِّر وقلب مفتوح لرسالة أبيها وهي تدرك على صغر سنها معنى بنوتها لمن اصطفاه الله واختاره بشيراً ونذيراً لأهل الأرض ما دامت السموات والأرض ، ولم تأس على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى عما هو منتظر لأمثالها من راحة وخلو بال ، فلم يشغلها عن رعاية أبيها والانصراف لشؤونه شيء من شؤون الطفولة ولا من شؤون الناس وصمدت لجميع الأحداث مع قسوتها وجسامتها لم تساورها الشكوك ولو لحظة واحدة ولا وهنت عزيمتها طرفة عين أبداً وظلت تراقب الأحداث بعد هجرة أبيها في جوٍّ مشحون بالقلق على مصيره حتى انضمت إلى موكب الهجرة في البلد الأمين ، فأحست بالانفراج مما كانت تعانيه من القلق والخوف على أبيها ودعوته وبخاصة بعد أن رأت أصحابه الجدد في دار هجرته يتسابقون إلى الإسلام والبذل والعطاء ويندفعون إلى السرايا والغزوات ويحققون الانتصار تلو الانتصار ، ورأت ابن عمها البطل الذي عاشت معه طويلاً في كنف أبويها الرحيمين الكريمين ، والذي لم يكن بين فتية قريش ولا بين جميع العرب من يساويه في البطولات والتضحيات والدفاع عن النبي (ص).

لقد رأته وقد تجاوز العشرين من السنين ألصق بأبيها من جميع المسلمين ، وقد احتل من نفسه مكاناً لم يكن ليطمع به أو يحلم ببلوغه أحد من مهاجري المسلمين وأنصارهم ، وسمعت أباها يقول له وحشود المسلمين من حوله يوم آخى بين المهاجرين والأنصار : لقد تركتك لنفسي ، فأنت أخي في الدنيا والآخرة ، وكانت تحس له في نفسها بمكانة ليست لأحد من الناس وبروابط أعمق من رابطة الأخوة وأبناء العمومة الأقربين ولكنها لم تكن تستطيع تفسير أحاسيسها نحوه بما خبأه لهما الغد القريب من الزواج الذي اختاره الله لهما لأنها كانت تؤثر بقاءها إلى جانب أبيها ملتزمة بيته لتوفر له أسباب الراحة والاستقرار على الزواج وجميع متع هذه الدنيا حتى بعد أن تزوج بأكثر من واحدة من النساء .

وما أن دخلت السنة الثانية من هجرة النبي (ص) وبدأت طلائع الاستقرار تلوح للمسلمين حتى بدأ الخطاب يتسابقون إلى النبي يطلبونها منه وهو

يردهم رداً جميلاً ويقول لكل من جاءه : إني أنتظر فيها أمر الله ، وبلا شك لقد كان الإمام علي (ع) أحد الطامعين في الزواج منها ، ولكن الحياء كان يمنعه عن مفاتحة النبي بذلك ، وفي الوقت ذاته فإن الزواج يتطلب بعض الامكانيات المادية وليس لديه شيء من ذلك ، غير أن جماعة من أصحابه قد شجعوه على الاقدام على ذلك وهنا لا بد لنا أن نلخص ما جاء في المؤلفات في سيرة النبي ومجاميع الحديث حول زواجه منها بذلك المهر المتواضع والجهاز البالغ أقصى حدود البساطة كما يصفه أكثر المؤرخين والمحدثين .

لقد جاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني أنه قال : سمعت أبا جعفر يقول ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعثه بخمس سنين ، وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً ، فيكون لها من العمر تسع سنوات تقريباً حين زواجها ، ورجح الطبري في تاريخه أنها كانت في العاشرة من عمرها ، وقيل كانت في الخامسة عشرة من عمرها وقيل غير ذلك .

وجاء في كشف الغمة عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : لولا أن الله خلق أمير المؤمنين ما كان لفاطمة كفؤ على وجه الأرض ، وقد روى ذلك صاحب كتاب الفردوس عن النبي (ص) .

وفي مناقب ابن شهراشوب أنه قد اشتهر في الصحاح بالأسانيد الموثوقة عن ابن عباس وعبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم بصيغ تختلف في تركيبها وألفاظها وتتفق في مضامينها أن أبا بكر وعمر بن الخطاب كانا ممن خطب فاطمة من النبي بعد أن استقر في المدينة وألحا عليه في الطلب فردهما بقوله : **إني أنتظر فيها** أمر الله .

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن أبا بكر وعمر بن الخطاب حين خطباها من النبي (ص) لم يزد على قوله: **إني أنتظر فيها أمر الله**، وكان الذي يمنع علياً من خطبتها الحياء بالاضافة إلى الفقر ، فلما شجعه بعض المسلمين على خطبتها دخل على النبي وهو مطرق إلى الأرض من الحياء فأحس النبي بما في نفسه ، فاستقبله ببشاشته التي اعتاد أن يستقبله بها ورحب بقدومه ، وأقبل عليه يسأله برفق ولطف عن حاجته وألح عليه في السؤال ، فأجابه بصوت ضعيف

وهو مطرق برأسه ذكرت فاطمة يا رسول الله ولم يزد على ذلك فرد عليه النبي بقوله مرحباً وأهلاً . وخرج علي (ع) ليقص على أصحابه ما جرى له ، وكانوا بانتظاره فلما أخبرهم بما جرى له مع النبي (ص) قالوا له لقد أجابك النبي إلى ما تريد .

وعاد رسول الله إلى بيته ليعرض على بضعته الزهراء رغبة علي بها ، فقال لها كما جاء في رواية ابن سعد في طبقاته : لقد سألت ربي أن يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه وقد عرفت علياً وفضله ومواقفه وجاءني اليوم خاطباً فما ترين ؟ فأمسكت ولم تتكلم بشيء ، فخرج النبي (ص) وهو يقول :

سكوتها رضاها واقرارها .

ثم أن رسول الله (ص) جمع المسلمين وخطب فيهم وقال كما جاء في رواية كشف الغمة عن المناقب :

إن الله أمرني أن أزوج ابنتي فاطمة من علي (ع) وقد زوّجتها إياه على أربعمائة مثقال فضة .

ثم التفت إلى علي (ع) وقال :

لقد أمرني ربي أن أزوجك فاطمة ، وإني قد زوّجتكها على أربعمائة مثقال من الفضّة أرضيت هذا الزواج يا علي ؟

فقال :

رضيته يا رسول الله وخرّ ساجداً إلى الله .

فقال النبي :

بارك الله فيكما وجعل منكما الكثير الطيب .

وفي رواية انس بن مالك أنه قال : بارك الله عليكما وأسعد جدكما وجمع بينكما وأخرج منكما الكثير الطيب ، وأضاف إلى ذلك أنس بن مالك والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

وجاء في بعض الروايات عن أهل البيت أن مهرها كان خمسمائة درهم ، ما يعادل إثني عشر أوقية ونصف من الفضة كل أوقية أربعون درهماً ، ويدعي

ابن سعد في طبقاته أن بنات رسول الله لم يتعد مهرهن هذا المقدار .

وفي الاستيعاب لابن عبدالبرّ أن رسول الله (ص) قال لها : لقد زوّجتك سيداً في الدنيا والآخرة وأنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً .

وجاءه علي بالمهر بعد أن باع درعه لعثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً فحملها علي ووضعها بين يدي رسول الله فقبض منها النبي قبضة ودفعها إلى بلال وقال له : إبتع لفاطمة طيباً ، ثم قبض منها بكلتا يديه ودفعها لأبي بكر وقال له إشتر لها ما يصلحها من ثياب وأثاث إلى البيت وأرسل معه عمار بن ياسر وجماعة من أصحابه فخرجوا إلى السوق فكانوا يأتون بالشيء ويعرضونه على أبي بكر فإن استصلحه اشتراه ، ودفع مبلغاً من المال لأم أيمن لتشتري به أمتعة إلى البيت ، فكان مجموع الجهاز قميص بسبعة دراهم ، وخمار بأربعة وقطيفة سوداء خيبرية وسرير مزحل بشريط ، أي ملفوف بالشريط وفراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف ، وحشو الآخر من صوف الغنم ، وأربعة مرافق من ادم الطائف حشوها من الاذخر[1] وستر رقيق من صوف وحصير هجري ورحى لليد ، ومخضب من نحاس[2] وسقاء[3] وقعب للبن ومطهرة مزفة وجرة خضراء وكيزان من خزف وعباءة وقربة ماء وغير ذلك من الأدوات المبتذلة للطبقات الفقيرة .

ولما تم الجهاز وعرض على رسول الله (ص) جعل يقلبه بيده ثم بكى وقال : بارك الله لقوم جلّ آنيتهم الخزف ، وهكذا وبهذا النحو من البساطة تمت الخطبة وتم الزواج وكان الجهاز من أبسط ما عرفته المدينة وذلك في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج الذي اختاره الله سبحانه وأراده لهذين الزوجين قبل أن يريداه وكتب الله لذكراه الخلود ولهذين

---

(١) جمع مرفقة وهي ما يتكأ عليه والادم هو الجلد والاذخر نبات طيب الرائحة .

(٢) المخضب إناء لغسل الثياب .

(٣) السقاء طرف من جلد لنقل الماء .

الاسمين الكريمين أن يكونا مثالاً للإنسان الكامل الذي تكاملت إنسانيته وأصبح المثل الأعلى لكل بني الإنسان من ذكر وأنثى ، ولو حاول أبلغ الناس وأقدرهم على صياغة الألفاظ وتركيبها أن يجمع الصدق والحق والإخلاص والعدل والطهارة والعفة والفضيلة في كلمة واحدة أو أكثر لما وجد لهذه المفاهيم ألفاظاً يتناسب معها وتعبر عنها غير هذين الاسمين الكريمين اللذين اتحدا مع تلك المفاهيم فكان علي خير الناس بعد رسول الله وأحب الرجال إليه وفاطمة سيدة النساء وأحب النساء إليه كما جاء في رواية السيدة عائشة وغيرها من الرواة .

وقد استجاب الله للنبي (ص) فأخرج منهما النسل الطيب وأئمة الهدى خلفاء الله في ارضه وأمناءه على وحيه الذين من تمسك بهم نجا ومن تخلف عن سيرتهم وتعاليمهم ضل وغوى كما جاء في أصح المرويات عند السنة والشيعة .

وهكذا استقبلت سيدة النساء فاطمة الزهراء حياتها الجديدة في ذلك البيت المتواضع بيت حارثة بن النعمان الملاصق لبيت أبيها الذي أعده لها علي (ع) تلك الحياة التي وصفها المؤرخون والمحدثون بالخشونة والفقر ، ولم نر واحدا منهم حاول أن ينفي عنها ما كانت تقاسيه من شظف العيش والفقر ويصف جهازها بغير هذا النوع من الأثاث المتواضع . ذلك لأن أباها لم يكن يملك شيئا ولا يدخر لنفسه شيئا مما كانت تدره عليه الغنائم وكان يتنكر لمظاهر الغنى والاغنياء ويواسي المساكين في جميع مظاهر حياته ، وزوجها كان صورة صادقة لأبيها لم يكن يملك المال لا من طريق التجارة ولا من طريق الإرث ، فلقد كان والده مع علو شأنه وعظيم مكانته فقيرا لا يملك ما يسد به حاجة عياله مما دفع محمداً (ص) أن يقترح على أعمامه أن يأخذ كل واحد منهم ولدا من أولاده ليخففوا عنه ثقل ما كان يعانيه فأخذ كل واحد منهم ولدا من أولاده واختار لنفسه من بينهم علياً وهو صبي لم يتجاوز الثامنة من عمره ولم يحترف عملا يدر عليه المال طيلة صحبته للرسول لا من نوع التجارة التي كانت تتعاطاها قريش ولا من نوع الزراعة حرفة سكان يثرب ، ولم يكن يملك سوى درعه فباعها وجهز بثمنها زوجته .

بتلك البساطة من مظاهر الحياة قد استقبلا حياتها الجديدة واستسلما لمشيئة

القدر الذي كان ينتظرهما وتقدمت سيدة النساء إلى ساحة الحياة الجديدة تحمل على منكبها أعباء المشاركة مستجيبة للمشيئة الكبرى صابرة على مرارتها لتفوز بنعيم الآخرة راضية مطمئنة إلى زوجها تغمرهما المودة والوداعة ، ولم يكن علي (ع) يهون عليه أن يراها تدير شؤون البيت كادحة مجهدة فحاول أن يساعدها في بعض اعمالها ما مكنته ظروفه ولكن استقراره في المدينة كان محدودا بسبب الغزوات والسرايا التي كان يقودها احيانا ويشترك فيها حينا آخر فأشفق عليها أن تبقى على حالتها هذه لا سيما بعد أن اصبحت امّاً وتضاعفت جهودها بسبب ذلك ، وظروفه لا تمكنه من مشاركتها الكاملة وليس باستطاعته أن يستأجر أو يشتري لها من يعينها ، فقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها رجع من احدى غزواته بسبي وغنائم : يا سيدة النساء لقد ضاق حدّني لأجلك وهذا رسول الله (ص) قد رجع بسبي من إحدى غزواته فاذهبي إليه والتمسي منه إحدى المسبيات لعلها تخفف عنك بعض الاعمال ، وكانت تطحن الشعير فأجابته والرحى في يدها والتعب باد عليها أفعل إن شاء الله . فلما أتمت عملها انتظرت ساعة لتسترد بعض قواها ثم خرجت إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة ، فلما رآها رحب بها وهش في وجهها كعادته ، ثم سألها عن حاجتها فمنعها الحياء أن تذكر له ما جاءت من أجله ، وردت عليه بقولها : جئت لأسلم عليك ، وعادت من حيث أتت لتخبر عليا (ع) بما جرى لها ، ولكن جرصه عليها دعاه لأن يقوم بنفسه ليقص على النبي (ص) ما تعانيه بضعته من الجهد والعناء في ادارة البيت فأخبر النبي بحالها وهي مطرقة من استحياء فأجاب (ص) لا والله لا اعطيكما وادع أهل الصفة تتلوّى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ما تحت يدي من الغنائم وأنفق عليهم فرجعا إلى البيت لا يلويان على شيء كما جاء في رواية أحمد بن حنبل عن حياتها وعزوفها عن الدنيا ونعيمها .

ومست شكواهما قلب النبي (ص) وشغلته عن كل شيء فأقبل عليهما ليخفف عنهما وقال لهما برفق : ألا اخبركما بخير مما سألتماني ، فقالا بلى يا رسول الله . فقال تسبّحان بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين وتحمدان الله ثلاثا وثلاثين ثم ودعهما ومضى ومضت السنّة على ذلك في كل صلاة كما تؤكد ذلك بعض المرويات .

وجاء عن علي (ع) أنه قال : والله ما تركت هذه الوصية بعد أن علّمنيها رسول الله ، وطابت نفسها بعد هذه الوصية وتغلبت على جميع المتاعب وترسما خطا النبي في جميع نواحي الحياة ، وحدث عنها الرواة أنها كانت مع كل ذلك طيلة حياتها مع أبيها وبعلها لا ترى إلا واضحة المحيا باسمة الثغر لم تغرب بسمتها إلا بعد وفاة أبيها ، لا يجري لسانها بغير الحق ولا تنطق إلا بالصدق عزوفة عن الشر محبة للخير وفية بالوعد صدوقة في القول حافظة للسر . لقد ورثت كل خصال الخير من أبيها وعاشت مع زوجها وهي تعلم بأنه لم يبلغ ما بلغه عند رسول الله إلا لأنه كان صورة ثانية عنه في جميع صفاته وخصاله .

وروى عمرو بن دينار عن السيدة عائشة أنها قالت :

ما رأيت أحداً أصدق من فاطمة غير أبيها .

وفي رواية الاستيعاب أنها قالت :

ما رأيت أحدا أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها .

لقد قنعت في اليسير من العيش لأنها سمعت أباها يقول للناس اجملوا في الطلب فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في هذه الدنيا ، ولن يذهب عبد منها حتى يأتيه ما كتب له فيها ، وقد قال لها : يا فاطمة أصبري على مرارة الدنيا لتفوزي بنعيم الآخرة ، ولم تكن تستشرف ببصرها إلى ما ليس من حقها أو تنزل إلى سؤال أحد غير ربها ، بل كانت غنية بنفسها قريرة بحالها لأنها سمعت أباها يقول : ليس الغنى من كثرة المال إنما الغنى غنى النفس ، ويقول لإعرابي وهو يعظه : إذا صليت فصلّ صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا واجمع اليأس عما في أيدي الناس ، فإن اليأس عما في أيدي الناس هو الغنى الحاضر ، وسمعت الإمام علي (ع) يقول لبعض أصحابه :

ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم فيكون افتقارك اليهم في لين كلامك وحُسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك .

ولم تكن تحفل بزخارف الدنيا ومظاهرها وقد سمعت أباها يقول :

من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة .

وقد قال لعلي وفاطمة تسمعه :

يا علي من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة على الدنيا فله الجنة ومن اختار الدنيا استخفافا بآخرته فله النار .

وسمعت أباها يقول :

إن ربي عز وجلّ عرض عليَّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يا رب : ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك .

وكان من أبرز صفاتها الصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بواقع القضاء بعد ما روت عن أبيها (ص) أنه قال : إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه ، وروت عنه أنه قال : إن الله أوحى إلى موسى بن عمران وقال له : أنا أعلم بما يصلح عبدي المؤمن فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي اكتبه في الصديقين عندي .

وكانت من أقرب الناس إلى أبيها في الجود والسخاء لأنها سمعته يقول : السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن إلى الجنة ، وسمعته يقول : السخي قريب من الله قريب من الناس وقريب من الجنة بعيد عن النار وإن الله جواد يحب الجواد .

وجاء في دلائل الإمامة عن الحسين عن أمه الزهراء (ع) أنها قالت قال لي أبي رسول الله : إياك والبخل فإنه عاهة لا تكون في كريم ، إياك والبخل فإنه شجرة في النار وأغصانها في الدنيا فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله النار ، وسمعت زوجها عليا (ع) يقول : من يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له آخرته .

وبلغ من جودها وسخائها أنها كانت تؤثر على نفسها وتعطي الفقراء قوتها الذي لا تملك سواه اقتداء بأبيها وبعلها وبخاصة بعد أن نزلت الآية ، **﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بها خصاصة ﴾** ، والآية : **﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾** .

وقد روى المحدثون من سنيين وشيعيين عشرات الروايات في فضلها وكراماتها ، ومن غير المستبعد أن يكون للمحبين والقصاصين وغيرهم من الوضاعين دور في صنع البعض من تلك الفضائل والكرامات ، ولكن بعضها الآخر يكاد أن يكون من نوع المتواتر بمعناه إن لم يكن متواترا بلفظه .

على أن تاريخها الحافل بالقيم والتضحيات في سبيل أبيها ورسالته التي جسدتها في سلوكها وأقوالها يغنينا عن التعلق بالغيبيات التي لا تتسع لها آفاق الكثير من الناس ولا يقوى على تحملها إلا من أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

لقد ظلت فاطمة الزهراء طيلة حياتها مع أبيها وزوجها الإمام وذابت في حبهما كما تذوب الشموع وكانت مستقرا للذرية الطاهرة التي انحدرت بمشيئة الله صانع المشيئات من نبي ووصي فأولدت لهما الحسن والحسين وقال فيهما جدهما هذان ولداي إمامان قاما أو قعدا وأدخلهما تحت كسائه مع أبيهما وأمهما فأنزل الله عليه ، **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** وأخبر الأمة بجميع أجيالها المتتالية إلى يوم البعث أنهما وأباهما وأمهما والأئمة الاطهار من ولد الحسين لن يفترقا عن القرآن ما دام على وجه الأرض أناس يقدسونه ويرددون آياته كما أولدت زينب وأم كلثوم .

وأول مولود استقبله رسول الله من دوحة النبوة والإمامة سبطه الحسن (ع) في نصف رمضان من السنة الثالثة للهجرة فأقرّ به عين الزهراء ومحبيها وسعى البشير بنبأ ولادته إلى النبي (ص) فخفّ إليها يحدوه الشوق للنظر إلى مولوده الجديد الذي وجد فيه وفي أخيه الحسين الذي ولد بعده بأقل من عام سلوته عن ولديه اللذين استردهما الله إليه صغيرين قبل سن الفطام وتفتّح قلبه لهذين الحفيدين ورأى فيهما امتدادا لحياته على هذه الأرض ومنفسا لما يفيض به قلبه من عاطفة الأبوة بعد أن يئس من الأولاد بموت خديجة في حين أنه خلال

سبع سنوات على وفاتها قد تزوج بخمس من النساء كما جاء في سيرته وبينهن من هي في سن مبكر من حياتها ومع ذلك لم يرزق بولد من هاتيك الزوجات إذا استثنينا مارية القبطية التي أولدها ابراهيم فكان يداعبه ويحنو عليه ويرتاح إلى حركاته ونموه السريع وملامحه تزهر في قسماته وتزداد وضوحا على مرور الأيام ، ولكن مشيئة الله قضت بأن ينتظره الموت في أواخر السنة التاسعة من هجرته بعد أن عاش ستة عشر شهرا أو تزيد على أشهر الروايات فدب في جسمه المرض ولم يمهله سوى أيام معدودات فبكاه النبي حتى ظهر ذلك لأصحابه وانقطعت بموته ذرية الرسول إلا من ابنته فاطمة سيدة النساء .

قالت بنت الشاطىء في كتابها تراجم سيدات بيت النبوة : فليس بغريب بعد هذا إذا أقبل (ص) على سبطيه الحسن والحسين يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد على كثرة ما تزوج به من النساء ، وليس بعجيب أن دعاهما ابنيه وشمهما وضمهما إليه وكان اسماهما نغمة حلوة في فمه يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وأن يجد فيهما أنسه وسلوته عمن فقد من الأبناء ومضت تقول : لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى فحصر في ولدها ذرية نبيه المصطفى وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ، كما كرّم الله عليا (ع) فجعل من صلبه نسل خاتم الأنبياء فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد .

ولعل محمدا لو خيِّر أي بناته تكون وعاء لنسله الطاهر وأي أصهاره يكون أباً لأهل البيت الشريف لاختار ما اختاره الله . فعلي (ع) أقرب أصهاره إليه مكانا وأمسهم به رحماً في عروقه يجري الدم الهاشمي الأصيل وعند عبد المطلب يلتقي نسبه بنسب الرسول العظيم .

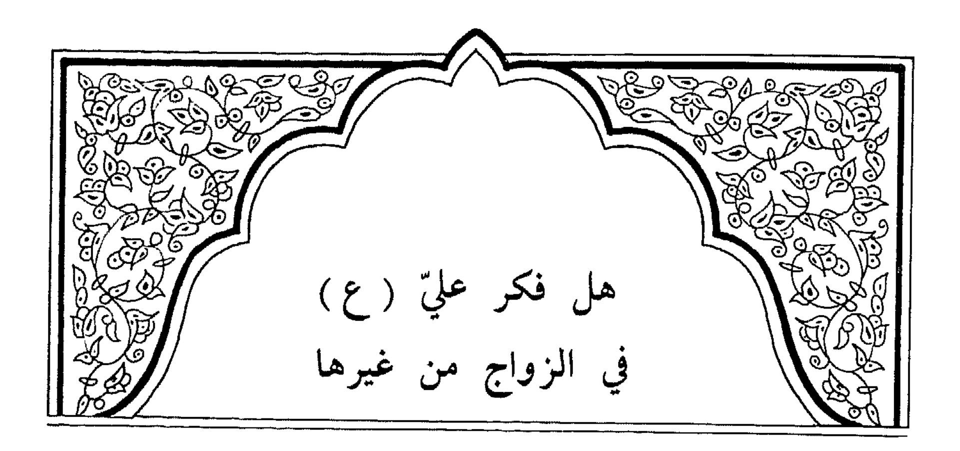
ومضت تقول : وكان علي (ع) يعرف منزلته عند النبي ويعتز بها إلى حد جعله يسأل الرسول ذات يوم وقد غمره فيض من عطفه ، أيهما أحب إلى رسول الله (ص) ابنته فاطمة أم زوجها علي فأجابه رسول الله في ابتسامة لبقة : فاطمة أحب إلي منك وأنت أعز عليّ منها .

وبلا شك فقد كان لموقف النبي (ص) من فاطمة وبنيها أثر عميق في

نفسها ونفس ابن عمها علي (ع) فأحست فاطمة بالغبطة والسعادة إذ استطاعت بفضل الله سبحانه أن تهيىء لأبيها هذه المتعة التي وجدها في سبطيه الغالبين ، ولم يكن علي (ع) أقل منها سعادة وغبطة بهذا الاتصال الوثيق الذي مزج دمه بدم النبي وأخرج من صلبه ذرية سيد العرب والعجم ابناء بنته الزهراء وآل بيته الكرام وذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبي ، وسلام الله عليه حيث يقول : كل بني قوم ينتمون لآبائهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم ، وقال فيهما أكثر من مرة وحوله حشد من المهاجرين والأنصار :

إنهما ابناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما .

وسنعرض في الفصول الآتية من هذا الكتاب عندما نتحدث عن سيرة هذين الإمامين العظيمين بعض المرويات في فضلهما ومكانتهما من الرسول المتفق عليها عند السنّة والشيعة إن شاء الله .



هل فكر عليّ (ع) في الزواج من غيرها

لقد عاشت الزهراء طيلة حياتها مع علي (ع) في بيت أبيها يوم ضمه إليه وهو في سن الطفولة شطرا من حياتها والشطر الآخر بعد زواجهما في البيت الذي أعده لها ، وبلا شك حينما وافقت على الزواج منه كانت تعرفه من جميع نواحيه وتعرف فيه الرجل الذي توفرت فيه أفضل الصفات وتكاملت فيه جميع المواهب ، وقد وجدت فيه الرجل الذي تكتمل فيه حياتها وتتم بينهما وحدة لا يفصمها إلا الموت ، وفوق ذلك فقد ارتبطت حياتها مع ذلك برباط أوثق وأصلب من جميع أنواع الروابط التي تشد الناس بعضهم إلى بعض ، رابطة الإيمان بنبوة محمد ورسالة محمد التي ذابا في سبيلها ونسيا نفسيهما وجميع متع الدنيا وملذاتها كما ذابت أم الزهراء في سبيلها وسبيل زوجها العظيم من قبل .

لذلك كان من الطبيعي أن لا يحدث بينهما ما يكدر صفو حياتهما كما لم يحدث بين أبيها وأمها شيء طيلة حياتهما غير أن الباحث يجد نتفا من الروايات تنص على أنه كان يحدث بينهما خلاف بين الحين والآخر إذا بلغ سمع الرسول يهتم بعلاجه وإزالته .

وجاء في بعض المرويات أنه خرج يوما إلى دار ابنته الزهراء وهو بادي الهم والقلق فأمضى وقتا فيه وخرج ووجهه الكريم يفيض بالبشر والارتياح ، فقال له أحد أصحابه يا رسول الله : دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك . فأجاب وما يمنعني من ذلك وقد أصلحت بين أحب اثنين إلي .

وروى ابن سعد في طبقاته أن الزهراء ضاقت يوما بما كانت تجد من شدة زوجها وصلابته وحزمه ، فقالت له : والله لأشكونك إلى رسول الله (ص) وخرجت من بيته لتشكوه إلى أبيها ، وخرج علي في أثرها واجتمعا عند النبي ، ولم يكن من النبي إلا أن تلطف بهما وأعادهما إلى بيتهما راضيين مطمئنين .

ويمضي بعض الرواة في سرد نتف من هذا النوع من العتاب الذي كان يجري بينهما كما يزعمون ، ومع أن هذا النوع مما يسمونه خلافا بين علي والصديقة الزهراء (ع) مروي بروايات مرسلة ، والمرسلين لها ليسوا في المستوى الذي ترتاح النفس لمروياتهم ، وعلى تقدير وقوعه فلا يتنافى مع مقام الإمام علي وسيدة النساء ولا مع عصمتهما التي دلت عليها الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ، وليس من الأدلة ما يمنع من حدوث خلاف في الرأي بينهما في بعض المسائل التي لا تتعلق بالدين ولا بالحقوق الثابتة لكل منهما على الآخر .

على أن خشونة علي (ع) وصرامته وشدته التي كانت تسبب الخلاف بينهما كما تزعم بعض المرويات ، هذه الصفات ليست غريبة على الزهراء ولا يمكن أن تكون ثقيلة عليها ، لأنه كما اتفق واصفوه كان شديدا على أعداء الله وصارما في احقاق الحق وخشنا في مأكله وملبسه ، أما في حياته مع الناس وصلاته بهم فقد كان هشا لينا يداعب المؤمنين احيانا ويحنو على المساكين حتى عاب عليه أخصامه بشاشته ومداعبته لبعض اصحابه وعدوا ذلك من عيوبه .

وأما حديث زواجه من غيرها فقد جاء في بعض المرويات أنه كاد أن يأتي شيئا تكرهه سيدة النساء ولا تتمكن من التغاضي عن نتائجه ، ويشير إليه الرواة أنه همّ بأن يتزوج من جويرية بنت أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي عدو الله وعدو الاسلام ، وأن أهلها استشاروا النبي (ص) فأنكر عليهم ولم يأذن لهم بذلك ، وأضاف الرواة لهذه الأسطورة أن الزهراء ذهبت إلى أبيها باكية تقول له : إن الناس يزعمون بأنك لا تغضب لبناتك ، وأن رسول الله (ص) قام من ساعته وأقبل إلى المسجد مغضبا وصعد المنبر وقال على ملأ من المهاجرين والأنصار : ألا وأن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليا ألا وإني لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، إن فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني

ما يؤذيها وإني أتخوف أن تفتن في دينها ، ثم دخل بيت فاطمة وخرج منه وقد أخذ بيدها وهو يقول :

من عرف هذه فقد عرفها ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد ، وهي بضعة مني وقلبي وروحي من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله .

إلى غير ذلك مما جاء حول هذه الأسطورة التي تصور النبي وكأنه إنسان تستبد به العاطفة إلى الخروج عن المألوف ومحاباة ابنته على حساب حكم من احكام الله ، وتصور الزهراء وكأنها أقل حظا من الدين والصبر من سائر النساء ، وأن النبي يتخوف عليها أن تتعدى حدود ما أنزل الله لو تم هذا الأمر .

إن الذين وضعوا هذه الأسطورة أرادوا أن يسيئوا إلى النبي (ص) لا إلى علي وحده ، لأن النبي (ص) كما جاء في الرواية أراد أن يمنع عليا (ع) مما أباحه الله لجميع الناس وما فعله هو وجميع المسلمين أو أكثرهم ، ومع ذلك فهل يجوز على النبي أن يقف هذا الموقف المتصلب ويحابي ابنته الزهراء في حكم من أحكام الله ، مع العلم أنه كان يقول لفاطمة : اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا ، وقال لمن جاءه يتشفع في امرأة من الأنصار قد سرقت : والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

هذا بالاضافة إلى أن قوله المزعوم : أخاف أن تفتن ابنتي عن دينها ، هذا القول على تقديره يعني أنها كغيرها من النساء اللواتي يخرجن عن المألوف يتجاوزن احكام الله في مثل هذه الحالات ، في حين أنه قال أكثر من مرة : إن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها .

وبلا شك فإنها لم تبلغ هذه المرتبة إلا لأن جميع أعمالها وتصرفاتها وأقوالها في حدود ما أراد الله ، وإذا صح كما يزعم الراوي أن تفتن في دينها لأمر قد أباحه الله لعلي وغيره من سائر الناس ، فكيف يربط النبي رضاها برضى الله وغضبها بغضبه . هذا بالاضافة إلى أنها أحد المعنيين بآية التطهير بلا شك في ذلك عند أحد من المسلمين ، ومع ذلك فكيف تفتن عن دينها وقد أذهب الله

عنها الرجس وطهرها من الذنوب وجعلها السيدة الأولى لنساء العالمين .

إن الذين رووا هذه الأسطورة ونسبوا إلى النبي هذا الموقف المتصلب وتلك المقالة البعيدة عن منطقه قد رووا إلى جانبها أنه إذا كان يوم القيامة يجمع الله الأولين والاخرين على صعيد واحد . ثم ينادي منادي الجليل جل جلاله نكّسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم فإن فاطمة بنت محمد تريد أن تمرّ على الصراط .

وإذا كانت بهذا المستوى كما تنص الرواية ، فكيف تفتن عن دينها لأمر مباح ومألوف بين المسلمين وفي بيت أبيها سيد المسلمين أكثر من أربع من النساء .

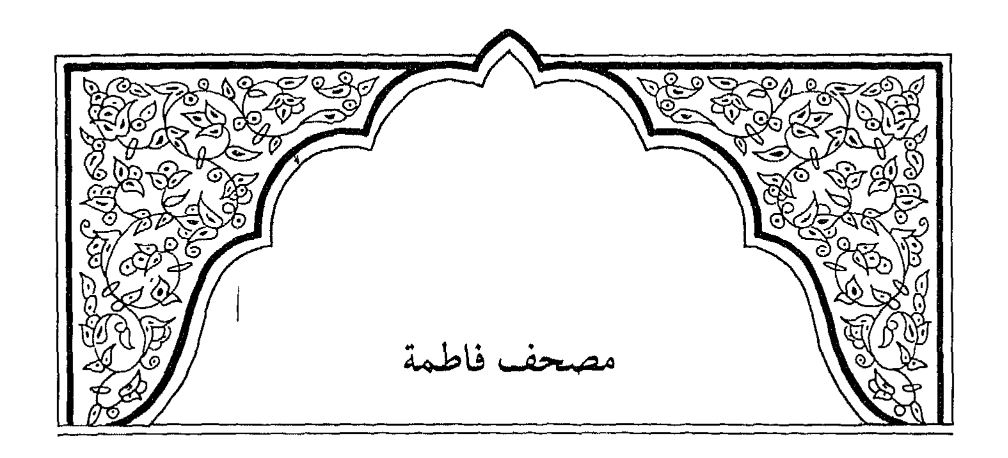
على أن المتتبع لتاريخ علي (ع) في تلك الفترة من تاريخ الإسلام سواء ما كان منها في حياته مع الرسول وهو إلى جانبه يجاهد في سبيل الدعوة ، أو بعد زواجه من سيدة النساء لا يتردد في أن جميع ما روي عنه من محاولة زواجه من ابنة أبي جهل ، ومن اختياره لنفسه بعض الجواري في احدى غزواته الناجحة كما تحدث بذلك بعض المؤلفات في السيرة من موضوعات منافقي الصحابة أو الأمويين بقصد ايجاد ولو فجوة بسيطة في علاقته بالنبي التي كان يحسده عليها القريب والبعيد والصديق والعدو .

والغريب في المقام أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى أن خطبة علي (ع) لجويرية بنت أبي جهل كانت في السنة التي تزوج بها من فاطمة الزهراء وقبل أن يأتيها العام الثالث بأولى الثمرات المباركة لزواجهما على حد تعبير الأستاذ توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت ، حيث قال :

إن الحادث كان وعلي وفاطمة في مستهل زواجهما ، وأضاف إلى ذلك : وإلى هذا يميل كثير من المؤرخين وأنه كان قبل ولادة الحسن (ع) .

ووجه الغرابة في ذلك أن أبا جهل وبني المغيرة كانوا في مكة وأبو جهل كان من أقطاب المشركين وألد اعداء الإسلام ومن اكثرهم تحريضا واساءة إلى النبي (ص) وأتباعه ، وهو الذي أشار على قريش قبل هجرة النبي أن تختار

كل قبيلة منها فتى صلدا ويعمدوا جميعهم إلى قتل محمد ليتفرق دمه بين القبائل . وقد أخذت قريش برأيه ، ولولا الوحي الذي أخبر النبي بالمؤامرة وأمره بالهجرة لتمّ لهم ما أرادوا ، وقد قتل أبو جهل في معركة بدر كما أتفق على ذلك جميع المؤرخين وظل بنوه على شركهم في مكة إلى السنة الثامنة التي فتح فيها النبي مكة وأسلموا مع من أسلم من أهلها ، فكيف يجتمع هذا مع قول النبي في مطلع السنة الثالثة للهجرة وقبل ولادة الحسن : ألا وإن بني المغيرة قد استأذنوني أن يزوجوا ابنتهم عليّاً كما جاء في تلك المرويات . ومهما كان الحال فلو افترضنا أن عليا فكر في غير فاطمة الزهراء من النساء ، وأن فاطمة الزهراء لم تكن طيبة النفس بهذا التفكير فذلك لا يوجب تجريحا ولا يبيح لأحد أن ينال من قداستها شيئا .



مصحف فاطمة

لقد أحصى المسلمون الأوائل على الرسول جميع اقواله وأفعاله ومن هؤلاء انتقلت سنّة الرسول (ص) إلى الطبقة الثانية وغيرها من الطبقات ، وبلا شك فإن أكثرهم وعيا لأقواله وأفعاله من الطبقة الأولى أولئك الذين كانوا على صلة به في أكثر الأوقات وفي مختلف المناسبات وعلى هذا الإساس لا بد وأن يكون للصحابة الأوائل دور في هذه الناحية أبرز من أولئك الذين دخلوا الإسلام في السنين الأخيرة من حياته كأبي هريرة وغيره من امتلأت مجاميع الحديث السنية بمروياتهم وأصبحوا من أوسع المصادر لها في حين أن صلاتهم بالرسول (ص) كانت محدودة للغاية ، لذلك ولغيره من الأسباب التي لا يعنينا الآن استقصاؤها كان موقف الباحثين من مروياتهم مشوبا بالحذر ، وفي الوقت ذاته لا يستبعد أحد على الذين لازموه منذ بعثته إلى أن اختاره الله إليه أن يرووا عنه آلاف الروايات وبخاصة إذا كانوا من المقربين إليه كعلي (ع) وغيره من الصحابة الأبرار في حين أن مجاميع السنّة لم ترو عنهم إلا القليل القليل بالقياس لما روته عن غيرهم في السنين الثلاثة الأخيرة من حياته ، كما يجب أن لا نستبعد ما ترويه المصادر الشيعية عن مصحف فاطمة ، ذلك الكتاب الذي ورد ذكره على لسان الأئمة من أهل البيت ، لأن الزهراء لم تفارق أباها طيلة حياتها وكانت ترعاه وتتولى خدمته وتسمع أحاديثه وأخباره وخطبه بنحو لم يتوفر لغيرها من الناس إذا استثنينا ابن عمها عليا (ع) .

فليس بغريب والحال هذه أن تكون السيدة فاطمة (ع) قد جمعت قسما مما

سمعته منه ومن زوجها في التشريع والأخلاق والآداب وما سيحدث في مستقبل الزمان من الأحداث والتقلبات وقد ورث الأئمة من ابنائها في جملة ما ورثوه عنها هذا الكتاب واحدا بعد واحد .

وقد جاء في رواية الكليني عن أحمد بن عمرو الحلبي عن أبي بصير أنه قال : دخلت على أبي عبد الله الصادق (ع) فقال لي يا أبا محمد :

لقد علَّم رسول الله عليًا ألف باب من العلم يفتح له في كل باب ألف باب .

قلت هذا والله العلم . فنكت ساعة في الأرض ثم قال : إنه لعلم وما هو بذاك يا أبا محمد أن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ، فقلت جعلت فداك : وما الجامعة قال صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله واملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج إليه حتى أرش الخدش ، وأضاف إلى ذلك الراوي أن الإمام قال : إن عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر إنه وعاء من آدم فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني اسرائيل ، ثم قال الإمام (ع) : وإن عندنا مصحف فاطمة (ع) وما يدريهم ما مصحف فاطمة ، قلت وما مصحف فاطمة : قال مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد .

كما جاء في الكافي عن علي بن الحكم عن الحسين بن أبي العلاء أن الإمام الصادق (ع) كان يقول : إن عندنا الجفر الأبيض قلت فأي شيء فيه : قال زبور داود وتوراة موسى وانجيل عيسى ومصحف ابراهيم ومصحف فاطمة (ع) .

وحتى لا يلتبس الأمر على أحد ، ويظن ظان أن كلمة مصحف تعني قرآنا غير الموجود بين أيدي الناس ، أو يستغل أحد هذا الاسم فيفسره بغير واقعه بقصد التشويه والتضليل ، قال الإمام (ع) : ما أزعم أن فيه قرآنا ، بل فيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد حتى أن فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وارش الخدش .

ومضى الإمام (ع) يقول : وعندي الجفر الأحمر ، فقال له الراوي : وأي شيء فيه ، فقال (ع) فيه السلاح وذلك إنما يفتح للدم فيفتحه صاحب السيف . فقال له عبد الله بن يعفور : أصلحك الله أيعرف ذلك بنو الحسن ، فقال أي والله : كما يعرفون الليل أنه ليل والنهار أنه نهار ، ولكن يحملهم الحسد وطلب الدنيا على الجحود والانكار ولو طلبوا الحق بالحق لكان خيرا لهم . إلى غير ذلك من المرويات المتفقة في مضامينها على أن الجامعة ومصحف فاطمة والجفر هذه المسميات الثلاثة قد توارثها الأئمة (ع) عن جدهم علي وجدتهم الزهراء وتكاد الروايات التي تعرضت لها تكون صريحة في أن محتويات تلك المسميات الثلاثة لا تتعدى ما جاء به النبي (ص) من أحكام وتشريعات وارشادات وغير ذلك من المواضيع ، ومن غير المستبعد أن يكون فيها بالاضافة إلى ذلك إشارة لبعض الأحداث والتقلبات التي حدثت خلال الشهور أو السنين والقرون التي تلت وفاته كما تلقاها من الوحي ، كما تشير إلى ذلك رواية الفضيل بن سكرة عن الإمام الصادق وقد جاء فيها أن الإمام الصادق (ع) قال : كنت أنظر في كتاب فاطمة ، ليس من يملك الأرض إلا وهو مكتوب فيه باسمه واسم أبيه وما وجدت لولد الحسن فيه شيئا ، وألمحت إلى ذلك رواية الحسين بن أبي العلاء ومع أن المرويات التي تحدثت عن هذه الكتب قد تعرضت لمضامينها ومحتوياتها ، وليست تلك المضامين بعيدة المنال عن النبي وعن طريق الوحي ، وليس غريبا على النبي (ص) أن يخبر عليا وفاطمة (ع) بشيء مما كان وسيكون ، ومع ذلك فقد استغل جماعة من المحدثين والمؤلفين هذه الأسماء للتشنيع والتشويش على المرويات الشيعية ، فقالوا : إن لفاطمة قرآنا غير القرآن الموجود بين المسلمين ، وأن لعلي كتابين الجفر والجامعة يحتويان على الحوادث الكونية والأحداث العالمية إلى انقراض العالم ، والكتابان مبنيان على حروف ورموز وحسابات يعتمد عليها أئمة الشيعة فيما يخبرون به من الغيبيات . وأضاف هؤلاء إلى ذلك ، أن القسم الأكبر من الشيعة يعتقدون بأن الأئمة عندهم من الغيب ما لا يمكن أن يكون لأحد سواهم .

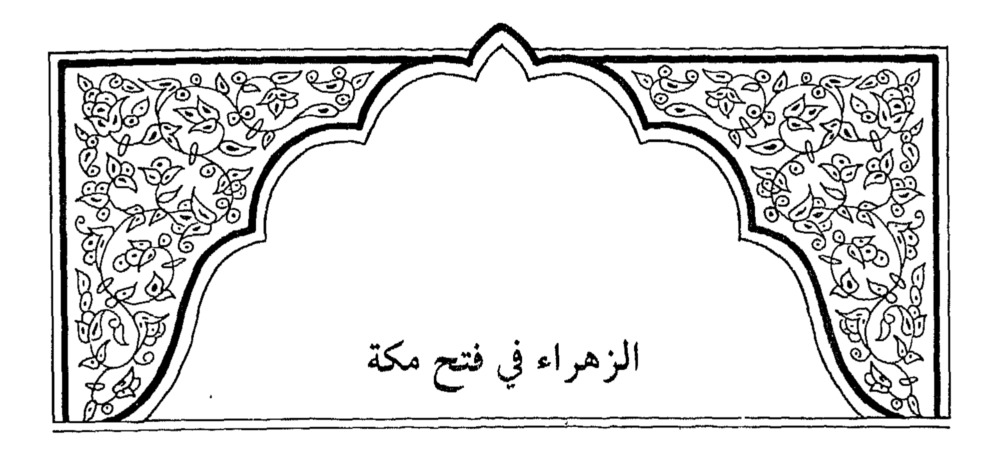
وممن نسب إلى الشيعة ذلك الأيجي في المواقف والجرجاني في شرحها وابن الضياع المالكي في الفصول المهمة وغيرهم من المتأخرين الذين يدعون إلى

التقارب بين السنّة والشيعة وتجاهل الخلافات الجانبية والمقالات التي تثير الأحقاد وتسيء إلى التقارب المنشود ، ومن بين هؤلاء الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه الإمام الصادق حيث ألصق بالشيعة وأئمتهم هذه التهمة .

ولو أفترضنا أن المرويات تنسب لعائشة وأبيها أو لغيره من كبار الصحابة شيئا من هذا النوع ، لو افترضنا ذلك لا بد وأن يقف الكثير منهم إلى جانب تلك المرويات يتلمسون لها الوجه الصحيح والمبررات التي تقطع الشك بها كما اعتادوا عليه في كل ما يتعلق بالصحابة .

ولو تغاضينا عن كل ذلك فكما تحدثت مرويات الشيعة عن مصحف فاطمة تحدث المرويات عن مصحف لعائشة تزيد محتوياته عن القرآن الموجود بين أيدي المسلمين .

فقد جاء في المجلد الأول من الإتقان للسيوطي أن مهيدة بنت أبي يونس قالت : قرأ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة أن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى إلى غير ذلك من المرويات التي تشير إلى أن مصحفها يشتمل على بعض الفقرات التي لا وجود لها في القرآن الموجود بين أيدي المسلمين ، ومع ذلك فقد تجاهلها الكتّاب وراحوا يوجهون الإتهامات المشينة إلى الشيعة وينسبون لأئمتهم ما يبرئهم منه تاريخهم المجيد الحافل بالقيم في جميع الميادين ، مع أن المرويات التي تحدثت عن مصحف فاطمة والجفر والجامعة تعرضت لمحتوياتها بصراحة لا تترك مجالا للدس والتشويش والتلاعب بالألفاظ ، هذا مع العلم بأن تلك المرويات ليست في المستوى الذي يفرض على الشيعة التدين بها والالتزام بمضامينها .



الزهراء في فتح مكة

لقد أحست سيدة النساء بالغبطة والسعادة وقد رأت القسم الأكبر من الجزيرة يخضع لسلطان الإسلام ويدين برسالة أبيها ، وها هي قريش مع عتوها وكبريائها ترسل أحد زعمائها إلى يثرب عاصمة الإسلام لتفاوض النبي (ص) على تمديد أمد الهدنة التي تم الاتفاق عليها في الحديبية حينما ذهب النبي معتمرا في العام السادس من الهجرة

لقد ارسلت قريش زعيمها أبا سفيان بعد أن أخلت بالشروط التي تم الاتفاق عليها وساعدت بني بكر احلافها على خزاعة حليفة النبي (ص) وبعد أن ادركت أن المسلمين قد أصبحوا قوة ليس في الامكان تجاهلها ، وكانت أخبار غدرهم بخزاعة قد ترامت إلى النبي وأخذ يعد العدة لغزوهم ، فأقبل أبو سفيان يعرض على النبي (ص) طلب قريش ، ولما لم يجد من النبي تجاوبا استجار بجماعة من المسلمين فلم يجره أحد ، ودخل على ابنته رملة زوجة النبي (ص) فلم ترحب بقدومه وما كاد يهم بالجلوس على فراش كان بحجرتها حتى أسرعت وطوته عنه كراهية أن يجلس عليه وهو مشرك يعادي الإسلام ويكيد له ، فازداد غمه وحزنه لهوانه حتى على ابنته ، ولم يكن يتصور تلك الصلابة التي وجدها حتى من ابنته وكاد أن ييأس لولا أن عاودته أحلامه وآماله بنجاح مهمته لو طرق بيت علي (ع) وهو وزوجته الزهراء من أقرب الناس إلى قلب محمد وأحبهم إليه .

ودخل على علي (ع) وقال يا أبا الحسن : إنك أمس القوم بي رحما وأني

قد جئتك في حاجة لا أجد لها غيرك فاشفع لي عند رسول الله (ص) في نجاح مهمتي حتى أرجع إلى قريش . ورد عليه علي (ع) بقوله : ويحك يا أبا سفيان والله أن رسول الله ان عزم على أمر لا يستطيع أحد أن يكلمه فيه . ولاحت لأبي سفيان بارقة أخرى من الأمل فاتجه إلى الزهراء وولديها وظن أنها قد تستجيب لطلبه فنظر إليها والحسنان يدرجان بين يديها وطلب إليها أن تجيره كما أجارت أختها زينب أبا العاص بن الربيع يوم كان مشركا على حد تعبير الراوي ، فأبت عليه أن تتدخل مع أبيها في مثل هذه الأمور ، ولكنه ظل يلح عليها ويتوسل إليها بولديها الحسن والحسين ولكنها بقيت على موقفها السلبي منه .

وعاد أبو سفيان يتحدث مع علي (ع) ونبرات صوته تتقطع من الفشل والخيبة ، ويقول : يا أبا الحسن لقد أشتدت عليّ الأمور ولا أدري بأي لسان ارجع إلى قريش وقد عقدت عليّ الآمال وأوفدتني إلى محمد وهي ترجو أن لا أرجع خائبا ، فانصحني وأشر عليَّ بما أفعل ، فقال له علي (ع) والله إني لا أرى لك ما ينفع غير أن تقوم على ملأ من الناس وتجير بين الفريقين فإنك من سادة كنانة ، ومع ذلك فإني لا أظن أن ذلك يجديك نفعا ، ولكني لا أجد لك غير ذلك .

فخرج أبو سفيان من بيته حتى انتهى إلى جمع من المسلمين فصاح ألا فإني قد أجرت بين الناس ، ثم دخل على النبي (ص) وقال لا أظنك ترد جواري يا محمد ، فلم يزد النبي في جوابه على قوله : أنت تقول ذلك . واتجه أبو سفيان بعد هذه المحاولات نحو مكة خائفا منكسرا يتعثر بالفشل والخذلان .

وليس بغريب على الزهراء (ع) إذا وقفت في تلك اللحظات التي رأت فيها أبا سفيان أكبر زعماء قريش يتململ ذليلا بين أيدي المسلمين لينتزع من أحدهم وعداً بمساعدته على رسول الله ليمدد أمد الهدنة بينه وبين قريش وأحلافها ، ليس بغريب عليها إذا وقفت مزهوة بانتصار الحق على الباطل والإيمان بالله على الشرك والضلال ، وعادت إلى مواقف قريش مع أبيها في مكة يوم كانت تطارده هو وأصحابه بكل أنواع الأذى والاساءة حتى اضطرته أخيرا أن يخرج في جوف الليل لينجو بنفسه متجها نحو يثرب ووجد فيها أنصارا عاهدوه

على أن يمنعوه من قريش وأحلافها ومن جميع من يريدون به وبرسالته سوءاً .

لقد تزاحمت كل تلك الصور والأفكار في نفس الزهراء وهي ترى شيخ قريش وزعيمها يستجدي من يستمع إليه ليحدثه عن مهمته ، وبالأمس القريب وقبل سنوات قليلات كان الآمر الناهي يتحكم في مصير أبيها وأصحابه وأتباعه كما يشاء .

لقد أيقنت الزهراء بعد موقف أبيها من أبي سفيان أنه سيغزو مكة بمن معه من الأنصار والأتباع وأيقنت بأن النصر سيحالفه بعد انهيار معنويات أهلها وتمنت أن تخرج معه مع من يخرج من نساء المسلمين ونسائه ، وما هي إلا أيام قلائل وإذا برسول الله (ص) يخرج من المدينة في عشرة آلاف من المسلمين ولواؤه مع ابن عمه ووصيه علي بن أبي طالب ميمّما شطر البلد الحرام الذي تسلل منه قبل ثمانية أعوام في جوف الليل وخرجت معه الزهراء فيمن خرج معه من النساء وأطياف الذكريات لا تفارقها . ولما أشرفت على مكة تذكرت أمها خديجة وعمها أبا طالب وأختيها زينب ورقية وقد هاجرا مثلها من مكة ولكن إلى غير رجعة ، وها هي ترجع مع أبيها وحدها وقد تمنت لو أن أمها وأختيها تشاركانها الفرحة وهاجت بنفسها الذكريات والأشجان ، ولكن سرعان ما تبددت وهي تصغي إلى هتاف عشرة آلاف مسلم يرددون الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ، ورأت الناس وأهالي مكة يفرون من وجه تلك الجموع وقد استولى عليهم الخوف والجزع ، ورأت أباها بين أصحابه محني الرأس تواضعا لله وشكرا له على ما أنعم عليه حتى لتكاد جبهته الشريفة تمس رجل ناقته وهو يوصي قادة جيشه أن لا يقاتلوا أحدا ولا يتعرضوا لأحد بسوء ويعلن العفو العام حتى عن جبابرة قريش وطواغيتها الأشداء ويستثني أفرادا قلائل من النساء والرجال سماهم بأسمائهم وأمر بقتلهم ولو كانوا تحت أستار الكعبة ، منهم الحويرث بن منقذ الذي روعها وهي مهاجرة مع الفواطم ونخس راحلتها فألقت بها على الأرض .

وفي رواية ثانية هبار بن الأسود الذي روع أختها زينب وألقت حملها ، وعبد الله بن ربيعة والحرث بن هشام من بني مخزوم ، وكانا قد استجارا بأم هاني

بنت أبي طالب ودخلا بيتها ، وبينما هما في البيت وإذا بعلي (ع)يدخل عليها مدججا بالحديد فعرفها ولم تعرفه ، فقالت له : أنا بنت عم النبي وأخت علي فأسفر عن وجهه عند ذلك فاعتنقته ، ولما نظر إليهما شهر سلاحه عليهما فتعلقت به وقالت : أنت أخي وتصنع معي تلك وحالت بينه وبينهما وقالت له : إذا أردت قتلهما فاقتلني قبلهما فتركهما وخرج . وخرجت في أثره تريد رسول الله (ص) فقصدت خباءه بالبطحاء فلم تجده فيه ووجدت الزهراء فرحبت بها ، ولكنها كانت أشد من ابن عمها علي (ع) حينما قصت إليها أم هاني قصة الرجلين اللذين استجارا بها وما كان من أخيها علي معهما ، فوقفت أم هاني كالمدهوشة من صلابتها وأحست بخيبة أمل لم تكن تنتظرها .

ولكن رسول الله (ص) حينما رجع إلى الخباء ووجد فيه أم هاني رحب بها وأكرمها وأجلسها إلى جانبه يحدثها ويستمع إلى حديثها فأحست بالفرج وتبددت مخاوفها على أسيريها ، وأخبرت رسول الله بما جرى لها مع أخيها وزوجته الزهراء ومضت تقول : ماذا لقيت من ابن أمي علي لقد أجرت حموين لي من المشركين فالتفت عليهما ليقتلهما ولا تزال حياتهما مهددة بالخطر بين الحين والآخر ما لم تشفعني فيهما يا رسول الله . فالتفت اليها بقلبه الكبير الذي ينبض بالعفو والرحمة وقد اتسع لطغاة قريش وحتى لأبي سفيان وزوجته هند التي فعلت معه ومع عمه الحمزة ما لم يفعله أحد من الناس ، وقال لها مطمئنا ما كان ذلك له : قد آجرنا من آجرت وآمنا من آمنت ثم ذهبت أم هاني إلى بيتها لتزف لمن فيه البشرى بالعفو والسلامة .

وظلت الزهراء إلى جانب أبيها مزهوة بنصر الله وقد رأت الأصنام واللات والعزى ومناة تحت أقدام أبيها ، ورأت قريشا تلوذ به وتقول : أنت أخ كريم وابن أخ كريم ما رأينا منك إلا الصدق والحق والعفو منذ عرفناك وأباها يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وتمنت سيدة النساء أمها خديجة أن تشهد هذا الموقف لترى أولئك الطغاة قد تركتهم قبل سنوات قليلات يلاحقون زوجها العظيم من مكان لآخر بكل أنواع الأذى والاستخفاف لتراهم اليوم يلوذون به ويتململون بين يديه مخافة أن

يقتصّ منهم لنفسه ولمن عذبوه من انصاره ، ولتسمع صوت بلال في ذلك اليوم الميمون الأغر تتجاوب أصداؤه في شعاب مكة وهو يهتف من على سطح الكعبة وحوله عشرة آلاف من المسلمين الله أكبر لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

ليت خديجة الكبرى التي بذلت كل مالها وراحتها لتحطم الأصنام واللات والعزى بقيت إلى هذا اليوم لترى اللات والعزى وجميع الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وعلى سطحها تحت أقدام المسلمين وترى قريشا التي ذاقت منها الأمرّين وقد خيم عليها الذل والهوان والناس يدخلون في دين الله أفواجا ولكن مشيئة الله قد قضت عليها أن تذهب عن هذه الدنيا وفي قلبها حسرة ولوعة وهي على ثقة بأن النصر في النهاية سيكون حليف محمد ودعوته وأن جند الله هم الغالبون .

لقد كانت الأيام التي قضتها الزهراء مع أبيها في مكة حافلة بالذكريات المحزنة تذكرت فيها فاطمة الزهراء ايام أبيها والمشركين يطاردونه وأصحابه وحصارهم في الشعب وما مر عليهم خلال مدة الحصار من ضيق وحرج وحرمان ، وتذكرت أمها خديجة وأيامها وعمها الكفيل المحامي أبا طالب وجميع الأحداث التي ذاقت مرارتها وبخاصة بعد وفاة أمها ، وفي هذا الجو المشحون بالذكريات كانت تنعم بالغبطة وهي ترى فلول الشرك تنهار تحت أقدام أبيها والانتصار تلو الانتصار ومعاقل الشرك لا ترى بديلا لها عن قبول الدعوة والدخول في الإسلام .

وقد رأت في تلك الرحلة المظفرة هوازن وثقيفاً وأحلافهما من العرب الذين ظلوا حتى ذلك التاريخ على موقفهم المتصلب من الإسلام رأتهم ينهارون وتندك حصونهم ومعاقلهم وتقع أموالهم وصبيانهم ونساؤهم في معركة حنين غنمية للمسلمين خلال ساعات معدودات وعددهم يزيد على عدد المسلمين ثلاثة أضعاف كل ذلك قد رأته الزهراء في رحلة لم تتجاوز الشهرين ، وعادت بعدها مع أبيها وزوجها إلى مدينة الأنصار تاركة مكة مرتع الصبا وموطن الأهل والأحباب وامتدت حياتها عامين بعد هذه الرحلة كانا من أسعد أيام حياتها حيث

الاسلام قد انتشر في جميع انحاء الجزيرة وأصبح الأول بين جميع الأديان والمعتقدات فيها والوفود من جميع انحاء الحجار تتزاحم على المدينة لتدخل في الاسلام وتضع جميع طاقاتها وامكانياتها في تصرف صاحب الدعوة وقائد مسيرتها محمد بن عبد الله (ص) .

وانقضت السنتان من غير أن يتخللهما ما يسيء إلى سعادتها أو يكدر صفوها .



الزهراء مع أبيها في مرضه

وبدخول الحادية عشرة من هجرة ابيها إلى المدينة، وفي الأيام الأخيرة من شهر صفر في تلك السنة بالذات اشتكى النبي (ص) من مرض ألمّ به وكان قد عزم على غزو الروم وأعد لقيادة جيشه اسامة بن زيد وهو في مطلع شبابه وأمر جميع المهاجرين والانصار أن ينضموا اليه، وجعل يستحثهم على الخروج والمرض يشتد عليه يوما بعد يوم، وظن أكثر المسلمين في بداية الأمر انها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول بين حين وآخر، غير أن الزهراء لم تكد تسمع بشكوى أبيها حتى ارتج قلبها وانهارت وكأنها والموت على ميعاد، لا سيا وقد سمعته قبل ذلك يقول في بعض المناسبات لاصحابه وهو يعظهم: يوشك ان ادعى فأجيب، وسمعته في حجة الوداع على جبل عرفات وقد وقف بين المسلمين يقول: لعلّي لا القاكم بعد عامي هذا؛ وتكررت منه هذه المقالة في السنة العاشرة من هجرته.

ورأته أكثر من مرة يخرج إلى زيارة القبور ويخاطبهم بكلمات تشعر بدنو أجله كل ذلك كانت تراه وتسمعه من أبيها فيرتجف لذلك قلبها ويستولي عليها الحزن، ولكنها كانت تتجلد وتصبر ولا تبدي ما في نفسها لأحد، ولما سمعت بشكواه ورأته يجمع اصحابه ويوصيهم بأهل بيته ويطلب دواة وقرطاسا ليعهد إليهم فيه حتى لا يضلوا من بعده ويرتدّوا على أعقابهم أيقنت بنهايته وخانها تجلدها لا سيا وقد رأته يتململ من الوجع ويصيح واكرباه، ثم يأخذ الماء بيده ويصبه على رأسه لتخف حدة الألم ويكرر واكرباه فتنكب عليه وتقول واكربي لكربك يا ابتاه، فنظر اليها نظرة مودع راحل عن دنيا الناس وآلامها ويقول لا كرب على أبيك بعد اليوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجـاء في البدايـة والنهايـة عن الصحيحين: لقـد اجتمع نسـاء رسول الله (ص) عنـده في مرضـه لم تغـادر منهن واحـدة فجـاءت فـاطمـة (ع) تمشي لا تخطىء مشيتها مشية رسول الله فهش اليها وقال مرحبا بابنتي، وأقعدهـا إلى يمينه وقد رآها متجلدة تتكلف الصبر ولا تكف عن الدعاء والابتهال، فـأشفق لما بهـا وأدناها إليه وتحدث معها بكلام لم يسمعه أحد غـير أنها بكت وتغيرت ثم ادنـاها اليه وتحدث معها فعادت إلى طبيعتها وابتسمت وكأن ليس في الأمر شيء.

وجاء في رواية عائشة انها قالت لها: لقد خصك النبي بالسر دوننـا فبكيت وابتسمت اخبريني بما قال لك. فقـالت لها الـزهراء (ع): مـا كنت لافشي سرّ رسول الله (ص) ومضت تقول: فلما تـوفي رسول الله قلت لهـا: اسألـك بما لي عليك من الحق الا أخبرتني بمـا أسر اليـك رسول الله، فقالت لهـا: لقد اخبـرني أولا باقتراب اجله وأوصاني بالصبـر وتقوى الله فبكيت، وفي المـرة الثانيـة قال لي وقد رأى ما بي من الهم والجزع: اما ترضين أن تكـوني سيدة نسـاء العالمـين وأن تكوني أول أهل بيتي لحـوقا بي فـاستبشرت بلقـاء الله واللحوق بـأبي في داره التي أعدها الله له.

وكان الالم يشتد برسول الله والخطر على حياته يتزايد ساعة بعد ساعة، ولم يكن ذلـك ليشغله عن التأكيـد على المسلمـين أن يخرجـوا بقيادة اسـامة بن زيـد ويستحث اسامة بالاسراع، ثم يغمى عليه فإذا أفـاق من غشوتـه قال واكـرباه، وفاطمة تتلوى إلى جانبه وتقول: واكربي لكربك يا ابتاه. وفيما هو في هذه الحالة سمعته يقول: بل الرفيق الأعلى. فأيقن من في البيت انه قد خيّر بين الحياة ولقاء الله فاختار لقاء ربه.

وكان علي (ع) قد احتضنه حين رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة وهو على صدر علي كما جاء في رواية ابن سعد في طبقاته.

وروى الحاكم في مستدركه بسند ينتهي الى ام سلمـة زوجة النبي (ص) انها قالت: والذي احلف به ان عليا كان أقرب الناس عهدا برسول الله ومضت تقول: سمعنا رسول الله قبيل وفـاته يقـول: جاء عـلي ويكرر ذلـك، فقالت لـه فاطمة: كأنك بعثته في حاجة، فلما جاء علي ظننا أن له إليه حـاجة فخـرجنا من

البيت وجلسنا عند الباب وكنت من أدناهم إلى الباب فأكب عليه رسول الله يساره ويناجيه وقبض من يومه ذلك وعلي أقرب الناس به عهداً وذلك في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر كما تنص على ذلك أكثر المرويات ، وقيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول كما رجح ذلك الكليني وقيل غير ذلك .

وعلا الصراخ والعويل من بيت رسول الله ، فأيقن أهل المدينة بوفاته وأسرعوا يبكون وينشجون وتعالى الصراخ في جميع أنحاء المدينة وقد أذهل أهله وقع المصاب وصرفهم عن التفكير فيما كان يفكر به الطامعون ويخططون له . وفيما كان المسلمون يتوافدون إلى بيت الرسول يغمرهم الحزن والأسف وإذا بعمر بن الخطاب يقوم في وسط تلك الحشود ويصرخ بأعلى صوته الا وأن محمدا ما مات وقد غاب وسيرجع كما رجع موسى إلى قومه فيقطع أيدي قوم وأرجلهم. وراح ابن الخطاب يهدد بالقتل كل من يدعي بأن محمدا قد مات، وسرت مقالته هذه بين تلك الجموع المحتشدة سريان النار في الهشيم ، واشتغل الكثير من العامة بها عن البكاء لوفاته واقترب الشك بوفاته من النفوس وأخذ الناس يتحدثون بها وهم بين اليأس والرجاء ، لا سيما والمتكلم ليس غبيا لا من عامة الناس وله مكانته بين صحابة الرسول .

ونجح ابن الخطاب فيما كان يخطط له وظلت مقالته حديث الجماهير الى ان اقبل ابو بكر الى بيت النبي حيث الجثمان وكان خارج المدينة حيث تسكن احدى زوجاته كما يدعي اكثر المؤرخين وان كنت اشك في ذلك وارجح انه كان مع جماعة يضعون الخطط لقطع الطريق على اصحاب الحق الشرعي في الخلافة، وقد ارسلوا عمر بن الخطاب ليشغل الناس عن القيام بأي عمل لغير صالحهم.

ودخل ابو بكر على النبي وما أن القى عليه نظرة حتى رجع الى الناس يقول: من يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت؛ وتلا على الناس قول الله تعالى: انك ميت وانهم ميتون، وهدأ ابن الخطاب من ساعته بعدما كان كالبركان الثائر، وانصرف هو وابو بكر وجماعة من المهاجرين الى مكان ما، وبعده إلى سقيفة بني ساعدة حيث الانصار قد اجتمعوا يتداولون في أمر الخلافة بعد أن أحسوا أن المهاجرين قد تكتلوا ضد اصحابها

الشرعيين ويوشك أن يكتب لهم النجاح، وكان بين الطرفين حوار واسع كانت نتيجته لصالح أبي بكر كما تحدثنا عن ذلك مفصلا في كتابنا سيرة المصطفى (ع).

وانصرف علي وجماعة من خيار الصحابة عن كل شيء إلا عن النبي وتجهيزه لمثواه الاخير. هذا وفاطمة يغشى عليها ساعة بعد ساعة لهول المصاب، ولما تم دفنه تحاملت تسعى نحو القبر وألقت بنفسها عليه مغشيا عليها، ولما افاقت اخذت حفنة من ترابه و أدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء كما جاء في رواية البخاري وراحت تشمها وتقول:

ماذا على من شم تربة أحمد	ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها	صبت على الأيام عدن لياليا

وبكى المسلمون لبكائها وتقطعت قلوبهم وهم ينظرون اليها تقلب التراب بيديها وتشمه ثم تحدق فيه وكأنها يئست من الدنيا وتقول:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها	وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا	لما نعيت و حالت دونك الكثب

ثم التفتت الى انس بن مالك وقالت: يا انس كيف طابت نفوسكم ان تحثوا التراب على رسول الله. وبقيت بعد ابيها خمسا وسبعين يوما، وقيل ستة أشهر كانت تبكيه خلالها ليلا ونهارا حتى ضج المسلمون من بكائها وجاءوا يسألونها الصبر الجميل.

وفي رواية الامام الصادق أنها كانت تأتي قبور الشهداء في الجمعة مرتين وتقول ها هنا كان رسول الله وها هنا كان المشركون ولم ترى ضاحكة طيلة حياتها بعده.

وجاء في رواية الصدوق انه لما قبض النبي (ص) امتنع بلال من الأذان وقال لا أؤذن بعد رسول الله، فقالت فاطمة ذات يوم: إني اشتهي أن اسمع صوت مؤذن ابي بلال فبلغ ذلك بلالا فأخذ في الأذان فلما قال الله أكبر ذكرت اباها وأيامه ولم تتمالك من البكاء، فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله شهقت

وسقطت لوجهها وغشي عليها، فقال الناس: امسك عن الأذان يا بلال فإن ابنة الرسول قد فارقت الدنيا، فلما افاقت من غشوتها سألته أن يتم الأذان فلم يفعل وقال لها: يا سيدة النساء إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي فأعفته من ذلك.

وجاء عن علي (ع) انه قال: لقد غسلت النبي في قميصه فكانت فاطمة تقول لي: أرني القميص يا ابا الحسن فإذا أريتها إياه أخذته وشمته وبكت حتى يغشى عليها، فلما رأيت منها ذلك غيبته عنها.

وقال ابن شهراشوب في مناقبه: إنها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ناحلة الجسم منهدة الركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعة، وتقول لولديها: اين ابوكما الذي كان يكرّمكما ويحملكما، اين ابوكما الذي كان من اشد الناس حبا لكما وشفقة عليكما ولا تزال تعدد معاملته لهما ومواقفه منهما حتى يغشى عليها.

وجاء في بعض المرويات ان عليا (ع) بنى لها بيتا في البقيع كانت تأوي اليه في ساعات من الليل والنهار تبكي اباها فيه سمي بيت ا لاحزان.

ويروى توفيق ابو علم في كتابه أهل البيت أن بيت الأحزان هو الموضع المعروف بمسجد فاطمة في جهة قبة مشهد الحسن والعباس، ومضى يقول: وإليه اشار ابن جبير بقوله ويلي القبة العباسية بيت فاطمة الزهراء بنت الرسول ويعرف ببيت الأحزان، ويقال إنه هو البيت الذي أوت إليه والتزمت الحزن فيه منذ وفاة ابيها إلى أن لحقت به.

وروى الصدوق في أماليه أن الامام الصادق (ع) قال: البكاؤ ون خمسة آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد (ص) وعلي بن الحسين زين العابدين، فأما آدم فإنه بكى خوفا من ربه لما خرج من الجنة، وأما يعقوب فإنه بكى على ولده يوسف حتى ذهب بصره، وقيل له: تاالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين، وأما يوسف فإنه بكى على يعقوب حتى تأذى منه من كا ن معه في السجن، وأما فاطمة بنت محمد فقد بكت على أبيها حتى تأذى منها أهل المدينة، وقالوا لها: لقد آذيتنا بكثرة بكائك فكانت تخرج الى

المقابر فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تعود إلى بيتها.

وأما علي بن الحسين فقد بكى على أبيه عشرين عاما وقيل أربعين عاما وما قدم له طعام وشراب إلا اشتد بكاؤه فيقال له: ألا تأكل فيقول كيف آكل وأبو عبدالله مات جائعا، وكيف أشرب وأبو عبدالله مات عطشان. إلى غير ذلك من الأحاديث التي تحدثت عن حزنها وألمها لفقد أبيها وتضاعف حزنها بعد أن وجدت من القوم جفوة وتجاهلا لحقوقها ولوصايا ابيها فيها وفي بعلها وبنيها وكأنهم كانوا ينتظرون الساعة حتى يفارقهم فيها ليقفوا منها ومن بعلها هذا الموقف الذي أقل ما يقال فيه: انه ليس عفويا ولا بريئا بل هو نتيجة لتخطيط سابق متفق عليه للاستيلاء على السلطة مهما كلفهم ذلك من تجاوزات وهفوات ونكران للجميل الذي قدمه محمد بن عبدالله لهذه الأمة، ولم يطلب عليه أجرا إلا المودة في القربى.



موقفها من الخلافة والميراث

لقد كانت الزهراء (ع) كغيرها من عامة المسلمين ترى أن عليا (ع) أحق الناس بالخلافة بعد أبيها لأنها سمعت أباها كما سمعه غيرها ينص عليه بصراحة لا تقبل التأويل . ولم تكن هي ولا بقية بني هاشم والغالبية العظمى من المسلمين ينتظرون ما حدث من المفاجأة ، والنبي لا يزال جثة هامدة لم يوارَ الثرى ، وأهله مشغولون عن كل شيء بتجهيزه إلى مقره الاخير ، وكان مما لا بد منه وقد رأت هذا التحول الخطير أن تقف ذلك الموقف المتصلب من حق علي بالخلافة لأنها ترى خلافته امتدادا لرسالة أبيها التي كان هو وأبوه من أحرص الناس عليها وأكثرهم بذلا وتضحية في سبيلها ، ولا أظن أن انتزاع فدك وسهم ذوي القربى من يدها كان داخلا في حساب القوم لولا موقفها الحازم من الخلافة ، ولكنهم بعد تعاطف عدد كبير من المسلمين واقتناعهم بحجتها ادركوا أن بقاء فدك في يدها يمدها بالقوة ويوفر لعلي قسطا من المال يعينه على المضي في موقفه المتصلب ، بعد أن ادركوا ذلك انتزعوها من يدها وأضافوها إلى ميزانية الدولة ، وكما يبدو أنها لم تكن أرضا قليلة الانتاج ، أو مزرعة متواضعة ، بل كانت تشكل ثروة واسعة كما تؤيد ذلك بعض المصادر . وحينما طالبت الصديقة الزهراء بفدك لم تطالب بتلك البقعة من أرض الحجاز ، بل كانت تلك البقعة من الأرض ترمز إلى السلطة التي كانت لأبيها في جميع الشؤون السياسية والمادية وغيرهما ، ولم يكن النزاع على أمر مادي كما يحاول البعض أن يحصره في هذا النطاق ، أو حول فدك بمعناها المحدود وواقعها الضيق .

ويمكن أن نستخلص ذلك من حديث للإمام موسى بن جعفر مع المهدي العباسي وقد حدد له فيه نقطة الخلاف بين السيدة فاطمة الزهراء وأبي بكر في مطلع خلافته .

فقد جاء في رواية علي بن اسباط أن أبا الحسن موسى بن جعفر لما دخل على المهدي العباسي ورآه يرد المظالم لأهلها ، قال له : فما بال مظلمتنا لا ترد يا أمير المؤمنين ، فقال له وما ذاك يا أبا الحسن . فقال أن الله تعالى لما فتح على نبيه فدكا وما والاها مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب : أنزل الله على نبيه وآت ذا القربى حقه ، فلم يدرِ رسول الله (ص) من هم فراجع في ذلك جبرائيل ، وراجع جبرائيل ربه ، فأوصى الله إليه ادفع فدكا إلى فاطمة ، فدعاها رسول الله وقال لها : يا فاطمة أن الله أمرني أدفع إليك فدكا ، فقالت قد قلت يا رسول الله من الله ومنك ، فلم يزل وكلاؤها فيها طيلة ما بقي من حياة رسول الله فلما ولي أبو بكر الخلافة أخرجهم منها ، فأتته وسألته أن يرد ما عليها ، فقال لها ايتيني بأسود أو أحمر يشهد لك بذلك فجاءته بأمير المؤمنين وأم أيمن فشهدا لها فكتب لها كتابا فخرجت والكتاب معها فلقيها عمر بن الخطاب فقال : ما هذا الذي معك يا بنت رسول الله ، فقالت كتاب كتبه لي أبو بكر في فدك ، فانتزعه منها ونظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه ، فقال له المهدي : يا ابا الحسن حدها لي فقال حد منها جبل أحد وحد منها عريش مصر ، وحد منها سيف البحر ، وحد منها دومة الجندل ، فقال له المهدي العباسي : كل هذا يا أبا الحسن ، فقال نعم يا أمير المؤمنين : هذا كله مما لم يوجف عليه رسول الله بخيل ولا ركاب ، فقال كثير أنظر فيه[1] .

لم ينته الإمام موسى بن جعفر (ع) من تحديد فدك بهذه الحدود الواسعة التي تتسع لاكثر البلاد الاسلامية حتى ادرك المهدي العباسي على ما يبدو أن الصراع الذي كان بين الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء وأبي بكر وأنصاره في مطلع خلافته لم يكن على تلك البقعة الضيقة من أرض الحجاز ، بل كان

---

(١) أنظر الكافي للكليني جـ ١ .

يتخطاها إلى عريش مصر وسيوف البحار ودومة الجندل وما إلى ذلك من المناطق التي تزيد مساحتها على مساحة الحجاز بكامله اكثر من مرة .

إن فدكا ذات الحدود المترامية التي حدد بها الإمام ظلامة أهل بيته ليردها عليهم المهدي العباسي تعني التخلي عن السلطة لأصحابها الشرعيين ، لذلك لم يكن جوابه إلى الإمام (ع) يتعدى تلك الكلمتين : إن ذلك كثير وسأنظر في الأمر يا أبا الحسن ، والإمام نفسه يعلم بأن ذلك لن يكون وأن الذي دفع الأولين على التغيير والتبديل والانقلاب على أعقابهم واغتصاب فدك والخلافة من اصحابها الشرعيين هو بعينه يدفع الآخرين .

إن فاطمة الزهراء لم تكن تطالب ببقعة من أرض أو بإرث مادي ، بل كانت تطالب بالحق الذي جعله الله لعلي في خلافة رسول الله (ص) ولا بد لنا بالاضافة إلى ما سبق من القاء نظرة على خطابها الذي القته في المسجد بحضور أبي بكر وحشد كبير من المسلمين للتأكد من هذه الحقيقة ، وقد كان محور حديثها عن علي ومواقفه الخالدة في الإسلام ، والتنديد بالمسلمين في اختيارهم المرتجل وانقلابهم على أعقابهم في اسنادهم الأمر إلى غير أهله ، ومخالفتهم الصريحة لكتاب الله ، وهكذا كانت في جميع مواقفها تركز على هذه الناحية وتوليها كل اهتمامها وعنايتها وكأنه لا يعنيها أمر فدك وغير فدك من شؤونها الخاصة .

ولقد قالت في خطاب لها بحضور حشد من نساء المهاجرين والأنصار قد توافدوا عليها خلال الوعكة التي ألمت بها : لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الروح الأمين والطبين بأمر الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين ، ومضت تقول : وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا منه والله نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله واستطردت في حديثها تقول : ألا هلم فاستمع وما عشت أراك الدهر عجبا وأن تعجب فقد اعجبك الحادث ، ليت شعري إلى أي لجأ استندوا وبأي عروة تمسكوا لبئس المولى وبئس العشير ولبئس للظالمين بدلا ، استبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل فرغما لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى

فما لكم كيف تحكمون .

إلى غير ذلك من مواقفها التي كانت تركز فيها على الخلافة والتنديد بمؤتمر السقيفة الذي تمخض عن استيلاء أبي بكر على السلطة ، بعد جدال بين فئة من المهاجرين كان قوامها ثلاثة من أعيانهم أبو بكر وعمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وبين فريق كبير من الأنصار كانوا يرون زعيمهم سعد بن عبادة أحق بها من أبي بكر وأمثاله ممن لم تسجل لهم الأحداث التي مرت بها الرسالة منذ مطلعها إلى اليوم الأخير من حياة الرسول شيئا بجانب مواقف الأنصار .

ومن غير البعيد أن الأنصار لم يقفوا هذا الموقف إلا بعد أن ادركوا المؤامرة التي دبرت لانتزاعها من علي بن أبي طالب (ع) ، كما تشير إلى ذلك رواية الزبير بن بكار عن زيد بن أرقم أحد وجوه الأنصار ، وقد جاء فيها أن القوم لو اختاروا عليا للخلافة لم ينازعه فيها أحد من الأنصار .

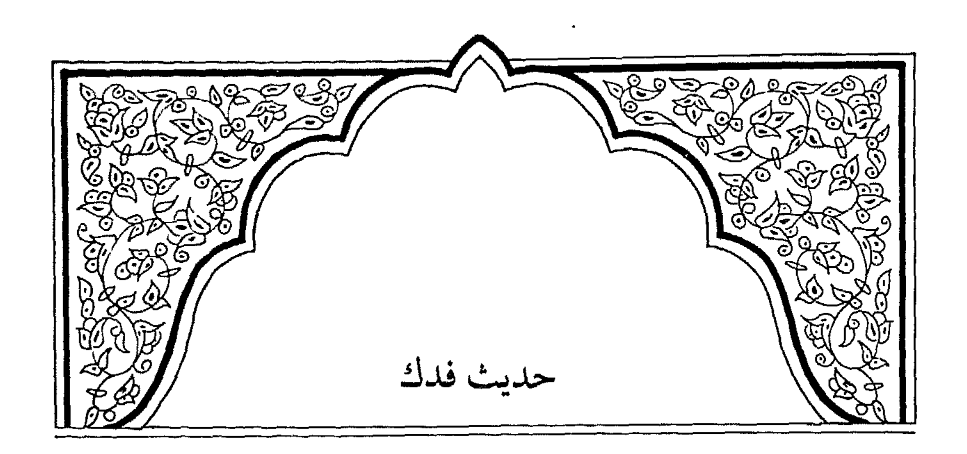
ويدعي بعض الرواة أن عليا (ع) كان يحملها على دابة ويخرج بها ليلا يطوف بيوت الأنصار فتذكرهم بمواقف علي (ع) وتضحياته في سبيل الإسلام وأبيها وبالنصوص التي نص بها على استخلافه من بعده وتستجديهم النصرة على تحصيل حقه وارجاع الأمر إليه ، ويضيف هؤلاء الرواة أن اكثرهم كانوا يقولون لها : لقد مضت بيعتنا لأبي بكر ، ولو أن زوجك سيق إلينا لما عدلنا به أحدا وأن عليا (ع) كان يرد عليهم بقوله : أفكنت ادع رسول الله في بيته مسجى بين أهله ونسائه بدون تغسيل ودفن وأخرج لأنازع القوم سلطانه .

وقد أخذ بهذه الرواية بعض الشيعة بالرغم من ضعف سندها ومن غير تدبر وادراك لما يهدف إليه واضعوا هذا النوع من المرويات الذين أرادوا أن يقولوا : أن عليا وفاطمة لما عجزا عن اقناع القوم بالحجة والمنطق راحا يعملان سرا ويستجديان الأنصار لاعلان العصيان الذي قد يؤدي إلى الثورة على النظام الجديد ، وفي الوقت ذاته فلم تجد من الأنصار قبولا لفكرة النص التي عرضتها لهم . هذا بالاضافة إلى ما في هذا الموقف من الهوان الذي تأباه نفس علي وفاطمة (ع) .

والـذي لا شـك فيـه أن الـزهـراء (ع) قـد اجتمعت بفـريق من أعيـان المهاجرين والأنصار وذكرتهم بمواقف علي (ع) في سبيل الإسلام منذ بزغ فجـره وتضحيـاته في سبيله ، وأعـادت إلى أذهانهم أقـوال الرسـول فيه ونصـوحه عـلى استخلافه واعداده لتحمل المسؤوليـة من بعده ، وأنبتُهم عـلى موقفهم المتخـاذل منـه وانحرافهم مـع الطامعـين والمنقلبين عـلى أعقـابهمْ الـذين كـانـوا يخـططون للاستيلاءِ على السلطة والنبي (ص) لا يزال حيا ، وقد تأثر بمـوقفها جمـاعة من علماء المسلمين وأدهشهم أن تجري الأمور في غير مجراها الطبيعي وساءهـم غضبها وقـد سمعوا أبـاها أكـثر من مرة يقـول لهـا : إن الله يغضب لغضبـك ويـرضى لرضاك ، وسمعوه يقول : فاطمة بضعة مني من آذاها فقـد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله . لقـد أدهشهـم غضبهـا ومـوقفهـا الـذي يعـرّضهم لغضب الله إن هـم تخاذلوا عن نصرتها ، ولكن الَّذي أحسوا بذلك ومسهم الخوف كانوا بالقياس إلى الجمهوز الأعظم وذوي الأطماع والأحقاد قلة لا تغني شيئا .

اما أن عليا (ع) قد اركبها دابـة وقادهـا إلى بيوت الأنصـار ليلا يـطرقها عليهم ويستجديهم النصر كما تنص على ذلك الرواية المذكورة فلا أرى ما يوجب ذلك ما دام مـوقفها واضحـا لدى الجميـع وقد اعلنتـه في المسجد وغيـره بلهجة كانت أشد من الصّـواعق ، ولم يكن ما يـدعوهـا إلى التكتم حتى تقوم سـرا وفي جـوف الليل تستحث الأنصـار على نصـرتها كـما تزعم الـرواية المـذكورة . هـذا بالاضافة إلى أن عليا (ع) لم يفكر في الثورة المسلحة على الوضع الجديد لا سيما وقد اتسعت حركـة الردة وأصبحت تهـدد الإسلام في خـارج المدينـة ، ومصلحة الإسلام كانت في حسابه وحساب الصديقة لا يعادلها شيء .

ولم تكن ثـورة الزهـراء وعلي (ع) إلا لتسجيـل عدوانهم وانحـرافهم عن الخط الذي وضعه الـرسول فيـما يعود لخليفتـه الشرعي منـذ بدايـة الدعـوة حتى النفس الأخير من حياته ، وما كانت قصة فـدك والعوالي وسهم ذوي القـربى إلا كرد من جانب أبي بكر وأنصاره على ثورة الزهراء ومـواقفها من خـلافة أبي بكـر خلال تلك الفترة القصيرة من حياتها بعد أبيها .



حديث فدك

ونعود بعد هذه الدراسة الموجزة لموقفها من خلافة أبي بكر إلى الحديث عن فدك التي استأثرت بقسط كبير من الأخذ والرد عند السنّة والشيعة وكان ولا يزال الحديث عنها مسرحا للجدل العنيف بين الفريقين ، واقترن تاريخها بتاريخ الصراع على السلطة بعد وفاة الرسول (ص) الذي تمخض عن اقصاء علي عنها .

وهي قرية من قرى الحجاز بينها وبين المدينة مسيرة يومين أو ثلاثة أيام على أبعد التقادير ، وتقع إلى جوار خيبر التي كانت من أكبر القرى اليهودية وأمنعها حصونا ، وبعد أن تغلب المسلمون على خيبر بعد تلك المعارك الضارية بينهم وبين يهودها واستولى عليها المسلمون تركهم النبي (ص) يعملون في الأرض بنصف ناتجها والنصف الآخر للفاتحين ، ولما انتهى النبي منها صاق الأمر بسكان فدك وأيقنوا أن النبي سوف يتجه إليهم فاستولى عليهم الخوف وأرسلوا إليه أنهم على استعداد لأن يسلموه الأرض وجميع ما يملكون على أن يتركهم يعملون فيها بنصف الناتج كما صنع مع يهود خيبر فوافق على ذلك فصالحهم على نصف ناتجها وبذلك كانت خيبر ملكا للمسلمين لأنهم استولوا عليها بالحرب وفدك ملكا للنبي (ص) لأنه لم يوجف عليها بخيل أو ركاب ، وقد وهبها النبي (ص) لفاطمة الزهراء وتركتها في يد النبي يتصرف بناتجها كما تريد وتأخذ منه ما يكفيها وولدها كما تجمع على ذلك المصادر الشيعية وبعض المصادر السنية .

وجاء في الدر المنثور للسيوطي عن البزاز وأبي يعلى وابن حاتم وابن

مردويه عن سعيد الخدري أنه قال : لما نزلت الآية وآت ذا القربى حقه ، دعا رسول الله فاطمة الزهراء وأعطاها فدكا ، كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس وغيره .

كما جاء في شرح النهج عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ص) بعد أن استولى على فدك وهبها لفاطمة وظلت في يدها إلى أن توفي وبعد وفاته انتزعها أبو بكر وضمها إلى أموال الدولة ، ولما طالبته بها أجاب بأنه سمع رسول الله يقول : نحن معاشر الانبياء لا نورث .

وفي رواية ثانية ، قال لها : إن أباك لم يترك درهما ولا دينارا وقد قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وإني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها الذي كانت عليه .

وقال ابن أبي الحديد في المجلد الرابع من شرح النهج : إن أبا بكر قال لها يا ابنة رسول الله والله ما ورث ابوك دينارا ولا درهما وأنه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت أنه وهبها لي بعد أن استولى عليها ، فطلب منها من يشهد لها بذلك فأحضرت عليّاً وأم أيمن فشهدا بأن رسول الله قد وهبها أياها ، كما شهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف بأن رسول الله كان يقسمها بين المسلمين فقال لها : صدقت يا بنت رسول الله وصدق علي وأم أيمن كما صدق عمر وعبد الرحمن أن مالك لأبيك وقد كان يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي بين المسلمين ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما كان يصنع أبي . فقال لها لك الله : أن أصنع أنا كما كان ينصع أبوك فوافقته على ذلك كما تزعم هذه الرواية .

وتنص بعض المرويات على أنه قد كتب لها كتابا في فدك وأشهد عليه ولكن عمر بن الخطاب قد انتزعه منها وخرقه ، وأكثر الروايات تنص على أنه قد ردّ شهادة علي (ع) بحجة أنه يجر المنفعة لنفسه ورد شهادة أم أيمن لأنه لا بد في مثل ذلك من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين .

وفي رواية سليم بن قيس أن أبا بكر قد أراد أن يكتب لها كتابا في فدك ولكن عمر بن الخطاب قد حال بينه وبين ما يريد وقال له : إن عليا يجر النار لقرصه وأم أيمن امرأة اعجمية لا تفصح عما تريد ، ولما عرضت عليه شهادة

الحسنين قال له : إنهما صغيران لا تجوز شهادتهما . هذا هو مجمل ما جاء حول قضاء أبي بكر في دعوى الزهراء (ع) .

ومع أن في النفس شيئا من جميع هذه المرويات ولكني سأتابع الحديث عنها كما رواها المحدثون وانطلاقا من هذا الواقع لا بد من تسجيل بعض الملاحظات على موقف أبي بكر وعمر من هذه الحادثة ، فلقد خالفا حكم الاسلام في ردهما لشهادة علي (ع) ذلك لأن القرابة وحدها لا تمنع من قبول الشهادة كما خالفا رسول الله في اتهامه بالتحيز للزهراء (ع) وقد سمعاه أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة يقول : علي مع القرآن والقرآن مع علي ، وعلي مع الحق والحق مع علي وغير ذلك من الآيات والروايات التي تؤكد بأنه فوق الشبهات . هذا بالاضافة إلى أن حكم الإسلام في هذا النوع من الدعاوى القضاء بها بشهادتي عدلين ، أو شاهد ويمين المدعي ، وكان على أبي بكر أن يحلفها اليمين الشرعية مع شهادة علي (ع) ويحكم لها كما تقتضيه أصول القضاء ، ولا أظنهما يجهلان ذلك فلقد كان النبي (ص) يحاكم ويقضي بين الناس على هذا النحو بحضورهما .

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو أنه إذا كان النبي (ص) قد أعطاها فدكا كما ادعت وهي الصادقة في دعواها بلا شك في ذلك وكانت تستغل منها ما يكفيها وتترك الباقي يتصرف به النبي (ص) فمن غير المتصور أن يخفى ذلك على المسلمين وبخاصة اولئك الذين كانوا على اتصال دائم به ، فلماذا والحال هذه لم يتقدم للشهادة غير علي وأم أيمن والحسنين كما في بعض الروايات .

والجواب عن ذلك أن فاطمة الزهراء (ع) لم تستعص عليها الشهود ولم تكن مضطرة إلى إشهاد أم أيمن أو ولديها الحسن والحسين وهما طفلان صغيران يوم ذاك ، بل كان لديها من الشهود ما لا يستطيع أحد أن يطعن بشهادتهم في مثل هذه المواضيع كأبي ذر وعمار والمقداد والعباس وأولاده وسلمان وأبي سعيد الخدري وغيرهم ممن يشهدون بصدقها فيما تدعيه ولو تعرضوا لأشد أنواع العقاب والعذاب ، ولكن إذا صح أنها وقفت هذا الموقف فيبدو أن موضوع فدك لم يكن يهمها ولا هو من اهدافها ، وإذا صح أنها قد أحضرت علياً

والحسنين للشهادة فذاك لكي تسجل على القوم ردا صريحا لنصوص الرسول فيه وفي ولديه ، على أنها لو أحضرت عشرين شاهداً من خيرة الصحابة لم يكن مستعدا للقضاء لها بما تطلب ، بل كان على ما يبدو من سير الاحداث مستعداً لأن يعارض شهادتهم بعشرات الشهود كما عارض شهادة علي وأم أيمن بشهادة عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف كما نصت على ذلك رواية شرح النهج السابقة وعارض إرثها من أبيها بحديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، وفي رواية ثانية لا نورث ما تركنا صدقة ، هذا الحديث الذي أجمع المؤرخون والمحدثون على أنه المصدر الوحيد له ، ولم يدّعِ أحد من الصحابة أنه سمعه من رسول الله غير أبي هريرة ، وكل من رواه من بعده فقد أسنده إليه .

وجاء في دلائل الصدق عن جماعة من المحدثين عن عائشة أنها قالت : لما توفي رسول الله اشرأب النفاق وارتدت العرب وانحازت الأنصار ، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها فما اختلفوا في نقطة الاطار أبي بفنائها وفصلها . لقد قالوا أين يدفن رسول الله فما وجدنا عند أحد من ذلك علما ، فقال أبو بكر : سمعت رسول الله يقول : ما من نبي يقبض إلا دفن تحت مضجعه الذي مات فيه ، واختلفوا في ميراثه ، فما وجدنا عند أحد في ذلك علما ، فقال أبو بكر سمعت رسول الله يقول : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

ومضى المظفري في دلائله يقول : ويدل على تفرد أبي بكر بهذا الحديث ما رواه أحمد في ص ١٣ من المجلد الأول من مسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال حدثني أبو بكر وأنه لصادق أنه سمع النبي (ص) يقول : إن النبي لا يورث وإنما ميراثه في المساكين وفقراء المسلمين . ومضى يقول أن ابن أبي الحديد قال في صفحة ٨٥ من المجلد الرابع أن أكثر الروايات تدل على أنه لم يرو هذا الحديث غير أبي بكر وحده كما ذكر ذلك معظم المحدثين ، حتى أن الفقهاء اطبقوا على ذلك في احتجاجهم بهذا الخبر على الاكتفاء برواية الصحابي الواحد[1] .

---

(١) أنظر جـ ٣ ص ٣٢ من دلائل الصدق للمظفري .

وتذهب بعض الروايات إلى أن فدكا وغيرها مما كان لرسول الله قد أصبح لأبي بكر من بعده كما ذهب إلى ذلك السيوطي في تاريخ الخلفاء .

وروى أبو داود في سننه في باب صفايا رسول الله من كتاب الخراج عن أبي الطفيل أنه قال : جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها من النبي (ص) فقال أبو بكر : سمعت رسول الله يقول : إن الله إذا أطعم نبيه طعمة فهي للذي يقوم بعده .

كما روي ذلك عن أبي بكر في كنز العمال عن أحمد وأبي داود وابن حريز والبيهقي وقال الشيخ المظفر في دلائل الصدق : بل الظاهر أن خيبر مختصة بهما وصارت طعمة لهما لما سيق عن البخاري ومسلم وأحمد أن عمر بن الخطاب امسك خيبر وفدكاً وقال هما صدقة رسول الله كانتا لحقوقه التي تعروه وأمرهما من ولي الأمر من بعده وأضاف إلى ذلك فإنه دال على أن عمر وأبا بكر قد اتخذا فدكاً وخيبرا لحقوقهما ونوائبهما طعمة لهما[1] .

ولكن احتجاج أبي بكر بالحديث الأول الذي ادعاه هو الأشهر بين المحدثين ، ومع ذلك فليس ما يمنع أن يكون قد رد طلب الزهراء فيما يعود إلى سهم النبي في خيبر وغيرها من الغنائم بالحديثين المذكورين ، وقد تبين مما ذكرنا أن أبا بكر وحده قد تفرد بروايتهما عن النبي (ص) .

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام ، هو أنه هل يجوز على النبي أن يشرع حكما يخالف نصوص القرآن التي تنص على ميراث الابناء للآباء ويخفي هذا التشريع عن جميع المسلمين حتى الذين كانوا الصق به من جميع الناس كعلي وأمثاله من ذويه وقرابته وهو يمسهم مباشرة ولا يبلغه إلا لأبي بكر وحده ، مع العلم بأنه كان فيما يعود للتشريع عند نزول الوحي عليه يجمع المسلمين ويبلغهم لأن التشريع يعم الجميع ولو كان المخاطب به النبي . وهل يجوز عليه أن يخفيه عن ابنته وابن عمه باب مدينة العلم ومن عنده علم الكتاب ، وهو يعلم أن ذلك يعرضها للخلاف مع من يلي أمور المسلمين ، ويؤدي إلى اختلاف

---

(١) صفحة ٣٠ من المجلد ٣

المسلمين أنفسهم ، بل ويعرضها إلى المطالبة بما لا تستحق ويؤدي بالتالي إلى ايذائها وغضبها ، وقد قال اكثر من مرة : إن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها . وقال أنها بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها .

ولا اظن أحدا يؤمن بالله ورسوله ويعرف الأسلوب الذي كان يتبعه في تبليغ الأحكام ومكانة الزهراء وعلي من نفسه يتردد في كذب الحديثين المنسوبين إلى أبي بكر .

وعلى أي الأحوال فلقد طالبت الزهراء (ع) في غلتها وإرثها من أبيها بلا شك في ذلك وأن أبا بكر قد تجاوز الحد في معاملته لها ، والذي كان يعنيها اكثر من أي شيء سواه هو امتداد سلطة أبيها وانتشار رسالته كما يبدو ذلك في جميع مواقفها وكانت فدك والميراث من جملة المظالم التي ارادت أن تسجلها على القوم ، وما تصنع بفدك وغيرها وهي تعلم بأنها سوف تلحق بأبيها بعد أيام معدودات كما أخبرها هو بذلك في الأيام الأخيرة من مرضه وهو يصارع الموت كما اشتهرت الرواية بذلك .



خطبة الزهراء في المسجد

لقد وقفت الزهراء (ع) موقفا حازما من الخلافة ومن إرثها وحقها في فدك كما ذكرنا، ولما رأت اصرارهم على موقفهم ارادت أن تعلن رأيها وظلامتها على أكبر جمهور من المسلمين حتى لا تترك عذرا لمعتذر، واستغلت اجتماع المسلمين في مسجد ابيها في يوم من أيام الجمعة فلاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله حتى دخلت على ابي بكر وعنده حشد كبير من المهاجرين والانصار في المسجد وقيل في بيته كما جاء في رواية أخرى.

وقد وصف حفيدها عبدالله بن الحسين بن الحسن السبط موقفها هذا فقال: لما دخلت عليهم ضرب أبو بكر بينهم وبينها ربطة بيضاء أو قبطية، ثم أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، فأمهلتهم طويلا حتى سكتوا، ثم قالت ابتدىء بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد. الحمد لله على ما أنعم به وله الشكر بما الهم ومضت تعدد نعم الله على عباده ومواقف ابيها وتضحياته في سبيل الدعوة حتى أنقذهم من الضلال وعبادة الأوثان والاصنام، ثم توجهت الى ذلك الحشد وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحملة دينه ووحيه وأمناء الله عل أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم وعهد قدمه اليكم وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع بينة بصائره منكشفة سرائره متجلية ظواهره قائد إلى الرضوان اتباعه مؤد إلى النجاة استماعه به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة

وبيناته الجالية. ومضت في خطبتها تقول: لقد جعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك والصلاة تنزيها لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق، والصيام تثبيتا للاخلاص والحج تشييدا للدين. وظلت تتحدث عن الفوائد التي يجنيها المسلم من فروع الاسلام وأصوله حتى خلصت الى القول: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم ولتعم المعزي إليه فبلغ الرسالة صادعا بالنذارة مائلا عن مدرجة المشركين ضاربا ثبجهم آخذا بكظمهم داعيا الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسر الاصنام وينكث الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدبر وتعزى الليل من صبحه وأسفر الحق عن محضه ونطق زعيم الدين وخرست شقائق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الاخلاص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة للشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الاقدام تشربون الطرق وتقتاتون القد، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد بعد اللتيا والتي وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ خماصها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدودا في ذات الله مجتهدا في أمر الله قريبا من رسول الله سيد أولياء الله مشمرا ناجحا كادحا وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الاخبار وتنكصون عند النزال وتفرون عند القتال. فلما اختار الله لنبيه دار انبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الافكين وهدر فنيق المبطلين فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم، فألفاكم بدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافا واحشكم فألفاكم غضابا فوسمتم غير ابلكم وأوردتم غير مشربكم هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتدارا زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين.

، ومضت في خطبتها التي كانت اشد على القوم من وقع الصواعق، وفي كل لمنها اكثر من دليل على انحراف القوم عن خط الرسالة ونهج القرآن ومفاهيمه البينة الواضحة حيث تابعت حديثها تقول: لقد خلفتم القرآن وراء ظهوركم أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون بئس للظالمين بدلا ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون.

ثم التفتت الى ابي بكر وقالت: أغلب عن ارثه يا بن ابي قحافة أفي كتاب الله ان ترث أباك ولا أرث أبي. لقد جئت شيئا فريا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول:

« وورث سليمان داود » ويقول : فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا « رب هب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب » ويقول : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب » ويقول : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ».

وقال : إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ، وزعتم أن لا حظوة لي ولا ارث من أبي ولا رحم بيننا أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي ، أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان . أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة ، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ، فدونكها مخطومة مرحولة للقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون ولكل بناء مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

وجاء في شرح النهج أنها النفتت إلى قبر أبيها وتمثلت بقول هند بنت اثاثة :

قد كان بعدك أنباء وهينثة	لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم	لما قضيت وحالت دونك الخطب
تهجمتنا رجال واستخف بنا	إذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب

ولم ير الناس أكثر باكٍ ولا باكية منهم يومئذ. ثم اتجهت تخاطب الأنصار وقالت : يا معشر البقية وأعضاد الملة وحصنة الإسلام ما هذه الفترة عن نصرتي والسنّة عن ظلامتي والغميزة في حقي ، أما كان رسول الله يقول : المرء يحفظ في ولده سرعان ما أحدثتم وعجلان ما أتيتم ، الآن مات رسول الله ، ها ان موته لعمري خطب جلل استوسع وهنه واستبهم فتقه وفقد راتقه وأظلمت الأرض له وخشعت الجبال وأكدت الآمال ، وأضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة ، وتلك نازلة أعلن عنها كتاب الله قبل موته وأنبأكم بها قبل وفاته فقال :

وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين .

أيها بني قيلة اهتضم ثرات أبي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والعدد والاداة والقوة وأنتم نخبة الله التي انتخب وخيرته التي اختار باديتم العرب وبادهتم الأمور وكافحتم البهم حتى دارت بكم رحى الإسلام ودر حلبه وخبت نبرات الحرب ، وسكنت قوة الشرك وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين ، فتأخرتم بعد الإقدام ونكصتم بعد الشدة وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكفوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون .

ألا وإنكم قد أخلدتم إلى الخفض وركنتم إلى الدعة فجحدتم الذي وعيتم ودعستم الذي سوغتم ، وأن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد .

ومضت تقول : ألا وقد قلت ما قلت لكم على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القناة وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر ناقبة الخف باقبة العار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ، فبعين الله ما تعملون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ويبدو أن خطابها هذا في المسجد ، وحديثها مع الأنصار قد احدثا جوا

مشحونا بالقلق ، وظهرت على الكثير من المسلمين بوادر الندم وأخذوا يتحدثون بظلامتها وموقفهم المتخاذل منها ومن حق علي في الخلافة . فصعد على أثر هذه الأجواء أبو بكر المنبر وقال كما جاء في رواية شرح النهج : أيها الناس ما هذه الرعة إلى كل قالة لئن كانت هذه الأماني في عهد رسول الله ، ألا ومن سمع فليقل ومن شهد فليتكلم ، إنما هو ثعالة شهيده ذنبه مرب لكل فتنة ، هو الذي يقول : كروها جذعة بعدما هرمت يستعينون بالضعة ويستنصرون بالنساء كأم طحال أحب إليها البغي ألا وإني لو أشاء أن أقول لقلت ، ولو قلت لبحت أني ساكت ما تركت .

ثم التفت إلى الأنصار وقال: لقد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم وأحق من لزم عهد رسول الله (ص) انتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ، ألا واني لست باسطا يدا أو لسانا على من لم يستحق ذلك منكم .

وقال في شرح النهج لقد قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن زيد البصري وقلت له بمن يعرض : فقال بل يصرح ، قلت لو صرح لم أسألك . فضحك وقال بعلي بن أبي طالب (ع) قلت هذا الكلام كله لعلي (ع) بقوله قال نعم إنه الملك يا بني قلت فما مقالة الأنصار ؟ قال لقد هتفوا بعلي (ع) فخاف من اضطراب الأمر فنهاهم ، وأضاف إلى ذلك ابن أبي الحديد لقد سألت عن غريبه ، فقال أما الرعة بالتخفيف فهي الاستماع والإصغاء والقالة هي القول ، وثعالة اسم للثعلب علم غير معروف مثل ذؤالة للذئب ، وشهيده ذنبه أي لا شاهد له على ما يدعي إلا بعضه وجزء منه ، وأصل ذلك مثل معروف يتحدث به العرب ، فلقد قالوا أن الثعلب أراد أن يغري الأسد بالذئب ، فقال له أن الذئب لقد أكل الشاة التي كنت قد أعددتها لنفسك ، وكنت حاضرا ، فقال ومن يشهد لك بذلك ، فرفع ذنبه وعليه من دمها ، وكان الأسد قد افتقد الشاة ، فقبل شهادته وقتل الذئب .

وكروها جذعة أي أعيدوها إلى الحال الأولى يعني الفتنة والهرج ، وأم طحال امرأة بغي عاشت في الجاهلية وكان يضرب بها المثل فيقال : أزنى من أم طحال .

وعلى أي حال فإن صح أنها وقفت هذا الموقف في مسجد النبي (ص) وخاطبت الأنصار والمهاجرين بتلك اللهجة القاسية التي لا بديل عنها فلا بد وأن يكون لكلامها أثره وقد نصت الرواية على أن فريقا من الأنصار قد هتفوا بعلي (ع)، ولكنه أمرهم بالخلود والسكينة خوفا من اضطراب الأمر مما يدل على أن القوم فهموا ما تعنيه وترمز إليه من تقريعها لهم ووصفهم بالارتداد والنفاق، وكذلك هتفوا بعلي وخاف أبو بكر أن ينتقض الأمر عليه فوقف يهدد ويتوعد ويحذر من أي تحرك جديد ضد الوضع القائم .

ومما يؤكد أن الخلافة وحدها كانت تعنيها في جميع تحركاتها أن حديثها مع نساء المهاجرين والأنصار الذي نقلنا شطرا منه في الصفحات السابقة كان يدور حول الخلافة وحدها وموقف رجالهن المتخاذل منها ،ولم تتعرض لفدك ولا لغيرها من سهام ذوي القربى والارث ، وحسبما اعتقد أنها لم تتحدث عن الارث في خطابها في المسجد إلا لتسجل عليهم تجاوزا صريحا لما أنزل الله سبحانه في كتابه بالاضافة إلى استيلائهم على الخلافة الذي تجرعت مرارته وكان أشد ايلاما لنفسها من جميع الأحداث التي تلت وفاة أبيها .

ومما لا شك فيه بأن حرصها البالغ أقصى حدوده على هذا الأمر لم يكن إلا لأنها كانت ترى أن مصلحة الإسلام العليا تقتضي ذلك واستيلاء علي عليها سيكون امتدادا لسلطة النبي التي كانت لخير الإسلام ونشره ، ومما يدل على أن مصلحة الإسلام كانت في نظرها فوق جميع الاعتبارات ما جاء في رواية شرح النهج وغيره من المرويات الشيعية أنها قد رجعت من المسجد بعد خطابها وبيدها كتاب كتبه لها أبو بكر في فدك ، فانتزعه منها عمر بن الخطاب وخرقه فقالت له : بقر الله بطنك كما بقرت صحيفتي هذه . وتضيف الروايات الشيعية إلى ذلك أنها رجعت إلى البيت بعد موقف عمر بن الخطاب منها مكسورة مهضومة فتحدثت مع علي (ع) بكلام تبدو عليه الشدة والقسوة وفيما هي تحدثه وإذا بالمؤذن يقول : أشهد أن محمدا رسول الله فقام عند ذلك إلى السيف ، وقال لها : أتريدين الخلافة والإرث ، أم تريدين رسالة أبيك وبقاءها فتعلقت به وقال حسبي ذلك إلى غير ذلك مما يرويه الرواة حول هذا الموضوع .

ومهما كان الحال فالحديث عن فدك وميراث الزهراء من أبيها ومواقفها من ذلك ومن الخلافة طويل وكثير ، وبلا شك فإن الأصحاب والأعداء قد وضعوا القسم الأكبر مما هو بين أيدي الرواة ولا يثبت بعد التمحيص والتدقيق في تلك المرويات إلا القليل القليل ، ومع ذلك فالشيء المتيقن أنها وقفت موقفا صلبا وحازما من حق علي في الخلافة وحقها في الميراث وأحرجت اخصامها ووضعت المهاجرين والأنصار في حدود مسؤولياتهم حتى هتف عدد كبير منهم بعلي (ع) ولكن تباشير الردة التي اتسع نطاقها خارج المدينة وأصبحت تهدد المدينة بالذات قضت على علي (ع) أن يتدارك الأمر ويتجاهل كل ما بدر منهم وأضاف بذلك تضحية كبرى إلى تضحياته الجسام في سبيل الإسلام ، وبقيت فدك في أيدي القوم يستغلونها لصالحهم ، كما في بعض الروايات ولصالح المسلمين كما في بعضها الآخر .

وكان عليهم أن يراعوا وصية رسول الله (ص) فيها ويتجنبوا غضبها الذي يغضب له الله كما أخبرهم بذلك أبوها الذي لا ينطق عن الهوى ، وأن لا يؤذوا رسول الله فيها وقد سمعوه أكثر من مرة يقول من آذى فاطمة فقد آذاني كان من المفروض عليهم ذلك حتى ولو افترض محالا بأنها قد ادعت ما ليس لها ، ولا أحسب أن أحدا من المسلمين يعارضه أو ينكر عليه فيما لو ترك لها فدكا وسهم ذوي القربى ولكن الأمر كان أبعد من ذلك كما ذكرنا .

وكما ذكرنا لقد بقيت في أيديهم يتصرفون بها كما يشاؤون ولما انتقلت الخلافة لعلي (ع) تصرف بها لصالح المسلمين كما كان يتصرف في أمواله الخاصة في هذا السبيل ، وفي عهد معاوية وزعها اثلاثا ثلثا لمروان بن الحكم وثلثا لعمرو بن عثمان وثلثا ليزيد بن معاوية وخلصت أخيرا لمروان بن الحكم فوهبها لولده عبد العزيز بن مروان ووهبها عبد العزيز لولده عمر بن عبد العزيز ولما انتهت إليه الخلافة كانت أول ظلامة ردها على العلويين فقد استدعى الحسن بن الحسن وسلمها له ، وفي أكثر الروايات أنه سلمها لعلي بن الحسين (ع) وبقيت في يده يوزع ناتجها على العلويين ، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز انتزعها يزيد بن عبد الملك من العلويين وأضافها إلى أمواله وظلت في يد المروانيين طيلة حكمهم ، ولما اراح الله منهم العباد والبلاد ، واستولى أبو

العباس المعروف بالسفاح على الدولة الإسلامية أرجعها إلى العلويين ، واستلمها منه عبد الله بن الحسن بن الحسن كما في رواية شرح النهج ، وبعد ثورة الحسنيين على الدولة العباسية انتزعها منهم أبو جعفر المنصور ، وردها عليهم المهدي العباسي ، ولما انتقلت الخلافة إلى موسى الهادي انتزعها من العلويين وظلت في أيديهم إلى أن جاء عهد المأمون ، فكان أول عمل قام به أن جلس يراقب المظالم التي ارتكبها اسلافه فكانت أول رقعة وقعت في يده فنظر فيها وبكى ، وقال للذي على رأسه ناد اين وكيل فاطمة بنت محمد فقام شيخ فجعل المأمون يناظره والشيخ يرد عليه ثم أمر المأمون بردها عليهم فأنشد دعبل الخزاعي قصيدته التي يقول فيها :

اصبح وجه الزمان قد ضحكا   برد مأمون هاشم فدكا

فلم تزل في أيدي العلويين يستغلونها ويتقاسمون ناتجها إلى أن جاء عهد المتوكل فانتزعها من أيديهم وأقطعها عبد الله بن عمر بن البازيار وكان فيها أحد عشر نخلة غرسها رسول الله بيده الكريمة فكان الفاطميون عندما كانت في أيديهم يأخذون ثمرها ويحتفظون به لموسم الحاج فإذا وفد الحجاج على المدينة اهدوا إليهم من ذلك التمر طمعا في صلاتهم ، فلما استولى عليها البازيار أرسل بشير بن أبي أمية الثقفي وأمره بقطع النخيلات التي غرسها النبي (ص) فأصابه الفالج بعد ذلك مباشرة[1] .

وعلى أي الأحوال فمما لا شك فيه بأن فدكا وغيرها مما تركه الرسول لم يكن المقصود بالذات للزهراء ولا لعلي (ع) كما ذكرنا من قبل ، وكانت الدنيا بكاملها في حسابها أوهى وأهون من عفصة مقرة أي مرة كما جاء في كتاب علي لسهل بن حنيف .

وجاء في الكتاب المذكور يوم كانت خيرات الدولة الإسلامية على سعتها تحت قدميه ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ولا ادخرت من غنائمها وفرا ولا اعددت لبالي ثوبي طمرا ولا خزنت من أرضها شبرا ولا أخذت منه إلا كقوت اثان دبرة ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة ، بل كانت في أيدينا فدك

---

(١) انظر شرح النهج ص ٨٠ و٨١.

من كـل ما اخلتـه السماء فشحت عليهـا نفوس قـوم وسخت عنهـا نفـوس قـوم آخرين ونعم الحكم الله وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جـدث تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها .

وكما كان علي كانت الزهراء والدنيا بكاملها احقر من أن تنازع أو تخـاصم أحدا لأجلها لا سيما وهي تعلم علم اليقين بأن حياتها بعد أبيها لا تتجاوز أيـاما معـدودات ، وقد أمضت حيـاتها القصيـرة في ظل أب لم يشبـع مـرة واحـدة من طعامه وزوج كان أكثر ادامـه الخل والـزيت . نعم لقد خـاصمت القوم ووقفت وقفة الأبطال من أجـل الخلافـة كما ذكـرنا ولكن بـدون جدوى فعـادت ولازمت بيتها تتعثر بأذيالها من الخيبة منهارة الركن باكية أيام أبيها تتمثل بهذه الأبيات :

صـبـت عــلى مــصــائـب لـو أنها صبت عــلى الأيــام عــدن ليــاليـا
قــد كنت أرتــع تحـت ظــل محمــد لا أختشـى ضيــما وكــان جمــالـيــا
والـيــوم أخضــع لـلذليــل وأتـقـي ضـيـمـي وأدفــع ظــالمي بــردائـيـا

لقد ظلت الزهراء بعد أبيهـا في الأشهر الثـلاثة أو الستـة في جهاد مستمـر ونضال شاق مع اخصامها الجدد الـذين استطاعـوا السيطرة عـلى أمور المسلمـين بعد تخطيط مدبر ومدروس ، فوقفت لهم بالمرصاد وناضلتهم بـالحجة والمنـطق ، وظل القوم جادون في أمرهم لم يراعوا لهـا حرمـة ولا حفظوا لـرسول الله وصيـة فيها وفي آله وراحوا يلاحقون عليا ويطلبون بيعته ، وكان قد أبى عليهم واعتصم هو وجماعة من خيرة الصحـابة في بيتـه ، فأرسـل أبو بكـر عمر بن الخـطاب على رأس جمـاعة من أنصـاره لمداهمـة الدار والاتيـان بمن فيه إلى المسجـد مهما كـانت النتائج ، وأقبـل ابن الخطاب بمن معـه يحملون الحطب لاحـراق البيت على أهله إذا تعسر عليهم إخراج من فيه بقوة السلاح ، وصاح ابن الخطاب بأعـلى صوتـه يدعوهم إلى الخروج منها طائعين قبل أن يخرجوا منها مكرهين . ومضى يقـول : والذي نفس ابن الخطاب بيده لتخرجن من الدار أو لاحرقنها عليكم .

وجـاء في تاريـخ اليعقوبي ص ١٠٥ من المجلد الثـاني أنه بلغ أبـا بكر أن جماعة من المهـاجرين والأنصـار قد اجتمعـوا مع ابن أبي طـالب في منزل فـاطمة الزهراء فأتوا في جمـاعة حتى هجمـوا على الـدار وخرج عـلي ومعه السيف فلقيـه

عمر بن الخطاب فكسر سيفه ودخلوا الدار فخرجت فاطمة وقالت لتخرجن أو لاكشفن شعري وأعجن إلى الله فخرجوا وخرج من في الدار[1].

وقال أبو الفداء في صفحة ٦٤ من المجلد الثاني من تاريخه : أن عمر بن الخطاب أقبل ومعه النار ليحرق عليهم البيت فخرجت فاطمة وقالت له : إلى أين يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا قال : نعم ، أو تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون .

وأيد ذلك المسعودي في مروجه وابن قتيبة في الامامة والسياسة والطبري وابن أبي الحديد في شرح النهج ، وغير هؤلاء من المؤرخين والمحدثين .

وتنص بعض المرويات أن بعض الصحابة لفت نظره إلى أن في الدار فاطمة وولدها في معرض الإنكار عليه ، فرد عليه بقوله وإن كانت فيها ووقفت الزهراء تستغيث بأبيها وتقول ماذا لقينا من أبي بكر وابن الخطاب من بعدك يا رسول الله ، وتنص بعض المرويات أنهم أخرجوا عليا من الدار وانطلقوا به إلى المسجد وطلبوا منه البيعة وهددوه بالقتل إن لم يبايع فقال إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله ، واندفع ابن الخطاب نحوه يقول : أما عبد الله فنعم ، ولكنا لا نعترف لك بأكثر من ذلك . وتضيف إلى ذلك تلك المرويات أن أبا بكر أحس بأن الأكثرية من المسلمين لا يستسيغون هذا الاسلوب الفج المتغطرس مع رجل كعلي بن ابي طالب لا سيما وقد رأوا فاطمة بنت نبيهم تتململ بين يديه تستغيث بأبيها تارة وبالمسلمين أخرى، فخاف أن يستفزهم هذا الموقف المؤلم وينقلبوا عليه، فتركه ورجع الامام (ع) فاتجه نحو قبر النبي شاكيا ما يلقاه من قومه يقول: يا رسول الله إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني.

وفي رواية أخرى انهم لما أرادوا الدخول الى بيتها واخراج علي منه ارادت ان تحول بينهم وبين ذلك ضربها قنفذ على وجهها وأصاب عينها، وفي رواية ثانية

---

(١) الذي يكاد ان يكون متفقا عليه بين المؤرخين والمحدثين ان الذي خرج لمقابلة القوم الزبير بن العوام وقد عثر ووقع سيفه من يده فسبق اليه ابن الخطاب وضرب به الحائط ورواية اليعقوبي هذه لعلها غلط منه أو من الناسخ.

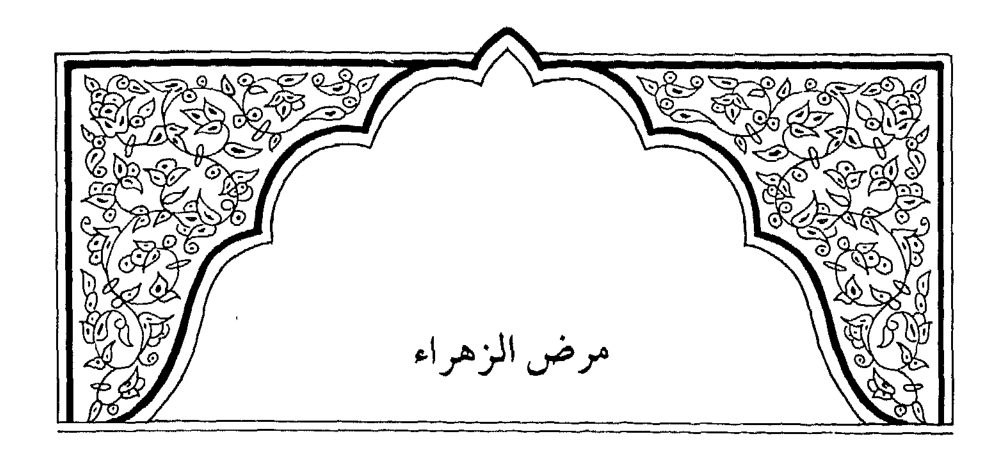
ان عمر بن الخطاب ضربها بالسوط فأثر ذلك في عضدها كالدملج على حد تعبير الراوي .

وفي رواية ثالثة إنها وقفت خلف الباب لتمنعهم من دخوله فاندفعوا نحو الباب ودفعوه نحوها وكانت حاملا فأسقطت ولدا كان رسول الله قد سماه محسنا .

وفي رواية الكافي عن عبدالله بن محمد الجعفي عن أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق أن فاطمة الزهراء لما كان من أمر القوم معها ما كان أخذت بتلابيب عمر بن الخطاب فجذبته إليها ثم قالت : أما والله يا ابن الخطاب لولا أني أكره أن يصيب البلاء من لا ذنب له لقلت إني إذا أقسمت على الله أجده سريع الاجابة .

وفي بعض المرويات انها خرجت خلف علي (ع) ومعها نسوة من مخدرات بني هاشم وأقبلت نحو المسجد وقالت لهم خلوا عن ابن عمي والذي بعث محمدا بالحق إن لم تخلوا عنه لانشرن شعري ولاضعن قميص رسول الله على رأسي فما ناقة صالح بأكرم على الله مني ولا فصيلها بأكرم عليه من ولدي ، وكان سلمان الفارسي قريبا منها وهي تخاطب القوم كما يزعم الراوي ، فقال : لقد رأيت حيطان المسجد تعلقت من أسفلها حتى لو أراد الرجل أن يخرج من تحتها لخرج ، فجئت اليها وقلت لها يا بنت رسول الله : لقد بعث ابوك رحمة فلا تكوني انت السبب في هلاك هذه الأمة ، ولما رأى القوم ما حل بهم تركوه ورجع معها الى بيته .

الى كثير من المرويات التي لا تثبت أسانيدها في مقابل النقد العلمي ، ومع ذلك فليس ببعيد على الله أن يستجيب لها لو سألته أن يأخذ لها بحقها منهم ، ولكنها وأباها وأبناءها الكرام على كثرة ما مر عليهم من ظلم واضطهاد وترويع من اعدائهم لم يسألوا الله سبحانه أن ينتقم لهم في الدنيا وقابلوا كل أنواع البلاء بالصبر الجميل والرضا بقضائه لينعموا بما أعده الله للصابرين في الدار الأخرى وقدموا بذلك أروع الأمثلة في الجهاد والتضحية في سبيل الله والعمل لخير الناس أجمعين .



مرض الزهراء

لقد أطبقت على الزهراء الهموم وحطمتها الأحزان وأحاطت بها سحب قاتمة ، فمن موت أبيها إلى اغتصاب الخلافة من ابن عمها إلى انتزاع فدك من يدها وحرمانها من إرثها إلى غير ذلك من الكوارث والمصائب التي احاطت بها خلال أيام معدودات فلم يعد جسمها النحيل يقوى على تحمل تلك الأحداث فلازمت الفراش وبدا عليها الجهد والاعياء ، وشاع ذلك بين المهاجرين والأنصار ، وندم القوم على سوء صنيعهم معها فأقبل أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى بيتها نادمين على ما صنعا معها فأبت أن تأذن لهما وأصرت على موقفها فاستجارا بأمير المؤمنين ورغبا إليه أن يدخلا عليها عائدين فعرض عليها طلبهما فلم ترد طلبه فدخلا وسلما عليها فلم ترد عليهما وأشاحت بوجهها عنهما ولم تسمح لهما بالحديث معها ، وبعد أن ألحّا في طلبهما سمحت لهما بذلك فقال أبو بكر :

يا حبيبة رسول الله والله أن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي وأنك لأحب إلي من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني متّ قبله .

ومضى يقول :

أقر أني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وما أمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا لأني سمعت رسول الله (ص) يقول : نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

ولكنها تجاهلت إرثها وحديثه الذي نسبه لأبيها بعد أن فندت جميع مزاعمه في خطابها الذي ألقته على المسلمين في مسجد أبيها قبل أيام معدودات ، والتفتت اليهما وقالت :

نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي ، ومن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أسخطها فقد أسخطني .

فقالا أجل لقد سمعناه يقول ذلك .

فرفعت عند ذلك كفيها نحو السماء وقالت أني أشهد الله وملائكته ورسلهُ انكما اسخطتماني ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه .

والتفتت إلى أبي بكر وقالت له :

لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ما دمت بين الأحياء .

وكانت كلماتها هذه أشد وقعا عليهما من الصواعق وأحسا كأن الأرض مادت بهما وغادرا دارها يتعثران بالخيبة وقد سمعا رسول الله اكثر من مرة يقول لها :

إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك[1] .

وبادرت نساء المسلمين لعيادتها وقد اشتد بها المرض فقلن لها كيف اصبحت يا بنت رسول الله فرمقتهن بطرفها وقالت أجدني كارهة لدنياكن مسرورة بفراقكن وسأشكو إلى الله ورسوله ما لقيت من بعده فما حفظ لي حق ، ولا رعيت لي ذمة ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة .

ولما أحست بدنو أجلها استدعت أمير المؤمنين فأوصته وصيتها وألحّت عليه أن يوارى جثمانها في غسق الليل وأن لا يحضر جنازتها أحد من الذين ظلموها وجحدوا حقها وأن يعفى موضع قبرها ، كما أوصته أن يتزوج بابنة

(١) كما جاء في مستدرك الحاكم وأسد الغابة وميزان الاعتدال وذخائر العقبى ومقتل الخوارزمي وغير ذلك من مجاميع الحديث والتاريخ .

أختها امامة لتقوم برعاية ولدها ، وضمن لها الإمام (ع) أن ينفذ كل وصيتها كما تريد .

وجاء في رواية ابن سعد في طبقاته وغيره أنها أحبت أن يُضع لها نعشا يواري جثمانها لأن الناس كانوا يوم ذاك يضعون الميت على سرير مكشوف لا يستر الميت فكرهت ذلك وأحبت أن لا ينظر جثمانها أحد وهي محمولة على اكتاف الرجال فاستدعت اسماء بنت عميس وأخبرتها بما تحب فصنعت لها أسماء سريرا كانت قد شاهدته في الحبشة يحقق رغبتها فلما نظرت إليه تبسمت وكانت كما يدعي بعض الرواة أول ابتسامة لها بعد وفاة أبيها .

وفي اليوم الأخير من حياتها كان يبدو عليها الارتياح فقامت من فراشها وغسلت ولدها وأمرتهم بالخروج لزيارة قبر جدهم رسول الله والتفتت إلى سلمى بنت عميس ، وقيل إلى أختها أسما وكانت تتولى خدمتها وتمريضها وطلبت منها أن تهيء لها ماء لتغتسل فبادرت إلى تلبية طلبها ، فاغتسلت ولبست أحسن ثيابها وبدا عليها وكأنها تتماثل للشفاء فارتاحت لذلك أسما ، ولكن سرعان ما عاودها القلق عندما أمرتها بأن تنقل لها فراشها إلى وسط البيت فقامت وهي تتعثر بأذيالها فوضعت لها الفراش في وسط البيت فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، والتفتت إلى أسما وقالت : إني مقبوضة الآن وخرجت سلمى من البيت مدهوشة لهذا الحدث الجلل قد أذهلها الخطب وضاقت بها الدنيا واستبد بها القلق فلم تلبث في خارجه سوى دقائق معدودات حتى عادت إليه وفي نفسها بقية من الأمل بحياة الزهراء ، ولكن كل شيء قد تبدد عندما وجدتها جثة هامدة فصاحت وصاح من في البيت وأسرع الحسنان عندما سمعا البكاء والعويل مدهوشين فوجدا أمهما قد فارقت الدنيا ، واجتمع الناس حول الدار ما بين باك وباكية وقد أشتد بهم الحزن والأسى لأنها كانت تذكرهم بأبيها ، وأمر الإمام (ع) سلمان الفارسي أن يصرف الناس فخرج وأمرهم بالانصراف .

وأقبلت عائشة تريد الدخول إلى البيت الذي فيه الجثمان الطاهر فمنعتها أسما ، وقالت لها : لقد عهدت إلي الزهراء أن لا يدخل عليها أحد كما جاء في رواية أسد الغابة وكنز العمّال .

وانصرف الإمام (ع) إلى تجهيزها وجاء الناس يتدفقون ليحضروا تشييعها والصلاة عليها ، ولكن عليا (ع) عملا بوصيتها أظهر لهم أنه يريد تأخيرها ، ولما مضى من الليل الشطر الأكبر والناس نيام أخرجها مع جماعة من خلص أصحابه ودفنها ليلا في البقيع كما روى ذلك اكثر المحدثين .

وفي رواية البحار عن ابن بابويه أنه دفنها في بيتها ، وجاء عن الطوسي أنها دفنت اما في بيتها أو في الروضة . ولما دفنها هاج به الحزن ووقف على شفير القبر وقلبه مفعم بالألم والحسرة وقال : السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورقى عنها تجلدي ، ألا وأن في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، إنا لله وإنا إليه راجعون . لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار لي الله دارك التي أنت فيها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاصفها السؤال واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

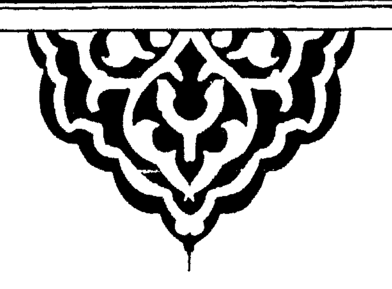
وأرى أن أختم حديثي عن الزهراء وأرجو أن يكون وافيا ولو ببعض حقها أرى أن اختمه بكلمة للعقاد وهو يمهد الحديث عن وفاتها ، فقد قال : إن في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله من ذكر وأنثى ، فإذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء ففي الإسلام لا جرم أن تتقدس صورة فاطمة البتول .

لقد أخذت الزهراء مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ واقترن اسمها بمئات الشهداء ، وظل اسم المنتسبين إليها يقض مضاجع الحكام وطغاة العصور مئات السنين ، وكان لأكبر دولة اسلامية شرف الانتساب اليها خلال ثلاثة قرون أو تزيد ، بل كان الانتساب اليها من أقوى الدعائم لأنها بنت نبي وزوجة إمام وأم لآلاف الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الضعفاء والمحرومين

والمعذبين فحسب بل لأنها رافقت دعوة أبيها منذ بدايتها وتأصلت في نفسها حتى اصبحت وكأنها جزء من كيانها وطبيعتها تمدها بالدبات على الحق والدفاع عن المظلومين مهما كان الثمن غاليا .

ولم يروِ الرواة بأسانيدهم الصحاح أن الصادق الأمين أباها قال : إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك لغيرها من النساء ، ووقفت ذلك الموقف الحازم بعد أبيها في سبيل احقاق الحق ودفع الظلم الذي أحيط بها وبزوجها علي (ع) ، وظلت تكافح وتناضل إلى أن فارقت الدنيا تاركة صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يقدسها مئات الملايين من البشر وكأنها من أقدس آيات الله التي خلقها فيما خلق من بني الإنسان منذ بداية الخليقة وحتى نهايتها .

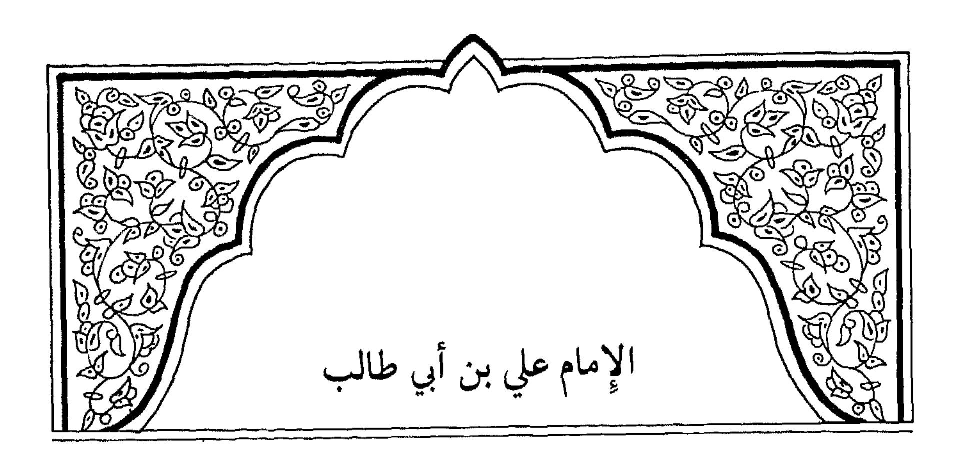
واختلفت الروايات في تاريخ وفاتها . ففي الطبقات أنها توفيت بعد أبيها بثلاثة أشهر عن عشرين عاما وفي المستدرك للحاكم أنها عاشت بعد أبيها ثمانية أشهر ، وقيل أنها توفيت بعده بشهرين وكان عمرها احدى وعشرين عاما وقيل أنها عاشت بعده خمسا وسبعين يوما وقيل ستة أشهر وتوفيت في اليوم الثالث من رمضان وقيل غير ذلك .



الإمامُ الأوّل

علي بن أبي طالب "أمير المؤمنين"





الإمام علي بن أبي طالب

الذي قال فيه النبي : يا علي لولا أني أخشى أن تقول فيك فئة من الناس ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك مقالة ، ألا تمر على أحد من الناس إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك .

ما عساني بعد ذلك أن اكتب عن علي وأن أقول فيه وقد قال فيه أستاذه الأعظم ورفيقه في الجهاد كما جاء في بعض المرويات هذه المقالة ؛ وكتب عنه المغرمون بتاريخ الأبطال وعباقرة العصور والمشرعين والقديسين عشرات الكتب ، ولم يحدث لإنسان غيره ما حدث له ، فقد وضعه من لا يؤمنون به إيمان شيعته ومحبيه في طليعة قادة الفكر وعباقرة العصور ووضعه المعتدلون من محبيه إلى جانب الأنبياء والمرسلين ، والمغالون منهم في مستوى الآلهة .

ما عساني أن أقول فيه وقد كان ولا يزال حديث الأبطال وعشاق البطولات وقدوة المجاهدين المخلصين في سبيل المبدأ والعقيدة والمرجع الأول في التشريع والفلسفة والأخلاق والتربية والسياسة الحكيمة التي توفر للناس في مختلف العصور العدالة والأمن والسعادة في الدنيا والفوز بنعيم الآخرة .

ولكني ومع اعترافي بالعجز والقصور عن الإحاطة بواقعه سأكتب وأقول عساني أن أحيط ولو ببعض الجوانب من حياته مستمدا من الله سبحانه العون والتوفيق .

لقد كان علي بن أبي طالب (ع) حدثا تاريخيا غريبا عن طباع الناس

وعاداتهم منذ ولادته وحتى النفس الأخير من حياته ، فقد أطل على هذه الدنيا من الكعبة وقد جاءتها أمه فاطمة بنت أسد مستجيرة بالله فلاذت إلى بعض جوانبها وقد خشيت أن تراها عيون أولئك الذين اعتادوا الاجتماع في أمسياتهم إلى أروقة البيت وفي داخله ، فانحازت ناحية وتوارت عن عيونهم خلف أستار الكعبة واهنة قد علا وجهها الشحوب ومشت في أوصالها رجفة من شدة الطلق فيسر الله ولادة مولودها وهي متعلقة بأستار الكعبة ، فكانت ولادته في ذلك المكان حدثا تاريخيا لم يكن لأحد قبله ولم يحدث لأحد من بعده ، وكما دخل إلى هذه الدنيا من بيت الله فقد خرج منها حين أقبل عليه الموت من بيت الله . وهو أول مولود ولد من فرعي هاشم ، فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وأبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وشاع على لسان المحدثين أنه أول هاشمي ولد من هاشميين ، مع العلم أنه ولد لأبي طالب من فاطمة قبله طالب وجعفر وعقيل .

وروى محمد بن عبد الله بن مسكان عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال : إن فاطمة بنت أسد جاءت إلى أبي طالب تبشره بمولد النبي (ص) فقال لها أصبري سبتا أبشرك بمثله إلا النبوة وأضاف إلى ذلك أن السبت ثلاثون سنة وكان بين مولد النبي وبين مولد علي ثلاثون سنة وقيل خمس وعشرون[1] .

وذكر الرواة عن أمه فاطمة بنت أسد لما وضعته امتنع عن ثديها ثلاثة أيام ، وكان محمد بن عبد الله يغذيه فيها من ريقه يلقمه لسانه فلا يزال يمتص منه وهو في فمه حتى يرتوي ويشبع .

ويمكن أن نستخلص من هذه الرواية على تقدير صحتها كما هو ليس ببعيد أن الله سبحانه أراد أن يعده اعدادا صالحا على يدي رسوله الأمين للمسؤولية التي حملها في حياة الرسول وبعد مماته ، فكان أول شيء قد دخل فمه وامتص

---

(١) الكافي جـ ١ ص ٤٥٢ والسبت هو البرهة من الزمان واستعمل في الحديث على تقدير صحته بثلاثين سنة أو بخمس وعشرين

منه لم يكن من النوع الـذي اعتاده الأطفـال من قبله هو لســان الرسـول الذي لم يتحـرك بغير الحق والصـدق منذ صبـاه إلى أن اختاره الله إليـه حتى غلبت عليـه صفتا الصدق والأمانة وهـو في مطلع شبـابه وأصبـح يعرف بهما أكثر مما يعرف باسمه ونسبه .

لقد أراد الرسول (ص) أن يربط بين اللسانـين كما ربط الله بـين القلبين ويتعاهده منذ اليوم الأول الذي أطل بـه على هـذه الدنيـا فأدخـل لسانـه في فمه الذي لم ينطق إلا بالحق والحكمة ليطبع الحكمة على لسانه وليكـون مفطورا عـلى الحق والصدق وحربا ضارية على الباطل والعـدوان ، وبعد ذلـك أصبح غـذاؤ ه من لبن أم طيبة طاهرة قد سجـل لها التـاريخ مـواقف كريمـة في تاريـخ محمد بن عبد الله الذي فقـد أباه وأمـه وجده وهـو طفل صغـير فحضنه عمـه أبو طـالب وضمه إلى أولاده فكانت تفضله عليهم وتسهر على راحته وحياتـه ولم يشعر وهـو في بيتها بمرارة اليتم وفقد الكفيل ، ولم يكن ينتظر لو أن أمه لا تزال بـين الأحياء أن تعامله وترعاه بأفضل مما كانت تعامله وترعاه فاطمة بنت أسد .

وبقي علي (ع) في رعاية أمه إلى أن بلغ الثامنة من عمره وكان محمـد بن عبد الله قد تزوج من خديجـة وأنجبت له بنـين وبنات فـاتفق أن أصابت قـريشا أزمة شحت فيها موارد العيش وكان وقعها شديدا على أبي طـالب لأنه كـان كثير العيـال وفي قلة من المـال لا يفي بنفقـة رجـل مثله ، فقـال محمد لعمّيه الحمـزة والعباس : ألا نحمل ثقـل أبي طالب في هـذا المحل ، فجـاؤ وا إليه وسـألوه أن يسلمهم ولـده ليكفوه أمـرهم ، فقال دعـوا لي عقيلا وخـذوا من شئتم ، فأخـذ العباس طالبا وحمزة جعفرا ومحمد عليـا ، وجاء عنـه أنه قـال : لقد أختـرت من أختاره الله لي عليكم ، وكان علي يوم ذاك في الثـامنة أو السادسـة من عمـره . وظـل معه وفي رعـايته يـرعاه وينفق عليـه ويتعاهـده بالتعليم والتـوجيه ويبث في روحـه من دقائق الحكمـة وأسرار الكـون والمعرفـة حتى ادرك من الحقـائق مـا لم يدركه بعد رسول الله أحد غيره ، ولم تكن فيـه صفة إلا وهي مشـدودة إلى صفة من صفـات النبي (ص) ، ومـا من شيء أنكـره قلب رسـول الله من أحـــوال الجاهلية وسيئاتها قبل مبعثه إلا وأنكره قلب علي فـأدرك ما يحيط بهـذا الكون من حقائق وجوده ونواميس بقائه وأصبح المثل الأعلى في جميـع صفاتـه ومواهبـه وهو

القائل لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة بسبع سنين وقد أجمع محبوه وشانئوه على السواء على أنه أعلم المسلمين وأقضاهم وأشجعهم وأكثرهم عبادة وزهدا وأوفرهم ادراكا وعقلا وأعظمهم بلاء وجهادا وأحرصهم على اقامة العدل وانتشاره بين الناس وإنصاف المظلومين وأقربهم إلى الله وأدناهم من معرفته .

وقيل لابن عمه عبد الله بن العباس وهو حبر الأمة :

أين علمك من علم ابن عمك علي بن أبي طالب فقال كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

لقد التحق علي (ع) بالنبي (ص) وهو في مطلع صباه وطفولته وكان يشب إلى النمو وثبا ويسبق الزمن إلى مرحلة التكامل ، وقفز من مرحلة الطفولة إلى اكتمال الرجولة وتكامل المواهب وهو لا يزال في سن الصبا في الثالثة عشرة من عمره أو أكثر من ذلك بقليل ، وهو في هذا السن المبكر كانت الدعوة التي صدع لها ابن عمه محمد بن عبد الله ، فاستقبلها بشوق ولهفة وكأنها كانت امنيته الضائعة وأمله المنشود ، واحتضنها بايمان راسخ وقلب مفتوح لكل تعاليمها وأصولها وأحكامها .

وظل إلى جانب الرسول في ليله ونهاره لا يفوته شيء من أخبار السماء إلا ما كان من مختصات النبوة حتى بلغ القمة في جميع أطواره ومواهبه وصفاته .

ولا أجدني مغاليا بل ولا أظن أحدا يتهمني بالغلو إذا قلت : إن الإسلام بروحه ومعناه كان من أبرز سماته وصفاته لأنه تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الاسلامية وكان ينفعل بصاحبها في تأملاته وتفكيره الموصول بالليل والنهار في الكون وأسراره وفي الحياة وتقلباتها وفي شؤون الناس وأحوال الجماعات الغارقة في الضلال والسفه والمجون ، فابتعد عن اساطيرهم وخرافاتهم وضلالهم ، وكانت مواقف محمد قبل الدعوة هي التي تشده إليه أكثر مما كانت تشده قرابة النسب ولم يتسع قلبه لغير محمد وتأملاته ومواهبه ودعوته ، ولم يعرف الدين الجديد أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه ولا رجلا وهب

حياته ووجـوده وكل طـاقاتـه الفكريـة والجسديـة غيره كـما اتفق على ذلـك جميع المؤرخـين والمحدثـين بل وحتى اعـداؤه الألـداء . وكـان وسيبقى المثـل الأعـلى للمسلم الذي يجسد تعاليم القرآن وسيرة الرسول العظيم وخلقه الكريم في جميع أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته بنظر جميع الباحثين والمؤلفين على اختلاف نزعـاتهم وأهـوائهم ومـذاهبهم ، وحتى عشـاق الأسـاطـير والأعـاجيب ، فقـد بلغ من تُعـظيمهم لـه أن نسبـوا إليـه من الخـوارق مـا لا تتحمله العقـول ومن الأنـداد والمناجزين له في الحروب ما لم يخلقهم الله ، وغالى فيه أقوام حتى رفعوه إلى مرتبة الآلهة فعبدوه من دون الله وأصروا على غلوهم فيه وهو يسـوقهم إلى نار أضـرمها ليحرقهم فيها ، وهذا ما لم يتفق لأحد سواه ، واجتهـد الأمويـون طيلة حكمهم بكل الأساليب ليقنعوا أحدا من الناس ولو بعيب مفتعل يلصقونه به فارتدّوا على أعقابهم خاسرين مدحورين حتى قال القائل : ما أقول فيمن أحجم شيعتـه عن التحدث بفضائله خوفا من القتل والتشريـد ، وكتم أعداؤه فضله حسـدا وبغيا وظهر من بين ذا وذا ما ملأ الخافقين .

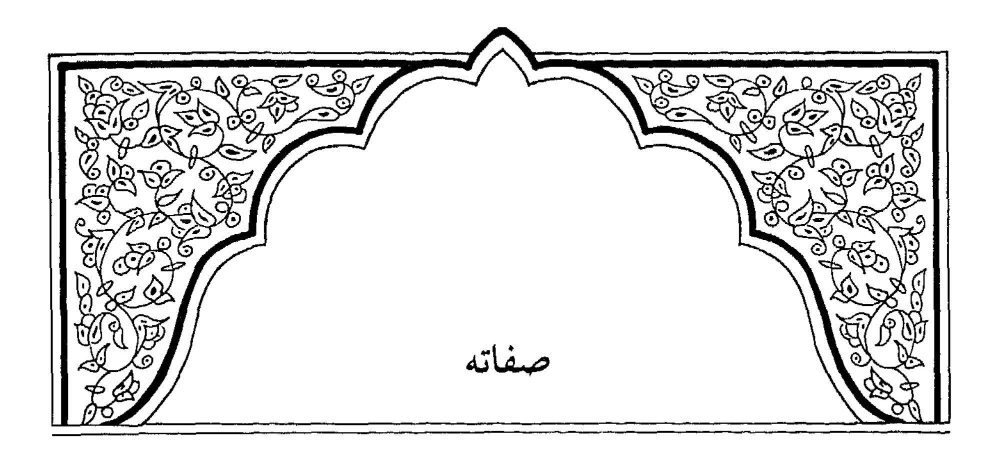
وحتى غلاة الخوارج الذين سبوه وكفروه كما سبه الأمويون لم يستطيعـوا أن ينسبوا اليه سوى الخطأ في التحكيم عنـدما رفـع اعداؤه المصـاحف على رؤوس الرماح طـالبين وقف القتـال والرجـوع إلى حكم القرآن ليستـروا بذلـك ضلالهم وجحودهم للقرآن وأصول الإسلام .

وسلام الله على رسوله الأمين الذي أخبـر بأكـثر مما جـرى عليه من محبيـه وشانئيه حيث قال له :

يا علي هلك فيك اثنان محب غالٍ ومبغض قال .

وقـد أشار إلى هـذين الفريقـين بقولـُه : يحبني أقوام حتى يـدخلوا النار في حبي ، ويبغضني آخرون فيدخلوا النار في بغضي .

وقال العقاد في عبقريته وهـو يتحدث عنـه وعن اختلاف النـاس فيه : إن هذا الميدان من الملاحاة لم يتسـع قط ميدان متسعـة في تاريـخ الأبطال المعـرضين للحب والبغضاء يقول أناس أنه إله وأناس أنه كافر مطرود من رحمة الله .



صفاته

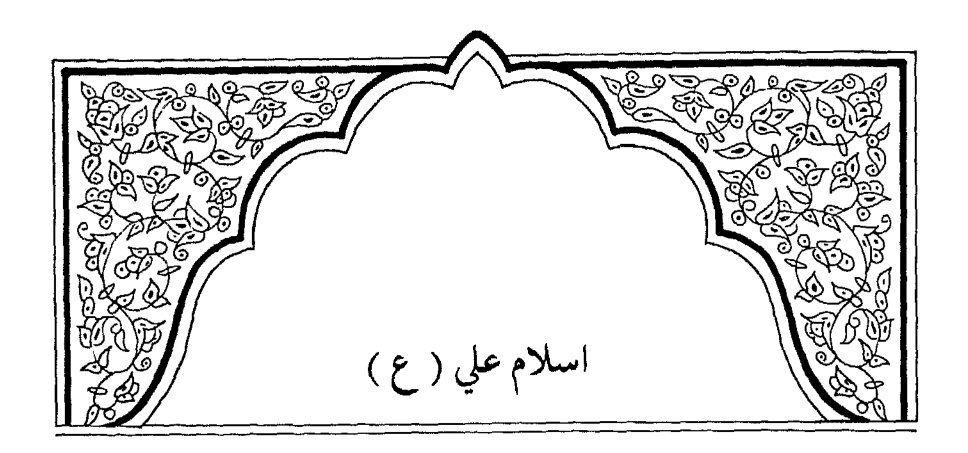
لقد اتفق واصفوه على أنه أول هاشمي ولد من أبوين هاشميين ، فهو ابن عبد مناف المعروف بأبي طالب بن عبد المطلب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وقد اجتمعت فيه خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة كالنبل والشجاعة والقوة والمروءة والذكاء عدا ما اختصه الله به من المواهب والنواحي الروحية التي لم تتوفر في أحد سواه .

وجاء في الاصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر في صفاته الجسدية أنه كان ربعة أميل إلى القصر أسمر شديد السمرة أصلع الرأس ثقيل العينين في دعج وسعة حسن الوجه واضح البشاشة أغيد كانما عنقه ابريق فضة عريض المنكبين له مشاش كمشاش السبع[1] الضاري لا يتبين عضده من ساعدة قد أدمجت إدماجا كبير البطن يميل إلى السمنة من غير افراط ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع شثن الكفين يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية الرسول (ص) مقدام في الحرب يقدم مهرولا لا يلوي على شيء[2] .

---

(١) المشاش رأس العظم .

(٢) الاصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر .



اسلام علي (ع)

لقـد بعث النبي (ص) وهـو في الاربعـين من عمـره، وقيـل في الثـالثـة والاربعين وكانت خديجة اول من أسلم ولم تتردد في الايمان برسالته لحظة واحـدة ومضت تراقب تحركات قريش وتسهر على راحة زوجها بمالها وجميع طاقاتها.

وجـاء في تاريـخ اليعقوبي انـه حينما افتـرض الله على رسـوله الصـلاة اتاه جبرائيل فأراه الوضوء فتوضأ رسول الله كما توضـأ جبرائيـل ثم صلى ليـريه كيف يصلي، وأضاف إلى ذلك أن أول صلاة صلاها رسول الله هي صلاة الظهر وكان ذلك في يوم الجمعة فأتى خديجة بنت خويلد وأخبرها فتوضأت وصلت كـما نص عـلى ذلـك ابن خلدون في تـاريخـه وغيـره ممن كتبـوا في سيـرة الرسول (ص) وتاريخ دعوته فكـانت السيدة الكبـرى خديجـة بنت خويلد أول من أسلم وآمن بدعوة الـرسول وجـاهد في سبيلهـا بكل مـا تملك من مال وقـوة وجاه.

واتفق جميع المؤرخين والمحدثين على أن عليا (ع) هو أول من أسلم من الـرجال، وبعـده بدأ الاسـلام يشق طريقـه إلى النفوس والقلوب، واختلفـوا في عمره يوم اسلامه فقيل ولعله الأرجح أنـه كان في الخـامسة عشـر من عمره كـما جاء في رواية الحسن البصري ورجح ذلك جماعة من المؤرخين والمحدثين.

ويظهر من روايـة الكليني في الكافي ان عمـره يوم أسلم كـان يتراوح بـين العـاشرة والثـالثة عشـرة، وجاء في روايتي حـذيفة بن اليمـان وابن أبي شبية أنـه أسلم وهو ابن أربعة عشر عاما.

وذهب الجاحظ إلى أنه أسلم وهو ابن سبع سنين، واعتمد الجاحظ في ذلك على اختلاف الروايات وتضاربها حول اسلامه واعتبره قولا وسطا على حد زعم بعض المؤلفين، في حين أن الروايات التي تحدثت عن إسلامه لا تشير إلى ذلك من قريب أو بعيد، ولم يذهب اليه أحد غير الجاحظ، وقد تعرض لهجوم عنيف من بعض المؤرخين والمحدثين ووصفوه بالجهل ومعاندة الحق على حد تعبير أبي جعفر الاسكافي كما جاء في شرح النهج[1]. ومضى الاسكافي في رده على الجاحظية يقول: وقد علم الصغير والكبير والعالم والجاهل أن عليا لم يولد في دار الاسلام واستضافه رسول الله (ص) إلى نفسه سنة القحط والمجاعة وعمره يومذاك ثمان سنوات فمكث معه سبع سنين ولم يكن حينذاك دعوة ولا نبوة وإنما كان رسول الله يتعبد على ملة ابراهيم ودين الحنيفية ويتحنث ويجانب الناس، وكان علي يتابعه، فلما بلغ الحلم وبعث النبي (ص) دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة لا عن تقليد كما يصنع الصبيان ابناء السبع أو التسع.

وجاء في بعض المرويات أن النبي (ص) بعث يوم الاثنين وصلى معه علي يوم الثلاثاء إلى غير ذلك مما قيل حول إسلامه، ويبدو من الجاحظية وأتباعهم الذين ذهبوا إلى أنه أسلم وهو صبي بين السابعة والعاشرة، يبدو أنهم يريدون من ذلك أن ينتقصوا من اسلامه وأنه أسلم عن تقليد ومحاكاة كما هو الشأن في أكثر تصرفات الصبيان، أما غيره كأبي بكر فقد أسلم وهو كامل العقل والادراك عن قناعة واطمئنان.

ومهما كان الحال فلقد حاول اعداء أهل البيت أن ينالوا منه ولو بهذه الاساليب الملتوية بعد ان يئسوا من وجود عيب يخدش تاريخه الحافل بالجهاد والتضحيات والبطولات، ولو افترضنا أنه أسلم وهو في مطلع الصبا كما يدعون، فلم يتردد أحد حتى من أعدائه في أنه قد رافق الدعوة منذ أن بزغ فجرها، وحماها هو ووالده من كيد الاعداء وجبابرة قريش الاشداء الذين تألبوا عليها منذ مطلعها وعاش عمره بكامله للاسلام والحق والخير لجميع الناس كما عاش والده

---

(١) انظر ص ٢٦٤ وص ٢٦٥ من المجلد الثالث.

بقية عمره لحماية محمد ودعوته من طغاة العرب ووضع جميع امكانياته وطاقاته في سبيل رسالة محمد وانتشارها وخرج من هذه الدنيا مؤمنا بها صادقا في ايمانه لم يتردد في ذلك طرفة عين ابدا كما اثبتنا ذلك بالادلة القاطعة في كتابنا سيرة المصطفى.

· وقال العقاد في كتابه عبقرية الامام صفحة ٣٨: ولد علي في داخل الكعبة وكرم الله وجهه عن السجود لاصنامها فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بعهد جديد للكعبة والعبادة فيها، بل قد ولد مسلما على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح لأنه فتح عينيه على الاسلام وعرف العبادة في صلاة محمد وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة فكان ابن عم محمد وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره. وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم فلا جرم أن يحبه هذا الحب من يجمعه به جد و يجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف وهو جميل ابي طالب يؤديه محمد ويحسه ابن ابي طالب ويأوي إليه، ومضى يقول: لقد ملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه فبحق ما يقال: أن عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى وأن الدين الجديد لم يعرف قط أحدا أصدق اسلاما ولا أعمق نفاذا منه ، ورجح أن إسلامه كان في العاشرة من عمره لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة على حد تعبيره . ومهما كان الحال فلم يتردد أحد في سبقه إلى الإسلام والإيمان برسالة محمد بن عبد الله إلا بعض من أعمى التعصب قلوبهم ، فقالوا بأنه كان أصغرهم سنا في حساب الاعوام والشهور .

ومع أن الروايات لم تتفق على سنه يوم إسلامه وظهرت فيها نزعات مختلفة ، ولكن من مجموعها يستطيع الباحث أن يجزم بأنه كان في مطلع شبابه .

وجاء في صحيح ابن ماجة أنه كان يقول : أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب صليت قبل الناس سبع سنين ورواها الحاكم في مستدركه والطبري في تاريخه .

وفي مسند احمد عن علي (ع) أنه قال : ظهر علينا أبو طالب وأنا مع

رسول الله ونحن نصلي ببطن نخلة ، فقال ماذا تصنعان يا ابن أخي ؟ فأخبره رسول الله ودعاه إلى الإسلام ، فقال ما بالذي تصنعان من بأس ، وأضاف إلى ذلك الراوي أن عليا (ع) قال : اللهم لا أعرف أن عبدا لك من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك لقد صليت قبل أن يصلي الناس سبعا ، وأكد مضمون هذه الرواية كل من النسائي وصاحب كنز العمّال في المجلد السادس من كنزه .

وأضاف إلى ذلك أن ابن مسعود كان يقول : أول شيء علمته من أمر رسول الله (ص) أني قدمت مكة مع عمومة لي فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم فجلسنا إلى جانبه فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض تعلوه حمرة له وفرة جعدة إلى انصاف أذنيه اقنى الأنف براق الثنايا أدعج العينين كث اللحية دقيق المسربة شثن الكفين والقدمين عليه ثوبان أبيضان كأنه القمر ليلة البدر يمشي على يمينه غلام امرد حسن الوجه مراهق أو محتلم تقفوه امرأة قد سترت محاسنها فقصد الحجر واستلمه الغلام والمرأة وطافا معه ، قلنا يا أبا الفضل : ما هذا الذي لم نكن نعرفه فيكم أو شيء حدث ؟ قال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله والغلام الذي معه علي بن أبي طالب والمرأة هي زوجته خديجة بنت خويلد ، أما والله ما على وجه الأرض من احد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

وأضاف إلى ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد أنهم بعد أن استلموا الركن وقف الرجل والغلام عن يمينه والمرأة خلفهما فكبر الرجل والغلام ورفعت المرأة يديها وكبرت وأطال الرجل القيام وهما يتابعانه ثم ركع وركعا معه وسجد وسجدا معه وكانا يصنعان مثلما يصنع حتى فرغ من صلاته ، فقال العباس : والله ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

وقد أطال الحديث أبو جعفر الاسكافي مع الذين حاولوا انتقاص إسلامه بحجة أنه كان في سن مبكر لا يتعدى سن الطفولة ، وادعى بأنه كان في مصاف الرجال ، وأيد ذلك بما شاع بين الرواة من أن النبي (ص) في مطلع الدعوة قد أمره الله بأن يدعو آله وعشيرته إلى الإسلام فدعاهم النبي وصنع لهم طعاماً ، فلما اجتمعوا وأكلوا دعاهم إلى الإسلام وقال أيكم يؤازرني على هذا الأمر

ويكون أخي ووصي وخليفتي من بعدي فأحجموا كلهم ولم يستجب أحد لطلبه غير علي (ع) وكرر النبي دعوته لهم وفي كل مرة لم يستجب لطلبه غير علي ، وكان علي (ع) يتولى تحضير الطعام وإدارة الاجتماع ، وفي المرة الثالثة قال له النبي بحضورهم أنت أخي ووصي ووارثي وخليفتي من بعدي . فقاموا من مجلسه يسخرون ويضحكون . ومضى الاسكافي يقول : فهل يكلف عمل الطعام ودعوة القوم صغير غير مميز في حدود السابعة أو العاشرة كما يدعون وهل يؤتمن على سر النبوة غلام في مثل هذه السن ، ثم يكلف بدعوة الشيوخ والكهول لعمل من هذا النوع ، وهل يضع النبي (ص) يده في يده ويجعله أخاه ووصيه وخليفته من بعده إلا إذا كان اهلا لتحمل المسؤولية ، ومسؤولا عن تعهداته والتزاماته ، والنبي (ص) يعرف بأن عليا إذا لم يكن كامل الرجولة والادراك كما يزعمون ويحس إحساسا كاملا بالمسؤولية سيتعرض للنقد والسخرية حتى من ذويه وآله الأقربين إلى غير ذلك مما رد به الاسكافي رحمه الله على الجاحظ وأبي بكر بن الأصم وغيرهما ممن حاولوا أن ينتقصوا من إسلام علي (ع) وتفضيل إسلام أبي بكر عليه .

وبلا شك بأن هؤلاء لو وجدوا سبيلا ولو أوهى من بيت العنكبوت للقول بأن أبا بكر قد سبقه للإسلام لم يترددوا في عرضه وتأييده بكل ما يملكون من المغالطات واللف والدوران كما هي عادتهم عندما يجدون مجالا لذلك ولكن تواتر الروايات وإجماع المحدثين على أنه كان المسلم الأول من الرجال حال بينهم وبين ما يشتهون ، ولم يبق لديهم إلا محاولة انتقاص اسلامه بهذا الاسلوب .

وجاء في خطبة للامام علي (ع) في شرح النهج يصف فيها إسلامه وصلته بالرسول منذ طفولته قال فيها : وقد علمتم موقفي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكتنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ، ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به سبل المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره ، وكنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من

أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ، ولقد سمعت رنة الشيطان فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة ؟ فقال هذا الشيطان قد يئس من عبادته أنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك الوزير وأنك لعلى خير .

وجاء في رواية المجلسي في البحار عن علي بن ابراهيم أن جعفر بن أبي طالب أسلم بعد أخيه علي (ع) وبعدهما أسلم زيد بن حارثة ، وأسلم أبو بكر بعدهم ، ومضى الراوي يقول : إن أبا طالب دخل البيت الذي فيه رسول الله وكان معه ولده جعفر فوجد النبي يصلي وعلي وخديجة يصليان خلفه فقال لولده جعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك فانضم إليهما جعفر ووقف يصلي معهما إلى الجانب الآخر .

وروي في شرح النهج أن أبا طالب فقد النبي في بعض الأيام فذهب في طلبه فوجده يصلي في بعض شباب مكة وعلي عن يمينه وكان معه ولده جعفر فقال له : تقدم وصل جناح ابن عمك فتقدم ووقف إلى يسار النبي (ص) فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله وتأخر علي وجعفر فبكى أبو طالب وقال :

ان عليا وجعفرا ثقتي عند ملم الخطوب والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا اخذل النبي ولا يخذله من بني ذو حسب

وجاء في بعض المرويات أن المسلم الثاني بعد علي هو أبو بكر ، وفي بعضها الآخر أنه زيد بن حارثة ، وأكثر الروايات تنص على أن إسلام زيد وجعفر كان قبل إسلام أبي بكر ، ومن المتيقن أن هؤلاء الثلاثة كانوا ممّن السابقين للإسلام ، وقد دخلوا فيه في وقت مبكر من تاريخ الدعوة وفي أزمنة متقاربة .

ويدعي جماعة من المؤرخين والمؤلفين في سيرة الرسول أن أبا بكر لم يكن

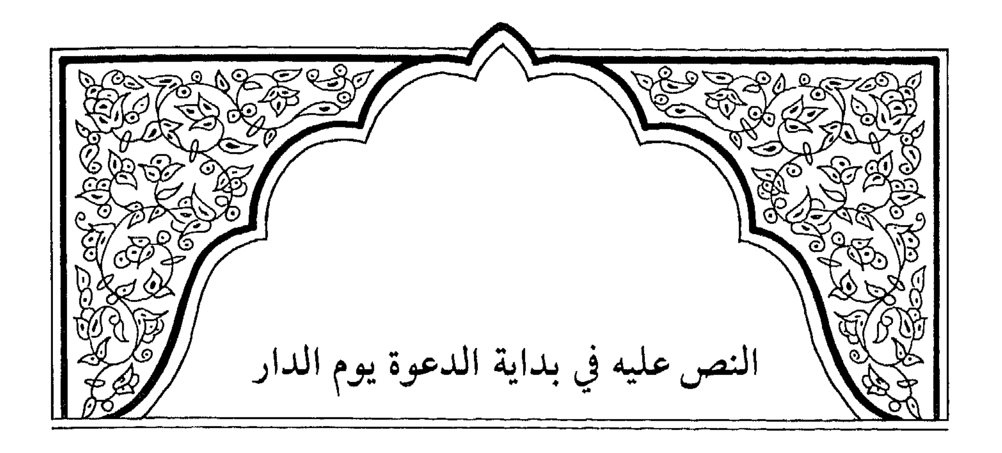
من السابقين إلى الإسلام فحسب بل كان من الدعاة إليه وقد أسلم بواسطته عدد كبير منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد وعبيدة بن الجراح وغيرهم من الصحابة الأوائل كما يرى ذلك صاحب السيرة الحلبية وغيره اعتماداً على رواية أسماء بنت أبي بكر ، وجاء فيها أنها قالت : ما عرفت أبي إلا وهو يدين بهذا الدين ولقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وأسلم أكثر جلسائه ومنهم خمسة من أهل الشورى كلهم يصلح للخلافة وهم أكفاء علي ، وانطلق هؤلاء من هذه الرواية إلى أن إسلامه وإن كان متأخرا عن إسلام علي وزيد وجعفر إلا أنه كان أكثر نفعاً وفائدة للإسلام من غيره على حد تعبيرهم .

وقد فند هذه المزاعم جماعة من المتكلمين والمحدثين واستعرضوا أحوال أبي بكر يوم أسلم وصلاته بهؤلاء الأشخاص وغيرهم استعراضا دقيقا ، وكيف استطاع أن يؤثر على هؤلاء ويهيمن عليهم مع أنهم ليسوا من جلسائه ولا من أصحابه ولم يستطع أن يؤثر على أبيه وابنه عبد الرحمن وزوجته نملة بنت عبد العزيز وغيرهم من جلسائه الذين ظلوا على شركهم إلى السنة الثامنة من هجرة النبي (ص) .

هذا بالاضافة إلى أن أسماء بنت أبي بكر التي نسبت لأبيها هذه الجهود كان لها من العمر أربع سنوات على أبعد التقادير ، وبنت السنتين أو الأربعة لا تعقل شيئا من هذه الأمور ولا تكلف بشيء مما يرجح أن الرواية موضوعة على لسانها وقد تحدثنا عن هذه النواحي مفصلا في كتابنا سيرة المصطفى وعرضنا فيه ما قيل وما يمكن أن يقال في تفنيد مزاعم هؤلاء[1] .

---

(١) انظر كتابنا سيرة المصطفى عن المجلد الثالث من شرح النهج لابن ابي الحديد.



النص عليه في بداية الدعوة يوم الدار

لقد كان النبي (ص) في فجر الدعوة يضع في حسابه أن دعـوته ستقـابل بالرفض والتحدي بكل الأساليب وكان يتمنى لآلـه وعشيرتـه وكل من يتصـل به بنسـب أو سبب أن يـدخلوا فيـها دخـل فيـه أولئـك الـذين كـانـوا يتستـرون في إسلامهم خوفا من قريش وأحلافهـا الاشداء ، كان يتمنى ذلك لأن آله وعشيرته يشكلون قوة في مكة ولهم مكانتهم في الداخل والخارج ، فـإذا دخلوا في الإسلام وناصروه يصبح مرهوب الجانب وفي منعة من أعدائـه ولكنه مـع ما كـان يرجـوه ويتمناه لهم كان يخشى أن يـرفضوا دعـوته إذا دعـاهم إلى الإسلام وينضمـوا إلى غيرهم من المكذبين له والمستهزئين به ويتخذ المشـركون من مـوقفهم السلبي من دعوته ذريعة لاغراء العامة والسفهاء به ، وبعد أن أنزل الله عليه الآية :

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنـين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ .

لم يجـد بدا من دعـوتهم إلى الإسلام ، فصعـد الصفـا كـما جـاء في بعض المرويات وصاح يا بني عبدالمطلب ويا بني عبد مناف فاجتمعوا إليه وقالوا مـا لك يـا محمد قـال: أرأيتم لو اخبـرتكم أن خيلا تخـرج من سفح هـذا الجبـل أكنتم مصدقي، قالوا بلى أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا، فقال: إني نـذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال له عمه ابو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنـا فأنـزل الله عليه : **﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾** .

والذي اتفق عليه أكثر المؤرخين والمحدثين أنه لما أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين دعا علياً وقال له: اصنع لي صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن واجمع لي بني عبدالمطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به، ففعل علي (ع) ما أمره به ثم دعاهم وهم أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا على حد تعبير الراوي، وفيهم أعمامه أبو طالب والحمزة والعباس وأبو لهب وغيرهم من أعمامه وبني عمومته، فأحضر علي لهم الطعام ووضعه بين أيديهم وكان بإمكان الرجل الواحد أن يأكله بكامله، فتهامسوا وتبادلوا النظرات الساخرة من تلك المائدة التي لا تقوم حسب العادة لأكثر من رجلين أو ثلاثة رجال، ثم مدوا أيديهم اليها وجعلوا يأكلون ولا يبدو عليها النقص حتى شبعوا وبقي من الطعام ما يكفي لغيرهم وتبادلوا النظرات كالمدهوشين، ثم شربوا من ذلك اللبن وبقي ما يكفي غيرهم، ولم يستطع عمه أبو لهب أن يكتم ما بنفسه من الحقد والكراهية لمحمد، وكان النبي (ص) قد استعد للحديث معهم عن الاسلام، فسبقه أبو لهب والتفت الى اخوته وبني عمه وهم لا يزالون في حيرة من امر ذلك الطعام القليل وقال لقد سحركم محمد بما ترون.

وقال الاستاذ عبدالفتاح وهو يتحدث عن هذا الموقف من مواقف أبي لهب، قال: فلم يلق اليه النبي بالا، إنه ليعلم مأتي حقده على كل حال لأن النساء وحي الأزواج، وما كان ابو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجته أم جميل بنت حرب بن أمية، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليلة الأضغان في فراش واحد[١].

وتنص اكثر الروايات أن القوم انصرفوا قبل أن يكلمهم النبي بشيء عن الاسلام، وبعد ايام قال لعلي (ع): يا علي قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل الى الكلام، فاصنع لنا طعاما في غد واجمعهم كما جمعتهم أولا، فبادر علي الى تنفيذ أمر النبي ودعاهم الى الطعام كما فعل في المرة الأولى، فلما اكلوا وشربوا قال لهم النبي (ص):

---

(١) انظر ص ٤٥ من المجلد الأول منشورات مكتبة العرفان.

ما أعلم انسانا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد امرني ربي أن أدعوكم الى الاسلام.

ثم عرض عليهم أصول الاسلام وقال:

أيكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم من بعدي.

فسكتوا ولم يتكلم منهم أحد فقام علي وكان أحدثهم سنا وأرمضهم عينا وأحمشهم ساقا وقال:

أنا يا رسول الله.

فأعاد عليهم الحديث ثانيا وثالثا وفي كل مرة لا يجيبه غير علي (ع)، فلما رأى إحجامهم أخذ برقبة علي وقال:

إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك محمد أن تسمع لابنك وتطيع[1]

وقد روي حديث دعوة النبي لعشيرته وقوله لعلي بهذه المناسبة أنت أخي ووصيي وخليفتي فيكم من بعدي في كنز العمال، والبيهقي في الدلائل وابن جرير الطبري ج ٢ ص ٦٢، والامام أحمد في مسنده[2].

وجاء في تاريخ الطبري أنهم بعد أن أكلوا وشربوا قال لهم النبي:

أيكم يؤازرني على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي.

فأحجم القوم جميعاً فقال علي: أنا يا رسول الله. فأخذ برقبته وقال:

هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا.

---

(١) تاريخ ابي الفدا ج ١ - ج ٢ ص ١٤ و١٥.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٣٥.

فقاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع[1] لابنك وتطيع.

وروى هذا الحديث بالنص الذي رواه الطبري ابن الاثير في الجزء الثالث من الكامل الطبعة القديمة ومحمد حسين هيكل في الطبعة الأولى من كتابه حياة محمد ومحمد عبدالله عنان في كتابه تاريخ الجمعيات. ولكن هيكل في الطبعة الثانية وما بعدها قد مسخ الحديث وحذف منه كلمة خليفتي من بعدي في مقابل خمسماية جنيه أخذها ثمناً لهذا التحريف، ويدعي المعلق على المجلد الثاني من أعيان الشيعة أن هيكل رفض التحريف اولا، وبعد أن ساوموه على شراء ألف نسخة من الكتاب وافق على ذلك ورواه في الطبعة الثانية وما بعدها بدون كلمة خليفتي من بعدي.

وجاء في تفسير الكاشف وهو يتحدث عن تفسير الآية أن من الذين رووا نص النبي على علي (ع) بحضور تلك المجموعة من ذويه وعشيرته كل من النسائي والثعلبي في تفسيره والسيوطي والبغوي وصاحب السيرة الحلبية في سيرته.

ومجمل القول ان حديث النبي مع عشيرته بالنص الذي ذكرناه قد رواه بالاضافة الى جميع محدثي الشيعة جماعة من مشاهير محدثي السنّة واشتهر عند جميع المحدثين بالصيغة التي ذكرناها، وقد حاول بعض علمائهم كابن تيمية وغيره من حشوية السنّة والمتعصبين، التشكيك في الصيغة التي ذكرناها، محتجين لذلك بأن بعض الاسانيد التي روي بها الحديث المذكور قد اشتمل على اشخاص يميلون للتشيع لأنهم يروون بعض الفضائل لعلي وبنيه، في حين أن هذا الشخص الذي يروي من فضائل علي (ع) لو روى فضيلة لغيره من كبار الصحابة وحتى لمعاوية بن هند يفتحون لها صدورهم كما يبدو ذلك بعد التتبع في مجاميع الحديث السنية.

ويجد المتتبع في مؤلفات السنّة في الرجال وعلم الدراية عشرات الرواة من رجالهم يقفون من مروياتهم موقفا يتسم بالحذر والتشكيك لا لشيء إلا لأنهم

(١) انظر ص ١١٧ من المجلد الثاني طبعة دار القاموس.

يفضلون عليا على معاوية ويردون له بعض الفضائل والمواقف التي تخدم مصلحة الإعلام، في حين انهم لا يتهمون أحدا بـالكذب ممن يـروي الغرائب لغـير أهل البيت وحتى المستحيلات والخوارق.

وعندما يتحدثون عن أحوال الرواة في مؤلفاتهم المخصصة لذلك يصنفون الشيعة الى الأصنـافـالاربعة التالية:

شيعي إذا روى من فضـائل عـلي وبنيه ومغـالٍ في التشيـع إذا فضله عـلى معـاوية وغيـره من اعيان الصحـابـة، ورفضي إذا كـان من القـائلين بـأنـه أحق بالخلافة بعد رسول الله وقد نص عليـه الرسـول بذلـك، ومغالٍ في الـرفض إذا كان ممن يتهم كبار الصحابة بتجاوز الحدود التي وضعهـا رسول الله. ومهـما كان الحال فلقد مضى عـلي (ع) في الأعوام التي قضـاها النبي (ص) في مكـة مع النبي مقتـديا بـه في الأحوال كلهـا بحيث لو اراد الكـاتب المعتدل أن يكتب عن النبي (ص) يـرى الحـديث عن عـلي (ع) مفـروضـا عليـه لأنــه رافق جميـع الأحـداث التي مرت بهـا الدعـوة وتحمل من اعبـائها، فكـان أول معتنقيها بعـد خديجة سيدة المسلمات الأوائـل وصحبها وهـو فتى بادي العنفـوان وقد اوشكت على الانتشار بالرغم ممـا احيط بتلك الحفنة القليلة التي تـألفت منها أولى كتـائب المسلمين من التعذيب والتنكيل، وشهد عـلي من أساليب التعـذيب مشاهـد كان يتحرق من هولها ويتمنى لو يسمـح له النبي بـأن يشفي غليله من أولئك الـطغاة وينتقم منهم لأولئك المعذبين.

لقد مر ببطحاء مكة فرأى بلال الحبشي على الرمضاء في حـر الظهيـرة وقد وضع أمية بن خلف صخرة على صدره وهو يقـول: لا واللات والعـزى لا تزال هكذا حتى تكفر برب محمد وتعود الى الهتنا،وبلال لا يزيـد في جوابـه على كلمـة أحد. أحد، ومر يوما مع النبي (ص) على عمار بن ياسر بين ابويـه وقد اجتمـع عليهم بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ليكفروا بآلهة محمد فجعل النبي يقول صبرا يا أبا اليقظان اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار. واشتد عليهم التعـذيب حتى ماتت أمه بطعنة من أبي جهل برمحه وتركتها على الرمال جثة هامـدة، ومات أبوه من ألم السياط وعـلي يتلوى لأن النبي لم يسمح لـه بأن ينتقم لهـما، ورأى ما

كان يصنعه طغاة قريش مع غيرهم من المستضعفين من الرجال والنساء كصهيب وخباب وغيرهما من المسلمين الأوائل من العسف والجور، فلا يمكث إلا أن يعصر قلبه ويراود نفسه على الصبر مخافة أن يخرج بها الغضب لهؤلاء وغيرهم عما رسمه النبي (ص) في تبليغ رسالة ربه من انتهاج طريق السلم والحكمة والصبر ومقابلة العدوان والقسوة بالرحمة واللين. ويمضي كاظما غيظه ينتظر الزمان الذي يسمح له بالاقتصاص من اولئك الطغاة وقريش تتمادى في غيها كلما تمادى محمد في أسلوبه الهادف الى مقابلة العدوان بالتسامح والشدة باللين والجفاء بالتودد وهو يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.



علي في شعب أبي طالب

لقد فشلت قريش وأحلافها في جميع الاساليب التي استعملتها مع محمد وأتباعه من المسلمين الأوائل ولم تجدهم نفعا جميع وسائل الاغراء والارهاب والتعذيب ، وأيقنت أن جميع ما قامت به من جهود لارغام محمد على التخلي عن دعوته وارغام اصحابه على التفرق عنه وارجاعهم إلى دين الآباء والأجداد قد باءت بالفشل ورأت أن محمدا وأتباعه يزدادون صلابة وقوة يوما بعد يوم وأكثر بني هاشم حتى من بقي منهم يتظاهر بتقديس الأصنام مجاراة لقريش لن يسلموا محمدا ، وقدرت أن ليس بامكانها أن تستأصل محمدا وأصحابه وفيهم عليّ والحمزة إلا بحرب شاملة ستتحمل قريش وأحلافها القسط الاكبر من نتائجها السيئة المريرة .

لقد رأت قريش أنها بعد جهادها محمدا وأصحابه خلال سبع سنوات تقريبا وكأنها تدفع به وبدعوته إلى الأمام ، فما من بيت إلا وفيه من آمن بمحمد ودعوته وامتد خطرها إلى خارج مكة وحتى إلى خارج الحجاز في الحبشة حيث يقيم فيها عدد من المسلمين في جوار ملك رحيم بهم قد فتح لهم قلبه وصدره وأتاح لهم بيسر وسهولة أن يمارسوا دينهم الجديد ويحدثوا عنه في الأندية وفي كل مكان ، والحبشة احدى متاجر المكيين وفيها يروحون ويغدون . وبالاضافة إلى ذلك لقد تسامع القريب والبعيد بدين محمد ومحاسنه التي لم تعرفها الأديان على اختلافها . وكانت الخصومات المحلية والخلافات الجانبية بين بني هاشم وغيرهم تشد أصحاب النفوذ والجاه من قريش وغيرها على تصعيد المعارضة لمحمد ودينه

كما يبدو ذلك من جواب الحكم بن هشام أحد القادة في مكة إلى الأخنس بن شريف ، وقد استمع ذات يوم في خلوة من الناس ومعه أبو سفيان إلى حديث محمد وآيات كان يرتلها من القرآن ، وقد أعجبا وأدهشا بكل ما سمعاه ولم يجدا له نظيرا من أحاديث الكهان ولا من أراجيز العرب وأشعارهم وخطبهم ، وقد سأل الأخنس بعد هذا الموقف أبا سفيان فقال له وهو لا يستطيع أن يخفي اعجابه ، والله لقد سمعت اشياء عرفت ما يراد منها وسمعت اشياء ولم أعرف معناها ولا ما يراد منها ، وتركه الأخنس وعاد إلى الحكم بن هشام ليسأله عن موقفه من محمد بعد أن سمع منه وأعجب بكل ما سمع ، فقال له الأخنس : وأنت ما رأيك فيما سمعت؟ فلوى الرجل شفتيه باستياء وموجدة وأبى عليه حقده إلا أن يقول : ماذا سمعت لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه في شيء مما يدعو إليه .

بهذه الروح اللئيمة كانت قريش ومخزوم وغيرهما من قبائل مكة ينظرون إلى محمد ودعوته ويعملون بكل ما لديهم من وسائل العنف للقضاء عليها قبل أن يستفحل خطرها ولا يعود لهم طاقة بها .

وبعد أن فشلت كل الاساليب التي استعملوها من قبل اتفقوا بعد تفكير طويل على مقاطعة بني هاشم وأتباعهم وحصرهم في مكان واحد وقطع جميع وسائل العيش عنهم إلى أن يتراجع محمد وأتباعه أو يموتوا جوعا وعطشا . وتم الاتفاق بين الجميع على ذلك وكتبوا بذلك كتابا تعاقدوا فيه على أن لا يتبادلوا الزواج ولا البيع والشراء ولا الاجتماع على أمر من الأمور ، ولا يمكنوهم من شراء المأكولات مهما كانت النتائج ووقعه أربعون من زعماء مكة ووضعوه في الكعبة وحصروهم في شعب أبي طالب وذلك في أول المحرم من السنة السابعة لمبعث النبي (ص) واستمر الحصار نحوا من سنتين أو ثلاث على حد تعبير بعض المؤرخين ، وبدأت الضائقة تحيط بالهاشميين بعد أشهر قليلات من الحصار حيث نفدت خلالها اكثر المواد التي كانت معهم واشتد أثرها على الاطفال والنساء وتعالى صراخهم من الجوع في اكثر الأحيان ، ولم يصل اليهم

إلا القليل النادر مما كان يحمله اليهم هشام بن عمر بن ربيعة وغيره في جوف الليل ، ولم تترك قريش طعاما في مكة إلا واشترته من أهله بأغلى الأثمان مخافة أن يتسرب منه شيء إلى الهاشميين ، وما كان يتسرب اليهم في جنح الظلام لم يكن ليسد حاجة الأطفال والنساء ، واشتدت الضائقة عليهم حتى اضطرتهم إلى أكل الأعشاب وورق الأشجار ، ومع كل ذلك فلم يضع أبو طالب وولده علي وأخوه الحمزة شيئا في حسابهم غير محمد ورعايته حتى لا يتسلل أحد من المكيين ليلا لاغتياله ، وكانت هذه الخاطرة لا تفارق أبا طالب في الليل والنهار .

وجاء في تارخ ابن كثير أن أبا طالب قد بلغ من حرصه على حياة محمد (ص) أنه كان إذا أخذ الناس مضاجعهم في جوف الليل يأمر النبي أن يضطجع على فراشه مع النيام فإذا غلبهم النوم أمر أحد بنيه أو اخوته فاضطجعهم على فراش الرسول وأمر الرسول أن يضطجع على فراشهم حرصا منه عليه ، حتى لو قدر لأحد أن يتسلل إلى الشعب ليلا لاغتياله يكون ولده فداء لابن أخيه .

وفي رواية شرح النهج جـ ٣ ص ٣١٠ أنه قرأ في أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب أن أبا طالب كان إذا رأى رسول الله (ص) أحيانا يبكي ويقول : إذا رأيته ذكرت أخي عبد الله وكان عبد الله أخاه لأمه وأبيه ، وأضاف إلى ذلك أنه كثيراًما كان يخاف عليه البيات ليلا فكان يقيمه ليلا من فراشه ويضجع ابنه عليا مكانه ومضى على ذلك أيام الحصار وغيرها ، وأحس علي (ع) بالخطر على حياته ، ولكنه كان طيب النفس بالموت في سبيل محمد (ص) .

وقال لأبيه يوما : يا أبت أني مقتول فأوصاه بالصبر وأنشد :

أصبرن يا بني فالصبر احجى	كل حي مصيره لشعوب
قد أمرنا بالصبر وهو شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
أن تصبك المنون فالنبل تبرى	فمصيب منها وغير مصيب
كل شيء وأن تحلى بعمر	آخذ من فداتها بنصيب

وأجابه علي (ع) على أبياته هذه التي تؤكد إيمانه العميق برسالة محمد

والاستهانة حتى بولده في سبيلها . لقد أجابه عليها بالأبيات التي يرويها شارح النهج عنه لأنه يحمل نفس الروح التي كان يحملها أبوه ويرى أن وجوده وحياته متممان لحياة محمد ورسالته ، لذلك لم يكن غريبا عليه أن يغامر ويبذل حتى نفسه ليسلم محمد لرسالته ، تلك المغامرة التي لم يعرف التاريخ أروع وأجل منها . ليس بغريب عليه أن يرد على أبيه الذي حاول أن يبعث في نفسه العزيمة والصبر على التضحية بالأبيات التي يرويها عنه شارح نهج البلاغة أو بمضمونها إن لم تصح عنه الأبيات التالية :

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني أحببت أن ترى نصرتي وتعلم أني لم أزل لك طائعا
سأسعى لوجه الله في نصر أحمد نبي الهدى المحمود طفلا ويافعا



مبيته على فراش الرسول ليلة الهجرة

لقد ضاق بمحمد (ص) أمره وتراكمت عليه الأحداث واشتدت قريش في تحديه وايذائه بعد وفاة عمه أبي طالب ، ولم يعد في مكة من تهابه قريش وترعى له حرمة ، ولم يجد من القبائل التي عرض عليها دعوته تجاوبا واقبالا ، ففي الطائف رفضت ثقيف أن تسمع له أو تقبل منه شيئا وأغرت به الصبيان والخدم والعبيد فرشقوه بالحجارة حتى أصيب في أكثر من موضع بجسده ، كما أصيب علي وقد كان هو وزيد بن حارثة معه في تلك الرحلة وهي أول رحلة يقوم بها لخارج مكة في الدعوة إلى الإسلام ، وعلي يتلقى بصدره ويديه الأحجار والضرب حتى أصيب بجروح في رأسه وبدنه ، ومع ذلك فقد أصيب النبي وسالت الدماء من ساقيه كما يروي ذلك أكثر المؤرخين .

ورجع النبي إلى مكة يائسا من ثقيف وأحلافها ومن جميع القبائل الذين استضافهم في طريقه ، ولم يستطع دخول مكة إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدي ومنع عنه قريشا وأحلافها ، وبقي في مكة ينتظر أمر الله ويجتمع بالوافدين إليها عندما تمكنه الظروف من ذلك وكان عمه عبد العزى المعروف بأبي لهب كان يراقب تحركاته ويقول لمن يجتمع بهم النبي : إن ابن أخي ساحر لا يغرنكم بسحره ونحن أهله وأخبر الناس به ومع ما لاقاه من القريب والبعيد فإن أمله بالنصر لم يضعف وثقته بالله كانت أقوى من قريش ومؤامراتها وقد عرفت فيه قريش ذلك وتجسدت لديها الأخطار التي ستنجلي عنها السنون المقبلة إذا تسنى لمحمد أن يلحق بأصحابه ويتخذ من يثرب عاصمة لنشر دعوته بعد أن تسلل

أكثر اصحابه اليها وبعد المعاهدة التي أبرمها مع الأوس والخزرج في العقبة الثانية وفي جوف الليل .

وأدركت قريش بأنه إذا استطاع أن يفلت منهم ويلحق بأصحابه وأنصاره الجدد ، سيصبح أقوى منهم ، فأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه قبل فوات الأوان على شرط أن لا يتحمل مسؤولية قتله فرد بخصومه ولا قبيلة وحدها ، فاجتمعوا في دار الندوة ليتخذوا القرار المناسب بحقه كما نص على ذلك المؤرخون .

وجاء عن اكثر الرواة أنهم اجتمعوا لهذه الغاية وتبادلوا الرأي وأبدى كل واحد بما عنده وكان الرأي الأخير لأبي جهل بن هشام كما ترويه المؤلفات في السير والتاريخ وتحدثنا عنه في كتابنا سيرة المصطفى .

ولما انتخب المشركون الفتية من جميع قبائل مكة اتفقوا على الليلة التي يهاجمون محمدا فيها وهو في فراشه جاءه الوحي ليخبره بما تم الاتفاق عليه بين قبائل مكة وأحلافها كما تشير إلى ذلك الآية :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ .

ومكر الله في الآية يعني أنه سبحانه قد فوت عليهم مكرهم وتخطيطهم بما أخبر به نبيه وبما أمره به من الخروج في تلك الليلة ومبيت علي على فراشه ليفوت عليهم تدبيرهم الذي اجمعوا عليه .

ولقد أخبر الرسول عليا بما اتفقت عليه قريش من تخطيطها لاغتياله ليلا وهو على فراشه فبكى علي (ع) ولما أمره بالمبيت على فراشه رحب بذلك وقال له كما يروي الرواة : أوتسلم أنت يا رسول الله إن فديتك بنفسي ، قال له النبي (ص) نعم بذلك وعدني ربي فرحب علي بالأمر وتبدد ما كان يساوره من خوف وقلق على النبي (ص) وتقدم إلى فراش الرسول في تلك الليلة مطمئن النفس رابط الجأش ثابت الفؤاد واتشح ببرده الحضرمي الذي اعتاد أن يتشح به .

وهنا تبدأ قصة من أروع ما عرفه تاريخ الفداء والتضحيات ، فالشجعان

يثبتون في المعارك وينازلون الأبطال والجيوش وهم يدافعون بما لديهم من سلاح وعتاد ويعتمدون في الغالب على من يحميهم في حالات الشدة والضيق وقد تضطرهم المعارك إلى أن يثبتوا في مقابل العدو منفردين ، اما أن يخرج الانسان إلى الموت طائعا مطمئنا بدون سلاح ولا عتاد وكأنه يخرج ليعانق غادة حسناء وينام على فراشه اعزل من كل شيء إلا من إيمانه وثقته بسلامة من يفدي نفسه في سبيله كما حدث لعلي فهذا ما لم يحدث في تاريخ البطولات وما لم يعرف عن أحد في تاريخ المغامرات في سبيل الحق والعقيدة .

وتنص المرويات أن القوم احاطوا بالدار وهم من خيرة فتيان قريش الأشداء وجعلوا ينظرون من فرجة إلى المكان الذي اعتاد النبي أن ينام فيه فرأوا رجلا ينام على فراشه قد التحف ببردته فأيقنوا بوجوده فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج النبي من الدار وكان قد اختبأ في مكان منها وانطلق جنوبا إلى غار ثور وكمن فيه .

وجاء في رواية ابن هشام من سيرته والطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته أن رسول الله خرج من باب الدار وانسل من بينهم وهم وقوف ينتظرون ظلمة الليل لينفذوا خطتهم وكان يقرأ :

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

وأخذ حفنة من التراب وجعل ينثرها على رؤوسهم وهم لا يشعرون .

ولما حان الوقت الذي عينوه لهجومهم على الدار هجموا عليها فوثب علي (ع) من فراشه ففروا بين يديه حين عرفوه . وفي بعض الروايات أنهم قبل هجومهم عليه جعلوا يقذفونه بالحجارة وهو ساكن لا يتحرك ولا يبالي بما يصبه من الأذى ، ثم هجموا عليه بسيوفهم وخالد بن الوليد في مقدمتهم فوثب علي من فراشه وهمز بيده ففر خالد واستطاع علي أن يأخذ السيف منه فشد عليهم وانهزموا أمامه إلى الخارج وسألوه عن محمد فقال لا أدري إلى أين ذهب .

وقال اليعقوبي في تاريخه : إن الله أوحى إلى ملكين من ملائكته المقربين في

تلك الليلة التي بات فيها علي (ع) على فراش الرسول أني قد قضيت على احدكما بالموت فأيكما يفدي صاحبه فاختار كل منهما الحياة ، فأوحى الله اليهما هلا كنتما كعلي بن أبي طالب ومحمد بن عبد الله لقد آخيت بينهما وجعلت عمر احدهما اكثر من الآخر فاختار علي الموت وآثر محمدا بالبقاء ونام في مضجعه ، اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه ، فهبطا يحرسانه وجبريل يقول : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب من مثلك يباهي به الله ملائكته فوق سبع سموات[1] .

وعلى أي الأحوال فإن مبيته على فراش الرسول ليقيه بنفسه ويفديه بروحه وإن كان من أروع ما عرفه التاريخ من التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة ، ولكن المتتبع لتاريخ أبي طالب وولده علي (ع) خلال ثلاثة عشر عاما خلت من تاريخ الدعوة إلى اليوم الذي بات فيه على فراشه وفي الفترة التي اعقبت الهجرة إلى اليوم الذي فارق فيه محمد دنيا الناس لا يرى أمثال هذه المواقف غريبة على أبي طالب وولده علي (ع)، فلقد كان أبو طالب الزعيم الأول لقريش والآمر الناهي فيها ومع ذلك فقد ضحى بكل شيء ووقف وحده في وجه أولئك الطغاة وعرض نفسه للجوع والأذى خلال أعوام الحصار مع أخوته وبني عمومته يقتاتون في أكثر الأحيان ما يجدونه من نبات الأرض وأعشابها كما عرض نفسه وأولاده أكثر من مرة للموت في سبيله وهو يخاطب الرسول ويقول :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفينا

إن من يستعرض تاريخ أبي طالب وولده علي ومواقفهما الحازمة في نصرة الاسلام لا يستطيع أن يفضل موقفا على موقف ، فكل مواقفهما تأتي في القمة بين مواقف الأبطال والمناضلين في سبيل الله وخير الانسانية .

والذي يدعو إلى الدهشة هو أن الذين كتبوا في التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية وأحصوا الحوادث التي رافقت مسيرتها لم يهملوا شيئا من مواقف أبي

---

(١) أنظر ص ٢٩ من المجلد الثاني تاريخ اليعقوبي ، وأسد الغابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٥ والشبلنجي في الأبصار ص ٧٧ ، والمادي في كنوز الحقائق ص ٣١ ، والغزالي في احياء العلوم ، كما جاء في فضائل الخمسة جـ ٢ ص ٣١٠ .

طالب ، ومع ذلك فقد كانت نتيجة جهوده وجهاده عند القدامى والمحدثين من الكتّاب الذين يزعمون أنهم يكتبون بروح بعيدة عن التعصب والهوى أنه مات مشركا ، ولا ذنب لأبي طالب عند الذين وضعوا التاريخ ودونوا المرويات باشراف الأمويين والعباسيين إلا أنه والد الإمام علي ، ولولا ذلك لأعطوه صفات القديسين الأبرار والمصطفين الأخيار .

ولقد عقب الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه ، علي بن أبي طالب على تضحية علي (ع) ومبيته على فراش الرسول ليلة تآمرت قريش على قتله بقوله :

وهذا الذي كان من علي ليلة الهجرة إذا نظر إليه في مجرى الأحداث التي عرضت للإمام علي في حياته بعد تلك الليلة فإنه يرفع لعيني الناظر امارات واضحة واشارات دالة على أن هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمرا عارضا بالاضافة إلى علي (ع) بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها فلنا أن نسأل :

أكان لإلباس الرسول (ص) شخصيته لعلي تلك الليلة ما يوحي بأن هناك جامعة تجمع بين الرسول وعلي اكثر من جامعة القرابة القريبة التي بينهما ؟ وهل لنا أن نستشف من ذلك أنه إذا غاب شخص الرسول كان علي (ع) هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه وتمثل شخصه وتقوم مقامه .

ومضى يقول : وأحسب أن أحدا قبلنا لم ينظر إلى هذا الحديث نظرتنا هذه إليه ، ولم يقف عنده وقفتنا تلك ، حتى شيعة علي والمبالغين في التشيع له ، فإنا نراهم لا يلتفتون كثيرا إلى هذه الواقعة ولا يقيمون منها شاهدا يشهد لعلي أنه أولى الناس برسول الله والقيام معه على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفع عليا إلى تلك المنزلة .

وأحسب كذلك أننا لم نتعسف كثيرا حين نظرنا إلى علي (ع) وهو في برد الرسول وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه وقلنا هذا خلف رسول الله والقائم مقامه .

وأضاف إلى ذلك : إن هذا الذي كان من علي ليلة الهجرة في تحديه

لقريش هذا التحدي السافر وفي استخفافه بها وقيامه بينها ثلاثة أيام يغدو ويروح ، إن ذلك لا تنساه قريش لعلي (ع) أبدا ولولا أنها وجدت في قتله يومئذ اثارة فتنة تمزق وحدتها وتشتت شملها دون أن يكون في ذلك ما يبلغ بها غايتها في محمد (ص) لقتلته وشفت ما بصدرها منه ولكنها تركته وانتظرت الأيام لتسوي حسابها معه .

ألا يبدو لنا من هذه الموافقات ما نستشف منه أن لعلي بن أبي طالب شأنا في رسالة الرسول ودورا في دعوة الاسلام ليس لأحد غيره من صحابة الرسول .

ولقد حاول بعضهم أن يجعلوا من صحبة أبي بكر للنبي إلى يثرب والتجائهما إلى الغار فضيلة لا تقل عن مبيت علي على فراشه وإقدامه على الموت مختارا في سبيله ، في حين أنه كان مع النبي في الغار وهو في اسوأ حالة من الهلع والجزع كادت تقضي على حياته لولا أن النبي (ص) كان يحاول أن يعيد إلى نفسه الاطمئنان والسكينة .

وجاء في تفسير الرازي أن الله أنزل على نبيه بمناسبة مبيت علي على فراشه ليسلم وتنتشر دعوته في الجزيرة وما وراءها من انحاء العالم أنزل عليه الآية : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ .

وأضاف إلى ذلك الرازي أن جبريل كان يقول له : بخ بخ من مثلك يباهي الله به ملائكته .

وقال الأستاذ جرداق وهو يصف موقف علي (ع) ليلة هجرة النبي من مكة في جوف الليل إلى الغار : لقد أسر النبي إلى ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويلتحف ببرده اليماني وأمره أن يتخلف بعده بمكة ليؤدي الودائع التي كانت عنده لأهلها ، وامتثل علي الأمر والغبطة تملأ نفسه كما هي حاله أبدا أمام كل تضحية يقوم بها في سبيل الرسول . ومضى يقول : وأحاط هؤلاء الرجال من قريش بدار محمد وأوثقوا حولها الحصار حتى ليستحيل على الهواء أن يخرج منها دون أن يمر بسيوفهم المشرعة ، ثم جعلوا يوصوصون من فرجة إلى فراش محمد فيرون في الفراش رجلا فتطمئن خواطرهم إلى أن محمدا لم يفر ، وأضاف إلى ذلك لقد كان علي بمغامرته هذه استمرارا لمحمد وكانت تضحيته من

روح المقاومة التي عرف بها ابن عمه العظيم ، وكان مبيته على فراش النبي تزكية للدعوة وحافزا على الجهاد الطويل .

ثم أن في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الإمام وطباعه ومزاجه ، فإذا هي صادرة عنه كما تصدر الأشياء عن معادنها دون تكلف ودون إجهاد ففيها نموه الذهني المبكر الذي جعله يدرك الدعوة التي يدق فهمها فهما صحيحا على من كان في مثل سنه ، وفيها زهده في الحياة إذا لم تكن عمرا لمكارم الأخلاق ، وفيها صدقه الحر واخلاصه العجيب وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من أهل الجهاد وما يتوخاه بذلك من نصرة المظلومين والمستضعفين إذا قتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة وفيها مواجهته للأمور بسماحة وبساطة لا يعرف معهما إلى الكلفة سبيلا ، وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثلها علي بن أبي طالب ، بل هي شيء من استشهاده المقبل .

وتستمر صلاة المودة والاخاء بين محمد وعلي ويستمر بينهما تعاطي الخير على انجاح الرسالة هذا التعاطي الذي يتماسك في اعماقه ويتخذ منذ أن عرف محمد أبا طالب ، ومنذ أن عرف محمد عليا ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيت واحد قام على مزايا الشهامة ، وما كانت خصائص البيت الطالبي إلا حافزا لأبي طالب وولده علي على فهم عبقرية محمد يتمثل لدى الأول شعورا وتضحية ولدى الثاني فكرا جبارا وشعورا عميقا شاملا وتضحية أشبه بصنع المعجزات .

ويدرك الرسول هذه الحقيقة فيه فيحبه الحب الذي يأخذ مصدره من حبه للرسالة ذاتها ، ولا يكتفي بأن يحبه وحده فتراه يحببه إلى الناس في كل ظرف ومناسبة ليمهد له سبيل الخلافة في زمن يأتي بوصفه استمرارا للرسول لا لكونه ابن البيت الهاشمي وابن عم الرسول ، فإن الرسول قد اتقى هذه العصبية ، بل حاربها جاهدا وحطم مفاهيمها تحطيما .



علي والفواطم في طريقهم إلى المدينة

لقد تابع ركب النبي (ص) طريقهم ألى يثرب يقطعون السهول والجبال والأودية حتى أصبحوا في أمان من خطر قريش وعلى مقربة من المدينة ، فقال النبي (ص) : من يدلنا على الطريق إلى بني عمرو بن عوف ؟ ولما بلغ منازلهم نزل ضيفاً عليهم لإحدى عشرة أو لإثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وكان قد استقبله منهم نحو من خمسماية ، ثم كتب إلى علي (ع) مع أبي واقد الليثي يأمره بالمسير إليه بعد أن يؤدي الأمانات لأهلها وكل ما أوصاه به . فلما أتاه كتاب النبي (ص) ابتاع ركائب لمن معه من النسوة وتهيأ للخروج وأمر من كان قد بقي من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى ، وخرج هو بالفواطم ، فاطمة بنت رسول الله وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة كما نص على ذلك معظم المؤرخين ومعهم أم أيمن وأبو واقد الليثي فجعل أبو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً ، فقال له علي (ع) : ارفق بالنسوة يا أبا واقد ثم جعل يسوق بهن ويقول :

ليس إلا الله فارفع ضنكا يكفيك رب الخلق ما اهمكا

فلما قارب ضجنان أدركه الطلب وكانوا ثمانية فرسان ملثمين معهم مولى لحرب بن أمية يدعى جناح ، فقال علي (ع) لأيمن وأبي واقد أنيخا الإبل واعقلاها وتقدم هو فأنزل النسوة واستقبل القوم بسيفه ، فقالوا : أظننت يا غدار أنك ناج بالنسوة ارجع بهن لا ابالك . فقال فإن لم أفعل فقالوا لترجعن راغماً ودنوا من المطايا فحال علي بينهم وبينها وأهوى له جناح بسيفه فراغ عن

صربته وضرب جناحاً على عاتقه فقده نصفين حتى وصل السيف إلى كتف فرسه ثم شد على أصحابه وهو على قدميه وأنشد :

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت لا أعبد إلا الواحد

فتفرق القوم عنه وقالوا احبس نفسك عنا يا ابن أبي طالب، ثم قال لهم : إني منطلق إلى أخي وابن عمي رسول الله (ص) فمن سره أن أفري لحمه وأريق دمه فليدن مني ، ثم أقبل على أيمن وأبي واقد وقال لهما أطلقا مطاياكما ، وسار الركب حتى نزل ضنجان فلبث بها يوماً وليلة حتى لحق به نفر من المستضعفين وبات بها ليلته تلك هو والفواطم يصلون ويذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتى طلع الفجر ، فلما بزغ الفجر سار بهم حتى قدموا المدينة .

وجاء في بعض المؤلفات في سيرة النبي وبعض التفاسير أن الله أنزل على رسوله الآيات التي تصف حالهم وما أعدّه الله لهم من الثواب والأجر العظيم .

والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل من ذكر وأنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب .

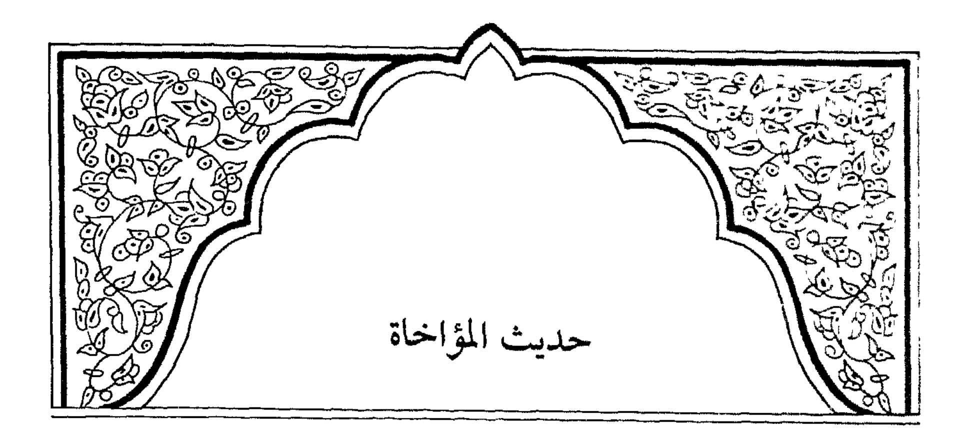
وجاء في السيرة الحلبية أن علياً في سفره إلى المدينة كان يكمن النهار ويسير الليل حتى تفطرت قدماه ، ولما رأى النبي (ص) ما به اعتنقه وبكى رحمة لما به ثم تفل في يديه وأمرها على قدميه فلم يشك منهما بعد ذلك ، وأكد هذه الرواية في أسد الغابة .

وقال في مستدرك الصحيحين للحاكم : ان الامام زين العابدين قال : أول من سرى نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب وكان يقول :

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول آله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبـات رسـول الله في الغـار آمنـاً مـوقـى وفي حفظ الإلـه وفي سـتر
وبت اراعيـهـم ولم يـتـهـمـونـني وقـد وطنت نفسي على القتـل والأسر

وتشـاء العنايـة الإلهية أن يسلم محمد من محاولات القـريشيـين لاغتيـالـه وينتقل برسالته إلى يثرب لتنطلق منهـا إلى جميع أنحـاء الحجاز ، ثم إلى مـا وراء الحجـاز من البلاد التي كـانت تحكمها اعتى دول العـالم وأكثرهـا عدداً وعتـاداً ، ويسلم علي (ع) من سيوف أولئك الذين أحاطوا بفراشه ليلة هجرة الرسـول ، والذين لحقوا به وهو في طـريقه إلى يثـرب مع الفـواطم والمستضعفين ليبقى فيـه شبح الموت الذي ظل يلاحقهم في بدر وأحـد والأحزاب وفي كـل غزوة ومعـركة من معارك الإسلام .



حديث المؤاخاة

لقد آخى النبي (ص) بين المهاجرين في مكة قبل أن يهاجروا منها إلى يثرب كما جاء ذلك في بعض المؤلفات في السيرة ومجاميع الحديث ، فآخى بين أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وبين الحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وهكذا حتى لم يبق غير علي (ع)، فاستغرب المسلمون أن يترك النبي علياً ولم يؤاخِ بينه وبين أحد من المسلمين ، ثم قال النبي لعلي :

أما ترضى يا علي أن أكون أخاك .

فتهلل وجهه وقال :

بلى يا رسول الله .

فقال النبي :

أنت أخي في الدنيا والآخرة .

وأنكر بعضهم هذه المؤاخاة لا سيما مؤاخاة النبي (ص) لعلي (ع) بالرغم من كثرة الرواة لها . ولعل السبب في إنكارهم لها يعود إلى أن النبي (ص) قد اختار علياً لنفسه وخصه في هذه المنزلة التي كان يتمناها جميع الصحابة ، في حين أن ترك وجوههم وواساهم لسائر الناس .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها أن النبي (ص) آخى بين المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة ، وفي هذه المرة كان يؤاخي بين مهاجر وأنصاري والهدف

منها أن يشد بعضهم إلى بعض بـرباط الإسـلام والإيمان بـدلا من رابطة العـرق والدم والتحالف الذي كان قائماً بين قبائل العرب وكان يتحكم بمصيرهم ويجرهم إلى الدمار والخراب .

لقـد أراد النبي (ص) بتلك الأخوة أن يـنظم صفوفهم ويؤكـد وحدتهم تحت لواء الإسلام ويجعلهم أخوة في الله يغضبون ويرضون ويحبون ويكرهـون لله وحده ويتناسـون ما بينهم من أحقـاد وثارات ، وإن دل هـذا التدبير الحكيم من النبي (ص) عـلى شيء فإنما يدل أولاً وقبـل كل شيء عـلى بعـد نـظره وعمق تفكيره فلقد أدرك أن الإسلام مقبل على تحرك واسع وجهود شاقة لا بـد للتغلب عليها من وحدة الهدف والغاية والتغاضي عما كان يحدث بين القبائل العـربية من حـروب وغارات وبخـاصة الأوس والخـزرج وبينهم وبـين غيـرهم من القبـائـل الضاربة بالقرب من المدينة ، تلك الخصومات التي كـانت ذكريـاتها تثير الأحقاد وتجرهم إلى المعارك الدامية لأبسط الأسباب .

هذا بالاضافة إلى أن الـوافدين إلى المـدينة من المهـاجرين كـان أكثرهم لا يملك قـوت يومـه ، فكانـوا في أمس الحاجـة إلى المساعـدة والعمل لتـوفـير قـوتهم وضرورات عيشهم ، وبالفعل لقد كان لذلك الترابط الذي أوجده النبي (ص) فيما بينهم أثره الطيب في نفوس الأنصار فآثـروهم على أنفسهم ويسـروا لهم سبل الحياة والعمل حتى أصبح الكثير منهم في بضع سنوات معدودات من الأثرياء .

ومضى ابن هشام في سيرته يقول : لقـد آخى بين أبي بكـر وخارجـة بن زهير وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من بني سالم بن عـوف وبين عـامر بن عبـد الله المعـروف بـأبي عبيـدة بن الجـراح وبـين سعـد بن معـاذ ، وبـين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع من الخزرج ، وبـين الزبيـر بن العوام وسلامة بن سلامة من بني عبد الاشهل وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت من بني النجار، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك من بني النجار، وهكذا حتى لم يبق من المهاجرين أحد إلا وآخى بينه وبين أنصاري ، وأصبح كل مسلم أنصـاري يحس بواجب عليـه نحو أخيـه الجديـد من المهاجـرين ويواسيـه بنفسه وقوته ، وأصبحت الوثائق والروابط التي تشد النـاس بعضهم إلى بعض تتضاءل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على مرور الأيام حتى ذابت وحلت مكانها تلك الأخوة أخوة الإسلام والهدف والمصير ، ولعل هذه الناحية كانت من الأسباب التي حققت للمسلمين الانتصارات ودفعت بالمسلمين أشواطاً بعيدة إلى الامام في بضع سنوات معدودات ولما بدأت هذه الروح تتقلص وتضعف بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الإسلامية حتى انتهى المسلمون إلى ما هم عليه اليوم من الانهيار وأصبحوا عبيداً لغيرهم بعد أن كانوا السادة الأعزاء .

وجاء في الرياض النضرة أن رسول الله ترك علياً ولم يؤاخ بينه وبين أحد ، فقال له يا رسول الله :

اخيت بين الناس وتركتني .

قال :

إنما تركتك لنفسي أنت أخي وأنا أخوك .

فإن ذكرك أحد فقل :

أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعدي غيرك إلا كذاب .

وأضاف إلى ذلك القزويني في المجلد الأول من فضائل الخمسة وقد أخرجه أحمد في المناقب والمتقي في كنز العمال وابن عدي في الكامل .

وفي رواية الطبراني في الرياض النضرة من المجلد الأول أن النبي قال له :

والذي بعثني بالحق ما أخرتك إلا لنفسي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وأنت أخي ووارثي .

قال :

وما أرث منك يا رسول الله .

قال :

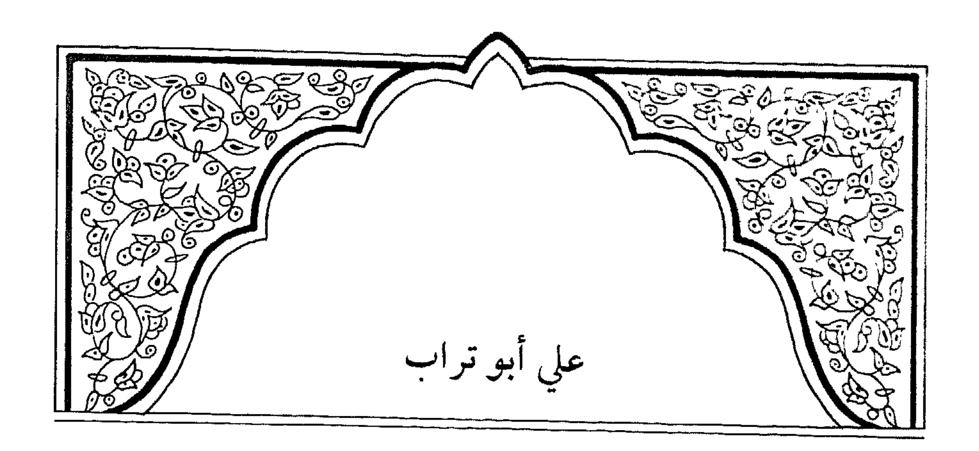
ما ورث الأنبياء من قبلي .

قال :

وما ورث الأنبياء قبلك .

قال :

كتاب ربهم وسنّة نبيهم وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي ، ثم تلا رسول الله اخواناً على سرر متقابلين .



علي أبو تراب

لقد جاء في سبب تسميته بهذا الاسم ، أن النبي (ص) خرج في غزوة تعرف بغزوة العشيرة في السنة الثانية من هجرته ولواؤه مع الحمزة بن عبد المطلب ، ومعه جماعة من المسلمين منهم عمار بن ياسر وعلي وغيرهما حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ، ولم يلق فيها أحداً غير أنه وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم .

وحدث ابن اسحاق عن عمار بن ياسر أنه قال : كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله وأقام بها رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم فقال لي علي (ع): يا أبا اليقظان هل لك في أن نأتي هؤلاء القوم لننظر كيف يعملون ، قلت إن شئت فجئناهم ونظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي واضطجعنا في صور من النخل على التراب اللين ونمنا ، والله ما أيقظنا إلا رسول الله (ص) يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك البقعة التي نمنا فيها ، ففي ذلك اليوم قال الرسول لعلي (ع): مالك يا أبا تراب ، ثم قال : ألا أحدثكما بأشقى الناس قلنا بلى يا رسول الله . قال اشقى الناس رجلان : احيمر ثمود الذي عقر ناقة صالح والذي يضربك يا علي على هذه ووضع يده على قرنه حتى يبل هذه وأخذ بلحيته الكريمة بيده .

وروى هذه الرواية ابن جرير الطبري في تاريخه ، ثم قال : وقيل غير ذلك وتتلخص الرواية الثانية في أن عبد العزيز بن أبي حازم روى عن أبيه أنه

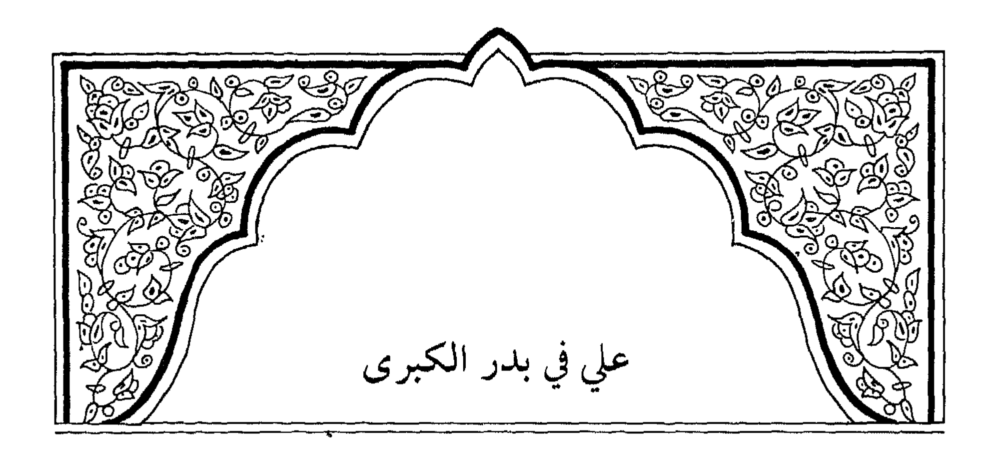
قال قيل لسهل بن سعد الساعدي : أن بعض أمراء المدينة يريد أن يبعث إليك لتسب علي بن أبي طالب على المبر وتقول له يا أبا تراب . قال والله ما سماه بذلك إلا رسول الله ، قلت وكيف ذاك قال دخل علي (ع) على فاطمة الزهراء ثم خرج من الدار وذهب إلى المسجد واضطجع في فيئه ، ثم دخل رسول الله على فاطمة وسألها عن علي (ع) فقالت له : هو ذاك مضطجع في المسجد فجاءه رسول الله فوجده وقد سقط رداءه عن ظهره فقال له : اجلس أبا تراب ، فوالله ما سماه بذلك إلا رسول الله ، وكان أحب أسمائه إليه .

ولا منافاة بين الروايتين لجواز أن يكون أول ما سماه بذلك في غزوة ذي العشيرة كما جاء في رواية عمار بن ياسر وقال فيها كلمته المشهورة : اشقى الناس من يخضب لحيتك بدم رأسك ، وهذا من دلائل نبوته ، وناداه بهذا الاسم حينما رآه نائماً على تراب المسجد وقد سقط عنه رداؤه وعلق التراب على ظهره .

ولكن ابن هشام روى عن ابن اسحاق أن جماعة من أهله حدثوه بأن النبي (ص) إنما سمى علياً أبا تراب ، لأن علياً كان إذا حصل خلاف بينه وبين فاطمة أو حصل منها ما لا يرتضيه من قول أو فعل لم يكلمها ولم يقل لها ما تكره غير أنه كان إذا استولى عليه الغضب منها يأخذ التراب ويضعه على رأسه ، فكان رسول الله إذا رأى علياً عليه التراب عرف أنه عاتب على فاطمة فيقول له مالك يا أبا تراب .

وبلا شك فإن هذه الرواية من الموضوعات ، ومن الجائز أن يكون ابن اسحاق قد أخذها من مرويات عروة بن الزبير الذي روى عنه في سيرته كثيراً ، واعتمد فيها على أكثر مروياته ، ومن المعلوم أن عروة كان يتعمد الكذب على علي (ع) وأحياناً كان يروي ما يسيء إليه وإلى آله ويسند مروياته في الغالب إلى خالته عائشة ، وموقف السيدة عائشة من علي وفاطمة لا يجهله أحداً ولا أظن أحداً يبرئها من الحقد عليه وعلى بضعة النبي الزهراء في حياة النبي وبعدها ففي حياة النبي كانت تمني نفسها أن تملك وحدها أكثر أوقات النبي خلال فراغه وتستأثر به على غيرها من زوجاته وذويه ، لأنه تزوج بها وهي غريرة

صغيرة ، فإذا بها ليست تملك من وقته إلا القليل القليل ويخص عليا وفاطمة بالنصيب الأكبر منه ، وكانت تغار منها أكثر مما تغار من نسائه الأخريات ، وكلما مر الوقت كانت تتضاعف الالفة والمحبة بينهما وبين النبي ، وقد أجابت هي من سألها عن أحب الناس إلى النبي فقالت : من الرجال علي بن أبي طالب ومن النساء فاطمة الزهراء . وكان وفاء النبي لخديجة أم الزهراء يزعزع كيانها أحياناً ولا تستطيع أن تصبر عليه كما ذكرنا من قبل . هذا بالاضافة إلى أنها قد رأت في علي وزوجته المنافس الوحيد لأبيها بعد وفاة النبي ، ولما بايعه المسلمون بالخلافة فقدت وعيها وتوازنها فقادت جيشاً لحربه وتجاهلت جميع نصوص القران التي أمرت نساء النبي (ص) أن يقرن في بيوتهن ووصية رسول الله التي حذرها فيها من الخروج عليه ، والسيدة الزهراء أرفع شأنا من أن تسيء لعلي أو تغضبه في قول أو فعل كما تؤكد ذلك النصوص التي وردت عن النبي في فضلها وسيرتها الكريمة .



علي في بدر الكبرى

لقد كانت هجرة النبي (ص) الى يثرب بداية عهد جديد في تاريخ الدعوة ، فقد التقى بأنصاره الذين بايعوه في العقبة الثانية وعاهدوه على أن ينصروه بأنفسهم وأموالهم ويمنعوه مما يمنعون منه انفسهم وذراريهم ، وكانت حفاوتهم به بالغة اقصى حدودها واقبالهم عليه يتزايد يوماً بعد يوم ، وفي السنين الاولى لدخوله المدينة أصر جماعة من سكانها على شركهم وأعلن بعضهم الإسلام وأصروا النفاق ، وكان إلى جانب هؤلاء في المدينة وجوارها من اليهود ما لا يقل عن عرب يثرب وحين دخول النبي اليها هادنوه على أمل أن يستغلوه لصالحهم في مقابل عرب المدينة ونصارى نجران الذين استحكم العداء بينهم وبين اليهود لأمور تتعلق بعقيدتهم في السيد المسيح وأمه العذراء ، هؤلاء بعد أشهر من دخوله المدينة انقلبوا عليه وفتحوا صفحة جديدة مع المشركين والمنافقين ، ولكن النبي (ص) كان يعالج الأمور بالحكمة ويتغاضى عن كثير من تصرفاتهم تفادياً للخصومات التي قد تؤدي إلى حرب اهلية في مقره الجديد وقد تكون نتائجها لغير صالحه في نهاية الأمر ، وبالرغم من كل ذلك فقد اسفروا عن واقعهم وبدأوا يخططون ويتصلون بالقبائل العربية خارج المدينة وبالمكيين كما بدأت قريش من جانبها بالتحرك السريع لإرهاب المسلمين والحد من نشاطهم ومحاصرتهم من الداخل والخارج وترسل السرية تلو السرية ، وبلغت بعض سرايا الأعراب بتحريض من قريش حدود يثرب بقيادة كرز بن جابر الفهري فاستولى على بعض مواشي المدينة وابلها ، فخرج النبي (ص) بنفسه مع جماعة

من المسلمين لانقاذ المواشي من ايدي الغزاة ومضى في اثر الغزاة الى أن قطع مسافة بعيدة .

وكان من الطبيعي أن لا يقف النبي من تلك المؤامرات والتحرشات والتحديات موقف المتخاذل الضعيف فجعل يرسل السرايا لمطاردتهم حيناً ، ويقطع الطريق على تجارتهم حيناً آخر لتفهم قريش ومن يساندها من اليهود والأعراب والمنافقين انه لهم بالمرصاد ، ولن يتراجع عن دعوته مهما كانت النتائج لا سيما وقد اصبح لديه من الانصار والأتباع ما يستطيع ان يرد به كيد المعتدين والمنافقين .

وظل يعالج الموقف على هذا النحو إلى أن امره الله بقتال المشركين ورد عدوانهم فقد جاء في الأية من سورة التوبة : فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأساً وأشد تنكيلاً .

وتوالت سراياه لرد العدوان وتثبيت دعائم الإسلام الى أن كانت معركة بدر الكبرى أو الثانية على حد تعبير بعض المؤرخين والمؤلفين في سيرة الرسول ، فكانت الكبرى لأن تحرك النبي لمطاردة كرز بن جابر الفهري حتى بلغ صفوان تعرف عند المؤرخين ببدر الصغرى وكانت الثانية كبرى لأنها حققت للمسلمين نصراً لم يكن في حساب قريش ولا غيرها من الأعراب واليهود ولم تحققه غزوة قبلها .

ومهما كانت أسباب تسميتها بهذا الاسم ، فلقد محت معركة بدر أسطورة تفوق قريش على المسلمين وقدرتها على استئصالهم وتبين لقريش وأنصارها أن الانتصارات في المعارك ليست وقفاً على العدد والعتاد ، وأن الإيمان بالمبدأ والعقيدة والتضحية في سبيلها أشد فتكا وأعظم أثرا من كل أنواع الاسلحة وصدق الله حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله .

لقد كانت معركة بدر منطلقا للانتصارات التي حققها المسلمون بقيادة النبي (ص) في جميع المعارك التي خاضوها لرد كيد الطغاة والمفسدين في الأرض

وفضت على كبرياء قريش وخيلائها ، وباء المشركون الذين افلتوا من سيف علي والحمزة والصفوة الطيبة من صحابة النبي بالخزي والعار بعد تلك الهزيمة المنكرة التي تركت في كل بيت من بيوت قريش نائحة وفي كل حي نوادب ، وكان لهذا النصر أبلغ الأثر في نفوس القبائل العربية واليهود الذين كانوا ينتظرون ما ستنجم عنه من نتائج كانوا يرجونها لصالح قريش .

لقد ثبت الله قدم نبيه بعد تلك المعركة وعزز موقفه وحقق فيها رؤ يا عاتكه بنت عبد المطلب وتهاوت قريش من عليائها فلم يبق بيت من بيوت جبابرتها وطغاتها إلا ودخله الذل والخزي والعار . ولقد تحدثنا عن رؤ يا عاتكة وما أعقبها من قيل وقال وأخذ ورد بين بني عبد المطلب وقريش في كتابنا سيرة المصطفى فلا أرى ما يوجب الاعادة .

لقد خرج النبي من المدينة في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من المسلمين ليقطع الطريق على تجارة قريش التي كانت بقيادة أبي سفيان ردا على تحديات قريش وتحرشاتها التي كانت تقوم بها بين الحين والاخر ، وشاءت التقادير أن يعرف أبو سفيان بالأمر فاستنجد بقريش فخرجت بكل قوتها لانقاذ العير وقتال محمد واصحابه ومضت في طريقها باتجاه بدر وقد حشدت اكثر من الف مقاتل من اشدائها ، وبلغت النبي أخبار قريش واستعدادها الكامل للقتال وهو في مكان قريب من بدر ، فاستشار اصحابه في الأمر وأحب أن يكونوا على بصيرة من موقف قريش فوقف عمر بن الخطاب يحذره من قريش وخيلائها ويقول : والله أنها ما ذلت منذ عزت ولا امنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها أبدا ولتقاتلنك فتاهب لذلك أهبته وأعد له عدته .

ووقف بعده المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله أمض لأمر الله فنحن معك ، ولا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، بل نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك العماد لسرنا معك فدعا له رسول الله[1] .

---

(١) برك العماد مكان يبعد عن مكه مسيرة خمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر .

وقام بعدها سعد بن معاذ فقال : كأنك تريد أن تعرف رأينا يا رسول الله فقال أجل فرد عليه سعد بقوله لقد آمنا بك يا رسول الله وصدقناك وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا نبي الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد وخذ من أموالنا ما أردت فما أخذته أحب إلينا مما تتركه وعند اللقاء سنريك منا ما تقر به عينك[1] .

ومضى رسول الله في طريقه إلى بدر ونزلها ليلة الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان فبعث عليا والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسسون له الأخبار وقال أرجو أن تجدوا الخبر عند القليب التي تلي هذا الضريب ، فاندفعوا باتجاهه فوجدوا على القليب روايا قريش فأسروا ثلاثة منهم ، واستطاع الفرار رجل يدعى عجير فأخبر قريشا بخبر النبي وأصحابه ونادى يا آل غالب هذا ابن أبي كبشة وأصحابه قد أسروا سقاءكم ، وكان الأسرى غلاماً لسعيد بن العاص ويدعى يساراً والثاني لمنبه بن الحجاج ويدعى اسلم ، والثالث لأمية بن خلف ويدعى أبا رافع وظنهم المسلمون من أتباع قافلة أبي سفيان فلما أخبروهم عن قريش شدد عليهم المسلمون وكان النبي (ص) يصلي فلما فرغ سألهم أجابوه بأنهم غلمان لقريش وأخبروه بمكانها ، فسألهم عن عدد المقاتلين من قريش ، فقالوا له : إنهم جمع كبير ولا علم لنا بعددهم ولكنهم ينحرون يوما عشرة أباعر ويوما تسعة ، فقال النبي القوم ما بين ألف وتسعمائة ، ولما التقى الطرفان وعبأ النبي أصحابه ووقف النبي بين الصفين يخاطب قريشا بأسلوب يلهب المشاعر ويناشدهم بالجوار والرحم القريبة التي تشد الناس بعضهم إلى بعض ، وقال لهم : لأن يلي هذا مني غيركم أحب إلي من أن تلوه أنتم ، فأصاب كلامه مكانا في نفس عتبة بن ربيعة أحد قادتهم وأبطالهم فقال لقريش : ما ردّ هذا قوم قط وأفلحوا ثم ركب جمله وجعل ينهى الناس عن

---

(١) ما أبعد هذا الموقف النابع عن إيمان سعد بعقيدته وثقته بربه والاستهانة بالحياة في سبيل الله ما أبعده عن موقف أبي حفص المتخاذل الذي صوّر به قريشا وكأنها قوة لا تغلب ولا تقهر وحذر فيه النبي من لقائها قبل أن يعد العدة لذلك .

القتال ويقول لهم : اطيعوني اليوم واعصوني الدهر أن محمدا له آل وذمة وهو ابن عمكم فخلوه للعرب .

ولكن أبا جهل وقد استحوذ عليه الغرور أخذ يحرض المشركين على القتال ويندد بموقف عتبة ويتهمه بالجبن والخوف ، وظل يلاحقه حتى استفزه ، فبرز عتبة بين أخيه شيبة وولده الوليد بن عتبة ، ودعا المسلمين إلى البراز ، فبرز إليه ثلاثة من فتيان الأنصار وهم بنو عفراء معاذ ومعوذ وعوف ، فلما وقفوا في مقابل عتبة وأخيه وولده وانتسبوا لهم ترفعوا عن مقاتلتهم ، وطلب عتبة من النبي أن يرسل له الاكفاء من قريش ، فالتفت رسول الله إلى بني عمه وكأنه أحب أن يكونوا أول من يباشر الحرب ويفتح المعركة ويتحمل اعباءها وقال :

قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب .

فقاموا مسرعين فرحين وكأنه دعاهم إلى أعز ما يصبون إليه واتجهوا نحو القوم بقلوب عامرة بالإيمان ونفوس طيبة بلقاء الله تسترخص كل شيء في سبيل سلامة محمد ودعوته .

وإن المتتبع لتاريخ الدعوة الاسلامية لا بد وأن ينتهي أن الدعوة منذ فجرها لولا الهاشميون والطالبيون منهم لم تكن ولم يكتب لها البقاء .

فأبو طالب منذ اليوم الأول وقف إلى جانب النبي يشد أزره ويمنع عنه قريشا وكيدها ، ومضى هو وولده علي (ع) وأخوه الحمزة يدافعون عنه بكل طاقاتهم وامكانياتهم ، وبالتالي تقدم علي ونام على فراشه موطنا نفسه على الموت ليسلم محمد لرسالته ، وفي معركة بدر أول من برز إلى جبابرة قريش علي وعمه الحمزة وابن عمه عبيدة بن الحرث بن عبد المطلب ، فكانت الضربة الأولى التي قضت على معنويات ذلك الجيش الذي كان يعتز بعدده وعتاده وأطاحت برؤوس أولئك الطغاة وبعثت في نفوس العرب والمشركين الخوف والذعر والجزع من الهاشميين وحدهم لا من أولئك الذين كانوا يرون قريشا لا تقهر ولا تغلب ويحذرون النبي منها .

وعلى أي الأحوال فلما تقدموا من القوم وانتسبوا إليهم طابت نفس عتبة

ومن معه بمبارزتهم فبرز عبيدة بن الحارث إلى عتبة بن ربيعة وكان أكبر الثلاثة سنا وبرز الحمزة إلى شيبة بن ربيعة وبرز علي إلى الوليد بن عتبة وكانا متقاربين في السن .

وجاء في بعض المرويات أن عليا كان يوم ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره على اختلاف الروايات في ذلك .

وقال اكثر المؤرخين أن الحمزة لم يمهل شيبة وقضى عليه في الضربة الأولى وكذلك فعل علي (ع) مع الوليد واختلف عبيدة وعتبة في ضربتين كلاهما ضرب صاحبه وأصابه بجروح بليغة وكر الحمزة وعلي (ع) على عتبة وأجهزا عليه ، وقيل أن الحمزة بارز عتبة فصاح المسلمون : يا علي أما ترى الكلب قد بهر عمك وكانا قد اعتنقا بعد أن تكسّر سيفاهما ، فأقبل عليهما وكان الحمزة أطول من عتبة فقال له طأطىء رأسك يا عم ، فلوى رأسه فضرب علي عتبة فقده نصفين وكر علي والحمزة بعد ذلك على شيبة فقتلاه وحملا عبيدة وكانت قد قطعت ساقه فألقياه بين يدي رسول الله (ص) فاستعبر وقال الست شهيدا يا رسول الله قال بلى . ثم قال عبيدة : لو كان أبو طالب حيا لعلم أني أحق بمقالته حيث كان يقول :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وكانت نهايته في بدر وهو أول شهيد من المسلمين في تلك المعركة وبرز بعدهما حنظلة بن أبي سفيان إلى علي (ع) ، فلما دنا منه ضربه علي بالسيف فسالت عيناه وسقط قتيلا على رمال بدر ، وأقبل بعده العاص بن سعيد بن العاص يطلب البراز فبرز إليه علي وقتله .

وجاء في الارشاد للمفيد عن أبي بكر الهذلي عن الزهري أن ابنه سعيد بن العاص دخل على عمر بن الخطاب في خلافته وجلس ناحية ، قال سعيد فنظر إلي عمر بن الخطاب وقال اراك وكأن في نفسك عليّ شيئا أتظن أني قتلت أباك يوم بدر ، والله لوددت أني قتلته ولو كنت قتلته لم اعتذر من قتل كافر ، ولكني

مررت به يوم بدر فرأيته يبحث للقتال كما يبحث الثور بقرنيه فهبته ورغت عنه ، فقال اليّ يا ابن الخطاب ، فصمد لـه علي وتنـاوله ، فـوالله ما رمت مكـاني حتى قتله ، وكـان عـلي في مجلس عمـر بن الخـطاب وهـو يتحـدث مـع سعيـد بهـذا الحديث ، فأدرك علي (ع) الغاية من حديث ابن الخـطاب فقال : اللهم غفـرا ذهب الشرك بما فيه ومحا الاسـلام ما تقـدم ، ما لـك يا ابن الخـطاب تهيج عـليّ الناس فسكت عمر ولم يتكلم ، فقال سعيد بن العاص : أما أنه ما كـان ليسرني أن يكون قاتل أبي غير ابن عمه .

والعـاص بن سعيـد المقتـول في بـدر هــو جـد عمــرو بن سعيـد الملقب بالأشدق ، وكان عاملا على المدينة ليزيد بن معاوية يـوم قتل الحسـين ولما سمـع العـويل والصـراخ من دور بني هاشم اتجـه نحو قبـر النبي وقال يـوم بيـوم بـدر وواعية بواعية عثمان يا رسول الله .

ولما رأت مخزوم كثرة القتلى من المشـركين احـاطوا بـأبي جهل خـوفا عليـه وألبسوا لامة حربه عبد الله بن المنذر فصمد له علي وقتله ، ثم ألبسوها الناكه بن المغيرة فقتله الحمزة وهو يظنه أبا جهل ، وألبسوها بعدهما حرملة بن عمـرو فقتله علي أيضا ، وأبى أن يلبسها أحد بعـدما رأوا صنيـع علي والحمـزة بأولئـك الذين كانوا يلبسون لامته ، وأخيرا قتله معاذ بن عمرو بن الجموح وقيـل غيره ، وقتـل عـلي (ع) فيمن قتله يوم ذاك نـوفل بن خـويلد وكان النبي (ص) قـد قـال : اللهم اكفني ابن العدوية .

وجاء في سيرة ابن هشام أن عليا قتل طعيمة بن عدي ، ومضى المسلمون يشتـدون على قـريش وعلي والحمـزة في طليعتهم فتسـاقـطت الـرؤ وس وتهـاوت الأجسام وخرج النبي من العريش ولم يبق فيه غـير أبي بكر ولم يـرد له ولعمـر بن الخطاب ذكر مع من اشتركوا في القتال وقتلوا أحـدا من المشركـين واشترك النبي مع المسلمين ووصاح وكبريـاء قريش تتهـاوى تحت الاقدام . شـاهت الوجـوه ، اللهم ارعب قلوبهم ثم أخذ كفا من الحصى ورمى به إلى جهة المشركين فانهزموا تاركين امتعتهم وأسلحتهم وأنـزل الله على النبي بهـذه المناسبـة كما جـاء في أكثر التفاسير :

إذ يوحي ربك إلى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب .

وغاص علي والحمزة وأبطال المسلمين في وسط قريش ونسي كل واحد منهم نفسه وكثرة عدوه فتطايرت الرؤ وس عن الأجساد وأمد الله المسلمين بالقوة والعزيمة والثبات وأسر المسلمون كل من عجز عن الفرار ، حتى بلغ عدد الأسرى سبعين رجلا وعدد القتلى اثنين وسبعين رجلا .

وتنص اكثر المرويات أن عليا (ع) قتل النصف واشترك مع المسلمين في النصف الآخر كما جاء في رواية المفيد وغيره وأحصى الواقدي من قتلى المشركين اثنين وخمسين من خيرة أبطالهم احصاهم بأسمائهم وأسماء قاتليهم ، وحسب احصائه أن الذين قتلهم علي بسيفه أربعة وعشرون ، وثمانية وعشرون اشترك في قتلهم جميع المسلمين .

ويبدو من احصاء الواقدي أن القتلى بسيف علي (ع) كانوا وجوه القوم وأبطالهم ، وبين الأسرى النضر بن الحارث بن كلدة الثقكي قد أسره المقداد بن الأسود فنظر إليه النبي وأمعن في نظره ، فقال لرجل كان إلى جانبه : إن محمدا والله قاتلي لقد نظر إلي بعينين فيهما الموت فقال له الرجل : ما هذا منك إلا الخوف والرعب . ولما بلغوا في طريقهم إلى المدينة موضعا يقال له الأثيل نزلوا فيه فالتفت النبي إلى علي وقال له : قم يا علي واضرب عنق النضر فصاح المقداد وقال : اسيري يا رسول الله وكان يطمع في فدائه فرد عليه النبي بقوله : اللهم أغن المقداد من فضلك فقام علي وضرب عنقه ، ولما بلغ أخته خبر مقتله رثته بأبيات تعبر عن حزنها ولوعتها على أخيها وتتمنى لو أن النبي منّ عليه وتركه مع من يترك من الأسرى وفيها تخاطب النبي :

أمحمد ولانت نجل نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضيرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

ولما بلغته أبياتها رق لها النبي وقال : والله لو بلغني شعرها قبل قتله لما

قتلته ، وفي عرق الضبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ، ولما أقبل عليه علي بالسيف صاح من للصبية يا محمد فقال لهم النار ثم ضربه علي ضربة واحدة كانت بها نهايته .

وقال الأستاذ عبد الفتاح وهو يتحدث عن معركة بدر ومواقف علي فيها وعن نتائجها ، قال : لقد كانت بدر نصرا كلها وإن أفلتت الدائرة أبا سفيان بن حرب وغيره الذين من أجلهم نزحت جنود المسلمين إلى ساحة القتال ، ولكن أبا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن أشد من أولئك الذين حصدتهم رحى السيوف ، لقد خسر في المعركة زيادا ابنه اسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه بسيف علي كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بني عبد شمس وأصهارهم من بني عبد الدار ، ومضى يقول : وإن الذي يأخذ نفسه باحصاء من جندلهم علي بن أبي طالب في بدر وما تلاها من وقائع ليعجب أشد العجب ، ويتساءل أكانت الصدفة وحدها هي السبب في أن يكون اكثرهم من هذا البيت الذي اشتهر بامتلاء قلوب اله بالحقد على بني هاشم وسلالته ، أم ترى أنه كان ينتقي عامدا غرماءه من بينهم ، ثم يعمل في رقابهم نصاله ، كان عجيبا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن أبي سفيان والعاص بن سعيد بن أمية والوليد بن عتبة أخا هند ، ثم عقبة بن أبي معيط أخي عثمان لأمه ، ثم بعدهم غيرهم من أحلافهم ومن لاذ بهم بسبب أو نسب ، ولعلهم ندموا لأنهم ليلة الهجرة خلوا بين علي وبين الحياة ولم يقتلوه في فراش الرسول ، ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتيلا ولا يدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم ، لأنهم رضعوا من ثدي أمهاتهم مقته ومقت اله صغارا ، فاصطفوا يناجزونه كبارا ولم يتحروا إذا فعلوا ان يكونوا له المناجزين الاكفاء .

وجاء في الدر المنثور في ذيل تفسير الاية : أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، إن ابن عساكر اخرج عن ابن عباس في تفسيرها أن المراد من الذين امنوا وعملوا الصالحات علي والحمزة وعبيدة بن الحارث ، والمراد من المفسدين في الأرض عتبة وشيبة والوليد بن عتبة .

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم بسنده عن محمد بن أدريس الشافعي أنه

قال : دخل رجل من بني كنانة على معاوية بن أبي سفيان فقال له هل شهدت بدرا ؟ قال : نعم . قال مثل من كنت ؟ قال : غلام أمرد مثل عطباء الجلمود . قال : فحدثني ما رأيت وحضرت . قال : ما كنا شهودا إلا كغياب ، وما رأينا ظفرا كان أوشك منه ، قال : فصف ما رأيت . قال : رأيت علي بن أبي طالب غلاما شابا ليثا عبقريا يفري الفري لا يثبت له أحد إلا قتله ولا يضرب شيئا إلا هتكه ، ولم أر أحدا من الناس يحمل حملته ويلتفت التفاته ، وكان له عينان في قفاه وكأن وثوبه وثوب وحش .

وجاء في ذخائر العقبى والرياض النضرة كما نص على ذلك القزويني في كتابه فضائل الخمسة عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال : نادى ملك من السماء يوم بدر يقال رضوان أن لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي .

وروي في فضائل الخمسة عن الطبري أن علي بن أبي طالب لما قتل أصحاب الألوية في بدر كان كلما تكتل جماعة من مشركي قريش يقول له النبي (ص) : أحمل عليهم يا علي فيحمل عليهم ويقتل منهم فنزل جبرائيل على النبي وقال له : إن هذه المواساة يا رسول الله فقال له رسول الله : إنه مني وأنا منه فقال جبرائيل وأنا منكما وسمعوا صوتا يقول : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي .

ومجمل القول أن المؤرخين والمحدثين قد تحدثوا عن مواقف علي في بدر وعن جميع من قتلهم بسيفه وأبرزوه فيها على واقعه ، غير أن الأستاذ هيكل في كتابه حياة محمد تحدث عن معركة بدر واعتمد في حديثه عنها على المصادر التي ذكرت مواقف علي (ع) وبطولاته الرائعة التي لم يحدث بها التاريخ عن أحد من الناس وكلها نصت على أن عليا وحده قتل نصف قتلى المشركين أو ما يقرب من النصف واشترك مع المسلمين في النصف الآخر ، بالرغم من أنه اعتمد على تلك المصادر لم يتحدث عنه بشيء ، ولم يزد في حديثه على قوله : بأن عليا والحمزة وأبطال المسلمين خاضوا المعركة ونسي كل منهم نفسه ، ومع أن الخليفتين عمر وأبا بكر لم يشتركا مع المسلمين في قتل أحد كما تؤكد ذلك المصادر الموثوقة ، ومع ذلك فقد أبى أن يمر على تلك المعركة بدون أن يذكر لأبي

بكر وعمر ميزة على غيرهما ، فذكر أن النبي قـال لأبي بكر أن مثلك في المـلائكة كمثل ميكائيل ، وفي الأنبياء كعيسى وابراهيم ، وقال لعمـر بن الخطاب : إنـك في المـلائكة كجبـرائيل وفي الأنبيـاء كنوح وعيسى ، وذلـك عنـدمـا اشـار عليـه أبو بكر بالعفو عن الأسرى ، وأشار عليه عمر بن الخطاب بقتلهم ، وأن يبادر هو إلى قتـل عمه العبـاس بن عبد المـطلب ، ويتولى عـلي قتـل أخيـه عقيـل بن أبي طالب ، والحمزة قتل ابن أخيه نوفل بن الحارث بن عبد المـطلب ، حيث كانـوا ثلاثتهم مع الأسرى ، في حين أن عمر بن الخطاب نفسه يعلم بأن هؤلاء الثلاثة كانوا يدافعون عن النبي في مكة ومع المحاصرين في شعب أبي طالب ، وانهم قد خرجوا مع المشركين مكرهين ونفوسهم منطوية على الإسلام والإيمان بكل ما جاء به محمد بن عبد الله ، والله سبحانـه أعلم بما أنـطوت عليه نيتـه أن صحت عنه هذه المقالة .



علي في معركة أحد

لقد تركت نتائج معركة بدر جرحا بليغا في نفوس القرشيين والمنافقين واليهود ومن على شاكلتهم من الأعراب الذين كانوا لا يزالون على شركهم ، هذا الجرح تركهم لا يفكرون ولا يعملون لغير الثأر لأنفسهم واستعادة هيبتهم التي فقدوها في تلك المعركة ، وعادوا يبكون قتلاهم بعد أن منعوا النساء من البكاء والعويل قرابة أشهر معدودات ، لقد عادوا إلى البكاء لأنه يلهب النفوس ويثير المشاعر ، فكانوا يأتون براحلة الرجل أو فرسه ويجمعون النساء حولها للنياحة ويرددون أحداث بدر وما جرى فيها .

ومضت قريش على ذلك لا هم لها إلا الاستعداد للجولة الثانية مع محمد وأتباعه وتعبئة النفوس ، ولكن هندا بالرغم من أنها أصيبت بأبيها وعمها وأخيها قد أبت أن تبكي وتظهر بمظهر الحزين الجازع مخافة أن يشمت بها محمد وأتباعه على حد تعبيرها ووزعت قريش رسلها خارج مكة للتنديد بمحمد وشحن النفوس عليه وعلى أتباعه . ولكن ذلك وغيره لم يكن ليرهب محمد بن عبد الله ولا المسلمين من أتباعه لا سيما وقد أمدتهم معركة بدر بالقوة والثقة بأنفسهم فقبل أن يستعيدوا راحتهم ويعوضوا عما بذلوه من جهد وعناء وقبل أن تتم دورة الاسبوع على رجوعهم إلى المدينة يزفون إلى من بقي فيها من الرجال والنساء أخبار بدر ونتائجها ، أمرهم بغزو بني سليم وكانوا قد تجمعوا لغزو المدينة وقاد الحملة بنفسه وأعطى لواءه لعلي (ع) كما نص على ذلك مؤلف السيرة الحلبية

في سيرته ، ولما بلغ ماء من مياههم يقال له الكدر أقام عليه ثلاثة أيام فلم يجد أحدا منهم ثم رجع إلى المدينة وكانت هذه الغزوة في الرابع والعشرين من شهر رمضان بعد معركة بدر بأيام قليلة كما ذكرنا .

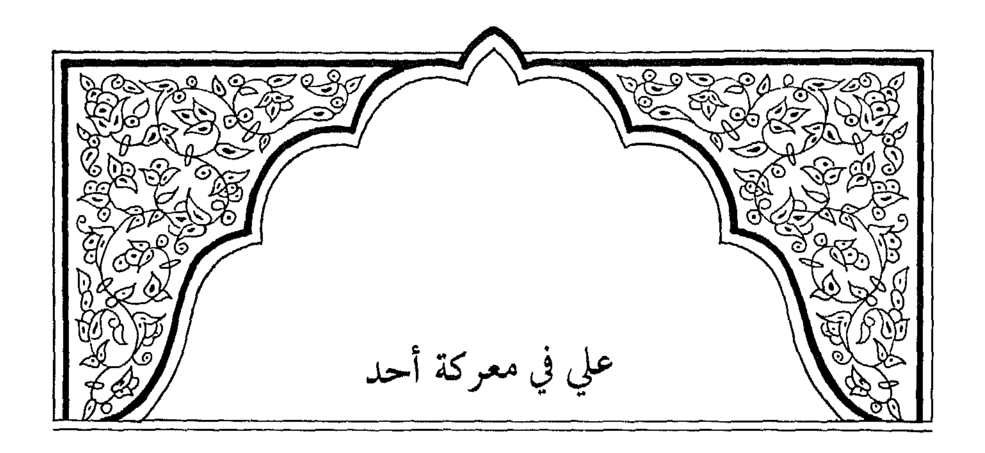
وفي النصف من شوال وبعد معركة بدر بشهر واحد تقريبا غزا النبي بني قينقاع إحدى قبائل اليهود في المدينة ، وكان قد عاهدهم حين دخوله إليها وعاهدوه على أن لا يغدروا به ولا يتعاونوا مع أحد عليه ، ولكنهم بتحريض من قريش نقضوا العهد وتآمروا على قتله وحاولوا تنفيذ مخططهم وهو في حيهم يجلس إلى جنب حائط من دورهم ، وقبل أن يحين موعد التنفيذ أخبره الوحي بذلك فقام من ساعته وانسحب إلى داخل المدينة وأنزل عليه بهذه المناسبة الآية كما يدعي المؤلفون في تفسير القرآن :

﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين﴾

فسار اليهم في أصحابه وكان لواؤه مع الحمزة وعلي يقود الحملة ويتقدم المسلمين فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا إلى معاقلهم وحصونهم فحاصرهم النبي خمس عشرة ليلة وكانوا أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، ولما اشتد عليهم الحصار واستولى عليهم الخوف نزلوا على حكم رسول الله ونزحوا إلى اذرعات من بلاد الشام مع اطفالهم ونسائهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين إلا ما حملوه معهم حسبما تم الاتفاق بينهم وبين النبي (ص) وقيل في سبب هذه الغزوة غير ذلك ومن أراد التفاصيل فعليه أن يرجع إلى سيرة المصطفى حيث تعرضنا لهذه المواضيع وبحثناها من جميع جوانبها .

وفي النصف من شهر المحرم بعد معركة بدر بأربعة أشهر تقريبا بلغه أن جماعة من بني سليم وغطفان قد تجمعوا في أرض لبني سليم يقال لها قرقرة الكدر يريدون غزو المدينة فسار اليهم في نحو مايتي رجل من المهاجرين والأنصار وأعطى لواءه لعلي (ع) وقبل أن يصل إليهم فروا من مكانهم وتفرقوا في بطون الأودية ومرتفعات الجبال ولم يجد أحدا منهم غير الرعاة فاستولى على المواشي التي كانت معهم وهي خمسمائة بعير فأخرج خمسها ووزع ما بقي منها على أصحابه . وهكذا كان الأعراب يحتشدون بين الحين والآخر في مختلف الأماكن ويخططون

لغـزو المدينـة ، ولكن النبي كـان يفـوت عليهم تـدابيـرهم فيخـرج اليهم يقـود المسلمين أحيانا أو يرسل اليهم السرايا ، وفي الغالب يكون لواؤه مع علي (ع) فلا يرجع حتى يشتت جمعهم ويستولي على مواشيهم ، واستمـر الحال عـلى ذلك إلى أن جاء شوال من السنة الثالثة للهجرة وبعـد أن مضى على هجـرة النبي إلى المدينة نحو من اثنين وثلاثين شهرا فكانت معركة أحد التي أصيب فيها المسلمون بصدمة قاسية كانت نتيجة لعدم تقيدهم بأوامر الرسول واستخفـافهم بالتخـطيط الذي وضعه للمعركة منذ بدايتها .



علي في معركة أحد

لم تهـدأ قريش منـذ أن أصيبت في بدر بتلك النكبـة التي لم تكن تـدور في حسابها وظلت تستعد للثار من محمد وأصحابه خلال سنـة أو تزيـد كما ذكـرنا ، فلما استدار العام كانت قريش قـد استكملت عدتهـا واجتمع اليهـا أحلافهـا من المشركين واليهود وانضم اليها كل حاقد وناقم عـلى الدين الجـديد من اصحـاب الامتيازات وذوي الجاه والمال ، وكان العبـاس بن عبد المطلب يشترك أحيـانا في الرأي ليكون على صلة بكل تصرفاتهم وتحركاتهم ، ولـما أجمعوا عـلى غزو المـدينة كتب إلى النبي (ص) كتابا وصف له حالهم واجتماع كلمتهم وعددهم وعدتهم وأرسل الكتاب مع رجل من غفـار وأوصاه بـالكتمان والاسـراع في السير حسب استطاعته . فمضى الغفـاري في طريقـه إلى المدينـة يجدّ السـير حتى دخلها بعـد ثلاثة أيام أو أربعة ، فدفع الكتاب للنبي (ص) فأعطاه إلى أبي بن كعب ليقرأه له وأوصاه بأن يكتم الخبر ولا يحدث أحدا بما فيه ، وقصـد دار سعد بن الـربيع وقص عليه محتويات الكتاب وأوصاه بالكتمان وقال أني لأرجو أن يكون في ذلـك الخير .

وبدأ النبي (ص) من ساعته يستعد لملاقاة قـريش ويعد العدّة لذلـك ، ومضت قريش مع أحلافها لغـزو المدينـة وخرج جيشهـا من مكة في ثـلاثة آلاف مقـاتل ومعهم خمس عشـرة امرأة وبينهن هنـد بنـت عتبـة زوجـة أبي سفيـان بن حرب وذلك في أوائـل شوال من السنـة الثالثـة لهجرة النبي ، ولـما بلغت الايواء وفيها قبر آمنة بنت وهب أم النبي دفع الحقـد الطائش بعض القـرشيين إلى نبش

قبرها واخراج رفاتها منه وحرقها تجاوبا مع رغبة هند زوجة أبي سفيان ، وقد ألحت على ذلك وبركت إلى جانب القبر وأقسمت بالأزلام أن لا تبرح مكانها حتى تنبش القبر وتخرج الرفاة منه ، ولكن بعض زعماء قريش حالوا بينها وبين ما تريد ، وقدروا أن ذلك لو تم ربما يصبح عادة عند العرب ، وقالوا إذا فعلتم ذلك فما يمنع خزاعة وبني بكر أن تنبش قبور قريش واستطاعوا بعد حوار طويل التغلب على هند ومن يرى رأيها . وتابعت قريش مسيرتها حتى بلغت العقيق وحطت رحالها في سفح جبل على بعد خمسة أميال من المدينة ، وانتقلوا منه إلى ذي الحليفة في جوار المدينة وتركوا خيلهم وابلهم ترعى في بساتين المدينة .

وما أن اتصل خبرهم بالنبي (ص) حتى جمع المسلمين واستشارهم في الموقف الذي يجب أن يتخذوه في مثل هذه الظروف الحرجة واختلفت آراء المسلمين في ذلك فبين من رأى أن يتحصن النبي في المدينة ويتخذ في داخلها جميع الاحتياطات لمقابلتهم في شوارعها ، وبين من رجح الخروج منها ومقابلتهم في خارجها وقد بحثنا هذه النواحي بحثا وافيا في سيرة المصطفى ، ولا يهمنا منها الآن إلا ما يتعلق بمواقف علي أمير المؤمنين في تلك المعركة .

وتنص المصادر التاريخية على أن النبي (ص) بعد أن استطلع رأي اكثر المسلمين حول الموقف جمعهم وخطب فيهم وحثهم على الصبر والجهاد والثبات ووعدهم بالنصر والأجر إذا صبروا وأخلصوا في جهاد عدوهم وتجهز للخروج بمن معه وكانوا ألفا أو يزيدون قليلا ودفع لواءه لعلي بن أبي طالب (ع) ووزع الرايات على وجوه المهاجرين والانصار وخرج من المدينة لقتال الغزاة ، ولما بلغ الشوط وهو مكان إلى جوار المدينة رجع عبد الله بن أبي وجماعته وكانوا نحوا من ثلث الجيش الذي خرج مع النبي (ص) .

وجاء في رواية ثانية أن النبي (ص) لما بلغه أن حلفاء عبد الله بن أبي من اليهود خرجوا معه أمر بارجاعهم وقال : لا نستعين بالشرك على أهل الشرك ، فرجع عبد الله وأحلافه وكانوا نحوا من ثلاثمائة أو يزيدون ، وبقي النبي في سبعمائة من المسلمين ومضى حتى بلغ أحدا ، فأعد أصحابه للقتال ووضع تخطيطا سليما للمعركة فأمر خمسين رجلا من الرماة أن يكونوا من وراء المسلمين

إلى جانب الجبل وأكد عليهم أن يلزموا اماكنهم ولا يتركوها حتى ولو قتل المسلمون عن آخرهم ، كما أوصاهم أن يرشقوا الخيل بالنبال إذا أرادت قريش أن تهاجم المسلمين من تلك الناحية ، ونظم صفوف المسلمين تنظيما دقيقا يضمن لهم النصر بإذن الله .

وتأهب المشركون للحرب وأعطوا لواءهم لبني عبد الدار وأول من استلمه منهم طلحة بن أبي طلحة ، ولما علم النبي بأن لواء المشركين مع بني عبد الدار أخذ اللواء من علي (ع) وسلمه إلى مصعب بن عمير ، وكان من بني عبد الدار وبقي معه إلى أن قتل ، فلما قتل ردّه النبي إلى علي (ع) ، ولما التحمت المعركة بين الفريقين تقدم طلحة بن أبي طلحة وطلب البراز فخرج اليه علي (ع) وبرزا بين الصفين ورسول الله (ص) جالس في عريش أعد له يشرف على المعركة ويراقب سيرها ، فضرب علي طلحة على رأسه ضربة فلق فيها هامته ووقع يخور في دمه كالثور على حد تعبير الراوي ، فكبّر رسول الله والمسلمون ، ولما قتل حامل لواء المشركين تقدم أخوه عثمان بن أبي طلحة وأنشد :

إن على رب اللواء حقا ، أن يخضب الصعدة أو يندقا

فأخذ اللواء وتقدم به والنسوة خلفه يضربن بالدفوف وينشدن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق مشي القطا البوارق
المسك في المفارق أن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

فحمل عليه الحمزة بن عبد المطلب فضربه بسيفه ضربة كانت بها نهايته ورجع عنه يقول : أنا ابن ساقي الحجيج .

وأخذ اللواء بعدهما أخوهما أبو سعيد بن أبي طلحة فحمل عليه علي فقتله ، ثم أخذ اللواء أرطأة بن شرحبيل فقتله علي أيضا ، وأخذ اللواء بعد ذلك غلام لبني عبد الدار فقتله علي بن أبي طالب . وتعاقب على اللواء تسعة من بني عبد الدار فقتلوا بسيف علي وعمه الحمزة ، وكان علي (ع) أشد فتكا بحملة اللواء وأبطال المشركين من جميع المسلمين كما تنص على ذلك المؤلفات في سيرة الرسول (ص) .

وجاء في تاريخ ابن الأثير أن عليا (ع) قتل حملة اللواء وأشارت إلى ذلك رواية المفيد في ارشاده والطبري في تاريخه ، وروى الحسن بن محبوب عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) أنه قال : كان أصحاب اللواء يوم أحد تسعة من أبطال قريش وبني عبد الدار قتلهم علي بن أبي طالب عن آخرهم .

وروى علي بن ابراهيم في تفسيره أنه بعد أن قتل علي بن أبي طالب حملة اللواء تقدم غلام لبني عبد الدار يدعى صواب فحمل عليه علي وقتله وسقط اللواء في المعركة ولم يجسر أحد أن يتقدم ويأخذه ، فتقدمت إليه امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية وفيها يقول الشاعر :

ولولا لواء الحارثية اصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وفي رواية علي بن ابراهيم أن طلحة بن أبي طلحة حينما برز إليه علي (ع) قال له : لقد علمت يا قضيم أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك . ومضى الراوي يقول : لقد سئل الامام الصادق (ع) عن معنى قول طلحة لعلي يا قضيم ، فقال الإمام الصادق : إن رسول الله يوم كان في مكة لم يجسر عليه أحد لمكان أبي طالب ، فكانوا يعرون به الصبيان إذا خرج يرمونه بالحجارة والتراب فشكا ذلك لعلي (ع) فقال له بأبي أنت وأمي يا رسول‌الله إذا خرجت فاخرجني معك ، فخرج معه في اليوم الثاني فتعرض له الصبيان على عادتهم فحمل عليهم علي (ع) فكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم فيرجع الصبيان إلى أهلهم باكين يقولون قد قضمنا علي بن أبي طالب فصار يعرف بين صبيان مكة بالقضيم .

وتؤكد اكثر المرويات أنه بعد أن قتل اصحاب الألوية والتحم الجيشان لم يتقدم أحد من علي إلا بعجه بسيفه أو ضربه على رأسه ففلق هامته وأرداه قتيلا ، وانكشف المشركون لا يلوون على شيء حتى احاط المسلمون بنسائهم ودب الرعب في قلوبهم ولو اراد المسلمون أن يأسروا هندا ومن معها ما وجدوا من يمنعهم من ذلك .

وجاء في رواية شرح النهج عن الواقدي أنه قال : إن النصر الذي تهيأ

للنبي (ص) في أحد لم يتهيأ له في موطن قط ، وظل النصر إلى جانب المسلمين حتى عصوا الرسول وانصرفوا إلى الغنائم ، وأضاف إلى ذلك ان الذين حضروا المعركة من المسلمين كانوا يقولون : والله لقد كنا ننظر إلى هند ومن معها من النساء والجواري منهزمات ما دون أخذهن شيء لمن ارادهن ، ولكن لا مرد لقضاء الله ، فلقد أصيب المسلمون من قبل الرماة الذين وضعهم النبي (ص) من ورائه ليحموا ظهورهم بالنبال إن هوجموا من جهة الجبل ، ولما انهزم المشركون وانصرف المسلمون إلى الغنائم ترك اكثرهم المكان الذي وضعهم فيه رسول الله ، ولم يبق سوى قائدهم عبد الله بن جبير في نفر لا يتجاوزون التسعة أو العشرة ، فنظر خالد بن الوليد إلى الجبل فوجده خاليا إلا من اولئك النفر ، فاستغل الموقف وهاجمهم فثبتوا له ولخيله وكانت اكثر من مائتين ، ولما نفذت نبالهم دافعوا بسيوفهم حتى النفس الاخير ، وخلال تلك الفترة من الكفاح البطولي الذي قام به عبد الله بن جبير ومن معه نظر المنهزمون إلى خيلهم التي وجدت منفذا للغارة على المسلمين وهم آمنون مطمئنون بما حققوه من النصر وقد الهتهم الغنائم حتى عن التفكير بالنبي (ص) ، فرجعوا وأحاطوا بالمسليمن من جميع جهاتهم ، فما أحس المسلمون إلا والعدو قد أحاط بهم واختلط بينهم ، وأصبحوا كالمدهوشين يتعرضون لضرب السيوف وطعن الرماح من كل جانب ، واشتد عليهم الأمر حتى قتل بعضهم بعضا من حيث لا يقصدون . ولم يكن علي (ع) يفكر في تلك اللحظات الحاسمة إلا بالرسول وسلامته لا سيما وقد رأى المشركين يتجهون نحوه وأصبح هدفهم الاول بعد أن اصبحت المعركة لصالحهم ، فأحاط به هو وجماعة من المسلمين يدافعون عنه ويجالدون بين يديه والحمزة يهد الناس بسيفه هدا على حد تعبير المؤرخين ، وقد تفرق عن النبي اكثر اصحابه وحمل عليه المشركون من كل جانب حتى اصيب ببعض الجراحات وأغمي عليه .

وقال المفيد في ارشاده بسنده إلى ابن مسعود : إن الذين ثبتوا مع رسول الله علي وأبو دجانة وسهل بن حنيف ، وقد وقفوا حوله يدفعون عنه غارات قريش والنبي مغمي عليه ، فلما أفاق قال لعلي : ما فعل الناس قال : لقد نقضوا العهد وولوا الدبر . وفيما هو إلى جانبه وإذا بكتيبة من المشركين تتجه نحو

النبي ، فقال يا علي : اكفني هؤلاء ، فانقض عليهم كالصقر فانهزموا بين يديه حتى اجلاهم وقتل جماعة منهم ، وفيها هو يدافع ويصد الهجمات المتتالية على رسول الله ، وإذا بكتيبة تنقض على النبي حتى لتكاد تبلغ منه غايتها لولا أن عليا قد انقض عليها وفرقها عنه .

وجاء في شرح النهج عن محمد بن حبيب في أماليه أن رسول الله لما فر عنه معظم أصحابه يوم أحد اتجهت إليه كتائب المشركين فقصدته كتيبة من بني كنانة ، ثم من بني عبد مناة من كنانة وفيها اكثر من خمسين فارسا ، فقال : يا علي اكفني هذه الكتيبة وكان راجلا وهم على متون خيولهم ، فما زال يضربهم بسيفه حتى فرقهم عنه ، ثم جاءته كتيبة اخرى فعل فيها ما فعل بغيرها ، ومضى يقول : انهم تجمعوا عليه مرارا وعلي يصدهم عنه حتى قتل عشرة من بني سفيان بن عوف ، فنزل جبرائيل على رسول الله (ص) وقال له يا محمد : إن هذه المواساة لقد عجبت منها الملائكة ، فقال وما يمنعه من ذلك هو مني وأنا منه ، فقال جبرائيل وأنا منكما وسمع في ذلك اليوم نداء من السماء لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي ، فسئل رسول الله عن ذلك فقال هذا جبرائيل .

وقد روى هذا الحديث جماعة من المحدثين وهو من الاخبار المشهورة ، وأضاف إلى ذلك في شرح النهج قوله : وقد وقفت عليه في بعض نسخ مغازي ابن اسحاق ، وسألت عنه شيخي عبد الوهاب بن سكينة ، فقال هو من الاخبار الصحيحة ، فقلت له : فما بال الصحاح لم تشتمل عليه ، فقال أو كلما كان صحيحا تشتمل عليه الصحاح : لقد اهمل جامعو الصحاح كثيرا من الأخبار الصحيحة[1] .

وممن روى حديث لا سيف إلا ذو الفقار صاحب الرياض النضرة في المجلد الثاني من رياضه ، وعلي بن سلطان في مرقاته ، وأخرجه أحمد في مناقبه والهيثمي في مجمع الزوائد والطبري وغيره[2] .

---

(١) انظر شرح النهج لابن ابي الحديد جـ١ ص ٣٧٢ معركة أحد وقد روي حديث لا سيف الا ذو الفقار الطبري في تاريخه ايضاً

(٢) انظر فضائل الخمسة جـ ١ ص ٣٤٣ .

وقد اتفق المؤلفون في سيرة الرسول أن عليا (ع) قد وقف في ذلك اليوم موقفا لم يحدث بمثله التاريخ لأحد من الناس فقد نسي نفسه وكل شيء يتعلق بحياته ليسلم الرسول ، ولقد كانت الدماء على كتفيه كأكباد الإبل وسيفه في يده كالإعصار لا يدنو منه فارس إلا مزقه ولا كتيبة إلا فرقها وجندل أبطالها

وكان الحمزة في وسط المشركين كالمارد يهد الناس بسيفه هدا وهم يفرون من بين يديه كما جاء في رواية ابن كثير في البداية والنهاية .

وفي رواية الطبري أنه قد تفرق عن رسول الله اصحابه من المهاجرين والانصار ، وكان ممن تفرق عنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وأضاف الأستاذ هيكل في كتابه حياة محمد أبا بكر ايضا .

وحدث الطبري في تاريخه عن محمد بن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أن أنس بن النضر قال لعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والانصار وقد القوا بأيديهم ناحية : ما يجلسكم هنا فقالوا لقد قتل محمد رسول الله . فقال وما تصنعون بالحياة من بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله فلم يتحركوا ، ثم تركهم واستقبل القوم فقاتل حتى قتل .

وأضاف إلى ذلك الطبري في ص ٣٠ من الجزء الثالث من تاريخه أنه فشا في الناس أن محمدا قد قتل فقال بعض من فرّ عنه والتجأ إلى الصخرة فوق الجبل وفيهم عمر بن الخطاب وأبو بكر : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان يا قوم أن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويقتلوكم ، فقال لهم انس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، ثم تركهم وقاتل حتى قتل بعد أن اصيب بسبعين [illegible] بدنه ، ولولا أن أخته عرفته لم يعرفه أحد من المسلمين ، وبهذه [illegible] الآية كما يدعي بعض المفسرين : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا .

هذا وان رواية الطبري لا تنص على أن أبا بكر كان من الفارين والمنهزمين في تلك المعركة ، كما وأنه لم يرد له ذكر مع المقاتلين والمدافعين عن النبي في الطبري وغيره من المجاميع غير أن ابن أبي الحديد في المجلد الثالث من شرح النهج روى أنه خلال الجولة الأولى مع المشركين برز عبد الرحمن بن أبي بكر وطلب البراز ، وكان أبو بكر إلى جانب النبي (ص) فقال انا له يا رسول الله . فالتفت اليه وقال له : اجلس ومتعنا بحياتك يا أبا بكر .

اما عثمان فقد روى الطبري وغيره أنه فرّ هو ورجلان من الانصار وهاموا على وجوههم من الخوف ، ولما رجعوا إلى المدينة بعد رجوع النبي إليها ، قال لهم لقد ذهبتم بها عريضة .

ومما يدل على أن أبا بكر كان مع الفارين عن الرسول ما جاء في شرح النهج المجلد الثالث قال حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه في داره بدرب الدواب في بغداد سنة ثمان وستمائة وقارىء يقرأ عنده مغازي الواقدي فقرأ حديث الواقدي الذي يقول فيه محمد بن سلمة : سمعت اذناي ورأت عيناي رسول الله يوم أحد وقد انكشف عنه الناس إلى الجبل وهو يدعوهم وهم لا يلوون على شيء سمعته يقول : إلي يا فلان إلي يا فلان أنا رسول الله فما عرج عليه أحد منهما ومضيا مع من مضى من الناس ، فأشار ابن معد إلي وقال اسمع . فقلت وما في هذه قال هذه كناية عنهما ، قلت ويجوز أن لا يكون عنهما : ولعله عن غيرهما ، فقال : ليس في الصحابة من يحتشم ويستحيا من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب فيضطر القائل إلى الكناية عنه إلا هما ، قلت هذا وهم . فقال دعنا من جدلك ومنعك . ثم حلف بالله أن الواقدي ما عنى غيرهما ، ولو كان غيرهما لذكره صريحاً ، وبان في وجهه التنكر من مخالفتي .

وعلى أي الأحوال فقد نص اكثر المؤرخين والمحدثين على أنه لم يثبت مع النبي في أحرج ساعات المحنة إلا علي والحمزة ونفر قليل من المهاجرين والانصار ، واستطاع ومن معه أن يفرقوا تلك الجموع التي تدفقت على النبي (ص) ولم يكن لها حاجة بغيره ، ورسول الله يدعو الناس ويقول الي عباد الله

يكرر النداء تلو النداء ، فلم يستجب اليه أحد .

وقـال الأستاذ هيكـل ، وكان أكبـر همّ كل مسلم أن ينجـو بنفسه إلا من عصم الله أمثال علي بن أبي طالب .

وجاء في شرح النهـج عن الواقـدي أنه روى كثـير من المحدثـين أن النبي حـين سقط ثم أقيم قال لعـلي (ع) اكفني هؤلاء الجماعـة فحمل عليهم وقتـل منهم عبد الله بن حميد من بني أسد بن عبد العـزى ، ثم حملت على النبي كتيبـة أخـرى فقـال لعـلي : اكفنيهم فحمـل عليهم وفـرقهم وقتـل منهم أميـــة بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ، وظل علي ومن معه يدافعـون ويجالـدون القوم حتى فرقوهم عن النبي ونجا بنفسه فاتجه إلى صخرة في أعلى الجبـل كان قـد فر إليهـا جمـع كبير من المسلمـين واعتصموا بهـا ، وهم على يقـين من أن النبي قـد قتـل وأصبحـوا لا يفكرون إلا في استجـداء عطف أبي سفيـان وقريش كـما ذكـرنـا ، وحينما رأوه متجها نحوهم ظنوه أحد القرشيـين قد أقبـل يتتبع فلولهم ، فـوضع رجل سهما في قوسه وأراد أن يرميه ، ولكنه فوجىء بصوت الرسول يرن في اذنيه ويحك أنا رسول الله فكانت مفـاجأة سـارة للجميع حيث تبينـوا أن رسول الله لا يزال على قيد الحياة كما يدعي المؤرخون .

وفقد النبي (ص) في الجولة الثانيـة التي استعاد المشـركون فيهـا نشاطهم ومعنـوياتهم عـددا كبيرا من ابـطال المسلمين كـان من أبـرزهم الحمـزة بن عبـد المطلب الذي كان يصفه المؤرخون إذا برز إلى الحرب لا تكاد العين تدرك ذؤابة سيفه وهو ينقض من كفه على الـرؤوس والهامـات كالبـرق الخاطف يهـد الناس هدا ، وفيما هو يصول ويجـول يقد الـرجال ويمـزق الأوصال لا يثبت لـه أحد إلا أراده صريعا ممزق الأوصال ، وإذا بالعبد الأسود الذي بذلت له هند أم معاويـة كل شيء وأغرته بالأموال ليقتل لها الثلاثة محمدا وعليا والحمزة أو أحـدهم إذا لم يستطع قتل الجميع لتشفي حقدها على هـذا البيت ولتدرك ثـأرها بـأبيها وأخيهـا وعمهـا وولدهـا حنظلة وغيـرهم من بني أمية وعبـد شمس الـذين تـركهم عـلي والحمزة صرعى على رمال بدر تنهشهم سباع البر ووحوش الفـلاة ، ولكن العبد الأسود كان يدرك مدى الصعوبات التي تحيط بقتـل محمد وعـلي لأن محمدا كـان

محاطا بأصحابه ، وعليا كان في ساحة الحرب في منتهى الحذر واليقظة حتى لكأنه يبصر من كل جهاته ، ومناها بقتل الحمزة وظلت تنتظر ساعة التنفيذ بعد أن اغدقت عليه العطاء ، ولم يكن للعبد مهمة سوى قتل الحمزة إن أتاحت له الظروف ذلك فكمن له من وراء صخرة ، فمر الحمزة كعادته يطارد أبطال قريش وفرسانها فحانت للعبد فرصة فهز حربته ورماه بها فأصابت منه مقتلا ، فاستدار الحمزة بوجهه ينظر من اين أتته الطعنة الغادرة ، وجسده يكاد يضيق بآلامه ولكنه تحامل على قدميه وأكرههما على المسير صوب قاتله فارتعدت فرائص القاتل حين رآه يتحرك نحوه ، ولكن قدمي الحمزة نبت عن المسير ولم يعد يُطيق حراكا وفارق الحياة .

وقال الأستاذ عبد الفتاح وهو يتحدث عن موقف أبي سفيان وزوجته هند بنت عتبة بن عبد المطلب : قال وقد ورث الأحفاد مع الأحقاد صناعة الأجداد لأنا لا نلبث أن نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن أو أكثر من الزمان الحفيد يزيد بن معاوية يستعيض عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدق الحسين الذبيح ويتلهى بنثر ثناياه كأنما المثلة كانت لأسرته صناعة وكأنما فيها الامعان كان لهم ملهاة أي ملهاة . ومضى يَقول . ولعل شيخ بني أمية لو تُرك وحيدا وشأنه إذ ذاك لكان انحنى على الارض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لأنيابه عساه يستسيغ بعض ما لفظت زوجته .

وقد تحدثنا في سيرة المصطفى عن مقتل الحمزة وما تلاه من أحداث وعن موقف النبي من ذلك بما يغنينا عن اعادته في هذا الكتاب .

وجاء في سيرة ابن هشام أن رسول الله لما انتهى إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ ذرقته من المهراس وجاء بها إلى رسول الله وغسل وجهه ورأسه من الدماء التي نزفت من جروحه .

وروى ابن الأثير أن عليا جعل ينقل الماء ويغسل جروح النبيّ (ص) فلم ينقطع الدم فأتت فاطمة الزهراء فعانقته وبكت وعالجت له جرحه حتى انقطع الدم .

ويدعي الواقدي كما جاء في شرح النهج أن فاطمة الزهراء خرجت من المدينة مع بعض نساء المسلمين ومعهن محمد بن سلمة وكن أربع عشرة امرأة ، ولكن رواية المفيد تنص على أنه لما رجع النبي إلى المدينة استقبلته فاطمة ومعها اناء فيه ماء فغسل النبي وجهه ، وظاهر هذه الرواية يدل على أنها لم تخرج مع من خرج من النساء إلى أحد ، والرواية الأولى أقرب إلى الاعتبار لأن خبر هزيمة المسلمين قد بلغ المدينة . وشاع نبأ مقتل النبي في المدينة وقد سمعته فاطمة بلا شك في ذلك لأنها كانت تتبع أخبار المعركة ، ومن المستبعد أن تسمع بمقتل أبيها وعمها الحمزة ولا تخرج مع النساء لتنظر ما جرى على أبيها وبعلها وبقية المسلمين والأمر في ذلك سهل ما دام لكلا الأمرين وجه معقول ومقبول .

ومهما كان الحال فقد قتل علي (ع) وحده من فرسانهم وأبطالهم الاشداء الذين كانوا يبرزون إليه اثني عشر رجلا كما جاء في شرح النهج عن الواقدي عدا من قتل من غيرهم .

ولما رجع النبي (ص) بعد دفن القتلى ومعه علي (ع) وقد خضب الدم يده إلى كتفه فتناولت منه فاطمة ذا الفقار فقال لها اغسليه فقد صدقني اليوم وفي بعض المرويات أنه انشأ يقول .

افاطم هاك السيف غير ذميم	فلست برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد اعذرت في نصر أحمد	وطاعة رب بالعباد عليم
اميطي دماء القوم عنه فإنه	سقى آل عبد الدار كأس حميم

وقد عرض الأستاذ الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة معركة أحد وتجاهل فيها علي بن أبي طالب (ع) الّذي لولاه لم يبق للإسلام اسم ولا رسم كما يستفاد من المجاميع التي تحدثت عن معركة أحد وما جرى فيها من أحداث وذكر رواية مسلم في صحيحه التي يقول فيها : إنه لم يبق مع النبي إلا سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، ومضى يقول : إن الأنصار السبعة قاتلوا حتى قتلوا ، ولم يصرح باسم الرجلين من قريش مع أن جميع المصادر التي لا بد لكل كاتب أن يعتمد عليها تنص على أن عليا (ع) قد جاهد جهادا لم يشهد له

التاريخ مثيلا وتعدد مواقفه وتضحياته في تلك المعركة ، ولكن الغزالي لم يصرح في كتابه باسمه حتى لا تكون له ميزة على غيره من وجوه المهاجربن الذين فروا عن الرسول واعتصموا بالجبال ولم يبق لديهم إلا أن يتوسلوا بالمنافق ابن أبي سلول ليأخذ لهم أمانا من أبي سفيان ، وكان عليه أن يكون مع الواقع ولو لم يكن لمصلحة من يحب ويهوى .



علي في غزوة الاحزاب

لقد كانت غـزوة الأحزاب في اواخـر السنة الخامسة لهجـرة النبي (ص) بعد غزوة احـد بسنتين تقـريباً وبـين الغزوتـين غزوات وأحـداث ولواء النبي في الغالب بيد علي (ع) ، ولم تتعرض الدعوة أو رجالها لأزمة من الأزمات إلا كان علي في طليعة العاملين على كشف غمها وكربهـا عن النفوس والقلوب ، ومـا من مـوقف يحتـاج إلى البـطولات والتضحيـات حـين تمـلأ الخشيـة والـرهبة نفـوس الشجعان والابطال الا تجلى في مواقف علي وغزواته وحروبه .

لقد اجتمعت قريش وأحابيشها وأحـلافها من عـرب الحجاز ويهـود يثرب لغزو محمد في دار هجرته حتى لا تقوم للاسلام بعد ذلك قائمة وكان من أمـرهـم كما جاء في المؤلفات في السيرة والتـاريخ أن جمـاعة من زعـماء بني النضير الـذين اجـلاهـم النبي عن المـدينـة وصـادر ممتلكـاتهم كسـلام بن أبي الحقيق وحيي بن اخطب وهودة بن قيس وغيرهم وفدوا عـلى قريش في مكـة ، واتفقوا بعـد حوار طويل على غزو المسلمين بعد أن يجمعوا لهذه الغاية اكبر عدد ممكن ، فـاستثيرت قـريش بهذا التكتـل الجديـد ، وظنت أن هذا التكتـل الجديـد سيحقق لها مـا لم تستطع تحقيقه في بدر وأحد .

وخرج جماعة من اليهود والقرشيين يتجـولون بـين أحياء العـرب يحذرونهم من محمد إذا استتب له الأمر فاستجاب لهم عدد من الأعراب ، وخرجت قريش من مكة بقيادة أبي سفيـان في اربعة آلاف مقـاتل بينهم ثـلاثمائـة فارس وعقـدوا لواءهـم في دار الندوة ، وخرج من سليم سبعمائـة بقيادة سفيـان بن عبد شمس

حليف حرب بن أمية ، وخرج بنو أسد وفزارة في ألف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن كما خرج من اشجع وبني مرة بن عوف عدد كبير حتى بلغ مجموعهم عشرة آلاف مقاتل ، ولما بلغ خبرهم النبي (ص) عن طريق جماعة من خزاعة وفدوا عليه وأخبروه بما اجتمعت عليه قريش وأحلافها جمع المسلمين وحثهم على الجهاد والصبر والاستعداد لمقابلة الغزاة ، واستشارهم بما يجب اتخاذه من التدابير حتى لا تتعرض المدينة للاحتلال ، وكان الرأي الأخير الذي ابداه سلمان الفارسي قد نال استحسان الجميع ، لأن عملاً من هذا النوع لا بد وأن يعرقل تقدم الغزاة ويخفف من اخطار المجابهة بين الفريقين .

وجاء في المرويات عن هذه الغزوة أن المسلمين قد اعجبوا بسلمان وأكبروه على هذا التدبير وتقرب إليه المهاجرون والانصار ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الانصار سلمان منا ، وبدا عليهم الحماس في تلك اللحظات الحاسمة لتكريم سلمان وتعظيمه فأعجب النبي بذلك واشترك معهم في هذا التكريم فقال كلمته المشهورة : سلمان منا أهل البيت ، وفي مناسبة ثانية قال مخاطبا المسلمين : لا تقولوا سلمان الفارسي ولكن قولوا سلمان المحمدي .

ولعله أراد بذلك ان يفهم المسلمين أن الأنساب والأحساب لا ترفع من شأن الانسان ، إنما الذي يرفع من شأنه هو العمل الطيب والجهد المخلص ، ولولا اخلاص سلمان وايمانه العميق بالاسلام وتعاليمه وتفانيه في سبيله لكان كغيره من الناس .

وأقبل المسلمون جميعا ومعهم النبي (ص) يعملون برأي سلمان يحفرون خندقا يحيط بالمدينة ويحول بين الغزاة وبين دخولها بتلك السرعة .

وفي تاريخ الطبري وغيره أن النبي قد حدد لكل عشرة من المسلمين أربعين ذراعاً وكان هو كأحدهم يحفر بنفسه ويجهد نفسه في العمل ، وأنسل جماعة من المنافقين إلى بيوتهم ، وبعضهم جاء يطلب الاذن من النبي ويتذرع بأسباب لا تمت إلى الواقع بصلة فأنزل الله فيهم بعض الآيات كما جاء في المؤلفات في السيرة النبوية .

وأقبلت قريش في جموعها المتدفقة التي تفوق عدد المسلمين بأكثر من ثلاث مرات وعدتها التي لا يملك المسلمون مثلها يملأها الغرور والخيلاء وهي تحسب أن محمداً وصحبه لا يثبتون لها ساعات قلائل وإذا بها تجد بينها وبين المسلمين حاجزاً لا يمكن اجتيازه إلا بعد جهود شاقة لا سيما وأن أبطال المسلمين قد وقفوا بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه باجتياز ذلك الحاجز ، فوقفوا امامه مذهولين بكل جموعهم وفرسانهم ، فأخذوا يتراشقون بالنبال والسهام ولا يجرأون على العبور إلى ما وراءه ، وأفلح أبو سفيان بن حرب في استجلاب بني قريظة إلى جانب قريش بعد حوار طويل وأخذ ورد واشتد الأمر على النبي بعد انضمام اليهود إلى الغزاة وخاف المسلمون على ذراريهم ونسائهم وجعل المنافقون يعيشون ويبثون الخوف والذعر في المدينة ، وقد وصف الله سبحانه موقف المسلمين والمشركين في ذلك اليوم بقوله : وإذ جاؤ وكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .

واستطاع النبي بحكمته وسلامة تدبيره أن يفرق بين الغزاة وبين قريظة بواسطة نعيم بن مسعود في حديث طويل لا يعنينا ذكره في هذا الكتاب .

وضاق بقريش امرها وخشي قادتها من تفكك تلك الجموع لو بقي الموقف عند هذا الحد من المناوشات التي لا تغنيهم شيئاً فأقبل عمرو بن ود العامري وكان يعادل ألفاً من الابطال كما يصفه بعض المؤرخين ، وكان قد اشترك في معركة بدر الكبرى وأصيب بجروح بالغة منعته من الاشتراك في معركة احد كما يدعي الطبري وغيره .

وأقبل يوم الخندق هو وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب بن مرداس اقبلوا على خيولهم يستنفرون جيشهم للحرب واتجهوا نحو الخندق ليعبروا منه إلى الجانب الآخر حيث يرابط المسلمون ، وكان علي (ع) وجماعة من المسلمين يرابطون على الخندق في جهتهم ، وظل القوم يداعبون خيولهم ويروضونها على العبور لفترة من الزمن

حتى إذا وجدوا مكانا يمكن للخيل أن تجتازه حركوها وعبروا إلى الجهة الثانية ، فأقبل علي ورابط في ذلك المكان حتى لا يقتحمه أحد غيرهم ، وأقبل عمرو بن ود يدعو المسلمين إلى البراز ، وكأنما كلماته كانت نداء إلى الموت فلم يجبه أحد ، ولما سمعه علي ينادي ويتحدى المسلمين ترك مكانه وأقبل مسرعاً نحو النبي وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، فقال له النبي (ص) معرضا عنه : أنه عمر يا علي ، وعاد الرجل يهتف بالمسلمين وهم سكوت لا يجيبون ، فتقدم علي يلتمس الاذن من النبي بمبارزته ، فأمره بالجلوس فأطاع وبوده لو يجد سبيلا لانتزاع الاذن من النبي ، ومضى عمرو بن ود يكرر النداء والتحدي للمسلمين ، ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ، أفلا يحب أحد منكم أن يذهب اليها .

هذا والنبي ينظر في وجوه المسلمين ويحثهم على مبارزته وهم يرتعدون من الخوف ، وعاد ابن ود الى هتافه وجعل ينشد كما في رواية الحلبي في سيرته والمفيد في ارشاده :

ولقد بححت من النداء   بجمعهم هل من مبارز
أني كذلك لم أزل   متسرعا نحو الهزاهز
أن الشجاعة في الفتى   والجود من خير الغرائز

وأبى النبي أن يأذن لعلي وتمنى على المسلمين أن يبارزه أحد منهم وقال : من يبرز له وأنا الضامن على الله له الجنة فلم يرتفع لأحد منهم صوت ، فأذن عند ذلك لعلي (ع) وأعطاه سيفه وألبسه درعه وعمامته ورفع كلتا يديه وقال : اللهم أنك اخذت عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أحد وهذا علي أخي وابن عمي فلا تدعني فرداً وأنت خير الوارثين ، فبرز إليه علي (ع) وهو يقول :

لا تعجلن فقد أتاك   مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والـ   ـصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن اقيم   عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى   صيتها بعد الهزاهز

ووقف لـه عمرو بن ود بجبـروته وكبـريـائـه معتـزا ببـطولاتـه في المعـارك والحروب تيّاها بصيته الذاهب بين أحياء العرب يرويه رواتهم في كل مكان .

وقف امام علي مستهينا به ينظره بعين ساخرة وفي نظرته غرور وتيه وكبرياء ويقول له بعد أن انتسب إليه : ليبرز إلي غيرك يا ابن أخي من اعمامـك من هو اشـد منك ، فـإني اكره أن أقتلك لأن أبـاك كان لي صـديقاً وكنت لـه نـديمـا ، وأضاف إلى ذلك الرواة أن علياً قال له : يا عمرو أنـك تقول : مـا دعاني أحـد إلي خلال ثلاث إلا وأجبته ولو إلى واحد منها ، وأنا أدعوك إلى الاسلام فضحك منه وقال دع عنك ذلك فإني لا أترك دين الآبـاء والأجداد ، فقـال : ادعوك لأن ترجع بهذا الجيش الذي معك ، فقال لا أدع العرب تتحدث بفراري ، فعندهـا قـال له أمـير المؤمنين (ع) : أمـا إذا أبيت الاسلام والـرجوع بمن معـك فـإني ادعوك إلى النزال والحرب ، فقال له : يا ابن أخي ليبـرز إلي من هو أسن منـك فإني لا أحب أن أقتلك ، فقال له علي ولكني أحب أن أقتلك . فاستشاط غضبا ونزل عن فرسه وعقره وحمل على علي وضربه على رأسه فاستقبلها بالدرقة فقـدها السيف ونفذ منها إلى رأسه فشجه وبقي محتفظاً بثباته وتوالت عليه الضربات وهو يحيد عنها ، ثم كرّ عليه علي (ع) فضربه على حبل عاتقه ضربة كان دويها كالصاعقة ارتج له العسكران ، فسقط يخور بدمه كـالثور وارتفعت غبـرة حالت بينهـما وبين الجيشين .

وجاء في بعض المؤلفات في سيـرة النبي عن جابـر بن عبد الله الانصـاري أنه قال : كنت تبعت علياً حينما برز لعمرو بن ود لانظر ما يكون من أمرهمـا ، فلما ضربه علي (ع) ثارت غبرة شديدة حالت بيني وبينهما غير أني سمعت تكبيراً فكبر المسلمون عند ذلك وعلمت أن علياً قد قتله ولما قتل انهزم الذين كانوا معه واقتحمت خيلهم الخندق ، فتورطت بنوفل بن عبد بن المغيرة فـرسه في الخنـدق فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال يا معشر العـرب قتلة اجمل من هـذه فنزل إليـه علي فقتله كما جاء في رواية الطبري .

وروى ابن هشـام في سيرتـه عن الزهـري أنه كـان مع عمـرو بن ود ولده سحـل فقتله علي بن أبي طـالب ، ولحق بهبيرة بن أبي وهب وهـو راجل وهبيـرة

فارس ، فضربه بالسيف فأصاب قربوس سرجه فسقطت درعه ، وانهزم عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، وأصيب منبه بن عثمان بن عبيد الله بسهم فمات منه بمكة كما روي ذلك عن الطبري ايضاً .

وقال المفيد في الارشاد : أنه لما قتل علي عمرو بن ود أقبل نحو رسول الله ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب هلا سلبته درعه فإنه ليس في العرب مثلها ، فقال أني استحييت أن أكشف سوأته .

وجاء في المجلد الثاني من فضائل الخمسة من الصحاح الستة عن المجلد الثاني من مستدرك الصحيحين عن سفيان الثوري بسنده عن النبي (ص) أنه قال : لمبارزة علي لعمرو بن ود يوم الخندق افضل من اعمال امتي إلى يوم القيامة .

وروى ذلك الخطيب البغدادي في المجلد الثالث عشر من تاريخه كما ذكره بنصه الرازي في تفسير سورة القدر ، وفي الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال عن أبي حاتم وابن مردوية وابن عساكر أن الله كفى المؤمنين القتال بعلي[1] .

وروى المفيد في ارشاده عن قيس بن الربيع عن أبي هارون السعدي أنه قال : اتيت حذيفة بن اليمان فقلت له : يا أبا عبد الله إنا لنتحدث عن علي ومناقبه فيقول لنا اهل البصرة : أنكم تفرطون في علي فهل أنت محدثي بحديث فيه ، فقال حذيفة : يا أبا هارون وما تسألني عن علي فوالذي نفسي بيده لو وضعت جميع اعمال اصحاب محمد في كفة الميزان منذ بعث محمد إلى يوم القيامة ووضع عمل علي في الكفة الأخرى لرجح عمل علي على جميع اعمالهم ، فقال هذا الذي لا يقام له ولا يقعد ولا يحمل ، فقال حذيفة : يا لكع وكيف لا يحمل وأين كان فلان وفلان وحذيفة وجميع اصحاب محمد يوم عمرو بن ود العامري ، وقد دعا إلى البراز فأحجم الناس كلهم ما خلا علياً ، فإنه برز إليه وقتله الله على يده ، والذي نفسي بيده لعمله ذلك اعظم اجراً من أعمال

---

(١) انظر فضائل الخمسة ج٢ ص ٣٢٣ .

اصحاب محمد إلى يوم القيامة .

وكل باحث يراقب موقف المسلمين وتخاذلهم ، والنبي يستنجد بهم ويحثهم على البراز وهم يرتعشون من الخوف ويراقب موقف المشركين واعتدادهم ببطلهم الذي طبق صيته الجزيرة بكاملها ، وكانوا على ثقة في أن هذا الشاب الذي فعل الاعاجيب في بدر وأحد سيلاقي مصيره المحتوم على يد فارسهم عمرو بن ود العامري ، وحتى المسلمين انفسهم قد غلبهم اليأس وأيقن الكثير منهم بأن علياً سيكون ضحية جديدة في عداد الضحايا الذين سبقوه على يد فارس قريش والعرب جمعاء وستكثر الضحايا منهم من بعده :

ولكن الله سبحانه بدد حدسهم وخيب آمال المشركين وأمانيهم ووجد الجميع أنفسهم تجاه حدث لم يكن بالحسبان وتغيرت بعده المقاييس فأحس المسلمون بالانفراج وعاد الأمل بالنصر إلى نفوسهم من جديد ، كما انهارت معنويات الغزاة بقتله وتضاءلت آمالهم بالانتصار على محمد وأصحابه ، كل من راقب الموقفين من ناحية ما يترتب عليهما من الآثار والنتائج لا يكون بعيدا عن الواقع إذا وصف موقف علي (ع) في ذلك اليوم بما وصفه به حذيفة وأمثاله .

ولما نعي عمرو بن ود إلى أخته عمرة قالت : من قتله ومن الذي اجترأ عليه ؟ فقيل لها : قتله علي بن أبي طالب . فقالت : لقد قتل الابطال وبارز الأقران وكانت ميتته على يد كفء كريم من قومه وأنشأت تقول :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكي عليه دائم الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به ... قد كان يدعى أبوه بيضة البلد
من هاشم في ذراها وهي صاعدة ... إلى السماء تميت الناس بالحسد
قوم أبا الله إلا أن تكون لهم ... كرامة الدين والدنيا بلا لدد
يا أم كلثوم ابكيه ولا تدعي ... بكاء معولة حرى على ولد

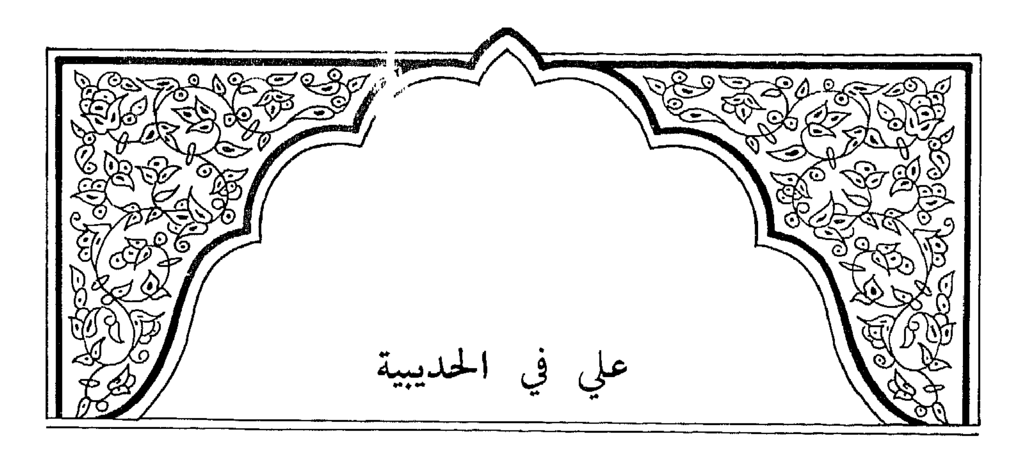
وانطوت بقتله أسطورة البطل طوى علي ذكره مع ما طواه من الشجعان والابطال ، كما انطوت النفوس على الحسد لهذا الشاب الذي لم يعد له مثيل بين

أبطال العرب ، وقد رأوه في بدر يسبق جميع المسلمين إلى رؤوس كبار قريش وأبطالها ، وفي أحد ثبت كالجبل الراسخ أمام ذلك السيل الذي تدفق للقضاء على محمد بن عبد الله وقد فرّ عنه كبار الصحابة وتركوه في متناول تلك الحشود لولا علي الذي وقف في وجهها وردها تتعثر بالخيبة والفشل ، وفي الخندق وحده الذي ادخل الرعب على الأحزاب وبدد آمالهم وأحلامهم بتلك الضربة التي اطاحت بفارس العرب ، وكان النصر حليفه في جميع مواقفه وغزواته ، والنبي (ص) مع ذلك يكثر من الحديث عن فضله ومكانته عند الله حتى لقد حسده اكثر الصحابة وكانوا يتصيدون له الهنات ليلصقوها به ، فلقد خرج النبي في بعض الأيام ومعه الزبير يسيران ، فالتقيا بعلي في طريقهما فضحك له النبي وتبسم له علي ومضى لشأنه فثقل على الزبير أن يرى لعلي هذه المكانة في نفس الرسول (ص) فقال لرسول الله : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، ولم يخف على النبي ما انطوت عليه نفس الزبير من وراء هذه الكلمات ، فرد عليه بقوله : أنه ليس بزهو ولتقاتلنه وأنت ظالم له .

ومضت الأيام والأعوام الطوال ومرت أحداث وأحداث شهدها الزبير ولم يغب عنها عليّ عليه السلام ولا وقف الزبير في غير الاتجاه الذي اختاره لنفسه علي (ع) وظلت نبوءة الرسول في طي الغيب إلى أن كانت المعركة التي قادها طلحة والزبير وعائشة عندما لاذ الناس بأمير المؤمنين وولوه مقاليد السلطة هناك استدعاه عليّ عليه السلام والمعركة في أشدّ مراحلها وذكره بمقالة النبيّ (ص) فعاد شبحها إلى ذهنه واهتز لها كيانه وكاد أن يتراجع عن الحرب لولا أن ولده عبد الله قد استحوذ عليه واختار له المصير السيّء الذي انتهى إليه .

ومهما كان الحال وبالرغم من أن المشركين بعد مقتل عمرو بن ود ورفاقه قد أصيبوا بنكسة قاسية لم تكن في حسابهم من قبل وانهارت معنوياتهم إلا أنهم ظلوا يصطنعون التجلد والثبات ، ويفكرون بمهاجمة المدينة مهما كانت النتائج ولكن الله سبحانه كان لهم بالمرصاد فأرسل عليهم الصواعق والرياح العاتية فاقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم وبددت جميعهم فاستبد بهم الخوف والقلق واستعدوا للرحيل تاركين اكثر امتعتهم في الصحراء لا يطمعون بغير النجاة

وأنزل على رسوله الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ .



علي في الحديبية

بعد ست سنوات من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، وفي مطلع ذي القعدة من السنة السادسة كما يدعي المؤرخون وبعد أحداث وحروب دامية مع قريش واليهود حقق فيها النبي (ص) تلك الانتصارات التي دفعت بالدعوة اشواطاً بعيدة إلى الامام وأصبح المسلمون فيها من اعظم القوى الضاربة في الجزيرة واتجه اكثر عرب الحجاز إلى الدين الجديد . هذا والمسلمون يتحرقون لزيارة الكعبة ويتذكرونها كلما وقفوا في صلاتهم متجهين نحوها ، في ظل هذه الظروف بالذات عزم النبي (ص) على اداء فريضة الحج بأمر من الله سبحانه ، وسرى نبأ هذه الرحلة في انحاء المدينة وجوارها كالبرق الخاطف ، واتخذ النبي تدابير تتسم بالعمق وبعد المدى ، فدعا جماعة من غير المسلمين ليكونوا معه في تلك الرحلة وأرسل رسله إلى العرب من مختلف القبائل ليظهر لهم أن الذين يحاربونه من قريش لا يحاربونه لأجل هبل واللات والعزى بل لأنه يحارب الاستغلال والتسلط على الضعفاء والفقراء ويدعو إلى المساواة في جميع الحقوق والواجبات .

وكان يتمنى أن يدخل مكة معتمراً في الأشهر الحرم بأكبر عدد ممكن من المسلمين وغيرهم ، ولكن المؤلفين في سيرة الرسول يؤكدون بأن العرب الذين كانوا لا يزالون على شركهم لم يتجاوبوا معه ، وخرج بمن معه من المسلمين وكانوا الفا وأربعمائة أو أكثر من ذلك بقليل ومعهم السيوف في اغمادها وأعلن في اكثر انحاء الجزيرة بأنه لا يريد حربا ولا قتالا .

وجاء في رواية المفيد في الارشاد أنه أعطى لواءه لعلي (ع) كما كان يعطيه إياه في اكثر غزواته وحروبه وساق معه من الهدي سبعين بدنة وخرج من المدينة يتقدمهم على ناقته الغضوب ومعهم السيوف في اغمادها ومضى في طريقه باتجاه مكة ، ولما بلغ خبره قريشا اجتمعت كلمتهم على منعه من دخول مكة مهما كلفهم ذلك من جهد وتضحيات وأرسلوا خالد بن الوليد على رأس جماعة من فرسانهم ليقطع عليه الطريق ، ولما بلغه موقفهم قال : يا ويح قريش لقد اكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فإن هم اصابوني كان الذي أرادوه وأن اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين فما تظن قريش فوالله لا ازال اجاهد على الذي بعثني الله به أو تنفرد هذه السالفة[1] .

وجاء في رواية ابن إسحاق أن قريشاً اضطرته أن يعدل عن الطريق المؤدي إلى مكة وانحرف به رجل من اسلم إلى طريق وعرة المسالك خرجوا منها إلى ثنية المراد مهبط الحديبية ، ورجعت قريش بعد ذلك إلى مكة لتدافع عنها فيما لو أراد محمد الدخول إليها من تلك الجهة ، وحاولت اكثر من مرة التحرش بالمسلمين ومهاجمتهم بقيادة خالد بن الوليد ، ولكن عليا وجماعة من المسلمين الاشداء كانوا يصدون تلك الغارات ويفوتون على قريش جميع محاولاتها .

ويدعي ابن إسحاق بروايته عن ابن عباس أنها أرسلت خمسين رجلاً من أبطالها الاشداء ليصيبوا جماعة من أصحاب النبي (ص) فأسرهم المسلمون وجاؤوا بهم إلى النبي فأطلق سراحهم .

وظل النبي مصرا على دخول مكة كما أصرت قريش على منعه وبعد أن رأت أن أصحابه مصممون على القتال فيما لو اضطرتهم قريش لذلك وكلهم يفدون محمدا بالمهج والأرواح ادركت أنها لا تستطيع القضاء على محمد إلا بعد القضاء على من معه من المسلمين ، وذلك يكلفها ما لا تطيق حمله ، لا سيما وقد بلغها أن المسلمين قد بايعوا النبي (ص) في ذلك الوادي تحت الشجرة على

---

(١) السالفة صفحة العنق ، ويعني بذلك انه لا يزال يجاهد حتى الموت .

الموت فيما لو أرادت قريش القتال ، وإلى تلك البيعة تشير الآية التالية كما رجح ذلك جماعة من المفسرين :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ .

واضطرت قريش بعد ذلك الموقف الحازم من محمد وأصحابه وكان آخر من أرسلتهم إلى النبي في الحديبية سهيل بن عمرو وحويطب من بني عبد العزى وجرت محاولات كثيرة بين الطرفين كان سهيل يراجع قريشا خلالها فيما يدور بينه وبين النبي من عروض واقتراحات ، ثم يعود إليه .

ويبدو مما جاء في صحيح الترمذي وكنز العمال وخصائص النسائي وتاريخ بغداد أن المفاوضة لم تكن بخصوص دخول النبي لمكة في ذلك العام أو خلافه بل تناولت أموراً أخرى لصالح المسلمين كما طالبت قريش بأمور لصالحها . ففي صحيح الترمذي بسنده إلى ربعي بن خراش أن علي بن أبي طالب قال : لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو فقالوا :

يا محمد خرج إليك ناس من ابنائنا واخواننا وارقائنا وليس لهم فقه في الدين وإنما خرجوا فرارا من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا .

فقال : إذا لم يكن لهم فقه في الدين كما تزعمون سنفقههم فيه . وأضاف إلى ذلك يا معشر قريش لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه بالايمان ، فقال له أبو بكر وعمر والمشركون : من هو ذلك الرجل يا رسول الله ؟ فقال هو خاصف النعل ، وكان قد اعطى نعله لعلي يخصفها له وروى هذا الحديث بنصه النسائي في خصائصه والحاكم في مستدركه ، ولكن رواية النسائي والحاكم تنص على أن النبي حينما طلب منه المشركون ارجاع من فروا إليه من غلمانهم وأبنائهم التفت إلى أبي بكر وعمر وقال لهما ما تقولان . فقالا صدق الرجل يعنون سهيل بن عمرو . فتغير وجه النبي والتفت إلى الوفد وقال لن تنتهوا يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالايمان يضرب رقابكم ، فقال أبو بكر : أنا هو يا

رسول الله وقال عمر أنا هو يا رسول الله ، فقال لا : ولكنه خاصف النعل فالتفتا وإذا بعلي بيده نعل لرسول الله يخصفها له .

ويدعي الفيروزبادي في كتابه فضائل الخمسة من الصحاح الستة أن هذا الحوار رواه الكثيرون من المؤرخين والمحدثين ، وأشار إلى مصادره في مجاميع الحديث السنية[1] .

وبعد أن تم الاتفاق بين الطرفين على بنود الصلح أمر النبي (ص) علياً أن يدونها في كتاب خاص وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترضه سهيل بن عمرو وقال نحن لا نعرف من هو الرحمن الرحيم واكتب مكانها باسمك اللهم ، فوافق النبي على ذلك وقال له : اكتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو ، فاعترضه سهيل وقال : لو كنا نعرف بأنك رسول الله لما قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمره النبي أن يمحو كلمة رسول الله ، فقال له علي : والله لا أمحوها فأخذ الكتاب منه ومحاها بيده .

كما جاء في رواية البخاري ، وأضاف إلى ذلك النسائي في خصائصه أن النبي قال لعلي : أما أن لك مثلها وستأتيها وأنت مضطر لذلك كما روى ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج .

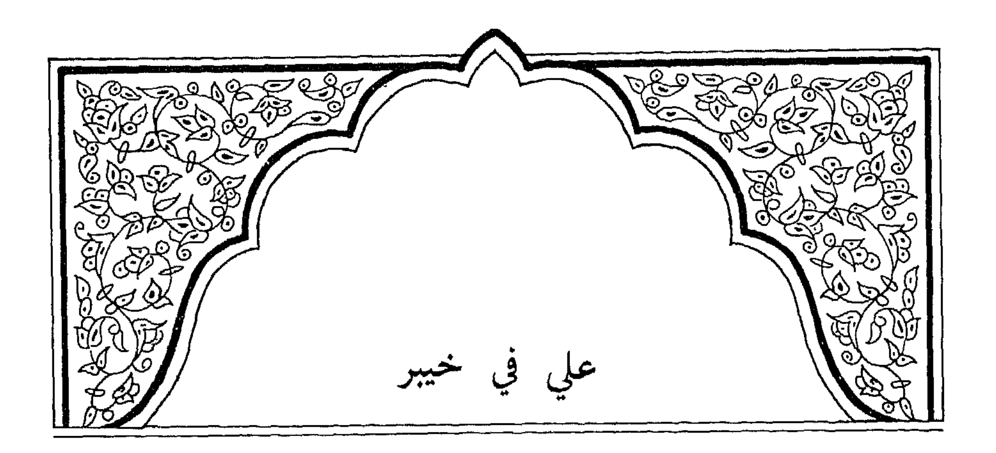
وكانت هذه الكلمة منه من جملة الادلة التي لا تحصى على نبوته ، ووقع ما أخبر به بعد خمسة وثلاثين عاما أو تزيد حينما تم الاتفاق على الهدنة بينه وبين معاوية في صفين ولما شرع الكاتب في تسجيل بنود الاتفاق قال له أمير المؤمنين اكتب هذا ما اتفق عليه امير المؤمنين ومعاوية ، فقال له وفد معاوية لو كنا نعلم بأنك أمير المؤمنين لما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمره علي (ع) بمحوها فامتنع عبد الله بن العباس من ذلك فأخذ الكتاب منه ومحاها بيده ، ثم قال لقد اخبرني بذلك رسول الله في صلح الحديبية وأنا اكتب كتاب الصلح بينه وبين قريش .

---

(١) انظر فضائل الخمسة ص ٣٣٧ و٣٣٨ من الجزء الثاني .

ومهما كان الحال فقد رجع النبي من الحديبية على أن يعود إلى مكة في العام القادم هو وأصحابه وتخليها له قريش ثلاثة أيام ، ونزلت عليه الآية إنا فتحنا لك فتحا مبينا وهو في طريقه إلى المدينة .

وجاء في سيرة ابن هشام عن الزهري أنه قال : ما فتح في الاسلام فتح قبله كان اعظم منه ، فلقد آمن الناس بعضهم بعضا ، ولم يـكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين في الاسلام اكثر ممن دخل فيه منذ بعث رسول الله ، واعترفت قريش بالاسلام كدين بين الأديان التي كانت منتشرة في الجزيرة وقوة بين القوى لم يعد لها من سبيل لابادتها ومكافحتها بعد أن كانت ترى محمداً خارجاً على دين الآباء والأجداد وعلى عاداتهم وأعرافهم ولا يستحق البقاء والحياة في هذه الدنيا .



علي في خيبر

لقد اطمأن النبي (ص) على مصير الدعوة من ناحية قريش والعرب الذي كانوا لا يزالون على الشرك بعد صلح الحديبية إلى حد ما ، وكانت نتائج ذلك الصلح لصالح المسلمين كما ذكرنا ، فلقد اقبل على الاسلام خلق كثير على حد تعبير الرواة ، وكأن العرب قد ادركوا أن قريشاً على عتوها وقوتها لقد فشلت في استعمال القوة معه ، ولم يكن صلح الحديبية ببنوده وشروطه إلا استسلاما للأمر الواقع ، ومن غير البعيد أن تكون هذه الظاهرة من أبرز الاسباب لاقبال العرب على الاسلام في ذلك العام .

وبالرغم من اطمئنان النبي (ص) على مصير الدعوة وارتياحه لسيرها ، فلقد ظل يراقب اليهود الذين كانوا خارج المدينة ويخشى غدرهم ويضع في حسابه جميع الاحتمالات ، ولم يستبعد أن تحركهم الدول المتاخمة لحدود الحجاز على الغدر وتمدهم بالقوة ليثأروا لأخوانهم بني قريظة والنضير وقينقاع ، وهم مفطورون على الغدر ونقض العهود كما يؤكد ذلك تاريخهم الطويل .

وتنص أكثر المصادر على أنه لم يلبث بالمدينة بعد رجوعه من الحديبية اكثر من شهر حتى أمر اصحابه أن يتجهزوا لغزو خيبر في أسرع وقت ممكن ، وخلال أيام معدودات أتم المسلمون استعدادهم فخرج من المدينة في ألف وستماية مقاتل وأعطى رايته لعلي أمير المؤمنين (ع) ومضى يجد السير باتجاه خيبر ، وكانت من المدن الكبرى ذات الحصون والقلاع المنيعة فدخل مشارفها في جوف الليل ونزل بأصحابه ينتظر الصباح وفي الصباح جمعهم وخطب فيهم وأوصاهم

بالصبر والاخلاص ، وخرج اليهود في فجر ذلك اليوم إلى نخيلهم ومزارعهم فوجدوا المسلمين على أبواب مدينتهم ، فولوا راجعين يحملون لأهلها الخبر وجعلوا يعدون العدة لمقابلة محمد وأصحابه .

ويبدو من بعض المؤلفات في السيرة أن اليهود كانوا يتوقعون غزو محمد لهم وقد تعاقدوا مع غطفان لتنجدهم إذا حصل شيء من هذا النوع ، فاتصلوا بها على الفور وهبت هي لنصرتهم ، ولكن المفارز التي وضعها النبي (ص) حول خيبر حالت بينهم وبين ما يريدون .

وفي رواية ثانية أن غطفان بعد أن خرجت لنجدة اليهود سمعوا الصياح في احيائهم فرجعوا مخافة أن يكون جيش النبي (ص) قد داهم منازلهم وأحياءهم .

ومهما كان الحال فلقد كان يهود خيبر من أكثر يهود الحجاز عدداً وأمنعهم حصونا وفيهم من الأبطال والشجعان ما ذاع صيته في انحاء الجزيرة بكاملها ، لذا فإن قريشا كانت تتطلع إلى نتائج هذه المعركة والأمل يراودها في أن تكون الدائرة على المسلمين فيها ، وكما ذكرنا فما أن سمع اليهود بأخبار المسلمين حتى وقفوا صفاً واحداً وأدخلوا نساءهم وذراريهم وأموالهم الحصون المنيعة التي كانوا قد اعدوها لمثل هذه الحالات ونشبت المعارك الضارية بينهم وبين المسلمين حول الحصون واستبسل الفريقان وبقي القتال أياماً على أشده بين الفريقين وقتل فيها محمد بن مسلمة برحى القاها عليه أحد اليهود من أعلى الحصن .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها أن النبي (ص) كان يولي في كل يوم رجلاً من المسلمين قيادة المعركة ويرجع خائباً .

ومضى يروي عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي سلمة بن عمرو الاكوع أن النبي بعث برايته أبا بكر إلى بعض حصون خيبر فرجع ولم يصنع شيئاً ، وفي اليوم الثاني بعث بها عمر بن الخطاب فرجع خائباً كصاحبه .

وروى الطبري عن بريدة الأسلمي أنه لما خرج عمر بن الخطاب بالراية ونهض معه الناس انكشف هو وأصحابه ورجعوا إلى رسول الله وكل منهم يتهم

الأخر بالجبن واستمر الحال على ذلك كلما اعطى الراية لأحد رجع بدون أن يصنع شيئاً ، ولما بلغ الجهد بالمسلمين ونفذ اكثر زادهم قال النبي بصوت رفيع يسمعه أكثر المسلمين :

والله لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

فتطاولت لذلك الاعناق ورجا كل واحد أن يكون هو صاحبها .

وجاء في رواية عن عمر بن الخطاب أنه قال : اني ما احببت الامارة إلا ذلك اليوم وتمنيت أن اعطى الراية بعد أن سمعت ذلك من النبي كما نص على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية .

وقال العلامة الحلي في كتابه نهج الحق : جاء في مسند أحمد وصحيحي مسلم والبخاري من طرق متعددة وفي الجمع بين الصحاح الستة عن عبد الله بن بريدة وذكر الحديث بتمامه وعقب الفضل بن روزبهان على قول العلامة الحلي بقوله : ان حديثه من الصحاح وهذا من الفضائل الخاصة بعلي لا يكاد يشاركه فيها أحد وكم له من فضائل مثل هذه .

وكان علي (ع) قد اصيب برمد قيل أنه تخلف في المدينة من شدة الألم ، ولما استمر به الرمد ركب ناقته والتحق بالنبي ووصل خيبر في تلك الساعات الحرجة ، وقيل وهو الأصح وعليه اكثر المؤرخين أنه خرج مع النبي ومعه الراية وبعد خروجه اصيب بالرمد .

ومهما كان الحال فلما فشل المسلمون في معاركهم مع اليهود التي استمرت اياما استدعى النبي عليا وكان ارمد العين فمسح على عينيه بيده ودعا له فبرئت عيناه من ساعته وقال له خذ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك وقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم ، قال سلمة بن الأكوع فانطلق علي يهرول هرولة ونحن خلفه نتبع أثره حتى ركز الراية بين حجارة مجتمعة تحت الحصن ، فأطل عليها يهودي من رأس الحصن وقال من أنت : قال أنا علي بن أبي طالب . فقال اليهودي علوتم وما أنزل على موسى وخرج اليهود من حصونهم يتقدمهم أبطالهم الاشداء وفيهم الحارث أخو

مرحب وهو من شجعانهم المعروفين فحمل بمن معه على المسلمين فوثب عليه علي وضربه بسيفه فخرّ صريعا ، ثم حمل بمن معه على اليهود فتفرقوا بين يديه وانخذلوا بعد مقتل الحارث وجماعة منهم وفروا إلى داخل الحصن فعز على قائدهم مرحب مصرع أخيه وهزيمة من كان معه وأخذه الحماس فخرج من الحصن مزهوا بشجاعته وبطولاته وعليه درعان وقد تقلد بسيفين ومعه رمحه وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاك السلاح بطل مجرب
إذا السيوف اقبلت تلتهب اطعن احياناً وحينا اضرب

فبرز إليه علي وهو يقول :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات شديد قسورة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة

فاختلف هو وعلي ضربتين ، فضربه علي بسيفه فقدّ الحجر الذي كان قد ثقبه ووضعه على رأسه مكان البيضة وقدّ المغفر وشق رأسه نصفين حتى وصل السيف إلى اضراسه ، وكان لضربته كما تصفها أكثر المصادر التاريخية دوي كالصاعقة ، ولما أبصر اليهود ما حل بفارسهم مرحب ولّوا منهزمين واستولى المسلمون على الحصن بما فيه .

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي رافع مولى رسول الله أنه قال : خرجنا مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه اهله فقاتلهم وضربه رجل من اليهود بالسيف فاتقاه بترسه فوقع الترس من يده ، فتناول بابا كان عند الحصن وأخذه بيده مكان الترس ، وظل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم القاه من يده حين فرغ ، ومضى الراوي يقول : وقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فلم نستطع ، وأضاف إلى ذلك هيكل في كتابه حياة محمد ، أن علياً بعد أن أخذ الباب بيده مكان الترس ظل يقاتل حتى انهزم اليهود وكانوا قد حفروا

خندقا حول الحصن ، فجعل الباب الذي بيده قنطرة على الخندق واجتاز المسلمون عليه إلى داخل ابنية الحصن وذلك بعد أن قتل قائدهم .

وقد روى حديث قتل علي لمرحب وتترسه بالباب كل من ابن دحلان والطبري وابن سعد وصاحب السيرة الحلبية وابن عبد البر في الاستيعابُ وابن كثير في بدايته واليعقوبي في تاريخه وعده اكثرهم من نوع الحديث المتواتر الذي لا يقبل المراجعة والتشكيك .

وروى اكثر المؤرخين أن الباب الذي تترس به كان طول ثمانين شبرا ، وأنه اقتلع باب الحضن بيده وكان صخرة طولها اربعة اذرع في عرض ذراعين وسمك ذراع كما روي حديث الراية وما نتج عن اعطائها لعلي الفيروزبادي في فضائل الخمسة عن صحيحي مسلم والبخاري والترمذي وابن ماجة والنسائي وغيرهم .

ويبدو للمتتبع في مجاميع الحديث والتاريخ بأن حديث الراية ومواقف علي في خيبر مع مرحب وغيره وقلعه للباب كل ذلك من المتفق عليه بين المؤرخين ، لم يخالف بشيء منه سوى أن هشاماً في سيرته حيث نسب قتل مرحب إلى محمد بن مسلمة ، اعتمادا على سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي ، واعتمد هذان على رواية موسى بن عقبة المتوفي سنة ١٤٥ عن الزهري وعلى رواية عبد الله بن سهل التي نسبها لجابر بن عبد الله .

وجاء في تهذيب التهذيب أن عبد الله بن سهل اكثر مروياته عن عائشة وهي مصدره الوحيد تقريباً كما نص على ذلك ابن حجر في المجلد الثاني عشر من تهذيبه ، وقد أخذ الرواية عن عائشة ونسبها إلى جابر بن عبد الله لتكون اقرب إلى التصديق ، ومواقف السيدة عائشة من علي لا يجهلها أحد .

وأما موسى بن عقبة فقد أسندها للزهري والزهري كان عميلا مقربا للأمويين ومنحرفا عن علي كما اثبتنا ذلك في كتابنا الموضوعات ، على أن الذين ترجموا محمد بن شهاب كابن حجر وغيره ذكروا أن اكثر مروياته من نوع المراسيل ، هذا بالاضافة إلى أن الاسماعيلي في كتابَ العتق نص على أن موسى

بن عقبة لم يسمع من الزهري[1] .

ومهما كان الحال فيكفي هذه الرواية عيباً معارضتها الروايات التي وصفها اكثر المؤرخين والمحدثين بالتواتر ، ولم أجد من أخذ برواية موسى بن عقبة من المؤلفين والمحدثين سوى هيكل في كتابه حياة محمد فلقد بنى عليها وتجاهل غيرها ، وليس ذلك بغريب عليه وعلى امثاله ممن يحاولون التقليل من خطر مواقف علي (ع).

وقد وصف الاستاذ عبد الرحمن بدوي في كتابه محمد رسول الحرية مواقف علي في خيبر وبطولاته وصفا دقيقا ، فقال أن النبي (ص) اعطى الراية لأبي بكر وعمر على التوالي ولكنهما فشلا في اقتحام الحصن ورجعا خائبين ، فدعا رسول الله علياً وأعطاه الراية فخلع علي درعه ليكون خفيف الحركة وأمره بأن يدعوهم إلى الاسلام ، فإن لم يجيبوا إليه قاتلهم ومضى يقول له : فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس .

وتقدم علي فدعاهم إلى الاسلام فسخروا منه وخرج إليه الحارث أحد شجعانهم فصرعه علي ثم خرج إليه آخر فألقاه صريعا على وجه الرمال ، وتعالت من المسلمين صيحات السخرية من اولئك الشجعان الذين كان اليهود يعتزون ببطولاتهم ، فخرج إليه مرحب سيد فرسانهم ببطء وكبرياء وثقة مطمئنة مهيبا ضخما بيده حربة مخيفة ذات ثلاثة رؤوس ، وكل جسده الفارع الشاهق في الزرد والحديد ، وليس في كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف أو رمح .

وتقدم إليه علي بقامته المعتدلة بلا درع ولا رمح وفي يده السيف وحده فتوقع المسلمون واليهود جميعا أنها نهاية علي ، ولكنه استطاع أن يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد وترك مرحبا يتقدم منه بدرعه وزرده وحربته فقفز في الهواء متفاديا حربة مرحب ، ثم اقتحم وأهوى بكل قوته على رأس مرحب بالسيف فانفلق الحديد وسقط سيفه على الجمجمة فقدّها نصفين وسقط مرحب

---

(١) انظر المجلد العاشر والثاني عشر من تهذيب التهذيب .

وسط ذعر اليهود وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين بالهتاف والتكبير .

واندفع هو ومن معه إلى باب يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه ، واليهود الذين أذهلهم قتل مرحب يفرون من بين يديه من حصن إلى حصن ، ولم تدم المقاومة طويلاً حتى استسلم اليهود وترك النبي لهم حياتهم بالشروط التي ذكرناها في كتابنا سيرة المصطفى (ص).

وفي طريق النبي إلى المدينة سلك الطريق المؤدية إلى وادي القرى وهي قرية يسكنها جماعة من اليهود ولكنهم لم يكونوا يملكون العدد والعتاد الذي يملكه يهود خيبر ، ومع ذلك فلم يستسلموا للمسلمين وتجهزوا لقتالهم فعبأ رسول الله اصحابه كما جاء في رواية الواقدي وأعطى لواءه لسعد بن عبادة الانصاري ودعاهم إلى الاسلام وحذرهم من المصير الذي انتهى إليه يهود خيبر ، ولكنهم رفضوا الدخول في الاسلام وأصروا على المقاومة وبرز منهم رجل جعل يتحدى المسلمين فبرز إليه الزبير بن العوام وقتله ، ثم برز احد أبطالهم الاشداء فقتله علي (ع) وجعل يبرز منهم الواحد تلو الآخر ويقتله علي حتى قتل منهم احد عشر رجلاً وكلما قتل منهم رجلا يدعوهم إلى الاسلام وهم يرفضون واستمر القتال بينهم طيلة ذلك اليوم وبدخول اليوم الثاني استسلموا فاستولى النبي (ص) على أموالهم وأمتعتهم التي استخدموها في المعركة وترك لهم الأرض والنخيل يعملون فيها بنصف ناتجها كما فعل مع يهود خيبر .

وانتهت معارك النبي (ص) مع اليهود بتلك الانتصارات والمكاسب المادية والمعنوية كغيرها من المعارك التي انتصر فيها الاسلام على الشرك والحق على الباطل وكان الفضل الأول للنبي (ص) في وضع الخطط الحكيمة التي كان يعدها في تلك المعارك ومن بعده لعلي (ع) الذي كان ينقض على أبطالهم وجنودهم كالأعاصير التي لا يثبت لها شيء .



دور علي في فتح مكة

لقد تحدثنا عن الدور الذي كان لعلي في صلح الحديبية وأنه هو الذي كتب بنود الاتفاق بخطه في نسختين كانت احدهما مع قريش والثانية مع النبي ، وقد التزم النبي من جانبه بكل بنود الاتفاق غير أن قريشا كانت تود على ما يبدو نقض معاهدة الحديبية وقد وجدت في انسحاب المسلمين من معركة مؤتة منهزمين منفذاً لها فاستخفت بقوتهم وجرها هذا الاستخفاف إلى تحريض بني الدؤل من بني بكر حلفائها على خزاعة حليفة النبي (ص) وكان عهد الموادعة قد نص على دخول خزاعة في حلف النبي (ص) واستطاع بني الدؤل أن يتغلبوا على خزاعة بمساندة قريش فقتلوا منهم وشددوا عليهم الحصار فذهب وفد منهم إلى النبي لابلاغه بما جرى ، ولما بلغه ما جرى عليهم ، قال كلمته المشهورة : لا نصرت إن لم انصر خزاعة وهي الكلمة التي تحدد موقف الاسلام من الظلم والظالمين ومن العهود والمواثيق التي تكون لخير الناس .

وعزم النبي (ص) بعد أن استخفت به قريش ونقضت من جانبها بنود الاتفاق وجعل يستعد لذلك وهو يحرص أن لا يذاع هذا الأمر وتسرب الخبر إلى حاطب بن بلتعة فأرسل كتابا إلى قريش مع امرأة من مزينة يخبرها فيه بما عزم عليه النبي وأوصاها بالكتمان ، فأخذت الكتاب ووضعته في رأسها ولفته بشعرها ، وقبل خروجها من ضواحي المدينة نزل الوحي على النبي وأخبره بأمرها ، فأرسل من ساعته عليا والزبير وأمرهما بأن يجدّا السير في طلبها قبل أن تفوتهما فخرجا مسرعين وأدركاها على أميال من المدينة . فأسرع الزبير وسألها عن

الكتاب فأنكرته وبكت فرق لها الزبير ورجع عنها ليخبر عليا ببراءتها وقال له ارجع لنخبر الرسول بذلك . ولكن عليا يعلم بأن رسول الله لا ينطق عن الهوى فقال للزبير أن رسول الله يخبرنا بأنها تحمل كتابا إلى أهل مكة ، وتقول أنت بأنها لا تحمل شيئاً . ثم اخترط سيفه وأقبل عليها وقال : والله إن لم تخرجي الكتاب لاكشفنك ، فلما رأت منه العزم والتصميم اخرجت الكتاب من عقيصتها ودفعته إليه فرجع به إلى النبي ، واستدعى النبي كاتب الكتاب بعد أن جمع المسلمين ، فدخل عليه وهو يرتعش من الخوف فأنبه وحذره من العودة لمثل ذلك ، وأنزل الله بهذه المناسبة الآية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ .

ولما أتم النبي (ص) تجهيز جيشه خرج من المدينة في عشرة آلاف مقاتل وأعطى لواءه لعلي (ع) ووزع الرايات على زعماء القبائل ومضى يقطع الطريق باتجاه مكة وفي مر الظهران جمع الطريق أبا سفيان والعباس بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان قد خرج من مكة يتجسس أخبار المسلمين فتشفع العباس به عند النبي فعفا عنه وتجاهل جميع سيئاته وجرائمه وحتى موقفه من عمه الحمزة ، ودعاه إلى الاسلام ، وقال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله فقال بأبي وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك : أما هذه فوالله أن في النفس منها شيئا ، فقال له العباس ويحك قل لا إله إلا الله محمد رسول الله قبل أن تقتل كما جاء في رواية الطبري وأكثر المؤرخين ، فقالها بعد أن ادرك سوء مصيره ان هو ظل مصرا على موقفه . وأن المتتبع لتاريخه يخرج وهو على يقين بأن أشياء وأشياء بقيت في نفسه من نبوة محمد بن عبد الله إلى أن لفظ النفس الأخير من حياته ، وكانت تبدر منه بين الحين والحين فلتات تؤكد ذلك .

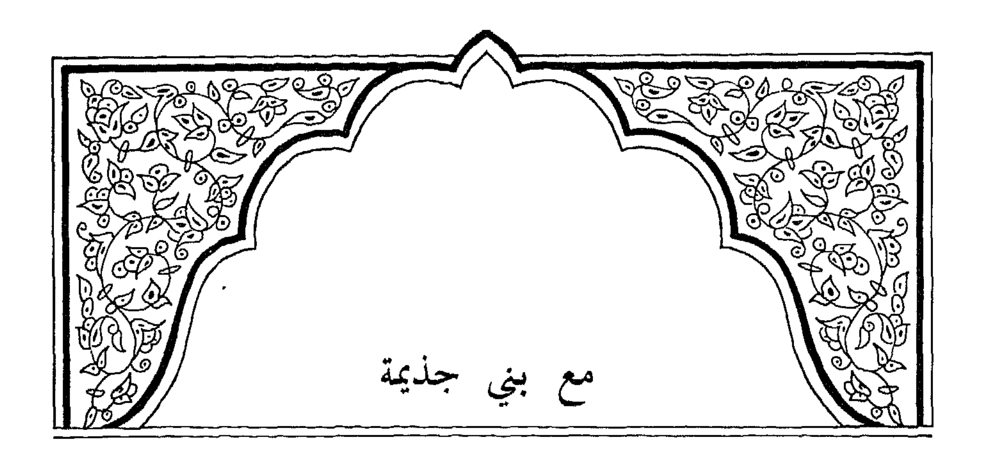
ودخل رسول الله مكة بذلك الجيش الذي لم تعرف له مكة نظيرا في تاريخها الطويل ولواؤه بيد علي بن أبي طالب وأعلن العفو العام وهو على ابواب مكة إلا عن احد عشر سبعة من الرجال وأربع من النساء فمضى علي (ع) يجد في طلب اولئك الذين اهدر النبي دماءهم فقتل منهم جماعة والتجأ عبد الله بن

أبي ربيعة والحرث بن هشام إلى بيت أخته أم هاني بنت أبي طالب فاستجارا بها ، ودخل علي في طلبهما وهو مدجج بالحديد فلم تعرفه ، فقالت له : أنا بنت عم رسول الله وأخت علي بن أبي طالب فأسفر لها عن وجهه فاعتنقته والدموع تنهمر من عينيها ، ولما نظر إليها شهر عليهما سلاحه فحالت بينه وبينهما وقالت له أنت أخي وتصنع معي ذلك أني قد أجرتهما إذا أردت قتلهما فاقتلني معهما وسأشكوك إلى رسول الله ولما رأى ما بها تركها وخرج .

وجاء في رواية الواقدي أن أم هاني أغلقت عليهما الباب وقالت لهما لا تخافا وذهبت إلى رسول الله في البطحاء فلم تجده في المكان الذي اعد له ووجدت الزهراء وبعض نسائه فقالت لها ما لقيت من ابن أمي علي لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ومضى الراوي يقول : لقد كانت الزهراء اشد عليها من زوجها وبينما هي في حوار معها وإذا برسول الله قد اقبل فلما رآها رحب بها وأجلسها إلى جانبه فقالت له يا رسول الله ماذا لقيت من أخي علي : لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، فقال ما كان ذلك له : قد اجرنا من اجرت وأمنا من امنت وشكر لعلي سعيه وقد اجرت من اجارت أم هاني لمكانها من علي بن أبي طالب .

وعفا رسول الله عن أهل مكة وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يترك لهم صنما داخل الكعبة وخارجها إلا وحطمه تحت قدميه وهم ينظرون .

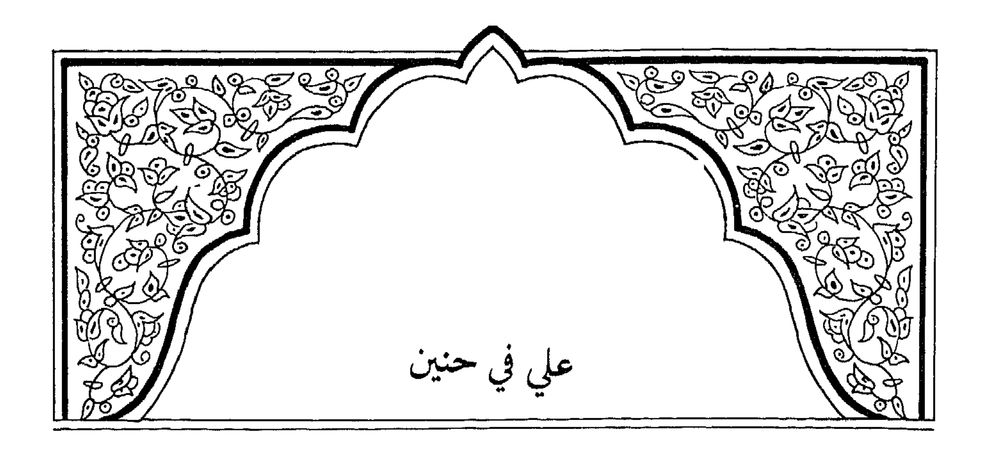
وجاء في الكشاف للزمخشري في تفسير قوله تعالى : قل جاء الحق وزهق الباطل ، أن جبريل قال له خذ مخصرتك والقها يعني الاصنام فجعل رسول الله (ص) يومي إليها بمخصرته وهي تتهاوى من على سطح الكعبة ، وبقي صنم لخزاعة كان من قوارير ، فقال لعلي ارم به فحمله النبي حتى صعد على سطح الكعبة فرمى به علي من على سطحها وكسره فجعل أهل مكة يعجبون ويقولون ما رأينا أسحر من محمد .



مع بني جذيمة

وبعد الفتح بأيام والنبي لا يزال في مكة أرسل خالد بن الوليد على رأس سرية من المسلمين تبلغ نحوا من ثلاثمائة وخمسين مقاتلا من المهاجرين والانصار وفيهم عبد الرحمن بن عوف وسار خالد بن الوليد بمن معه من المسلمين حتى انتهى إلى ماء لبني جذيمة فنزل عليه ، وكان بنو جذيمة قبل مبعث النبي قد أصابوا نسوة من بني المغيرة وقتلوا عوفا والد عبد الرحمن والفاكة بن المغيرة وكانا قد اقبلا في تجارة لهما من اليمن ونزلا ضيوفا على بني جذيمة فقتلوهما ، ومع عوف ابنه عبد الرحمن فقتل قاتل أبيه ، ولما أرسل لهم رسول الله تلك السرية استقبلوها بأسلحتهم ، فقال لهم خالد بن الوليد ضعوا السلاح ، فإن الناس قد اسلموا فوضعوا سلاحهم ، ووقف جحدم أحد بني جذيمة موقف المتصلب وقال لهم : ويلكم إنه خالد بن الوليد والله ما بعد وضع السلاح إلا الاسر وما بعد الأسر إلا ضرب الرقاب ، والله لا اضع سلاحي ابداً ، فآخذه رجال من قومه ولاموه على هذا الموقف ، وما زالوا به حتى انضم إليهم وأعلنوا الطاعة ، فلما وضعوا السلاح غدر بهم خالد بن الوليد وقتل منهم جماعة ، ولما انتهى خبرهم إلى النبي (ص) رفع يديه وقال : اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا عليا كما جاء في رواية ابن إسحاق وغيره وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم وانظر في امرهم واجعل امر الجاهلية تحت قدميك . ثم زوده بمقدار كبير من المال ليستعين به على اصلاح ما أفسده خالد بن الوليد ، ولما وصل بني جذيمة انكر تصرفات خالد ودفع لهم دية القتلى وما اصيب من أموالهم ، وقال

لهم : هل بقي لكم شيء من مال أو دم فقالوا لا . فأعطاهم ما بقي معه من الاموال لتطيب نفوسهم ، ورجع إلى رسول الله (ص) وأخبره بما صنع ، فقال له : احسنت وأصبت ، ثم قام رسول الله. واستقبل القبلة ورفع كلتا يديه وقال : اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد وكرر ذلك ثلاثا .



علي في حنين

لقد تحركت هوازن والنبي لا يزال في مكة وأزعجها انتصاره على قريش والتفافها حوله وكان أشد ما تخشاه أن يفاجئها بجيوشه التي خضعت لها قريش على جبروتها وقوتها ولو فعل ذلك لا تقوم لها بعده قائمة ، وقد تجنبت الصراع الذي كان بين محمد وحماة الأصنام خلال تلك المدة لظنها أن محمدا لن يظهر على قريش ويحقق ما يريد .

لقد تجهزت هوازن وثقيف وأحلافهما من مشركي العرب وأعدوا العدة للقتال وتحركوا لغزو محمد في جيش يفوق عدد جيشه بثلاث مرات ، ولما علم محمد (ص) بذلك خرج من مكة باثني عشر ألفا وخرج معه من المكيين ممن لم يخالط الإسلام قلوبهم ، وممن أسروا الشرك وأظهروا الإسلام كأبي سفيان وأمثاله وكان هؤلاء بين طامع في المغانم والاسلاب وبين من دفعتهم الرغبة في الظهور معه بمظهر المناصر بعد أن أصبح قويا مرهوب الجانب .

وتحرك جيش النبي من مكة وفي مقدمته الفرسان والإبل تحمل الذخيرة والمؤن ولواء المهاجرين مع علي بن أبي طالب ، ووزع الرايات على قادة الجيش وزعماء القبائل ، ولما علمت هوازن بأن النبي قد تحرك بجيشه وخرج من مكة لقتالها أعدت خطة للغدر بالمسلمين على حين غفلة منهم فمكنوا لهم في شعاب واد من أودية تهامة حيث لا مفر لهم من المرور فيه .

ويروي الرواة والمؤرخون عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال : لما

استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة في عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إليه فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه ، فما راعنا ونحن نسير إلى القوم لنأخذهم على غرة قبل أن يأخذوا حذرهم ،ما راعنا ونحن نسير إلا وكتائب هوازن ومن معهم من العرب قد شدوا على المسلمين شدة رجل واحد من كل جانب فأمعنوا فينا ضربا وطعنا واختلط الناس بعضهم ببعض ، فاستولى الخوف على المسلمين ودب فيهم الذعر ، فانهزموا عن النبي (ص) لا يلوون على شيء ، وثبت رسول الله في مكانه ومعه علي والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد .

وجاء في رواية المفيد في ارشاده أنه لم يبق مع النبي إلا عشرة اشخاص تسعة من بني هاشم وأيمن ابن أم أيمن فقتل أيمن وثبت التسعة وانهزم الباقون والنبي يناديهم أيها الناس أنا رسول الله محمد بن عبد الله فلم يجبه أحد .

وقد أكد اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه رواية المفيد ، غير أن الحلبي في سيرته قال : لما فر الناس عن رسول الله (ص) في حنين لم يثبت معه سوى أربعة ثلاثة من بني هاشم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب وكانا بين يديه يدافعان عنه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بعنان بغلته ، وابن مسعود عن جانبه الأيسر ، وأنزل الله عليه الآية .

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ .

ويدعي المفيد في ارشاده أن الآية تعني بالمؤمنين عليا ومن ثبت معه من بني هاشم في ذلك الموقف الذي لم يمر على النبي أحرج منه وأشد خطرا .

وعلى أي الأحوال فلقد اتفق المؤرخون على أن عليا وأكثر بني هاشم ثبتوا مع الرسول في تلك الأزمة ، وأن عليا كان كالمارد يضرب بسيفه عن يمينه وشماله فلم يدن أحد من النبي إلا جندله بسيفه ، كما اتفقوا على أن جماعة ممن تظاهروا بالاسلام في مكة كأبي سفيان بن حرب وشيبة بن أبي طلحة وغيرهما قد

أظهروا الشماتة ، ولم يستطع أبو سفيان أن يكتم ما أنطوت عليه نفسه من الشرك والاصرار على عبادة الأصنام ، فقال والذي يحلف به أبو سفيان لا تنتهي هزيمته دون البحر وبدت على شفتيه بسمة منكرة تجأر بالشماتة وأظهر ما كان يحمله من الأزلام والأصنام ، وابتسم له كلدة بن الحنبل ، وقيل جبلة بن الجنيد ، وقال الآن بطل سحر محمد . وقال شيبة بن أبي طلحة : وقد كرمه النبي بالأمس ورد على أخيه عثمان مفاتيح الكعبة ومنحهم بذلك شرفا على جميع المكيين ، فلقد قال : لما رأى المسلمين تفرقوا عن النبي (ص) وبقي وحيدا في نفر قليل من بني هاشم ، اليوم ادرك ثأري من محمد ، وظهرت بوادر الفرح والارتياح على كثير ممن اظهروا الإسلام بالأمس القريب من القرشيين في مكة .

ومع أن صفوان بن أمية كان لا يزال على شركه ولم يظهر الإسلام كأبي سفيان وشيبة وجبلة بن الجنيد فلم يمنعه شركه من أن يغضب لتلك النكسة التي أصيب فيها محمد وأصحابه ، وقال لجبلة بن الجنيد : أسكت فض الله فاك ، والتفت إلى أبي سفيان الشيخ الحقود الساخر : يا أبا حنظلة لأن يملكني رجل من قريش أحب إلي من أن يملكني رجل من هوازن .

ولقد كبا بأبي سفيان حقده وسبقت شماتته النهاية المرجوة من المعركة ، فلم يتخل الله عن المسلمين ولم تطل بهم الهزيمة ، ولا بلغت البحر كما كان يترقب لها الشامتون والحاقدون اعداء دين الله بعد أن ثبت النبي وعلي ومن كان معهما من الهاشميين ، وأخذ مع تباشير الصباح يتبدل الموقف لصالح المسلمين ، وصاح العباس بأمر من النبي يا أهل بيعة الشجرة يا أهل بيعة الرضوان إلى أين تفرون عن الله ورسوله ، فأخذوا يتراجعون إلى أن اجتمع إليه منهم نحو من مائة فاستقبلوا بسيوفهم ورماحهم جموع هوازن المتدفقة كالسيل وأخذ نطاق المعركة يتسع بين الطرفين بعد أن كانت سيوفهم ورماحهم مشرعة نحو النبي .

ثم برز جرول حامل رايتهم وكان يصنع ما يصنع على حد تعبير الطبري فتحاماه الناس ، فبرز إليه علي (ع) وقتله فدب الذعر في نفوسهم ، كما دب الحماس في نفوس المسلمين لا سيما وقد رأوا النبي (ص) يتقدم ببغلته نحو المشركين ويضربهم بسيفه ويقول :

أنــا الـنـبـي لا كــذب   أنــا ابن عبــد المــطلب

ولما التحم الجيشان قال : الآن حمي الوطيس هذا وعلي (ع) يشد على القوم عن يمين النبي وشماله يحصد الرؤوس ويصرع الأبطال حتى قتل أربعين من ابطالهم كما جاء في رواية المفيد وغيره ، وعاد أكثر المسلمين إلى المعركة وبعضهم لم يرجع إلا بعد أن اطمأن على أن المعركة تتجه اتجاها صحيحا لصالح المسلمين .

ولم تتضح معالم الصباح حتى كانت أرض المعركة تهتز من شدة القتال ، فأخذ النبي (ص) حفنة من التراب اعطاه اياها علي بن أبي طالب كما روى ذلك الهيثمي في جامعه والخطيب البغدادي في تاريخه وألقاها في وجه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه ، وتقدم نحو القوم ومعه المسلمون وبين يديه علي ومن حوله بنو هاشم الذين ثبتوا معه من الساعات الأولى في ظلمة الليل ، ولولاهم لانتهت المعركة بنتيجة لم يكن الشرك ليحلم بها ، وخلال ساعات معدودات انتهت المعركة بهزيمة هوازن وحلفائها تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم تحت رحمة المسلمين ، وأتم الله النصر الذي وعد به نبيه وخرج من المعركة منتصرا عزيزا بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن ضعاف الإيمان بالله الظنون ، وخابت آمال أبي سفيان وأمانيه بهزيمة هوازن إلى حدود البحر بعد أن تمناها وتوقعها للنبي وأصحابه الكرام .



علي وغزوة تبوك

في شهر رجب بالذات من السنة التاسعة للهجرة بلغ النبي أن الروم المتاخمين لحدود الحجاز يعدون جيشا قويا لغزو العرب في ديارهم ، وعندما اتصل به هذا النبأ لم يتردد في مواجهة تلك الجيوش بنفسه على رأس جيش قوي يستطيع صد عدوان الغزاة ، فأرسل إلى القبائل العربية المنتشرة في انحاء الحجاز يدعوهم للمساهمة في صد العدوان ويستحثهم على السير معه إلى الحدود المتاخمة لحدود الرومان وبذل المزيد من المؤن والمعدات لهذه الغاية ، فاستجاب بعضهم لطلبه بقلوب عامرة بالإيمان ونفوس مطمئنة بما وعد الله به المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم تاركين نساءهم وأبناءهم في فصل القيظ من تلك السنة التي سماها المؤرخون سنة العسرة ، وبذلوا نساء ورجالا ما امكنهم بذله من الأموال لتغطية نفقات الجيش ، واستطاع بحكمته أن يضع حدا لجميع المناورات والدسائس التي قام بها المنافقون وضعاف الايمان ، وأنزل الله عليه بهذه المناسبة سورة التوبة كما يدعي جماعة من المفسرين ، التي تحث على الجهاد وتفضح المنافقين والمتخاذلين وتنذرهم بالعذاب وسوء المصير . ولم يجد بدا من الوقوف في وجه اولئك الذين كانوا يتآمرون ويخذلون الناس عنه بحزم وشدة حتى اضطروه أن يحرق على أناس منهم بيتا كانوا قد التجأوا اليه يضعون الخطط لتخذيل الناس عنه وتفتيت معنوياتهم ، وبعد جهود شاقة استطاع أن يؤلف جيشا من ثلاثين ألف مقاتل .

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد وسيرة ابن هشام أن عبد الله بـن

أبي خرج مع المسلمين من المدينة بمن معه من احلافه وعسكروا خارج المدينة ، ولم يكن عسكره بأقل العسكرين على حد تعبير المؤرخين ، ولكنه لما تحرك (ص) بمن معه تخلف ابن أبي هو وجماعته ورجعوا إلى المدينة . واستخلف النبي عليا (ع) عليها في هذه الغزوة ، وهي الغزوة الوحيدة من الغزوات لم يشترك فيها علي بن أبي طالب ، وعندما نلاحظ الظروف التي رافقت هذه الغزوة والموقف المتخاذل الذي ظهر من بعض المتظاهرين بالإسلام والمؤامرات التي كانت تحاك لتخاذل المسلمين وموقف ابن أبي وجماعته الذين لا يقلون عن جيش النبي (ص) كما جاء في الطبقات وسيرة ابن هشام عند تقييم هذه الملابسات يدرك الباحث أن بقاء علي (ع) في المدينة في هذه الغزوة كانت تفرضه مصلحة الإسلام ، بعد أن ظهر للنبي من المنافقين وحتى من بعض المسلمين ما ظهر وبلا شك فإن بقاءهم بالمدينة يشكل خطرا على الدعوة إذا لم يستخلف عليها النبي (ص) شخصا قويا يحاذرون منه ويخشون بطشه وسطوته . ولم تتوفر هذه النواحي في غير علي (ع) .

ولما تحرك النبي في طريقه إلى تبوك ثقل عليهم وجود علي على رأس السلطة المحلية في عاصمة الدعوة ، وأدركوا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا بوجوده ، فراحوا يرددون في المجالس والأندية أن النبي لم يستخلفه في المدينة إلا كرها به وشاعت مقالتهم في انحاء المدينة ، ولما بلغت مقالتهم هذه عليا (ع) أخذ سيفه وسلاحه ولحق بالنبي وهو نازل في الجرف ، فقال يا رسول الله : لقد زعم المنافقون بأنك إنما خلفتني لانك استثقلتني وأردت أن تتخفف مني ، فقال (ص) كما جاء في رواية الطبري وابن هشام وأبي الفداء واليعقوبي وغيرهم : إنما خلفتك لما ورائي ، أن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي .

والظاهر اتفاق المؤرخين والمحدثين على أن النبي قال لعلي هذه المقالة ، وأضاف إلى ذلك أحمد في مسنده أنه قال له :

لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي .

وجاء في فضائل الخمسة من الصحاح الستة أن الحديث مروي بالصيغة التي رواها احمد ، في خصائص النسائي ، والموافقات للحافظ الدمشقي ، ومجمع الزوائد للهيثمي وغيرهم[1] .

وبلا شك لقد قال النبي لعلي (ع) هذه المقالة وقد استخلفه في المدينة للسبب الذي ذكرناه وغير بعيد أن يكون علي (ع) قد عز عليه أن تفوته معركة من معارك الإسلام لا سيما وأنه يتجه إلى عدو يفوق المسلمين بعدده وعتاده عشرات المرات فكان يتمنى أن يبقى إلى جانبه يفديه بنفسه وروحه كما كان يصنع في بقية المعارك ، وعندما اشعر النبي (ص) ذلك اجابه بتلك الكلمات التي اتفق عليها المؤرخون والمحدثون ، بل وبالصيغة التي رواها أحمد والنسائي والهيثمي والحافظ الدمشقي ومحدثو الشيعة عن الأئمة من أهل البيت ، وجاءت منه بهذه الصيغة ليفهم المسلمون على أنه الخليفة من بعده حتى في حال غيابه عن هذه الدنيا .

اما أن تحرشات المشركين بتلك الكلمات العابرة قد استفزته فأخذ سلاحه ولحق بالنبي يشكو اليه ما سمع ويطلب منه اعفاءه من تلك المهمة فإني اشك في ذلك ، وعلي بن أبي طالب ارفع شأنا من أن يهتم ويراجع الرسول في مهمة كهذه لكلمة يسمعها من منافق أو مشرك .

---

(١) أنظر فضائل الخمسة ص ٢٩٩ وما بعدها .



غزوات ذات السلاسل

لقد خبا نجم الكفر والشرك بعد تلك المعارك والانتصارات التي حققها الإسلام في شبه الجزيرة ، وكاد أن يصيبه الأفول ، لولا فلول من الشرك بقيت هنا وهناك ، كأنها ارادت لعلي بن أبي طالب أن يقدم للتاريخ صفحة جديدة من صفحات جهاده وبطولاته .

لقد ذكر جماعة من المؤرخين أن عددا كبيرا من الاعـراب قد اجتمعوا في مكان يدعى وادي الرمل واتفقوا على غزو المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوفد أعرابي على النبي (ص) وأخبره بما اجتمعوا عليه كما جاء في رواية المفيد في ارشاده ، فأرسل لهم النبي (ص) أبا بكر في جماعة من المسلمين ، ومضى معه حتى اقترب من ارضهم وكانت وعرة المسالك كثيرة الأحجار ، وقد اعتصم القوم ببطن الوادي وسفوح الجبال ، فانقضوا على المسلمين وقتلوا جماعة منهم ، فانهزم أبو بكر بمن بقي معه ورجعوا إلى المدينة ، فأرسل النبي (ص) عمر بن الخطاب ، وكان نصيبه الفشل والفرار كسابقه وتدعي الرواية أنه ارسل بعدهما عمرو بن العاص فمثلوا معه نفس الدور الذي مثلوه بهما ، ولم يجد النبي (ص) بعد الفشل الذي لحق بالقادة الثلاثة بدا من ارسال علي (ع) فأرسله في جماعة فيهم أبو بكر وعمرو بن العاص وضم اليهم جماعة من المهاجرين والانصار ، وشيعة النبي إلى خارج المدينة ثم ودعه ودعا له بالنصر والظفر .

وسار علي بمن معه نحو القوم يكمن النهار ويسير الليل حتى اقترب من

القوم ، ولم يشك ابن العاص كما يدعي الرواة أن الفتح سيتم على يد علي (ع) فجاء إلى أبي بكر يقول له : أنا اعلم بهذه الارض من علي بن أبي طالب ، إنها ارض مسبعة وفيها من الوحوش الضارية ما هو أشد علينا من بني سليم وغيرهم من الاعراب فكلم عليا لعله يتركنا نعلو الوادي ، فجاءه أبو بكر وعرض عليه الطلب فلم يلتفت اليه ، ثم كلمه عمر بن الخطاب فلم يلتفت ، وظل مرابطا في مكانه حتى الفجر ، ومع تباشير الصباح انقض بمن معه على القوم على حين غفلة منهم وأمعنوا بهم قتلا وأسرا حتى استسلموا له وتم الفتح على يده ونزلت على النبي (ص) سورة العاديات بهذه المناسبة كما جاء في بعض المرويات ، فبشر النبي (ص) بالفتح وأمر المسلمين أن يستقبلوا عليا ومن معه حين قدومه ، وبعد ايام خرجوا لاستقباله ومعهم النبي (ص) ولما رآه علي مقبلا ترجل عن فرسه ، قال له النبي اركب فإن الله ورسوله عنك راضيان ، فاستبشر امير المؤمنين وتساقطت الدموع من عينيه ، ثم قال له النبي (ص) لولا أني اشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك مقالة لا تمر على ملأ من الناس إلا اخذوا التراب من تحت قدميك .

وجاء في مجمع البيان للطبرسي عن أبي عبد الله الصادق (ع) أن سورة العاديات نزلت على رسول الله لما بعث عليا إلى ذات السلاسل وتغلب على من كان قد اجتمع من الاعراب لغزو المدينة ، ولما نزلت عليه خرج إلى الناس يصلي الغداة فقرأها في صلاته ، فلما فرغ من الصلاة قال المسلمون :

إن هذه السورة لم تقرأها ، فقال أن عليا ظفر بأعداء الله وبشرني جبرائيل في هذه الليلة .

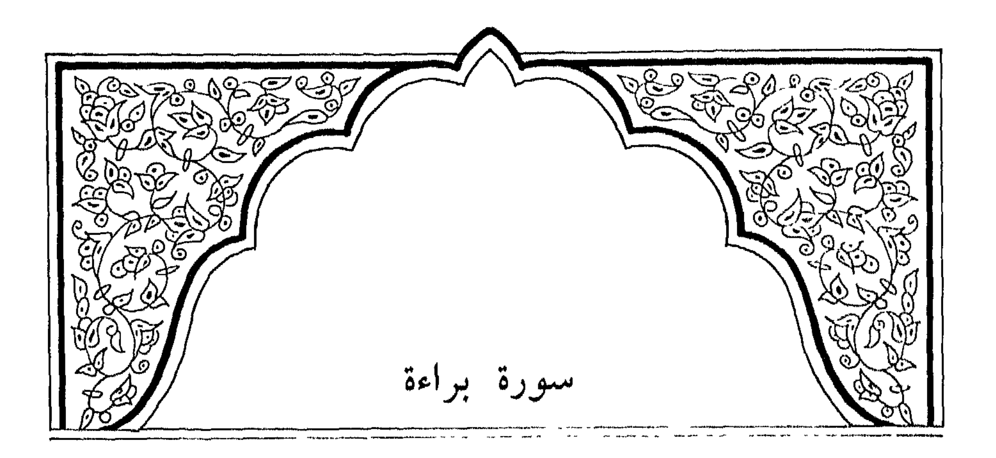
وفي هذه الغزوة يدعي الرواة أن السيد الحميري مدح عليا في قصيدة جاء فيها :

وفي ذات السلاسل من سليم ... غداة أتاهم الموت المبير
وقد هزموا أبا حفص وعمروا ... وصاحبه مرارا فاستطيروا
وقد قتلوا من الأنصار رهطا ... فحل النذر أو وجبت نذور

وقد ذكر له بعض المؤرخين والرواة غزوة إلى بلاد طي وكانت قبيلة طي قد أصرت على الشرك واعتصمت في حصونها تعبد صنما في مكان يقال له الفلسر ، فأرسله النبي إليها مع جماعة من المسلمين ولما قارب بعض الاحياء الموالية لطي استقبله القوم فشن عليهم بمن معه هجوما عنيفا استمر ساعات من النهار فقتل منهم جماعة وفر الباقون فاستولى على مواشيهم وأمتعتهم وأسر من وجدوه في الاحياء من نسائهم وكان بين الأسرى سفانة بنت حاتم الطائي وفرّ أخوها عدي إلى خارج الحجاز ، ورجع علي بالغنائم والسبي إلى المدينة .

كما ذكر ابن سعد في طبقاته أن النبي ارسله غازيا إلى اليمن مرتين الأولى كانت في السنة الثامنة للهجرة إلى همدان بعد أن ارسل خالد بن الوليد قبله ورجع بدون أن يحقق شيئا ، ولما ارسل اليهم عليا (ع) وتحدث معهم عن الاسلام ودعاهم إليه اسلموا بكاملهم وطابت له نفوسهم فكتب إلى النبي يخبره بذلك .

والثانية كانت في رمضان من السنة العاشرة ارسله إلى مذحج في جيش لا يزيد على ثلاثمائة مقاتل كما جاء في رواية ابن سعد ، وأضاف إلى ذلك أنها اول سرية دخلت بلاد مذحج فصف اصحابه واستقبل بها تلك الجموع التي خرجت لحربه فكرّ عليهم في اصحابه فأوقف هجماتهم ، ثم كرّ عليهم ثانية فشتتهم ، ولم تحل بينهم وبين الهزيمة كثرة الجموع التي تدفقت لنجدتهم ، وما زال يطاردهم حتى قتل منهم اكثر من عشرين فارسا من ابطالهم فآثروا السلامة عند ذلك بالتسليم والدخول في الاسلام وقالوا له : هذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ، ثم أنه جمع الغنائم وأخرج منها الخمس وقسم الباقي بين اصحابه ورجع إلى المدينة وقيل إلى مكة حيث كان النبي (ص) قد خرج لاداء فريضة الحج، وروى له بعض الرواة مواقف وغزوات اخرى لم يتفق عليها المؤرخون وأكثر اخبارها من نوع المراسيل التي لا توفر القناعة لمن يريد أن يتحرى الحقائق ، هذا مع العلم أن كل ما يقال عن علي (ع) لا اظن أحدا يستغربه عليه إذا لم يتجاوز حدود العقل والعلم .



سورة براءة

لقد ظلت سرايا المسلمين بقيادة علي وغيره تطارد فلول الشرك حتى جاءت السنة التاسعة للهجرة وبدخولها اصبح جهاد الرسول بالسيف في الجزيرة قد اشرف على نهايته ، ولم تكد السنة التاسعة تشرف على نهايتها بدخول ذي الحجة حتى انزل الله على رسوله بعض التشريعات التي تحدد موقفه من المشركين والعهود التي كان قد أبرمها معهم كما يبدو ذلك من الآيات الأولى من سورة براءة فأرسل النبي أبا بكر يحج بالناس ، وكان من بقي على الشرك يجتمع مع المسلمين في موسم الحج ، وأمره أن يتلو على الناس الآيات الأولى من سورة براءة فمضى أبو بكر بمن معه من المسلمين يشرف على الحج في ذلك العام ، ولما انتهى إلى ذي الحليفة وهو المكان المعروف اليوم بمسجد الشجرة ، وفيما هو يسير في طريقه ، وإذا بالوحي ينزل على النبي ويأمره بأن يرسل مكانه علي بن أبي طالب ، وقال له : لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك ، فأرسل النبي عليا وأمره بأن ياخذ الايات من أبي بكر ويبلغها بنفسه ، فمضى علي (ع) حتى لحق بأبي بكر وهو بذي الحليفة فأخذها منه ، ورجع أبو بكر إلى المدينة خائفا أن يكون قد نزل فيه من الله شيء ، فقال يا رسول الله : انزل فيّ شيء ، فقال النبي ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل مني .

وانطلق علي في طريقه حتى بلغ مكة وعندما اجتمع الناس لاداء مناسكهم قرأ عليهم الآيات الأولى من السورة كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ، ونادى في الناس لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ولا يطوف بالبيت عريان ،

ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته .

وفي رواية ثانية أنه تلا عليهم من سورة براءة حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ .

ثم أعاد عليهم القول : لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله عهد موقوت فأجله الى مدته .

وأصغى المشركون إلى هذا القرار بقلوب ترتعد من الخوف والحقد ووجدوا انفسهم تجاه امر لا مفر منه بعد أن أسلمت قريش وأذعنت للنبي مرغمة صاغرة كما أسلم اكثر العرب وكادت الجزيرة بكاملها تخضع لسلطة الاسلام ، فما عليهم إلا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فأسلم اكثرهم خلال اشهر معدودات .

ويبدو من مجاميع الحديث والتاريخ أن ارسال علي في سورة براءة بعد أبي بكر ورجوع أبي بكر إلى النبي ، وقوله لا يؤديها إلا أنا أو رجل مني وأنا منه كل ذلك متفق عليه بين المحدثين والمؤرخين ولا خلاف بينهم في شيء من ذلك ، إنما الخلاف في أن أبا بكر هل ذهب في تلك السنة لأداء مهمة كلفه بها النبي بعد أن انتزع منه الآيات من سورة براءة ، أم أنه لم يذهب وترك تبليغ الآيات والاشراف على الحج لعلي (ع) ، فأكثر محدثي السنّة على أن أبا بكر حج بالناس وكانت مهمة علي تلاوة الآيات وتبليغ المواد التي ذكرناها .



علي في حجة الوداع

في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تحرك موكب النبي من المدينة باتجاه بيت الله تحف به تلك الالوف التي قدرها بعض المؤرخين بتسعين الفا ، والبعض الآخر بما يزيد على مائة ألف مغتبطين بهذا اللقاء الذي لم يشهد تاريخ العرب نظيرا له من قبل لأنه لقاء بين عرب الجزيرة من جميع جهاتها تحت راية واحدة وبهدف واحد يرددون كلمات الرسالة :

لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك أن الحمد والنعمة والملك لك لبيك.

وجاء في الارشاد للمفيد أن النبي (ص) قبل خروجه من المدينة بأيام كتب إلى علي وكان قد وجهه إلى اليمن أو نجران ، وأمره أن يوافيه لمكة حاجا ، وخرج علي بمن معه قاصدا مكة ليحج معه في عامه هذا ومعه الغنائم التي أصابها في غزوته ، والتقى بالنبي وقد اشرف على دخول مكة فاستبشر بلقائه وقال له بم اهللت ؟ فقال له يا رسول الله : أنك لم تكتب إلي باهلالك ولا عرفته فعقدت نيتي بنيتك ، وقلت اهلالا كإهلال نبيك وسقت معي من البدن اربعا وثلاثين ، فقال له رسول الله : الله أكبر وأنا قد سقت معي ستا وستين فأنت شريكي في حجي ومناسكي وهديي فأقم على احرامك وعد إلى جيشك وعجل به حتى نجتمع بمكة ، وكان قد سبق الجيش حينما بلغ مشارفها .

وفي هذه السنة أمر النبي من لم يسق معه الهدي ممن كان فرضه القرآن أن

يحـل احرامه ويجعلها عمرة ، ثم بعد ذلك عندما يريد الصعود إلى عرفات أن يحرم للحج ومن ساق معه الهدي يبقى على احرامه إلى أن يتم مناسك الحج ، وجرى لغط بين المسلمين حول هذا التشريع الذي اعتبروه مفاجأة لهم ، فقال رسول الله : لولا أني سقت الهدي لاحللت وجعلتها عمرة مفردة ، وهذه هي احدى المتعتين التي نهى عنها عمر بن الخطاب وأباحها رسول الله بقوله : متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أحرمهما وأعاقب عليهما .

وفي هذه السنة خطب رسول الله اصحابه اكثر من مرة وبيّن لهم أحكام الاسلام في الحج وغيره ، وأشار إلى مصيره المحتوم مما أثار في نفوسهم كوامن الخوف على حياته لا سيما وقد سمعوه مرة يقول لعلي : لا القاكم بعد عامي هذا ، ومرة يقول في مستهل خطابه على تلك الجموع : أيها الناس يوشك أن ادعى فأجيب ، وتوالى منه التلميح بنهاية أجله فقال لهم مرة : أن جبرائيـل كان يعرض علي القرآن في كل عام مرة ، وفي هذه السنة عرضه علي مرتين ، وأني يوشك أن ادعى فأجيب ، وأنزل الله عليه :

« **اليوم أكملت لكم دينكم** » .

وكان شديد الحرص على تبليغ الاحكام ، فوقف بين تلك الجموع في مكة اكثر من مرة وفي عرفات ومنى وفي كل مناسبة كان يلوح بالمصير الذي لا ينجو منه أحد ويؤكد عليهم بالتزام الاحكام والعمل والسير على الخطوات التي رسمها لهم ، وفي طريقه من مكة إلى المدينة ومعه تلك الحشود التي لم تشهدها مكة من قبل وقبل أن يتفرق الناس كل إلى جهته نزل في مكان قريب من الجحفة على غير ماء وكلأ فاستغرب المسلمون نزوله في ذلك المكان الذي لم يكن منزلا لأحد من قبله ، ولم يكن هو ينزل فيه لولا أن الوحي قد خاطبه بلهجة لم يعهدها من قبل :

﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ .

فلم يجد بدا من تنفيذ ما أمره الله به لا سيما وقد ضمن له أن يكفيه شر

الحاقدين والحاسدين من الناس .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير عن زيد بن أرقم أن النبي (ص) لما رجع من حجة الوداع ونزل في غدير خم أمر بدوحات فقممن ثم وقف بين تلك الجموع ، وقال أيها الناس كأني قد دعيت فأجبت .

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

ثم قال :

إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة .

وأخذ بيد علي (ع) وقال :

من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وأضاف إلى ذلك أن الراوي قال لزيد بن أرقم : أنت سمعته من رسول الله فقال ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينيه وسمعه بأذنيه .

وقد رواه ابن كثير ايصاً عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب ، وجاء في رواية البراء أن عمر بن الخطاب لقي علياً بعد أن فرغ رسول الله من خطابه وقال له : هنيئاً لك لقد اصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة كما رواه ابن كثير عن جماعة آخرين من الصحابة .

ومضى ابن كثير يقول : أن صدر الحديث متواتر يعني بذلك قول النبي لعلي من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، وأما بقيته وهي اللهم وال من والاه وغير ذلك مما ورد في اكثر الروايات فقوية الاسناد وعلى حد تعبيره ، ومضى يقول : أن رباح بن الحارث قال : جاء رهط إلى علي بالكوفة فقالوا السلام عليك يا مولانا . فقال لهم : وكيف اكون مولاكم ، وأنتم قوم عرب ، فقالوا سمعنا رسول الله يوم غدير خم يقول : من كنت مولاه فهذا علي مولاه . قال رباح بن الحارث فلما مضوا تبعتهم وسألت عنهم فقيل لي أنهم نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري .

كما روى عن أبي هريرة أنه دخل المسجد فاجتمع عليه الناس فقام إليه شاب وقال : أنشدك الله أسمعت رسول الله يقول لعلي يوم غدير خم :

من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

فقال اللهم نعم .

وفي رواية ثانية رواها عن أبي هريرة في بدايته أن الآية :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ .

نزلت على النبي بهذه المناسبة .

وقال ابن كثير في بدايته بعد أن اطال الحديث عن موقف النبي في غدير خم ، قال : أن علي بن أبي طالب جمع الناس في الرحبة وفيهم جماعة من الصحابة كانوا قد حجوا مع النبي في السنة العاشرة من هجرته ، فقام سبعة عشر رجلا ممن حضروا معركة بدر فشهدوا أن النبي (ص) أخذ بيد علي وقال :

ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى يا رسول الله . فقال من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

ومضى ابن كثير يقول : أن الطبري قد ألف في حديث الغدير مجلدين جمع فيهما اسانيده وألفاظه ، وبعد أن وصف بعضها بالضعف لم يجد بدا من الاعتراف بأن الحديث متواتر ولا سبيل لانكاره ، ولكنه لا يفيد الشيعة على حد تعبيره .

وعلى أي الأحوال فقد روى حديث الغدير بالنص الذي ذكرناه جميع المحدثين والمؤرخين ، كما رواه كل من الامام أحمد في مسنده ، والرازي في تفسيره ، والبغدادي في تاريخه ، والطبراني في ذخائره وصاحبي الرياض النضرة وفيض الغدير في هذين الكتابين ، لقد أكد كل هؤلاء أن عمر بن الخطاب بعد أن انتهى النبي من خطابه هنأ عليا وقال له : اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن

ومؤمنة ، كما نص جماعة من المؤرخين أن أبا بكر قال له ذلك ، وأن الآية اليوم أكملت لكم دينكم نزلت على النبي بهذه المناسبة .

وقال المفيد في ارشاده : أن النبي أفرد لعلي خيمة وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجا فوجا ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ففعل ذلك كلهم حتى من كان معه من ازواجه ونساء المسلمين .

وجاء في الكافي للكليني عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمرو بن أذينة عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن اعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية عن أبي جعفر الباقر أنه قال : أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي وأنزل عليه :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

فلم يدروا ما هي الاية فأمر الله محمدا أن يفسرها لهم كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصيام والحج ، فلما أتاه ذلك من الله ضاق به ذرعاً وتخوف أن يرتدوا عن دينهم ويكذبوه فضاق صدره وراجع ربه ، فأوحى إليه :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

فصدع بأمر الله وقام بولاية علي يوم غدير خم فأنزل الله عليه :

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا .

وقال ابن الجوزي في تذكرته : لقد اتفق علماء السيرة على أن قصة الغدير كانت بعد رجوع النبي (ص) من حجة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة ، ومعه من الصحابة مائة وعشرون ألفا وقد سمعوا منه مقالته في علي (ع) بصريح العبارة دون التلويح والاشارة ومضى يقول : أن أبا إسحاق الثعلبي في تفسيره ذكر بإسناده أن النبي (ص) لما قال ذلك طار في الأقطار

وشاع في البلاد والامصار ، فبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري فأتاه على ناقة له وأناخها على باب المسجد وقال يا محمد : أنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا منك ذلك وأمرتنا بأن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة ونصوم شهر رمضان ونحج البيت ونزكي اموالنا فقبلنا منك ذلك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته على الناس وقلت من كنت مولاه فهذا علي مولاه فهذا شيء منك أو من الله ؟

فقال رسول الله : وقد احمرت عيناه : والله الذي لا إله إلا هو : أنه من الله وليس مني وكرر ذلك ثلاثا ، فقام الحرث وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فارسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فوالله ما بلغ ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على هامته وخرج من دبره فمات من ساعته ، فأنزل الله :

﴿ سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ﴾ .

ثم قال : فأما قوله من كنت مولاه ، فإن علماء العربية ذكروا أن المولى يرد على وجوه احدها المالك ومنه قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، اي على مالكه ، والثاني بمعنى المعتق بالكسر ، والثالث بمعنى المعتق بالفتح ، والرابع بمعنى الناصر ، ومنه قوله تعالى ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، أي لا ناصر لهم ، والخامس بمعنى ابن العم ومن ذلك قول القائل :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

والسادس الحليف وفي ذلك قال بعضهم :

موالي حلف لا موالي قرابة   ولكنْ قطينا يسألون الأتاويا

والسابع المتولي لضمان الجريرة وحيازة الميراث وكان ذلك في الجاهلية ثم نسخ بآية المواريث ، والثامن الجار ، وإنما سمي بالمولى لما له من الحقوق

بالمجاورة ، التاسع السيد المطاع وهو المولى المطلق . وقال في الصحاح كل من ولي أمر احد فهو وليه ، والعاشر بمعنى الأولى ، قال الله تعالى : فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم أي أولى بكم

ومضى يقول : فإذا ثبت ذلك لم يجز حمل لفظ المولى في الحديث على مالك الرق ، لأن النبي لم يكن مالكا لرق علي ، ولا على المولى المعتق بالكسر ، لأنه لم يكن معتقا لعلي (ع) ولا على المعتق بالفتح ، لأن عليا كان حرا ، ولا على الناصر ، لأنه (ع) كان ينصر من ينصر رسول الله ويخذل من يخذله ولا على ابن العم ، لأنه كان ابن عمه ، ولا على الحليف لأن الحلف بين الغرماء للتعاضد والتناحر ، وهذا المعنى موجود فيه ، ولا على المتولي لضمان الجريرة ، لما قلنا من أن ذلك نسخ بآية (المواريث) ولا على الجار ، لأنه يكون لغوا من الكلام ، ولا على السيد المطاع ، لأنه كان مطيعا له يقيه بنفسه ويجاهد بين يديه بكل ما يملك ، فتعين الوجه العاشر وهو الأولى ، ومعناه من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه ، وأضاف إلى ذلك أن الحافظ أبا الفرج يحيى بن سعيد الثقفي الاصبهاني صرح بذلك في كتابه مرج البحرين ، ويدل على ذلك قول النبي في مطلع الحديث ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، واستطرد يقول : وهذا نص صريح في اثبات ولايته وقبول طاعته .



مع النبي في ساعة الوداع

لم يكن موقف النبي في غدير خم آخر المواقف التي وقفها من اختيار علي للخلافة من بعده بل تلاها موقف آخر في الأيام الأخيرة من حياته لا يقل في معناه ومضمونه عن مواقفه السابقة يوم الدار وفي غزوة تبوك وغدير خم وغير ذلك من المواقف التي كان يعده فيها للخلافة تصريحا وتلميحاً وغير ذلك . فلقد اتفق المحدثون والمؤرخون أنه في الأيام الأخيرة من حياته لم يكن يعنيه شيء أكثر من ارسال جيش يضم اكبر عدد من المسلمين بما في ذلك أبو بكر وعمر ووجوه المهاجرين والانصار إلى حدود الحجاز الشمالية بقيادة اسامة بن زيد وهو شاب لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، وفي المسلمين من هو أشد صلابة منه وأكثر مرونة في المعارك والحروب مما دعا إلى دهشة كبار الصحابة وتثاقلهم من الانضواء تحت قيادته وارتفعت الاصوات من هنا وهناك تطالبه أن يولي عليهم غيره ، فخرج إليهم وكان قد أسرع إليه المرض فخطبهم وحثهم على الخروج بقيادته وقد بدا عليه الانفعال والتصلب ، فقال لهم : لعمري لئن قلتم في امارته اليوم فلقد. قلتم في امارة أبيه من قبله وأنه لخليق بها كما كان أبوه خليقا بها من قبل ، وظل يلح عليهم في انفاذ الجيش والخروج معه وهم يماطلون ويسوفون وقال لهم : انفذوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عن جيش اسامة .

وجاء في سيرة ابن هشام أن رسول الله (ص) استبطأ الناس في بعث أسامة وأخذ الوجع يشتد به فخرج عاصبا رأسه وجعل يحثهم على الخروج بالجيش ثم قال :

أيها الناس أني أوشك أن ادعى فأجيب وأني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير اخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

وأضاف إلى ذلك الشيخ المفيد في ارشاده أنه قال : أيها الناس لالفينكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار ، إلا وأن علي بن أبي طالب اخي ووصي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله إلى غير ذلك من أمثال هذه المواقف التي لا يستعصي فهم مقصوده منها على احد ، ولم يكن اصراره على تسريح الجيش وانضمام الطامعين في الخلافة إليه مع علمه بمصيره العاجل إلا ليخلو الجو لعلي (ع)[1] ومن ذلك موقفه الأخير وقد اجتمع حوله جماعة من وجوه المسلمين لعيادته وهو على ثقة بأنه قد اصبح على وشك الرحيل فأراد أن يسجل استخلاف علي (ع) في كتاب خاص لا يستطيع احد تحويره ولا أنكاره بالاضافة إلى تلك النصوص التي تواترت عنه وملأت القلوب والاسماع ، ولكنهم على ما يبدو كانوا يخشون منه ذلك ويعدون للقضاء على محاولة من هذا النوع وغيره تمهد لوصول علي إلى الخلافة . وقد اتفق الرواة على أنه قد طلب منهم دواة وكتفا ليكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده ابدا على حد تعبير الرواة ، فقام بعضهم يلتمس له ما أراد ، فأرجعه ابن الخطاب ، ولم يكتف بذلك ، بل قال أنه يهجر ، يعني بذلك لا يعي ما يقول .

وجاء في رواية البخاري من كتاب المرض والطب أنه اجتمع عند رسول الله رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال لهم النبي (ص) هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا ، فقال عمر بن الخطاب : أن النبي غلبه الوجع وعندنا القران حسبنا كتاب الله فاختلف الحاضرون واختصموا فأمرهم النبي بالانصراف .

---

(١) انظر المجلد الثالث من شرح النهج ص ١٧٢ .

وفي رواية ثانية أنهم بعد موقفهم المعارض لكتابة الكتاب قالوا له : لا نأتيك بالدواة والكتف يا رسول الله ، فقال لا . أبعد الذي قلتم ، ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيرا .

وتكاد الروايات التي وصفت مرض النبي وما جرى فيه من أحداث ومحاورات وتحدثت عن رغبته الملحة في كتابة شيء يجمعهم على الحق والهدى ، تكاد تلك الروايات تتفق على أن عمر بن الخطاب لقد حال بين النبي وما يريد ووصفه بالهذيان ، أو ما يلزمه ذلك .

ولولا أنه ادرك أن الكتاب له صلة مباشرة بمصير المسلمين بعد وفاة نبيهم وبمن استخلفه من بعده لم يقف هذا الموقف ، ولعل النبي بعد أن رأى منهم ذلك وسمع عمر بن الخطاب يصفه بالهذيان أو بما يؤدي هذا المعنى اعرض عن كتابة الكتاب لأنه ليس لدى القوم ما يمنعهم من ترويج هذه المقالة بعد وفاته لابطال مفعول الكتاب ، أو تأويل مضامينه بما يتفق مع مصالحهم وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك ، ولذا فإنهم لما عرضوا عليه أن يكتب ما يريد بعد مقالة ابن الخطاب ، قال لهم : أبعد الذي قلتم .

وجاء عن ابن عباس أنه كان إذا تذكر ذلك اليوم يتحسر ويتأسف وأحيانا يبكي لفوات تلك الفرصة التي لو تمت حسبما يرى ابن عباس لا يتخلف عن علي اثنان .

وحسب تقديري أن هذا الحديث من الموضوعات لأن عبد الله بن عباس لم يكن لتخفى عليه نوايا القوم ومخططاتهم لاقصاء علي عن الخلافة واستيلائهم عليها ولو بأغلى الاثمان .

وكما ذكرنا فلقد انكشف للنبي كما يبدو من قوله : أبعد الذي قلتم ، أنه لو كتب لهم عشرين كتابا سوف يحورونها ويتأولون مضامينها كما أنكروا بقية النصوص وتأولوا بعضها ، وإذا لم يجدوا سبيلا لذلك ليس لديهم ما يمنع من القول أنه كان فاقد الوعي حين كتابتها من شدة الوجع ، وبذلك يفتحون أبوابا للتشكيك فيما بلغه عن الله سبحانه بعد أن جوزوا عليه أن يتكلم ويبلغ وهو

بحالة اللاوعي والرشد كما توحيه كلمة عمر بن الخطاب . ولذلك حينما تطوع بعض الحاضرين وجاءه بالدواة والكتف وطلب منه أن يكتب ما يريد قال لهم : أبعد الذي قلتم واكتفى بأن يوصيهم بثلاثة امور : اخراج المشركين من جزيرة العرب وأن يجيزوا الوفود التي كانت تأتيه كما كان يصنع ونسي الرواة وصيته الثالثة ، غير أن المرويات عن الأئمة الاطهار تؤكد أنها تتعلق بأمر الخلافة من بعده .

وجاء في المجلد الثالث من صحيح البخاري باب مرض النبي (ص) بسنده إلى سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول : لقد اشتد الوجع برسول الله يوم الخميس فقال ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ابدا فتنازعوا وما ينبغي عند نبي نزاع ، فقالوا ما شأنه اهجر استفهموه فذهبوا يرددون عليه فقال دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه وأوصاهم بثلاث : اخراج المشركين من جزيرة العرب وأن يجيزوا الوفود التي كانت تأتيه بمثل ما كان يجيزهم وسكت الراوي عن الثالثة أو قال أني نسيتها على حد تعبير البخاري في صحيحه .

وروى هذه الرواية بنصها ابن سعد في طبقاته والطبري في تاريخه ، وابن كثير في بدايته ، ومسلم في صحيحه ودونها اكثر المؤلفين في الحديث في مجاميعهم على هذا النحو ولم يذكروا من وصاياه إلا وصيتين وسكتوا عن الثالثة أو تناسوها مجاراة للحاكمين الذين تقمصوا الخلافة بعد الرسول ، في حين أنه لم يسبق من أحد الرواة لاحاديثه ان فاتهم شيء من أقواله وأفعاله وأحصوا عليه حتى أنفاسه فكيف نسي الحاضرون على كثرتهم وصيته الثالثة وهو في حالة الوداع لهم ، ولولا أنها تأكيد لنصوصه السابقة على خلافة علي (ع) لم ينسها أو يتناسها أحد .

ومهما كان الحال فلقد ظل النبي أياما يعاني من وطأة المرض وفي الوقت ذاته يلح عليهم بالسفر مع اسامة ويؤكد على اسامة بأن يخرج بالجيش بالرغم من أنه جاء يطلب منه أن يمهله ولو أياما قلائل ليطمئن على سلامته فلم يسمح له بذلك .

قبيل وفاته بساعات قليلة خفت عنه وطأة المرض فخرج يتوكأ على الفضل ابن العباس وعلي ، فظن المسلمون أنه بدأ يتماثل للشفاء فخرج منهم جماعة لشؤونهم ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى عاوده الضعف والألم ، فسمع وهو يقول : بل الرفيق الأعلى ، وكان علي (ع) قد احتضنه حينما رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة وهو على صدره وكان ذلك لليلتين بقيتا من صفر كما رجح ذلك اكثر المحدثين .

لقد اختار الرفيق الاعلى على الخلود في هذه الدنيا بعد جهاد استمر اكثر من عشرين عاما لم يذق خلالها طعم الراحة لإرساء تلك القيم التي دعا إليها في نفوس اصحابه لتصبح من بعده ارثا للاجيال في كل زمان ومكان ، وناشدهم وهو في مرضه على فراش الموت يعاني آلامه وأهواله أن يحفظوه في كتاب الله وعترته من أهل بيته وأن يكتب لهم كتابا لن يضلوا من بعده أبدا إذا أخذوا بتعاليم الكتاب واتبعوا سيرة العترة فوصفوه بالهذيان فيئس منهم واختار الرفيق الاعلى مع اخوانه النبيين والمرسلين ، وأطل في تلك اللحظات على مستقبلهم القريب فرآهم وقد ارتدوا على أعقابهم ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم كما يروي البخاري وغيره من المحدثين .

واتفق المؤرخون على أن أبا بكر كان خارج المدينة حين وفاته ولم يكن حوله غير علي وبني هاشم وقد علم الناس بوفاته من الضجيج وعويل النساء فأسرعوا وتجمعوا في المسجد وخارجه وهم بين واجم مدهوش وصائح ونائح ، وفيما الناس على هذه الحالة من الحزن والألم وإذا بعمر بن الخطاب يدخل على رسول الله وثورة الغضب بادية على قسمات وجهه ، فكشف عن وجه النبي (ص) ورجع يهرول إلى الوراء بين الجماهير المحتشدة وبيده السيف يهزه ويقول : أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات ، أنه والله ما مات ولكنه قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، والله ليرجعن ويقطع ايدي اناس وأرجلهم ، وجعل كما تصفه الروايات لا يمر بأحد يقول أن رسول الله قد مات إلا خبطه بسيفه وتوعده بالنكال والعقاب ، واستمر على ذلك مدة من الزمن يروح ويغدو بين الجماهير المحتشدة في المسجد وخارجه يزبد ويرعد

ويقول أنه سيرجع بعد اربعين ليلة كما رجع موسى بن عمران كما جاء في روايتي ابن سعد وابن كثير وغيرهما .

فاستطاب السذج من المسلمين منه هذا الموقف وعاودهم الأمل بعودة النبي ، كما استغربه فريق آخر ودهشوا لهذا الموقف من رجل كعمر بن الخطاب ومن حماسه لترويج هذه الاسطورة لعلمهم بأنه لم يكن في مستوى من يتعللون بالاوهام ويجهلون قضية الموت التي لا ينجو منها أحد من الناس .

وظل عمر بن الخطاب على موقفه هذا إلى أن رجع أبو بكر ، فانطلقا معا إلى حيث جثمان النبي (ص) فوقف عليه أبو بكر وكشف عن وجهه الكريم وخرج إلى الناس مسرعا وقال :

أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ .

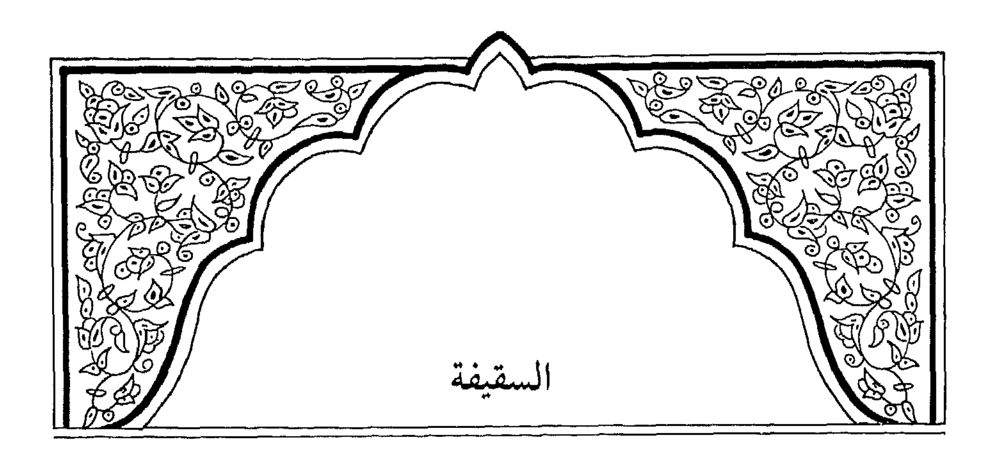
فاستيقظ الجمهور لمقالة أبي بكر وتلقوها بالاذعان والقبول وراحوا يرددون الآية وكأنهم لم يسمعوها من قبل على حد تعبير ابن هشام في سيرته وسكنت ثـورة ابن الخطاب وكأنه لم يصنع شيئاً ، وخرج هو وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح من البيت الذي فيه الجثمان وتركوه إلى علي وأهله المفجوعين بوفاته وقد اذهلهم المصاب عن كل شيء وعن التفكير بالخلافة وشؤونها .

أما إلى أين ذهبوا ولماذا كانوا يخططون فالتاريخ لم يتعرض لشيء من ذلك ، ولكن موقف عمر بن الخطاب من وفاته وحرصه البالغ على أن يعيد إلى الأذهان فكرة حياته ورجوعه كما رجع موسى بن عمران وخروجه مع أبي بكر وأبي عبيدة وتراجعه عن موقفه بتلك السرعة الخاطفة كل ذلك بالاضافة إلى مواقفه قبل وفاة الرسول من كتابة الكتاب واصراره مع أبي بكر على عدم

الانضمام إلى جيش اسامة بالرغم من موقف النبي المتصلب من هذا الأمر بالذات وإلى غير ذلك من الشواهد والقرائن التي تلقي الضوء على أن الفوم كانوا قد اعدوا مخططا للاستيلاء على السلطة واقصاء علي عنها ، ولم يكن موقف عمر بن الخطاب من وفاة النبي إلا حلقة من التدابير التي أعدوها لانجاح المؤامرة التي اتفقوا عليها من قبل .

وقد أدرك هذه الحقيقة جماعة من المستشرقين والكتّاب العرب المحدثين وألمح إليها بعض المؤلفين القدامى في هذا الموضوع ، وبهذه المناسبة قال المستشرق لانس في كتابه .

إن الحزب القرشي الذي يرأسه ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لم يكن وليد مفاجأة وارتجال وإنما كان وليد مؤامرة سرية مجرمة حيكت أصولها ورتبت أطرافها بكل احكام واتقان ، وأن ابطال هذه المؤامرة أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ومن اعضاء هذا الحزب عائشة وحفصة .



السقيفة

لقد اتفق المؤرخون والمحدثون بأن موقف عمر بن الخطاب من وفاة الرسول فد انتهى بحضور أبي بكر وقراءته الآية على الناس وهدأت ثورة عمر بن الخطاب وخرجا معا من البيت وتركاه بين أهله المفجوعين بوفاته وكما ذكرنا أن الذي تؤكده القرائن والملابسات وسير الأحداث أنهما انصرفا إلى مكان ما كانوا قد أعدوه لاتخاذ التدابير اللازمة وحسب تقديري أن أكثر الأنصار بما فيهم سعد بن عبادة لم يضعوا في حسابهم غير علي للخلافة بعد النبي (ص) كما كان الاعتقاد السائد بين عامة المسلمين أنها لن تعدوه ، ولكن بعد أن تبين للأنصار أن شيوخ المهاجرين قد تكتلوا لصرفها عنه والاستيلاء عليها وتجاهلوا نصوص الرسول عليه وأنهم في هذا التحالف القرشي الجديد يرجعون إلى إحياء الروح الجاهلية والنزعات القبلية ، في حين أنهم قد قدموا للدعوة وصاحبها وبذلوا له من أنفسهم وأموالهم ما لم يقدمه ويبذله أحد من المهاجرين الذين يخططون للاستيلاء على السلطة من بعده . بعد أن تبين لهم ذلك اجتمع فريق منهم تزعمه سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة للتداول بشأن الخلافة وهتف جماعة منهم باسم سعد بن عبادة كما تنص على ذلك أكثر المرويات ، ولما اتصل الخبر بالمهاجرين عن طريق بعض الأنصار الذين كانوا يناوئون سعدا ويعملون لغير صالحه تركوا مكانهم وأقبلوا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة فوقف خطيبهم وأشاد بالأنصار ومواقفهم وتضحياتهم في سبيل الإسلام وتمنى على المهاجرين أن لا يتجاهلوهم ويجعلوا لهم شيئا من الأمر . وتحدث بعده أبو بكر فنوه بفضل قريش

وأمجادها وعاد وأعاد إلى الأذهان مواقف العرب قبل الإسلام وتفاخرهم بالاحساب والانساب .

وجاء في رواية العقد الفريد أنه قال : نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرمهم احسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها وأمسهم برسول الله رحما ، ومضى يقول : أن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما فضلّهم الله به فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأشار إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح .

وانتهز أبو بكر وهو يتحدث عن قريش وأمجادها وعن المهاجرين بالذات صوت بشير بن سعد الخزرجي ، وقد ارتفع في ناحية من نواحي البيت وأخذه الحسد لابن عمه وهو يقول :

أيها الناس الا أن محمدا من قريش وأن قومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا .

وأبى عليه الحباب بن المنذر الخزرجي أن يبرز بين الناس بهذا الأسلوب الذي يتسم بطابع الدجل والنفاق والحسد لابن عمه ، فقال لقد عز على بشير بن سعد أن يتولى ابن عمه السلطة بعد النبي حسدا وبغضا فظهر بمظهر من لا يريد أن ينازع أحدا حقا هو أولى به ، ثم قال : ما أحوجك إلى ما صنعت يا بشير لقد نفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة .

ولم ينته الجدل عند هذا الحد بل قام اسيد بن حضير أحد زعماء الأوس يثير في النفوس أحقاد الجاهلية ويذكر بما بين الحيين الأوس والخزرج من خلافات وأحقاد وعصبيات قد اطفأتها سماحة الإسلام .

ومضى يخاطب الأوس ويقول : يا بني الأوس والله لأن وليتموها سعدا عليكم مرة لا يزال للخزرج بذلك عليكم الفضل ولا جعلوا لكم فيها نصيبا ابدا .

واستغل أبو بكر صوت بشير بن سعد الذي جر هذا الانقسام ، فأخذ

عمر بن الخطاب بيد وأبا عبيدة بالأخرى ونادى أيها الناس ، هذا عمر وهذا ابو عبيدة فبايعوا أيهما شئتم ، وقام الحباب بن المنذر بعد هذا التدبير المدروس بين الثلاثة ، وقال : يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيدهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، واستولى الغضب على ابن الخطاب فانبرى يقول :

منذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدلٍ بباطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة .

ولما سمع الحباب بن المنذر تحدي عمر بن الخطاب وأسلوبه المتغطرس توجه إلى الأنصار وقال :

أما إذا ابوا عليكم ما سألتموهم فأجلوهم عن هذه البلاد فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، بأسيافكم دان بهذا الدين من دان ، ثم انتضى سيفه يلوح به ويقول : أنا جذيلها المحكك وغذيقها المرجب ، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة ، وهنا عصف الغضب بجوانح عمر بن الخطاب وكاد أن يقع الشر بين الطرفين ، فوقف أبو عبيدة بن الجراح ليحول دون وقوع الفتنة ، فقال بصوت هادىء : يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من غير وبدل ، ومضى يتحدث بلهجة فيها توسل ورجاء فلم يلبثوا حتى هدأت نفوسهم وانقسم الأنصار على أنفسهم وأسرع عمر بن الخطاب بعد هذا الحوار إلى أبي بكر وقال :

أبسط يدك يا أبا بكر ، ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك الله فيه ، وقام بعده أبو عبيدة بن الجراح وقال له :

إنك لأفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، فبسط أبو بكر لكليهما كفه فبايعاه وأسرع بعدهما بشير بن سعد وجماعة من الخزرج فبايعوه وتبعهم أسيد بن حضير بمن معه من الأوس ، وخرجوا من سقيفة بني ساعدة يهتفون لأبي بكر ولا يمرون على أحد إلا وأخذوا بيده وأمروها على يد أبي بكر ومن أبى ضربه عمر بن الخطاب بدرته وتكاثر عليه أتباعه حتى

يرغموه على البيعة وتمت بيعة أبي بكر بهذا النحو الذي كان مفاجأة لأكثر الناس .

ومن مجموع ذلك يتبين أن التخطيط لاقصاء علي عن السلطة والاستيلاء عليها لم يكن وليد ساعته كما تؤكده الشواهد السابقة وأن موقف الأنصار بقيادة سعد بن عبادة كان ارتجاليا لم يحضر له من قبل كما يبدو ذلك من اختلافهم وتضارب آرائهم كما تبين أن القادة الثلاثة أبا بكر وعمر بن الخطاب وابن الجراح هم قادة الحزب القرشي المتآمر على الاستيلاء على السلطة واقصاء علي بن أبي طالب عنها وأن أقوى ما لديهم من الأدلة في مقابل الأنصار لا يعدو الأمرين التاليين أولهما أن المهاجرين أول الناس إسلاما ، والثاني أنهم أقرب الناس إلى رسول الله وأمسهم به رحما ، وقد أدان هؤلاء القادة أنفسهم بهذه الحجة ، ذلك لأن الخلافة إذا كانت بالسيف إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول الله كما يدعون فهي لعلي وحده ، لأنه أول الناس إسلاما وإيمانا وتصديقا برسالة محمد بن عبد الله باتفاق جميع المسلمين ، وأخوه بمقتضى المؤاخاة التي عقدها النبي بينه وبينه يوم آخى بين المهاجرين في مكة ، وبينهم وبين الأنصار في المدينة وابن عمه نسبا وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه بلا شك في ذلك عند أحد من الناس .

لقد ناقض نفسه أبو بكر حينما احتج على الأنصار بالقرابة والسبق إلى الإسلام ورشح لها عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح لأنهما أسبق إلى الإسلام من الأنصار وأمسهم بالنبي رحما وتجاهل علي بن أبي طالب الذي بايعه مائة ألف أو يزيدون في غدير خم قبل مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وقد سبق جميع الناس إلى الإسلام . وكان ابن عم النبي نسبا وأخاه وحده في الله بإجماع المؤرخين والمحدثين ، وبمواقفه وتضحياته وجهاده استقام الإسلام وانتصر على الشرك والوثنية وعلى قريش التي عادت سيرتها الأولى تحارب محمدا بشخص علي (ع) .

وما كان أبو بكر بالغبي الذي يعتقد سلامة هذا الأسلوب وكفايته حين رشح لها أحد الرجلين ولكنه هو وحزبه كانوا قد خططوا لذلك واتفقوا مع بعض

الأنصار والمهاجرين على اقصاء علي عن الخلافة والاستيلاء عليها بكل الأساليب ، وكان يتكلم مع الفريق الثاني من الأنصار الذين استفزهم موقف أبي بكر وأنصاره واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يتداولون في مصير الخلافة ، كان يتكلم معهم هو ورفيقاه بمنطق القوي الذي يريد أن يفرض على الغير وجوده ولو بهذا النحو من التمويه والتضليل .

ومما يدل على ذلك جواب عمر بن الخطاب له حينما أشار على الحضور أن يبايعوا أحد الرجلين عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة ، فأجابه على الفور أيكون هذا وأنت حي ، ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله[1] .

هذا الجواب يشير إلى تخطيط واتفاق بينهما على الأسلوب الذي تتم فيه بيعة أبي بكر ، وفي الوقت ذاته يحاول ابن الخطاب من خلاله تضليل الرأي العام وإيهامه بأن رسول الله قد اختاره للخلافة كما يشير إليه قوله :

ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله ، هذا مع العلم بأن المؤرخين لحياة الرسول (ص) من القدامى والمحدثين والثقاة الذين حفظوا حديثه ورووه للأجيال لم يدعوا بأن النبي قد لوح له ولو من بعيد بذلك المقام الذي يعمل من أجله ابن الخطاب وأنصاره ، بل أن مواقف النبي معه كانت على العكس من ذلك فلم يعهد إليه بأمر ولا وضعه في مكان يحقق له امتيازا عن غيره ، وكان إذا أرسله على رأس سرية من السرايا كما حدث له في غزوة السلاسل ، أو أعطاه الراية كما صادف ذلك في خيبر يرجع فاشلا مخذولا ، وفي الأيام الأخيرة من حياته بعد أن علم بقرب أجله أراد أن يخرجه من المدينة كجندي من جنود المسلمين هو وعمر بن الخطاب بقيادة أسامة بن زيد وهو شاب لا يتجاوز العشرين من عمره على أبعد التقادير .

أما حديث صلاته بالناس في بعض الأيام خلال مرض النبي الذي أشار

---

(١) انظر ج ١ من حياة الامام الحسن للقرشي ص ١٥٠ .

إليه أبو عبيدة في حديثه مع الأنصار فمع أن امامة المصلين كانت ولا تزال مألوفة يتعاطاها الكبير والصغير والفاضل والمفضول فهي على تقديرها لا توجب له فضلا على أحد من الناس ، وليست من مختصات الأنبياء والأولياء والقديسين ، ولقد دعته إليها ابنته عائشة حيث كان النبي في وضع لا يسمح له بترك فراشه ، ولما علم بالأمر خرج يتوكأ على علي والعباس ونحاه عن محرابه ، وصلى بالناس وهو يعاني من وطأة المرض وآلامه .

والشيء الغريب الذي لا يقره العقل والمنطق أن يعتبرها جماعة من علماء السنّة ومحدثيهم فضيلة لأبي بكر تؤهله للخلافة ، في حين أنهم يعترفون بمواقف النبي (ص) من علي يوم الدار وفي أحد والأحزاب والحديبية وخيبر وحنين وتبوك وفي غدير خم ومؤاخاته له في مكة والمدينة ولا يرون في جميع ذلك دليلا على اختياره لمنصب الخلافة من بعده بل ولا تلميحا على اختياره ، ويرون في صلاة أبي بكر ركعتين بالمسلمين دليلا واضحا على اعداده لقيادة الأمة من بعده وإعطائه الصلاحيات التي كانت له .

ومما يدل على أن حركة الأنصار واجتماعهم في السقيفة كانت ردا على التخطيط الذي وضعه المهاجرون للاستيلاء على السلطة ما جاء في رواية الزبير بن بكار حيث قال :

لما بايع الجماعة أبا بكر أقبلوا به على المسجد يزفونه زفا ، فلما كان آخر النهار اجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين وتعاقبوا فيما بينهم على الكلام ، فقال عبد الرحمن بن عوف :

يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم أولي فضل ونصر وسابقة ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أبي عبيدة .

فقال زيد بن أرقم : إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وأن منا لسيد الأنصار سعد بن عبادة ومن أمر الله رسوله أن يقرأه السلام وأن يأخذ عنه القرآن أبي بن كعب ومن يجيء يوم القيامة أمام العلماء معاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين وهو خزيمة بن ثابت ، وإنا لنعلم أن

بين من ذكرت من قريش من لو طلب الخلافة لم ينازعه فيها أحد وهو علي بن أبي طالب .

وجاء في تاريخ الطبري أن أبا بكر لما اقترح أحد الرجلين أبا عبيدة أو عمر بن الخطاب وانسحبا هما لأبي بكر قال الأنصار لا نبايع إلا علي ابن أبي طالب[1].

هاتان الروايتان رواية شرح النهج عن ابن بكار ورواية الطبري صريحتان أن الأنصار لم يعارضوا في علي بن أبي طالب لو أنه كان مرشح المهاجرين لها ، وهذا يعني أن موقفهم المعارض لأبي بكر في السقيفة كان ردا على التخطيط الذي وضعته قريش للاستيلاء على السلطة وانتزاعها من أصحابها الشرعيين .

وقال الأستاذ توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت :

ولا يبعد أن يكون سعد بن عبادة لما رأى تصميم المهاجرين على عدم اعطاء الحق لأهله طلبه لنفسه .

ومهما كان الحال فلقد كانت مواقف النبي من علي (ع) وتصريحاته المتتالية فيه في مختلف المناسبات تجعله بحكم المتعين لها بنظر الجمهور الأعظم من المسلمين حتى أن عليا نفسه كان واثقا بأن الأمر لا يعدوه .

وجاء في شرح النهج لابن أبي الحديد أن عليا (ع) كان لا يشك في أن الأمر له وأنه لا ينازعه فيه أحد من الناس ومضى يقول :

وقد قال له عمه العباس : امدد يـدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك إثنان ، فقال يا عم : وهل يطمع فيها طامع غيري ، قال ستعلم ، فقال إني لا أحب هذا الأمر من وراء رتاج .

وبالطبع لقد دهش هو ومن معه لهذا الحدث العظيم حينما سمع به ورأى

---

(١) انظر الجزء الثالث من تاريخ الطبري ص ١٩٨ .

الناس يزفون أبا بكر إلى المسحد كما تزف العروس والنبي (ص) لا يزال مسجى بين أهله وزوجاته ينتظرون أن يتم تجهيزه لمقره الأخير ، وحينما بلغه أن أبا بكر قد احتج على معارضيه من الأنصار بقرابته من رسول الله وسبقه إلى الإسلام كان لزاما عليه أن يلزمهم بما الزموا به غيرهم ولو كان لا يؤمن بصحة هذه الحجة ولا بجدواها ، وباستطاعته أن يقدم لهم عشرات الأدلة التي لا تقبل الجدل والمراجعة لو كانوا يصغون إلى المنطق وتردعهم الحجة عما هم جادون فيه ، ومع ذلك فقد احتج عليهم بالحجة التي تغلبوا فيها على الأنصار وبأقوال الرسول ونصوحه عليه وبماضيه وجهاده وأخوته لرسول الله وظل متمسكا بحقه وإلى جانبه زوجته سيدة النساء تطالب بنحلتها وحق زوجها في الخلافة حتى أثارت النفوس وألهبت المشاعر وندم الكثير من المسلمين على استجابتهم لتلك البيعة المرتجلة وموقفهم المتخاذل منها ومن ابن عمها وأخذوا يتسللون إلى دار علي (ع) ويتكتلون ضد الحكم القائم ويتداولون فيما يجب أن يكون ، فأحس أبو بكر وأنصاره بالخطر ، فاتفقوا على مهاجمة الدار ومقابلة الموقف الذي كاد أن يتفجر بالشدة والصرامة واستعمال كل الوسائل ولو بإحراق البيت على من فيه ، فأصدر أبو بكر أوامره إلى جماعته بمهاجمة الدار ، فذهب عمر بن الخطاب ومعه أنصاره وحملوا معهم الحطب لإحراق الدار إذا لم يستجب من فيها لمطالبهم ، فهاجموها وعمر بن الخطاب ينادي والذي نفس عمر بيده لتخرجن من الدار إلى البيعة أو لاحرقنها على من فيها وبدا عليه الاصرار والتصميم على ذلك ، فقال له بعض من معه كما يحدث الرواة : أن في الدار فاطمة بنت رسول الله . فقال : وإن كانت فيها . فخرج إليهم الزبير بن العوام بسيفه فتعثر ووقع السيف من يده ، فصاح ابن الخطاب بمن معه ويلكم تناولوا السيف فأخذوه وضربوا به الحائط كما جاء في رواية الطبري وغيره ، وحاول القوم أن يدخلوا الدار فوقفت فاطمة الزهراء وراء الباب تحاول منعهم من دخولها فلم يراعوا حرمتها ومقامها من رسول الله . وقيل أنها اسقطت حملا كان رسول الله قد سماه محسنا بسبب موقفهم منها ، وسواء صحت هذه المرويات أو لم تصح فمما لا شك فيه أن موقفهم منها كان في منتهى الجفاء والقسوة والتحدي لمقامها الرفيع من رسول الله (ص) في حين أنهم سمعوا رسول الله أكثر من مرة يقول لها : إن

الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك ، كما سمعوه يقول مرارا فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن أغضبها فقد أغضبني كما روى ذلك محدثو السنّة في صحاحهم ومجاميعهم ، وقد وصف موقفهم منها شاعر النيل حافظ إبراهيم بقوله :

وقـولـة لـعـلي قـالهـا عـمـر   اكـرم بسـامعهـا انعم بملقيهـا
حـرقت دارك لا ابقي عليـك بهـا   إن لم تبـايع وبنت المصـطفى فيهـا
مـا كـان غـير أبي حفص يفـوه بهـا   امـام فـارس عـدنـان وحـاميهـا

وقد تحدثنا عن مواقف الزهراء في الخلافة وإرثهـا من أبيها خـلال حديثنـا عنها في الفصول السابقة بما فيه الكفاية .

وذهب اكثر الرواة إلى أن أبا سفيان وقف موقف المتحمس لعلي وأخذ يهدد ويتوعد ويقول : والله لأملأنها عليهم خيلا ورجالا ، ولم يكن ليخفى على علي (ع) أن ذلك منه كان بقصد الوقيعة بين المسلمين واشعال الفتنة ليتاح له ولامثاله ممن اسروا الشرك والنفاق أن يصلوا لاهدافهم المعادية للاسلام وحماته الذين حاربهم أبو سفيان عشرين عاما ، وبالتالي كان اسلامه واسلام زوجته هند آكلة الأكباد عام الفتح أعسر اسلام عرف بين المسلمين ، لأنه كان اسلام مغلوب اعيته جميع الوسائل فاضطر اخيرا إلى الدخول مع المسلمين وفي نفسيهما آلام وأحقاد كانت تظهر بين الحين والآخر .

ويروي الرواة أن أبا سفيان نظر إلى النبي (ص) يوما بعد دخوله في الاسلام وهو في المسجد وحوله اصحابه نظرة تنم عن الحقد والألم المرير فجالت في نفسه كلمات لم تخرج من شفتيه ، ليت شعري بأي شيء غلبني هذا الرجل ، وبالرغم من أنها لم تخرج من شفتيه فقد أدركها النبي (ص) ولم يتركها له ، فأقبل عليه وضرب بيده بين كتفيه وقال له : بالله غلبتك يا أبا سفيان .

وجاء في رواية الطبري وابن الأثير في الكامل أن أمير المؤمنين زجر أبا سفيان بن حرب وقال له : والله ما أردت إلا الفتنة ، وأنك والله طالما بغيت

للاسلام شرا لا حاجة لنا في نصرتك ، وأضاف إلى ذلك الطبري أنه لما استولى أبو بكر على الخلافة قال أبو سفيان : مالنا ولأبي فضيل إنما هي لبني عبد مناف ، فقيل له أنه قد ولى ابنك فقال : وصلته ، رحم[1] .

وقال في شرح النهج أن النبي (ص) قبل وفاته بعث أبا سفيان ساعيا فرجع من سعايته وقد مات رسول الله (ص) فلقيه قوم فقال من تولى بعد رسول الله ؟ قيل له : أبو بكر، فقال أبو فضيل وبلغت مقالته عمر بن الخطاب، فقال لأبي بكر : إنا لا نأمن شر أبي سفيان فترك له ما في يده من الصدقات التي جباها فسكت ورضي بذلك[2] .

وتنص اكثر المرويات على أن أبا سفيان لم يسكت إلا بعد أن يأمن من علي بن أبي طالب وظل فترة من الوقت يسعى جاهداً لاذكاء روح المنافسة والصراع على الخلافة وهو يأمل أن يؤدي ذلك إلى قتال مرير ينتج عنه رجوع العرب عن الاسلام وتنكرهم لمحمد ورسالته فدخل على علي (ع) وعنده عمه العباس بن عبد المطلب وجعل يثيرهما على أبي بكر وعمر ويلتفت مرة إلى علي وأخرى إلى العباس ويقول :

ما بال هذا الأمر يصبح في أذل بيت في قريش وأقلها عودا ، والله لو شئت لاملأنها عليه خيلا ورجالا وأخذتها عليه من اقطارها ، وكما ذكرنا فإن عليا (ع) لم يكن لتخفى عليه نوايا أبي سفيان وأنه لم يغضب لأجل بني هاشم ، ولو كانت الخلافة فيهم لضاق به أمره وحاول مع زمرته أن يثيروا الدنيا على الهاشميين لذلك فقد نظر إليه بثقة وهدوء وقال : والله ما زلت تكيد للاسلام يا أبا سفيان وتعمل على اثارة الفتن ، واضاف إلى ذلك أن المؤمنين يا أبا سفيان ينصح بعضهم بعضا ويعملون بكل اخلاص للمصلحة ، وأن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض وأن قربت ديارهم وأبدانهم ، فانطوى على

---

(١) انظر الجزء الثاني من تاريخ الطبري ص ٣٠٣ و٢٠٢ ، والكامل لابن الأثير ص ١٥٧ من الجزء الثاني .

(٢) انظر المجلد الأول من شرح النهج ص ١٣٠ .

نفسه بعد هذه الصفعة القاسية له ولاتباعه وأسرته من المنافقين ، ومضى يتمنى لو يتاح له من طريق آخر أن يثيرها حرباً أهلية بين جماعة الرسول ليحقق ولو بعض ما يتمناه ، ولكن الخيبة قد رافقته مرة ثانية ، فرجع يتملق إلى الحاكمين ووجد عندهم بعض أمانيه كما نصت على ذلك رواية الطبري وابن الأثير ورواية شرح النهج ، فأخلد للسكينة لأنه ينظر إلى الاسلام من الزاوية التي ينظر فيها إلى الوثنية وبما كانت تدر عليه من فوائد وتبسط له ولطبقته من نفوذ وتسلط ، وخلال سنة أو أكثر بقليل تيسر له أن تكون بلاد الشام تحت سلطة ولديه يزيد بن أبي سفيان ومعاوية أخيه على التعاقب فشعر بالانفراج ودبت في نفسه روح التفاؤل ، وحين انتهت الخلافة إلى عثمان تفتحت لديه كل ابواب الأمل على سعتها ومشى يقوده الحقد الدفين إلى قبر الحمزة بن عبد المطلب شهيد الاسلام فركله برجله وقال : انهض يا أبا عمارة فقد صار إلينا الملك الذي حاربتنا عليه ، قال ذلك في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات أولغ منها بالحقد والتشفي .

ويرى الاستاذ توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت أن من جملة الاسباب التي منعت قريشا من اختيار علي (ع) للخلافة ، أنها كانت تحقد عليه لأنه برز في حروب النبي لقريش وقتل عددا كبيرا من جلة بيوتهم وفي الوقت ذاته لم تكن نفوسهم قد طهرت وخلصت من العصبيات التي كانت تثير التنافس الحاد بين بيوتاتها وبين بني هاشم ، وزادهم حقدا عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم الكفار ، وانتهى به القول إلى أن علي بن أبي طالب لقد علم هذا من قريش عندما يئس من مودتها وابتلي بالصريح والدخيل من كيدها فقال :

مالي ولقريش أما والله لقد قتلتهم كافرين ولاقتلنهم مفتونين ، والله لابقرن بطن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته فقل لقريش فلتضج ضجيجها[1] .

وعلى أي الاحوال فإن الذين وقفوا موقفا سلبيا من خلافة أبي بكر كانوا

(١) انظر صفحة ٢٤٢ من كتاب أهل البيت لتوفيق أبي علم .

من اعيان المهاجرين والانصار وخيارهم وممن اشاد النبي بفضلهم وأنهم مع الحق لا ينحرفون عنه ويدورون في فلكه كيفما تحرك ودار ، كعلي والعباس بن عبد المطلب وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، والمقداد بن الأسود وخزيمة ذي الشهادتين وعبادة بن الصامت وحذيفة بن اليمان ، وأبي الهيثم بن التيهان وسهل وعثمان ابني حنيف وأبي أيوب الانصاري وعتبة بن أبي لهب وغيرهم من كبار الصحابة وأعيانهم الذين لم تسيطر عليهم الغوغاء ولم ترهبهم درة عمر بن الخطاب[1] بل وقفوا إلى جانب علي بحزم وصلابة ، ولم يبايعوا إلا بعد أن بايع علي (ع) حرصا على مصلحة الاسلام العليا التي تعرضت لأشد الأخطار بسبب اتساع حركة الردة عن الاسلام ، التي كان من أعظم اسبابها عند بعض القبائل العربية انحراف المسلمين عن المخطط الذي وضعه رسول الله (ص) في غدير خم وغيره من المواقف فيما يعود إلى الخلافة كما يبدو ذلك من مواقف بعض القبائل التي وصفوها بالارتداد .

وجاء في تاريخ الطبري أن جماعة ممن وصفوهم بالارتداد كانوا يقيمون الصلاة ولكنهم امتنعوا عن تسليم الزكاة ، وقالت عشائر أسد وفزارة والله لا نبايع أبا الفضيل ابدا[2] يعنون أبا بكر مما يؤكد بأن الكثير ممن اسموهم بالمرتدين لم يتراجعوا عن الاسلام ، بل رفضوا خلافة أبي بكر وأنكروا هذا التحول السريع الذي ظهر منهم بمجرد أن غاب رسول الله عن هذه الدنيا .

هؤلاء الذين ظلوا إلى جانب علي (ع) كانوا يحتجون على الحاكمين بكل ما يملكون من جرأة وبيان فلقد وقف سهل بن حنيف بين المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر وقال يا معشر قريش : اشهد لقد رأيت رسول الله في مسجده وقد اخذ بيد علي (ع) وقال :

أيها الناس هذا علي إمامكم بعدي ووصيّي في حياتي وبعد وفاتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأول من يصافحني على حوضي فطوبى لمن إتبعه ونصره ،

---

(١) صفحة ٢٦٥ المجلد الأول من حياة الحسن للقرشي .

(٢) ص ٢٢٩ من المجلد الثالث تاريخ الطبري .

والويل لمن تخلف عنه وخذله .

وقال لهم أبو أيوب الانصاري : اتقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيكم وردوا إليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل ما سمع اخوانكم في مقام بعد مقام ومجلس بعد مجلس النبي (ص) يقول : أهل بيتي أئمتكم بعدي ويومي إلى علي ويقول هذا أمير البررة وقاتل الكفرة مخذول من خذله ومنصور من نصره .

فتوبوا إلى الله من عملكم إن الله تواب رحيم .

ووقف أبو الهيثم بن التيهان يحتج على المهاجرين ويقول : وأنا اشهد على رسول الله أنه أقام عليا يوم غدير خم ، فقالت الانصار ما أقامه إلا للخلافة ، وقال بعضهم : ما أقامه إلا ليعلم الناس أنه مولى من كان رسول الله مولاه . وكثر الخوض في ذلك فبعثنا رجالا منا إلى رسول الله فسألوه عن ذلك ، فقال هو ولي المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي ، وأنا أشهد بما حضرني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إن يوم الفصل كان ميقاتا .

واحتج عليهم سلمان الفارسي وأبو ذر وعمار والمقداد وغيرهم من وجوه الصحابة بنفس الاسلوب بكل جرأة وثبات . وظل علي معتصما ببيته ستة شهور أو أقل من ذلك ممتنعا عن البيعة ومعه عدد من وجهاء الصحابة كما ذكرنا ، ولم يعمل للثورة على الحكم الجديد كما لم يفسح المجال لأحد أن يعمل لذلك ، لأن مصلحة الاسلام عنده اغلى وأعز من الدنيا بما فيها ، وإذا كان يطالب بحقه في الخلافة فليس إلا لاتمام المسيرة بالاسلام في الطريق الصحيح الذي أراده له النبي (ص) لاسيما وقد استغل المنافقون هذا التحول الذي لولاه لأدى إلى حرب في داخل العاصمة ، ومع أنه كان يحرص على بقاء المعارضة في داخل العاصمة في حدود الحوار والجدل والمقاطعة ولكن انباء هذا الخلاف لم تلبث أن تسربت إلى خارج المدينة فظهرت بوادر العصيان والتمرد وخرج مسيلمة بمن معه من بني حنيفة في اليمامة وطليحة بن خويلد بمن اجتمع معه من غطفان واسد وطي وكنانة وغيرهم من العرب الضاربة خارجها ، وأصبح المسلمون في داخل

المدينة على ما بينهم من خلاف على الخلافة بازاء امر واقع لا تنفع فيه الملاحاة ولا يغني عنه الجدل ولا ضير إذن إذا بقيت النفوس منطوية على ما فيها وانصرف الجميع لاقرار الأمن والدفاع عن الاسلام الذي اصبحت تهدده عصابات المرتدين والمنافقين هنا وهناك ، وكان علي (ع) اسرع الجميع إلى التضحية والتنازل عن أعز ما لديه في سبيل الاسلام ، وهو القائل والله لاسالمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن جور إلا علي خاصة ، وقد وصف موقفه من الاسلام والخلافة في مقام آخر بقوله :

والله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته ولا أنهم منحوه عني من بعده ، فما راعني إلا انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلى محق دين محمد فخشيت إن لم انصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به أعظم من قوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب فنهضت في تلك الأحداث حتى راح الباطل واطمأن الدين وتنهنه .

لم يكن علي بن أبي طالب يفكر في غير الاسلام ويخشى غير محق الدين ، فلما رأى راجعة الناس ترجع عن الاسلام نسي ذاته ، وداس كل اعتباراتها ، ولم يكن قد بايع لأبي بكر ولا أقر بحكومته ، ووقف إلى جانبه في الدفاع عن المدينة مع اصحابه الذين ظلوا إلى جانبه خلال الأشهر الأولى من خلافة أبي بكر ، ووقف المسلمون كلهم صفا واحدا متراصا في وجه المترددين والعابثين ، وسيف علي على رأس تلك الحشود كما عهدوه بالأمس في معارك الاسلام مع الشرك عاصفا لا تقف له السرايا ولا تصمد بوجهه الابطال والجيوش ، ووضع يده في يد أبي بكر بعد أن صارحه بما في نفّسه بلا مواربة ، أو محاباة وقال له : لم يمنعنا عن مبايعتك أننا ننافسك على خير ساقه الله إليك ، ولكنا نرى أن هذا الأمر هو حقنا وقد استبددتم به علينا وحلتم بيننا وبينه .

لقد صارحه بذلك ليعلم هو ومن حوله أنه إذا كان يطالب بالخلافة فذاك لمصلحة الاسلام وإذا تغاضى عن حقه فيها فذاك لمصلحة الاسلام وعليهم أن

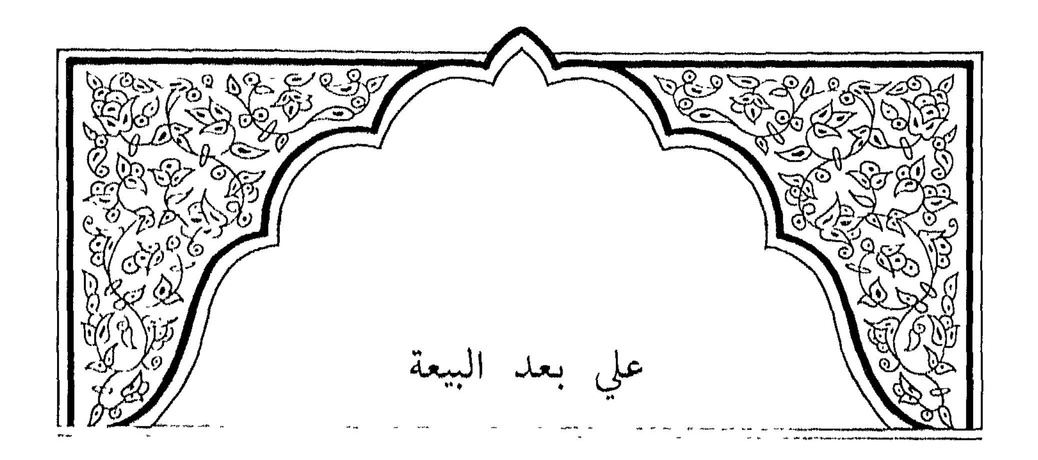
يتحملوا مسؤولية ما جنته ايديهم عند الله .

وقال الأستاذ توفيق أبو علم وهو يحدد خصائص الامام في حديث طويل انتهى منه إلى القول وللامام واجبات كثيرة منها حفظ الدين وحراسة الاسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والاخلاق وتنفيذ احكامه وحماية البلاد الاسلامية وانصاف المظلوم والجهاد وغير ذلك ، وهناك شروط لا بد وأن تتوفر في الامام كالعلم والعدالة والشجاعة والنجدة والعصمة ، وهي لطف من الله يفيضها على اكمل عباده وبها يمتنع من ارتكاب الجرائم والموبقات عمدا وسهوا ، وخلص من ذلك إلى القول : بأن هذه الصفات لم تتوفر إلا في أئمة أهل البيت حصنة الاسلام والأدلاء على مرضاة الله وطاعته ومضى يقول وقد وصفهم الشاعر بقوله :

القريبين من ندى والبعيدين	عن الجور في عرى الأحكام
والمصيبين أن اخطأ الناس	ومرسي قواعد الاسلام
والحماة الكفاة في الحرب	أن لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين أن امحل الناس	ومأوى حواضن الايتام
راجحي الوزن كاملي العدل في	السيرة طيبين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية الناس	سواء ورعية الانعام[1]

---

(١) كتاب أهل البيت لأبي علم ص ٢٠٥ .



علي بعد البيعة

لقد انصرف أمير المؤمنين عن دنيا الخلافة ما دام الاسلام يوشك أن يتعرض للخطر إذا هو ظل على موقفه المتصلب منها يجمع القران كما أنزله الله على رسوله ويشرح لهم غوامضه وأسراره وأقبل على مدرسته ، والتف الناس من حوله بعد أن وجدوه مشعلا من أنوار محمد (ص) يضيء لهم انحاء حياتهم الروحية والاجتماعية ويحل لهم ما تشعب من مشاكلهم أو أصابه تعقيد .

وإذا تجاهل المسلمون احاديث الوصاية والخلافة لمصالح سياسية طغت عليهم ، فليس بوسعهم أن يتجاهلوا قول الرسول فيه أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها ، ولا بوسعهم أن ينكروا صلته الوثيقة بالرسول التي يسرت له أن يأخذ منه ما لم يتيسر لاحد سواه ، وهو القائل علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي في كل باب ألف باب ، ولقد سمعوا الرسول يقول له : يوم نزلت الاية وتعيها اذن واعية . لقد سألت ربي أن تكون اذنك يا علي فاعطاني ذلك ، وسمعوا عليا (ع) يقول بعد ذلك والله ما ترددت بشيء سمعته من رسول الله ولا نسيت منه شيئا .

لذلك لم يكن لهم بديل عن الرجوع إليه كلما تعقدت لديهم الأمور وتراكمت الحوادث التي كان يفرضها الزمان وما يتجدد فيه من أحداث وتقلبات ، ولم يكن هو لديه ما يشغله عن تفقيه الناس وتعليم الاحكام ونشر رسالة الاسلام وتدوين الحديث والفقه .

وتؤكد المرويات الصحيحة أنه جمع القرآن وفسر غوامضه وبيّن مجملاته ومتشابهاته بعد أن كان مبعثراً في الألواح وصدور الحفاظ طيلة حياة الرسول (ص) .

وحدث السيوطي في الاتقان عن ابن حجر أنه قال : وقد ورد عن علي (ع) أنه جمع القرآن على تريب نزوله بعد وفاة الرسول ، وأضاف إلى ذلك أن محمد بن سيرين كان يقول : لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم ، ويبدو من ذلك أن عليا (ع) لم يقتصر على نصوص القرآن وآياته بل ضم إليها تفسير غوامضه وأسباب نزوله .

وجاء في مناقب ابن شهراشوب أن عليا آلى على نفسه أن يجمع القرآن ولا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة .

وفي أعيان الشيعة عن الشيرازي امام أهل السنة في الحديث والتفسير وأبي يوسف يعقوب في تفسيره عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه أنه قال : إن الله طمّن محمداً أن يجمع القرآن بعده علي بن أبي طالب فجمع الله القرآن في قلب علي وجمعه علي بعد موت رسول الله بستة اشهر ، وأضاف إلى ذلك عن أبي رافع أن النبي (ص) قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي : يا علي هذا كتاب الله خذه إليك فجمعه علي في ثوب إلى منزله ، فلما قبض رسول الله جلس علي في بيته فألفه كما أنزل الله وكان به عالماً .

وروى جماعة من المحدثين أن علياً (ع) جمع القرآن مرتبا حسب النزول وأشار إلى عامه وخاصه ومطلقه ومقيده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخة وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه ، كما نبه على أسباب النزول في آياته البينات ، وأملى ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوع مثالاً يخصه .

وجاء في بعض المرويات التي تحدثت عن هذا الموضوع أن علياً لما سئل عن الناسخ والمنسوخ قال : إن الله سبحانه بعث رسوله بالرأفة والرحمة ، فكان من رأفته ورحمته أنه لم ينقل قومه في الفترة الأولى من نبوته عن عاداتهم حتى

استحكم الاسلام في قلوبهم وحلت الشريعة في صدورهم ، وكانت شريعتهم في الجاهلية أن المرأة إذا زنت حبست في بيت وحدها حتى يأتيها الموت ، وإذا زنى الرجل نفوه عن مجالسهم وشتموه وآذوه وعروه ، وجاءت الآية الكريمة تقر ما كانوا عليه في جاهليتهم .

﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاشهدوا عليهن اربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما ﴾ .

فلما كثر المسلمون وقوي الاسلام واستوحشوا أمور الجاهلية أنزل الله :

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ ، فكانت هذه الآية ناسخة للآية الأولى ، وقد ورد هذا الحديث في البحار واشتمل على أمثلة اخرى من موارد النسخ وعلى الأنواع الستين وأمثلتها من علوم القرآن .

وفي تاريخ اليعقوبي أن علي بن أبي طالب جمع القرآن بعد وفاة الرسول وأتى به يحمله على جمل وقال لأبي بكر ومن حوله هذا القرآن قد جمعته لكم ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء كما يروي اليعقوبي كل جزء ثمانمائة وست وثمانون آية ما بين ستة عشر سورة وخمسة عشر سورة ، وعدد من الجزء الأول البقرة وسورة يونس والعنكبوت والزوم ولقمان وضم السجدة والذاريات وهل أتى على الانسان ومضى يعد الاجزاء السبعة والسور التي يحويها كل جزء منها مما يشير إلى أن علياً قد جمعه ورتبه حسب نزوله على النبي (ص) .

ونسب اليعقوبي إلى علي (ع) أنه قال : انزل القرآن على أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدونا وربع أمثال وربع محكم ومتشابه ، ورواية ينابيع المودي التي تؤيدها رواية أبي بصير عن الباقر ، تنص على أنه نزل أربعة أرباع فيهم وفي عدوهم ربعان والثالث سنن وأمثال ، والرابع فرائض وأحكام .

وقد تكرر توزيع القرآن بهذا النحو في المرويات عن الأئمة (ع) كما جاء في الكافي وغيره ، وعلى تقدير صحة هذه المرويات وللشك في صحتها مجال

واسع ، فعلى تقدير صحتها فالمراد من الربع الذي نزل فيهم هو الآيات التي تعرضت لمن آمن وجاهد وأخلص في أعماله وعمل الصالحات والطاعات من السابقين واللاحقين ، والآيات التي بهذه المضامين لا تقل عن ربع القرآن ، وإنما صح نسبتها لهم ، لأن كل من كان بهذه الصفات يتمثل مبادئهم سواء سبقهم أو تأخر عنهم ، والآيات التي في عدوهم هي التي تعرضت للكفار والمنافقين والفاسقين والكاذبين والمرائين من الأولين والآخرين ، وبلا شك فإن من كان بهذه الصفات من ألد اعدائهم وأخصامهم سواء سبقهم أو تأخر عنهم ، لأنهم دعاة حق وخير وعدالة ورحمة ، ومن لم يكن بهذه الصفات هو عدوهم .

وفي بعض المرويات أنه نزل اثلاثا ، ودرس داوود بن فرقد عن أبي عبد الله الصادق بسند أقرب إلى الصحة من أسانيد الروايات السابقة أنه نزل ارباعا ربع في الحلال ، وربع في الحرام ، وربع في السنن والأحكام ، وربع عما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم .

ومهما كان الحال فالروايات التي تنص على أنه نزل فيهم وفي اعدائهم وفي السنن والاحكام والفرائض لابد من تفسيرها بما ذكرنا ، وإلى هذا التفسير تشير رواية محمد بن سلم عن الامام الباقر (ع) ، وقد جاء فيها أن القرآن نزل اثلاثا ثلث فينا وفي محبينا ، وثلث في اعدائنا وأعداء من كان قبلنا ، وثلث سنن وأمثال .

ومضى الامام يقول على حد زعم الراوي : ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض ولكل قوم آية يتلونها هم منها في خير أو شر إلى غير ذلك من الروايات التي تشير إلى ما ذكرنا .

والأمر في هذه المرويات سهل بعد إن لم تكن من حيث سندها ومتنها في مستوى الصحيح .

أما الروايات التي تنص على أن عليا (ع) قد جمع القرآن حسب نزوله وترتيبه فهي شائعة بين الرواة ، وليس في متونها ما يدعو إلى التشكيك بها

والالتجاء إلى التأويل والتحوير .

وجاء عن الامام الصادق (ع) أن أمير المؤمنين (ع) بعد أن أتم جمعه أخرجه إلى الناس وقال لهم : هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله الله على محمد (ص) وقد جمعته من الألواح فقالوا : عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه ، فقال :

أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدا إنما علي أن أخبركم به لتقرؤ وه .

ومجمل القول أن الامام (ع) بعد أن فرضت عليه مصلحة الاسلام العليا أن ينصرف عن الخلافة اتجه اولاً إلى جمع القرآن وتدوين الفقه فألف الجامعة وطولها سبعون ذراعاً بخط يده واملاء رسول الله على حد تعبير الراوي ، وقد تحدثنا عن الجفر والجامعة وغيرهما مما ينسب لعلي (ع) خلال حديثنا عن مصحف فاطمة في الفصول السابقة ، وكان له مع ذلك دور بارز في القضاء والفتيا لم يكن لأحد سواه من اقطاب الصحابة فكان قوله الفصل إذا تعقدت الأمور ورأيه الأول والأخير إذا تباينت الآراء واختلفت الاتجاهات ولم يكن باستطاعة أحد أن يصرف الانظار عنه إلى غيره ولا أن يحول بين الناس وبين الرجوع إليه في مشاكلهم وأحكام دينهم ، وحتى من كانت السلطة بيدهم لم يجدوا بدا من الرجوع إليه والعمل برأيه في جميع المشاكل التي كانت تعترضهم ولم يجدوا لها حلاً من كتاب أو سنّة ، بالرغم من أنه كان يهمهم تحويل الانظار عنه واضعاف مركزه في النفوس ، ولكنهم ادركوا أن ذلك لم يكن في مقدورهم ولا في مقدور أي سلطة كانت ، فانسجموا مع الواقع الذي يفرض نفسه ، وبلغ الحال بعمر بن الخطاب المدبر الأول لكل ما تـلا وفاة الرسول من أحداث إلى اقصائه عن الخلافة بلغ به الحال أن قال مخاطباً اولئك الذين كانوا يتصدرون للافتاء في مسجد الرسول ، لا يفتني احدكم في المسجد وعلي حاضر ، ولأكثر من مناسبة كان يقول :

لابقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، ولولا علي لهلك عمر .

وإذا استطاع اخصامه أن يصرفوا الخلافة عنه بذلك الاسلوب الذي

اتبعوه لتحقيق اطماعهم ورغباتهم ، فلن يستطيعوا أن يصرفوا الانظار عن فقهه وعلمه وقضائه ، لا سيما وأن أكثر المسلمين سمعوا رسول الله يقول :

علي باب مدينة العلم ، وعلي اقفاكم وهو مع الحق يدور معه كيفما دار وأنى اتجه ، وأنه لن يفترق عن كتاب الله .

وما إلى ذلك في عشرات المناسبات كما ذكرنا .

لقد استقبل المسلمون حياة جديدة وأحداثاً متنوعة وأمما لها اديانها ومعتقداتها وغير ذلك مما لم يعرف المسلمون نظيرا له من قبل ووجدوا انفسهم في هذا المنطلق الواسع احوج إليه من أي زمان مضى بعد أن فقدوا رسول الله الذي كانوا إذا سألوه أجابهم وإذا لم يسألوه ابتدأهم فلا تلم بأحد منهم شبهة إلا كشفها ، ولا تنزل بهم غاشية إلا جلاها ، ولا يطرق في صدر احدهم وسواس إلا وجدوا عنده الدواء الشافي ، أما وقد رحل عن دنياهم وانقطع بموته النور الذي كان يصل الأرض بالسماء ويكشف ما كان يدور في صدور المنافقين ، وما كان يتناجى به أهل المكر والسوء فيفضح أمرهم وينبه المسلمين إلى مواقع الخطر ومواطن السوء ، مما دعا أهل الضلال والنفاق إلى أن يكونوا في حذر دائم من أن يفضح الله أمرهم ، ويكشف للرسول والمؤمنين ما يبيتون وما يدبرون .

وقد حكى الله في الآية من سورة التوبة ما كان يدور في نفوسهم من الخوف والقلق فقال : يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا أن الله مخرج ما تحذرون . وقد ارتفع كل ذلك بعد وفاة الرسول ، وترك لهم كتاب الله وسنته وأهل بيته الذين شبههم بسفينة نوح وقرنهم بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكلهم يعلمون أن أحداً غير علي (ع) لم يزوده النبي بكل ما تحتاج إليه الأمة في حاضرها وغدها ، وكان يقول وهو على ثقة من نفسه وملايين المسلمين لا ينكرون عليه ما يقول :

سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها .

ثم يلتفت إليهم ثانية ويقول :

سلوني عن كتاب الله ، فوالله الذي لا إله غيره ما من آية إلاّ وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار ، أم بسهل أم جبل .

ويروي عنه ابن أبي الحديد أنه كان يقول : لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم .

وكما سمعوه يقول ذلك سمعوا الرسول (ص) يقول فيه : كما جاء في رواية عبد الله بن العباس ، والله لقد اعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شاركهم في الجزء العاشر . ولو تجاهلنا هذه النصوص ، واستعرضنا حياة الامام علي (ع) نجد أنه قد امضى اكثر من ثلاثين عاما إلى جانب رسول الله كان لا يفارقه فيها إلا في ضروراته ، وحتى لو افترضنا وباب الافتراض واسع لا حرج فيه على احد من الناس ، لو افترضنا أنه لم يستخلفه من بعده بنص قاطع كما يزعم اهل السنّة ، بل كان يؤهله ويعده لها حسبما يدعون ، لو افترضنا ذلك لا بد وأنه كان يزوده بما لديه مما تحتاجه الأمة في دينها ودنياها ليسير بها نحو الأفضل وكما يريد الله . ومن غير المألوف والمعقول أن يستخلفه كما هو الواقع الذي لا ريب ، أو يؤهله لها كما شاء لهم الهوى أن يزعموا ويتركه لمؤهلاته ومواهبه كغيره من بقية اصحابه في حين أن المؤهلات والمواهب التي كان يتمتع بها تكفي وحدها لأن تجعله في القمة بين الأفذاذ وعباقرة العصور .

هذا ولا أحسب أني في هذه المحاولة قد كشفت عن ناحية من نواحي شخصية كانت غامضة على الباحثين أو كشفت سرا لم يهتد إليه أحد من الناس وأسجل على نفسي بأن صدري سوف لا يضيق إذا اتهمني أحد بالفضول في هذه الدراسة ، ولكن البحث قد جرني إليها من حيث لا أريد .

ولا بد لي وأنا في معرض الحديث عن انصرافه إلى خدمة الاسلام ونشر الاحكام أن أقدم بعض الأمثلة من مواقفه في هذا السبيل ولو كان ذلك ليس

بجديد ، ولكن الحديث عن سيرته يفرض على الباحث أن يشير ولو بصورة مُوجزة إلى جميع نواحيها .

فقد جاء في تذكرة الخواص لابن الجوزي عن أحمد بن حنبل في فضائله بسنده إلى أبي ظبيان أن عمر بن الخطاب أتى بامرأة قد زنت فأمر برجمها وفيما هم يعدون العدة لذلك وإذا بعلي (ع) قد أقبل ولما اطلع على حالها أمرهم باخلاء سبيلها ، وقال لعمر بن الخطاب : أنها معتوهة آل فلان ، وقد قال رسول الله : رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق كما روى ذلك البخاري في صحيحه[1] .

وروى الرواة أن عمر بن الخطاب اتي بامرأة وضعت حملها لستة شهور من تاريخ زواجها فأمر برجمها فأنكر عليه أمير المؤمنين حكمه وأرجعه إلى كتاب الله الكريم ، فقال له عمر : وكيف ذلك يا أبا الحسن فقال :

والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .

وفي آية ثانية .

وحمله وفصاله في عامين .

ومضى يقول : ومن هاتين الآيتين تبين أن أقل الحمل ستة أشهر بعد استثناء مدة الرضاع لمن أراد أن يتم الرضاعة كما جاء في الآية الأولى ، فقال عمر بن الخطاب : اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب .

وجاء في الارشاد للمفيد ، أن رجلاً شرب الخمر في عهد أبي بكر ، ولما استدعاه ووقف بين يديه أمر باقامة الحد عليه ، فادعى بأنه لا يعلم تحريمها لأنه نشأ بين قوم يستحلونها فارتج على أبي بكر ولم يدر ما يصنع ، فأشار عليه جلساؤه أن يسأل علياً عن حكم هذه الحادثة ، ولما استدعاه وسأله عن ذلك قال : يطوف به رجلان من المسلمين على مجالس المهاجرين والانصار فإن تبين

---

(١) انظر البخاري ج ٤ ص ١٧٧ .

أن أحداً تلا عليه آية التحريم أو أخبره تحريمها اقيم عليه حد الله ، وإن لم يتبين ذلك فلا شيء عليه لأن رسول الله قال الحدود تدرأ بالشبهات ، فلم يجد الخليفة بدا من الأخذ بقوله فأرسله مع رجلين من ثقاة المسلمين إلى مجالس الانصار والمهاجرين فلم يشهد أحد بأنه قد تلا عليه الآية أو أخبره بحرمتها فأطلق سبيله .

وسئل ابو بكر عن الكلالة التي ورد ذكرها في آية المواريث ، فقال اقول فيها برأيي فإن اصبت فمن الله وإن اخطأت فمن نفسي ومن الشيطان ، ولما بلغ عليا (ع) قوله قال : ما أغناه عن الرأي في هذا المكان أما علم أن الكلالة هم الأخوة والأخوات من قبل الأب وحده أو الأم وحدها ، ثم تلا الآية :

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ .

وقال :

﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ﴾ .

وروي في الارشاد أن قدامة بن مظعون شرب الخمر وأراد عمر بن الخطاب أن ينفذ فيه عقوبة شربها فاحتج عليه قدامة بالآية :

﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

فتوقف عن اقامة الحد عليه بحجة أن الآية تنفي عنه الجناح إذا آمن وعمل الصالحات ، ولما بلغ ذلك علياً (ع) قال لعمر بن الخطاب : لِمَ تركت اقامة الحد عليه وقد شرب الخمر ، فقال لأن الآية تنص على :

﴿ إن الذين اتقوا وعملوا الصالحات ليس عليهم جناح فيما طعموا ﴾ .

فقال أمير المؤمنين :

﴿ إن الذين اتقوا وعملوا الصالحات لا يستحلون ما حرم الله ﴾ .

فأردد قدامة واستتبه فإن تاب فأقم عليه الحد ، وإن لم يتب فاقتله لأنه مستحل لما حرم الله في كتابه ، ولما أيقن قدامة أن الاسلام لا يعفيه من العقوبة اظهر التوبة وتعرض لعقوبة شرب الخمر ، وكان أبو بكر يرى أنها اربعون جلدة فأخبره علي بأنها ثمانون جلدة فأخذ برأيه ومضت على ذلك .

واتهمت امرأة حامل بالزنا في عهد ابن الخطاب وشهد عليها الشهود بذلك أمر برجمها ، فقال له علي (ع) هب أن لك سبيلا عليها ، فأي سبيل لك على ما في بطنها ، والله سبحانه يقول :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

فقال له عند ذلك : لا عشت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وأشار عليه أن يمهلها حتى تلد ما في بطنها فإذا وضعت حملها ووجدت لولدها من يكفله اقام عليها حد الله ، وإذا لم تجد له كفيلا امهلها إلى أن يستغني عنها ولدها .

وجاء عن سعيد بن المسيب أن رجلاً من أهل الشام وجد مع امرأته رجلا فقتلها وجيء به إلى معاوية فأشكل عليه القضاء في ذلك ، فكتب إلى أبي موسى الأشعري ليسأل له علي بن أبي طالب عن القضاء في مثل ذلك، ولما سأله الأشعري عن ذلك ، قال له : عزمت عليك أن تخبرني عن مصدر هذه الحادثة فقال له أبو موسى : أن معاوية كتب إلي أن أسألك عن القضاء في مثل ذلك فقال له : إن لم يأت بأربعة شهود فليعط برمته[1] .

وسئل عمر بن الخطاب عن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها فأجابهم بأنها تنتهي بوضع الحمل يقول تعالى : ﴿ وأولات الأحمال اجلهن أن يضعن حملهن ﴾ . ولما سئل علي عن ذلك اجاب بأن عدتها لا تنتهي إلا بأبعد الأجلين من وضع الحمل ومضى أربعة أشهر وعشرا ، بمعنى أنها إذا وضعت حملها قبل

---

(١) موطأ مالك ص ٢١٢ .

مضي اربعة اشهر وعشرا من تاريخ الوفاة تبقى في العدة إلى أن يتم لها أربعة أشهر وعشرة أيام ، وإذا لم تضع حملها خلال أربعة أشهر وعشرا تبقى في العدة إلى أن تضع حملها ولا تحل للازواج قبل ذلك ، أما اللواتي تنتهي عدتهن بوضع الحمل فهن المطلقات الحوامل .

ولما سئل عن مصدر هذا الحكم قرأ الآية :

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشرا ﴾[1] .

وكان يرى أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلاقا واحداً ولا يمنع من تراجع الزوجين عملاً بالآية الكريمة التي تنص على أن الطلاق مرتان :

﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح باحسان ﴾ .

بضميمة الآية :

﴿ فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ﴾ .

وكان ابن الخطاب يمضيه ثلاثاً ويراه موجبا للتحريم حتى تنكح زوجا غيره مع اعترافه بأن رسول الله لا يرى هذا النوع من الطلاق موجبا لتحريم الزوجة على مطلقها ، وظل عمر بن الخطاب على اصراره الزاماً للمطلق بما ألزم به نفسه كما ينسب له أهل السنّة ، ولا يزال اكثر السنّة في فقههم يعملون برأي عمر بن الخطاب في هذه المسألة اعتمادا على اجتهاده فيها مع مخالفة اجتهاده لحكم الكتاب[2] .

ويروي الرواة أن يعلى بن أمية وكان والياً لعمر بن الخطاب على اليمن

---

(١) وبعد ضم هذه الآية إلى الآية الاولى التي تنص على أن أولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن وملاحظة النسبة بينهما ينتج ما ذكره أمير المؤمنين (ع) وهو في منتهى الدقة .

(٢) وقد قالوا أن فتوى الصحابي تخصص الكتاب وتقيد مطلقاته ، ولا مصدر لهذه الاحكام الا تصحيح فتاوي بعض الصحابة المخالفة لكتاب الله .

سئل عن امرأة قتلت هي وخليلها ولدا لزوجها ، فهل القصاص على الاثنين أو على احدهما ، فتوقف في الجواب ، ورجع إلى أمير المؤمنين فيه ، فقال له : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟ قال نعم . فقال له أمير المؤمنين : وكذلك الحال هنا ، فكتب ابن الخطاب لعامله اقتلها معا ، فلو اشترك أهل صنعاء في قتله استحقوا القتل .

وقد ابتلي عمر بن الخطاب في توزيع ميراث رجل مات وترك امرأة وابنتين وأبوين ولم يهتد إلى المخرج من ذلك ، لأنه لو اعطى الزوجة ثمنها والبنتين الثلثين والأبوين الثلث زادته السهام على التركة بثمن الزوجة ، وبعد أن تداول الأمر مع بعض الصحابة استقر الرأي على الحاق هذا الفرض وأمثاله من الفروض التي تزيد فيها السهام على التركة واستقر على الحاقه بما لو مات شخص وعليه ديون لا تفي بها التركة فالحل في مثل ذلك هو ادخال النقص على الجميع كل بحسبه ، فأفتاهم في فروع الميراث بادخال النقص على جميع الورات بما في ذلك الأبوين والزوجة ، فأعطى الزوجة ثلاثة من سبع وعشرين وأعطى البنتين ستة عشر سهما والأبوين ثمانية لكل واحد اربعة أسهم ، فصار ثمن الزوجة تسعا .

بينما كان علي (ع) يرى في مثل ذلك أن الزوجة تأخذ سهما كاملا ، ويأخذ كل من الأبوين سدسه ويدخل النقص على البنتين لا غير ، لأن الزائد من التركة عن السهام في بعض الفروض يرد عليهما ، وقيل أنه ادخل النقص على البنتين والأب لا غير ، وهو الذي عليه الشيعة في فقههم[1] .

ويدعي ابن الجوزي في تذكرته أن عليا (ع) كان يخطب في ايام خلافته ، وفيما هو يتحدث عن الصفات التي يجب أن تتوفر في الحاكم قام اليه

---

(١) هذا الفرع من فروع مسألة العول التي وقف فيها الشيعة إلى جانب والسنَّة إلى آحر ، وكان الخلاف قد وقع فيها بين الصحابة أنفسهم فقد أخذ بعضهم بقول علي (ع) وأخذ البعض الآخر بقول عمر بن الخطاب ولا يزال السنَّة في فقههم على ذلك .

رجل وقال : ما تقول يا امير المؤمنين في رجل مات وترك امرأة وابنتين وأبوين ، فقال لكل واحد من الأبوين السدس ، وللابنتين الثلثان ، فقال له السائل : والمرأة ؟ فأجابه على الفور : صار ثمنها تسعا ، وأضاف إلى ذلك ابن الجوزي أن هذا الجواب من ابلغ الأجوبة .

ولو صح ذلك فلقد اجابهم على مذهب القائلين بالعول ، وفي الوقت ذاته فإنه اراد بقوله صار ثمنها تسعا الزامهم بمخالفة القرآن في ذلك حيث أنه حصر إرث الزوجة في الربع والثمن ، وهذا الحصر دليل واضح على أن سهامها لا تنقص عن ذلك ولا تزيد ، والذين يجوز ادخال النقص عليهم اولئك الذين يأخذون الزيادة فيما لو زادت التركة عن سهامهم ، كما لو ترك الميت زوجة وبنتا أو أبوين وبنتا ، فإن البنت في الفرض الأول تأخذ الزائد بكامله ، وفي الفرض الثاني تأخذه هي والأب كل بحسب نصيبه ، فيكون جوابه من ابلغ الأجوبة حيث أجابهم على مذهبهم وأشار بنفس الجواب إلى مخالفتهم لكتاب الله .

ومن الفروض التي خفي فيها حكم الله على حكام عصره وكان لهم فيها رأي مخالف لرأيه ، ما لو ترك الميت زوجة وبنتين مثلا أو بنتا وأبوين أو أختين مثلا ، فقد أفتاهم بأن ما زاد عن سهام البنتين أو الأختين يرد عليهما ، بينما أفتاهم ابن الخطاب بأن الزائد يعود إلى أخوة الميت أو أعمامه إذا لم يكن له أخوة ، ومضى أهل السنّة في فقههم على ذلك مع الاختلاف الشديد بين ائمة مذاهبهم وفقهائهم في بعض فروض التعصيب كما يبدو ذلك من مجاميعهم الفقهية .

وجاء عن عبد الله بن العباس أنه كان يقول : ليس على وجه الارض أعلم بالفرائض من علي بن أبي طالب ، ومع تبحر ابن عباس في الفقه والحديث والتفسير واللغة وغير ذلك من الفنون ، فقد أجاب من سأله عن نسبة علمه إلى علم علي بن أبي طالب ، أجاب كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

وقد اجمع المسلمون على اختلاف نزعاتهم ونحلهم وغيرهم من الباحثين والمستشرقين على أنه كان قطب الاسلام وموسوعة كبرى لجميع العلوم الاسلامية

كالفقه والقضاء والفلسفة والعربية وما يتفرع عنها ، ولم يقف علمه بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه ومداركه ، بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه وكل ما يتوقف عليه من العلوم كعلم الحساب ، فلقد كانت معرفته بالغة حد الاعجاب من معاصريه ومن جاء بعدهم من العلماء وأئمة المذاهب ، بل أن اكثر المتأخرين عنه ينتهي علمهم اليه .

ويجمع الرواة على أن النبي (ص) قال للمسلمين : أتقاكم علي ، فقد كان اقضى أهل زمانه لأنه كان اعلمهم بالفقه والشريعة وهما المصدر الأول للقضاء ، ولقد أوتي مع ذلك من قوة العقل ما يكشف له عن الوجه الاقرب إلى الصواب والمنطق ، وأوتي من صفاء الوجدان وسرعة الانتباه ما سهل له استخدام علمه في حل الخصومات وكان اسبق القضاة إلى اقرار ما يسمى بالحق العام مراعاة لفكرة العدل بين الناس بدون نظر إلى موقف الجانبين المتخاصمين ، وفي ذلك ما فيه من الاحترام للنظام العام وتأكيد العدالة بين الناس وواجبات الافراد نحو المجتمع الذي يعيشون فيه وقد سبق بذلك زمانه في مراعاة هذا الحق بعشرات السنين .

لقد سمع في احدى الليالي صوت مستغيث يدعو من يجيره فهرع اليه بنفسه مسرعا يقول قد أتاك الغوث والفرج ، وما لبث أن رأى رجلا يمسك برجل امساكا شديدا ، ولما أقبل عليه أمير المؤمنين خلاه ، وقال يا أمير المؤمنين : لقد بعت هذا الرجل ثوبا بتسعة دراهم فأعطاني دراهم على غير الشرط ، ولما طلبت منه غيرها شتمني ولطمني لطما موجعا . فقال علي (ع) للمشتري : ابدلها له ، وطلب من المدعي بينة على اللطمة ، فجاءه بها فقال للمضروب اقتص منه . فقال : لقد عفوت عنه . فقال لك ذلك ، ولكن بقي عليه الحق العام ومقتضاه أن يعاقب وينال جزاءه ليكون عبرة لكل من يفكر في الاعتداء على الناس ويعبث بحقوقهم وكرامتهم ولا يحترم النظام ، وبما أنه هو المسؤول عن حماية المجتمع من الفوضى والفساد فقد امسك بالضارب على مشهد من المضروب ولطمه بيده تسع مرات وقال هذا حق السلطان .

وكما ذكرنا لقد كان المصدر الاول لجميع العلوم التي ظهرت بعد زمانه فقد

امعن النظر في القرآن وفي الدين واعتبرهما من المواضيع التي يجب فيها التفكير والتأمل ومنه أخذ الناس علم الكلام أو ما يسمى بالفلسفة الاسلامية ووجد المتصوفة بذور التصوف في نماذج شتى من نهج البلاغة ومن حياته وزهده فنسبوا التصوف اليه واتخذ إماما للمتصوفين .

وقال في شرح النهج : وهو يتحدث عن علي وفضائله ، ما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة وتنتهي إليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها ومجلي حلبتها ، كل من بزغ فيها فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى ، وقد عرفت أن اشرف العلوم هو العلم الإلهي لأن شرف العلم بشرف المعلوم والمعلوم أشرف الموجودات ، ومن كلامه اقتبس وعنه نقل واليه انتهى ومنه ابتدأ ، لأن المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم تعلم الناس هذا الفن هم تلامذته وأصحابه فكبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ محمد بن الحنفية ، ومحمد هذا تلميذ أبيه علي بن أبي طالب .

وأما الاشعرية فهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن بن أبي بشير الأشعري ، وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة ، فالأشاعرة حسب هذا التسلسل الذي ذكرناه ينتهون إلى استاذ المعتزلة ومعلمهم علي بن أبي طالب ، ومضى يقول : وكما أن علم الكلام أو الفلسفة الاسلامية تنتهي إليه وقد وضع أصولها قبل أن يتحدث بها أحد من الناس ، كذلك الفقه الإسلامي الذي حمل لواءه أئمة المذاهب فهو أساسه وكل فقه في الإسلام عيال عليه ، أما أصحاب أبي حنيفة كمحمد بن الحسن وأبي يوسف وغيرهما فقد أخذوا عن أبي حنيفة ، وقد قرأ الشافعي على محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة فيرجع الشافعي بهذه الواسطة إلى أبي حنيفة .

وقرأ أحمد بن حنبل على الشافعي فيرجع في فقهه إلى أبي حنيفة ، وأبو حنيفة تتلمذ على الإمام جعفر بن محمد وجعفر بن محمد ينتهي في علمه وفقهه إلى جده علي بن أبي طالب .

وأما مالك فقد قرأ على ربيعة الرائي ، وربيعة أخذ عن عكرمة ، وعكرمة أخذ عن عبد الله بن العباس ، وعبد الله مصدره الإمام علي بن أبي طالب ، ومضى يقول : وإن شئت رددت إليه علم الشافعي من حيث أنه كان من تلامذة مالك ، ومالك من تلامذة ربيعة ، وربيعة ينتهي في علمه إلى علي (ع) كما ذكرنا .

وقد أراد الله لعلي بن أبي طالب (ع) أن يكون ركن العربية في علومها كما كان ركن الإسلام في علومه وساعده على ذلك تبحره فيها ومنطقه السليم وقواه الذهنية الخارقة ، فهو بحق واضع الأساس فيها وممهد طريقها لكل من أتى بعده ، ومما أثبته التاريخ أن أبا الأسود الدؤلي دخل على أمير المؤمنين يوما فرآه مطرقا مفكرا فقال له :

فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ فقال أني سمعت في بلدكم هذه لحنا ، فأردت أن اضع كتابا في أصول العربية ، ثم القى إليه صحيفة فيها الكلام اسم وفعل وحرف .

وفي رواية ثانية قال له اكتب يا أبا الأسود ما أمليه عليك فتناول أبو الأسود قلما وصحيفة فأملى عليه كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، وإن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ، يعني بذلك اسم الاشارة ، ثم قال : انح هذا النحو يا أبا الأسود فعرف ذلك العلم بعلم النحو من ذلك اليوم .

وأضاف إلى ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج أن كبار الصحابة وغيرهم كانوا يرجعون إليه ولا يجدون له بديلا ويقفون عند رأيه واثقين بأنهم قد أخذوا بحكم الله ومن المعدن الذي أخذ عنه أستاذه ومعلمه الأكبر محمد بن عبد الله .

لقد استطاع علي (ع) بعد الرسول (ص) أن يجد منفذا لطاقاته العلمية في مجتمع تراكمت فيه المشاكل والتبست الأمور ووجد المسلمون أنفسهم امام واقع جديد وأحداث جديدة لا عهد لهم بها من قبل ، في هذه الفترة من حياته

لم يكن جهاده في سبيل الإسلام بأقل أثرا من جهاده في عصره الاول وإن اختلف الشكل والمظهر ، ومع ذلك فقد كان يتمنى وقد رأى الدعوة بدأت تشق طريقها لتدك عروش القياصرة والأكاسرة وتحقق نبوءة ابن عمه الرسول الأمين يوم كان المسلمون يحفرون الخندق حول مدينتهم ليتقوا به من شر أبي سفيان وزمرته طغاة قريش والأحزاب .

لقد سخروا منه يوم ذاك حين أخبرهم أن لضربته في الخندق بريقا سطع نوره وانتشر في الفضاء حتى بلغ قصور الرومان والأكاسرة في بلاد فارس ، وقالوا : بأن محمدا يعدنا بقصور الفرس والرومان ونحن اليوم لا نأمن على نفوسنا أن نخرج لقضاء حاجتنا ، ولكن المؤمنين بأن محمدا لا ينطق عن الهوى ظلت كلماته تلك ماثلة في أذهانهم وظل فيها شبح ذلك البريق الذي سطع من ضربة محمد بن عبد الله في الخندق وانتشر في فضاء المدينة وما حولها .

لقد كان علي (ع) يتمنى أن يكون ولو جنديا مع اولئك الغزاة إلى ما وراء الحدود وما داموا يحملون إلى تلك البلاد رسالة محمد (ص) التي كان يفنى في سبيلها ولا يفكر بغيرها ، ولا يضره إذا تحققت اهدافه أن يكون أميرا أو مأمورا ، وإذا طالب بالخلافة بالأمس فذاك ليتسع الإسلام وينتشر في انحاء المعمورة ، وطالما كان يرمي بنظراته تلك الجموع المدججة بالسلاح تودع المدينة في طريقها لخارج الحجاز ويتمنى لو يتاح له أن يكون معهم حيث يريدون ولكن ذلك كان محظورا عليه وعلى غيره من كبار الصحابة فيعود طاويا قلبه على هم جديد فوق ما طواه عليه من هموم وأحزان .

لقد اتخذ أبو بكر قرارا بأن لا يخرج من المدينة علي (ع) وغيره من كبار الصحابة ممن يطمحون لمعالي الأمور وللاستيلاء على السلطة وفرض عليهم الاقامة بها حتى لا تتسع صلاتهم بالناس ، فوقف هو وغيره حيث أراد لهم الخليفة لا يبرحون منها إلا بإذن ولأجل محدود ، وأوصى خليفته بذلك من بعده .

وجاء في وصيته كما يدعي الرواة أحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول

الله الذين انتفخت أوداجهم وطمحت أبصارهم ، وطبق خليفته ابن الخطاب هذه الوصية بمنتهى الدقة ، فكان يأتيه الرجل منهم يستأذنه في الخروج إلى الجهاد ، فلا يأذن له ويقول :

لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ويكفيك وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك .

ورضي أمير المؤمنين بذلك وقنع من دنياه بتفقيه الناس في دين الله وتشريع الاحكام لا يوغر صدره أن يرى حقه مسلوبا منه يرتع به غيره ما دام الإسلام في طريقه يسير بخطا واسعة يدك العروش ويهز الجبابرة والطغاة ، وظل طيلة حياته يهب لهم العون والنصح ويعمل بكل ما لديه من جهد وطاقات لتسير الأمور في طريقها الصحيح ويسود العدل والأمن والسلام وشعاره والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا علي خاصة .

ولم يقف علم علي الواسع على المحسوسات وما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان ، بل تعدى ذلك لما يسمى بالغيبيات التي اتصلت إليه من النبي (ص) عن طريق الوحي كما صرح بذلك في كلام له بعد أن هزم اصحاب الجمل في البصرة عندما وقف يحدث جماعة من اصحابه عما ستعانيه البصرة من الزنج وغيرهم ، بعد عشرات السنين ، فقال له بعض اصحابه : لقد اعطيت علم الغيب يا أمير المؤمنين . فضحك وقال للرجل كما جاء في نهج البلاغة في الخطبة رقم ١٤٦ :

وليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم ، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدد الله سبحانه بقوله أن الله عنده علم الساعة الآية ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله لنبيه وعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي ، وكان يقول لأهل الكوفة :

أيها الناس لا يجرمنكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني ، ولا تتراموا بالأبصار عندما تسمعونه مني ، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، أن الذي أخبركم به عن النبي الأمي ما كذب المبلغ ولا جهل السامع .

ومن أمثلة ما تحدث عنه وأخبر به مما وقع بعضه بعد وفاته بعشرات السنين وبعضه بمئات السنين ، فقد جاء في حديثه عن البصرة : وايم الله لتفرقن بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة[1] وقد تحققت هذه النبوءة مرتين الأولى في عهد القادر بالله أحمد بن اسحاق بن المقتدر ، الذي بويع بالخلافة سنة ٣٨١ ، ومرة في عهد عبد الله بن القادر الملقب بالقائم بأمر الله ، الذي بويع سنة ٤٢٢ ، وفي المرتين غمرتها المياه وغرق كل ما كان فيها وهلك خلق كثير من أهلها[2] .

كما أخبر عن خراب البصرة وهلاك جمع كبير من أهلها بواسطة الزنج في حديث له يصف الغزاة وما يصنعونه في البصرة وجهاتها ، وكان يوجه كلامه إلى الأحنف بن قيس أحد زعمائها الكبار ، يا أحنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل يثيرون الارض بأقدامهم كأنها أقدام النعام ، ويل لسكككم العامرة والدور المزخرفة التي لها اجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة من أولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفتقد غائبهم[3] .

وتحققت هذه النبوءة باجماع المؤرخين في سنة ٢٥٥ من عهد العباسيين في خلافة المهتدي وكان الإمام العسكري يوم ذاك معتقلا في سامراء وقد ادعى صاحب الزنج أنه علوي النسب ، فطلب المهتدي من الإمام (ع) أن يبدي رأيه فيه ، فقال كما جاء فيه : إن صاحب الزنج ليس بعلوي ، وقد تحدثنا عنه في سيرة الإمام العسكري .

كما تحدث عن خراب البصرة بواسطة التتر كما جاء في خطبته رقم ١٢٦ ، وقد اجتاح التتر اكثر البلاد الإسلامية ويبدو أنهم اصطدموا في البصرة بمقاومة

---

(١) نهج البلاغة رقم الخطبة ١٣ .

(٢) شرح النهج ، جـ ١ ص ٨٤ .

(٣) الخطبة رقم ١٢٦ وجاء ذلك في مجلد ٢ ص ٣١٠ و٣٦١ من شرح النهج ، وقد عنى بقوله لا يندب قتيلهم ، أن الغزاة كانوا من العبيد وليس لهم من يبكي ويندبهم .

شديدة حتى فتكوا فيها وبأهلها ذلك الفتك الذريع كما يصف ذلك ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج حيث وقع ذلك في عصره وقد وصفهم الإمام (ع) بقوله : كأني أراهم قوما كأن وجوههم المجان المطرقة ، يلبسون السرق والديباج ويتعقبون الخيل العتاق ، ويكون هناك استحرار[1] قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت اقل من المأسور .

وتحدث عن الكوفة وما سيحل بها من الخراب والدمار وجور الولاة كالحجاج بن يوسف الثقفي وغيره فقال كما جاء في خطبته رقم ٤٧ من نهج البلاغة : كأني بك يا كوفان تمدين مد الأديم العكاظي تعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل ، وأني لا أعلم أنه ما أراد الله بك جبار سوء إلا ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل .

وقد تحدث ابن أبي الحديد في شرح النهج بما جرى عليها من ولاة الجور الذين حكموها على جماجم الصلحاء والأبرياء كالثقفيين وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد وخالد القسري وغيرهم من الطغاة وأعوان الظالمين[2] وتنبأ بخلافة مروان بن الحكم ومن تعاقب على الحكم من بعده ، وما سيحل بالمسلمين من جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات ، فقال : اما أن له أمرة كعلقة الكلب أنفه ، وهو أبو الاكبش الاربعة وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر ، وأضاف إلى ذلك في وصف ما تعانيه الأمة منهم : والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرما إلا استحلوه ولا عقدا إلا حلوه ، وحتى لا يبقى بيت مدر أو وبر إلا دخله ظلمهم ، وحتى يقوم الباكيان يبكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه ، ومضى في وصفهم حتى انتهى إلى القول: فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم .

وفيما قاله لأهل الكوفة : وستليكم من بعدي ولاة يعذبونكم بالسياط والحديد ، ويأتيكم غلاما ثقيف أخفش وجعبوب يقتلان ويظلمان وقليل ما

---

(١) الاستحرار هو الاشتداد .

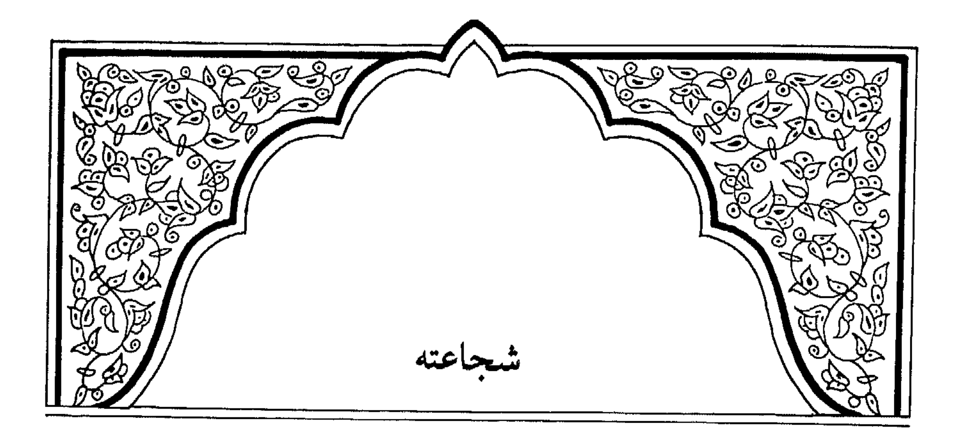
(٢) أنظر ص ٢٨٦ و٢٨٧ .

يمكثان[1] . وأخبر فيما أخبر به عمن ظهر من العلويين في بعض جهات ايران كالناصر والداعي وغيرهما فقال : وإن لآل محمد في الطالقان لكنزا سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق حتى يقوم بإذن الله ويدعو إلى دين الله ، وأخبر عن محمد بن عبد الله الحسين المعروف بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم الذي قتل بباخمرا ، وعن المملكة المغربية التي أسسها أبو عبد الله الداعي[2] وعن بني بويه إلى غير ذلك من التنبؤات الكثيرة التي وقعت كما أخبر بها ، وبلا شك فإن أكثر ما ينسب إليه في هذا الباب إن لم يكن كله قد صدر منه وهو من نوع الغيب الخارج عن حدود طاقة الانسان ولا بد وأن يكون قد تلقاه من النبي (ص) كما أخبر هو بذلك ، وهو من دلائل نبوته التي لا تحصى .

---

(١) الأخفش هو الحجاج وكان ضعيف البصر ، وقد وصفه الحسن البصري بذلك ايضا والجعبوب هو القصير ويعني به يوسف بن عمرو وكان قصيرا .

(٢) حيث قال ثم يظهر صاحب القيرواں الفض النض ذو النسب المحض .



شجاعته

لقد ذكرنا لمحات عن مواقفه مع النبي في مكة وبدر وأحد والأحزاب وغيرها من الغزوات والمعارك التي دارت بين الإسلام والشرك في الفصول السابقة وهو في ريعان شبابه ، وقد ظل ذلك السيف الذي اطاح برؤوس المشركين في تلك المعارك في غمده إلى أن جاءت الأيام التي دعاه بها رسول الله (ص) بقوله ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين ، ولو لم يكن له إلا مواقفه الأخيرة في البصرة وصفين والنهروان لكفاه دليلا على أن تاريخ البشرية لم يعرف أثبت منه في الحروب ، ولقد كان الأبطال والشجعان يفتخرون ويتباهون بوقوفهم في مقابله في الحروب والمعارك ولو لحظات معدودات ولا يجدون وهنا عليهم إذا فروا منه في ساحة القتال ، وهان على قتيلة قتل أخيها النضر بن الحارث لأنه كان على يده .

ونظر إليه بعض من كان معه في معركة البصرة وهو يخفق من النعاس وقد بدت المعركة لغير صالحه ، فقال له : والله ما رأيت مثل اليوم أن بازائنا مائة ألف سيف وأنت على هذه الحالة وقد هزمت ميمنتك وميسرتك يا أبا الحسن ، فانتبه ورفع يديه وقال : اللهم انك تعلم أني ما كتبت في عثمان سوادا في بياض ، وأن الزبير وطلحة البا وأجلبا علي الناس ، ثم تقدم من المعركة فوجد أصحابه يهزمون ويقتلون ، فلما رأى ذلك صاح بابنه محمد بن الحنفية ومعه الراية وأمره أن يتقدم بها ، ولما أبطأ محمد عن مهاجمة القوم أتاه علي (ع) من خلفه وضربه بين كتفيه وأخذ الراية منه واقتحم عسكرهم وشقه نصفين يضرب فيهم

بسيفه وهم يفرون بين يديه كما يفر قطيع المعزي من الذئاب الضارية ، ثم خرج من بينهم وطلب الماء ، فأتاه رجل باناء فيه عسل فحسا منه حسوة وقال : أن عسلك هذا لطائفـي يا ابن أخي ، فقال له الرجل العجب منك يا أبا الحسن لمعرفتك بالطائفي من غيره في مثل هذا الموقف الرهيب وقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال له يا أمير المؤمنين : والله يا ابن أخي ما ملأ صدر عمك شيء قط ، ولا هابه لشيء أبدا ، وكان يخلع أشد الفرسان صولة وأرهبهم جانبا من صهواتهم ويرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الارض جلدا لا جاهدا ولا متعبا على حد تعبير الراوي .

ولست ادري وأنا أريد أن اتحدث ولو قليلا عن هذه الناحية من نواحي عظمته التي لا تزال وستبقى حديث الأجيال وبها تضرب الأمثال ، وكلما استعرضت موقفا من مواقفه المدهشة ينتقل ذهني من حيث لا أريد إلى ما هو أدهش وأغرب ، وقد أكد هذه الحقيقة كل من كتب عنه واستعرض مواقفه في شبابه وشيخوخته ، لست ادري بأي حادثة أتمثل وأستشهد وكل مواقفه تدهش وتحير أما وقد تملكتني الحيرة فأترك الحديث لغيري وأرويه عنه .

قال ابن أبي الحديد وهو يتحدث عن هذه الناحية من نواحي عظمته : لقد أنسى الناس ذكر من كان قبله ومحا اسم من يتأتى بعده ، ومقاماته في الحروب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة فهو الشجاع الذي ما فر في موقف قط ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحدا إلا قتله ولا ضرب ضربة واحتاج إلى الثانية فكانت ضرباته وترا .

ولما دعا معاوية إلى البراز ليريح الناس من الحرب ، قال له ابن العاص : لقد انصفك الرجل .

فقال له معاوية : ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم ، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق أراك طمعت في إمارة الشام بعدي .

ومضى يقول : لقد انتبه معاوية يوما فرأى عبد الله بن الزبير جالسا تحت رجليه على سريره ، فقال له عبد الله وهو يداعبه : يا أمير المؤمنين لو شئت أن

أفتك بك لفعلت ، فقال له معاوية : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ، فرد عليه بقوله : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف ازاء علي بـن أبي طالب (ع) ، فقال له معاوية : لا جرم وأنه قتلك وأباك بيسرى يديه وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها . بعد أن استعرض شارح النهج بعض خصائصه التي امتاز عن جميع الناس والتي لا تزال حديث الأجيال ، قال : ما أقول في رجل تحبه أهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة ، وتصور ملوك الافرنج والروم صوره في بيعها وبيوت عباداتها حاملا سيفه مشمر الحربة ، وتصور ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها ، فلقد كان على سيف عضد الدولة بن بويه وسيف أبيه ركن الدولة صورته ، وكان على سيف الب ارسلان وابنه ملكشاه صورته يتفاءلون بذلك بالنصر والظفر ، وأضاف إلى ذلك يقول : وما أقول في رجل أحب كل أحد أن يتكثّر به ويتجمل ويتحسن بالانتساب إليه .

ومجمل القول أن عليا كان يمثل الفروسية والبطولات بأروع معانيهما وبكل ما ينطويان عليه من المروءة والشهامة والإباء والترفع عن الدنايا ، فكان من أبغض الأشياء إليه أن ينال أحدا من الناس بالأذى حتى ولو آذاه ، وأن يبادل مخلوقا بالعوقبة حتى ولو تحقق لديه أنه يحاول قتله والإباء والترفع هما اللذان منعاه من مقابلة معاوية بالسباب يوم جعلوا يرشقونه به لأن العظيم لا يرضى لنفسه أن ينال ممن ناصبوه العداء بالسباب ولو سبوه ، ولم يكتف بذلك بل منع أصحابه أن ينالوا من أخصامه بالشتيمة المقذعة ، وما كاد يسمعهم يسبون أهل الشام لأنهم سايروا الغدر ومارسوا الخداع والكذب ، حتى قال لهم :

إني أكره لكم أن تكونوا سبابين .

ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ، ولو قلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

كما وأن المروءة التي تلازم الفروسية في سيرته اكثر من أن تحصى ، لقد كان يأبى على جنده وهم في أشد حالات الغضب ، والنقمة أن يتعقبوا عدوا تراجع أو جريحا وقع في ساحة المعركة وبه رمق من الحياة أو يأسروه ، أو يكشفوا سترا لامرأة وإن شتمتهم وسبت امراءهم .

ويقول لهم : لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبرا ولا تصيبوا معورا ، ولا تروعوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم .

وحين ظفر بألد اعدائه الذين كانوا يتحينون الفرص للتخلص منه بكل وسائل الغدر والنفاق كعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص في البصرة عفا عنهم وأحسن اليهم وأبى على أنصاره أن يتعقبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون .

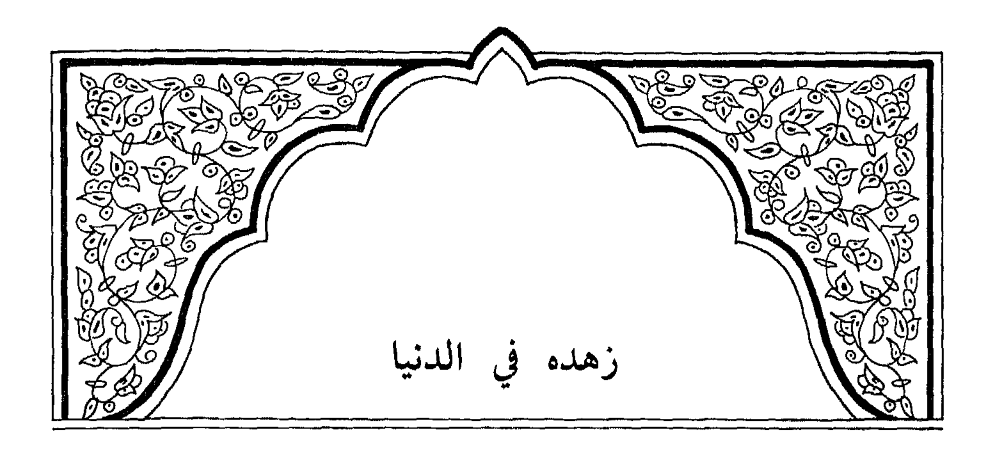
وحينما ظفر بعمرو بن العاص ، وهو لا يقل خطرا عليه من معاوية أعرض عنه وتركه ينجو بحياته مع علمه بأنه سيستمر في مؤامرته ومساندة معاوية ، لقد تركه وأعرض عنه لأنه انهار أمامه إنهيار الذليل الخسيس ، ولم يجد وسيلة تنجيه من ذي الفقار الذي ارتفع فوق هامته إلا ذلك الأسلوب الذي لا يزال مضرب الأمثال وسخرية الأجيال ، وبلا شك فإنه لو قضى عليه حينما القى بنفسه بين يديه شاغرا رجليه كاشفا عن سوأته لكان قضى على الغدر والمكر ، بل على جيش معاوية بكامله ، لأنه هو المدبر الأول لكل ما كان معاوية يعده ويأمر به وأي مقاتل يظفر بخصم من نوع ابن العاص لا يمكن أن يعف عنه ولو أبدى له أكثر من سوأته وابن العاص يعلم أن غير علي لو ظفر به لا يعف عنه ، ولكن عليا تأبى عليه مروءته أن يهوي بالسيف المسلط فوق هامته وهو بتلك الحالة من الذل والهوان والاستجداء .

وما أكثر مواقفه التي تمثل الفروسية والمروءة والعفو عن أخصامه عندما كانوا ينهارون بين يديه ، لقد حاول معاوية في صفين عندما استولى على الماء أن يمنع عنه أهل العراق ، وحال جيشه بينهم وبين الماء حتى أضر بهم العطش ، ولكن عليا (ع) حمل بجيشه على الماء حتى أجلاهم عنه وبدلا من أن يعاملهم

بالمثل أتاح لهم أن يشربوا منه كما شرب جنده ، ولو فعل لانتصر عليهم واضطرهم إلى التسليم بدون قتال ولكن مروءته تأبى عليه أن يمنع الإنسان عن الماء وقد أباحه الله لجميع مخلوقاته وجعله كالهواء لا يملكه أحد من الناس .

لقد مات معاوية بن أبي سفيان وفي نفسه حسرة وغصة لأنه لم يستطع أن يقضي على علي وجيشه عطشا ، ولكن ولده يزيد بن معاوية قد حقق له أمنيته في الحسين بن علي وأطفاله ونسائه ، فلما ظفر جيشه بهم في كربلاء أذاقهم مرارة العطش وكادوا أن يموتوا منها لولا أن تعجل لهم الموت بضرب السيوف وطعن الرماح .

وموقف آخر من مواقف علي وبطولاته يمثل أسمى مراتب المروءة والعفو والكرامة وهو موقفه في البصرة مع عائشة وأنصارها ، وذلك حينما انتصر في تلك المعركة وسمع بعض أنصاره ينال من السيدة عائشة فأمربجلده ولم يكتف بذلك بل كرمها وعرض عليها الرجوع لبيتها وودعها اكرم وداع وسار معها أميالا حتى اجتازت حدود البصرة ومعها عدد من النساء ، كان قد أرسلهن معها لخدمتها وألبسهن ثياب الرجال ، وفي الطريق كانت تنال منه وتقول لقد هتك ستري برجاله ، وفي حين أنها وقفت بين عشرات الألوف من المقاتلين في تلك المعركة تحرضهم على قتله وبيدها بدرة من الدنانير وهي تصيح أيكم يأتيني برأس الأصلع وله هذه البدرة ، إلى كثير من مواقفه وبطولاته التي تتمثل فيها معاني الإباء والشهامة والمروءة والترفع عن الدنايا .



زهده في الدنيا

يتصل الحديث عن زهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في الدنيا بالحديث عن بطولاته وفروسيته وما يتبعهما ، لأن الشجاعة والبطولات وما إلى ذلك من الصفات لا يتصف بها إلا من يتغلب على اعدائه وأخصامه في المعارك وساحات القتال ، والزهد في الدنيا لا يعني غير التغلب على ألد اعداء الإنسان كالشيطان أو الهوى أو الغرائز التي تتحكم فيه لتستوفي نصيبها من متع هذه الدنيا وملذاتها لا سيما عندما يكون في مقدوره ذلك ، ولم يعرف التاريخ انسانا توفرت لديه أسباب السلطان والثروة وكل مقومات الحياة الطيبة وكان منها جميعا في شقاء وحسرة دائمين كما حدث عن علي بن أبي طالب .

وهل عرف تاريخ البشرية حاكما قد حرم على نفسه أن يأكل خبزا يابسا ويشبع منه ما دام في بعض أطراف مملكته من لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالقرص ، وحرمها من لبس ثوب ناعم وفي الدنيا انسان يتعسر عليه حتى ما خشن ورث من اللباس .

وهل عرف التاريخ حاكما يطحن لنفسه الشعير ويأكل منه خبزا يابسا يستعين على كسره بركبتيه ويرقع خفه بيديه ولا يكنز من الدنيا قليلا ولا كثيرا ما دام على وجه الأرض بطون غرثى وأكباد حرى . وظل إلى أن انتقل عن هذه الدنيا يقول : أأقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر وخشونة العيش ، وكان أقل ما في هذه الدنيا شأنا خير عنده من الخلافة

إذا لم يحق حقا ويبطل باطلا .

وكان يقاضي أعوانه وولاته من أجل رغيف يأكلونه في رشوة أو من صدقة ، ثم يهدد ويتوعد ويقول في رسائله التي كان يوزعها على الولاة : أقسم بالله صادقا انك إن خنتني بشيء مما تحت يدك صغيرا كان أو كبيرا لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر . وخاطب شخصا آخر من ولاته بقوله : بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك فارفع الي حسابك .

وتوعد شخصا آخر ممن يرتشون ويحاولون الاثراء على حساب المستضعفين ، فقال له : اتق الله وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ، ثم امكنني الله منك لأعذرت إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي هذا الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار . وهل عرف التاريخ حاكما غير علي (ع) كانت تجبى إليه الأموال من هنا وهناك والطيبات على اختلاف أنواعها تحت يده ، وأمور المسلمين في مختلف أقطارهم بيده وقد خرج من الدنيا لا يملك من حطامها دينارا أو درهما ، لأن في الناس فقراء لا يملكون دينارا ولا درهما ، ولا دخل جوفه من طيباتها شيء ، بل كان الغالب على قوته خبز الشعير والخل يضعهما في جراب مختوم مخافة أن يدخل فيه بعض ولده شيئا من الطيبات .

فقد حدث جماعة من الرواة بسند ينتهي إلى الأحنف بن قيس أنه قال : دخلت على معاوية بعد أن استتبت له الأمور واستولى على الحكم ، فقدم إلي من الحلو والحامض ما كثر تعجبي منه ، فقلت ما هذا ؟ فقال : مصارين البط محشوة بالمخ ودهن الفستق وقد ذر عليه السكر ، فبكى الأحنف عند ذلك ، فقال له معاوية : ما يبكيك ؟ فقال : لله در ابن أبي طالب لقد وقف من نفسه موقفا لم تقفه أنت ولا أحد غيرك ، فقال له معاوية وكيف ذاك ؟ فقال دخلت عليه ليلة عند افطاره فقال لي قم وتعش مع الحسن والحسين ، ثم قام إلى الصلاة فلما فرغ منها دعا بجراب مختوم بخاتمه فأخرج منه شعيرا مطحونا ثم ختمه ، فقلت يا أمير المؤمنين لم أعهدك بخيلا ، فكيف ختمت على هذا الشعير ؟ فقال لم أختمه بخلا ، ولكني خفت أن يبسه الحسن والحسين بسمن أو

زيت[1] ، فقلت يا أمير المؤمنين أحرام هو ، فقال : لا ولكن على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم حالا في الأكل واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو عليه ، ويراهم الغني فيزداد شكرا وتواضعا .

وأضاف إلى ذلك الأحنف بن قيس أن الربيع بن زياد الحارثي جاء إلى علي (ع) وقال يا أمير المؤمنين أن أخي عاصم بن زياد لبس العبا وتنسك وهجر أهله ، فقال له علي (ع) عليّ به فجاءه وقد ائتزر بعباءة وارتدى بأخرى أشعث أغبر ، فقال له : ويحك يا عاصم أما تستحي من أهلك ، أما ترحم ولدك ، ألم تسمع قوله تعالى : ويحل لهم الطيبات ، أترى أن الله أباحها لك ولأمثالك وهو يكره أن تنال منها ، أما سمعت قول رسول الله (ص) : « إن لنفسك عليك حقا ولولدك عليك حقا ولربك عليك حقا ، فقال له عاصم : فما بالك يا أمير المؤمنين في خشونة ملبسك وخشونة مطعمك ، وأني أتزيا بزيك ، فقال له : ويحك أن الله فرض على أئمة الحق أن يتصفوا بأوصاف أفقر رعيتهم لئلا يزدري الفقير بفقره وليحمد الله الغني على غناه .

وجاء عن سويد بن غفلة أنه قال : دخلت على علي أمير المؤمنين في قصر الإمارة بالكوفة وبين يديه رغيف من شعير وقدح من لبن والرغيف يابس تارة يكسره بيديه وأخرى بركبتيه ، فشق علي ذلك ، فقلت لجارية له يقال لها فضة : ألا ترحمين هذا الشيخ وتنخلين له هذا الشعير ، أما ترين نشارته على وجهه وما يعاني منه ، فقالت : أيؤجر هو ونأثم نحن ، أنه عهد الينا أن لا ننخل له طعاما قط ، قال سويد : فالتفت إلي أمير المؤمنين (ع) وقال ما تقول لها يا ابن غفلة ، فأخبرته وقلت ارفق بنفسك يا أمير المؤمنين . فقال : ويحك يا سويد ما شبع رسول الله (ص) من خبز ثلاثا تباعا حتى لقي الله ولا نخل له طعام قط ، ولقد جعت مرة في المدينة جوعا شديدا فخرجت اطلب العمل وإذا بامرأة قد جمعت مدرا تريد أن تبله فقاطعتها على كل دلو بتمرة فمددت ستة عشرة دلوا

---

(١) البس هو لت السويق أو الدقيق بالسمن أو الزيت .

حتى مجلت يداي ، ثم أخذت التمر وأتيت به رسول الله (ص) فأكل منه .

وفي رواية ثانية تنتهي بسندها إلى سويد بن غفلة رواها أحمد في فضائله وغيره عن سويد بن غفلة أنه قال : دخلت على علي (ع) يوما وليس في داره سوى حصير رث وهو جالس عليه فقلت يا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير ، فبكى وقال : يا سويد أن البيت لا يتأثث في دار النقلة وأمامنا دار المقامة وقد نقلنا إليها متاعنا ونحن منقلبون إليها عن قريب ، فأبكاني والله كلامه . ونقل الرواة عن ضرار بن حمزة أنه دخل على معاوية يوما ، فقال له يا ضرار صف لي عليا . فقال له : اعفني يا معاوية ، فقال له لا أعفيك ، فقال له ضرار : أما إذا كان لا بد من ذلك ، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فعلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة على لسانه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة كثير الفكرة يقلب كفه ويستوحش نفسه يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع قربه منا ودنوه الينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه ليلة وقد أرخى الليل سدوله وغابت نجومه وقد مثل قائما في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، وكأني اسمعه وهو يقول : اليك عني يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم الي تشوفت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لا رجعت لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

قال الراوي فذرفت عينا معاوية بالدموع وسالت على لحيته ولم يملك ردها واختنق من حوله بالبكاء ، ثم قال : رحم الله أبا حسن فقد كان والله كذلك ، ثم التفت إلى ضرار وقال كيف حزنك عليه يا ضرار فقال حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترق عبرتها ولا يسكن حزنها .

وطالما اقسم بالله وهو الصادق الأمين والعامل بكل ما يقول قبل أن يقول ، وما كان ليقول شيئا قبل أن يعمل به ، بل ينبع قوله : من طبيعة العمل الذي يعمل والشعور الذي كان يحس والحياة التي كان يحيا ، ولطالما قال أقسم بالله على ما يقول : والله لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت افلاكها على أن أعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وأن دنياكم لأهون عندي من ورقة في فم جرادة .

ولو لم تكن دنيا الناس أهون عنده من ورقة في فم جرادة لانتظمت له الأمور ووجد الناس يتململون بين يديه ويتسابقون إلى طاعته ولا يجدون عنه بديلا . وقد أجمع الرواة على أن لباسه في أيام خلافته وقبلها لم يكن غير ثلاثة أثواب ، قميص وأزرار ومدرعة من صوف ، لا يزيد ثمنها على دينار واحد .

وقال اكثر من مرة : لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ، وقال لي قائل : ألا تنبذها ؟ فقلت له : أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السراح ، وكان راقع المدرعة ولده الحسن (ع) يرقعها بجلد تارة وليف أخرى ، وقال له رجل يوما : بدل ثيابك هذه يا أمير المؤمنين ، فقال له : وأي ثياب أستر منها للعورة ، ومرة أخرى أجاب شخصا آخر قد طلب منه ذلك ، فأجابه بأنها أبعد لي عن الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلمون .

وقال الغزالي في احياء العلوم : أن علي بن أبي طالب كان لا يأخذ شيئا من بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد لا يجد غيره في وقت الغسل .

وقال مرة : من يشتري سيفي هذا فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لطالما كشفت به الكروب عن وجه رسول الله ، فوالله لو كان عندي ثمن ازار ما بعته ، وقال لأهل البصرة يوما : ماذا تنقمون مني وهذا من غزل أهلي وأشار إلى قميصه .

وجاء عن الإمام محمد الباقر (ع) أن أمير المؤمنين ذهب مع قنبر إلى سوق البزازين وطلب من رجل يبيع الملابس أن يبيعه ثوبين فقال له : يا أمير

المؤمنين أن عندي حاجتك ، ولما أيقن الإمام أن الرجل يعرفه تركه ومضى خشية أن يتساهل معه في الثمن ، ومضى حتى وقف على غلام واشترى منه ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين وبعد أن انصرف أمير المؤمنين جاء والد الغلام فقص عليه ما جرى له مع المشتري ووصفه بصفاته فأخذ درهمين ولحقه بهما وهو يقول : إن ولدي ربح منك درهمين فخذ أحدهما أو خذهما ، فقال له الإمام (ع) اذهب بدرهميك فإنه بايعني على رضاي ثم اعطى الإمام الثوب الذي إشتراه بثلاثة دراهم إلى قنبر وأبقى لنفسه الثوب الثاني ، فقال له قنبر : أنت أولى به مني يا أمير المؤمنين لأنك تصعد المنبر وتخطب الناس ، فقال له أمير المؤمنين :

وأنت شاب لك شره الشباب ، وأنا استحي من ربي أن أتفضل عليك ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول :

ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تأكلون .

وحينما تحدث جميع واصفيه عن طعامه ولباسه باختصار ، قالوا : كان يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، هذا وخراج الدولة الإسلامية يوم ذاك على سعتها تحت قدميه ، ومع ذلك فلباسه لا يرضاه لنفسه أحد من رعيته ، وطعامه من شعير غير منخول يستعين أحيانا بكلتا يديه على كسره مع الخل والملح ، وإذا استطاع أحد دلوه ادخال شيء عليه رفضه ، لأن في الحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالفرص ، وفي الوقت ذاته كان يجمع اليتامى ويطعمهم العسل وأطايب الطعام ، حتى قال له بعض أصحابه : وددت أني كنت يتيما يا أبا الحسن ، كما جاء ذلك عن أبي الطفيل وقد أوقف جميع ما كان يملكه في الحجاز على الفقراء . وروى الرازي في تفسيره أن الآية من سورة البقرة :

﴿ والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ .

نزلت في علي بن أبي طالب كما نقل ذلك المظفري في دلائل الصدق عن الواحدي في كتابه أسباب النزول .

كما نزلت فيه وفي زوجته الزهراء وولديه الحسن والحسين الآية ، ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾[١] .

وكان علي بزهده في الدنيا واعراضه عن طيباتها ومفاتنها يتأسى برسل الله المقربين وأنبيائه المرسلين الذين كانوا يتسابقون إلى مرضاة الله وثوابه .

لقد تأسى أمير المؤمنين بالأنبياء والمرسلين في طعامه ولباسه كما جاء في بعض خطبه التي يقول فيها : لقد كان لي برسول الله أسوة إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها ، وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله إذ يقول : ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير ، والله ما سأله إلا خبزا يأكله ، وإن شئت ثلثت بداوود صاحب المزامير ، وقارىء أهل الجنة فقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه : أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص شعير من ثمنها ، وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (ع) فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل العشب ، وكان ادامه الجوع وسراجه الليل والقمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مطمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه .

لقد تأسى أمير المؤمنين كما جاء في خطبته هذه في طعامه ولباسه بمحمد (ص) وموسى وعيسى وجميع الأنبياء وآثر المدرعة المرقعة وخبز الشعير والخل على ملذات الدنيا وطيباتها وكانت كلها تحت قدميه ، وقال : والله لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسيج هذا القز ، ولكنها نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الفزع الأكبر ، ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى .

وترك الدنيا ومتاعها لمن بايع وتابع وشايع الشيطان وحزب الشيطان تركها لعثمان وزمرته ومعاوية وحزبه أعداء الحق والإنسانية والإسلام ، وكانت عنده

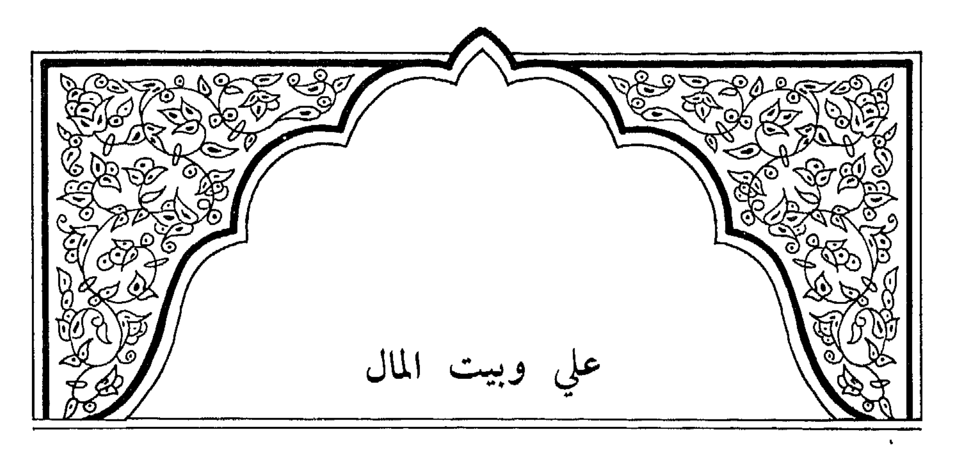
---

(١) كما جاء ذلك في تفسير البيضاوي والنيسابوري والبغوي والثعلبي والدر المنثور وتفسير الرازي عن الواحدي في أسباب النزول .

أحقر من حذائه ومن ورقة في فم جرادة .

وقال العقاد في كتابه عبقرية الامام : أما معيشة علي (ع) في بيته بين زوجاته وأبنائه فمعيشة الزهد والكفاف وأوجز ما يقال فيها أنه كان يتفق أن يطحن لنفسه وأن يأكل الخبز اليابس الذي يكسره على ركبتيه ويلبس الرداء الذي يرعد فيه من البرد ، وأن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين .

وكان يقول لأهل الكوفة : إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فأنا خائن ، وقد قال الامام ابو محمد الحسن في صبيحة اليوم الذي توفي فيه أمير المؤمنين : أيها الناس إن هذه الليلة التي توفي فيها أبي هي ليلة القدر ، وقد نزل بها القرآن وقتل يوشع بن نون ، والله أنه لأفضل الأوصياء الذين كانوا قبله ويأتون بعده وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يجمعها ليشتري بها خادما لأهله .



علي وبيت المال

لقد جاء في الاستيعاب لابن عبد البر أن عليا (ع) كان يقسم ما في بيت المال بين المسلمين ، ثم يأمر بكنسه فيكنس ويصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة وأتاه مال من أصبهان فقسمه سبعة أسباع ووجد فيه رغيفا فقسمه سبع كسر وجعل على كل قسم كسرة .

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم أن ابن النباح قال له : يا أمير المؤمنين لقد امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء أتت من الخارج ، فقال : الله أكبر ، علي بالناس فنودي بهم ولما اجتمعوا فرق جميع ما في بيت المال وهو يقول :

يا صفراء ويا بيضاء غـرّي غيري .

وكان إذا وصلت الأموال في المساء يقول لمن حضر اقتسموها ، فيقولون له لقد أمسينا يا أمير المؤمنين اخرها إلى غد ، فيقول من يضمن بقائي إلى الغد .

وحدث الحسن بن علي النمري عن عمرو بن يحي عن أبيه أنه قال : اهدي إلى علي بن أبي طالب زقاق من عسل وسمن فرآها قد نقصت فسأل عنها فقيل له لقد بعثت أم كلثوم فأخذت منها في قعب ، فبعث إليها وأنبها ثم قوم ما نقص من العسل بخمس دراهم فأخذها منها وقال هذه للمسلمين .

وجاء في تذكرة الخواص لابن الجوزي عن عمر بن يحي عن قنبر أنه قال وردت إلى بيت المال زقاق من العسل ، فقال لي الحسن بن علي (ع) : يا قنبر اذهب وآتني من الزقاق بمقدار نصيبي من بيت المال فقد نزل بي ضيوف وما

عندي ما أطعمهم ، وإذا وزع أمير المؤمنين العسل فخذ نصيبي ورده إلى بيت المال ، فجاء قنبر إلى زق منها وأخذ منه مقدار رطل ، ولما عرف أمير المؤمنين سأله عن النقصان فأخذ يتعلل ، فألح عليه أن يخبره فلما أخبره غضب ودعا ولده الحسن فجاء ووقع على قدميه وقال له بحق عمي جعفر الا ما عفوت ، وكان إذا أقسم عليه أحد بأخيه جعفر يسكن غضبه .

ثم قال له ما حملك على أن تأخذ من عسل المسلمين قبل قسمته ، فقال له الحسن : أليس لي فيه حق كغيري من المسلمين ، فقال له : بلى ولكن ليس لك أن تنتفع به قبلهم ، أما والله لولا أني رأيت رسول الله يقبل ثناياك لأوجعتك ضربا ، قم فاشتر عوضه ورده إلى الزق الذي أخذت منه ، ففعل الحسن (ع) ما أمره به ، ثم قسمه الامام (ع) بين المسلمين وبكى ، وقال : اللهم اغفر للحسن لقد كنا مع رسول الله نقاتل إخواننا وآبائنا وأعمامنا وأهلنا لا نريد بذلك إلا وجه الله ، وكان الرجل منا يختار رسول الله على نفسه فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت والذل وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه مبوئا وطأته ، والله لو أتينا ما تأتون لما قام للدين عمد ولا اخضر للإيمان عود .

ومن مظاهر عدل الامام وحرصه على الرعية وصاياه المتكررة التي كان يوجهها بين الحين والآخر لعماله وموظفي الدولة في جميع الميادين :

انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء أو صيف ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحدا سوطاً لمكان درهم .

وفي عهده إلى الاشتر يقول :

ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق أعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ولا تندمن على عفو أو تتبجحن بعقوبة .

وأرسل رجلا يدعى سعد إلى زياد ابن أبيه يأمره أن يحمل إلى بيت المال ما

عنده منه وكان قد بلغه أن زيادا يتقلب في النعيم ويستأثر به على الضعيف والفقير والارملة واليتيم وأنه يتظاهر بالفضيلة وهو عنها بعيد ، فلما طالبه الرسول وألح عليه تجبر زياد وتكبر ونهره ، فرجع وأخبر عليا (ع) فكتب إليه أمير المؤمنين يقول :

إن سعدا ذكر لي أنك شتمته ظالما وجبهته تجبرا وتكبرا وقد قال رسول الله (ص) الكبرياء والعظمة لله فمن تكبر سخط الله عليه ، وأخبر أنك تستكثر من ألوان الطعام وأنك تدهن كل يوم فماذا عليك لو صمت لله أياما وتصدقت ببعض ما عندك محتسبا وأكلت طعامك في مرة مرارا أو أطعمته فقيرا ، أتطمع وأنت متقلب في النعيم تستأثر به على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين ، وأخبرني أنك تتكلم كلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت وعملك أحبطت . ومضى يندد به ويتوعده بالعقوبة إذا هو استأثر بما في يده من أموال الفقراء والمساكين .

وموقفه من أخيه رحمه الله معروف ومشهور بين أكثر المؤرخين والمحدثين ، وقد شد الرحال إليه من الحجاز بعد أن أحوجته ظروفه المادية إلى طلب المعونة منه ، فأبى عليه الإمام أن يعطيه من مال الشعب أكثر من حقه ، ولما ألح عليه في الطلب احمى له الحديدة كما جاء في بعض خطبه التي يصف بها هذا الموقف ، فهدده عقيل بالذهاب إلى معاوية حيث سيجد عنده حاجته فلم يمانع من ذلك ، وظل مصرا على أن لا ينفذ له طلبا ما دام ذلك يتعارض مع حقوق الناس ، وهنا يدعي جماعة من المؤرخين أن عقيل بن أبي طالب ترك أخاه ووفد على معاوية فأغدق عليه من بيت المال الذي سخره لشراء الأنصار والأتباع وعباد الشهوات كابن النابغة وأمثاله من المنافقين والنفعيين ، وظل يغدق على عقيل من أموال المسلمين كما يزعمون ليسمع منه ولو كلمة ثناء منه يتباهى بها عند حاشيته وأتباعه من أهل الشام فلم يجد سبيلا لذلك ، وأراد أن يحرجه في بعض مجالسه المحتشدة بوجوه أهل الشام عله يداهنه ولو بكلمة واحدة ، فقال له : أنا خير لك أم أخوك علي بن أبي طالب يا عقيل ؟ وظن معاوية أن عقيلا

سيقول له : أنت خير لي من أخي وعندها يستطيع أن يقول لأنصاره أن عقيلا شهد بأني خير له من أخيه في دينه ودنياه ، ولكن عقيلا قد أدرك غاية معاوية وعرف أساليبه في التضليل والمكر والخداع ، فأجابه على الفور أخي خير لي في ديني وأنت يا معاوية خير لي في دنياي فصمت معاوية وانطوى على نفسه ، على أني أكاد أقطع لأكثر من سبب واحد أن عقيل بن أبي طالب لم يدخل التام في حياة علي (ع) ولم يتعرف على معاوية في حياة أخيه ، ولا استبعد أن يكون حديث التحاق عقيل بمعاوية من موضوعات الأمويين بقصد الطعن على عقيل بن أبي طالب بعد مناصرة العقيليين للحق والعدالة في كربلا وغيرها من المواقف ، ومن الجائز أن يكون الحوار المنسوب إلى عقيل مع معاوية بعد وفاة أمير المؤمنين (ع). ومهما كان الحال فالأموال التي كان يبذلها معاوية كانت أشد فتكا من جميع الأسلحة التي استعملها ضد الامام علي (ع) وقد أدرك بعض أنصار أمير المؤمنين هذه الحقيقة فجاؤوا إلى علي (ع) يطلبون منه التساهل في موقفه من توزيع الأموال .

فقد روى علي بن يوسف المدائني أن طائفة من أصحاب علي (ع) مشوا إليه وقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم واستمل من تخاف من خلافه وفراره إلى معاوية بن أبي سفيان ، فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ، لا والله لا أفعل ذلك ما طلعت الشمس وما لاح في السماء نجم ، والله لو كان المال لي لواسيت بينهم فكيف وإنما هي أموالهم ، ثم سكت طويلا وقال : الأمر أسرع من ذلك[1].

وفي رواية ثابتة للمدائني عن فضيل بن الجعد أنه قال : آكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين (ع) أمر المال ، فإنه لم يكن يفضل أحدا في العطاء ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما كان يصنع معاوية في أموال

---

(١) انظر شرح النهج ج ١ ص ١٨٣ .

المسلمين ، فترك الناس عليا والتحقوا به ، وأضاف إلى ذلك أن عليا شكا للاشتر تخاذل الناس عنه فكان جواب الاشتر من وحي الواقع الذي عاشه الناس في ذلك العصر ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنك تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق وتنصف الضعيف من القوي والوضيع من الشريف فضجت طائفة ممن معك من الحق والعدل ورأوا صنائع معاوية عند الرؤساء والأشراف فتاقت نفوسهم إلى الدنيا وقل من ليس للدنيا بصاحب في حديث طويل جاء فيه فإن تبذل الأموال تمل إليك أعناق الرجال وتصف لك نصيحتهم ويخلص لك ودهم .

فأجابه الامام (ع) بقوله : إن ما ذكرته من عملنا بالعدل وحرصنا على الحق فالله يقول : من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، وأنا مع ذلك أخاف أن أكون مقصرا في شيء من حقوق عباده ، ومن ثقل عليه الحق والعدل وفارقنا فالله يعلم بأنه لم يفارقنا من جور ولا لجأ إذ فارقنا إلى عدل ، ولم يلتمس إلا دنيا زائلة ولا بد وأن يسأل يوم القيامة عما كسب ، وأما بذل المال وشراء الرجال به فلا يسعنا أن نؤتي امرأ من الفيء أكثر من حقه ، والله سبحانه يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، ولقد بعث الله محمدا وحده فكثره بعد القلة وأعز فئته بعد الذلة[1] .

بهذا الأسلوب حكم الناس أمير المؤمنين (ع) يوم صارت إليه الخلافة وأبى أن يصانع أحدا على حساب دينه وأن يطلب النصر بالجور ويشتري الضمائر والأنصار بأموال المسلمين ، وكاد أن يقطع يد ابنته أم كلثوم لأنها استعارت عقدا من بيت المال لتلبسه في عيد من الأعياد ساعات ثم ترده إلى مكانه فانتزعه منها بعد أن هدد وكيله على بيت المال بالعقوبة الصارمة إذا عاد لمثلها أو سمح لأحد أن يتصرف ولو بدرهم واحد ، وقال لابنته : لا تذهبي بنفسك عن الحق اكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في هذا العيد بمثل هذا .

---

(١) شرح النهج ج ١ ص ١٨٠ .

وقد روى أبو اسحاق الهمداني أن امرأتين اتيا عليا (ع) إحداهما من العرب والأخرى من الموالي فسألتاه فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت إحداهما إني امرأة من العرب ، وهذه من العجم ، فقال : إني والله لا أجد لبني اسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني اسحاق .

بعد ما شاهد الطامعون والمستغلون منه ذلك وسمعوه يقول : والله لو كان المال لي لقسمته بالسوية فكيف وهو مال المسلمين ، وسمعوه يقول : إني لأعرف ما يصلحكم ولكني لا أصلحكم بفساد ديني ولا اشتري النصر بالجور ، بعد أن سمعوا منه ذلك وأيقنوا بأنه غير مستعد لأن يعاملهم بما اعتادوه وألفوه في عهد من سبقه ، وقد وجدوا ابن هند يفتح لهم صدره ويوفر لهم جميع ما يشتهون ويريدون ، بعد ذلك كله كان من الطبيعي أن يقفوا منه هذا الموقف وأن يعيش أيامه الأخيرة في ألم وحسرة ويتمنى فراقهم بالموت أو القتل .

لقد كان الامام (ع) يرى أن النظام السليم لا يقوم إلا على أساس العدل في الرعية ، ولا يمكن أن تتحقق العدالة إلا بإلغاء التفاوت بين الطبقات والعمل حسب الظروف والأوضاع لمصلحة المعوزين والفئات الفقيرة ، وكان يعلم أن ذلك سيكلفه الكثير من المتاعب وسيجلب له الأخصام والأعداء وسيمد معاوية وأمثاله بالقوة ، ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن رأيه ، ففي الأيام الأولى من خلافته وزع الأموال على الجميع بالسوية في حين أن التفاوت في توزيع الأموال كان بالغا أقصى حدوده في عهد من سبقوه ، ففي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر كان التوزيع من إثني عشر ألفا إلى خمسة آلاف وأربعة وثلاثة وألفين لعامة الناس وفقرائهم ، وفي عهد الثالث لم يكن للتفاوت حدود وحواجز وعادت الروح الجاهلية التي حارب من أجلها أبو سفيان وأمثاله إلى أقبح صورها وأشكالها ، فالأقربون إليه من أسرته قد رفعهم على رؤوس الناس وحصر القيادة والسلطة بهم ، وهم الذين كانوا يتولون من قبل قيادة المشركين لحرب الإسلام ، وغيرهم من المؤيدين والمناصرين يأخذون ما يريدون بدون حسيب أو رقيب ولم تمكنه الظروف القاسية التي أحاطت به خلال الفترة القصيرة من حكمه أن يقضي على مخلفات العهد السابق ولا أن يمد يده إلى الأموال التي استولى عليها

أنصار الحاكمين الأوائل وبخاصة أنصار الحكم العثماني الذين كانوا يعتبرون المال ملكا لهم والقائمين عليه خزانا لعثمان وأعوانه لا للمسلمين والمحاربين في حين أن أمير المؤمنين كان يراه ملكا للشعب وللجميع بالسوية ، وينظر إلى الفقراء والأيتام وكأنهم عياله يؤثرهم على نفسه ويواسيهم في مأكله وملبسه ومسكنه ، ويقول : إن على الحاكمين أن يواسوا أنفسهم بأضعف رعاياهم ليتأسى بهم الفقير ولا يتيه الغني بغناه .

وحدث الشعبي عنه فقال : دخلت الرحبة بالكوفة وأنا غلام في غلمان معي فإذا أنا بعلي (ع) قائم على جرتين من ذهب وفضة ومعه مخفقة يطرد الناس بها ، ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس حتى لم يبق منه شيء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا ، فرجعت إلى أبي وقلت له : لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس ، قال من هو يا بني ؟ قال : رأيت علي بن أبي طالب وقصصت عليه ما رأيته منه فبكى وقال : بل رأيت خير الناس يا بني .

ولو أنه تولى الخلافة بعد الرسول مباشرة واستمر فيها إلى نهاية حياته وانتقلت من بعده إلى أيد أمينة طاهرة وقادة أبرار ورثوا كل صفاته كالأئمة الهداة (ع) لظهر الإسلام للعالم بوجهه الصحيح الذي يساير الحياة والعلم والعقل في مختلف الميادين .

ومع أن خلافته كانت لفترة قصيرة وجاءت بعد عهد كان من أبرز سماته التفاوت الطبقي واستغلال الضعفاء وتسخير موارد الدولة لخدمة الخليفة وحاشيته ، وقد احتوشتها بالاضافة إلى ذلك الحوادث من جميع الجوانب بقيادة أولئك الذين كانوا ينعمون بالامتيازات التي منحتها لهم العهود الماضية ويعبثون بالأموال التي كانت تتدفق عليهم من هنا وهناك ، وتلت تلك الفترة من خلافته عهود ودول وإمارات في الشرق والغرب كان الحاكم فيها يحمل لقب أمير المؤمنين ويحكم باسم الإسلام والدين ولكنه يمثل أقبح أنواع الظلم والاستهتار بالقيم والاسراف والبذخ في أموال الشعوب ومقدراتها . لقد كان لكل واحد من أولئك الأمراء في العهدين الأموي والعباسي وفي الأندلس والمغرب العربي آلاف

الجواري والمحظيات والمغنيات والمقاصير والعبيد وما إلى ذلك من وسائل النعيم واللهو والترف مما لا يدخل في حدود القصور ولا يزال الحاكمون في بعض بلاد العرب وغيرهم باسم الإسلام يمثلون أقبح الأدوار التي كان يمثلها أولئك باسم أمراء المؤمنين .

وبلا شك فإن سيرة أولئك الحكام وتاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات تركا صورا قبيحة للإسلام في أذهان أولئك الذين لا يعرفونه إلا من خلال قادته وحكامه والمنتسبين إليه ، وكانت سلاح هدم وتخريب بيد الأعداء من مبشرين ومستشرقين وغيرهم ممن يكيدون للإسلام .

ومع أن خلافة أمير المؤمنين كانت لفترة قصيرة وقد أحيطت بتلك العواصف الهوجاء التي استغرقت جميع أوقاته ولم تترك له فسحة تمكنه من الإصلاح الشامل وبناء الدولة الإسلامية كما يريدها الإسلام ومع ذلك فقد تركت بالرغم مما تركه أولئك الحكام من الصور المخزية صورا غنية بالبراهين على سماحة الإسلام ويسره وعدالة أنظمته التي تحل مشاكل البشرية وتوفر للإنسان وسائل العيش والحياة الحرة الكريمة .

وعلى أي الأحوال فالحديث عن حياة علي وسيرته وما كان يتمتع به من المزايا والخصائص لا يستوعبه كتاب واحد ولا كاتب مثلي ، وقد كتب عنه مئات الكتّاب الذين ينتمون إلى مختلف الديانات والاتجاهات ، ولا أظن أن كاتبا من أولئك الكتّاب قد خرج وهو مقتنع بأنه قد وفاه حقه . وقد حاول أعداؤه وأعداء الإسلام أن يجدوا ولو ثغرة في تاريخه الطويل منذ دخل إلى هذه الدنيا من بيت الله وخرج منها من بيت الله فلم يجدوا سبيلا لذلك فعادوا يسبونه على منابرهم وهم يعتقدون بأن ذلك لا يضع من شأنه ولا يشفي لهم غليلا ، واتهمه بعضهم بضعف السياسة لأنه لم يكن يمكر ويغدر ويشتري الأنصار والضمائر بأموال العباد وخيرات البلاد كما كان يفعل معاوية وغيره من الحكام .

لقد قلنا أن عليا (ع) كان يحاول الاصلاح الشامل لجميع إدارات الدولة ليحقق العدالة التي تضمن لكل إنسان حقه ، وكان يراقب الولاة وأجهزتهم

ويلح على اختيار الاكفاء في جميع المراكز ، وبذل العون للقضاة حتى لا تضطرهم الظروف للانحراف عن الحق ، وللمزارعين والصناعيين وتوفير وسائل الانتاج ليتاح للدولة استيفاء الرسوم والضرائب ولسائر الناس أن يجدوا ما يسد حاجاتهم وضرورات معاشهم ، كما يبدو ذلك من وصاياه ورسائله لعماله ، وقد أكد هذه المبادىء في عهده لمالك الاشتر حينما ولاه على مصر بعد أن تغلب عليها ابن العاص وقتل عاملها محمد بن أبي بكر ، وقد جاء في اختيار الولاة .

وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم اخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اسرافا وأبلغ في عواقب الأمور نظرا ، ثم انظر في أمور عمالك فولهم اختبارا ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة ، ثم تفقد أعمالهم وأبعث العيون من أهل الصدق والأمانة عليهم فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان ، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

وجاء فيه فيما يعود إلى اختيار القضاة : ثم اختر للقضاء بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه ، وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصوم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه إلى الناس حاجته ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك وانظر في ذلك نظرا بليغا فإن هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا .

وجاء فيه فيما يعود إلى اختيار اجهزة الدولة : إن شر وزرائك من كان

قبلك للأشرار وزيرا ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الآثمة واخوان الظلمة ولا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس ذلك من النصيحة والأمانة في شيء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرا ، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان في كتابك من عيب وتغابيت عنه ألزمته .

وقال فيما يعود إلى المزارعين والصناعيين : وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بلا عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقدم أمر إلا قليلا ، فإن شكوا ثقلا أو علة، أو انقطاع شرب أو بالّة[1] أو الحالة أرض اعتمرها غرق أو أجحف عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم[2] والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم احتملوه طيبة نفوسهم ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتي خراب الأرض من أعواز أهلها .

وقال (ع) فيما يعود إلى التجار وأصحاب المصانع : واستوص بالتجار

---

(١) ثقلا فيما لو كانت شكواهم من ثقل الضريبة عليهم ، وعلة ، فيما لو شكوا من مرض زراعي يتلف محاصيلهم ، والشرب هو ماء الري فيما لو كانت الارض تعتمد الأنهار ، والبالّة ، هي ماء المطر في المناطق التي تعتمد على الأمطار .

(٢) الاجمام الترفيه والتوسعة .

وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه[1] فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤ ون عليها وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع الاحتكار فإن رسول الله منع منه ، وليكن البيع سمحا بأسعار لا تجحف بالبائع والمبتاع . ومضى يوصيه بالفقراء والأيتام والمرضى والشيوخ الذين لا يستطيعون العمل بأن يجعل لهم ما يكفيهم من خزينة الدولة إلى غيـر ذلك مما لم تتوصل اليه ارقى الدول في عصرنا الحاضر .

ومجمل القول أن ما ظهر للناس من سيرته يوم كان محكوما وحاكما يغنيه بالفضائل والقيم ويجعله في صفوف الأنبياء والمرسلين ، وبالاضافة إلى ما جاء فيه عن الرسول من الأحاديث الصحيحة التي اعترف بصحتها محدثو السنّة ، وإلى ما نزل فيه من الآيات كما جاء في مجاميع السنة والشيعة وقد ألف الشيعة وبعض محدثي السنة فيما ورد فيه من الأحاديث وما نزل فيه من الآيات عشرات الكتب حتى أن حديث رد الشمس له قد رواه أكثر محدثي السنّة وصححه جماعة منهم كما جاء في صواعق ابن حجر وغيرها[2] .

ويدعي الأمين في غديره أن حديث رد الشمس أخرجه جمع من الحفاظ الاثبات بأسانيد صحح جماعة من مهرة الفن بعضها على حد تعبيره ، ومضى يقول أن بعضهم شدد النكير على من غمز في صحة أسانيده وهم الابناء الأربعة ، ابن حزم وابن الجوزي وابن كثير وابن تيمية واستطرد يقول : وقدجاء آخرون من الأعلام فعز عليهم انكار هذه المأثرة لعلي (ع) فألفوا فيها كتبا مستقلة وعد منهم الحاكم ابن الحداد الحسكاني ، ومحمد بن الحسين الأزدي ،

---

(١) المترفق ببدنه ، العامل بيده ، والمرافق الأدوات والآلات التي يستعملها صاحب المصنع .
(٢) أنظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ ١ ص ٢٧٣ ، و ٢٧٤ ودلائل الصدق للمظفري وغيرهما .

والحسين بن علي البصري ، وأخطب خوارزم أبو المؤيد موفق بن أحمد ، ومحمد بن أسعد بن علي النقيب ، ومحمد بن يوسف الدمشقي الصالحي له جزء اسماه مزيل اللبس عن حديث رد الشمس ، وجلال الدين السيوطي ، له رسالة ايضا بهذا الاسم[1] .

والذي أريده من ذلك أن المحدثين من سنيين وشيعيين قد نسبوا اليه من الفضائل حتى ما لا تدركه العقول كرد الشمس وحرب الجن ونحوذلـك ولا أرى أن ذلك من المستحيلات عليه ويمكن أن يقع بارادة الله القدير على كل شيء ، ولكن لنا من سيرته وتاريخه الغني بالشواهد والأدلة على أن سيرته لا تشبهها سيرة أحد من عباقرة العصور وتلتلقي في شخصيته جميع المواهب التي لم يتفق أن التقت في أحد قبله وبعده ، لنا من دلك ما يغنينا عن أحاديث رد الشمس وإحياء الموتى ونحو ذلك من المرويات التي امتلأت بها مجاميع الحديث السنية والشيعية .

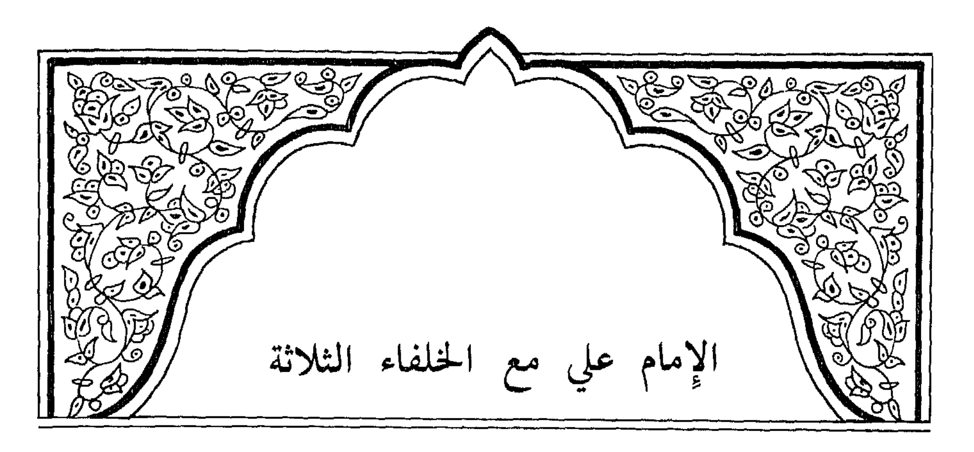
وقد قال الحسن البصري فيه من قبل يوم كان الحديث عن فضله جريمة لا تعادلها جريمة .

لقد قال في جواب من سأله عما يحدث الناس عنه : ما اقول في رجل كتم محبوه فضله خوفا من القتل والتشريد ، وكتم مبغضوه فضله حقدا وحسدا وظهر مع ذلك له من الفضائل ما ملأ الخافقين ، وقال الحصري وهو يعتذر عن عدم مدحه في قصائده :

وإذا استطال الشيء قام بنفسه ... وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

---

(١) أنظر الغدير جـ ٣ ص ١٣٧ وما بعدها .



الإمام علي مع الخلفاء الثلاثة

لقد وقف أمير المؤمنين (ع) من خلافة أبي بكر خلال الأشهر الثلاثة أو الستة بعد وفاة النبي (ص) هو وجماعة من المهاجرين والأنصار موقفا يتسم بالشدة والصلابة ، وظل متمسكا بحقه إلى أن توفيت الصديقة فاطمة الزهراء كما ذكرنا من قبل ، واحتج عليهم أولا بالمنطق الذي احتجوا به على الأنصار ، وذكرهم بالنصوص التي لا يجهلها أحد منهم وفند جميع مزاعمهم ، واستطاع بمواقفه الحكيمة أن يستميل إلى جانبه عددا كبيرا من المسلمين قد اقتنعوا بفساد بيعتهم لأبي بكر وأرادوه على المقاومة ، ولكن بوادر العصيان المسلح الذي ظهر بين الأعراب ، وارتداد بعضهم عن الدين بقيادة المتنبئين قد اضطراه إلى التغاضي عن حقه ، لأن خطر الردة قد يجتاح رسالة محمد من اساسها إن هو بقي مصرا على موقفه ، ولم يعد لديه ما يمنع من مسايرة القوم ليبقى الإسلام في طريقه ويبقى محمد رسول الله عقيدة في القلوب وترانيم على الالسن ترددها الملايين في أوقات الصلاة صباحا ومساء في كل زمان ومكان ، وهل كان له مأرب من وراء الخلافة التي كان يطالب بها إلا أن يحمل الناس على الخير ويحمل لهم الخير ويرأب صدعا ويهز سيفا في سبيل مجد الإسلام وانتشاره .

في تلك الفترة القاسية من تاريخ الدعوة رأى أمير المؤمنين أن مصلحة الإسلام تفرض عليه أن يتجاهل كل ما مضى وأن ينصرف لدين الله واعلاء شأنه فأرسل إلى أبي بكر يدعوه إليه ، فأقبل الشيخ مسرعا وتم اللقاء بينهما بروح يسودها التسامح والتساهل منه إلى حد نكران الذات ، ولكن لم يفته في تلك

اللحظات وهو ينفض يديه من الخلافة وينهي ما كان حولها من جدل وخلاف في سبيل مصلحة الإسلام ، لم تفته الصراحة ولم تخنه الشجاعة وأبى أن يدع بقلبه الكبير جانبا لم يكشفه لخصمه الذي شاءت الظروف أن يضع يده بيده تاركا كل شيء لله وفي سبيل الله . وما أن انتهى حديث العاطفة والمجاملة بينهما حتى اتجه إليه أمير المؤمنين بقوله : لم يمنعنا أن نبايعك انكار لفضلك ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكنا نرى أن لنا حقا في هذا الأمر فاستبددتم به علينا ودفعتمونا عنه . وما أن أتم حديثه حتى انبرى أبو بكر يجيبه : والذي نفسي بيده يا أبا الحسن لقرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي وأما الذي شجر بيني وبينكم في هذه الأموال فإني لم آل فيها عن الخير ولم أترك أمرا صنعه رسول الله إلا صنعته .

ويبدو من جواب أبي بكر أنه لا يريد أن يثير موضوع الخلافة وحق علي فيها وانصرف إلى قضية النزاع على فدك وما كان منه ، لأنه اعتقد بأن عليا قد انهى مسألة الخلافة ، في حين أن حديثه كان عنها وقد أدانه بالاستبداد والاغتصاب ، وهكذا انتهى الحوار بينهما واطمأن القوم أن خصمهم الذي كان يهددهم بالأمس قد انصرف عن كل شيء ، وظل خلال حروب الردة الناصح الأمين للخليفة والمعين له في الشدائد والمعضلات ، وقنع من الدنيا بتفقيه الناس والقضاء بينهم بحكم الله ، فإذا أحس بخطر غزو الأعراب والمرتدين للمدينة يحمل سيفه على عاتقه ويخرج إلى ضواحي المدينة في جوف الليل ليصد عنها الغزاة ، كما كان يحمله في عهد رسول الله متجاهلا كل ما سلف وما حدث من اولئك الذين تآمروا عليه وأقصوه عن حقه وأساؤ وا إلى زوجته بضعة الرسول ، واتسع صدره إلى ما لم يتسع له صدر انسان غيره ورمى الماضي وراء ظهره لله وللإسلام كما ذكرنا . ولم يكن يترقب من الخليفة في الأيام القليلة القادمة التي سيختم بها حياته غير ما كان منه في سقيفة بني ساعدة حين تجاهله وكأنه لم يسمع من الرسول شيئا فيه واتجه إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة يوم ذاك وقال لهما انتما اولى بالبيعة فأيكما أراد بايعته ، لم يكن يترقب منه غير ما كان وأن يعود عمر بن الخطاب ويتدارك ما سبق منه معه من تحدٍ وحيف ، وكان يعلم علم اليقين بأنه سيتركها لعمر بن الخطاب ويتحمل مسؤ وليتها حيا وميتا ، بالرغم من أنه قال

على ملأ من الناس : اقيلوني فلست بخيركم ، وفي رواية ثانية أقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم .

لقد شهد كل ذلك وأغمض عينيه عما شهد وسمع ، وترفع عما جبلت عليه نفس الإنسان وسد أذنيه عن صوت أبي بكر يوم جمع الناس ليعهد بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وكأن خلافة المسلمين ملك له يورثه لمن يشاء ويهبه لمن يشاء ، وبالأمس القريب أنكر هو وأصحابه حديث الوصاية لعلي ، مدعيا بأن الحق للمسلمين يولون من يجتمع أمرهم عليه ، وها هو اليوم يوصي بها لعمر بن الخطاب وكأنها من متروكات أبي قحافة ويتجاهل المسلمين ويقول : أيها الناس أني والله ما آلوت من جهد في الرأي ولا وليت ذا قرابة ، وأني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .

وفي رواية ثانية أنه جمعهم وخطبهم بعد أن أحس بأنه على أبواب الموت ولم يخبرهم بما أجمع عليه أمره ، وكان أكثر الناس يترقبون أن يوليها لعمر بن الخطاب ، وبعد أن أنهى خطابه كتب عهدا لعمر وقال له : خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس فخرج عمر وأعلمهم بما فيه فقالوا سمعنا وأطعنا ، وقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال : لا ادري ولكني أول من سمع وأطاع ، فقال له الرجل : ولكني ادري ما فيه أمرته عام أول وأمرك هذا العام ، وكثر اللغط والحديث بين المسلمين ، وضج اكثرهم مما عزم عليه أبو بكر واتهموه بالتواطؤ على أن تسير الخلافة منه إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي عبيدة بن الجراح من بعده ، وبعض المسلمين كان يحتج على أبي بكر بشدة ابن الخطاب وفظاظته .

وكان طلحة اكثرهم كلاما وتحركا ، لأنه كان يطمع بها بعد قريبه أبي بكر وذهب اليه يعاتبه وهو يعاني من آلامه ، ولكنه انتهره وحقره وأخرجه من البيت ولم يترك له أملا فيها فاستسلم وأطاع كغيره من الناس .

أما علي (ع) فكما ذكرنا كان يعلم بكل ما جرى ويعلم أن المعارضة لا تجدي ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا ، ولم تجده المعارضة بالأمس وكانوا أضعف

منهم اليوم ، فكيف وقد تخلصوا من المرتدين واتجهوا إلى ما وراء الحجاز بكل قوتهم وذاقوا حلاوة الانتصارات المتتالية فمن غير المعقول أن يتجاهل حقه بالأمس لمصلحة الإسلام ويتمسك به اليوم وقد عبر عما كان يختلج في نفسه ذلك اليوم بعد عشرين عاما أو تزيد يوم أصبح خليفة واحتوشت خلافته الأحداث وهبت في وجهها العواصف من كل جانب فقال في خطبته المعروفة بالشقشقية . اما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا ، وطفقت ارتأي بين أن أحول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهبا ومالي غصبا حتى إذا مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب من بعده ، فواعجبا بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطر ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن حسها إلى آخر الخطبة التي يصور فيها موقفهم من الخلافة وكيف تداولوهاواحداً بعد الآخر وما جرى معه حينما انتهت اليه .

وقال الأستاذ عبد الفتاح مقصود في كتابه علي بن أبي طالب وهو يتحدث عن موقفه منها بعد أن أوصى بها أبو بكر لعمر بن الخطاب من بعده ، قال : وكان هذا حريا بأن يفصم الغضب قلب علي (ع) لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف ، ولكنه كظم وصبر ولم يضره أن يأخذ مقعده في ذيل الناس ما دام اصحاب الرسول قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته ، ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجبا غاية العجب من الشيخ بعد أن استوت بينه وبين علي الأمور ، ولم تعد خافية على أبي بكر مكانة الشاب وأثره في حياة الجماعة الإسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ومن حكمة وفضل ودولة الإسلام تشق طريقها إلى الإكتمال .

ومضى عبد الفتاح يقول ولكن الأسلوب الذي انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والأخطاء ، وبدا وكأنه أضمر التبييت لأمر وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ووقع بهذا في الخطأ الذي وقع فيه عمر بن الخطاب من قبل عند وفاة النبي (ص) إذ خرج بصاحبه إلى سقيفه بني

ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم إلى الخروج ، وأضاف إلى ذلك : وقد اسقط أبو بكر من حسابه عليا الذي كان أولى بالرعاية وبالحساب من سواه ، وشاور غيره من صحبه قبل أن يقدم على اختيار من يخلفه ، وإن لم تكن المشورة فيما يبدو بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، وأي الناس في العرب كان يفضل ابن عم الرسول أو يقوم مقامه حتى يغض أبو بكر عن دعوته ليشاوره في الأمر .

إن العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند علي كلما اختلفت الآراء في مصير فرد واحد من رعاياه ، ثم لا يشاوره إذا أراد البت في مصير دولة جمعت كل رعاياه .

كان هذا عجبا من رجل استخلف وهو على غير يقين أكان هو صاحب الأمر بعد رسول الله ، أم كان الأولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف : لوددت أني كنت سألت رسول الله عن هذا الأمر فلا أنازعه أحدا ، ومع ذلك فقد شاور صحبه قبل أن يدلي بهذا الأمر لعمر بن الخطاب ولم يشاور أولاهم بالمشورة وبسط الرأي .

لقد عهد أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وبلا شك أن ذلك كان عن سابق اتفاق بينهما ، وقد افصح بعض انصاره عن هذا التصميم بقوله : لقد أمرك عام أول وأمرته هذا العام ، وكان عثمان بن عفان من أكثر أنصاره حماسا لتولية عمر بن الخطاب .

فقد جاء في مجاميع التاريخ أن أبا بكر دعا إليه عثمان بن عفان وقال له : يا أبا عبد الرحمن أخبرني عن عمر بن الخطاب ، فقال له أنت أخبر به يا خليفة رسول الله . ولما ألح عليه أبو بكر أن يتكلم قال : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله ، فتفرجت أسارير أبي بكر ، وقال : رحمك الله يا عبد الله ، والله لو تركت عمر بن الخطاب ما عدوتك ، وأوصاه أن يكتم ما دار بينهما من حوار وطلب منه أن يكتب له عهدا بخلافة عمر من بعده ، وراح يملي عليه ، فكتب : هذا ما عهد به عبد الله بن عثمان إلى المسلمين ، وعند

هذا الحد ثقل عليه الكلام وغاب عن الدنيا فرفع يده عثمان عن الصحيفة والتفت إلى أبي بكر فوجده قد أغمي عليه فخاف أن يفارق الحياة قبل اتمام الكتاب ، فأتمه هو وكتب فيه ، أني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . ولما أفاق من غشيته وعرض عليه ما كتب أقره على ما كتب وأوصاه أن يدفع له الكتاب بعد أن ختمه بخاتم الخلافة .

هكذا تمت الخلافة لابن الخطاب بعد جدال بينه وبين طلحة متجاهلا علي بن أبي طالب مما يؤكد أن عمله هذا لم يكن إلا تنفيذا لما أبرم بينهما من قبل ، ومن الجائز أن يكون ابن عفان طرفا في ذلك الاتفاق ، كما يشير إلى ذلك قول أبي بكر : والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك يا أبا عبد الرحمن ، ويشير إليه سكوت أبي سفيان وقد كان من أشد المعارضين لأبي بكر ، ويصف بيته بأنه أرذل بيت في قريش ، وفجأة سكت ومشى مع القوم وبلا شك فلقد كان لسكوته ثمن يرضيه ويرضي أسرته وأغلى مما يدعيه بعض المؤرخين من أنهم تركوا له ما جباه من الصدقات ونحو ذلك ، ولا شيء يرضيه إلا أن يجعلوا لبيته نصيبا في السلطة ، وها هو أبو بكر يولي ولده على الشام بعد أن تم جلاء القوات الرومانية عنها ، ويقول لعثمان : والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك ويجيء عمر بن الخطاب بعد عشر سنوات ليفي لأسرة أبي سفيان بما عاهدها هو ورفيقه عليه ، فيجعلها لعثمان بأسلوب جديد حتى لا تكون لخلافته تلك الصبغة التي كانت لخلافة عمر بن الخطاب وسنوضح هذه الفكرة عند الحديث عن الشورى التي جعلها عمر بن الخطاب في ستة من المهاجرين .

ومهما كان الحال ، فإن موقف أبي بكر من خلافة عمر بن الخطاب وترشيحه لعثمان بن عفان لها يتناقض مع قوله : أقيلوني منها فلست بخيركم وعلي فيكم ، ومع قوله قبيل وفاته كما روى عنه المؤرخون : لا آسي إلا على ثلاث خصال صنعتها ليتني لم أكن صنعتها ، وثلاث ليتني كنت سألت رسول الله عنها ، وثلاث ليتني كنت فعلتها ، وعد من الثلاث التي كان يتمنى لو أنه سأل رسول الله عنها ، مصير الخلافة من بعده ، وهل للأنصار حق فيه حتى لا ينازع

أحدا حقه[1] .

غريب أمر هذا الشيخ ما دام وهو على فراش الموت شاكا في أمره وخائفا من أن تكون الخلافة لغيره وقد اغتصبها من أصحابها ، ويتحسر لماذا لم يسأل الرسول عن هذا الأمر ، فلماذا تحمل مسؤوليتها وجعلها لعمر بن الخطاب بدون تردد ولا مبـــالاة بمن اعترضه على هذا التصرف ، ولماذا يرشح لها عثمان ويقسم بالله بأنه لولا ابن الخطاب ما تعداه ، وإذا كان خائفا كما يدعي ويحتمل أن يكون النبي قد جعلها لأحد قبل وفاته ، أفلا يدور في خلده أن يكون علي بن أبي طالب أحد من جعلها له ، ولماذا تجاهله وكأنه لم يكن شيئا مذكورا ووضع في حسابه عثمان بن عفان ، ولم يمنعه عن توليته إلا وجود عمر بن الخطاب على قيد الحياة .

وحسبما أظن أن أبا بكر لم يقل بأني كنت أتمنى أن اسأل رسول الله لمن الأمر من بعده وهل للأنصار حق فيه لم يقل ذلك ولم يظهر بهذا المظهر إلا ليلقي ضبابا على فكرة النص على علي بن أبي طالب (ع) التي كان يتحدث بها الناس نتيجة لمواقف الرسول في غدير خم وغيره من المواقف .

وعلى أي الأحوال ، فلقد وقف عبد الفتاح مقصود عند قولته لعثمان : لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك وقفة لها دلالتها ، قال لقد أصاب في اختياره حد التوفيق ، واستطاع أن يمد في أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام ، وكلنا نراه حتى في هذا الصواب قد افتات حق علي (ع) الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما في هذا الطريق ، وافتات ثالثة حق علي بمنطق اللسان حين سمعناه يقدم عليه ابن عفان ويقول له : لو تركت عمر بن الخطاب ما عدوتك ، فمن في الزاهدين كان عثمان وأي ميزة تفرد بها دون ابن أبي طالب واستحق معها هذا التقديم ، وبأي لسان نطق أبو بكر هذا البيان ، أكان حديثه يا ترى مجاملة بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم

---

(١) أنظر اليعقوبي طبع النجف جـ ٢ ص ١١٦ .

في حكمه قواعد الحساب الدقيق ، هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ إذ ذاك ، وإن جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجيء عليه الجواب وللأحداث من بعد ذلك الحكم وفصل الخطاب .

ومضى يقول : إن المبدأ الذي التزمته قريش في اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ونزعها حقهم من أيديهم هذه حقيقة أيدتها دائما وقائع الحال كانت في البدء يحجبها في حلوق أصحابها ستار وإن بدت في الأفعال ، ثم أخذت على الأيام تخرج من نطاق الأسرار إلى المجاهرة والكلام ، ولم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر لأبي بكر من بعده أن تقول لبني هاشم في أصرح بيان وبأعلى صوت : كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت .

وقد أكد عداء قريش لآل الرسول واتفاقهم على أن لا تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت جماعة من الكتّاب القدامى والمحدثين ، فقد قال في شرح النهج وهو يتحدث عن موقف قريش من علي بن أبي طالب ، ولست ألوم العرب لا سيما قريشا وبغضها له وانحرافها عنه فإنه وترها وسفك دماءها وكشف القناع في منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ، وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد في النفوس كما نشاهد اليوم عيانا والناس كالناس الأول والطبائع واحدة ، وكل دم أراقه رسول الله بسيف علي أو بسيف غيره فإن العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعلي وحده ، لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن تعصب تلك الدماء به غير علي بن أبي طالب[1] .

وقد صدق شارح النهج فيما قال وفاته أن يذكر سببا آخر لعله لا يقل في أهميته عن السبب الأول ، وهو أن الذين وقفوا في وجه الدعوة كأبي سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحرث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وغير هؤلاء من جبابرة قريش وطغاتها بصلابة وقوة ، وظلوا على مواقفهم إلى أن

---

(١) انظر المجلد الثالث طبع مصر من شرح النهج .

أرغموا على الاستسلام لم يقفوا منها هذا الموقف إلا لأن الإسلام يتعارض مع مصالحهم وامتيازاتهم ويساوي بينهم وبين العبيد والفقراء والمستضعفين ، هؤلاء وأمثالهم يعلمون بأن استيلاء علي على السلطة سيكون امتداداً لسيرة الرسول ، وإذا تساهل النبي (ص) معهم بعد أن فتح مكة لأسباب تعود على الإسلام بالمصلحة فسوف لا يجدون من علي تساهلا ولا مهادنة لأحد على حساب الإسلام ، وغير الحق والعدل الذي يساوي بينهم وبين أضعف الناس .

وسيجدون في ظل غيره ما يرضيهم ويحقق لهم بعض ما يريدون ، ولذلك فقد رحب هؤلاء بخلافة أبي بكر وغيره وتداعوا إلى قتال الفئة التي كانت تلهج بذكر علي من الأنصار وغيرهم ، فقد جاء في بعض المجاميع أن سهيل بن عمرو هاله ما بدا من حب الأنصار لعلي وحرصهم على رجوع الخلافة إليه فوقف يحف به أعيان قريش يخطب فيهم ويقول : يا معشر قريش إن هؤلاء الناس قد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب وعلي في بيته لو شاء لردهم ، إلا فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلا فاقتلوهم ، فوالله إني لأرجو أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم .

وتكلم بعده الحارث بن هشام ، فقال : أيها الناس إن يكن الأنصار قد تبوأوا الدار والإيمان من قبل ونقلوا الرسول إلى دورهم من دورنا فآووا وانصروا فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه فقد خرجوا مما وسموا به وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف .

وقال عكرمة بن أبي جهل : لولا قول رسول الله الأئمة من قريش ما أنكرنا على الأنصار أعذروا إليهم فإن أبوا فاقتلوهم ، كما تكلم غيره وحرض على الأنصار الذين كانوا يرددون اسم علي ، ولم يقفوا منهم هذا الموقف إلا لأنهم كانوا يطالبون بحق علي (ع) كما صرح بذلك سهيل بن عمرو ولوح به الحرث بن هشام .

هؤلاء الذين يبدو عليهم الحماس لخلافة أبي بكر كانوا إلى الأمس القريب هم وآباؤهم من ألد أعداء الإسلام ، ولقد أثار موقفهم هذا جماعة من

الأنصار ولكن ثابت بن قيس الأنصاري راح يهدئهم ويخفف من ثورة نفوسهم ، ورد عليهم بكلمات قصار كانت أبلغ من ألف بيان وبيان ، يا معشر الأنصار إنما كان يكبر عليكم قول هؤلاء : لو كانوا من أهل الدين من قريش .

فهدأت ثورة الأنصار بعد هذه الكلمة القصيرة وراحوا يستعيدون تاريخ هؤلاء وآبائهم ومن كان على شاكلتهم ومواقفهم العدائية للنبي والإسلام وكيفية إسلامهم المزيف .

وتشير بعض المرويات إلى أن الخليفة وأركان حزبه كما تخلصوا من سعد بن عبادة الأنصاري بواسطة خالد بن الوليد وادعوا أن الجن قتلته ووضعوا شعرا نسبوه للجن ، كانوا يفكرون بالتخلص من علي (ع) وهو في صلاته ، ولكن أبا بكر تراجع عن التنفيذ في آخر لحظة وبدلا من أن يختم صلاته بالتسليم كما هو المفروض ختمها بقوله لا تفعل يا خالد ، وأصبح فعله هذا دليلا على جواز الخروج من الصلاة بغير التسليم عند فقهاء بعض المذاهب بحجة أن عمل الصحابي كبقية الأدلة على الأحكام .

وجاء في المجلد الثالث من شرح النهج وهو يتحدث عن الأسباب التي منعت من قتل علي (ع) بعد وفاة الرسول في حين أن العرب لا يصبرون على الثأر وأمير المؤمنين وترهم في آبائهم وعشائرهم في جميع المعارك التي خاضها في سبيل الإسلام ، جاء في المجلد المذكور بعد أن عرض أبو جعفر الاسكافي بعض الأسباب حسبما انتهى إلى تفكيره ، أنه قال لأبي جعفر : أحق ما يقال في حديث خالد ومؤامرتهم على قتله في الصلاة ، فقال أن قوما من العلوية يذكرون ذلك ، ومضى يقول : إن رجلا جاء إلى زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة فسأله عما يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم كالكلام والفعل الكثير أو الحدث ونحو ذلك ، فقال أنه جائز : قد قال أبو بكر في تشهده ما قال ، فقال الرجل : وما قال أبو بكر ؟ فقال : لا عليك ، فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة فلم يجب ، وقال أخروجه قد أحدث أنه من أصحاب أبي الخطاب .

وهنا قال ابن أبي الحديد لأبي جعفر : فما الذي تقوله أنت ؟ فقال : أنا

استبعد ذلك وإن روته الامامية ، وأضاف إلى ذلك أبو جعفر : أما خالد بن الوليد فلا أستبعد الاقدام عليه لشجاعته في نفسه وبغضه له ، ولكني أستبعد ذلك من أبي بكر ، أنه لم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة وقتل علي بن أبي طالب حاش لله من ذلك ، فقلت له : أكان خالد بن الوليد يقدر على قتله ؟ قال : نعم ، ولم لا يقدر على ذلك والسيف في عنقه وعلي أعزل غافل عما يراد به ، لقد قتله ابن ملجم غيلة وخالد بن الوليد أشجع من ابن ملجم ، قال فسألته عما ترويه الامامية في ذلك كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال : كم عالم بالشيء وهو يسائل ، ثم قال دعنا من هذا ما الذي تحفظ من الشعر في هذا المعنى ؟ قلت احفظ أبياتا لأبي الطيب المتنبي :

نحن ادرى وقد سألنا بنجد ... أطويل طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تقليل[1]

ويبدو من جواب زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة أن في الأمر شيئا من هذا النوع ، لأنه أبى أن يفصح للسائل عما قاله أبو بكر لخالد في تشهده بالرغم من إلحاح السائل عليه وبالتالي أمر بإخراجه من مجلسه ونسبه إلى الخطابية ولو كان ما قاله أبو بكر بعيدا عما يدعيه الامامية لم يكن موجب لامتناع ابن الهذيل عن الجواب ، ولا لإخراج السائل من المجلس قهرا بذلك الأسلوب ، كما وأن ابن أبي الحديد وأبا جعفر قد أخرجا حديثهما حول هذا الموضوع مخرج التشكيك والمداورة والتخرج من تصويب أمر من هذا النوع يدين الخليفة بجريمة لا نظير لها في الإسلام . ومما يدل على مداورة أبي جعفر في جوابه أنه لم يجزم بكذب ما ترويه الامامية ، بل استبعد علي أبي بكر أن يجمع بين الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة حقها وقتل علي بن أبي طالب ، ولم يذكر سببا غير ذلك ومن المعلوم أن مجرد الاستبعاد وحده لا يكفي لتكذيب ما ترويه الامامية بعد أن فعل القوم نظيره مع سعد بن عبادة واغضاب فاطمة كما جاء في جواب أبي جعفر ، ونظائر

(١) انظر ص٢٨٤ من شرح النهج المجلد التالت طبع مصر .

ذلك في التاريخ لا تحصى في سبيل الملك .

وإن من يراقب سير الأحداث التي جرت في ذلك اليوم وموقف المهاجرين من علي والصديقة بضعة الرسول (ص) كما أشرنا إلى بعض جوانبها لا يستبعد ذلك وأكثر منه ، ولكن مجرد ذلك لا يكفي لادانة القوم بعمل من هذا النوع ما لم تتوفر النصوص التاريخية الصحيحة عليه ، ولست الآن بصدد البحث عن تصويب تلك النصوص أو تجريحها ، ولم يكن من قصدي التعرض لمثل هذا الموضوع لولا أن الحديث قد جرني إليه من حيث لا أريد .



علي في عهد عمر بن الخطاب

فواعجبا بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطر ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والاعتذار منها .

لقد استشار أبو بكر طلحة وعبد الرحمن وغيرهما في استخلاف عمر بن الخطاب ، وإن لم تكن المشورة بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، وكان أكثرهم كارها لخلافته ووصفوه بالفظاظة والغلظة ، وبعدما شاع استخلافه دخلوا على أبي بكر وقالوا له : ما أنت قائل لربك وقد وليت علينا فظا غليظا ، وقال بعضهم لابن الخطاب وليته العام وولاك هذا العام ، وبدا عثمان أطيبهم نفسا بخلافة عمر بن الخطاب كما ذكرنا .

وتمت الخلافة لعمر بن الخطاب وانقاد له الناس كما انقادوا لسلفه وحققت قريش بذلك بعض ما كانت تخطط له وظلت السنين القادمة تنتظر جديدا ولا بد وأن يتحقق ما دامت قريش تأبى أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، وها هو عمر بن الخطاب بعد أشهر قليلة من ولايته يؤكد ذلك لشاب من شباب بني عبد المطلب كان مقربا من ابن الخطاب ، ويأنس إلى حديثه وحواره ، فقال له : أتدري ما منع الناس منكم يا عبد الله ؟ فقال لا يا أمير المؤمنين ، قال : لقد كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا فنظرت لنفسها واختارت فوفقت وأصابت .

لقد التزمت قريش ذلك في اختيار الخلفاء ، وانقادت لعمر بن الخطاب كما انقادت لسلفه من قبل ، ومضى هو في سياسته وسيرته على خط صاحبه مع كبار الصحابة ، ولم ينس أبداً كلماته التي ودعه بها : احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله الذين انتفخت أوداجهم وطمحت أبصارهم .

لقد كان أبو بكر على ما يبدو من وصيته هذه حريصا على استتباب الأمر واستقراره إلى سلفه ، وكان يخشاهم إن انتشروا في الامصار أن يستميلوا الناس إليهم فيطمحون للمعارضة وينقضون على الخليفة ، أو يستقلون في بعض أطراف البلاد ، واشتد عمر بن الخطاب في تنفيذ هذه المادة من وصايا أبي بكر إليه ، وحبسهم في المدينة حتى أن الرجل منهم كما يروي المؤرخون كان يأتيه ملتمسا أن يسمح له بالخروج إلى الثغور ليقاتل إلى جانب المقاتلين ، فلا يسمح له ويأمره بأن يلتزم بيته ومسجده ، ثم يقول له : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يكفيك ، وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك فوقفوا حيث أراد لهم لا يبرحون من مكانهم إلا بإذن ولاجل محدود يتطلعون إلى البلاد التي خضعت لحكم الإسلام وخيراتها بألم وحسرة .

وأدرك ابن الخطاب مدى الضيق الذي ألمّ بهم من هذا الحصار ومدى محاولاتهم للتفلت منه ، وما يضمرونه من السخط والكراهية لهذا الأسلوب من الحكم ، فقال : إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة الله ، فأما وابن الخطاب حي فلا ، ومرة أخرى يقف موقف المشفق عليهم الحريص على آخرتهم ويحاول أن يبرر الحصار المضروب عليهم بإنقاذهم من سخط الله ، فيقول إني قائم دون شعب الحرة أخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار .

أما أمير المؤمنين (ع) فلم ينقل أحد من المؤرخين أنه وقف موقف المعارض لخلافة ابن الخطاب ، أو بدا منه ما يسيء إلى صلاته به بل رضي لنفسه أن يكون كغيره من الناس ، لا يذكر لمن مضى ولمن جاء من بعده إلا المحاسن ، ولا ينطق إلا بلسان البررة الاطهار يمنحه النصيحة ويزوده برأيه كلما أشكل عليه أمر من الأمور ، أو طرأ حادث جديد لم يسبق له نظير في حياتهم من

قبل تسيّره مصلحة الإسلام وحدها ولا ينظر إلى الحكم والحاكمين إلا من هذه الزاوية ، وما دام الإسلام يسير بتلك السرعة في ما وراء حدود الحجاز ، وعروش أولئك الحكام تتهاوى تحت أقدام الفاتحين ، وأصوات المؤذنين تنطلق من الأعالي والسهول ومن على سطوح الكنائس ومن كل مكان ، ما دام الإسلام يسير بتلك السرعة والمسلمون بخير لا يهمه من تولى الحكم وكيف تولاه ، وطالما كان يردد على مسامع الناس ويلقي عليهم من دروسه الرائعة ، والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليّ خاصة .

لقد ساهم أمير المؤمنين في الحياة العامة ما وسعه ، وأدى ما عليه للجمهور من تعليم وتفقيه وقضاء على مدى أوسع مما أداه في عهد أبي بكر حيث اقتضت الظروف ذلك .

ويحدث التاريخ عن عمر بن الخطاب بأنه كان يحترم قوله ويقف عند رأيه حتى في غير التشريع ، ويقول : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وتنص المرويات على أن أمير المؤمنين هو الذي وضع للمسلمين تاريخهم الذي ارخوا به ولا يزال حتى اليوم .

ولقد جاء في ذلك أن رجلا جاء إلى ابن الخطاب يخاصم آخر بدين له عليه ومعه صك مكتوب فيه استحقاق أصل المال وأنه يستحق في شعبان ، فلما ألقى بصره عليه أدرك مواضع النقص وتوجه إلى الدائن يسأله أي شعبان هذا ؟ أشعبان هذه السنة أو التي بعدها . وأجابه الطرف الآخر ، ولكنه لم يكن ليطمئن لقوله ما دام كل منهما يدعي أمراً والكتابة لم تنص بصراحة على تاريخ الاداء ، والناس يوم ذاك لم يكن لديهم تاريخ خاص فكان بعضهم يؤرخ بعام الفيل ، وآخرون يعتمدون تاريخ الدولة المجاورة لهم ، فأجمع رأي ابن الخطاب على أن يضع للمسلمين تاريخا يعتمدونه في أمورهم ، فجمع الصحابة ليقف على رأيهم في هذا الموضوع واختلفت آراؤهم في ذلك أشد الاختلاف وكادوا أن يتفرقوا بدون أن ينتهوا إلى نتيجة حاسمة لولا أن عليا (ع) قد أقبل عليهم بالمعهود من رأيه السديد ، واتجه إليه ابن الخطاب يسأله ، فقال (ع) نؤرخ بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، فأعجب عمر بن الخطاب برأيه وهتف

يقول : لا زلت موفقا يا أبا الحسن .

واقترن رأيه هذا بإعجاب الحضور أيضا لأن هجرة الرسول كانت البداية لانتصار الإسلام على الشرك وحدثا تاريخيا لعله من أبرز الاحداث في تاريخ الدعوة من حيث نتائجه يذكرنا بالتضحيات الجسام التي قدمها علي بن أبي طالب ليسلم محمد لرسالته وينتشر الإسلام في شرق الأرض وغربها .

وجاء في شرح النهج عن الحسن بن محمد السبتي أنه قرأ في كتاب أن عمر بن الخطاب نزلت به نازلة فقام لها وقعد وقال لمن عنده من الحضور : يا معشر من حضر ما تقولون في هذا الأمر ، فقالوا يا أمير المؤمنين : أنت المفزع ، فغضب وقال : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا أما والله إني وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها ، فقالوا : كأنك أردت علي بن أبي طالب ، فقال : وإنى يعدل بي عنه وهل طفحت حرة بمثله ؟ قالوا فلو دعوته يا أمير المؤمنين ، فقال هيهات أن هناك شمخا من هاشم وأثرة من علم ولحمة من رسول الله ، إن علياً يؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه فمضوا نحوه فألفوه في حائط له عليه ثيان وهو يركل على مسحاته ويقرأ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ودموعه تنهمل على خديه فأجهش الناس لبكائه فسأله ابن الخطاب عن تلك الواقعة ، فأصدر جوابها ، فقال عمر بن الخطاب : أما والله لقد أرادك الحق ، ولكن أبي قومك ، فقال يا أبا حفص خفض عليك : من هنا ومن هنا إن يوم الفصل كان ميقاتا فوضع عمر بن الخطاب إحدى يديه على الأخرى وأطرق إلى الأرض ومضى كأنما ينظر في رماد على حد تعبير الراوي ، إلى كثير من الحوادث الطارئة التي كان حلها يستعصي على الخليفة وسائر الصحابة ويضطرهم الحال إلى الرجوع إليه والأخذ برأيه في مختلف المواضيع .

وكان عمر بن الخطاب على مافيه من جفاء وفظاظة كما وصفه القريب والبعيد وعلى ما بدر منه من القسوة والخروج عن المألوف مع الصديقة الزهراء (ع) لا يدع مناسبة إلا ويذكر فيها عليا وحاجة المسلمين إلى علمه ورأيه ، وأحياناً يبلغ به الاعجاب إلى الاعتراف له بحقه في الخلافة من حيث لا يريد تصريحا تارة كما في رواية السبتي السابقة ، وتلميحا آخر ربما بلغ في بعض الأحيان

حدود الصراحة ، ولكنه كان يعود وهو في حديثه ليضع مسؤولية تنحية عن الخلافة على غيره ، أو يتعلل لذلك بأسباب لا تمت إلى الواقع بصلة من الصلات .

وأكثر احاديثه حول هذا الموضوع كانت مع عبد الله بن العباس وهو يوم ذاك في مطلع شبابه وكان ابن الخطاب يألفه ويطمئن إلى رأيه وذكائه ، ولم تكن هيبة الخليفة وفظاظته لتمنعاه عن احراج الخليفة احيانا وتفنيد مزاعمه ومصارحته بالتجني على ابن عمه وانتزاع حقه . فقد روى المؤرخون أن عمر بن الخطاب كان في حوار مع الشاب الهاشمي وجرهما الحديث إلى اعتراف الخليفة بظلامة علي بن أبي طالب ، فقال له ما أرى يا ابن عباس صاحبك إلا مظلوما ، فقال له ابن عباس : فاردد عليه ظلامته يا أمير المؤمنين ، فوقف ابن الخطاب قليلاً يختار الجواب المقبول بعد اعترافه هذا ، ثم قال : ما اظن ان القوم منعهم عنه إلا أنه كان شابا حدثا فاستصغرت العرب سنه وقد كمل الآن ، ومضى يقول : ألم تعلم يا ابن عباس أن الله لم يبعث نبيا إلا بعد الأربعين ، وكان جواب ابن عباس هذه المرة لا يخلو من التحدي والتعريض بالخليفة نفسه ، فقال له يا أمير المؤمنين : أما أهل الحجى فانهم ما زالوا يعدونه كاملا منذ رفع الله منار الإسلام ، ولكنهم يعدونه محروما مجدودا ، وقد جعل الرسول اسامة بن زيد اميرا قبيل وفاته على جميع المسلمين بما فيهم مشيخة قريش وكان شابا لم يتجاوز العشرين من العمر .

ومرة اخرى كان علي (ع) جالسا بفناء داره ومعه ابن عمه عبد الله فمرّ بهما عمر بن الخطاب وسلم عليهما ولما هم بالانصراف سأله علي (ع) عن غايته فقال اريد البقيع ، فقال له أفلا نصل جناحك فرحب بهما فأشار أمير المؤمنين الى ابن عمه أن يذهب مع الخليفة فأسرع ابن عباس لذلك ومشى الرجلان في جوف الليل وجرهما الحديث إلى الخلافة وموقف المسلمين من علي بعد وفاة النبي (ص) فقال عمر بن الخطاب : والله أن صاحبك لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله ، إلا أننا خفناه على اثنتين خفناه لحداثة سنه ولحبه لبني عبد المطلب .

وفي رواية ثالثة رواها ابن ابي الحديد في شرح النهج عن ابي بكر الانباري

في اماليه ان عليا جلس إلى عمر بن الخطاب يوما في المسجد فلما قام من مجلسه عرض بعض الحضور بعلي (ع) ونسبه إلى التيه والعجب ، فقال له ابن الخطاب : وحق لمثله ان يتيه ، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام وهو بعد اقضى الأمة وذو سابقتها وشرفها ، فقال له الرجل : ما دام كذلك فما منعكم عنه ؟ قال : كرهناه لحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب .

وقد تكرر هذا التخلص من عمر بن الخطاب في المرويات التي تتحدث عن الحوار بينه وبين ابن عباس تارة وبينه وبين غيره ممن كانوا يطرقون موضوع الخلافة احيانا اخرى .

ولا اظن أن ابن الخطاب كان جادا في تبرير موقف المهاجرين من الخلافة بهذين السببين فان عليا (ع) لم يكن صغير السن كما يدعي ابن الخطاب ، بل كان فوق الثلاثين من عمره ولم يتفق لاحدٍ من المسلمين ان عارك الأمور وتعرض للأحداث وللصراع مع الابطال والشجعان في المعارك كما اتفق له ، كما وان ابن الخطاب وجميع المسلمين يعلمون بأنه لا يحابي احدا على حساب قريبا كان أو بعيدا مهما كانت الظروف .

والشيء الغريب من أبي حفص ان يخاف علياً لحبه بني عبد المطلب ويمتنع عن بيعته بعد الرسول (ص) لهذا السبب كما يدعي ، ولا يخاف من حب عثمان بن عفان لاسرته وقد مهد له الخلافة وأصبح بحكم المتعيّن لها ، وضم اليه اولئك النفر في الشورى لتغطية الاتفاق السابق بينهما كما ستثبت ذلك خلال حديثنا عن الشورى ونتائجها ، في حين أنه كان يقول لو تولاها عثمان لحمل بني ابيه على رقاب الناس .

وحدث عبد الله بن العباس عن حوار آخر جرى بينه وبين ابن الخطاب بشأن الخلافة ، فقال : كنت عند عمر بن الخطاب فتنفس نفسا ظننت أن أضلاعه قد انفرجت ، فقلت له : ما اخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين الا همّ شديد . فقال : أي والله يا ابن عباس : اني فكرت فيمن اجعل هذا الأمر من بعدي ، ثم قال : لعلك ترى صاحبك لها أهلاً ، قلت وما يمنعه من ذلك

مع جهاده وقرابته وسابقته وعلمه قال صدقت ولكنه امرؤ فيه دعابة .

ويبدو من اجوبة ابن الخطاب ان صحت انه كان يفتش عن سبب يبرر موقفهم من علي (ع) ، فمرة يعتذر منه ، بأن قريشا لا تريد أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد ، وأخرى بحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب ، وثالثة بأن فيه دعابة إلى غير ذلك مما يرويه الرواة عنه ، في حين أنه لاكثر من مناسبة كان يقول :

أما والله لو وليها علي بن أبي طالب لحملهم على المحجة البيضاء والحق الواضح .

ومع ذلك فقد انتحل له صفة الدعابة وعدها سبباً كافياً لاقصائه عن الخلافة ، هذا مع العلم أن ابن الخطاب كان معروفاً بين جميع المسلمين بالفظاظة والغلظة وخشونة المعشر وأكثر الذين استشارهم أبو بكر بشأنه وصفوه بذلك وهي من الصفات القبيحة التي تنفر وتفرق كما نصت على ذلك الآية الكريمة التي وصف الله بها أخلاق النبي بقوله : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ومع ذلك فقد أصر أبو بكر على استخلافه وتم له ذلك ومع ذلك فهو يرى أن ابتسامة علي (ع) للفقراء والضعفاء ومواساته لهم وانسهم اليه بالاضافة إلى جميع الصفات الفاضلة المتوفرة لديه يرى ذلك سبباً كافياً لعدم استخلافه من بعده .

وقد وصفه ابن العاص بهذه الصفة وكان يردد كلمة ابن الخطاب في مجالس معاوية بقصد انتقاصه وحينما بلغ أمير المؤمنين ذلك قال كما جاء في نهج البلاغة :

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة وإني امرؤ تلهاية أعافس وأمارس ، لقد قال باطلاً ونطق آثماً ، أما وشر القول الكذب ، أنه يقول فيكذب ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ويسأل فيبخل ويخون العهد ويقطع الآل ، فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يتيح القرم سبته ، أما والله أنه ليمنعني من اللعب ذكر

الموت ، وأنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة ، وأنه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتيه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة .

وكان معاوية كما جاء في شرح النهج يذكر أحياناً دعابة علي بقصد انتقاصه أيضاً فلقد قال يوماً بعد أن استتب له الأمر لقيس بن سعد بن عبادة رحمه الله : رحم الله ابا حسن لقد كان هشاً بشا ذا فكاهة ، فأدرك قيس قصده وقال له : لقد كان رسول الله (ص) يمزح ويبتسم لاصحابه وأراك تسرح في ارتفاء ، أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى ، تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك أهل الشام ، وقد بقي هذا الخلق متوازناً متناقلاً في محبيه وأوليائه إلى الآن كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر[1] .

وفي هذا الحوار الذي دار بين الشاب الهاشمي عبدالله بن العباس وبين الخليفة كما يروي ابن أبي الحديد وغيره من المؤرخين يبدو عمر بن الخطاب وكأنه مال إلى التراجع عن رأيه وقارن بين دعابة علي (ع) وبين تصلبه في الحق وحرصه على اتباع نهج القرآن وسنّه رسول الله فرأى في صلابته في الحق وحرصه على التمسك بالكتاب والسنّة ما يغطي دعابته المزعومة ويجعله جديراً بالخلافة ، فبعد أن وصفه بالدعابة قال له عبد الله كما جاء في الرواية : فأين انت من طلحة فازدراه وقال ذو الباء وباصبعه المقطوعة ، فعرض عليه ابن عباس الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان فوصف كل واحد بما فيه من العيوب بصراحة كاملة وتنبأ لعثمان بما صار إليه من سوء السلوك والنهاية السيئة ، ومضى يخاطب ابن عباس ويقول : أنه لا يصلح لهذا الأمر إلا خصيف العقدة قليل العزة لا تأخذه في الله لومة لائم ، يكون شديداً من غير عنف لينا من غير ضعف مستحيا من غير سرف ممسكا من غير وكف .

قال ابن عباس : ثم اقبل علي بعد أن سكت هنيهة وقال اجرؤهم والله

---

(١) انظر المجلد الأول طبع مصر ص٨ .

إن وليها أن يحملهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصاحبك ، أما أنه إن ولي أمرهم حملهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم .

وفي حوار آخر جرى بين عبد الله وعمر بن الخطاب يرويه المؤرخون عن عبد الله بن عمر جاء فيما روي عنه أنه قال : كنت عند أبي يوما وعنده نفر من الناس فجرى في مجلسه ذكر الشعر ، فقال أبي من أشعر العرب . فقال بعضهم : فلان أشعر العرب ، وقال البعض الآخر : فلان أشعر . وكثر الجدال والأخذ والرد حول هذا الموضوع . وفيما هم يعرضون اسماء الشعراء إذ طلع عليهم عبد الله بن العباس ، فقال أبي : لقد جاءكم الخبير وتوجه إليه يسأله عن أشعر الناس ، فقال ابن عباس : أشعرهم يا أمير المؤمنين زهير بن أبي سلمى ، وأنشده أبياتاً من قصيدة له مدح بها بني سنان أحد فروع غطفان يقول فيها :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم سنان أبوهم حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
انس إذا أمنوا جن إذا فزعوا ... مرزؤون بهاليل إذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر بن الخطاب : لقد احسن والله ، وما أرى هذا المدح يصلح إلا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ، فقال ابن عباس : وفقك الله يا أمير المؤمنين ولم تزل موفقا .

ثم قال عمر بن الخطاب : يا ابن عباس أتدري ما منع الناس منكم ، قال : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : ولكني أدري ، لقد كرهت قريش أن تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً ، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت وأصابت ، فقال له ابن عباس : أيميط عني أمير المؤمنين غضبه ويسمع ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت قريش كرهت ، فقد قال الله لقوم : ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط أعمالهم﴾ .

وأما قولك انّا كنا نجحف فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنا قوم

اخلاقنا مشتقة من اخلاق رسول الله الذي قال الله فيه : وإنك لعلى خلق عظيم ، وقال له واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين .

وأما قولك أن قريشا اختارت ، فإن الله يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، وقد علمت يا أمير المؤمنين إن الله اختار من خلقه لذلك من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر لها الله لوفقت وأصابت.

ويبدو أن كلمة عبد الله : ولقد علمت بأن الله اختار لذلك من خلقه من اختار ، هذه الفقرة قد احرجت الخليفة لأنها توحي بالنص على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع) وتدين الخليفة مباشرة لأنه كان العقل المدبر لمصير الخلافة على النحو الذي صارت عليه ، فراح يتلمس الهروب مما أوقعه فيه ابن عباس ، فرد عليه بقوله : على رسلك يا عبد الله ابت قلوبكم يا بني هاشم الا غشا في أمر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول ، وهنا انبرى له ابن عباس بالحجة الواقعة وقال له : لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش ، فإنها من قلب رسول الله الذي طهره الله وزكاه وأنزل فيه وفي آله :

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وأما وصفك لقلوبهم بالحقد على قريش ، فكيف لا يحقد من غصب شيئه ويراه في يد غيره . فغضب عمر بن الخطاب لهذه الصراحة التي لم يعتد عليها من ابن عباس خلال احاديثهما عن الخلافة من قبل ، واعتبرها تحديا سافراً له ولسلفه الراحل فراح يطالبه بأمر كان قد بلغه عنه وكتمه عليه لتبقى مودته ، أما وقد بلغ به الحال إلى هذا الحد من الصراحة فلم يعد ما يوجب السكوت عنه . فقال يا ابن عباس بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي ، فقال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ أخبرني عنه فإن يكن باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه ، وإن يكن حقاً فإن منزلتي منك لا تزول به ، فقال : بلغني عنك أنك لا تزال تقول : أخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما ، فلم ينكص ابن عباس عن جوابه ولم يتراجع عن موقفه وأجابه على الفور : نعم لقد احد حسدا وظلماً وقد حسد إبليس آدم فأخرجه الله من الجنة ونحن بنو آدم المحسود ، وقد أخذ

ظلما وأنت يا أمير المؤمنين تعلم من هو صاحب الحق . ومضى يقول : لقد احتج العرب على العجم بحق رسول الله واحتجت قريش على العرب بحقه ونحن أحق برسول الله من قريش وغيرها .

ويبدو أن عمر بن الخطاب قد ضاق صدره بهذه الصراحة ولم يجد ما يرد عليه فأراد أن يقطع الحوار ، فقال له : قم واذهب إلى منزلك يا عبد الله ، فأدرك غايته وترك المجلس لاهله وانصرف ، وأدرك ابن الخطاب بأنه كان فظاً في أسلوبه وخشي أن يكون قد أساء إليه وهو يأمره بالانصراف وترك المجلس ، وقبل أن يغيب عنه ، قال له : أيها المنصرف أني على ما كان منك لراع حقك .

فالتفت إليه وهو غير متهيب لمقامه ولا مأخوذ بلين أسلوبه الأخير وقال : أن لي عليك وعلى كل مسلم حقاً برسول الله فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه اضاع ومضى في طريقه وهو مرتاح النفس والضمير لكلمة الحق التي نطق بها في هذا المجلس غير متهيب سلطان خصمه ولا فظاظته وكثرة انصاره .

وجاء في الرواية التي وصفت هذا الحوار أن عمر بن الخطاب لم يمتنع عن تقريظه والثناء عليه بالرغم من أنه تحداه وأدانه ولم يحترم سلطانه ، فقال : واها لابن عباس ما رأيته لاحى أحدا قط إلا خصمه إلى غير ذلك مما يرويه المؤرخون عما كان يدور بين الخليفة وعبد الله بن العباس من حوار وجدل حول الخلافة ونصيب علي (ع) منها ، ولم يكن ابن الخطاب مع ما عرف عنه من الفظاظة والغلظة عنيفاً مع ابن عباس الذي كان يعبر في مواقفه هذه عن رأي الهاشميين وكثير من الصحابة ، وكان الخليفة يصرح أحياناً بأن عليا كان ولا يزال أولى المسلمين بالخلافة ويضع تبعة اقصائه عنها على قريش لانها ابت أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد على حد تعبيره ، وظل عمر بن الخطاب ينوه باسم علي ابن أبي طالب ويردد اسمه عندما يجري حديث الخلافة وكأنه المتعين لها من بعده حتى ظن اكثر المسلمين أنها لن تعدوه ، ولن يقع اختيار ابن الخطاب على غيره لاسيما وقد صاهره وتزوج من ابنته أم كلثوم كما يدعي المؤرخون ولا أرى في ذلك ما يدعو إلى استبعاد هذا الأمر وأن استبعده بعض محدثي الشيعة وعلمائهم.



وفاة عمر بن الخطاب

لابد لنا ونحن بصدد الحديث عن مصير الخلافة بعد تلك المواقف التي كان ابن الخطاب يلوح فيها بعودة الحق لاصحابه ويقول : لقد اجمعت أن اولي عليكم احراكم أن يحملكم على الحق وظل يلوح ويصرح أحياناً حتى جاءت الأيام الأخيرة من حياته وإذا به يجعلها لواحد من ستة اختارهم من أصحاب رسول الله ، ولم يختر احداً منهم بصراحة ولكنه رسم حدود الأختيار وأوصى إلى الرجل المختار من أولئك الستة كما يومىء إليه عهد مكتوب ستتعرض لذلك خلال حديثنا عن الشورى ونتائجها ، لا بد لنا من المرور بحادثة اغتياله كما يرويها المؤرخون والمحدثون لنتمكن من تكوين فكرة صحيحة عنها .

لقد اجمع المؤرخون على أنه قتل بخنجر أبي لؤلؤة بعد عشر سنوات ونيف من ولايته عن ثلاثة وستين عاما وقيل أكثر من ذلك ، وأبو لؤلؤة كما يدعون غلام فارسي للمغيرة بن شعبة قد اذن له عمر بن الخطاب بدخول المدينة في حين أنه كان قد منع من دخول الموالي إليها ، ولكن المغيرة بن شعبة اراده على ادخاله وكتب له أنه يحسن أكثر من صنعة والمدينة في حاجته لامثاله ، فاستجاب لطلبه وأذن له فأقام على عمله ، وكان المغيرة قد فرض عليه مائة درهم في كل شهر كما جاء في أحاديث بعض المؤرخين ، فثقل عليه وشكاه إلى الخليفة وبعد أن حدثه بما يحسن من الأعمال رفض أن يتوسط له مع المغيرة أو يخفف عنه شيئاً ، ومرّ عليه بعد أيام وقال له : بلغني أنك تقول : لو شئت لصنعت رحا تطحن

بالريح ، فالتفت إليه ساخطاً وقال : لاصنعن لك رحا تتحدث بها الناس ، فأدرك غايته والتفت إلى من كان معه وقال : ألا سمعون إلى العبد ما أظنه الا يتوعدني ولم تمض سوى أيام قلائل حتى ترصده في فجر يوم من الأيام وكمن له في زاوية من زوايا المسجد فلما خرج إلى الصلاة حمل عليه بخنجر ذي رأسين وطعنه ثلاث طعنات في بطنه فخر إلى الأرض يتخبط بدمه ، ومضى يطعن كل من دنا منه حتى أصاب ثلاثة عشر رجلاً مات منهم جماعة وسلم الباقون ، وحينما عجز عن الفرار وأحيط به من كل جانب طعن نفسه ومات من ساعته ، وكان عمر بن الخطاب قد اغشي عليه ، فلما افاق من غشوته أمر ابن عباس أن يأتيه بخبر من اغتاله فخرج من المسجد ورجع إليه فأخبره عن الجاني ومصيره .

وجاءه الطبيب في تلك الساعة وهو يعاني من الألم ، فلما عاين جرحه أشار عليه أن يعهد بالخلافة لمن يقوم بها من بعده ، ودخل عليه ولده عبد الله وقال : إن الناس يقولون : لو أن راعي ابل أو غنم تركها وجاءك أولست كنت تراه مضيعاً مفرطاً لأنه تركها بدون من يكفلها ويرعاها فكيف تذهب وتترك الأمة بدون خليفة يدير شؤونها ، فقال له : إذا تركتها بدون خليفة فلقد تركها قبلي رسول الله ، وان استخلفت أحداً فلي أسوة بأبي بكر من قبلي . فأيقن الناس على حد تعبير الراوي بأنه سيترك الأمر للمسلمين يختارون لانفسهم من يريدون ، وقبيل وفاته اختار ستة من الصحابة وجعلها لأحدهم كما سنتعرض لذلك في حديثنا عن الشورى .

وجاء في رواية ابن أبي الحديد في شرح النهج وتاريخ الخميس أن عبد الرحمن بن أبي بكر رأى الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة غلام سعد بن أبي وقاص في مكان يتشاورون وبينهم خنجر له رأسان مقبضه في وسطه فقتل عمر بن الخطاب في صبيحة تلك الليلة التي رآهم يتشاورون فيها ، ولما أخبر بذلك بعد مقتل عمر بن الخطاب ، اقدم عبيد الله بن عمر على قتل الهرمزان الفارسي وجفينة وطفلة لابي لؤلؤة.

وكان الهرمزان أميراً على الأهواز من قبل الفرس ، ولما اسره المسلمون

قدموا به على عمر بن الخطاب وكان نائماً في المسجد وليس معه أحد ، فسأل عنه الهرمزان فقيل له : هو ذاك النائم ، فقال وأين حجابه وحراسه ، قالوا : لا حارس له ولا حاجب . فقال : ينبغي أن يكون نبياً ، وقد فرض له عمر بن الخطاب الفين كغيره من عامة الناس وأبقاه في المدينة .

ويدعي المؤرخون أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بن الخطاب قبل أن يقتل بثلاثة أيام وقال له اعهد عهدك يا أمير المؤمنين ، فإنك مقتول بعد ثلاثة أيام ، فقال له : وما يدريك ؟ فقال : أجده في كتاب الله التوراة ، فقال له : إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ، فقال : اللهم لا ، ولكني اجد صفتك وحليتك ، فقال عمر : رضينا بقضاء الله وقدره ، فلما أصيب تذكر قول كعب الأحبار ، فلما كان من الغد جاءه وقال : لقد ذهب يوم وبقي يومان ، وفي غداة اليوم الثاني جاءه وقال : بقي لك يوم واحد ونهاية اليوم الثالث كانت وفاته وتحققت نبوءة كعب الأحبار بتلك السرعة التي قلما تحقق مثلها لمن سبقه من الأنبياء .

بهذا النحو يروي المؤرخون القدامى والمحدثون قصة وفاة عمر بن الخطاب ، ولا يقفون عند أسبابها وملابساتها بينما يحاول بعض المتأخرين من الكتاب أن يضعوا حولها اكثر من علامة استفهام ولكن بتحفظ لعدم توفر الادلة المادية على التآمر والتخطيط لاغتياله ، وعندما يعود الباحث للاسباب التي أدت الى هذا الحادث لا يجد عند المؤرخين سببا سوى ما يدعونه من أن الخليفة لم يتجاوب مع أبي لؤلؤة في تخفيض الضريبة عنه بعد أن عرف منه انه يتقن اكثر من صنعة ، وهذا السبب بنظري بعيد للغاية ، وإذا كان للضريبة من تأثير على حياة العبد من الناحية الاقتصادية فمن اللازم أن يحقد على مولاه وينتقم لنفسه منه ، لأن الضريبة تعود لصالح المغيرة مولاه ولا شأن للخليفة بها ولا هي تعود إلى بيت المال ليكون الأمر منها إلى الخليفة نفسه ، لذلك فإني ارجح أن تكون أسباب الجريمة ابعد من ذلك ، ومن غير المستبعد ان تكون داخلية ومن صنع اولئك الذين ضيق عليهم عمر بن الخطاب ولم تتّسع صدورهم لحزمه وصلابته ورقابته الدائمة لجميع تصرفاتهم ، وكان يتظاهر في الشطر الأخير من حياته

بالتقشف والعطف على الفقراء والصراحة في محاسبة ولاته على ما كان يبدر منهم من التصرفات مما اتيح لمحبيه أن يطروه بالعدل ويضربوا الامثال بعدله ، وبلغ من السطوة والهيبة حدا دانت له رقاع واسعة من الأمصار كان من في اقصاها يخاف درته وهو في الحجاز ، ولقد قال عمرو بن العاص يوما : لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر بن الخطاب ، والله لقد رأيته وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز ركبتيه وعلى عنقه حزمه حطب ، ورأيت العاص بن وائل في مزرارة الديباج ، كما كان المغيرة يحقد عليه أيضاً لأنه عزله عن البصرة بعد اتهامه بالزنا وشهود الثلاثة عليه ، وقد درأ الحد عنه لأن الشاهد الرابع زياد ابن عبيد لم يكن صريحا في شهادته ، وكان كلما رآه بعد ذلك يقول له : كلما رأيتك خفت أن يرجمني الله بحجارة من السماء.

ولأكثر من مناسبة كان عمر بن الخطاب يقول له : والله لا اظن أبا بكرة قد كذب عليك ، وأبو بكرة هذا هو الذي رآه على الرقطاء في البصرة وأشهد عليه الشهود الثلاثة ، وكان معروفاً بين المسلمين بالزنا والفحشاء ، فقد جاء في المجلد الثالث من شرح النهج أن المغيرة بن شعبة وجرير بن عبد الله البجلي والأشعث بن قيس كانوا قد اجتمعوا بالكناسة يوما فطلع عليهم اعرابي لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فقال لهم المغيرة : دعوني احركه ، فقالوا : لا تفعل فإن للأعراب جوابا يؤثر ، فأصر على التحرش به وقال : يا اعرابي ، أتعرف المغيرة ابن شعبة ، قال : نعم اعور زاني يرجم ويجلد ، ثم سأله عن الأشعث وجرير فوصف كلا منهما بما هو فيه[1].

كما جاء في رواية شرح النهج وغيره أنه كان بين عمر بن الخطاب وطلحة أيضاً عداء مستحكم ، وكان عمر بن الخطاب له مبغضاً ، وقال له يوما : لقد مات رسول الله وهو ساخط عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب ، وكان طلحة يوم ذاك قال : ما يغنيه حجابهن وسيموت غدا وننكحهن من بعده .

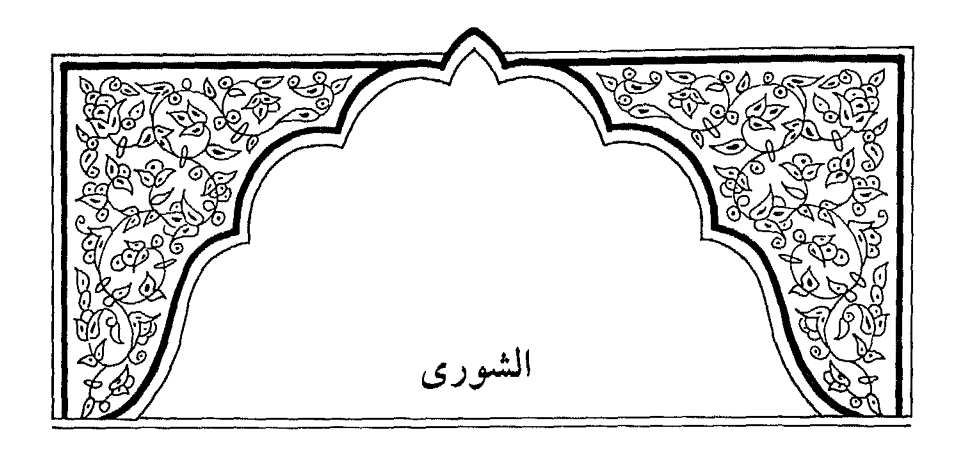
---

(١) شرح النهج ج٣ ص ١٦٣ .

على أن رواية عبد الرحمن بن أبي بكر تدل على اشتراك جفينة غلام سعد ابن أبي وقاص في الجريمة ، وسعد بن أبي وقاص لم يكن على صلة حسنة بابن الخطاب هذا بالاضافة الى نبوءة كعب الأحبار بالجريمة قبل وقوعها ، وكعب هذا كان على صلة متينة بالمغيرة بن شعبة وجميع المنافقين الذين لا يهمهم الا الهدم والتخريب كأبي سفيان وأمثاله . وما كان لعبد مملوك في تلك الفترة من تاريخ المسلمين ان يقدم على جريمة من هذا النوع تهز الدولة التي دانت لها رقاع واسعة من الأمصار لمجرد أنه لم يتوسط له مع مولاه بتخفيض الضريبة عنه كما يدعي المؤرخون ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لعمل مدروس ومتفق عليه بين هؤلاء الذين ثقل عليهم وجود الخليفة وكانوا يضمرون له العداء والكراهية وكان هو بدوره يفاجئهم بما يسيء إليهم .

ولا بد لنا أن نأخذ بعين الأعتبار اشتراك جفينة مملوك سعد بن أبي وقاص في الأغتيال ، فإن سعداً ينتمي إلى الامـويين من قبل أمه حمئة أخت أبي سفيان وأبو سفيان كان يحلم باستيلاء البيت الأموي على السلطة ، ومن الجائز كما ذكرنا من قبل أن يكون قد أخذ وعدا من أبي بكر وعمر بن الخطاب بأن تسير الخلافة الاسلامية على النحو الذي سارت عليه حينما انضم إلى الحاكمين ، ولكنه استطال حياة عمر بن الخطاب وخاف ان تتطور الأمور لغير صالحهم لاسيما بعد المصاهرة التي تمت بين علي (ع) وعُمر بن الخطاب وبعد التصريحات التي كان يعلنها ابن الخطاب في مجالسه وفي محاوراته بحق علي بن أبي طالب كما ذكرنا بعضها ، وقوله كما في رواية أبي بكر الأنباري : وحق لمثله ان يتيه والله لولا سيفه لما قام عمود الاسلام ، وهو اقضى الأمة وذو سابقتها وشرفها ، وقوله : أن وليها حملهم على كتاب الله وسنّة رسوله ، وقوله لأمير المؤمنين : أما والله لقد ارادك الحق ولكن أبى قومك ، إلى غير ذلك من تصريحاته التي تركت عامة الناس يظنون أنها لن تعدوه ، هذا بالاضافة إلى نبوءة كعب الأحبار التي سبقت حادثة الاغتيال بأيام قلائل ؛ تلك النبوءة التي تستوقف الباحث وتشده الى التماس ما تومي إليه من تدابير وأحداث كان هو احد أبطالها أو من العالمين بها على ابعد التقادير ، وقد حاول بنبوءته على تقدير صحتها وإن كنت أشك في

ذلك أن يلبس ثوب العالم بالغيب النافذ البصيرة إلى ما ينطوي عليه المجهول من أحداث لينفذ إلى بعض النفوس ويكون له من وراء ذلك سلطان على ما يريد ، وكما ذكرنا أن كعب الاحبار هذا كان يعمل لصالح كل من يريد هدم الاسلام ، وبلا شك فإن الحزب الأموي كان من أبرز العاملين لهذا الاتجاه ولذلك بلغ كعب الاحبار مكان الصدارة عند الخليفة الجديد ، وكان لا ينساه في مشورة ، ولم يجرؤ أحد أن يمسه بسوء ، وظل مع الأمويين إلى آخر لحظة من حياته يجدون به خير ناصر ومعين على الدس والكذب والافتراء على الاسلام وحماته المخلصين ، كل ذلك مما يؤكد بأن اغتيال عمر بن الخطاب بيد أبي لؤلؤة وبمساندة جفينة والهرمزان كان نتيجة لمؤامرة مدروسة من الصحابة انفسهم وهؤلاء كانوا اداة تنفيذ لا غير ، ومن ابطالها المغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص الأموي من قبل امه وعمر بن العاص والحزب الاموي بقيادة أبي سفيان ، وإذا صح ما يرويه المؤرخون عن كعب الأحبار ، يكون شريكا لهم أو على علم بالمؤامرة ، وقد اخبر بها ابن الخطاب بتلك الصورة التي لا تشير إلى اتهام أحد ، ليتخذ لنفسه مكاناً عنده . وقد تم لهم ما أرادوا وانطوى كل شيء ووصل الحزب الأموي إلى السلطة بواسطة الشورى التي ارتآها الخليفة الراحل ، وليس ببعيد على هؤلاء المخططين أن يدفعوا عبيد الله بن عمر بن الخطاب على قتل جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة بتلك السرعة حتى لا تتضح ملابسات الجريمة وأبعادها بعد التحقيق مع الهرمزان وجفينة غلام سعد بن أبي وقاص ، ولذلك فقد حماه عثمان بن عفان من القضاء وأغدق عليه العطاء . كما يجوز أن يكون موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المتصلب من جريمة عبيد الله بن عمر بن الخطاب بالاضافة إلى حرصه على تنفيذ أحكام الله في المجرمين وقد قتل عبيد الله طفلة أبي لؤلؤة ومن لم يشتركوا بها مباشرة ، يجوز أن يكون مع ذلك قد أحس بأن وراء الجريمة مؤامرة واسعة الاطراف لا يجوز أن يتحمل مسؤوليتها هؤلاء وحدهم ، وكان من الواجب التريث والتحقيق مع الهرمزان وجفينة والطفلة لتحديد المسؤول عن هذه الجريمة ، ولكن عثمان بن عفان ومستشاريه قد اقفلوا الباب وأنهوا الحوار والحديث حول الحادث وملابساته وأعفوا عبيد الله من العقوبة كما ذكرنا.



الشورى

حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني احدهم فيا لله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر .

لقد اتفق المؤرخون على أن عمر بن الخطاب مات ، على أثر طعنة أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، وقد ابديت رأيي في الحادث وملابساته ، وقد حمل بن الخطاب ودماؤه تنزف من جراحاته وهو واهن القوى لكثرة الدماء التي سالت منه ووقف الناس من حوله ما بين باك وباكية ومدهوش ، وقيل له وهو مهيض قد انهكته جراحاته لو استخلفت على الناس يا أمير المؤمنين ، فتفكر مليا ثم قال : أن استخلف فلقد استخلف من هو خير مني ، وأن اترك فقد ترك من هو خير مني ، يشير بذلك إلى النبي وأبي بكر ، فلقد استخلفه أبو بكر ، وترك النبي (ص) الأمر للمسلمين يختارون لانفسهم من يريدون على حد زعمه .

ثم التفت إلى من كان حوله من الصحابة والاسف يقطع انفاسه وقال : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربي لو سألني ، لقد سمعت نبيك يقول : أنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته ، وقلت لربي لو سألني : لقد سمعت نبيك يقول : أن سالماً شديد الحب لله .

إن أمر هذا الرجل يبدو في منتهى الغرابة يجمع بين المتناقضات ، ويقول الشيء على ملأ من الناس ويعمل بخلافه . لقد احتج هو وأبو بكر على الأنصار يوم السقيفة بما رواه عن النبي (ص) أنه قال : الخلافة في قريش ، ومع ذلك

يقول : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لوليته ، لأن النبي قال أنه كـان شديـد الحب لله ، ونسي ما قاله النبي لعلي في عشرات المناسبات مما لم يقله في أحد من الناس ، بل نسي ما قالـه هو نفسـه لابن عباس وغيـره ، لو وليهـا علي لحملهم على المحجة البيضاء وعلى كتاب الله وسنّة رسول الله .

وعندما وصل الكاتب الكبير المنصف عبد الفتاح عبد المقصود إلى قولـه لو كان أبو عبيدة حيا ولو كان سالم مولى أبي حذيفة لـوليتهما لم يـدع الفرصـة تفوتـه ليبـدي مـا في نفسه مـن التآمر المخطط والمدروس على اقصـاء عـلي عن الخـلافة بكل الوسائل ، فقال بلهجته الهـادئة التي اعتـاد أن يخاطب بهـا الحزب القـرشي المتآمر عـلى آل الرسـول ، فقال : فهـلا ذكر اذن في هـذا المقام قليـلا من الكثير الذي قيل في عـلي بن أبي طالب عـلى لسان رسـول الله (ص) ، ومضى يقول : إنه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ، ثم ذكـر إلى جانب هـذا وذاك قدر علي (ع) لا كما جرت به سيرتـه على شفـاه محبيه ، بـل كما علمـه هو وخبره وقدره القدر الذي يعلو به على الآخرين ، ولكنه أيضا ذكر السياسة العليا التي استنتها لنفسها قريش ، وكان إما ترسمها برغبتـه إذ يراهـا الصواب ، وإمـا دفع مستكرها إلى ترسمها فعداه في كلا الحالين التوفيق ولم يلتزم النهج الأقوم .

ومهما كان الحال فما أن أتم بن الخـطاب كلامـه حتى تقدم إليـه المغيرة بـن شعبة يستأذنه أن يذلي بـرأيه ولمـا أذن له قـال : اجعلها يـا أمير المؤمنـين لولـدك عبد الله ، فرماه بنظرة كالشهاب وصاح فيه : قـاتلك الله ، والله ما أردت بهـذا إلا الشر ، أتشير على أن اجعلها لرجل يعجـز عن طلاق زوجتـه ، وأردف ذلك بقوله : لا يليها رجلان من ولد الخطاب حسب عمـر ما حمـل ، والله لا اتحملها حيا وميتا .

ثم قال : إن رسول الله مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش عـلي وعثمان وطلحة وسعد بن أبي وقاص والزبير وعبد الرحمن بن عـوف ، وقد رأيت أن اجعلهـا شورى بينهم ليختـاروا لأنفسهم ، ثم قال : ادعـوهم لي فـدعـوهم ودخلوا عليـه وهو ملقى عـلى فراشـه يجود نفسـه من الألم ، فنظر اليهم وقـال : أكلكم يطمع في الخلافة بعدي ، فلم يردوا له الجواب ، ولمـا كرر عليهم القـول

أجابه الزبير وقال كما في رواية شرح النهج : وما الذي يبعدنا منها وقد وليتها أنت ولسنا دونك في قريش لا في السابقة ولا في الإسلام ، فقال : أفلا أخبركم عن أنفسكم ، قالوا : قل فإنا لو استعفيناك لم تعفنا ، فقال : أما أنت يا زبير فوعق لقس مؤمن الرضا كافر الغضب يوما انسان ويوما شيطان ، ولعلها لو افضت اليك ظلت يومك تلاطم في البطحاء على مد من شعير ، افرأيت أن افضت اليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا ويوم تغضب ، وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة .

ثم التفت إلى طلحة وكان له مبغضا على حد تعبير ابن أبي الحديد في شرح النهج ، فقد قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر[1] ، التفت اليه وقال : أقول أم أسكت ، فقال له طلحة : قل فإنك لا تقول من الخير شيئا ، قال : أما أني أعرفك منذ أصيبت اصبعك يوم أحد والبا بالذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب[2] .

لقد ناقض نفسه عمر بن الخطاب وهو لا يزال في الحديث عن الستة الذين اختارهم للخلافة ففي صدر حديثه عنهم قال : إن رسول الله مات وهو راض عنهم ، وها هو يقول لطلحة : لقد مات رسول الله ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب ، وعلى أن الصفات التي وصف بها الزبير لو صح أنها كانت فيه لا يعقل أن يموت رسول الله وهو راض عنه مع وجود تلك الصفات فيه التي لا ترضي أحدا من الناس ، أن الباحث لا يكاد ينتهي من فصل من فصول متناقضاته حتى يقع على فصل آخر ، لقد أمر صهيبا أن يصلي بالناس في مرضه لأن إمامة المصلين لا ترتبط بالخلافة ولا ملازمة بينهما . وبالأمس يوم كان يناضل من أجل استيلاء أبي بكر على الخلافة كانت صلاته

---

(١) لقد كان يطمع يوم ذاك أن يتولاها بعد قريبه فقال له : حينما أحس برغبته في عمر مادا تقول لربك وقد وليت علينا فظا عليظا

(٢) وكان قد قال : ماذا يغنيه حجابهم اليوم وسيموت غدا فننكحهن من بعده .

المزعومة بالنـاس في مرض النبي الـدليل الأول عـلى أهليته للخـلافة واستحقـاقه لها ، وقال أن رسول الله مات وهو راض عن الستة ويقول عن الزبـير بأنـه يومـا انسان ويوما شيطان ، ويلاطم في البطحاء على مـد من الشعير ويقـول أن رسول الله مات ساخطا على طلحة ويصف عثمان وسعد بن أبي وقاص بأقبح الصفـات ومع ذلك فرسول الله مات وهو راض عنهم على حد زعمه .

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص ، وقـال له : إنمـا أنت صاحب مقنب في هذه المقانب تقاتل بـه وصاحب قنص وقـوس وأسهم وما زهـرة والخلافـة وأمور الناس .

وقـال لعبد الـرحمن بن عوف : وأمـا أنت يا عبـد الرحمن فلو وزن نصف إيمان المسلمين بـإيمانـك لرجـح إيمانـك به ولكن ليس يصلح هـذا الأمر لمن فيـه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الأمر .

وقال لعلي (ع) : لله أنت لولا دعابة فيك ، أما والله لو وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

وقال لعثمان : هبها اليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسـارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا ، والله لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن بك ، ثم أخذ بناصيته وقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولي .

هذه الصورة التي أعطاها عمر بن الخطاب عن الستة يرويها اكثر المؤرخين عندما يتحدثون عن موقفه من الخلافة في المرحلة الاخيرة من حياته ، وإذا صـح بأنه كان على ثقة بأن عثمان سيحمل بني أمية على رقاب الناس وسيسلطهم عـلى خيـرات البـلاد وأمـوال العبـاد ، فـلا ادري كيف رشحـه لهـا واختـاره بـذلـك الاسلوب الـذي لا يختلف عن التعيين إلا بـالصورة وكيف تحملهـا حيا وميتـا ، وقبل ساعات ، قال لمن أشار عليه أن يستخلف ولده عبد الله : لا اتحملهـا حيا وميتا .

لقد وصف عثمان بن عفان بأقبح الصفات ونسب اليـه ما لم ينسبـه لأحد

من الستة ومع ذلك فقد اختاره للخلافة باسم الشورى ووصف عليا بأنه لو تولاها لحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ومع ذلك فقد وضع في طريقه العراقيل والصعاب ، ومهدها لعثمان ، في حين أن القلوب التي كانت تهفو إلى علي (ع) ولا ترى لها غيره وقد وصفه هو بالصفات التي لا تؤهل سواه لها كما ذكرنا ، وإذا كان يخاف قريشا أن تنقض عليه وتأباه فيما لو قلده الأمر من بعده ، فلقد أوصى اليه أبو بكر بالخلافة ، وكانت قريش كارهة له ، وتشكو فظاظة اخلاقه ومع ذلك فلم تنتفض عليه ، وتحملته اكثر من عشر سنوات .

لقد وضع ابن الخطاب الخلافة بين اولئك الستة واستدعى اليه أبا طلحة الأنصاري وقال له : يا أبا طلحة إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلا من الأنصار حاملي سيوفكم وخذ هؤلاء النفر بامضاء الأمر وتعجيله واجمعهم في بيت واحد وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحد منهم فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق اربعة وأبى اثنان فاضرب عنقيهما ، وإن اتفق ثلاثة فانظر الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وارجع إلى ما اتفقوا عليه ، فإن أصر الثلاثة على خلافهم فاضرب اعناقهم ، وإن مضى الستة ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق الستة ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم .

وتمت وصية عمر بن الخطاب على هذا النحو وخرج علي والجماعة من البيت بانتظار الموعد المعين وقد ادرك أن الأمر لا يعدو عثمان بن عفان ومضى صامتا في زحمة الناس وكان ألمه باديا في عينيه وغضبه نم عنه عرق في وجهه كاد ينبجس منه الدم ، وما لبث أن جاءه عمه العباس بن عبد المطلب يسأله عما جرى ، فقال له : جعلها في جماعة زعم أني احدهم ومضى يقص عليه انباء الشورى وتفاصيلها ، فملكته الدهشة وهو يستمع اليه يقول : إن اجتمع ثلاثة وخالف ثلاثة فكونوا مع الثلاثة الدين فيهم عبد الرحمن بن عوف لعلمه أن عبد الرحمن صهر لعثمان على أخته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط لأمه ، فهز العباس رأسه، وقال: يا ابن أخي: لا تدخل معهم وترفع عنهم، ولم يغب عن علي (ع) صواب هذا الرأي ولا ساوره شك في أن الخلافة صائرة لغيره ولا حظ له فيها ما دام بين أصحاب الشورى طلحة بن عبيد وهو الحقود الحسود

لبيت هاشم ، وإليه أشار بقوله في الشقشقية ، فصفا رجل منهم لضغنه ، وفيهم سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسعد لا يفارق ابن عمه وتشده إلى البيت الأموي أواصر القربى القريبة ، وعبد الرحمن بن عوف صهر لعثمان .

وفيما كان العباس يحاوله الخروج منها وإذا بولده عبد الله يؤيد رأي أبيه ويقول : إن عمر بن الخطاب يريد الأمر لعثمان ، فقال لهما أمير المؤمنين : وأنا اعلم ذلك ولكني أدخل معهم في الشورى لأن عمر بن الخطاب أهلني الآن للخلافة وكان قبل ذلك يقول : إن رسول الله (ص) قال : إن الخلافة والنبوة لا يجتمعان في بيت واحد.وأنا ادخل معهم لأظهر للناس منافقة فعله لروايته .

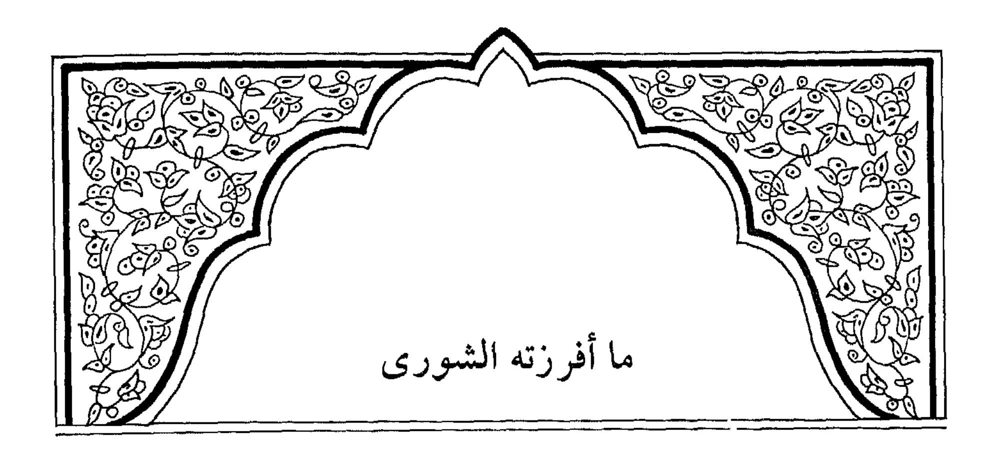
وجاء في رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن عمر بن الخطاب بعد أن اختار للخلافة واحدا من الستة وحدد لهم شروط الانتخاب كما ذكرنا قال له بعضهم : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به ، فقال : والله ما يمنعني أن استخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك مع انك رجل حرب ، وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا انك فرعون هذه الأمة ، وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وليها وضع خاتمه في اصبع امرأته ، وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم[1] .

ولما مات عمر بن الخطاب وفرغوا من دفنه جمع أبو طلحة الستة ، وأقبل المقداد بن الأسود في خمسين من المسلمين ومعهم سيوفهم للإشراف على الانتخاب حسب المخطط الذي وضعه الخليفة الراحل ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وجلسا على باب البيت الذي اجتمع فيه الستة ، فتنبه سعد بن أبي وقاص لهما فحصبهما وأقامهما ، وقال إنما جلستما في هذا المكان لتقولا للناس لقد حضرنا مجلس الشورى وكنا معهم كما جاء في رواية شرح النهج وغيره .

---

(١) أنظر جـ ١ من الإمامة والسياسة ص ٢٣ .

واتفق المؤرخون أن المؤتمرين لم ينتهوا إلى نتيجة حاسمة خلال يومين كاملين من التشاور فيما بينهم وكان كل منهم يرجوها لنفسه ، وفي اليوم الثالث ذكرهم أبو طلحة بنهاية الموعد وهددهم بما سينجم عن تباين آرائهم واختلافهم من النتائج السيئة التي لا يرجوها لهم ، وأدرك طلحة أن الصراع الحقيقي يدور بين اثنين لا ثالث لهما ، وهما علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، ولعبت الأحقاد القديمة بين تيم وعلي بن أبي طالب ، والتي كانت عائشة لا تزال تغذيها دورها في هذا الصراع ، كما وأن الميزة التي كان يتمتع بها ابن أبي طالب ، وهي الصرامة في الحق والسير بالخلافة على الطريق الصحيح يأباها طلحة وأمثاله من أهل الثراء الواسع والطامعين والنفعيين كل الآباء ، هذه الميزة كان لها دورها في اقصاء علي واتجاه الطامعين من القرشيين وغيرهم إلى عثمان كما اكدت ذلك الأحداث التي رافقت خلافته منذ الأيام الأولى .



ما أفرزته الشورى

ومهما يكن الحال فقد جاء في شرح النهج وغيره أن اول عمل قام به طلحة أن اخرج نفسه منها ووهب حقه فيها لعثمان بن عفان ، بعد أن أيقن أنه سيكون صفر اليدين في هذا المؤتمر ، وأن الناس لا يبدلونه بأحد الرجلين فأراد أن يدعم جانب عثمان في الصراع الحالي كرها منه بعلي بن أبي طالب على حد تعبير المؤرخين ، وأدرك الزبير في الحال أن طلحة لم يقدم على هذا التصرف إلا بوحي من عصبيته وأحقاده فثارت في نفسه نزعة القرابة القريبة التي تشده إلى علي (ع) في الوقت الذي يعلم فيه أن الأمر سوف ينتهي إلى غيره فوقف وقال : وأنا أشهدكم على نفسي أني قد وهبت حقي في الخلافة لعلي بن أبي طالب ، وبقي الصراع فيها بين أربعة من أهل الشورى، فوقف سعد بن أبي وقاص وقال : لقد وهبت حقي لعبد الرحمن بن عوف وكلاهما من بني زهرة ، وبقي في الساحة ثلاثة كل واحد منهم يمثل اثنين ، فقال عبد الرحمن لعثمان وعلي : أيكما يخرج منها للآخر ؟ فلم يجيبا على حد تعبير الراوي ، فأخرج نفسه منها على أن يجعلها في افضلهما ، والتفت إلى علي وعثمان قبل أن يبت بالأمر لأحدهما وعرض على كل منهما أن يتولاها شريطة أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألو الأمة نصحا وردد مقالته هذه عليهما فوافق كل منهما على هذه الشروط .

ويبدو أن عليا (ع) قد احرجه بموافقته على شروطه ، ومن غير المعقول

أن يتنازل عن صهره عثمان ويسلمها لعلي بن أبي طالب ، كما وأن سعدا لا يتنازل عن أخواله الأمويين مهما كانت الظروف ، فاختلى عبد الرحمن بسعد بن أبي وقاص مرة وبالمسور بن مخرمة الزهري أخرى ، وأدرك علي (ع) إن خلوة سعد بعبد الرحمن للبحث عن مخرج يسهل لعبد الرحمن اعطاءها لعثمان ، فقال له : يا سعد اتقوا الله الذي تسألون به والأرحام ، اسألك برحم النبي هذا من رسول الله ورحم عمي الحمزة منك أن لا تكون ظهيرا لعبد الرحمن[1] .

ويبدو أن عبد الرحمن في خلوته مع سعد وابن اخته المسور بن مخرمة الزهري قد خرج بشرط جديد قد اتفق عليه الثلاثة يحرج عليا ولا يمكن أن يقبل به ، وكانت الأصوات قد ارتفعت من خارج الدار فالزهاد والفقراء والمحرومون وبنو هاشم وأنصارهم الذين يمثلون الجمهور كانوا يهتفون باسم علي (ع) ، والمترفون وأصحاب الامتيازات والأطماع والأمويون يهتفون لعثمان ، وعمار بن ياسر والمقداد كادا أن يشتبكا مع ابن أبي سرح وعبد الله بن ربيعة المخزومي ، فقال سعد لعبد الرحمن : افرغ أمرك يا عبد الرحمن قبل أن يقتتل الناس ، فعندها عرض على علي (ع) بالاضافة إلى الشروط السابقة العمل بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر فرفض علي (ع) وقال : اعمل بكتاب الله وسنة نبيه وبرأيي فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، فالتفت عبد الرحمن وعرض شروطه على ابن عفان فوافق عليها بلهفة ورغبة ، وكرر عبد الرحمن شروطه على أمير المؤمنين لعلمه بأنه لا يقبل الشرط الأخير منها مهما كانت الظروف ، فعرضها على عثمان فتقبلها فتمت لعثمان حسب التخطيط الذي أراده ابن الخطاب لها .

ولم ير أمير المؤمنين وهناً عليه في ذلك ما دام يؤثر حرية رأيه وما يراه حقا على الدنيا وما فيها ولقد كان ابن عوف يعلم منه ذلك ولذلك عرض عليه الشرط الاخير بعد أن اتفق عليه مع سعد وابن مخرمة الزهري . لقد كان

---

(١) ويتصل حمزة بسعد بن أبي وقاص بامه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهالة هذه هي عمة سعد ، وقد أولدت لعبد المطلب بالاضافة إلى الحمزة أم المقدم والمغيرة والعوام وسعد بن أبي وقاص هو ابن خال الحمزة بن عبد المطلب .

علي بن أبي طالب المرجع الأول والأخير لابن أبي قحافة وابن الخطاب في كل ما يستعصي عليهما من مشكلات الأمور ما يتعلق منها بأمور الدين والدنيا ، وقد اختلفا في سيرتهما وسياستهما وخالفا من سبقهما فبأي السيرتين أراد ابن عوف أن يلزم عليا ليدلي له بالبيعة ، وبأيهما كان عليه أن يقتدي والأمور لديهما كانت تختلف حسب مصالحهما وحسب نظرتهما إلى الأمور والأحداث التي توالت عليهما في تلك الفترات من تاريخ الاسلام ، أقول ذلك وأنا على يقين بأن عليا لو وافقهما على الشرط الأخير لوضعا له شرطا آخر وهكذا حتى ينسحب منها وتتم لابن عفان بلا منازع .

ومضى علي (ع) بعد انتهاء تلك المسرحية ولم يعارض كعادته مع الخليفة الراحل ولكنه قال كما جاء في بعض المرويات :

نحن أهل بيت النبوة ومعدن الحكمة أمان لأهل الأرض ونجاة لمن طلب ، أن لنا حقا أن نعطه أخذناه وأن نمنعه نركب إعجاز الإبل[1] .

والتفت إلى ابن عوف وقال : ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليته الأمر إلا ليرده عليك ، وفي رواية ثانية : لقد رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه[2] وأضاف إلى ذلك : دق الله بينكما عطر منشم .

ولقد قال أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل : إن الله استجاب دعاء علي (ع) في عبد الرحمن وعثمان بن عفان ، فما ماتا إلا متهاجرين متباعدين ، وأرسل اليه عبد الرحمن يعاتبه على سوء تصرفاته وما أحدثه من البدع والمنكرات فازداد الأمر بينهما بعداً وسوءاً .

وجاء في شرح النهج أن عثمان بن عفان لما بنى قصره طمار الزهراء وضع طعاما كثيرا ودعا الناس اليه كان فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فلما نظر إلى البناء

---

(١) أي نكون تبعا لغيرنا .

(٢) يشير بذلك إلى بيعة عمر يوم السقيفة لأبي بكر فلقد بايعه ليكون الأمر له من بعده .

والطعام قال : يا ابن عفان لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك أني استعيذ بالله من بيعتك ، فغضب عثمان وقال لغلمانه : أخرجوه فأخرجوه وأمر الناس أن لا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابن عباس كان يأتيه فيتعلم منه الفرائض والقرآن ، ولما مرض عبد الرحمن مرضه الاخير عاده عثمان فلم يكلمه حتى مات كما يدعي الرواة[1] .

وانتهت قبيل مساء اليوم الثالث من الأيام الثلاثة تلك المسرحية التي وضعها وخطط لها ابن الخطاب ومثلها ابن عوف ومن جمعتهم وإياه الأضغان والأنساب والمصاهرة على هدف واحد وفاز سليل أمية بالمجد الذي كان يحلم به أجداده قبل عشرات السنين وحاربوا من أجله الإسلام وظلوا يحاربونه بضراوة وحقد حتى ارغموا على الاستسلام له فأظهروه على ألسنتهم ينتظرون الظروف والمناسبات ، ولما تم لهم ذلك بمشيئة ابن الخطاب التفوا حول ابن عفان كالسوار وانطلقوا به يزفونه خفافا وكأنهم يسيرون على الهواء العاصف ، وطغت عليهم نشوة الفرح بعد الهزائم المريرة التي مني بها هذا البيت من عهد هاشم وتوالت في معارك الإسلام التي سالت فيها دماؤهم بيد واترهم بأشياخهم علي بن أبي طالب . وحين دخلوا به المسجد أقبل زعيمهم أبو سفيان يتلمس طريقه بعد أن شاخ وفقد ناظريه ليعبر عن مشاعره التي سيطرت عليه وأفقدته وعيه ، وتوجه نحو بني أمية منفرج الفم عن بسمة الشامت الحقود التي لم ينفرج عن مثلها شدقه إلا يوم وقف على جسد الحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد الإسلام وزوجته هند تعبث بأحشائه وجوارحه بأسوأ مما تعبث الوحوش الضارية فريستها ، فانفرج شدقه يوم ذاك عن مثل تلك البسمة ووضع الرمح في الجسد الطهور واتكأ عليه وهو يقول : ذق عقق ذق عقق ، ثم قال لقومه الذين سيطر عليهم الفرح وأعماهم حتى عن الناس الذين كانوا يراقبون كل تصرفاتهم أفيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : كلا ، فنصب قامته التي كان قد طواها عمره الطويل واستعاد احلام شبابه وطموح أسلافه ، ونسي أنه كان قد أقر بلسانه

---

(١) جـ ١ ص ٦٦ .

أرغم على الإسلام بنبوة محمد وبكل ما جاء به ، فقال تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنّة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ، ولقد كنت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة ، ولم يقف عند هذا الحد بل قام من مجلس الخليفة الجديد يقوده غلامه وهو يتمايل عن تيه وخيلاء وأمر غلامه أن يسير به إلى خارج المدينة والغلام لا يعلم الغاية من ذلك ، ومضى به الغلام باتجاه جبال أحد حتى انتهى إلى مقبرة المسلمين ، فقال لغلامه دلني على قبر الحمزة بن عبد المطلب وانفرج فمه عن أخبث بسمة تستطيع أن تصوغها شفتاه ثم قال : يا أبا عمارة أن الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى بيد غلماننا يتلعبون به ، وركل القبر برجله ومضى وهو يحسب أنه قد أصاب ثاره وثارات أسلافه الأولين من هاشم وبنيه هذا اليوم .

وانطوى علي (ع) على نفسه كما فعل من قبل وآثر هو ومن معه من المؤمنين بالله وبمحمد بن عبد الله وبما جاء به من عند الله الذين وهبوا حياتهم للحق والعمل لخير الناس لا يخشون بطش الظالمين ولا سيوفهم المسلولة على من ينكر عليهم سوء صنيعهم واستئثارهم بخيرات البلاد وأموال الفقراء والمساكين .

لقد وقف علي (ع) بين تلك الجماهير التي احتشدت في ذلك اليوم يخاطبهم بالمنطق السليم الذي اعتاد أن يخاطب به الناس ، ليكشف لهم الخط الذي سيمضي عليه في هذا العهد الجديد ، فقال : أيها الناس لقد علمتم أني أحق الناس بهذا الأمر من غيري ، أما وقد انتهى الأمر إلى ما ترون فوالله لاسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليَّ خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله وزهدا فيما تنافستموه من زخرفة .

وهكذا سالم أمير المؤمنين (ع) وبايع لعثمان كما بايعه الناس ومضى في السبيل الذي اختاره لنفسه يعمل ما وسعه العمل في سبيل الصالح العام لا يبخل عليهم بآرائه ولا بكل إمكانياته إذا أرادوها في سبيل الإسلام وانتشاره كما سالم وساير ونصح من كان من قبله .

ولكن الخليفة الجديد أبى هو وطغمته المحدقون به من بني أمية أن يسيروا

حتى بسيرة من تقدمهم ومهد لهم الطريق ، فاستأثروا بالأموال والمراكز وجميع خيرات البلاد وكأنها إرث لهم من أمية وعبد شمس يكضمون مال الله كضم الإبل نبتة الربيع كما وصفهم أمير المؤمنين (ع) في أخريات أيامه حيث قال في خطبته المعروفة بالشقشقية ، إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه مفترشا ذراعيه بين نثيله ومقلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته .

لقد أوجز أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مصير الخلافة إلى ابن عفان وكيف تعثرت سياسته حتى انتهى الأمر إلى أسرته وبقي هو مسلوب الارادة لا يملك منها إلا أن يأكل ويشرب وهم يعبثون ويفسدون ويخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع إلى أن انتفضت عليه الأمة وسارت الأمور إلى النهاية التي لقي فيها مصرعه .

وحسبما يروي المؤرخون لقد حذره ابن الخطاب من سياسته تلك قبل أن يصل إليها ، وقال له : كأني بك وقد قلدتك قريش هذا الأمر فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك .

وقد أوجز بعض المؤرخين أبرز ما ارتكبه هو وبنو أمية من الأعمال والمنكرات ، فقال : لقد أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع ، وافتتحت أرمينية في زمانه فأخذ الخمس كله ووهبه لمروان فقال عبد الرحمن بن جنيد الجمحي :

أحلف بالله رب الانام ما ترك الله شيئا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة لكي نبتلي بك أو تبتلى
وأعطيت مروان خمس البلاد فهيهات سعيك فيمن سعى

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد خلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم ، وكان أشد مما وجه الأنظار إليه وأثار غضب المهاجرين والأنصار ان افتتح خلافته

بإرجاع الحكم بن أبي العاص وبنيه وأسرته إلى المدينة بعد أن طردهم رسول الله منها ولم يقبل بهم شفاعة أحد أبدا ، كما رفض الشيخان أبا بكر وعمر إرجاعهم إليها وشفاعة المتشفعين بهم .

وكان الحكم مؤذيا لرسول الله يشتمه ويسمعه ما يؤذيه ، وفيما كان رسول الله يمشي ذات يوم والحكم يمشي من خلفه يغمز به ويحكيه في حركاته ومشيته مستهزئا ويخلج بأنفه وفمه ، وإذا صلى قام خلفه مشيرا إليه بأصابعه ، فالتفت إليه يوما فوجده يخلج بأنفه وفمه فقال : كن كذلك ، فبقي على حالته تلك كالمخبول .

وقد أظهر الإسلام هو وولده يوم الفتح وقدم المدينة بعده وكان مطعونا في دينه ، وأطلع على رسول الله يوما وهو في بعض حجر نسائه ، فخرج إليه بعنزة وقال : من عذيري من هذه الوزغة اللعين لو أدركته لفقأت عينيه ، والله لا يساكنني وولده في بلد واحد ، وأخرجهم جميعا إلى الطائف في موضع يقال له (بطن وج) كما جاء في انساب الاشراف للبلاذري ، وأضاف إلى ذلك أنه لم يزل خارج المدينة إلى أن استخلف عثمان فرده وولده وكان ذلك مما أنكره المسلمون ، ولما مات في خلافة عثمان ضرب عليه فسطاطا فقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لمروان :

ان اللعين أباك فارم عظامه ان ترم ترم مخلجا مجنونا
يضحي خميص البطن من عمل التقى ويظل من عمل الخبيث بطينا

وقال الأستاذ الخطيب في كتابه علي بن أبي طالب : لما رده عثمان إلى المدينة أنكر عليه المسلمون ذلك ثم ولاه صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم فوهبها له ، ومضى يقول : إن رسول الله كان يوم فتح مكة قد أهدر دمه وعفا عنه بشفاعة عثمان ، ولكنه هاجر إلى المدينة ليكيد لرسول الله (ص) وأخرجه من المدينة بعد أن ظهر من حاله ما ذكرنا وقال : والله لا يساكنني ولا ولده ، وبالرغم من أن عثمان قد توسط له عند أبي بكر وعمر فلم يقبلا وساطته وقال كل منهما : ما كنت لأوي طريد رسول الله .

وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج : إن رسول الله تصدق بموضع سوق في المدينة يعرف بنهرون على المسلمين فأقطعه ابن عفان إلى الحرث ابن الحكم شقيق مروان ، واقطع مروان فدكا وكانت لفاطمة الزهراء ، وقد أخذت منها بعد وفاة أبيها وطلبتها فردوا طلبها ودفعت عنها ، وحمي المراعي حول المدينة كلها ومنع عنها مواشي المسلمين ، وأباحها لمواشي بني أمية ، وأعطى عبد الله بن سرح وهو أخوه من الرضاعة جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيا بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين على حد تعبير ابن أبي الحديد وغيره من المؤرخين .

وعبد الله بن سرح كان قد أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة فكتب إلى رسول الله برهة من الزمن ، ثم ارتد مشركا وعاد إلى مكة يحدث قريشا الكذب على رسول الله ويقول لهم : أني كنت أصرف محمدا حيث أريد وكان يملي عليّ من قرآنه عزيز حكيم ، فأقول عليم حكيم فيقول : نعم كله صواب ، ويملي عليّ لعنة الله على الكافرين فأكتبها على الظالمين ، فأنا أقول كما يقول محمد وآتي بمثل ما يأتي به ، فأنزل الله فيه كما جاء في انساب الاشراف . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .

ولما كان عام الفتح أهدر رسول الله دمه فيمن أهدر دماءهم من المشركين والمنافقين وقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن غير عدو الله عبد الله بن سرح ، فتشفع فيه عثمان وكان أخاه من الرضاعة وألح على رسول الله في طلبه فسكت رسول الله ، فانطلق به عثمان إلى النبي فصرف وجهه عنه ثلاث مرات وعثمان يلح في طلبه ، وأخيرا لم يزد رسول الله على قوله نعم فانصرف به عثمان ، فقال النبي لمن حوله من المسلمين : أما كان فيكم من يقوم إلى هذا الكلب ويقتله ، وأني ما سكت إلا ليقوم أحدكم إليه فيقتله قبل أن أؤمنه ، فقال له أحدهم : لو أومأت إلينا قتلناه ، فقال : إني لا أقتل بالاشارة ، وإن

الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين .

ولما تولى ابن عفان الخلافة ولاه على مصر سنة خمس وعشرين من الهجرة وبقي عليها إلى سنة أربع وثلاثين حيث ثار عليه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة فذهب ابن أبي سرح إلى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان . ويذهب بعض الرواة إلى أنه مات بإفريقية .

لقد وصفه النبي (ص) بعداوته لله ورسوله وأمر بقتله ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة ولائذا بها ، وفي ذلك دلالة على أنه لن يكون من المؤمنين أبدا ولو تزيى بزي المسلمين ولبس لباس القديسين وظل حتى النفس الأخير من ألد الأعداء لله ورسوله كما أخبر عنه الصادق الأمين[1] .

ومضى ابن أبي الحديد في شرحه لفقرات الشقشقية يقول : وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة ألف ، وكان قد زوجه ابنته أم ابان ، فجاءه زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى ، فقال له : أتبكي ان وصلت رحمي ، فقال : لا ولكني أبكي لأني ظننت أنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت تنفقه في حياة رسول الله ، والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرا عليه ، فقال له : الق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك .

وأتاه أبو موسى بأموال كثيرة من العراق فوزعها كلها على بني أمية ، وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة وأعطاه مائة ألف من بيت المال بعد أن صرف عنه زيد بن أرقم ، وهكذا أصبحت مقدرات الأمة بيد شيوخ الأمويين وغلمانهم يتلاعبون بها بلا حسيب ورقيب ، فمروان بن الحكم في المدينة وأبوه وأخوته بيدهم إدارة الأمور ومنهم تصدر المراسيم للداخل والخارج ، ومعاوية على بلاد الشام وابن أبي سرح الذي أنزل الله فيه ومن أظلم ممن افترى على كذبا

---

(١) انظر المجلد الأول من انساب الاشراف ص٣٥٣ وعلي بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب .

على مصر طيلة ثماني سنوات أو تزيد ، والوليد بن عقبة على الكوفة ، وقد تعاقب عليها منذ تأسيسها وتمصيرها جماعة من اجلاء الصحابة كعمار بن ياسر وابن مسعود وسلمان الفارسي وابن أبي وقاص وغيرهم إلى أن جاء دور عثمان فولاها للوليد بن عقبة ، وكان يعرف هو وأخوته بصبية النار ، وقد ذكرنا مصدر هذه التسمية في كتابنا سيرة المصطفى .

وعقبة بن أبي معيط كان جده ابن أبي عمرو عبداً لأمية بن عبد شمس ثم تبناه وتزوج من أروى بنت كريز فأولدها الوليد وخالد وعمارة وأم كلثوم ، وبعده تزوجها عفان فأولدها عثمان ، وكان عقبة جاراً لرسول الله في مكة ويكثر مجالسته ومعشره وأسلم في السنين الأولى لبعثة النبي ، وجاء في سبب إسلامه أنه صنع طعاما ودعا إليه رسول الله (ص) فأبى أن يأكل منه إلا إذا نطق عقبة بالشهادتين ، فنطق بهما ، فأكل رسول الله (ص) ولما بلغ قريشا أن عقبة قد أسلم قالت : لقد صبا عقبة ، وكان له صاحب غائب عن مكة فلما عاد إليها وأخبر بإسلامه أعرض عنه وقاطعه ، فأتاه عقبة بن أبي معيط وسلم عليه فلم يرد عليه فألح عليه ابن أبي معيط ، فقال له لا أرد عليك تحيتك وقد صبوت ، فقال أفعلتها قريش فما يبرىء صدورهم إذن ، قال تأتيه وتبزق في وجهه وتشتمه بأقبح ما تعلم من الشتم ، ففعل عقبة مع النبي (ص) ذلك ، فلم يزد رسول الله على أن مسح وجهه ، ثم التفت إليه وقال : إن وجدتك خارجا من مكة سأضرب عنقك .

ومضى عقبة في جحوده وموقفه المتصلب من الإسلام وإيذائه للنبي وبلغ من أمره أنه كان يأتي بالفرث والنفايات فيطرحها على باب رسول الله وفيه نزلت الآية :

﴿ يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾.

وروى البلاذري في الانساب : إن النبي (ص) لما هاجر إلى المدينة قال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقبة يخاطب النبي :

يا صاحب الناقة القصواء هاجرنا عما قليل تـراني راكب الفرس
أعـلى رمحي فيكم بعـد تهلتـه والسيف يأخذ منكم كل ملتمس

وقد خرج مع المشركين إلى بدر ووقع أسيرا بيد المسلمين فلما أمر بقتله قال من للصبية يا رسول الله ؟ قال : النار ، فلذلك سمي صبية بني أبي معيط صبية النار .

وجاء في انساب الاشراف عن عامر الشعبي أن رسول الله قال لعقبة بعد أن وقع اسيرا في أيدي المسلمين : والله لاقتلنك ، فقيل له أتقتله من بين الأسرى من قريش ؟ فقال : نعم ، لقد بلغ به العداء لله أنه وطىء على عنقي وأنا ساجد فما رفع رجله حتى ظننت أن عيني قد سقطتا ، وجاء يوما بسلا شاة وأنا ساجد فألقاه على رأسي .

وابنـه الوليد شقيق عثمان لأمه قد نشأ في أحضانه ومن بعده في أحضان الأمويين وتأثر بتلك الروح التي لم تكن تعرف الروح العربية الأم وأخبث منها ، وهو من الطلقاء الذين أسلموا مع من أسلم من هذا البيت يوم الفتح مكرها كأبي سفيان وغيره ، وبالرغم من أن النبي (ص)كان يتألفهم ويحسن إليهم يعهد إليهم في بعض الأعمال على أمل أن يخففوا مما يضمرونه للإسلام من حقد وكراهية ، فقد كانوا يتحينون الفرص والمناسبات لاظهار ما تنطوي عليه نفوسهم من كراهية للإسلام .

فقد روى ابن الأثير عن عبد الله بن الزبير أنه قال : كنت باليرموك وأنا شاب لا أقاتل فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يقاتلون فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخه من قريش من مهاجرة الفتح فرأوني حدثا فلم يتقوني فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون إيه بني الأصفر ، فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا ويح بـني الأصفر ، فلما هزم الله الروم أخبرت أبي فضحك وقال : قاتلهم الله أبوا إلا ضغنا لنحن

والله خير لهم من الروم[1] ولقد تولى الوليد بن عقبة جباية صدقات بني المصطلق للنبي (ص)، فعاد إلى المدينة وأخبر النبي بارتدادهم زورا وكذبا ، فأرسل النبي (ص) سرية من المسلمين لاستطلاع الحال ومساعدته على جباية الصدقات فلما وصلوا إليهم وجدوهم على الإسلام كما تركهم النبي لم يغيروا شيئا وبهذه المناسبة نزلت الآية كما يدعي المحدثون :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾.

وكما ذكرنا فلقد أحاط الوليد وزمرته من الأمويين بعثمان واستغلوا خلافته لصالحهم ، وكان الأمير على الكوفة خلال السنتين الأوائل من خلافته سعد بن أبي وقاص ، فطمع فيها الوليد بن عقبة الذي سماه الله بالفاسق كما في الآية الكريمة ، وظل يتلطف بأخيه عثمان حتى عزل عنها ابن أبي وقاص وولاه عليها .

وقال صاحب الأغاني أنه لم يكن يجلس مع عثمان على سريره إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب والحكم بن العاص طريد رسول الله والوليد بن عقبة ، فأقبل الوليد يوما فجلس ، ثم أقبل الحكم فلما رآه عثمان تنحى له وأجلسه في محله ، فلما قام الحكم قال الوليد لأخيه عثمان : يا أمير المؤمنين لقد تلجلج في صدري بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك على ابن أمك ، فقال له عثمان : أنه شيخ قريش فما هما البيتان اللذان قلتهما ؟ قال لقد قلت :

رأيت لعم المرء زلفى قرابة دوين أخيه حادثا لم يكن قدما
فأملت عمرا أن يشب وخالدا لكي يدعواني يوم مرحمة عما

---

(١) ما أشبه موقفه هذا بموقفه في معركة حنين يوم كانت الجولة الأولى لصالح هوازن وأحلافها وقد تفرق المسلمون عن النبي (ص) ولم يبق معه سوى علي ونفر من بني هاشم فانفرج شدقه عن بسمة التشامت وأخرج صنمه من جيبه وقال واللات : لا تنتهي بهم الهزيمة دون البحر كما روى ذلك أكثر المؤرخين

وعمرو وخالد ولدان لعثمان بن عفان فما مضت أيام حتى أرسله والبا على الكوفة وعزل عنها سعدا ، ويدعي الرواة أن الوليد حين بلغ الكوفة واليا عليها لأخيه عثمان ودخل على سعد بن أبي وقاص قال له : والله لا أدري أكست بعدنا أم حمقنا بعدك ، قال له ذلك لأن الوليد كان معروفا لدى عامة المسلمين بالاستخفاف والاستهتار بالدين وكانوا يسمونه الفاسق ، فقال له الوليد : لا تجزعن يا أبا اسحاق أنه الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون ، ورأى المسلمون استبدال سعد بن أبي وقاص وهو من الصحابة البارزين بالوليد بن عقبة الفاسق الفاجر ، الذي يبقى تائها من السكر في أكثر أوقاته ، حدثا من الأحداث الخطيرة التي لا يجوز السكوت عليها لا سيما وقد ظهر أمره في الكوفة واشتهر في فسقه وفجوره بين أهلها .

وروى اليعقوبي في تاريخه أن الوليد صلى بالناس الصبح أربع ركعات ثم تهوع في المحراب ، والتفت إلى من كان خلفه من المصلين وقال : أزيدكم إن شئتم ، وجلس يوما في المسجد ومعه ساحر يستعمل الشعوذة ويفعل الأعاجيب فاجتمع الناس عليه حتى كاد أن يفسد على الناس عقائدهم فقام إليه رجل من الازد يقال له جندب بن كعب ، وأخذ سيفا وتستر بالناس حتى دنا منه وضرب عنقه وقال له : احي نفسك إن كان ما تفعله حقا ، فأغضب ذلك الوليد ، وأراد أن يقتل الازدي بالساحر لولا أن قبيلته حالت بينه وبين ذلك فوضعه في حبسه ، ولما رآه آمر السجن منصرفا إلى العبادة في ليله ونهاره أطلقه من سجنه ، فذهب إلى المدينة وأخبر أهلها باستهتار الوالي وبما جرى له ، فأخذ الوليد آمر السجن وضربه مائتي سوط لأنه أطلق العبد الصالح من سجنه ، فضج أهل الكوفة من كثرة منكراته وسوء تصرفاته ، فكتبوا إلى عثمان بن عفان في أمره فأبى أن يعزله وأخيرا لما توالت عليه الوفود وشاع أمره في بقية المقاطعات الإسلامية عزله عنها وولاها أمويا آخر هو سعيد بن العاص ، وولى الوليد صدقات كلب وبلقين كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه[1].

---

(١) انظر ص ١٤٢ من المجلد الثاني طبع النجف .

وكان معاوية واليا له على الشام تولاها لابن الخطاب بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان ، ولعله كان أسوأ منهم جميعا من حيث نواياه السيئة التي كان يضمرها للإسلام ، في حين أنه لم يكن في أكثر حالاته عنيفا في سياسته مع الناس ، فقد دله ذكاؤه أن يصطنع الحلم والرفق والجود وسعة الصدر أحيانا لأن هذا الأسلوب كان يقربه من الناس ويهيء له ما يريد من ملك وسلطان ، وإذا عوتب على تبذير الأموال وشراء الضمائر والأنصار بها يقول : إن الأرض لله ونحن خلفاء الله في أرضه فما أخذناه من الأموال فهو لنا وما تركناه فهو جائز لنا .

وقد ورث معاوية من أبيه أبي سفيان وأمه هند بنت عتبة التي لم يعرف تاريخ المرأة نظيرا لها في شراستها وأنانيتها وقسوتها أكثر مزاياهما وخصائصهما بالاضافة إلى ما في نفسه من مزايا قومه وآبائه الأولين وأظهرها حب الرياسة عن أي طريق كانت ، وكما ذكرنا لقد وجد في خلافة عثمان مجالا للعمل لنفسه ولأهل بيته واستطاع أن يحقق في ظل خلافته الكثير لصالح تلك الأسرة التي استقبلت فجرا جديدا من أحلامها في تلك الفترة من تاريخ الإسلام ، هذا والمسلمون والصفوة المختارة من الصحابة يراقبون ما يحدث من ابن عفان وولاته بمرارة وألم ، ويتعرضون للضرب والشتم والطرد منه ومن ظغمته الفاسدة كلما استنكروا أمرا أو حاولوا الحد من تصرفاتهم ، فلقد روى اليعقوبي وغيره من المؤرخين أن عثمان بن عفان لما كلف زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بجمع القرآن وكتابته بلغة قريش وأكملوا عملهم أرسله إلى جميع المناطق التي كانت تخضع لحكم الإسلام وأمر ولاته أن يجمعوا المصاحف التي كانت في أيدي الناس ويحرقوها ، فباشر ولاته ذلك فور وصول الصورة التي جمعها الأربعة بلغة قريش على حد زعم الرواة ، فامتنع عبد الله بن مسعود من تسليم النسخة التي كانت بيده ، فكتب عبد الله بن عامر إلى عثمان يخبره بذلك ، فرد عليه بكتاب يأمره فيه بأن يرسل ابن مسعود إلى المدينة وعد ذلك جرأة عليه ، وكان مروان بن الحكم ومن معه من أسرته يدفعونه إلى استعمال الشدة والقسوة وخنق جميع التحركات والأصوات التي كانت ترتفع من هنا وهناك منكرة أعمالهم وتصرفاتهم .

ولما وصله كتاب الخليفة أمره ابن عامر بالذهاب إلى المدينة فشد الرحال إليها وبعد أن وصلها دخل على عثمان وهو يخطب الناس في مسجد رسول الله (ص) فالتفت إلى الناس وقال : لقد قدمت عليكم دابة سوء ، وتكلم مع ابن مسعود وهو على المنبر بكلام اغلظ له فيه ، ثم أشار إلى غلمانه أن يجلدوه ويجروه برجله إلى خارج المسجد ففعلوا ذلك وكسروا ضلعا من أضلاعه ، واتبع هذه العقوبة بقطع العطاء عنه ، فأنكر المسلمون منه هذا التصرف الجائر مع صحابي من أجلاء الصحابة ، وحتى عائشة أغضبها ذلك وأطلقت لسانها في عثمان وزمرته .

ومضى ابن مسعود إلى بيته يكابد الآلام والمتاعب التي ألمت بجسمه النحيل الذي أنهكته الشيخوخة وحطمته سياط العبيد ولكماتهم والكسور التي أصابت أصلاعه ، وظل يعاني من ذلك حتى اعتل وأنهكه المرض وانقطع الأمل من ذويه بشفائه فخف عثمان لعيادته ، وجعل يعاتبه ويقول : لقد بلغني عنك كلام كثير ، فرد عليه ابن مسعود بصوته الضعيف : لقد أمرت غلمانك وعبيدك ففعلوا بي ما فعلوا وكسروا أضلاعي حتى لم أعد أفرق بين صلاة الظهر وصلاة العصر ولا أعقل مواعيدها ، وانتهى حالي إلى ما ترى .

فقال له وكأنه يريد أن يواسيه ويكفر عن سوء عمله : ما تشتكي يا أبا عبد الرحمن ، فرد عليه بصوت هادىء وحرف وجهه عنه : لا اشتكي غير ذنوبي ولا اشتهي غير رحمة ربي ، فقال له عثمان : ألا أدعو لك طبيبا ، فقال : الطبيب أمرضني ، ومضى يحاول معه أن يتدارك ما سبق منه ، فقال له إني أقيدك من نفسي ، فافعل بي مثل ما فعلته بك ، فقال : اترك ذلك لمن هو أشد نقمة وأعظم نكالا ، وما كنت بالذي افتح باب القصاص على الخلفاء ، ثم قال له عثمان : أفلا آمر لك بعطائك ؟ فرد عليه : لقد منعتنيه يوم كنت محتاجا إليه ، وتعطينيه اليوم وأنا مستغن عنه لا حاجة لي فيه ، فقال له : يكون لولدك من بعدك ، فأجابه بلغة الواثق المطمئن بما وعد الله عباده الصابرين المظلومين ، إن الذي خلق أولادي سيرزقهم ويغنيهم عنك وعن غيرك ، وعاد عثمان يسأله أن يكون في حل مما أصاب منه ، فأبى عليه ذلك وسأل الله أن يأخذ له بحقه

منه ، فانصرف عنه خائبا .

وظل ابن مسعود يعاني مما أصابه حتى لحق بربه فصلى عليه عمار بن ياسر ودفنه وعثمان غائب عن المدينة كما جاء في بعض المرويات ، وفي رواية أخرى أنه أوصى أن لا يحضر جنازته عثمان بن عفان ، وتوفي بعده المقداد بن الأسود فصلى عليه عمار بن ياسر أيضا ، ولما بلغ عثمان خبر وفاتهما وعلم أن عمارا صلى عليهما اشتد غضبه عليه وقال : ويلي على ابن السوداء ، أما لقد كنت به عليما ، ولما استدعاه وسأله عما منعه أن يخبره بموته أجابه : لقد عهد إلي أن لا أخبرك بموته وأن لا تصلي عليه كما جاء في انساب الاشراف والمجلد الأول من شرح النهج .

ويرى بعض المؤرخين أن الذي اغضب عثمان بن عفان على ابن مسعود ، أن ابن مسعود كان على بيت مال الكوفة فأخذ الوليد من بيت المال مبلغا وأبى أن يرده ، فلما ألح عليه ابن مسعود في ارجاعه كتب الوليد إلى عثمان بذلك فكتب اليه انما انت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما اخذ من بيت المال فطرح مفتاح بيت المال وقال : كنت اظن اني خازن للمسلمين ، فأما إذا كنت خازنا لكم فلا حاجة لي في ذلك فكتب اليه الوليد انه يعيبك ويطعن عليك ، فكتب اليه يأمره باشخاصه إلى المدينة ، فخرج من الكوفة مشيعا من أهلها ، ولما دخل على عثمان فعل به ما ذكرنا فأنكر عليه علي (ع) وجماعة من الصحابة الأخيار وكانت نهايته بسبب ذلك وراح عثمان بعد وفاته يترحم عليه ويقول لمن كان حاضرا : لقد رفعتم والله ايديكم عن خير من بقي منكم وغادر مكانه فقال الزبير :

لالفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

وهكذا كان عثمان يفعل مع كل من يشكو اليه عاملا من عماله أو أحد اقربائه ، وحتى من كان يخصه بالنصيحة ويرشده إلى محاسن الأمور حسبما يوصي اليه مروان بن الحكم ، لأنه يعلم أن استجابة عثمان لنصيحة الناصحين لا بد وأن تؤدي إلى اقصائه واقصاء من لف لفه من بني أمية ، ولو أنه استطاع أن

يقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما كانت تفيض به النفوس من الشكوى والقلوب من المرارة لم يقصر ، ولكنه بدلا من أن يقطع الألسن استطاع ان يتصرف بعثمان كما يريد ويوجهه حيث يرضى ويغضب مهما كان الثمن الذي يدفعه عثمان غاليا .

لقد وجد المسلمون في المدينة أن ولاة عثمان وبني امية لا يرعون حرمة لاحد والأمور تسير من سيء إلى اسوأ بعد أن وجدوا ذلك اجتمع فريق منهم واستعرضوا الوضع العام على ضوء ما تقوم به بطانة عثمان من استهتار بالقيم ومخالفات لكتاب الله وسنّة رسوله وبعد التداول فيما يجب اتخاذه اتفقوا على ان يرفعوا كتابا لعثمان يتضمن صورة عن الأوضاع معززة بالارقام التي لا تقبل المراجعة ، وأرسلوا الكتاب اليه مع عمار بن ياسر ، فلما اتاه بالكتاب وقرأ شطرا منه قال له : اين اصحابك الذين وقعوا الكتاب ؟ فقال : لقد تفرقوا خوفا منك ، فقال علي تقدم من بينهم ، فقال : لاني انصحهم لك ، فرد عليه عثمان بقوله : كذبت يا ابن سمية ، فأجابه عمار بن ياسر : والله أنا ابن سمية وأبي ياسر ، فغضب ابن عفان من جوابه ، وكان مروان بن الحكم حاضرا ، فقال له : ان هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس ، ولو قتلته هابك من وراءه ، فأقره على رأيه وتناول عصا فضرب بها عمار بن ياسر ، وأمر غلمانه فطرحوه وقام عثمان فرفسه برجليه على مذاكيره فأصيب بفتق ورضوض في بدنه فغشي عليه ، ثم أمر غلمانه فأخرجوه من الدار وألقوه على جانب الطريق وهو غائب عن الدنيا ، فحمله جماعة من المسلمين وأدخلوه إلى بيت أم سلمة زوجة النبي (ص) ، وفاتته صلاة ذلك اليوم لأنه بقي مغشيا عليه حتى انتهى النهار فأنكرت أم سلمة على عثمان هذا التصرف ، وأخرجت عائشة شعرة من شعر رسول الله ونعلا من نعاله وثوبا من ثيابه وقالت : أن شعر رسول الله لم يبلَ وان ثيابه لم تبلَ وقد ابلى عثمان سنته .

وجاء في رواية ثانية أن السبب الذي حدا بعثمان أن يصنع بعمار ذلك ، هو أنه كان في بيت المال في المدينة سفط فيه حلي وجواهر فأخذ منه عثمان السفط وأعطاه لنسائه فأنكر المسلمون عليه هذا التصرف الذي لم يعهدوه

من أحد قبله فخطب الناس وقال : أنا سنأخذ حاجتنا من هدا المال وان رغمت به انوف اقوام ، وكان أمير المؤمنين (ع) ممن انكر عليه ذلك ، فقال له : اذن تمنع منه ويحال بينك وبينه ، وقال عمار بن ياسر : ان انفي أول راغم من ذلك ، فقال عثمان : أعليّ يا ابن ياسر تجترىء وأمر غلمانه فأخذوه ودخل عليه ابن عفان وهو مطروح بين ايديهم فضربه حتى غشي عليه وأصابه فتق في بطنه ، ولما افاق بعد أن مضى شطر من الليل حمد الله وتذكر ابا جهل وأبا سفيان وأبا لهب وغيرهم من جبابرة قريش الذين آذوه وعذبوه لأنه آمن برسالة محمد بن عبد الله ، وها هو اليوم يتعرض لسياط عثمان وجلاوزته للسبب نفسه الذي كانت تنهال عليه سياط أولئك من أجله .

لقد تذكر كل ما كان يلاقيه من جبابرة قريش في تلك اللحظات وقال : ليس هذا أول يوم أوذينا في الله ، وقد أحدث عمل عثمان ضجة في أوساط المسلمين على اختلاف طبقاتهم وقد سمعوا رسول الله يقول : عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، ومن ابغض عمار بن ياسر فقد ابغض الله ، أن عمارا قد ملىء ايمانا إلى اخمص قدميه ، طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية وهو مع الحق يدور معه كيفما دار إلى كثير مما سمعوه منه في عمار بن ياسر وآل ياسر واعتبروا ذلك تحديا لله ولرسوله وللعدالة التي ينادي بها صحابة الرسول الاوفياء لرسالته ولتعاليمها ، وبخاصة أولئك الذين رافقوها منذ البداية وتحملوا أشد أنواع الأذى في سبيلها .

وتحركت العصبية في نفس هشام بن الوليد المغيرة المخزومي وكان عمار بن ياسر حليفا لبني مخزوم ، فاندفع نحو عثمان ثائرا لحليفه القديم وهو يقول : أما عليا فقد اتقيته واجترأت علينا فضربت احانا حتى اشفيت به على التلف ، اما والله لئن مات لاقتلن به رجلا من بني أمية عظيم الشأن ، فقال له عثمان : وانك ههنا يا ابن القسرية ، قال فاهما قسريتان ، وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بجيلة[1] .

---

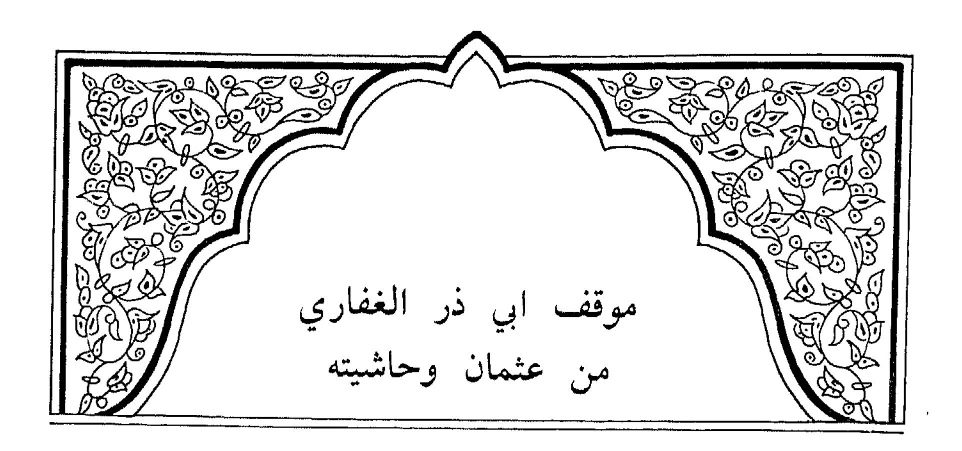
(١) انظر شرح النهج ج ١ ص ٢٣٩ .

وليس موقفه من عمار بالمرة الأولى ، بل اجترأ عليه مرة من قبلها في حياة النبي (ص) فلقد حدث الرواة ان النبي (ص) لما شرع في بناء مسجده كان عمار وجميع المسلمين يعملون وعلي يرتجز ويقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا　　يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه عمار بن ياسر وجعل يرددها فطن ابن عفان أنه يعرض به كما صرح بذلك المعلق على سيرة ابن هشام ، فقال له: لقد سمعت ما تقول يا ابن سمية ، والله اني سأعرض هذا العصا لانفك ، وكان في يده عصا يعبث فيها ، فلما سمع رسول الله ذلك من عثمان قال: ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار أن عمارا جلدة ما بين عيني وأنفي .

لقد أضاف المسلمون هذا الحدث العظيم الذي ارتكبه الخليفة مع عمار بن ياسر إلى أحداثه الكبار التي لم تكن خلافته لتخلو منها يوما من الأيام بالرغم من نصح الناصحين الذين كانوا يحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة، ويناشدونه الرجوع عن هذه السياسة التي ستفجر الجماهير عليه ان هو استمر عليها، ولم يكن عمار بن ياسر وغيره ممن وهبوا انفسهم لله ونصرة الحق والعدالة لترهبهم سياط عثمان وغلمانه الجفاة الطغاة، وما هي بأشد وأوجع من سياط ابي سفيان وأبي جهل التي كانت تنهال عليهم ليكفروا بمحمد ورسالته، ولكنهم صبروا وانتصروا على ابي جهل وأبي سفيان وطواغيت قريش وانتصر محمد وانتصرت رسالته، وسينتصرون اليوم كما انتصروا بالأمس .



موقف ابي ذر الغفاري من عثمان وحاشيته

لا أظن أن احدا مهما حاول تصوير موقف ابي ذر من حكام زمانه وموقفهم منه يستطيع أن يأتي بصورة اكثر عطاء وأوجز من الصور التي صوّر فيها الموقفين أمير المؤمنين (ع) حينما خرج لوداعه في كلماته القصار التالية :

يا ابا ذر انك غضبت لله فأرج من غضبت له ، ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في ايديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما احوجهم إلى ما منعتهم وما اغناك عما منعوك لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لاحبوك ولو قرضت منها لأمنوك .

لقد دخل أبو ذر في الإسلام في مطلع الدعوة ورافق جميع تطوراتها وتحمل من اعبائها بمقدار نصيبه منها فكان في الطليعة بين انصارها ومن المقربين الى صاحبها لاخلاصه وصدقه وتمانيه في سبيل الله ، وقال فيه رسول الله (ص) : ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر ، وقال له في غزوة تبوك وقد تخلف به بعيره ، ولحق بالنبي (ص) بعد يأس من بعيره ، وقد رآه يجدّ السير حاملا متاعه على كتفه : يا ابا ذر تعيش وحدك وتحشر وحدك ويسعد بك قوم من أهل العراق يتولون غسلك ودفنك .

وظل بعد وفاة النبي (ص) وفيا للاسلام وحماته حريصا على تنفيذ تعاليمه لا يأنس إلا بالحق وأهله ولا يستوحش إلا من الباطل ودعاته يقتفي اثر علي (ع)

في جميع أموره ويناصر المظلومين والمضطهدين لم ترهبه سطوة الجبابرة وسياطهم ولم يلن وينحن للعروض والمغريات على ضخامتها .

لقد سمع من خليفة المسلمين وهو يحكم مركزه الامين على أموال العباد وخيرات البلاد ليسلمها إلى أهلها سمعه يقول لخازن بيت المال : انما المال مالنا والفيء فيؤنا فمن شئنا اعطيناه ومن شئنا منعناه ، ورأى الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وابن ابي سرح وأمثالهم من الطغاة يعيثون ويفسدون ويستهترون بالقيم والدين وبكل ما جاء به الإسلام لا يرعون حرمة لاحد ولا شرفا لعرض ، ويتمتعون بالحصانة التي تحميهم من غضبة الشعوب لانهم من الأسرة الحاكمة ، ورأى مع ذلك كله التفاوت الطبقي والروح القبلية والعنصرية الجاهلية التي حاربها الإسلام ، ولم يعد لأحد من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم مكان بين الطبقة الحاكمة إلا إذا كان بطانة أو تابعا يسير في ركابهم ، ولم يعد فرق في عهد عثمان بين الدولة التي اسسها محمد بن عبد الله وشقت طريقها الى القلوب والنفوس بأنظمتها التي تحفظ لكل انسان حقه في الحياة كاملا غير منقوص وتحارب الاستغلال وجميع الامتيازات التي كانت تحمي الجبابرة والطغاة ، ولا تفضل احدا على احد الا بالتقوى والعمل الذي ينفع وان اسود لون العامل وابيض لون الخامل المتكاسل ، لم يعد فرق بين الدولة التي كان على رأسها عثمان ودولة ابي جهل وأبي سفيان والفرس والرومان .

كل ذلك قد كان في عهد عثمان وقد رآه أبو ذر كما رآه غيره ووقف الى جانب غيره من الحريصين على مصلحة الاسلام يعملون بكل ما يملون لتصحيح تلك الانحرافات فلم يجدوا من يصغي اليهم ولا من يسمع لهم فارتفع صوت ابي ذر مدويا عاليا في انحاء الدولة ، والله اني لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيا وصادقا مكذبا واثره بغير تقى وصالحا مستأثرا عليه ، فكان جزاؤه الضرب والشتم والتشريد .

ويروي المؤرخون ان من جملة الأسباب التي اثارت غضب عثمان على ابي ذر بالاضافة إلى تصريحاته وثورته على الباطل وأهله ، ان عثمان بن عفان لما اعطى مروان بن الحكم وغيره من بني العاص وبني امية ما في بيت المال من

الأموال وخص زيد بن ثابت بشيء منها ثار أبو ذر وجعل يقول كلما رأى جماعة من الناس :

بشر الكافرين بعذاب أليم .

ويتلو قوله تعالى :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

فأرسل اليه عفان مولى من مواليه وطلب منه أن يسكت ولا يعود لمثل ذلك ، فقال له أبو ذر رحمه الله أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله ، فوالله لأن ارضي الله بسخط عثمان احب الي وخير لي من أن اسخط الله برضا عثمان وأصر على موقفه منه ومن اسرته ، فأغضب ذلك عثمان وراح يفكر ماذا يصنع به وقدر انه اذا قتله أو حبسه ستتسع النقمة عليه ويتطور الأمر بينه وبين الصحابة إلى ما لم يعد بالامكان تلافيه ، وفي نفس الوقت لم يعد بامكانه أن يتركه بالمدينة لان بقاءه بها قد يفجر الوضع لغير صالحه ، فأرسل اليه وقال : لقد كثر اذاك لي ولاصحابي ، اخرج عني إلى الشام فأخرجه اليها ليكون تحت رقابة معاوية وأوصاه بالشدة عليه ومراقبة جميع تصرفاته ، وفي الشام أنكر على معاوية بذخه واسرافه ، فبعث اليه معاوية ثلاثمائة دينار ، فقال لرسوله : إذا كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا اقبلها وإن كانت صلة لا حاجة لي بها وردها عليه .

ويروي ابن الأثير انه ارسل اليه الف دينار فأنفقها أبو ذر على الفقراء في صبيحة الليلة التي قبضها فيها ، فلما صلى معاوية صلاة الصبح دعا رسوله الذي أرسل معه الدنانير وقال له : اذهب إلى أبي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فانه ارسلني بالمبلغ إلى غيرك واني اخطأت بك ، ولما ذهب اليه ، قال له ابو ذر : اذهب اليه وقل له ما بقي عندنا من دنانيرك شيء ولكن اخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها لك ، فرجع اليه وأخبره بمقالة ابي ذر رحمة وظل ابو ذر على موقفه المتصلب من معاوية وبذخه واسرافه فكتب إلى عثمان يخبره بمواقف ابي ذر

ويحذره من الأخطار التي ستنجم عن بقائه في الشام .

ولما بنى معاوية قصره الخضراء جاءه أبو ذر ، وقال له : يا معاوية ، ان كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وان كانت من مالك فهو الاسراف ، ولم يزل على موقفه الذي كان عليه في المدينة ، فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية : ان ابا ذر سيفسد عليك الشام فتدارك الأمر ان كان لك فيه حاجة .

وجاء في شرح النهج عن الجاحظ عن رجل من بني غفار انه قال : كنت عاملا لمعاوية على قنسرين والعواصم فجئت يوما فسمعت صارخا على باب داره يقول : اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له ، اللهم العن الناهين عن المنكر الفاعلين له فأربد معاوية وتغير لونه وقال : يا جلام ، أتعرف هذا الصارخ قلت اللهم لا ، قال من عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت ، ثم قال ادخلوه علي فجيء به بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه ، فقال له معاوية : يا عدو الله وعدو رسوله تأتينا كل يوم فتصنع ما تصنع ، أما اني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد بغير اذن أمير المؤمنين لقتلتك ، ولكني استأذنه فيك .

قال جلام الغفاري : وكنت احب أن أرى أبا ذر لأنه من قومي ، فالتفت اليه واذا هو رجل اسمر ضرب من الرجال خفيف العارضين محني الظهر ، فأقبل على معاوية وقال ما أنا عدو لله ولرسوله ، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله اظهرتما الإسلام وأبطنتما الشرك ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرات أن لا تشبع ، وسمعته يقول : إذا ولي الأمة الاعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه . فقال معاوية : ما أنا ذاك الرجل ، فقال أبو ذر : بل انت هو اخبرني بذلك رسول الله وسمعته يقول : وقد مررت به اللهم العنه ولا تشبعه الا بالتراب ، وسمعته يقول : است معاوية في النار . فضحك معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان يخبره بحاله ، فكتب اليه عثمان احمل جندب بن جنادة الي على اغلظ مركب واوعره ، فحمله معاوية على اسوأ حال وأمر من معه ان يسيروا به الليل والنهار حتى قدم المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد . ولما دخل على عثمان قال له : لا انعم الله بك عينا يا جنيدب ،

فقال ابو ذر : أنا جندب وقال سماني رسول الله عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذي سماني به على اسمي ، فقال له عثمان : انت الذي تزعم أنا نقول يد الله مغلولة وان الله فقير ونحن اغنياء ، فقال أبو ذر : لو كنتم لا تقولون ذلك لانفقتم مال الله على عباده ، وأنا أشهد اني سمعت رسول الله (ص) يقول : اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا وعباده خولا ودينه دخلا ، فقال عثمان لمن كان حاضرا : اسمعتم ذلك من رسول الله ؟ فأنكروا سماعه ، فاستدعى عثمان عليا وسأله عما قال ابو ذر ، فقال أمير المؤمنين (ع) اني لم اسمع ذلك من رسول الله ، ولكن ابا ذر صادق فيما يقول ، لاني سمعت رسول الله يقول فيه :

ما أظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر .

فقال كل من حضر :

اما هذا فقد سمعناه من رسول الله .

وروى الواقدي ان الحوار قد اشتد بين عثمان وأبي ذر الغفاري وحاول عثمان اسكاته بكل الوسائل ، وأبو ذر يزداد تصلبا في موقفه من عثمان وحاشيته الذين عاثوا في الأرض فسادا ، ورأى عثمان نفسه بين أمرين لا ثالث لهما : اما قتله أو اخراجه من المدينة ، ورأى أن القتل يجر عليه غضب الجماهير في الحجاز وخارجها وكلهم يقدرون لأبي ذر مكانته في الإسلام وصلابته في الحق ، ويؤيدون موقفه من الحاكمين ، وقد سرى إلى اسماعهم ثناء رسول الله عليه وتقريظه له في مختلف المناسبات ، فلا بد اذن من نفيه إلى خارج المدينة والى اين يا ترى ؟ إلى المدن والعواصم وحيث يجتمع الناس ، ان ذلك لا يحل المشكلة لأنه سيمثل الدور الذي مثله في الشام ، فلم يبق غير الربذة حتى لا يتصل بالناس ولا يتصل به احد من الناس ، فأمره بالرحيل اليها باشراف مروان بن الحكم ، وهدد وتوعد كل من يخرج لوداعه من صحابة رسول الله .

ولما اخرجه مروان بن الحكم اليها عز ذلك على الناس أن يروا طريد رسول الله يطرد من مدينته صحابيا ممن اجتباهم رسول الله وفضلهم على كثير

ممن صحبوه وتابعوه ، ولكنهم تحاموا عن وداعه خوفا من عثمان وحاشيته ولم يخرج لوداعه غير علي وأخيه عقيل والحسن والحسين وعمار بن ياسر ، وتقدم الحسن بن علي لوداع أبي ذر فقال له مروان بن الحكم : ألا تعلم بأن الأمير قد نهى عن كلام هذا الرجل ، فتقدم اليه أمير المؤمنين (ع) وضرب بسوطه رأس راحلته وقال له : تنح نحاك الله إلى النار ، فرجع شاكيا فتلظى عليه عثمان غضبا على حد تعبير المؤرخين . وقال له أمير المؤمنين : يا ابا ذر ان القوم قد منعوك دنياهم ومنعتهم دينك فما اغناك عما منعوك ، وما احوجهم إلى ما منعت ، وقال له عمار بن ياسر :

والله لو اردت دنياهم لامنوك ، ولو رضيت اعمالهم لاحبوك ، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا والجزع من الموت .

وتكلم كل واحد منهم بكلام يتناسب مع المقام ، وبكى أبو ذر عند وداعهم وقال : لقد ثقلت على عثمان بالحجاز وعلى معاوية بالشام وكره أن اجاور اخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهم فصيرني إلى بلد ليس لي فيه ناصر ولا دافع إلا الله ، والله لا أريد إلا الله صاحباً .

وعاش أبو ذر رحمه الله في الربذة[1] ما بقي من حياته غريباً بعيداً عن الناس في ارض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحوش إلى أن وافته منيته فيها ويسر الله له وفدا من أهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحرام ، فلوحت لهم زوجته فمالوا اليها ، وأصيبوا بالذهول والدهشة حينما علموا أن الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله يجله ويفضله على الكثير من اصحابه فتولوا تغسيله ودفنه وحملوا زوجته وابنته إلى المدينة وصدق فيه قول رسول الله (ص) :

يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك أناس من أهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك[2] .

---

(١) الربذة تقع على ثلاثة اميال من المدينة قريبة من ذات عرق.

(٢) انظر ج ٢ من شرح النهج ص ٤٠٤ .



الثورة على عثمان ونهاية أمره

وعندما تسامع الناس بنهاية ذلك الشيخ الجليل على النحو الذي تمت عليه تجسدت لهم أخطار ذلك النظام الفاسد الذي اصبح الحكم بن ابي العاص وأولاده اسياد الناس يأمرون وينهون ويتنعمون ويعبثون بخيرات البلاد ، وأولئك الذين كانوا من أقرب الناس وأخلصهم لله ورسوله يعذبون ويطردون من بلده وحرمه عندما تسامعوا بذلك ورأوا أن القوم جادون في الذي اختاروه وأمعنوا في ضلالهم وغيهم والتنكيل بكل من يأمرهم بمعروف وينهاهم عن منكر هبوا من جميع الأمصار لانقاذ الأمة من تلك الطغمة الحاكمة فأحاطوا بالمدينة من اطرافها ، هذا وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وآخرون ومعهم السيدة عائشة كانوا من أكثر الناس تحريضا على قتله .

فلقد اتفق الرواة على أن طلحة والزبير كانا من أشد الناس عليه ، وعثمان بن عفان يقول : ويلي على ابن الحضرمية يعني بذلك طلحة ، لقد اعطيته كذا وكذا ذهبا وهو اليوم يروم دمي اللهم لا تمتعه بذلك ، ولما اشتد الحصار على عثمان كان طلحة مقنعا بثوب قد استتر به عن أعين الناس ويرمي دار عثمان بالسهام، كما روى المؤرخون انه لما تعسر على المحاصرين الدخول عليه من باب الدار أخذ بهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار فأصعدهم سطحها وتسوروا منها على دار عثمان ونزلوا اليها وقتلوه، وأضاف الرواة إلى ذلك ان الزبير كان يقول للثوار اقتلوه فقد بدل سنّتكم، فقيل له: ان ابنك يحامي عنه بالباب، فقال: ما اكره أن يقتل عثمان ولو بدىء بابني ان عثمان لجيفة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصراط غدا.

وكانت عائشة تقول : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، ونعثل اسم لرجل من بقايا يهود المدينة كان قذراً مفسداً قد استعارته لعثمان بن عفان ، ولما اشتد عليه الحصار وأيقنت أن امره قد انتهى وأهل الامصار لا يرجعون إلا بقتله أو تنحيته عن الخلافة تجهزت للخروج من المدينة إلى مكة فاستجار بها عثمان وأرسل إليها مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فقالا لها : لو اقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل فقالت لهما قد قرنت ركابي وأوجبت علي الحج ووالله لا أفعل فنهض مروان وصاحبه وهو يقول :

وحرق قيس عليّ البلاد   فلما أن اضطرمت احجما

ثم قالت عائشة : يا مروان إني في شك من صاحبك ووالله لوددت أنه في غرارة من غرائري هذه وإني أطيق حمله حتى القيه في البحر ، والتقت بعبد الله بن العباس وهي في طريقها إلى مكة فقالت له : يا ابن عباس إياك أن ترد عن هذه الطاغية وأن تشكك الناس في أمره فقد بانت لهم بصائرهم وتحلبوا من البلدان لأمر قدحم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت المال والخزائن مفاتيح فإن يلها يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر .

وحينما سألت عن مصير عثمان بعد مصرعه وأخبرها الناس بقتله لم تملك نفسها وأظهرت كل ما كان يراودها من أمان وأحلام وهي لا تشك في أن الأمر بعده سيكون إلى قريبها طلحة فقالت على الفور بعد لنعثل ايه يا صاحب الاصبع ، إيه يا أبا شبل ، إيه يا ابن عم ، ومضت تقول : وقد أخذتها الفرحة ، لكأني أنظر إلى أصبعه وهو يبايع له حثو الإبل ، ودهش الناس لحالها في تلك اللحظات التي عرفت فيها مصرع عثمان وكيف استبد بها الفرح لأنها كانت على يقين من أن الناس لا يعدلون بقريبها أحد ، ونظرت بعد أن هدأ روعها إلى من حولها وإذا بها تجد الشفاه تنم عن بسمات ساخرة من موقفها ، فأيقنت أن وراء ذلك شيئاً لا ينسجم مع رغبتها ، فقالت : ما فعل الناس من بعده ؟ فقالوا : بايعوا لعلي ابن أبي طالب ، فناقضت نفسها على الفور ،

وقالت : لقد قتل عثمان مظلوماً لأنهم استتابوه ثم قتلوه ، وبدون أن تشعر أن وراءها أناساً يحصون عليها جميع تصرفاتها وأقوالها قالت : ليت هذه اطبقت على هذه .

بهذا النوع من الصلابة يحدثنا التاريخ عن موقف طلحة والزبير وعائشة من عثمان وأنصاره في ساعات المحنة التي المت به ، وعادوا بعد قليل يطالبون بدمه من علي بن أبي طالب وأعلنوها حربا ضارية عليه كان من نتائجها معركة البصرة التي انتهت بفشل عائشة وقتل طلحة والزبير وعشرات الألوف ممن غررت بهم عائشة وطلحة والزبير ، في حين أن التاريخ يؤكد أن عليا (ع) مع أنه لم يكن من المرضيين عند الخليفة وأتباعه ، وأن مروان بن الحكم كان يعد الخطط للتخلص منه ويشحن ابن عفان، عليه وعلى كل من كانوا يراقبون تصرفات الأمويين وأعوانهم ، مع أن حاله من عثمان وأعوانه كان كذلك فقد وقف موقفاً يتناسب مع ما فطر عليه من التسامح والمحبة والاصلاح حتى لا ينتهي الحال إلى اراقة الدماء والفوضى ، وقد بلغه أن طلحة منع عنه الماء ومنع من ادخاله عليه ، فأنكر عليه ذلك وأرسل إليه وكان في أرض له على ميل من المدينة ، ارسل إليه أن دع الرجل يشرب من مائه ومن بئره ولا تمنعوا عنه الماء فأصر طلحة على موقفه فأوصل إليه الماء كما جاء في رواية انساب الأشراف للبلاذري ، وقد منع عنه الغزاة مرارا وأخذلهم مثلما دعوا باصلاح كل ما أفسده ولاته على الأمصار وأعوانه وعزلهم وتعيين غيرهم وكان موقفه هذا يحز في نفس طلحة والزبير وعائشة فيعملون لافساد ما اصلحه أمير المؤمنين لكي تزداد الأمور تعقيداً وتأزماً في حين أن مروان بن الحكم كان يعارض في كل محاولة تجري بواسطة علي (ع) من هذا النوع[1] .

وحدث الطبري أن الثوار كتبوا إلى عثمان يدعونه إلى التوبة وأقسموا له أنهم لا يرجعون عنه أبداً وغير تاركيه حتى يعطيهم ما يلزمهم من حق الله ، وأحس عثمان أن القوم جادون في طلبهم وسوف لا يتراجعون عنه إلا بقتله إذا

---

(١) انظر ص ١٣٩ من المجلد الرابع تاريخ الطبري .

لم يلب طلباتهم ، فأرسل إلى علي (ع) فلما جاءه قال له : يا أبا الحسن أنه قد كان من الناس ما رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهم الله أن اعفيهم من كل ما يكرهون وأن اعطيهم من نفسي ومن غيري ما يريدون وان كان في ذلك سفك دمي .

فقال له أمير المؤمنين (ع) أن الناس على عدلك احوج منهم إلى قتلك وإني لأرى القوم لا يرضون إلا بالرضا وقد كنت اعطيتهم في المرة الأولى عهد الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ، ولم تف لهم بشيء من ذلك فلا تغرنني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق ، قال نعم فاعطهم الآن فوالله لأفين لهم بكل ما تريد ، فخرج علي (ع) إلى الناس وقال : أيها الناس انكم انما طلبتم الحق وقد اعطيتموه أن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن كل ما تكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه .

فقال الناس : قد قبلنا فاستوثق لنا منه فانا والله لا نرضى بقول دون فعل ، فقال لهم : ذلك لكم ، ثم دخل عليه وأخبره بما يقولونه فقال عثمان : اضرب بيني وبينهم موعداً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما يكرهون في يوم واحد ، فقال له علي (ع) أما من حضر من الناس في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول امرك ، فقال نعم أجلي في ما بالمدينة ثلاثة أيام فوافق أمير المؤمنين على ذلك وخرج إلى الناس وأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثة أيام على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه وأخذ عليه في الكتاب اعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناسا من المهاجرين والأنصار فكف المسلمون عنه ورجعوا على أن يفي لهم بما اعطاهم من نفسه .

وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جندا عظيما من رقيق الخميس على حد تعبير الخطيب في كتابه علي بن أبي طالب .

فلما مضت الأيام الثلاثة والوضع على حاله لم يغير منه شيئاً مما كرهوه ولم يعزل عاملاً من عماله ثار به الناس وخرج عمرو بن حزم الأنصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خشب فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة فأرسلوا

إلى عثمان من يقول لـه : ألم نفارقـك على أنـك تائب من أحـداثك وراجـع عما كرهنا وأعطينا على ذلك عهدا لله وميثاقه ، قال بلى أنا على ذلك ، قالوا فـما هذا الكتاب الذي وجدناه مع رسولك وكانوا قد قبضوا على رسول عثمان إلى عـامله في مصر ومعه كتاب يأمره فيه أن يضـرب رقاب عـدد من رؤساء المصـريين كـما قبضوا مع رسوله في الجولة الأولى التي هادنهم فيها كتاباً يـأمر عـامله في مصر أن يضـرب عنق محمد بن أبي بكـر ، وكان قـد هادنهم أيضـاً عـلى أن يعـطيهم مـا يريدون بواسطة أمير المؤمنين أيضاً ، كما حدث بذلك المؤرخون .

فقال ما فعلت ولا لي علم بما تقولـون ، قالـوا بريـدك على جملك وكتـاب كاتبك عليه خاتمك ، فقال لهم : أما الجمل فمسـروق والخطوط تتشـابه ، وأمـا الخاتم فقد نقش عليه ، فقالوا أنا لا نعجل عليك وأن كنـا قد اتهمنـاك ، اعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم عـلى دمائنـا وأموالنـا واردد علينا مـظالمنـا ، فقـال مـا أراني إذن في شيء من ذلـك إن كنت استعمـل عليكم من هويتهم وأعزل من كرهتم فالأمر إذن يكون لكم .

فقالوا : والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن فانظر لنفسك أو دع فأبى عليهم وقال لهم لم أكن لاخلع سربالاً سربلني الله كما جاء في رواية الطبري[1] .

وتعقدت الأمور بين الثائرين والخليفة وضاعت فرص التسوية بين الطرفين وبات الثوار وهم على يقين من أن الخليفة حتى لو أراد التسوية وإنهاء الأزمة فإن المتسلطين عليه من الأمويين لا يريدون تسوية الأمور ، ولا يتمكن هـو من إبرام أمر لم يكن مروان من شهوده وواضعي بنوده .

ومع أن أمير المؤمنـين كان من أوثق النـاس عندهم وعنـد عامـة المسلمين وأكثرهم حرصاً على حـل الصراع القـائم بين الـطرفين بمـا يحفظ لكل منهـا حقه ويعود على الأمة بالخير فلم يعد لحديثه مـع الثائـرين من أثر ورأى من واجبـه أن يعتـزل الطرفـين بعد أن جـرب مرتـين وفي كل منهـما يأخـذ على عثمـان العهـود

---

(١) ص ١١٢ من المجلد الخامس .

والمواثيق على الالتزام ببنود الأتفاق الذي يحفظ للدولة هيبتها ولـلامة حقهـا ، ولم ينفذ عثمان شيئاً مما يتم عليه الاتفاق ، ولقـد قال لعبـد الله بن عباس وغيـره : والله لقـد دافعت عن عثمان حتى خشيت أن أكـون اثما ، ولم يكتف عثمـان بعد التزامه بما عاهد الله عليه ، بل كتب بعد كل من الاتفاقـين كتابـاً إلى عمالـه أن يقتلوا قادة الثوار بعد رجوعهم إليهم لأنهم يطالبون بحقهم في الحيـاة كما فـرضه لهم الإسلام .

واشتـد الحصار عـلى عثمان في الأيـام الأخيرة بعـد أن اعتـزل عـلي (ع) وفشلت جميع محاولات التهدئة والاصـلاح بين الـطرفين ويئست تلك الـوفود من تلبية مطالبها العادلة وراحت تضيق على عثمان ، وهو مرة يحاورهم ومرة يعدهم أن يعطيهم ما يريدون ليستفيـد من الوقت لأنـه كان يـأمل أن تـأتيه النجـدة من الشـام بعد أن طلب من معـاوية أن يمـده بالـرجال بـالسرعـة القصوى ، تثـاقل معاوية وتباطأ على أمل أن ينتهي الأمر بقتله ليكون ولي الثائر من بعده ، وبالتالي خـرج من الشام في جيش مؤلف من أثني عشـر الف مقاتـل وقبل أن يصـل الى المدينة تركهم في مكان بعيد عنها ينتـظرون صدور اوامـره اليهم وسار بنفسـه الى المدينة ، ولما دخل على عثمان بن عفان سأله عن النجدة ، فقـال : لقد تـركتهما ورائي وجئت إليـك لاعرف رأيـك وأعـود إليهم فـأجيبـك بهم ، فقـال لـه ابن عفـان : لا والله ولكنك اردت أن أقتـل فتقول أنت أنـا ولي الثـأر ارجـع فجئني بالناس حالا فرجع ولم يعد حتى قتل عثمان كما جاء في رواية اليعقوبي .

وقد أكد هذه الحقيقة جماعة من المؤرخين والباحثين كما تؤكـدها الـظروف التي كانت تحيط بتلك الاحداث ، فإن الوفود التي أمت المدينة تطالب بالاصلاح ظلت اشهراً تروح وتغدو وتفاوض قبل أن تشدد الحصار عليه وكان خلال ذلـك على اتصال دائم بعماله وذويه وقد اتخذوا قراراً باستعمال الشدة وكان اعتمـادهم على معاوية وجيش الشام ، وكانت اخبار تلك الأحداث تصله بين الحين والآخر بمنتهى السرعة واتفق الطرفان كما ذكرنا بعد أن أظهر ابن عفان رغبتـه الأكيدة في الاصلاح ، ولكنه كان يتراجع بعد أن توافق الوفـود وتستعد للرحيـل والرجـوع إلى امصارها ، ولم يكن ذلك منه على ما يبدو الا كسب الوقت الذي يتيح لجنـود

الشام أن تقطع المسافة بين البلدين حسبما كان يمنيه معاوية بذلك ، وظـل يماطله ويمنيـه إلى آخر لحـظة ، ولو كـان صـادقـاً وعـازمـاً عـلى انقـاذه من محنتـه لكـان باستطاعته أن يحقق ذلك خلال أيام معدودات ، وعلى مـا يبدو أن ذلـك لم يغب عن عثمان وقد صارحه به كما ذكرنا ، ومع ذلك فقـد أمره أن يـرجع إلى الجيش ويسرع في العودة به بعد أن أنبه على تباطئه وأهماله .

ويدعي اكثر المؤرخـين بأن عليـا (ع) في الأيام الأخيـرة التي اشتد فيهـا الحصار على عثمان بن عفان أرسل ولديـه الحسن والحسين (ع) ليـدفعا النـاس عنه كما ارسل طلحة والزبير ولديهما محمـد بن طلحة وعبـد الله بن الزبـير فلزموا مـدخل الـدار ومنعـوا الثـوار من الـوصـول إليـه وأصيب بعضهم بجـروح وهم يدافعون الثائرين عن اقتحـامه ، وبـالتالي دخلوهـا من ناحيـة ثانيـة بإشـارة من طلحة . ويضيف المؤرخون إلى ذلك أن علي بن أبي طـالب (ع) لما علم بقتـل عثمـان أقبل عـلى داره مسرعـا وقد اشتـد غضبه فضـرب الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير واتهمهم بالتسـاهل والتقصـير في الدفـاع عن الخليفة .

ولكن المتتبـع لسير الأحـداث منذ بـدأ المسلمون يتحسسـون الاخطار التي احـدقت بهم من تصرفـات عثمان وأسـرته ومـواقف امير المؤمنـين من الثائـرين ومدى ما بذله من جهد لاصلاح الحـال بما يضمن للخليفـة هيبته ولـلامة حقهـا المفروض لها وكان عثمان يعطيه من نفسه ما يريد ،ثم يعـود فينقض كل مـا بناه عـلي (ع) كما يشـير عليه مـروان وبنو أميـة ، وأخيراً ولمـا يئس منه ورآه مسيـرا لحـاشيته اعتـزل المدينـة وذهب إلى أرض له خـارجها ليكـون بعيداً عن كـل مـا يحدث بعد أن فشلت جميع مساعيه خلال شهرين تقريباً ، فإن المتتبـع لسير هـذه الأحداث يطمئن إلى أنه لم يرسل ولديه للدفاع عنه ولم يبالِ بكل ما يحـدث بعد تلك الجهـود التي بـذلهـا في سبيله للخـروج من تلك الأزمـة بمـا يحفظ لجميـع الاطراف حقوقهـا وبعد أن ايقن أن عثمـان وزمرتـه مصرون عـلى السياسـة التي اختطوها لانفسهم مهما كانت التضحيات ، التزم بيتـه تاركـاً لاصحاب الحق أن يتصرفوا كما يريدون ما داموا يطالبون بالعدالة والحقوق المشروعة ، ومن المستبعد

أن يخرج بريحانتي رسول الله (ص) في تلك المعركة للدفاع عن الظالمين وهو الذي وهب نفسه وكل حياته للحق والعدالة وانصاف المظلومين .

ومهما كان الحال فقد انتهى الحصار الطويل والحوار الذي دام ثلاثة أشهر تقريباً كما يذهب إلى ذلك الرواة بقتل عثمان بواسطة جماعة ممن تسلقوا عليه الجدران بتخطيط من طلحة ، ويدعي المؤرخون لهذا الحادث أن محمد بن أبي بكر كان أحد الذين استطاعوا الدخول عليه ولكنه لم يباشر القتل

ويبدو أن الثوار ظلوا إلى آخر لحظة يتهيبون قتله ويأملون أن يتراجع فيعتزل الناس أو يعطيهم ما سألوه ، فلما قتل مروان بن الحكم رجلاً منهم انقطعت جميع آمالهم ولم يعد لهم سبيل الا بالتخلص منه . فلقد جاء في رواية شرح النهج عن عبد الله بن عباس إن أبا ربيعة المخزومي قال : دخلت على عثمان فأخذ بيدي وأسمعني كلام من على بابه من الناس فمنهم من كان يقول : ما تنتظرون به ومنهم من يقول : لا تعجلوا عليه فعساه ينزع ويتراجع . فبينا نحن كذلك إذ مر طلحة فقام إليه ابن عديس البلوي فناجاه ، ورجع ابن عديس فقال لاصحابه : لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من عنده ، فقال لي عثمان : هذا ما أمر به طلحة اللهم اكفني طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم علي والله لارجو أن يكون منها صفر اليدين وأن يسفك دمه ، ثم اردت أن أخرج فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج .

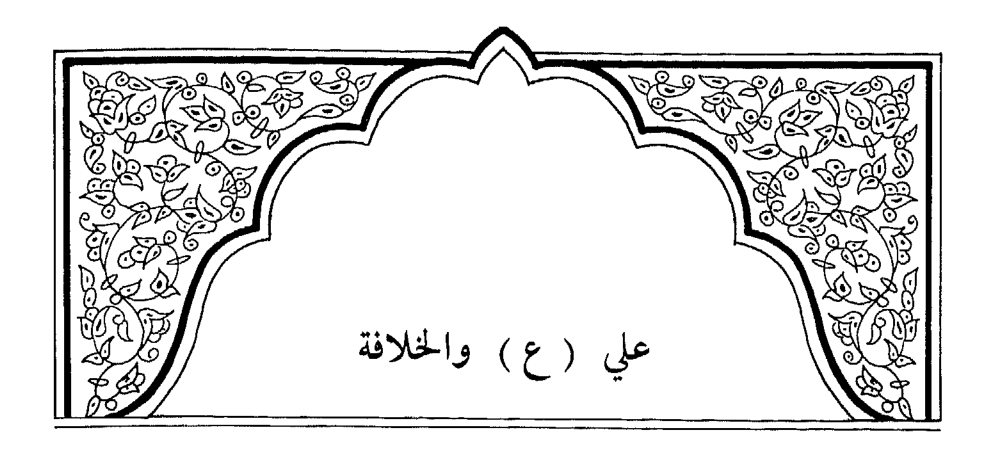
ومضى يقول الراوي : ولما طال الأمر قام رجل من الأنصار يدعى ابن عياض وكان صحابياً ، فنادى عثمان وأمره أن يخلع نفسه فبينما هو يناشده ويدعوه إلى خلع نفسه إذ رماه كثير بن الصلت الكندي وكان من أصحاب عثمان بسهم فقتله فاشتد المصريون عند ذلك وطلبوا القاتل ليقتصوا منه فرفض عثمان تسليمه وقال : لم أكن لادفع لكم رجلاً نصرني فهاجموه من كل جانب حتى دخلوا عليه واشترك في قتله جماعة من الثوار والأنصار ، وأضاف إلى ذلك في شرح النهج أن عليا (ع) لما رأى شدة طلحة قال له : انشدك الله الا كففت عن عثمان ، فقال له لا والله حتى يعطي بنو أمية الحق من أنفسهم ، فكان أمير المؤمنين يقول بعد ذلك : لحا الله بن الصعبة اعطاه عثمان ما اعطاه وفعل به ما

فعل[1] .

لقد كان لقتل عثمان وقع حسن في أكثر الأوساط الاسلامية في المدينة وخارجها من الذين كانوا يؤلبون الناس عليه تلبية لرغباتهم الخاصة كطلحة والزبير وعائشة وسعد بن أبي وقاص ومعاوية ومن الذين كرهوه لتصرفاته وتسليطه مروان بن الحكم وبني أمية على رقاب الناس وموارد البلاد ، هؤلاء وهؤلاء كان لمقتله وقع حسن في نفوسهم وإن اختلفت الغايات وتباينت الاتجاهات ، أما علي (ع) فلقد كان له من ذلك الحدث موقف قد اختص به وحده ، فلقد كان يتمنى ويعمل بكل جهده لكي تسير الأمور في غير الاتجاه الذي صارت إليه ، وحاول أكثر من مرة مع الخليفة والثوار ونصحهم بالاعتدال واستعمال الحكمة وأن لا يسيئوا استعمال حقهم ويفسحوا المجال للغوغائيين والمخربين أن ينفذوا من خلال تلك الاحداث لاغراضهم الدنيئة ، ونصح الخليفة بتطبيق العدالة وانصاف المظلومين واقصاء العابثين بمقدرات الأمة ومقدساتها عن مراكزهم وتسليمها لغيرهم من ذوي الكفاءات في الادارة والاستقامة في الدين ، وظل يعمل في ضمن هذه الحدود ويروح ويجيء بين الثوار والحاكمين واستطاع أن يضع حدا للثوار ومطالبهم ، ولكنه لم يستطع أن يغير من موقف الخليفة وحاشيته ، ولما يئس منهم جلس في بيته وأغلق عليه بابه ينتظر حكم القضاء في الظالم والمظلوم ، وكان يتمنى أن تنتهي الأمور على غير ما انتهت إليه وأن تسير في الطريق الصحيح ، وقد وصف الموقف بكلمات قصار أبلغ من كتاب كامل فقال : وأنا جامع لكم امره ، لقد استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع .

---

(١) انظر شرح النهج ص ١٦٧ من المجلد الأول .



علي (ع) والخلافة

فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب مجتمعين حولي كربيضة الغنم حتى لقد وطيء الحسنان وشق عطفاي ، فلما قمت بالأمر نكثت طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون .

لقد كان عامة المسلمين ينظرون ويتطلعون بلهفة إلى ما وراء تلك الأحداث ومن سيخلف عثمان عندما تتمخص الأحداث عن قتله ، أو اعتزاله ، ولقد كان الطامعون فيها أكثر من واحد ومن بين أولئك من عمق مجرى الأحداث ووسع دائرتها وأمد النار المتأججة بالوقود كطلحة والزبير وعائشة ، وكان من اكثر الناس لهفة عليها طلحة وبلغ به الحال أن سبق نتائج تلك الأحداث وأخذ لنفسه المكان الذي قدر أن الأيام ستضعه فيه ، فاستولى على بيت المال وأقام الصلاة بالناس وعثمان محصور في داره لا يزال على قيد الحياة .

وبلا شك فإن الأربعة الباقين من الستة اصحاب الشورى كانوا أوفر من سائر الناس حظا ، وكان نصيب علي (ع) أوفر من نصيب الجميع واليه تتجه الجماهير في المدينة وخارجها وحتى الثوار لم يعدلوا به أحد ، لأنهم يعلمون بأنه سيحقق لهم الأهداف التي ثاروا من أجلها ، ويعلمون في الوقت ذاته أن طلحة والزبير لم يغضبا للحق و لله وأنهما لا يختلفان عن عثمان وبطانته وتأكد ذلك لهم من موقفهما من عثمان خلال الأيام التي سبقت قتله. وحدث البلاذري في انساب

الأشراف أن عليا (ع) لزم منزله بعد أن يئس من اصلاح الأمر بين الفريقين فلما قتل عثمان وفرغ الناس من أمره وأدركوا أنه لا بد لهم من إمام يجتمعون عليه ، جاء الناس كلهم إلى علي يهرعون ، وهم يقولون : إن أميرنا علي بن أبي طالب حتى دخلوا عليه الدار وقالوا أمدد يدك حتى نبايعك ، فقال ليس ذلك اليكم ، إنما ذلك لأهل بدر فمن رضي به البدريون فهو الخليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا (ع) فقالوا : ما نرى أحدا أحق بها منك يا أبا الحسن .

وقال الطبري في الجزء الخامس من تاريخه : إن أصحاب رسول الله جاؤ وه بعد مقتل عثمان فقالوا له : لا بد للناس من إمام ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك ، فقال لا تفعلوا فإني اكون وزيرا خير من أن أكون أميرا ، فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك وما زالوا به حتى قبل بيعتهم ، ولكنه أبى إلا أن تكون في المسجد ويرضى جميع الناس .

وفي رواية ثالثة أنه أصر على رفض البيعة بالرغم من الالحاح الشديد عليه ، فتوسلوا بالأشتر النخعي لاقناعه وكان على رأس وفد الكوفة ، فقال له أبسط يدك نبايعك فرفضها فألح عليه وخوفه الفتنة إن هو بقي على موقفه وما زال به حتى اقنعه ، فبايعه الوجوه ثم انثال عليه الناس من كل جانب ، وقام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس إن الله قد رضي لكم حكم الشورى فأذهب به الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه .

وجاء في الإمامة والسياسة عن أبي ثور أنه قال : لما كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في أثر علي (ع) والناس حوله يبايعونه فدخل حائطا من حيطان بني مازن فألجأه إلى نخلة وحالوا بيني وبينه فنظرت اليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراعه تختلف أيديهم على يده ، ثم أقبلوا به إلى المسجد الشريف فكان أول من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده ، وكانت اصابعه شلاء ، فتطير منها علي (ع) وقال . ما أخلفها أن تنكث ، ثم بايعه الزبير وأصحاب النبي وجميع من في المدينة من المسلمين .

وقد وصف هو سلام الله عليه موقف المسلمين منه واصرارهم على بيعته في خطبته المعروفة بالشقشقية حيث قال : فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب مجتمعين حولي كوبيضة الغنم حتى لقد وطىء الحسنان وشق عطفاي ، فلما قمت الأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ، ومضى في خطبته هذه يصف موقفه من الخلافة فقال : اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقادوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لالقيت حبلها على غاربها ولسقيت أخرى بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز .

لقد تمت البيعة لعلي (ع) بعد ما رأى أن لا مفر له منها في ذلك الجو المشحون بالفتن والمضاربات وذلك بعد وفاة عثمان بثلاثة أيام أو خمسة ، وبايعه جميع المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن وفدوا على المدينة من الأمصار الثلاثة ، ولم يتخلف عن بيعته من القرشيين سوى أفراد قلائل كان من بينهم مروان بن الحكم وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر .

وليس بغريب على مروان بن الحكم والأمويين إذا هم تخلفوا عن بيعة علي أو كرهوها كما يبدو للمتتبع في تاريخ البيت الأموي مع الهاشميين وغيرهم من اصحاب الرسالات ، وأما سعد بن أبي وقاص ، فلقد كان يتمناها لنفسه ، ولو وسعه العمل من أجلها لم يقصر ، ولعله قد بدأ يفكر فيها فقد جعله ابن الخطاب أحد من تدور الخلافة في فلكهم وأعطاه اكثر مما يستحق ، ولا أظنه قبل ذلك كان يفكر فيها أو يتصور أن المسلمين سيجعلونه إلى جانب علي في يوم من الأيام ، ولكنه بعد أن رأى انصراف الناس حتى عن طلحة والزبير وهما أبرز منه ولهما مكانهما بين صحابة الرسول وفي المصريين والكوفة والبصرة لذلك لم يتعرض لها واكتفى أن يعتزل ولا يبايع لعلي (ع) تضامنا مع الأمويين الذين تربطه بهم القرابة من قبل أمه حمئة كما ذكرنا من قبل ، وكان هواه معهم ، ولم يقف منهم موقفا معاديا حتى بعد أن عزله عثمان عن الكوفة وأعطاها لأخيه

الوليد ، وأمير المؤمنين يعلم منه ذلك كما يعلم بموقف الأمويين وبما سيؤول إليه أمر طلحة والزبير وأكثر القرشيين ، وقد وصف موقفهم منه بعد البيعة بقوله :

اللهم أني استعديك على قريش فإنهم قطعوا رحمي وأكفأوا انائي فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا ساعد إلا أهل بيتي ، وقال مرة أخرى : ما لي ولقريش ، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين ، واني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم .

ومهما كان الحال فلما دعي سعد بن أبي وقاص إلى البيعة تمنع منها تضامنا مع الأمويين ، وقال لعلي : ما عليك من بأس ، فتركه أمير المؤمنين ولم يسمح للثائرين أن يستعملوا معه العنف ، ولما دعي اليها عبد الله بن عمر بن الخطاب وامتنع منها طلب منه كفيلا بأن لا يشترك مع أحد في عمل ضده ، ولما امتنع عن تقديم الكفيل تركه وقال للناس خلوه فأنا كفيله ، ثم التفت اليه وقال : اذهب فإني ما علمتك إلا سيء الخلق صغيرا وكبيرا .

ولما تمت البيعة انصرف أمير المؤمنين منذ اليوم الأول يجند كل امكانياته لاصلاح ما افسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة ، تلك البطانة التي تركت جميع الأجهزة تنخر بالفساد والانحلال ، وكان يرى أن الواجب يدعوه لمعالجة الأهم فالأهم من المشاكل المستعجلة التي يتضجر منها الناس وتأتي في طليعتها مشكلة الولاة التي أثارت تلك الضجة على الخليفة الراحل وأودت بحياته ، حتى إذا فرغ منها اتجه إلى غيرها من المشاكل التي يراها اكثر الحاحا وأعم نفعا ، ولم يكن ذلك ليمنعه من أن يبسط للناس السياسة التي سينتهجها في عهده الجديد ، وبعد أيام قلائل من خلافته وقف على المنبر ليعلن على الملأ المحتشد من حوله الغاء بعض الأنظمة التي اتبعها أسلافه خلال عشرين عاما أو تزيد ، وكان على ثقة بأن عمر بن الخطاب حينما قسم الفيء حسب اقدار الناس وقدمهم في الاسلام قد استجاب لمصالحه وعواطفه اكثر مما استجاب لمبادىء الاسلام ، وأن عثمان بن عفان حينما ترك أهله يعبثون به ويفسدون في الارض قد استجاب للعنصرية الجاهلية وللروح الأموية الحاقدة على الاسلام الذي لا يعطي أحدا على حساب أحد من الناس .

لقد وقف بين الجموع المحتشدة التي كانت تنتظر منه غير ما ألفته من قبل ، فقال : أيها الناس إنما أنا رجل منكم لي ما لكم وعلي ما عليكم وأني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به ، ومضى يعلن على ذلك الملأ الخطوط العريضة لسياسته ، فكان مما قال : إلا أن كل قطيعة اقطعها عثمان بن عفان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت الله ، فإن الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملكت به الإماء وفرق في البلدان لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق ، أيها الناس لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم على حقوقهم التي يعلمون ، حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ، إلا وإيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غدا عند الله وثوابه وأجره على الله ، إلا وايما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لأحد على أحد ، للمتقين عند الله أحسن الجزاء ، فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ولا يتخلفن أحد منكم عربي أو عجمي كان من أهل العطاء . فرسم لهم بهذا البيان سياسته التي ستقوم على العدالة والتي تتسع لجميع الناس ولا تعطي امتيازا لأحد على أحد .

فعز على كثير من المهاجرين من قرشيين وغيرهم أن يكونوا كغيرهم من الموالي والعبيد وبخاصة طلحة والزبير اللذين وضعهما ابن الخطاب في مستوى علي وكانا يطمعان وقد فاتتهما الخلافة في ولاية المصرين البصرة والكوفة وها هو اليوم في بيانه التاريخي يضعهما في مستوى العبيد والموالي ويأبى لهما مع ذلك أن يتوليا أي عمل له ، وقد قال لهما برفق ولين حينما طلبا منه ذلك : أحب أن تكونا معي أتجمل بكما واستأنس برأيكما ، فاني استوحش لفراقكما .

وأصر علي (ع) على موقفه ذلك لأن اطماعهما لم تكن لتخفى عليه وقد عرفهما صغيرين وكبيرين ، ورآهما بالأمس القريب يحرضان على عثمان لا غضبا

لله ولا حرصا على مصلحة الإسلام ، بل طمعا في السلطة من بعده ، أما وقد سمعا بيانه ورفض أن يجعل لهما ميزة على غيرهما وأنهما في عهده الجديد لا ينالان منه غير العطاء الهزيل ، وسيستأنف سيرة ابن الخطاب في فرض الاقامة الجبرية عليهما ولا يمكن أن يحققا شيئا من أطماعهما في عهده ، بعد أن ادركا جميع ذلك سكتا على مضض وجعلا يعملان للثورة ضد الحكم الجديد وانضما إلى الحزب الأموي ، واستغلا سخط عائشة على بيعة علي (ع) ومواقفها العدائية منه ، وكادت أن تموت غما منذ أن بلغها أن الناس قد بايعوا عليا ، واستقبلت نبأ استخلافه بقولها : ليت هذه اطبقت على هذه ، ورجعت إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوما وسأطالب بدمه ، فقال لها عبيدة بن أبي سلمة : والله إن أول من أمال حرفه لأنت وقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر ، فردت عليه بقولها : إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول .

ويروي الطبري أن عبيدة بن أبي سلمة حينما سمع من عائشة ما سمع رد عليها بالأبيات التالية :

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا أنه قد كفر
فهبنا اطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر

لقد فرقت الأهواء والمصالح بين طلحة والزبير وعائشة وبين الأمويين وحزبهم واستباح كل من الطرفين دماء الآخرين وكانت عائشة أشد من قريبها طلحة على عثمان بن عفان ، وقد سمعها أكثر المسلمين تقول : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، وها هي المصالح والأهواء تجمع بين أعداء الأمس القريب فيقفون صفا واحدا في وجه الدولة الجديدة ويستنفرون كل الفئات التي كانت تتنعم على حساب الفقراء وتتمتع بكل الامتيازات للثورة على النظام الجديد الذي يضع كل انسان في مكانه ولا يسمح لأحد أن يتنعم على حساب غيره .

وكانت السيدة عائشة من أشد المعارضين لعلي (ع) وأكثرهم تحريضا عليه كما تصف مواقفها منه أكثر المرويات التي تعرضت للأحداث المتسلسلة منذ استيلائه على السلطة وخلال معارك البصرة وغيرها .

ويرى جماعة من المؤرخين أن موقفها العدائي منه يعود لأكثر من سبب واحد يتصل أولها بحياة النبي (ص) يوم كان يدنيه اليه ويفضله على جميع المسلمين كما يدني بضعته الزهراء ويفضلها على جميع النساء وتستأثر مع ذلك بعطفه وحنانه ، وبلا شك فلقد كانت تتمنى لها ولأبيها هذه المنزلة من النبي (ص) ، هذا بالاضافة إلى أن عليا زوج لفاطمة ، بنت خديجة التي شغلت وجدانه بنبلها وسمو أخلاقها وتضحياتها في سبيل رسالته ، وما استطاعت طيلة حياتها مع النبي (ص) أن تكتم ما بنفسها على خديجة وغيرتها منها وبخاصة عندما كان يذكرها ويتلهف على أيامها ، وعلي (ع) مع ذلك لقد برأ مارية القبطية مما حاولت عائشة الصاقه بها ورجح للنبي طلاقها يوم لاكتها الألسن خلال رجوع النبي من غزوة بني المصطلق فيما يسمونه بحديث الافك وظلت تتراكم الأسباب حتى بلغ عداؤها لعلي (ع) حدا أفقدها وعيها ورشدها ووقفت منه موقفها الأخير بعد مصرع الخليفة الراحل[1] .

ومهما كان الحال فلقد كانت عائشة من اكثر الناس تحريضا على عثمان وقد اتهمته بالكفر والارتداد عن الدين ، وحينما بلغها ما جرى عليه غلبتها الفرحة وأخرجتها عن حدود الأناة والصبر فهتفت باسم طلحة والمخبر لا يزال يتابع حديثه حتى إذا انتهى إلى مصير الخلافة قالت : ليت هذه اطبقت على هذه قتل عثمان مظلوما ، وبلا شك لو أن أحدا غير علي (ع) تولى الخلافة بعد مصرع عثمان لم تقف منه نفس الموقف ولم تشترك في معركة ضده ، أي أن

---

(١) لقد ذكرنا في كتابنا سيرة المصطفى عند غزوة بني المصطلق بأن قصة الافك من الموضوعات ولم تتهم السيدة عائشة بشيء مما يرويه المؤرخون ، والذي حصل أنها قد اتهمت مارية القبطية بالسوء بعد أن أولدت للنبي ابراهيم وثبتت بعد ذلك براءتها بعد التحقيق الذي أجراه علي (ع) في تلك التهمة .

معركتها مع أمير المؤمنين (ع) لم تكن لأجل قريبها طلحة بل لاكثر من سبب كما ذكرنا وقد أشار إلى ذلك علي (ع) في بعض خطبه .

فقال وهو يتحدث عن الناكثين : اما عائشة فقد ادركها ضعف في النساء وضغن غلا في صدرها ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت الي لم تفعل ، ولها مع ذلك حرمتها الأولى والحساب على الله[1] .

ولم تقتصر المشاكل التي اعترضت خلافة علي (ع) منذ بدايتها على ما كان من طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم من الأمويين وغيرهم ، بل واجهتها مشكلة اخرى هي من اكثر المشاكل تعقيدا وخطرا على مصير الخلافة ، تلك هي مشكلة معاوية أشد الطامعين في الحكم صلابة ، والذي كانت اطماعه امتدادا لاطماع اسلافه الذين ظلوا يحاربون الاسلام طيلة حياتهم من اجل السلطة ، ومنذ وطئت قدماه ارض الشام جعل يعد العدة لذلك ، وتيسر له في عهد قريبه عثمان ما لم يتيسر له من قبل فترك له الشام يتصرف بها كما يريد فنثر الأموال على أنصاره واشترى بها الضمائر والرجال ، حتى استطاع أن يكوّن بها جيشا من المرتزقة وذوي الاطماع يصرفه لصالحه لا لصالح الدولة واستنجد به عثمان اكثر من مرة لاحباط حركة الثوار ، وظل يمنيه ويعده بالنجدة حتى فات الأوان كما ذكرنا من قبل .

وكان أمير المؤمنين (ع) يعلم كل ذلك من معاوية ويعلم بأنه سيعلن العصيان المسلح ويتخذ دم عثمان وسيلة لتضليل الرأي العام ، ويعلم بأنه لا يستسلم له حتى ولو ولاه العراقين بالاضافة إلى الشام ، ويعلم في الوقت ذاته بأنه لو وافق ابن عباس والمغيرة بن شعبة وأقره على الشام كما اشارا عليه بذلك ولو لفترة قصيرة سيمده بالقوة ويطلق لسانه بالحجة ، ولا يمكن أن يصل معه إلى النتيجة المرجوة ما دام جيش الشام أطوع اليه من بنانه .

---

(١) وقد أشار في شرح النهج إلى اسباب موقفها من علي (ع) في حديث طويل نسبه إلى شيخه يوسف بن اسماعيل اللمعاني وقد ذكرنا خلاصته من قبل .

هذا بالاضافة إلى أن السياسة الحكيمة كانت تفرض عليه هذا الموقف المتصلب من معاوية وغيره من ولاة عثمان على الامصار ، لأنه ظل حتى اللحظات الاخيرة من حياة عثمان يلح عليه بعزلهم وتولية الاكفاء من المسلمين ، وعرف منه ذلك القريب والبعيد والعدو والصديق ، فكيف ينكر عليه بقاءهم في الحكم بالأمس ويطالبه مع الثائرين باقصائهم ويندد به من أجلهم مع عامة المسلمين ، ويقر معاوية اليوم على عمله وهو اخطرهم وأسوأهم حالا ، وماذا يقول للناقمين على سياسة عثمان وقد كان إلى الأمس القريب أشد منهم نقمة عليها .

إن عليا (ع) لم يكن طالب ملك ولم تكن السلطة بنظره إلا وسيلة للحق والعدالة وانصاف المظلومين وهو يرى أن إقرار معاوية على عمله ولو يوما واحدا اقرار للباطل وتضليل للناس ومداهنة في الدين وتوسل بالباطل لبلوغ الهدف والغاية ، ومحال على أمير المؤمنين (ع) أن ينحدر إلى هذا المستوى الرخيص الشائع بين الساسة والسياسيين ، وقد اجاب اولئك المشيرين عليه بترك معاوية في مركزه بقوله : ما كنت لأتخذ المضلين عضدا .

وقال الأستاذ عبد الفتاح حول سياسة علي (ع) من أنصار عثمان وولاته : إن الناظر إلى سياسة علي (ع) حيال ولاة عثمان ليعلم مدى صوابه حين أبى إلا خلعهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله ويعلم ايضا أنه كان نافذ البصيرة مؤمنا باستجابة البلاد كلها له ، لأنه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو اولئك الولاة ، وها هو الزمن قد اثبت فراسته فجاءته الطاعة من كل اقليم . اما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها في قبضة رجل مفتون بالسلطان اقراره عليها وعدم اقراره سواء بسواء لن يسفر إلا عن تمرد لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي وقع في كف غريمه القديم .

ومضى يقول : ولعله لو أثبته الإمام في حكم الشام لوسعه أن يبدو في انظار الجماهير اقوى منه في حالة العزل ، لأنه يستطيع أن يقول للناس : أنه يأبى البيعة لمن ولاه ولا يعتبرها إلا ثمنا يشتري أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان .

وبجمل القول أن امير المؤمنين قد واجه جميع تلك المشاكل التي اعترضت خلافته بمنتهى الحكمة والسياسة الرشيدة ، وإذا لم يكتب له النجاح في خلافته فمرد ذلك يعود إلى اسباب اخرى من أهمها أنه تولى الخلافة بعد عثمان والمسلمون داخل المدينة مع أنهم اشتركوا في التذمر من سياسته وساعد بعضهم على التخلص منه ، إلا أنهم لم يجتمعوا على هدف واحد وغاية واحدة ، بل تفرقت اهدافهم وغاياتهم أشد الاختلاف ولم يكن رائدهم الحق والاخلاص لرسالة الاسلام باستثناء افراد قلائل قد غضبوا لله وللحق ولعباده المظلومين والمستضعفين ، في هذا الجو المحموم ووسط تمرد وتحد وكره شديد له من اكثر القرشيين ومن الأمويين بصورة خاصة وفي مناخ سادت فيه المصالح على جميع القيم واستعملت فيه الأموال لشراء الضمائر والأنصار .

ولم يكن أحد يتصور أن عليا (ع) يهادن أحدا على حساب الإسلام ، أو يستعمل قرشا واحدا من بيت المال في غير موضعه ، وكان من الطبيعي أن تعترضه المشاكل من هنا وهناك وهو يحاول أن يحمل الناس على كتاب الله وسنّة رسوله وتأسيس خلافة جديدة لم يعهد المسلمون نظيرا لها من قبل .

إن عليا (ع) كان يرى أن أقل ما يطلب من خليفة رسول الله أن يحمي شريعة الله من التلاعب والأرض من الفساد ويحتفظ بخيرات الأرض لا لفئة من الحاكمين ولا لفريق دون فريق ، وقد عمل على ترسيخ هذه المبادىء وتنفيذها بدون هوادة ولم ينحرف عن سيرة رسول الله (ص) كما انحرف غيره وسلك طريق الجبابرة والطغاة . لقد حاول اقصاء معاوية عن الشام فأرسل اليها سهل بن حنيف واليا مكانه ، ولما دخل حدودها اعترضته خيل لمعاوية ، ولما انبأهم بمهمته قالوا له : ارجع إلى من أرسلك ، فرجع إلى المدينة وأثار رجوعه قلق المسلمين ، وأيقنوا أن معاوية لن يتراجع وسيفتح جبهة في الشام ضد العهد الجديد ويجند لها كل الامكانيات التي تضافرت لديه خلال عشرين عاما مضت على ولايته فيها ، وكان الأمر كذلك فقد أصر على العصيان وتذرع بدم عثمان الذي ساعد على قتله هو وأسرته بسوء تصرفاتهم ، وخذله في ساعات المحنة يوم كان في أمس الحاجة إلى نجدته ، واستغل معاوية تمرد الحلف الثلاثي المؤلف

من طلحة والزبير وعائشة ، وبذل الأموال الطائلة لتأييدهم واتساع جبهتهم ، ومضى يحثهم على المعارضة ويغريهم بكل أنواع الدعم واتمام البيعة لهم بالشام ونواحيها .

وجاء في شرح النهج أن عليا (ع) كتب إلى معاوية أن الناس قتلوا عثمان بدون مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابي فبايع لي وأوفد لي أشراف الشام قبلك ، فلما قدم رسوله على معاوية وقرأ كتابه بعث رجلا من عميس ، ومعه كتاب إلى الزبير بن العوام يقول فيه : لعبد الله أمير المؤمنين ؛ الزبير بن العوام من معاوية بن أبي سفيان سلام عليك أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك اليهما ابن أبي طالب فإنه لا شيء بعد هذين المصرين وقد بايعت لطلحة من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجد والتشمير اظفركما الله وخذل مناوئكما وخصمكما ، وأضاف الراوي إلى ذلك أنه لما وصل الكتاب إلى الزبير سر به وأخبر طلحة وأطلعه عليه فلم يشكا في نصح معاوية لهما على حد تعبير الراوي .

وهنا يروي المؤرخون أن طلحة والزبير بعد أن يئسا من المشاركة في الحكم وأيقنا أنهما لن يحققا شيئا من أطماعهما في ظل الحكومة الجديدة اضمرا الخلاف واعلان الثورة ، وكانت عائشة قد اختارت الاقامة في مكة ورجعت اليها بعد أن بلغها أن مصرع عثمان قد انتهى باستيلاء علي على السلطة كما ذكرنا وانضم اليها الحاقدون من بني أمية وعبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة ، وجعلت تدعو الناس للخروج والثورة ، وكلما اجتمع عليها ملأ من الناس تقول :

أيها الناس ان هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا إلى اخوانكم من أهل البصرة فانكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ، ولعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين ثارهم .

وكان عبد الله بن عامر رجح لها الخروج إلى البصرة وزعم أن له فيها

أنصارا يستجيبون لطلبه ويتداعون لنصرته ، فاستجابت لطلبه بعد أن اتصلت بالزبير وطلحة واتفقوا جميعا على ذلك ، وأرسلت إلى نساء النبي (ص) تدعوهن إلى نصرتها والخروج معها لحرب علي بن أبي طالب ، فوافقت على طلبها حفصة بنت عمر بن الخطاب كما يروي المؤرخون ، وما أن علم أخوها عبد الله بن عمر بذلك حتى جاءها وأقنعها بالعدول عن رأيها وتلا عليها الآية :

﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

وجاء في رواية شرح النهج أن عليا لما نزل بذي قار كتبت عائشة إلى حفصة كتابا تقول فيه أن عليا قد نزل ذي قار وأقام بها مرعوبا خائفا لما بلغه من عدتنا وجماعتنا فأصبح بمنزلة الأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر نحر ، فدعت حفصة جواريها يتغنين ويضربن بالدفوف وأمرتهن أن يقلن في غنائهن :

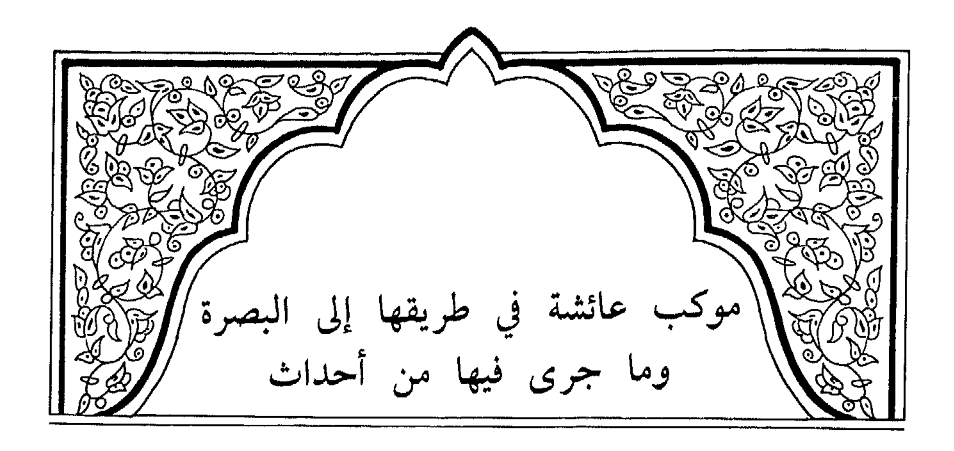
ما الخبر ما الخبر علي في السفر كالفرس الأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر نحر .

وجعلن بنات الطلقاء يدخلن على حفصة لسماع ذلك الغناء ، فبلغ أم كلثوم بنت أمير المؤمنين (ع) فلبست جلابيبها ودخلت عليهن في نسوة متنكرات ، ثم أسفرت عن وجهها ، فلما عرفتها حفصة خجلت واسترجعت ، فقالت لها أم كلثوم : لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم فلقد تظاهرتما على أخيه من قبل فأنزل الله فيكن ما أنزل ، فقالت لها حفصة : كفي رحمك الله وأمرت بكتاب عائشة فمزقته . وأما أم سلمة فقد حاولت أن تثنيها عن عزمها وناشدتها أن تعود إلى عقلها ورشدها وذكرتها بكتاب الله الذي اسقط الجهاد عن النساء وفرض على نساء النبي (ص) أن يقرن في بيوتهن وذكرتها بحديث جرى لها مع رسول الله يوم كانت تغسل له رأسه وعائشة تصب لها الماء ، فقال لهما يوم ذاك : أيتكن صاحبة الجمل الأديب تنبحها كلاب الحوأب ومضت أم سلمة تقول : فقلت له أعوذ بالله من ذلك يا رسول الله ، فضرب على كتف عائشة وقال : إياك أن تكونيها يا حميراء .

وذهب المؤرخون أنها كتبت اليها كتابا جاء فيه : من أم سلمة زوج النبي

(ص) إلى عائشة أم المؤمنين فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، أن رسول الله لو علم أن النساء يتحملن الجهاد لعهد اليك في ذلك ، أما علمت أنه قد نهاك عن التفريط بالدين فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن أنصدع ، إن جهاد النساء غض الأطراف وخم الذيول ، ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض الفلوات ناحة قعودا من بلد إلى بلد ، وغدا تردين على رسول الله ، وأقسم بالله لو قيل لي : يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت من رسول الله أن أدخلها وأنا هاتكة حجابا ضربه علي .

ولكن عائشة ظلت في طريقها ولم تستجب لنصيحتها ومضت تستعد للثورة وتجمع حولها الموتورين من بني أمية وغيرهم ممن أغراهم مروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ويعلى بن أمية بالأموال والمراكز إذا نجحوا في معركتهم مع علي بن أبي طالب .



موكب عائشة في طريقها إلى البصرة وما جرى فيها من أحداث

ويدعي المؤرخون أنها قد استدعت طلحة والزبير إلى مكة لكي ينطلقوا منها جميعاً إلى البصرة ، فجاءا إلى علي (ع) وطلبا منه أن يأذن لهما بالذهاب إلى مكة لاداء العمرة ، فقال لهما : والله ما أردتما العمرة بل اردتما الغدر ، وظلا يلحان عليه حتى أذن لهما فخرجا والتحقا بعائشة في مكة المكرمة حيث كان المناوئون لعلي (ع) قد تجمعوا بها ، ولما اتموا عدتهم وتكامل عددهم اتجهوا نحو البصرة بناء لرغبة عبد الله بن عامر وطلحة .

وقال ابن قتيبة : لما اجتمع طلحة والزبير وعائشة ومن معهم على الذهاب إلى البصرة ، أتاهم سعيد بن العاص وقال لهم : أن عبد الله بن عامر قد دعاكم إلى البصرة وقد فر منها فرار العبد الآبق وأهلها في طاعة عثمان بن عفان ، والآن يريد أن يقاتل بهم عليا وهم في طاعته وقد خرج من بينهم أميراً ويعود الأن اليهم طريدا ، وقد وعدكم الرجال والأموال ، أما الأموال فعنده ما وعدكم به وأما الرجال فلا رجل عنده .

وقال مروان بن الحكم : أيها الشيخان ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة علي بن أبي طالب ، فإن أجابوكما عارضتماه ببيعة مثل بيعته ، وإن لم يستجيبوا عرفتم ما لكما عند الناس ، فقال له طلحة : يمنعنا أن الناس بايعوا عليا بيعة عامة فبم ننقضها ، وقال الزبير: ويمنعنا مع ذلك تثاقلنا عن نصرة

عثمان وخفتنـا إلى بيعة علي بن أبي طالب ، فقال له الوليد : إن كنتما اسأتما فلقد احسنتما ، وإن كنتما اخطأتما فلقد اصبتما اليوم ، وأنتما اليوم خير منكما بالامس ، وقال مروان : اما أنا فهواي الشام وهواكما البصرة وأنا معكما وإن كانت الهلكة .

وأضاف الرواة إلى ذلك أنه لما اجتمعت كلمتهم على المسير حاولا اقناع عبد الله بن عمر بالمسير معهما وعرضا عليه الأمر ، وقالا : يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة قد خفت لهذا الأمر رجاء الاصلاح بين الناس فاذهب معنا فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بالأمر ، فقال لهما اتريدان أن تخرجاني من بيتي وتلقياني بين مخالب ابن أبي طالب .

ويضيف الرواة إلى ذلك أنهما رجعا إليه في محاولة ثانية لاقناعه بالذهاب معهما ، فقال له طلحة : يا أبا عبد الرحمن إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر الغدر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ أن عليا يرى نفاذ بيعته وأن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وانا نرى أن نردها شورى فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة .

فرد عليهما بقوله : إن كان قولكما حقاً ففضلا ضيعته وإن يكن باطلاً فشر نجوت منه واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتمـا المدينة خير لكما من البصرة والذّل خير لكما من السيف ولن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه ، وأما الشورى فقد والله كانت فقدم وأخرتما ولن يردها الا اولئك الذين حكموا فيها فاكفياني انفسكما .

ولم تأت هذه النصيحة من عبد الله بن عمر بالثمرة المرجوة ، ولا وجدت أذنا صاغية منهما ، لأن الاطماع والاهواء كانت تدفعهما دفعا إلى الطريق الذي اختاروه وجهزوا جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين ، وكتبوا إلى ثلاثة من زعماء البصرة يستجدونهم المساعدة على علي بن أبي طالب ، كعب بن المسور والأحنف بن قيس والمنذر بن ربيعة ، ولكنهما لم يجدا في أجوبة الثلاثة ما يشجعهما على المضي في طريقهما ، ومع ذلك فقد تحرك

موكب الناكثين بقيادة طلحة والزبير وعائشة باتجاه البصرة يحف به الطامعون والحاقدون الذين تستروا بالثأر لعثمان لتحقيق اطماعهم وانتزاع السلطة من أصحابها الشرعيين كما تؤكد ذلك جميع مواقفهم .

وجاء في الكامل لابن الاثير ما يشير إلى ذلك أيضاً ، فقد قال أن مروان بن الحكم وقف على طلحة والزبير وقال : على أيكما أسلم بالامرة وأؤذن للصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير : على أبي ، وقال محمد بن طلحة : على أبي ، ولما سمعت عائشة ما دار بينهما أرسلت إلى مروان وقالت له : مالك أتريد أن تفرق بينهما : ليصلي بالناس ابن اختي عبد الله فكان يصلي بهم حتى قدموا البصرة ، وقال معاد بن عبيد الله : والله لو ظفرنا وانتصرنا على علي بن أبي طالب في وجهنا هذا سنقتتل فيها بيننا لأن الزبير لا يتركها لطلحة وطلحة لا يتركها للزبير .

وقال لهما شخص ممن كان معهما : اخبراني واصدقاني ان ظفرتما لمن تجعلان الأمر قالا لا نجعله لاحدنا أينا اختاره الناس ، فقال لهما : يجب أن يكون لولد عثمان لانكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا لا ندع شيوخ المهاجرين ونسجله لايتام عثمان .

وروى الطبري في تاريخه ، وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وغيرهما أن القوم بينما هم يسيرون في طريقهم إلى البصرة وإذا بكلاب على ماء تعترض جمل عائشة وتنبحه فسألت عائشة أي ماء هذا ؟ فقالوا لها : إنه الحوأب ، فقالت إنا لله وإنا إليه راجعون إني لهيه وما أراني الا راجعة إلى المدينة ، فقالوا : ولم ذاك يا أم المؤمنين ، قالت سمعت رسول الله (ص) يقول لنسائه :

كأني باحداكن تنبحها كلاب الحوأب.

والتفت إلي وقال : إياك أن تكونيها يا حميراء ، فقال لها محمد بن طلحة : تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول فأصرت على موقفها فأحضر جماعة من الأعراب فشهدوا لها زوراً بأن هذا الماء ليس بالحوأب ، وجاءها عبد الله بن الزبير فحلف لها بأنهم قد اجتازوه من أول الليل .

كما روى ا ن قتيبة أن القوم لما نزلوا باوطاس من أرض خيبر أقبل عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة فنزل سعيد عن راحلته وأتى عائشة وقال لها : أين تريدين يا أم المؤمنين ، فقالت : أريد البصرة فقال لها : وما تصنعين بها ؟ قالت : اطلب بدم عثمان ، قال : هؤلاء قتلة عثمان معك ، والتفت إلى مروان بن الحكم وأعاد عليه نفس السؤال الذي وجهه إلى عائشة ، وقال له : إن قتلة عثمان معكم ، والله ما قتله إلا طلحة والزبير وهما يريدان الأمر لانفسهما .

والتفت المغبرة بن شعبة إلى الناس وقال : إن كنتم خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خير لكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نقمتم على علي بن أبي طالب شيئاً فبينوا ما نقمتم عليه .

ومضى يقول على حد زعم الراوي : انشدكم الله فتنتين في عام واحد فلم يسمع لهما أحد ولحق سعيد بن العاص باليمن والمغيرة بالطائف ولم يشهدا حرب الجمل وصفين مع أحد من الفريقين .

وعندي أكثر من الشك في هذه الرواية لأن المغيرة بن شعبة لم يترك فتنة إلا وكان من مثيريها أو شريكا في إثارتها كما يبدو ذلك لمن تتبع مواقفه من الأحداث التي وقعت في عصره وكان شريكا لطلحة في التحريض على عثمان وبعيد عليه أن يصارح الجيش الزاحف بهذا الاسلوب بحضور طلحة والزبير وأن يدافع عن علي (ع) بتلك الصراحة التي لا ترضي المنشقين عليه .

وقبل أن تصل عائشة ومن معها إلى البصرة أرسل عثمان بن حنيف أبا الأسود الدؤلي وعمران بن حصين وأوصاهما أن يقابلا القوم قبل دخولهم البصرة عسى أن يكف الله شرهم ، وكان أبو الأسود المتكلم الأول مع طلحة فقال له : إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا في بيعته فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلي إذ بويع فأردتم خلع علي ونحن على الأمر الأول فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ، وتكلم بعده عمران بن حصين بما يشبه ذلك ، وكان جواب طلحة لهما كما يدعي المؤرخون ، إن صاحبكم لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه ، والله ليسفكن دمه ،

فقال أبو الأسود لعمران : أن طلحة قد غضب للملك ، ثم تكلما مع الزبير فقال لهما : أن طلحة وإياي كروح واحدة في جسدين ، وأضاف إلى ذلك : لقد كان لنا مع عثمان بن عفان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لنصرناه .

ثم أتيا عائشة فقالا لها : يا أم المؤمنين ما هذا المسير أمعك من رسول الله عهد بذلك ؟ فقالت : إن عثمان قتل مظلوماً لقد غضبنا لكم من السوط والعصى أفلا نغضب لقتل عثمان ، فرد عليها أبو الأسود بقوله : وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا وأنت حبيس رسول الله أمرك أن تقري في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ، فقالت : وهل أحد يقاتلني ؟ فقال : أي والله ، لتقاتلين قتالاً أهونه الشديد . وقال لها جارية بن قدامة السعدي مرة أخرى : يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . لقد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ، وإن من رأى قتالك فقد رأى قتلك فإن كنت قد أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت مستكرهة فاستعيني بالناس إلى كثير من المواقف التي وقفها جماعة من أهل البصرة وغيرهم مع طلحة والزبير وعائشة وباءت جهودهم بالفشل ، ومضى القوم على موقفهم المتصلب حتى دخلوا البصرة فانضم إليهم جماعة منها بين طامع وحاقد وبين من التبس عليهم الأمر وغرهم موقف عائشة زوجة النبيّ وابنة الخليفة الأول .

وجاء في رواية الطبري انهم لما دخلوا البصرة جاءهم عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليها وقال لهم : ما الذي نقمتم على علي حتى خرجتم عليه تقاتلوه ، فقالوا : لأنه ليس بأولى بالخلافة منا وقد صنع ما صنع ، فقال لهم : إن الرجل امرني أن أسألكم وأكتب إليه بجوابكم ، وطلب منهم أن يصلي بالناس حتى يأتي جوابه فوافقوا على ذلك . ومضى الطبري يقول : أنهم لم يلبثوا إلا يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه وأخذوه أسيراً ولولا خوف الانصار لقتلوه ومع ذلك فقد مثلوا به ونتفوا شعر حاجبيه ولحيته وأشفار عينيه .

وقال ابن قتيبة : أن الغزاة اتفقوا مع عثمان بن حنيف وأنصاره بعد

معارك حصلت بين الطرفين وتم الاتفاق بعدها على أن لعثمان بن حنيف دار الامارة والمسجد وبيت المال وأن ينزل أصحابه حيث شاؤوا في البصرة ، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن يقيما في البصرة إلى أن يدخلها علي بن أبي طالب فإذا اجتمعت كلمتهم بعد دخوله واتفقوا كفاهم الله شر الفتنة ، وإن لم تتفق لكل فريق أن يصنع ما يريد ، وانصرف عثمان بن حنيف إلى عمله وتفرق انصاره في أعمالهم ومضت أيام قلائل عاد فيها الهدوء إلى المدينة والتزم فيها الطرفان بالاتفاق ، ولكن الغزاة قد استغلوا انصراف انصار ابن حنيف إلى أعمالهم والتزامهم ببنود الهدنة فهاجموا دار الوالي في ليلة مظلمة ممطرة فقتلوا الحرس المحيطين بالدار ومن هب لنجدتهم في سواد الليل حتى بلغ عدد القتلى أربعين رجلاً وقبضوا على الوالي فنتف مروان شعر وجهه ورأسه وتركوه أسيرا في أيديهم واستولوا على بيت المال بما فيه .

وأضاف إلى ذلك اليعقوبي في تاريخه أنه لما جاء وقت صلاة الفجر تنازع طلحة والزبير على الصلاة وجذب كل منهما الآخر من المصلى واستمر النزاع بينهما حتى كاد أن يفوت وقتها فصاح الناس الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد فتدخلت عائشة بينهما واقترحت أن يصلي بالناس محمد بن طلحة يوما وعبد الله بن الزبير يوما وانتهى الخلاف بينهما على الصلاة عند هذا الحد.

وروى المسعودي في مروجه أن الغزاة قتلوا سبعين رجلاً من انصار عثمان بن حنيف منهم خمسون رجلا قتلوا بعد الاسر جرا وجرحوا عدداً كبيراً من الناس حتى تم لهم الاستيلاء على السلطة بكاملها في المدينة .

ومهما كان الحال فالنصوص التاريخية التي تحدثت عن طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من المنشقين عن أمير المؤمنين كلها متفقة على أن موجة من السخط كانت تتحدى اولئك الغزاة وتضطرهم إلى التضليل والكذب والصاق التهم بالخليفة الشرعي لتبرير مواقفهم المعادية له وأن عثمان بن حنيف بصفته المسؤول عن الأمن والنظام وصاحب السلطة على البصرة وما يتبعها من المقاطعات كان حريصاً في جداله معهم ومواقفه منهم على أن يردهم لرشدهم

قبل أن يورطوا الأمة في صراع رهيب تراق فيه الدماء وتتلف فيه الأموال ويقطف ثماره معاوية وأمثاله من اعداء الاسلام ، ولكنهم اصروا على موقفهم وبالتالي غدروا به فأسروه وقتلوا جماعة من انصاره واستقرت السلطة في أيديهم لفترة قصيرة من الزمن ، ووجدوا من بعض الفئات تجاوباً معهم ودعماً لموقفهم كان وجود عائشة من بعض اسبابه لأنها زوجة الرسول وابنة الخليفة الراحل وللمرأة أثرها في إثارة الجماهير لا سيما إذا كانت تتمتع بمركز اجتماعي وشخصية قوية كمركز السيدة عائشة وشخصيتها .

وكان أمير المؤمنين (ع) بعد أن أحيط علما بمواقف طلحة والزبير وعائشة وبمسيرتهم إلى البصرة وإعلانهم العصيان المسلح عدل عما كان يخطط من أجله لاستدراج معاوية أو قتاله إذا بقي مصرا على موقفه فاتجه نحو البصرة بجيش ضم وجوه المهاجرين والأنصار ومن اشتركوا مع النبي (ص) في بدر وأحد والاحزاب وأكثر مواقفه مع المشركين ، ومضى يجدّ السير باتجاه البصرة وهو يأمل أن يدرك الغزاة المتمردين قبل دخولهم إليها وفي نفسه بقية من الأمل أن يتراجعوا عن غيهم وينضموا إلى جماعة المسلمين واستقبله عامله ابن حنيف وقد مثل به القوم كما ذكرنا فكظم غيظه وواصل مسيرته حتى إذا أصبح قريباً منها توقف عن المسير وأرسل رسله إلى القوم يحذرهم من عواقب هذا التمرد ومن الفتنة التي لو استمرت قد تمتد إلى أقطار الدولة كلها فرفضوا الانصياع لنصائحه وأصروا على موقفهم ، وخلال تلك المدة التي كان يحاور فيها المتمردين أرسل رسله إلى الكوفة ليستعين بها على تلك الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، وبعد جدال عنيف وحوار طويل بين الوالي عليها أبي موسى الاشعري وحاشيته من جهة وبين الحسن بن علي والاشتر وجماعة من أهل الكوفة من جهة ثانية تطوع عدد كبير من أهل الكوفة لمساعدة الإمام (ع) على المتمردين وانضموا إلى الجيش الزاحف معه من المدينة . ولما يئس من تراجع القوم وأيقن أنهم مصممون على المضي في طريقهم مهما كانت التكاليف والنتائج زحف بمن معه من المسلمين إلى البصرة .

وهنا يصف المسعودي في مروجه جيش علي (ع) وتنظيمه الدقيق وهو يتدفق كالسيل نحو البصرة في رواية اسندها إلى المنذر بن الجارود جاء فيها أن

عليا لما قدم البصرة دخلها مما يلي الطف وأتى الزاوية فخرجت أنظر إليه فورد موكب من نحو الف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفاً معه راية وتيجان يغلب عليها البياض والصفرة مدججين بالحديد والسلاح ، فقلت من هذا ؟ فقيل لي إنه أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله (ص) وهؤلاء الانصار وغيرهم ، ثم تلاه فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس ، فقلت من هذا ؟ فقيل هذا خزيمة بن ثابت الانصاري ذو الشهادتين، ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء ، وعليه قباء أبيض مصقول متقلد سيفا متنكب قوسا في نحو ألف فارس فقلت من هذا فقيل لي أبو قتادة بن ربعي ، ثم مر بنا فارس على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن ومعه راية بيضاء وألف من الناس مختلفو التيجان حوله مشيخة وكهول وشبان كانوا قد وقفوا للحساب قد أثر السجود في جباههم ، فقيل لي هذا عمار بن ياسر في عدة من المهاجرين والأنصار وأتباعهم ، ومر بنا فارس آخر على فرس أشقر تخط رجلاه في الأرض في ألف من الناس فقيل لي : هذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان . ومضى الراوي يصف المواكب التي مرت به وفرسانها حتى انتهى إلى الموكب الذي فيه أمير المؤمنين (ع) فقال ومر بنا موكب فيه خلق كثير من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات يتقدمهم رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق كأنما على رؤوسهم الطير وفي ميسرتهم شاب حسن الوجه فقيل لي هذا علي ابن أبي طالب ، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى والذي خلفه عبد الله بن جعفر وولد عقيل وفتيان بني هاشم ، والشيوخ الذين معه أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية فصلى أربع ركعات ثم عفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ، ورفع يديه وقال :

اللهم رب السموات وما أظلت والأرض وما أقلت ورب العرش العظيم ، هذه البصرة اسألك من خيرها وأعوذ بك من شرها ، اللهم انزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين ، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا علي ونكثوا بيعتي ، اللهم أحقن دماء المسلمين .

ثم بعث إليهم من أصحابه من يناشدهم الله في الدماء والأموال فلم يستجيبوا له وأصروا على القتال ، ولكن عليا (ع) ظل يحافظ على السلم ويؤكد على أصحابه أن يلتزموا الهدوء والصبر ولا يباشروا القتال إيثارا للعافية واتمام الحجة وأملاً منه في اجتماع الكلمة ، هذا وعائشة تحرض الناس عليه وهي على جمل يحف بها انصارها وتقول : أيها الناس لقد غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف ، إلا أن خليفتكم قتل مظلوماً لقد انكرنا عليه أشياء وعاتبناه بها فأعتب وتاب إلى الله وما يطلب من المسلم إن أخطأ أكثر من أن يتوب إلى ربه ويعتب الناس ، ولكن اعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا الحرمات الثلاث : حرمة الدم والشهر الحرام والبلد الحرام .

ولما يئس أمير المؤمنين من التوصل إلى السلم بالمناظرة والحجة أمر أحد رجاله أن يخرج بين الصفين وبيده مصحف يدعوهم إلى الرجوع إليه ، وقد أخبره بأن الناكثين قد يرمونه بالنبل وهو يدعوهم إلى الرجوع لحكم الكتاب ، فلم يتردد الفتى ومضى بيده المصحف حتى إذا كان بين الصفين رفعه بكلتا يديه ووقف باتجاه عائشة وجندها ودعاهم إلى الرجوع إلى حكمه ، فكان جوابهم أن رموه بسهامهم من كل جانب حتى وقع قتيلاً فحملوه إلى أمير المؤمنين فاسترجع وترحم عليه ، وأمر أصحابه أن يدنوا من القوم فزحفوا نحوهم ، يتقدمهم عمار بن ياسر ووجوه المهاجرين والأنصار ، فتوجه عمار بن ياسر اليهم وقال : أيها الناس ما انصفتم نبيكم حيث ختم عقائلكم في خدورها وأبرزتم عقيلته للسيوف فرشقوه بالنبال فأصابت نبالهم أخا لعبد الله بن بديل فقتل بها فحمله أخوه إلى أمير المؤمنين، كما أصيب آخر فقتل أيضاً واحتدمت المعركة بين الفريقين وبلغت أشدها وبقي شيء في نفس أمير المؤمنين أراد أن يذكرهم به عساهم يعودون عن غيهم وضلالهم ، فخرج بين الصفين واستدعى طلحة

والزبير فخرجا إليه وتواقفا ثلاثتهم بين المعركتين ، فقال لهم : الم تبايعاني ، قالا بايعناك كارهين ولست أحق بهذا الأمر منا ، ثم التفت إلى طلحة وقال له : احرزت عرسك وخرجت بعرس رسول الله تعرضها لما تتعرض له ، وقال للزبير : كنا نعدك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وبينك . ومضى يقول : أتذكر يوم قال لك رسوله ستقاتله وأنت ظالم له ، فقال الزبير : الآن ذكرت ذلك ، ولو ذكرته قبل اليوم ما خرجت عليك .

وهنا تختلف الروايات في موقف الزبير بعد هذا الاجتماع وهذا الحوار ، فبعضها ينص على أن الزبير قد اعتزل القتال من ساعته ومضى حتى انتهى إلى المكان الذي قتل فيه ، والبعض الآخر يذهب إلى أن ابنه عبد الله رأى منه فتورا بعد اجتماعه إلى علي (ع) فعيره بالجبن ، وقال له : رأيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أن تحتها الموت فجبنت عن القتال وما زال به حتى أغضبه وأحرجه ، فقال له : ويلك ، إني حلفت أن لا اقاتله ، فقال له ولده : وما أكثر ما يكفر الناس عن إيمانهم فاعتق غلامك وامض لجهاد عدوك ، وكان الأمر كما أشار عليه ولده فكفر عن يمينه ومضى يقاتل ويشد على عسكر علي (ع) والناس معه وظل على موقفه وصلابته مع المقاتلين حتى سقط الجمل وانهزم جيشهم فانهزم مع المنهزمين فأدركه بن حرموز وقتله على حين غفلة منه .

وهذه الرواية أقرب إلى الصحة من الرواية الأولى ، ذلك لأن الزبير ما كان ليغفل عن حديث رسول الله (ص) وهو يعلم بأنه ظالم لعلي في كل تحركاته ، وقد استحل دماء المسلمين في البصرة هو وزميله طلحة قبل دخول أمير المؤمنين إليها ، وهما يعلمان بأن ذلك لا يحل لهما ، ولكن شهوة الحكم قد طغت عليهما فاستباحا كل شيء في سبيله ، وما كانت تلك الكلمة التي قالها رسول الله (ص) قبل خمسة وعشرين عاما لترده عن غيه وضلاله ما دامت تلك الألوف المحتشدة من حوله بحماسها واندفاعها تمنيه الانتصار على علي بن أبي طالب . وما دام معاوية يسميه أمير المؤمنين ويكتب إليه من الشام ، من معاوية بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين الزبير بن العوام .

وأما طلحة فقد أصيب في المعركة وتحامل على نفسه ولما فر انصاره وجد

مروان بن الحكم جوا مهيئاً لأن يثأر منه لعثمان فرماه بسهم أصاب عرقا في اكحله فقطعه فنزف دمه ومات منه.

وجاء في بعض المرويات أن عبد الملك بن مروان كان يقول : لولا أن أبي أخبرني بأنه قد قتل طلحة ما تركت تيميا الا قتلته بعثمان .

ومجمل القول أن الفريقين في تلك المعركة قد اقتتلا قتالاً ضارياً لم يشهد تاريخ البصرة قتالاً أشد ضراوة منه واستمر حتى أصبح اصحاب أمير المؤمنين على أبواب النصر وعائشة في هودجها تحرض الناس على القتال وتتحدث مع من هم على يمينها وشمالها ومن تزاحموا على حطام الجمل بكلمات تلهب مشاعرهم بالحماس ، ثم تعود فتخرج يدها من الهودج تحمل بها بدرة من الدنانير وتصيح بأعلى صوتها : من يأتيني برأس الأصلع وله هذه البدرة ، وأصحابها يندفعون على الموت وهم يرتجزون :

يا أمنا عائش لا تراعي كل بنيك بطل المصاع

وأصحاب أمير المؤمنين يحملون على أولئك الذين استماتوا حولها وراجزهم يقول :

يا امنا اعف ام نعلم والام تغذو ولدها وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم وتختلي منه يد ومعصم

واستمر الحال لفترة من الزمن لا يرى فيها الناس إلا أيدي تتناثر وأرجل تقطع وأجساد تتهاوى هنا وهناك وأولئك وهؤلاء يتسابقون إلى الموت وكان لا يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل من دونه ، ولما رأى علي (ع) هذا الموقف الرهيب راعه ما رأى وعلم أن المعركة لن تنتهي ما دام الجمل واقفا على قوائمه فصاح بأصحابه : اعقروا الجمل فإن في بقائه فناء العرب ، فأمر ولده محمد بن الحنفية أن يحمل بمن معه على تلك الجموع المحتشدة حول جمل عائشة وكانت الراية بيده فابطأ ابن الحنفية ليتقي سهام القوم ونبالهم التي اتجهت نحوه كالعواصف من كل جانب ، فأتاه علي (ع) وقال له : هل حملت على القوم ؟ فقال : لا أجد يا أمير المؤمنين متقدما إلا على سهم أو سنان وأني منتظرْ نفاد

سهامهم ، فحمل بمن معه نحوهم ثم توقف ، فأتاه أمير المؤمنين وضربه بقائم سيفه وقال له : لقد أخذك عرق من أمك كما جاء في رواية المسعودي وأخذ الراية منه وتقدم بها فحمل الناس معه ، فكان القوم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وتناوب بنو ضبة على خطام الجمل حتى قتل منهم جماعة ، فأمرهم بأن يعقروا الجمل ، فلما عقروه هوى إلى الأرض وله ضجيج لم يسمع الناس بمثله على حد تعبير الراوي ، فتفرق من كان حوله كالجراد المنتشر وبقيت صاحبة الهودج وحدها في ميدان المعركة ، فقال لأخيها محمد بن أبي بكر أدرك أختك حتى لا تصاب بأذى ، فأقبل يشتد نحوها وأدخل يده في هودجها وقال لها : أنا أخوك أقرب الناس منك وأبغضهم إليك ، يقول لك أمير المؤمنين : هل أصابك شيء ؟ فلم تتكلم ، ثم جاءها أمير المؤمنين فوقف على هودجها وضربه بقضيب كان في يده ، وقال : يا حميراء ، ألم يأمرك رسول الله أن تقري في بيتك ، والله ما انصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك ، وأمر أخاها فأنزلها في دار صفية بنت الحرث بن أبي طلحة العبدي .

وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين وسقوط طلحة والزبير قتيلين مع آلاف القتلى من الطرفين وحاول بعض أنصاره قتل عائشة فأنكر عليهم ووضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يتعرض لها أحد بسوء ، وأمر من ينادي في أصحابه : لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا هاربا ولا تطعنوا مدبرا ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

ووقف بين قتلاه وقتلى المتمردين عليه في حالة من القلق والتمزق ، وبين خصومه وأنصاره رجال من الذين ابلوا بلاء حسنا في الإسلام ، لقد حزن من أجل هؤلاء الذين قتلهم وأولئك الذين قاتل بهم ، ومن أجل الرسالة السامية التي تتعرض للفتنة في بداية عهد جديد تمنى فيه أن يتفرغ لأهدافه التي كان يطالب بالخلافة من أجلها .

لقد حزن من أجل هذا العمى الذي أصاب فريقا من المسلمين الذين قادتهم المطامع والأهواء إلى هذا المصير السيء الذي لم يكن يتمناه لهم ولا لأحد من المسلمين ، وحزن من أجل نفسه وقد وقفت قريش له بالمرصاد كما وقفت

لابن عمه من قبل وقد كتب عليه أن يقاتلها على تطبيق الرسالة كما قاتلها هو وابن عمه رسول الله على تنزيلها .

وكان يتمنى أن يقاتل بهم أعداء الإسلام لتبقى الرسالة وتتجه في طريقها الصحيح وعاد يتأمل القتلى من الجانبين وقلبه يتصدع لهذا المشهد الذي وجد فيه رفاقه في الجهاد مع رسول الله صرعى أطماعهم وأهوائهم ، وجعل يترحم على هؤلاء ثم صلى عليهم وأذن لذوي القتلى بدفن قتلاهم ، ولم يفسح المجال لأحد ممن وترهم طلحة والزبير بأولادهم واخوانهم وعشائرهم أن يأخذوا من أموال المنهزمين إلا ما وجدوه في المعركة من أسلحة وأمتعة كانوا يحاربون بها ، وأمرهم برد بقية الأموال لأصحابها ، وقال : ليس في هذه الحرب مغنم لمنتصر ، وأرسل من ينادي في البصرة من عرف شيئا له فليأخذه .

وجاء في بعض المرويات أن جماعة من أصحابه أرادوا الاستيلاء على جميع متروكات المتمردين وألحوا عليه أن يسمح لهم بذلك ، كما اعتادوه في حروبهم ومعاركهم فأجابهم بأن بين الأسرى أمكم عائشة فمن يأخذها في سهمه .

وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح فالمتيقن أنه عفا عن الجميع ولم يسمح لأحد أن يأخذ من أموال المتمردين شيئا ، وبلا شك لو أن الغلبة كانت لعائشة وجيشها لمثلوا بجثث القتلى من أنصاره وأباحوا لجيشهم جميع أموال المنهزمين وحتى نسائهم وأولادهم ولم يتركوا وسيلة من وسائل الارهاب والعنف والانتقام إلا ارتكبوها .

إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في جميع معاركه التي خاضها مع اخصامه الذين انشقوا عليه لم يحاربهم ليصنع انتصار جيش على جيش بالسلاح والعتاد كما كان يصنع اخصامه ، بل كان يحارب ليصنع جيشا من المسلمين يستعين به على احقاق الحق وعلى الظلم والظالمين والطغاة المستبدين وتركيز المبادىء الإسلامية في النفوس لتصبح وكأنها غريزة أو فطرة ، ولذلك لما دخل البصرة لم يترك وسيلة من الوسائل إلا واستعملها مع المتمردين رغبة في الصلح والسلام وجمع الكلمة ، ولما يئس منهم وانتهت المعركة التي فرضت عليه بهزيمتهم

بكى وتصدع قلبه ، ولم يدخل البصرة بعد انتهاء المعركة بزهو الفاتح المنتصر على اخصامه لأنه لم يحقق الأهداف التي كان ينشدها ويحارب من أجلها .

ويرى بعض الكتّاب القدامى والمحدثين أن الأمر كاد يلتئم قبل المعركة واتفق الطرفان على الصلح بواسطة القعقاع بن عمرو أحد الصحابة ، ولكن الذين تولوا أمر الثورة على عثمان وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ أحد اليهود الذين دخلوا في الإسلام للتخريب والفساد وكانوا إلى جانب علي في البصرة وحين أحسوا أن أمر الناس صائر إلى الصلح أشفقوا أن يكونوا الثمن لهذا الصلح ، فاتفقوا فيما بينهم على أنه إذا التقى الجمعان للمصالحة أن ينشبوا القتال ويفوتوا على الطرفين الفرصة .

ويمضي الدكتور محمد النجار إلى أبعد من ذلك فيحمل أمير المؤمنين عليا جزءا من تبعة هذه المعركة التي تركت على رمال البصرة وراءها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى لأنه استعان على حد زعم الكاتب بتلك الفرقة السبئية وتركها تأوي إلى جنده وتعبث به حسب أهوائها وأهدافها[1].

ولكن المتتبع لتلك الأحداث يخرج وهو على ثقة بأن هذا الرأي بعيد عن الواقع ذلك لأن المطالبين بدم عثمان في هذه المعركة كانوا من أشد الناس عليه وقد حركتهم الأطماع والأهواء على التحريض على قتله كما حركتهم لحرب أمير المؤمنين (ع) والاستعانة بأهل البصرة ، ومع ذلك فكيف يرضون بالصلح ويعودون إلى صفوف المسلمين والبصرة في قبضتهم صفر اليدين من كل أمانيهم وأطماعهم ، وقد حاول علي (ع) بكل الوسائل معهم أن يعودوا إلى رشدهم حقنا للدماء فلم يفلح في ذلك ، ومن الجائز أن يكون القعقاع بن عمرو قد سعى مع الساعين إلى الصلح ، ولكن المصادر الموثوقة لا تؤيد نجاحه في هذا المسعى ، والذين يحملون أمير المؤمنين جزءا من تبعة تلك المعركة ويزعمون بأنه قد استعان بالسبئية القتلة وتركهم يأوون إلى جنده ، هؤلاء يروون في الوقت

---

(١) في كتاب علي بن أبي طالب نظرة عصرية ص ٩٢ .

ذاته أن قتلة عثمان كانوا من الامصار الثلاثة ، وأن الثائرين من هذه الامصار لم يتحركوا من بلادهم إلا بعد أن استشرى الفساد في جسم الدولة من تصرفات الأمويين ، ولم يكن قتله واردا إلا كسلاح أخير عندما تفشل جميع المحاولات ويضطرهم الموقف إلى ذلك .

أما اسطورة ابن سبأ والسبئية فقد وضعها اخصام الشيعة بعد معركة البصرة بمائة عام تقريباً وانطلقوا منها إلى أمور ألصقوها بالتاريخ كما أكدت ذلك الدراسات الحديثة .

ولو افترضنا وجود شخص من هذا النوع بين أنصار علي (ع) فهل كان أمير المؤمنين وأصحابه مع رغبتهم الأكيدة في الصلح والتفاهم من الغفلة إلى حد تنطلق الخيانة من معسكرهم ويدبرها عبد الله بن سبأ وهم غافلون عن كل ما يجري حولهم ، وهذا ما لا يستسيغه إلا مرضى القلوب والنفوس الذين أرادوا للتاريخ أن يكون كما يريدون .

ومهما كان الحال فقد انتهت معركة البصرة بقتل اثنين من قادتها الناكثين وانتهى كل شيء بعد الهزيمة التي منيت بها عائشة وجندها المخدوع ولاذ الباقون على قيد الحياة من مدبري الفتنة بالفرار وأخذت الحياة الطبيعية تعود إلى المدينة تدريجا ، ورجع الناس إلى أمير المؤمنين يجددون له ولاءهم وبيعتهم وبايعه من لم يكن قد بايعه من أهلها بالأمس ، ولم يكن لدى أمير المؤمنين ما هو أولى بالعناية من ارجاع عائشة إلى بيتها في المدينة ، فأرسل إليها عبد الله بن العباس كما يروي صاحب العقد الفريد وغيره ، وقال له ائت هذه المرأة لترجع لبيتها الذي أمرها الله أن تقر فيه ، فجاءها ابن عباس واستأذن عليها فأبت أن تأذن له ، فدخل عليها بلا إذن منها ومد يده إلى وسادة وجلس عليها ، فقالت له : لقد أخطأت السنّة مرتين ، دخلت بيتي بدون إذني وجلست على متاعي بدون أمري ، فقال لها : نحن علمناك السنة يا عائشة ، والله ما هو بيتك الذي أمرك الله أن تقري فيه ، إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترحلي إلى بلدك الذي خرجت منه .

ولم تشأ أن تخفي حقدها على أمير المؤمنين (ع) حتى وهي أسيرة في يديه ، وبالرغم من اعزازها وتكريمها فردت عليه بقولها : رحم الله أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب ، فقال ابن عباس : نعم وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أيضا ، قالت : أبيت أبيت ، قال : ما كان إباؤك إلا فواق ناقة بكية ثم حرت لا تحلين ولا تمرين ولا تأمرين ولا تنهين ، قال ابن عباس : فبكت حتى علا نحيبها ، ثم قالت : نعم ارجع ، فإن أبغض البلدان إلي بلد أنتم فيه ، فقال لها ابن عباس : والله ما كان ذلك جزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أما وجعلنا أباك لهم صديقا ، فقالت : اتمن علي يا ابن عباس برسول الله (ص)، فقال لها : نعم نمن عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا .

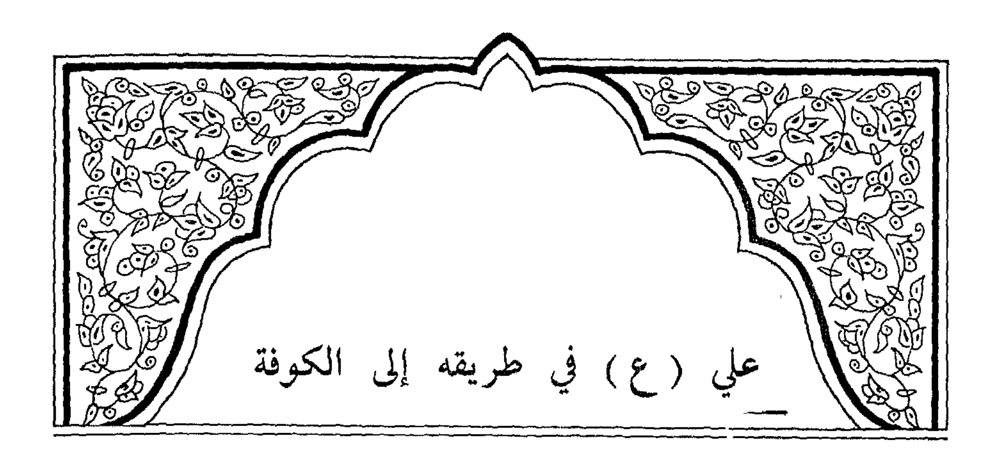
ولما رجع ابن عباس إلى أمير المؤمنين وأخبره بما كان من عائشة معه وما أجابها به قبله وقال : بأبي أنت ذرية بعضها من بعض ، ثم جهزها وبعث معها نساء ورجالا لحراستها وخدمتها حتى دخلت المدينة .

أما الرواية الشائعة بين المؤرخين والتي تنص على أنه قد أرسل معها أربعين امرأة من بني عبد القيس وأمرهن أن يلبسن زي الرجال ويلبين أمرها وخدمتها ولا يخبرنها بحالهن إلى أن تصل المدينة ، ويضيف الرواة لهذه الرواية أنها كانت كلما نزلت منزلا في الطريق تسيء القول في علي (ع) وتقول هتك ستري ونحو ذلك ، ولم تعلم بحالهن حتى دخلت المدينة فغيرن زيهن ودخلن عليها فندمت على ما كان منها في أمير المؤمنين في طريقها ، هذه الرواية مع أنها تكاد تكون متفقا عليها ، لا أساس لها من الصحة ، ومن غير المعقول أن يرسل معها هذا العدد الكبير من النساء ويخفي حالهن عليها مع تلك المسافة الطويلة بين البصرة والمدينة في حين أنها لم تكن غبية إلى حد أنها لا تفرق بين الرجال والنساء مع العلم بأن بين الجنسين فوارق لا تخفى على أغبى الناس في رحلة طويلة مهما حاول أولئك النسوة أن يكتمن أمرهن عن الناس .

هذا بالاضافة إلى أن عملا من هذا النوع لا يخدم الإسلام ولا أحدا من الناس لا يقدم عليه أمير المؤمنين (ع).

والشيء المعقول بعد تلك المعركة وملابساتها أنه لا بد وأن يرسل معها بعض النسوة لخدمتها وعددا من الرجال لحراستها مخافة أن يقدم أحد على قتلها أو الاساءة إليها بعد أن تسببت بتلك المجزرة التي لم يعرف تاريخ المسلمين أسوأ منها . ويروي الرواة أنها بعد أن استقرت بالمدينة وجاءها الناس للسلام عليها كانت تبكي حتى تبل خمارها وتقول ليتني مت قبل اليوم وأحيانا تقول : ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين عاما .

وبلا شك فإن بكاءها ونحيبها لم بكونا بدافع التوبة والرجوع إلى الله من تلك المواقف المشينة في تاريخ المرأة العربية والإسلام ، بل لأنها فشلت في معركتها وفقدت قادة جيشها ولم تحقق غير الخزي والعار ، وخرج منها علي (ع) منتصرا وأقوى مما كان علمه قبل خروجها إلى البصرة وهذا ما لا تطيقه السيدة عائشة غفر الله لها .



علي (ع) في طريقه إلى الكوفة

لم أجد في ما بين المصادر ما يشير إلى أن أمير المؤمنين كان يفكر في ترك المدينة حين خروجه منها إلى البصرة وأنه كان يعزم على أن يتخذ الكوفة وغيرها من الامصار مقرا لحكومته بدلا من المدينة ، ولا أظن أن ذلك كان في حسابه أو حساب أحد من الناس ، ولكن التطورات التي حدثت بعد المعركة فرضت عليه ذلك ، فبعد أن تفرق المتمردون وأرجع السيدة عائشة إلى بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تقر فيه وجدد الناس بيعتهم له في البصرة واستتب فيها الأمن ، ولاها ابن عمه عبد الله بن العباس وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة على أبعد التقديرات متجها نحو الكوفة ليتخذها مقرا له ، وهنا يختلف المؤرخون في الدوافع التي فرضت عليه ذلك ، فبعضهم يرى أن الاشتر النخعي وغيره من زعماء الكوفة أرادوه على ذلك وألحوا عليه فنزل عند رغبتهم ، ويرى آخرون بأن الثائرين الذين يسميهم الطبري وبعض المؤرخين بالسبئية تعجلوا الخروج من البصرة إلى الكوفة فاضطروه أن يلحق بهم مخافة أن يفسدوا فيها ويخلقوا له فتنة كالتي كانت في البصرة .

وجاء في بعض المرويات أن عليا (ع) لما ولى أبناء عمه العباس الامصار الثلاثة وجعل على البصرة عبد الله وعلى اليمن عبيد الله ، وعلى الحجاز قثم بن العباس أنكر عليه مالك بن الاشتر ذلك وقال له : علام قتلنا الشيخ بالأمس وارتحل مسرعا إلى الكوفة وفي نفسه شيء من هذا التصرف ، فاضطر أمير

المؤمنين إلى أن يتخذها مقرا له مخافة أن يقوم ابن الاشتر أو غيره بما يسيء إلى الأمن والنظام الجديد إلى غير ذلك مما قيل في أسباب هجرته إلى الكوفة ، والظاهر أن ذلك كله لا يمت إلى الواقع بصلة من الصلات ذلك لأن اسطورة السبئية على تقديرها قد انتهت مهمتها في البصرة وحققوا أهدافهم كما يزعم بعض الكتاب ، ولا مصلحة لهم في إيجاد فتنة في الكوفة بعد ما صارت الأمور في البصرة إلى ما يريدون كما يزعم بعض المؤرخين ، ولم يكن ابن سبأ بعيدا عن علي (ع) كما يدعون ليشاغب عليه في الكوفة .

وأما حديث غضب مالك بن الاشتر من تولية أولاد العباس بن عبد المطلب فهو من صنع الرواة أيضا لأن مالك الاشتر أرفع شأنا من أن يكون من دعاة الفتنة أو ممن يشاغبون على أمير المؤمنين ، وقد صح عنه أنه قال : كان لي مالك كما كنت لرسول الله ، وهو يعرف مكانتهم في الإسلام وإخلاصهم للنظام الجديد وحرصهم على أن تسير الأمور حسب التخطيط الذي يريده الامام (ع).

وعندما نلاحظ الظروف الحرجة والأحداث القاسية التي واجهت خلافة علي (ع) يمكن أن نستخلص منها السبب الذي دعاه إلى ترك المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية واختيار الكوفة بديلا لها ، لأنه قبل العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي كان يعد العدة لإرسال جيش قوي إلى الشام يتولى قيادته بنفسه لاقصاء معاوية عنها ، ولما تمرد عليه طلحة والزبير واجتمع إليهما الطامعون والموتورون من الأمويين وغيرهم وخرجوا من الحجاز يريدون البصرة ومعهم زوجة النبي عائشة أدرك أن تغاضيه عنهم يشكل خطرا على الأمة لا يقل عن خطر معاوية فأرجأ أمر معاوية ريثما يسوي حسابه معهم ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها ، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعدادا كاملا ، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز فرصة لانجاح خطته فانقاد إليه أهل الشام وأظهروا غضبهم لعثمان وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ التدابير الكافية لكل الاحتمالات ، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل إلى زعمائها وقادة

الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد إليه جماعة منهم ، كل ذلك لم يغب عن علي (ع) وقد وضعه في حسابه فآثر أن يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة نظرا لمركزها العسكري وقربها من الحدود التي تفصل بين البلدين .

ويرى جماعة من المؤرخين أن عليا (ع) دخل الكوفة في أواخر رجب من سنة ست وثلاثين للهجرة فاستقبله أهلها بحفاوة بالغة ، وخلال الأشهر الباقية من تلك السنة كان يستعد لحرب معاوية ووجد حماسا وتجاوبا من أهل الكوفة يبعث على الأمل والاطمئنان ، فالذين اشتركوا معه في حرب الناكثين يريدون أن يضيفوا نصرا إلى نصر ، والذين تخلفوا عنه يريدون أن يعوضوا عن تخاذلهم عنه في معركته مع الناكثين في البصرة ، وكلهم كانوا يلحون عليه ليغزو أهل الشام قبل أن يتحرك معاوية لغزوهم ، ومع ما وجده عندهم من الحماس والاستعداد الكامل فقد أبى أن يتحرك من الكوفة قبل أن يعيد الكرة على معاوية ويرسل السفراء والكتب يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون اتماما للحجة ولكي يكون من معه على بينة من الأمر ، فلم يستجب لطلبه وأظهر الشدة والصلابة والصلف في رسائله ، وجاء في بعضها : لقد عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وابطائك عن الخلفاء وفي كل ذلك تقاد كما يقاد الفحل المحشوش ، ولم تكن لأحد منهم أشد حسدا منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله فقطعت رحمه وقبحت حسنه وأظهرت له العداوة وأبطنت له الغش وألبت الناس عليه حتى ضربت الاباط إليه من كل مكان ، وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نقتلهم به . وكانت أكثر رسائله لا تتعدى هذا الأسلوب الجاف المليء بالتحدي والصلف والاستخفاف والاستفزاز .

وما كان معاوية ليجرؤ على موقفه هذا ويخاطب أمير المؤمنين بهذا الأسلوب لولا حركة التمرد التي قام بها المتمردون في البصرة ولولا أنه وجد بين زعماء العراق من يستجيبون له ويعملون في الخفاء لصالحه .

وكان لا بد لأمير المؤمنين (ع) أن يرد على رسائل معاوية وتفنيد مزاعمه وأكاذيبه ولكن بالأسلوب الذي يتناسب مع خلقه الكريم ومثاليته التي ظهرت في

كل أقواله وأفعاله .

فقد جاء في جوابه على رسائل معاوية التي اتهمه فيها بالحسد والبغي على الخلفاء والاشتراك بدم عثمان ، وزعمت أني للخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت ، فإن كان ذلك كذلك فليست الخيانة عليك ليكون العذر لك ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، وقلت أني كنت أقاد كما يقاد الفحل المحشوش حتى أبايع ، فلعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه ولا مرتابا في يقينه ، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها ولكن أطلقت لك منها بقدر ما سنح لي ذكرها ، وأما ما كان من أمري وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه فأينا كان اعدى له وأهدى إلى مقاتله ، أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ، وما كنت لاعتذر من أني كنت انقم عليه احداثا ، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له وقد يستفيد الظنة المتنصح ، وما أردت إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .

وكان معاوية قد قال له في بعض رسائله مهددا ومتوعدا : ليس لك ولأصحابك إلا السيف ، فرد عليه أمير المؤمنين (ع) في رسالة ثانية بقوله : وأما ما ذكرت من أنه ليس لي ولأصحابي إلا السيف ، فلقد أضحك بعد استعبار ، متى ألفيت بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين ، فالبث قليلا يلحق الهيجا حمل وسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد ، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان شديد زمامهم ساطع قتامهم متسربلين سربال الموت أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها بأخيك وخالك وجدك وأهلك وما هي من الظالمين ببعيد .

ويدعي المؤرخون أن الرسائل توالت بين الامام علي ومعاوية بن هند ، هذا ومعاوية يحاول في رسائله تضليل الرأي العام فيكثر من ذكر عثمان وقتلته ، ويطلب اعتزال الامام وإعادة الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم ونحو

ذلك من المكر والخداع والمغالطات .

في حين أنه إذا كان غضبه لعثمان كما يدعي فعليه أن يبايع أولا ثم يحاكم القتلة إلى الخليفة الشرعي إذا فوضه أولياء الدم بذلك وبدون ذلك فليس له أي صفة تخوله المطالبة بدم عثمان حتى ولو كان قد قتل مظلوما ، كما جاء ذلك في بعض أجوبة الامام إليه .

إن أطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد ، ولم يكن الجيش الذي أعده وهيأه إلا ليحارب من يتولى الخلافة كائنا من كان ، ولو قدر لطلحة والزبير أن يربحا معركة البصرة ويتولى أحدهما الأمر لوقف منه نفس الموقف الذي وقفه من علي (ع)، وفي الوقت ذاته كان يأتي إلى علي (ع) يستنهضه عليهم لاثارة الفتنة كما جاء أبوه إلى أمير المؤمنين يوم بايع الناس أبا بكر . لقد كان يضلل الناس بدعوته إلى إعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان وبلا شك فإن الشورى التي يدعو إليها معاوية لا تعود إلى المهاجرين والأنصار من أهل الحجاز والعراق عنده لأن الأمر قد خرج من أيديهم على حد زعمه كما يبدو ذلك من بعض رسائله إلى أمير المؤمنين حيث جاء فيها وقد أبى الناس إلا قتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام .

فأهل الشام وحدهم إذن يختارون الخليفة لأنهم الحكام على الناس كما يزعم ابن أبي سفيان وبلا شك عندما يكون الاختيار لهم وحدهم لن يختاروا غير معاوية لا سيما وقد حشد حوله جميع الحاقدين والطامعين كبني أمية وعمرو بن العاص بعد أن وعده بولاية مصر يتصرف بخيراتها كما يشاء إذا تمكن من الاستيلاء على السلطة ودفع له ثمنها دينه بكامله في حين أن كلا منهما كان يسيء الظن بالآخر ويحقد عليه كما كان يظهر من مجالسهما أحيانا .

فقد جاء في الآداب السلطانية لابن الطقطقي أن معاوية قال يوما لبعض جلسائه : ما أعجب الأشياء فأدلى كل من الجالسين برأيه وكان معهم عمرو بن

العاص، فقال أعجب الأشياء أن يغلب المحق المبطل معرضا بالصراع الذي دار بين علي ومعاوية ، ففهم قصده معاوية وأدرك أنه يعنيه وحده بذلك ، فرد عليه بقوله : أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق لا سيما إذا كان ممن لا يخاف منه .

وله موقف آخر يدل على أنه لم يكن يرى معاوية على شيء وأنه لم يتردد في حق علي وفضله لحظة واحدة من الزمن ولكن المصلحة كانت عنده فوق كل شيء .

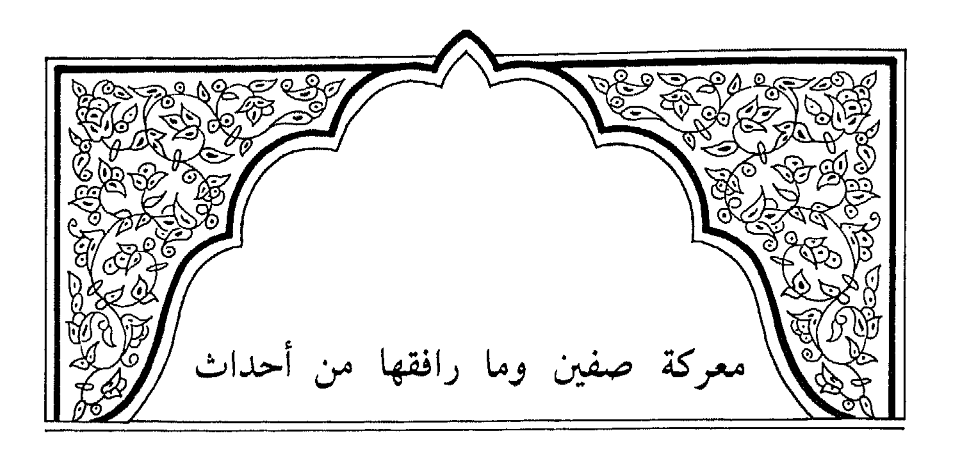
فقد روى المؤرخون أن معاوية لما استولى على مصر أخذ يماطل ابن العاص في الوفاء بما عاهده عليه فبعث إليه ابن العاص بقصيدة يقول فيها :

معاوية الفضل لا تنس لي	وعن منهج الحق لا تعدل
نصرناك من جهلنا يا ابن هند	على السيد الأعظم الأفضل
وما كان بينكما نسبة	فأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى	وأين معاوية من علي

هذه الفلتات التي كانت تظهر منهما بين الحين والآخر تؤكد أن الطرفين لم تجمعهما المودة ولا مصلحة الأمة ، بل جمعتهما الاطماع والمنافع ، ولذا فإنهما على استعداد لأن يتوسلا بكل شيء لتحقيق الهدف الذي كان يشد كلا منهما إلى الآخر ، في حين أن خصمهما لم يكن هدفه إلا الحق ، ولم يقاتل أحدا لولاه ، ولا يمكن أن يستعين عليه بالمظلمين والمبطلين ، وأن يركب غير طريقه ، وسواء عليه بعد ذلك أدركه أم لم يدركه فحسبه أنه جاهد من أجله ، وحتى لو قتل تحت رايته فذلك في نظره الفوز المبين ونصر للمثل التي تبقى منارة للأجيال ما بقي الدهر .

ومجمل القول أن الرسائل والرسل التي دارت بين الفريقين لم تنته إلى ما كان يحاوله من اجتماع كلمة الأمة ، ولم يبق لديه إلا السيف ليقول كلمته ، وجمع معاوية ما يزيد على مائة ألف مقاتل من أهل الشام وقادهم يقطع الأرض نحو العراق ، ولما بلغ أمير المؤمنين خبره جهز جيشه واتجه به لخارج الحدود

العراقية ليقطع الطريق على معاوية وأنصاره قبل أن يدخلوا العراق ويعبثوا في أرضها وأهلها قتلا ونهبا وفسادا .



معركة صفين وما رافقها من أحداث

ونزل معاوية بمن معه عند نهر الفرات في وادي صفين واستولى على الماء ، ونزل أمير المؤمنين في ذلك الوادي الفسيح ايضا في مكان لا يبعد عنه كثيرا ، وحال معاوية بين أهل العراق والماء ، ومنعهم أن يشربوا منه ولو قطرة واحدة فأضر بهم وبدوابهم العطش ، وأرسل اليهم أمير المؤمنين (ع) إنا لم نأت هذه الأرض لنسيطر على الماء والكلأ ، ولو سبقناكم إليه لا نمنعكم منه .

ويدعي بعد الرواة أن العاص حاول أن يقنع معاوية بأن يخلي بينهم وبين الماء ولكن معاوية أصر على موقفه وقال : هذا والله أول الظفر لا سقاني الله أن شربوا منه حتى يغلبوني عليه ، وصاح اصحابه من كل مكان : والله لا تذوقون منه ولا قطرة حتى تموتوا عطشا ، هذا وعلي (ع) على ما يبدو من اكثر المرويات التي وصفت تلك الأحاديث كان كارها للحرب بهذه السرعة ويود أن يعود إلى محاولاته السابقة التي تهدف إلى جمع الكلمة واتمام الحجة ، ولكن موقف معاوية وأنصاره من الماء اضطره إلى استعمال القوة لانقاذ عشرات الألوف ممن كان معه من الموت عطشا ، فأرسل الأشتر النخعي في كتيبة من عسكره ، فاستبسلوا استبسالا لا نظير له واستعادوا الماء من أهل الشام في ساعات قليلة ، فوقف ابن العاص موقف الشامت في معاوية لأنه لم يقبل نصيحته كما جاء في رواية ابن قتيبة ، وقال : ما ظنك يا معاوية لو منعك علي بن أبي طالب من الماء كما منعته أنت ، اتراك ضاربهم كما ضربوك ، ومضى يقول : إن عليا لا يستحل منك ومن جيشك ما استحللتم منه .

إن ابن العاص ومعاوية يعرفان عليا جيدا ويعلمان بأنه لا يمكن أن يقدم على العقوبة وهو يجد للعفو محلا وليس من خلقه أن يمنع الماء وهو من المباحات العامة عن أحد من المخلوقات ، ولا هو ممن يطلب النصر بالجور كما يطلبه ابن هند وأمثاله من الحاكمين ، لذلك كان ابن العاص ومعاوية على ثقة بأن عليا سيبيح لهم الماء ولو كان ذلك سببا لانتصارهم عليه .

لقد حاول بعض اصحابه اقناعه بأن يقابلهم بالمثل ويعاملهم كما عاملوه ولو لفترة من الزمن فأبى عليهم أشد الإباء ، وأتاح لاخصامه الذين هددوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشا ورود الماء أسوة بأصحابه .

وهذه البادرة الكريمة وحدها تكفي أهل الشام لو كان عندهم شيء من الخلق الكريم أن يدركوا حقيقة كل من الرجلين ، وأنهم بمناصرتهم لمعاوية يناصرون الشر على الخير والباطل على الحق والطغيان على العفو والتسامح والرحمة .

وبقي الجيشان على مواقفهما ينهلان من الماء على قدم المساواة ، وهو يواصل جهوده ومساعيه كعادته للسلام ويفتح لأهل الشام وقادتهم قلبه وصدره فلم يفلح في مسعاه ، هذا ومعاوية يأمرهم بسبه وشتمه ، ولما سمعهم أهل العراق سبوا معاوية وجعلوا يتراشقون بالسباب والشتائم ، فأمرهم أمير المؤمنين بالكف عن ذلك وقال : إني أكره لكم أن تكونوا قوما سبابين ، ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ، وأضاف إلى ذلك : قولوا مكان سبكم :

اللهم أحقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

ولما استبطأ اصحابه إذنه لهم بالقتال واتهمه بعضهم بالتردد في أمر أهل الشام ، وبعض آخر بالجبن قال : فوالله ما أبالي ادخلت على الموت أو خرج الموت إلي ، وأما قولكم أشكا في أهل الشام : فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا اطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو على ضوئي وذلك أحب إلي من

أن اقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها .

ثم قال :

اللهم إنك تعلم لو أني أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم انحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت ، اللهم أني لا أعلم عملا صالحا هذا اليوم هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو كنت اعلم عملا هو أرضى لك منه لفعلت .

ومضى يقول :

اللهم رب هذه الأرض التي جعلتها قرارا للأنام ومدرجا للهوام وما لا يحصى مما يرى وما لا يرى ، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادا وللخلق اعتمادا إن اظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا بالحق ، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة يا أرحم الراحمين .

وكان لا بد وأن يأذن لأصحابه بالقتال بعد أن استفزهم واستدرجهم اليه أهل الشام عشرات المرات وأوقعوا في صفوفهم عددا مس القتلى فأذن لهم واحتدم القتال بين الطرفين بضراوة لم يشهد لها تاريخ المعارك مثيلا .

ولا أريد أن اخوض في تفاصيل تلك المعارك التي استمرت شهورا وذهب ضحيتها اكثر من مائة ألف من المسلمين غرر بهم ابن هند وابن النابغة حتى وردوا ذلك المورد السيء ، لا أريد أن أخوض بالتفاصيل ففي مجاميع التاريخ التي تعد بالعشرات ما يريده القارىء من أخبارها الطوال التي اضاف اليها المحبون والمبغضون من الفريقين ما لم يكن ، وأكتفي بالقول : بأنه كان بين الفريقين قتال بلغ اقصى حدود العنف والضراوة . لقد تقدم أمير المؤمنين ومعه من بقي حيا من المهاجرين والأنصار يتقدمهم عمار بن ياسر وصحابة الرسول الابرار نحو أهل الشام وعمار ينادي بصوت يسمعه أهل الشام : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل ، ومضى يستقبل الطعن والضرب بصدره ونحره ، ثم يقف بين الصفين ويرفع كلتا يديه ويقول : اللهم لا اعلم عملا ارضى اليك من جهاد هؤلاء القوم ،

ولو كنت اعلم عملا أحب اليك من جهادهم لفعلته .

وقد تضعضع الكثيرون من أتباع معاوية لموقف عمار وعزيمته الصادقة على مواصلة الكفاح حتى النهاية ، لأن مقالة الرسول لم تعد خافية على أحد من وجوه المسلمين ، وقد تداولها الناس فيما بينهم وكأنها آية منزلة ، طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية ، عمار مع الحق يدور معه كيفما دار ، وها هو عمار إلى جانب علي بن أبي طالب يقاتل بحزم وعناء ويقول : لا اعلم عملا ارضى اليك من جهاد معاوية وأنصاره فمعاوية ومن يساعده من البغاة بحكم رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، والقرآن الكريم يأمر المسلمين بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله كما جاء في الآية .

﴿ وإن طائفتان من المسلمين اقتتلا فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ .

فهو اذن يقاتلهم بحكم القرآن ، هذه الافكار قد اعترضت الكثيرين ممن غرر بهم معاوية وابن العاص واستبدت بهم الحيرة وها هو صوته العالي يدوي في كل انحاء المعركة الرواح إلى الجنة عباد الله تقدموا فداء لكم أبي وأمي لقد أخبرني حبيبي رسول الله أن شرابي من الدنيا ضياح من لبن وتقتلني الفئة الباغية ، وكاد أن يتضعضع جيش معاوية ويدب فيه التخاذل وبخاصة عندما رأوا ذا الكلاع الحميري بمن معه من عشيرته وأحلافها يحاولون أن يتجنبوا المعركة ما دام عمار بن ياسر إلى جانب علي بن أبي طالب .

وبلغ معاوية ما يدور في اوساط جيشه من احاديث الرسول في عمار ، فاستدعى اليه وزيره ابن النابغة واستشاره في الخروج من تلك الأزمة ، فاجتمع إلى ذي الكلاع وغيره من قادة الجيش ، وأقسم لهم بأن عمار بن ياسر سيعود إلى صفهم في النهاية وطلب منهم مواصلة القتال بانتظار الأيام القادمة التي سيرون فيها ابن ياسر تحت راية معاوية ، فسكنت لذلك نفوسهم على خوف ووجل وتوالت الأيام والحرب تشتد يوما بعد آخر وأمير المؤمنين (ع) ينصب بمن معه على جيش الشام انصباب الموت الصاعق لا يضرب أحدا إلا أورده النار ولا

يستقبله أحد من مثيري الفتنة الأولى عنه جبانا يتقيه بسوأته إذا لم ينجه الفرار .

وانجلت المعركة في يوم من الأيام عن عمار بن ياسر صريعا برمح أبي العادية الجهني وعن ذي الكلاع الحميري صريعا في نفس اليوم فأشرق لذلك وجه معاوية وقال : والله لو بقي ذو الكلاع حيا بعد مصرع عمار لمال بعامة العسكر إلى علي بن أبي طالب .

وحدث بعض الرواة عن مولى لعمر بن الخطاب أنه قال : كنت في المعارك الأولى بصفين مع معاوية بن أبي سفيان وكان اصحابه يقولون : لا والله لا نقتل عمار بن ياسر وإن قتلناه فنحن كما يقولون ، فلما قتل جئت ابن العاص وقلت له : ما سمعت من رسول الله في عمار قال سمعته يقول : تقتله الفئة الباغية فقلت هوذا مقتول فلم يصدق حتى رآه بعينه فامتقع لونه ، ثم أعرض بوجهه وقال : لقد قتله من جاء به وعرضه للقتل ، فأخذها منه معاوية وراح يرددها بين اصحابه .

وأحيانا يقول : أترى أن رسول الله لقد عنانا بالفئة الباغية أولسنا نحن الذين نبغي دم عثمان ونثأر له فاطمأن لقوله جماعة وبقي آخرون على ترددهم وحيرتهم ، إلا أن العصبيات القبلية لعبت دورها في استمرار المعارك لفترة طويلة بين الطرفين وملها الفريقان حتى كانت المعركة الكبرى التي استمرت اكثر من اسبوع ليلا ونهارا واستبسل فيها أهل العراق فلم يبق لأهل الشام حق إلا انهار ولا جمرة إلا اطفئت ، وبلغ عدد القتلى من الطرفين اكثر من ستين ألفا كما يدعي بعض المؤرخين ، وأوشك جيش العراق أن يحتل مضارب معاوية ويقبض عليه حيا ، فدعا بفرسه لينجو عليه ، هذا وأمير المؤمنين في مقدمة اصحابه لا يستقبل جماعة إلا تضعضعت أركانهم وولوا هاربين .

وحدث ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن عليا (ع) نادى بالرحيل في جوف الليل فلما سمع معاوية رغاء الإبل دعا اليه ابن العاص وقال له : ما ترى هھنا ؟ قال اظن الرجل هاربا ، فلما اصبحوا وإذا بعلي وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم ، فأشار على معاوية برفع المصاحف على رؤوس الرماح فرفعوها

ودعوا الناس اليها طمعا في ايقاف القتال الذي اوشك أن يقضي على أهل الشام بكاملهم ، وارتفعت الأصوات من ناحية معاوية : يا أهل العراق هذا كتاب الله بيننا وبينكم فهلموا إلى العمل به فمن لـذراري أهل الشام وثغورهم بعد اهل الشام ، ومن لذراري أهل العراق وثغورهم بعد اهل العراق ومن لجهاد الروم والكفار وفي ذلك يقول النجاشي :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن
ونادوا علياً يا ابن عم محمد أما تتقي أن تهلك الثقلان

وجاء في رواية انساب الاشراف أن عليا (ع) لما رأى المصاحف مشرعة على رؤوس الرماح قال : والله ما هم بأصحاب قرآن ولكنهم ارادوها مكيدة وخدعة ، وبلغهم ما فعلت من رفع المصاحف لاصحاب الجمل ففعلوا مثله ولم يريدوا ما أردت ، فلا تنظروا إلى فعلهم وامضوا على يقينكم ونياتكم .

وبعد أن اشرفت المعركة على الانتهاء لصالح أمير المؤمنين واستعد معاوية للفرار لولا أن بعض العرب قد ناشده الصبر والتريث ، في تلك الفترة الرهيبة استعمل ابن العاص مكره وذكاءه وأمر برفع المصاحف والرجوع إلى حكمها كما رفعها أمير المؤمنين في البصرة ، ولكن ما أبعد ما بين الحالتين ، أن عليا (ع) قد رفع المصاحف بين الصفين في معركة البصرة بعد أن جادلهم وبذل كل ما في وسعه في سبيل الإلفة واجتماع الكلمة حقنا للدماء ، ولما لم تجده كل تلك المحاولات دعاهم إلى تحكيم الكتاب والعمل بما يفرضه عليهم ليتقي الحرب ونتائجها المريرة ، في حين أنه كان واثقا من أن نتائجها ستكون لصالحه ولكنه لا يرى الانتصار بالعنف والقوة انتصارا .

ووقف مع أهل الشام منذ أن دخل الكوفة موقف من يتقي الحرب ويتحاشاها وظل مدة من الزمن يتصل بهم بالمراسلة والرسل ويحذرهم من نتائج القتال وما يتركه من الآثار السيئة على المسلمين ، وضرب لهم حينما استولى على الماء أروع الأمثلة في العفو والتسامح وأباح الماء لهم ولأصحابه على السواء لأنه صاحب رسالة يريد انتشارها وطالب حق يريد أن يطبع الناس عليه ، اما

معاوية فكان يحارب للسلطة وحدها وبنفس الروح التي كان يحارب بها أبو سفيان وزوجته هند وأسرته الأموية رسالة محمد بن عبد الله ، ولذا فإنه لم يدع إلى الكتاب والرجوع إليه ولا رفعه على المصاحف إلا بعد أن اكلته الحرب وقضت على آخر أمل له في الانتصار ، ومع ذلك فلم يدع اليها ليرجع إلى حكمها بل ليستعيد انفاسه ويسعى لتمزيق جيش العراق بأسلوب جديد من مكره وخداعه بعد أن عجز عن تمزيقه بجيشه وعتاده ، وتم له ذلك فما أن شاعت دعوتهم إلى حكم الكتاب بين أهل العراق حتى ارتفعت اصوات الخونة من هنا وهناك تعلن الموافقة على الهدنة والرجوع إلى حكم الكتاب وكأنهم مع من رفعوا المصاحف على ميعاد وكان الأشعث بن قيس من أشد اولئك المتحمسين للتحكيم ووقف القتال ومن المعروفين بميولهم المعادية وله تاريخ حافل بالفتن والتقلبات ، فلقد اسلم في حياة النبي (ص) وارتد بعد وفاته مع المرتدين وحارب المسلمين يوم ذاك ، وبعد هزيمة المرتدين عاد إلى المدينة وأعلن فيها تدينه ورجوعه إلى الإسلام ، وصاهره أبو بكر على أخته أم فروة ، وأهمله عمر بن الخطاب وعاد إلى الظهور في عهد عثمان فولاه بعض المقاطعات ، وعزله علي (ع) عنها ، وبقي معه في الكوفة ولكنه كان يراقب تصرفاته بحذر ، وله مواقف و أخبار يرويها المؤرخون عنه تؤكد أن أمير المؤمنين لم يكن يطمئن اليه في شيء من أموره ، هذا بالاضافة إلى غيره ممن كان معاوية يغريهم بالوعود ويمدهم بالأموال الطائلة مما أتاح لبادرته هذه أن تلقى تأييدا واسعاً من قادة العراق وتضطره بعد حوار طويل وجدال عنيف احدث توترا في صفوف العراقيين إلى النزول على حكمهم وقبول التحكيم وتؤكد النصوص التاريخية أن عددا كبيرا من جند العراق كان يمد بصره إلى معاوية ويطمح في عطائه .

فقد جاء في شرح النهج أنه لما اشترطت عك والأشعريون ما اشترطوا على معاوية من الفريضة والعطاء وأعطاهم ما يريدون لم يبق أحد من أهل العراق في قلبه مرض إلا طمع في معاوية وشخص ببصره اليه حتى فشا ذلك في الناس ، إلى كثير من هذه الأرقام التي يجدها الباحث هنا وهناك ، هذا بالاضافة إلى أن جيش العراق كان خليطا من العراقيين والحجازيين والبصريين ، وفيهم من كان

عثماني الرأي ، بل كان بينهم جماعة من المنهزمين في معركة البصرة ، وهؤلاء لم يقاتلوا معه بدافع الايمان بحقه والرضى بحكومته ، بل كانوا واجدين عليه لأنه وترهم باخوانهم وعشائرهم في البصرة وكان قادة هؤلاء على صلة بمعاوية بواسطة عملائه المنتشرين في العراق .

وجاء في بعض المرويات أنهم خلال أيام السلم وفي شهر المحرم بالذات من تلك السنة كانوا يختلطون مع أهل الشام ويتعارفون ويتشاورون في أمورهم وما انتهى إليه حالهم ، بل كان بعضهم يتصل مباشرة بمعاوية وابن العاص كما يدل على ذلك ما جاء في شرح النهج عن سفيان بن عاصم بن كليب الحرثي عن ابيه عن ابن عباس أنه قال : حدثني معاوية أنه في اليوم الذي كاد أن يقع فيه أسيرا بيد الجيش العراقي وقد جيء له بفرس انثى بعيدة البطن عن الأرض ليهرب عليها ، وفيما هو يهم بذلك إذ أتاه آت من أهل العراق وقال له : أني تركت اصحاب علي (ع) في مثل ليلة الصدر من منى ، فأقمت عند ذلك وعدلت عن الفرار ، وامتنع معاوية أن يخبره بالرجل الذي وصفه له حالة الجيش على حد تعبير الراوي .

ومن غير البعيد بعد هذه الملابسات أن لا تكون فكرة رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم وليدة الهزيمة التي أوشك جيش معاوية أن يلتجىء اليها ، بل كانت نتيجة مؤامرة سابقة قد اتفق عليها معاوية وابن العاص والأشعث بن قيس ومن على شاكلته من الخونة والحاقدين والطامعين من أهل العراق خلال الأيام الأولى من المعركة ، أو خلال شهر المحرم الذي توادعا فيه عن القتال بقصد تقسيم الجيش وايقاع الفتنة فيه عندما يتعسر عليهم التغلب على جيش علي بقوة السلاح ، وقد تم لهم ذلك ، فما أن رفع أهل الشام مصاحفهم على رؤوس الرماح وتنادوا بالرجوع اليها حتى تعالت الأصوات من كل جانب تطلب وقف القتال والرجوع إلى حكم الكتاب بالرغم من اصرار أمير المؤمنين على مواصلة الحرب وتحذيرهم مما تنطوي عليه تلك الخديعة من النتائج السيئة . ومما يرجح أن رفع المصاحف كان متفقا عليه ومدروسا مع تلك الفئات بقصد تقسيم الجيش عندما يعجز جيش الشام على التغلب عليه مما يرجح ذلك أن الذين

تنادوا بالتحكيم من كل جانب وأجبروا عليا عليه رجعوا عنه بعد كتابة الصحيفة وشهروا سيوفهم في وجه أمير المؤمنين وطالبوه برفضه بعد إبرامه ، فقال لهم : ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع ، أليس الله يقول : وأوفوا بعهد الله ويقول : وأوفوا بالعقود ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها ، وكان الأمر كما يريدون ومما يرجح ذلك ايضا انقسام الجيش بتلك السرعة وإصرار اكثر قادته على وقف القتال وقبول التحكيم مع أنهم على أبوب النصر .

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي أن الأشعث بن قيس ومعه اليمانية قال لأمير المؤمنين : والله لتجيبنهم إلى ما دعوا اليه أو لندفعنك اليهم برمتك وكان معاوية قد استماله اليه ودعاه إلى نفسه فقال : أيها الناس أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وابن سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أني أعرف بهم منكم صحبتهم صغارا ورجالا فكانوا شر صغار وشر رجال ، ويحكم أنها كلمة حق أريد بها باطل ، إنها المكيدة والخديعة اعيروني سواعدكم ساعة ، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا .

وكان جوابهم أن أحاط به نحو من عشرين ألف مقاتل مقنعين بالحديد وهم يقولون : أجب القوم وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم إلى ما يريدون إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تشير إلى أن الكثرة الغالبة من جيشه وقفت نفس الموقف الذي وقفه ابن الأشعث وأصحابه ، ولم يبق معه ممن ينقادون اليه إلا القليل من بني هاشم وخلص أصحابه وقد صرح هو بذلك أيضا في جوابه للخوارج حينما قالوا لعبد الله بن عباس : لقد رجعنا عنه يوم صفين ولم يضربنا بسيفه وحكم الحكمين ، فقال في جواب مقاتلهم هذه كما جاء في تاريخ اليعقوبي : لقد كنتم عددا جما يوم ذاك وكنت أنا وأهل بيتي في عدة يسيرة .

وكان أمير المؤمنين في هذا الموقف أمام خيارين لا ثالث لهما : اما المضي بالقتال ، ومعنى ذلك أنه سيقاتل ثلاثة أرباع جيشه وأهل الشام ، وستكون النتيجة التي يريدها ابن العاص ، وربما وليس ببعيد أن تنتهي المعركة بالقضاء

عليه وعلى من معه من أهل بيته والصفوة المختارة من أصحابه .

وإما القبول بالتحكيم وهو أقل الشرين خطرا وضررا فاختار التحكيم بعد أن تكشفت له النتائج على واقعها ، وكان أحب إلى معاوية وابن العاص في ذلك الظرف بالذات أن يختار القتل لأنه أشد ضررا عليه وعلى من معه من ذويه وبنيه وصفوة اصحابه .

فالقبول بالتحكيم اذن كان نتيجة حتمية لظروف قاهرة لا خيار لأمير المؤمنين به بحال من الأحوال وقد أكثر الرواة حول ما دار فيه بين الفريقين من جدل ومناظرات لا يعنينا منها أكثر من الاشارة العابرة لنصل إلى ما وراءه من احداث فقد استفاد منها معاوية وحققت له ما يريد .

لقد اتفق الطرفان على مبدأ التحكيم واتفق أهل الشام على أن يفاوض عنهم ابن العاص ، أما أهل العراق فقد اختلفوا أشد الاختلاف ، ولم يكن ورادا عند أمير المؤمنين أبو موسى الأشعري بحال من الأحوال لأنه كان منحرفا عنه ولم يشترك معه في المعارك التي انتهت إلى هذه النتيجة ، واختار هو وجماعة من اصحابه أحد الثلاثة عبد الله بن العابس أو الأشتر أو الأحنف بن قيس ، أما الكثرة الغالبة التي استجابت لفكرة التحكيم منذ أن طرحها معاوية فقد اقترحوا الأشعري وأصروا عليه بحزم وصلابة في حين أن خطره على أمير المؤمنين لا يقل عن خطر ابن العاص وغيره من المنافقين مما يرجح أن الذين وضعوا فكرة التحكيم قد اختاروه لتمثيل أهل العراق منذ البداية وأنها بكل فصولها كانت نتيجة لمؤامرة تضم أكبر عدد من جيش العراق كما ذكرنا ، وبالتالي لقد اضطر أمير المؤمنين على النزول على حكمهم في اختيار الأشعري كما اضطروه إلى قبول التحكيم ولم يجد بديلا عنه إلا الحرب ، وبلا شك فإن نتائجها لغير صالحه واجتمع الطرفان على تسجيل اتفاقهما في كتاب يتضمن اختيار الحكمين والرجوع إلى كتاب الله وتحديد الزمان والمكان اللذين يتم فيهما اجتماع الحكمين وتوفير الأمان لهما خلال ممارستهما للمهمات الموكولة لهما .

وجاء عن ابي موسى الأشعري كما في الاستيعاب لابن عبد البر أنه أسلم

قبل هجرة النبي إلى المدينة ورجع إلى بلاده وأقام بها ، إلى أن كانت معركة خيبر في السنة السابعة من الهجرة . فالتحق بالنبي هو وجماعة من الاشعريين والنبي لا يزال في خيبر ، في الوقت الذي رجع فيه جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فظن قوم أنه كان من المهاجرين إليها على حد تعبير الراوي ، وقد ولاه عمر بن الخطاب البصرة لما عزل المغيرة بن شعبة عنها ، فلم يزل بها إلى أن عزله عثمان بن عفان عنها وولاها عبد الله بن عامر بن كرن ، فسكن أبو موسى في الكوفة فلما ثار أهلها على سعيد بن العاص وأخرجوه منها كتبوا إلى عثمان أن يولي عليها أبا موسى فولاه الكوفة وعزله عنها أمير المؤمنين (ع) بعد أن وقف منه موقفه المشهور ، فكان واجدا وحاقدا عليه وقال فيه قولا سيئا كما يذهب لذلك بعض المحدثين ، وأضاف إلى ذلك أنه كان ليلة العقبة مع الذين اعترضوا طريق رسول الله (ص) .

وجاء عن سويد بن غفلة أنه قال : كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطىء الفرات في خلافة عثمان فروى لي عن رسول الله (ص) أنه قال : أن بني اسرائيل اختلفوا فلم يزل الخلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين ضلا وأضلا من اتبعهما ، ولا ينفك أمر هذه الأمة حتى يبعثوا حكمين ضالين ويضلان من اتبعهما ، فقلت له : احذر يا أبا موسى أن تكون احدهما فخلع قميصه وقال : ابرأ إلى الله من ذلك كما ابرأ من قميصي هذا ، ومضى الراوي يقول : ولقد صدقت فيه نبوءة رسول الله (ص) فلقد كان حكما لأهل العراق فضل وأضل من اتبعه .

ومهما كان الحال فقد جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد أنهم حينما شرعوا في كتابة بنود الاتفاق كتب الكاتب هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان فقال معاوية بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته وقال ابن العاص: بل تكتب اسمه واسم أبيه ، ولما أصر أهل العراق على ما كتب قال أنه اميركم وليس بأميرنا ، فأعادوا الكتاب إلى أمير المؤمنين وأخبروه بذلك ، فأمر بمحوه ، فقال له الأحنف لا تمح اسم أمير المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها لا ترجع اليك أبدا ، فقال أمير المؤمنين (ع) ما أشبه هذا

اليوم بيوم الحديبية ، حين كتب الكاتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمر ، فقال له سهيل لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، وأني إذاً لظالم لك أن منعتك أن تطوف في البيت الحرام وأنت رسوله ، ولكن اكتب بدلا من ذلك محمد بن عبد الله ، فقال لي رسول الله : يا علي أني لرسول الله وأنا محمد بن عبد الله ولن تمحى عني الرسالة إذا كتبت لهم محمد بن عبد الله فامح ما أراد محوه ، أما أن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد .

وفي رواية ثانـة أن ابن العاص رجع بالكتاب إلى معاوية وطلب من أمير ال‍ـ منين محو ه ـبه ، فقص عليه ما كان يوم الحديبية بين رسول الله وبين المشركين وقال : إن ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم اكتبه إلى ابنائهم كما كتبه رسول الله إلى آبائهم شبها ومثلا ، فقال له ابن العاص : يا سبحان الله أتشبهنا بالمشركين ونحن مسلمون ، فقال عليه السلام : يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا ، فقام عمرو بن العاص وهو يقول : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم ، فقال أمير المؤمنين : والله أني لأرجو أن يظهرنا الله عليك .

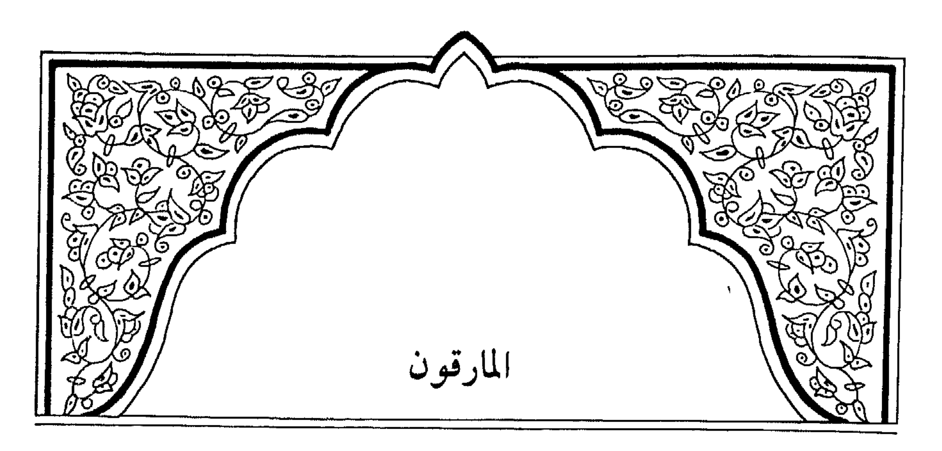
وتم الكتاب بين الطرفين ووقعه من كل منهما عشرة من قادتهم ووجوههم ، ويتلخص مضمونه كما يصفه الرواة بأن يقفوا عند احكام الله ويرجعوا إلى حكم الكتاب فيما يختلفون فيه ، وإلى سنّة رسول الله فيما لم يجدوا حكمه في الكتاب ، والتزام علي ومعاوية ومن يتبعهما من المؤمنين والمسلمين بما يحكم به الحكمان ، ويصلح الحكمان بين الأمة ولا يرداها إلى فرقة أو حرب ، وأن يجتمع الحكمان في مكان بين الشام والحجاز ، وأن لا يحضر معهما إلا من أرادوه وأن يعمل الطرفان على توفير الجو المناسب لهما خلال اجتماعهما وفيما بعده ، وتكاد المرويات كلها تتفق على هذا المحتوى ما عدا بعض الاختلافات البسيطة التي لا تتنافى معه ، ولم يرد في الروايات ما يشير إلى موضوع الصراع بين الطرفين بوضوح كامل في الصحيفة التي وقعها الطرفان ، في حين أن أسباب الصراع واضحة للجميع لا لبس فيها ولا غموض ، لأن معاوية كان قبل معركة الجمل يطالب بمحاكمة اولئك الذين قتلوا عثمان أو بتسليمهم اليه ليتولى

القصاص منهم ، وبعد تمرد عائشة وطلحة والزبير تعزز موقفه وأصبح يطالب باعادة الخلافة شورى بين المسلمين على أن يكون له ولاتباعه رأي في ذلك، وقد رد أمير المؤمنين على طلبه الأول بأن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ثم يحاكم القوم اليه ليقتص لعثمان من قاتليه إذا أدينوا بجريمة توجب القصاص ، ورد علي (ع) طلبه الثاني ، بأن خلافته قد تمت باجتماع أهل الحرمين الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة من قبله وبايعه بالاضافة إلى أهل الحرمين جميع أهل الأمصار ما عدا الشام ، على أن بيعة المهاجرين والأنصار وحدها تكفي لالزام الشاهد والغائب ولم يتخلف منهم سوى ثلاثة أو أربعة قد اعتزلوا الناس ولم يناصروا أحدا عليه ، وبقي على أهل الشام أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، وإلا كانوا من البغاة بحكم الإسلام والقرآن الذي أوجب قتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله .

فمن المتعين في مثل هذه الحالات أخذ هذه الأسباب بعين الاعتبار وتدوينها ، ومن ثم معالجة المشكل على اساسها في حين أن الصحيفة قد اهملتها ولم تتعرض لشيء منها ولا طرقها الحكمان خلال حوارهما كما يبدو ذلك من الروايات التي تحدثت عما دار بينهما ، ويشير بعضها إلى أن اقصاء أمير المؤمنين عن الخلافة كان أمرا مفروغا منه لدى الطرفين ، ولكن خلافهما كان على البديل فقد اقترح أبو موسى الأشعري عبد الله بن عمر بن الخطاب كما نصت على ذلك الروايات ، فرد عليه ابن العاص بأن عثمان بن عفان قتل مظلوما ومعاوية وليه ، وتلا عليه الآية ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، هذا مع العلم بأن الولي الذي تشير إليه الآية هو وارث المقتول فإن لم يكن له وارث فوليه الحاكم الشرعي ، وعلي (ع) هو الحاكم يوم ذاك ولا احسب احدا يجهل هذه الحقيقة في حين أن أبا موسى لم يبد أية ملاحظة حول هذه الناحية ، ومضى ابن العاص يغريه بالسلطة إن هو وافق معه على أن تكون لمعاوية كما جاء ذلك في المجلد الاول من شرح النهج ، وبعد حوار طويل بين الطرفين استطاع ابن العاص أن يخدعه فأظهر له موافقته على اقصائهما معا وترك الأمر للمسلمين يختارون لأنفسهم من يريدون ، وكان ما أراده ابن العاص فخلع أبو موسى عليا وأثبت ابن العاص معاوية وانتهت مهزلة التحكيم على هذا النحو كما يرويها المؤرخون .

ولا احسب أن أمير المؤمنين (ع) كان في غفلة عن نتائج هذا التحكيم وأنه سيعزز موقف معاوية لا سيما وأن الحكمين ينظران اليه بنظرة واحدة ونوايا ابن العاص نحوه ليست بأسوأ من نوايا أبي موسى الأشعري ، ولكنه مع ما فيه من المخاطر فهو أقل ضررا وخطرا من رفض التحكيم واستمرار القتال الذي ستكون نتيجته الحتمية وقوع أمير المؤمنين والقلة المخلصة من اصحابه بين عدوين من أشرس خلق الله معاوية وأنصاره من جهة وخونة جيش العراق من جهة ثانية . ولم تكن حركة بعض المتراجعين عن التحكيم بعد كتابة الصحيفة بالذات والتوقيع عليها إلا لجره إلى استئناف القتال في ذلك الجو المحفوف بالمخاطر ، ولذلك فقد أبى عليهم وجعل يرفق بهم ويهدئهم ويدعوهم إلى اختيار ما فيه العافية ثم تعجل الخروج من صفين باتجاه العراق مخافة أن تتأزم الأمور وتضطره إلى ما لا يريد .

وقد نصت المرويات على أنه اقام في صفين بعد اعلان الهدنة وكتابة بنود الاتفاق يومين أو ثلاثة لا غير تفرغ فيها بعد أن اقنع المتراجعين عن التحكيم وهدأهم ، إلى دفن القتلى من اصحابه . وخرج من صفين يريد الكوفة منطويا على نفسه يتجرع آلام الخيبة ومرارة تلك الأحداث التي لا يقوى على تحملها أحد غيره من الناس .



المارقون

لقد انتهت معركة صفين بعد الانتصار الساحق الذي حققه أمير المؤمنين بمؤامرة مدروسة واسعة الأطراف بتحكيم ابن العاص وأبي موسى الأشعري المعروفين بميولهما المعادية لعلي بن أبي طالب كما ذكرنا ، ولو كانت فكرة التحكيم واختيار الحكمين بريئة كما حاول التاريخ أن يسدل عليها هذا الثوب ، لكانت النتيجة التي انتهى اليها الحكمان وحدها كافية لاخماد الفتنة وعودة الأمور إلى نصابها والتفاف الجيش بكامله حول قائده العظيم الذي بلغ القمة في تفكيره وسياسته الرشيدة التي عالج بها ذلك الوضع المتأزم والمحفوف بأشد الاخطار ، ولكن المتآمرين ظلوا حتى بعد تلك النتائج التي لا يقرها عرف ولا دين ولا منطق يعيثون في الارض فسادا واتخذت حركتهم بعد أن تحرك موكب الإمام من صفين شكلا جديدا ، فاعترفوا بخطئهم في قبول التحكيم وأعلنوا توبتهم إلى الله ، وجاؤوا إلى أمير المؤمنين يطلبون منه أن يتراجع ويتوب كما تابوا ويعود بهم إلى استئناف القتال في صفين ، وبالطبع لقد كانت منهم هذه الردة محاولة يائسة فلم يستجب لطلبهم لعلمه كما اعتقد بأخطارها وسوء نتائجها ، فانفصلوا عنه قبل أن يدخل الكوفة في مكان يدعى حروراء ، ومن أجل ذلك سماهم المؤرخون بالحرورية .

ولما التجأوا اليها وأخذوا يعدون أنفسهم للحرب بعث اليهم أمير المؤمنين عبد الله بن العباس ليناظرهم عساهم يعودون عن ضلالهم ، فقال لهم : ما

الذي نقمتم من أمير المؤمنين ، قالوا : لقد كان للمؤمنين اميرا فلما حكم في دين الله خرج عن الايمان فليتب بعد اقراره بالكفر ، فرد عليهم ابن عباس بقوله : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يحكم على نفسه بالكفر ، فقالوا : أنه قد حكم في دين الله ، فقال : إن الله أمرنا بالتحكيم في قتل الصيد بقوله : يحكم به ذوا عدل منكم ، فقالوا أنه قد حكم عليه فلم يرض ، فرد عليهم بأن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته وكذلك الحكمان لما خالفا حكم الله فسقا ونبذت اقوالهما ، فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله فيهم : إنهم قوم خصمون ، وقال ايضا : وتنذر به قوما لدا وأحجموا عن مناظرته .

ورجع ابن عباس إلى أمير المؤمنين وأخبره بما جرى له معهم ، فمشى اليهم بنفسه ، وقال لصعصعة بن جوحان العبدي : إئت القوم ودلني على الرجل المقدم فيهم ، فقال له : هو يزيد بن قيس الأرحبي ، ولما انتهى أمير المؤمنين إلى حروراء جعل يتخلل مضاربهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج واتكأ على قوسه وأقبل على الناس وقال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة ، والتفت إلى القوم وقال :

أنشدكم الله أعلمتم أحدا كان أكره للحكومة مني ؟

قالوا : اللهم لا ، قال : أتعلمون بأنكم اكرهتموني حتى قبلتها ، قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني ، قالوا : إنّا أتينا ذنبا عظيما فتبنا إلى الله ، فتب إلى الله منه واستغفره نعد اليك ، فقال الامام (ع) : اني أستغفر الله من كل ذنب ، فاستجابوا اليه ورجعوا معه إلى الكوفة وكانوا بين الستة آلاف والعشرة آلاف حسب اختلاف المؤرخين ، واستقروا في الكوفة مع اخوانهم وأهلهم .

وخلال اقامتهم في الكوفة كانوا يحدثون بأن عليا قد رجع عن التحكيم وأصبح يراه ضلالا ، وينتظر أن يسمن الكراع وتجبى الأموال ليعود إلى حرب معاوية وأتباعه ، وتحرك الأشعث وأمثاله من دعاة الفتنة والمؤامرة وخافوا أن تهدأ

الأمور وتعود الحياة طبيعية صافية بين أهل الكوفة والإمام (ع) ، ويتفرغوا لحرب معاوية وأهل الشام بروح طيبة تحس بأن عليها أن تكفر عما كان منها ، وعند ذلك لا تبقى لعملية التحكيم نتائجها المرجوة ، فجاء إلى أمير المؤمنين (ع) وهو في ملأ من أهل الكوفة وقال أن الناس قد تحدثوا بأنك رجعت عن الحكومة وأصبحت تراها ضلالا وترى الاقامة عليها كفرا ومضى يشدد على أمير المؤمنين لينتزع منه تصريحا يستفز به اولئك الذين عادوا إلى الكوفة وانسجموا مع جماعة الناس ، فأجابه كما يزعم المبرد في المجلد الاول من الكامل كما جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد ، أن من زعم بأني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالا فهو أضل ، ومضى أبو العباس في الكامل يقول أن القوم لما بلغتهم مقالة أمير المؤمنين مضوا إلى النهروان وأعلنوا العصيان والتمرد عليه وإن كنت اشك في أصل هذا الحوار بين الأشعث وأمير المؤمنين وأستبعد أن يقول الإمام كلمته هذه .

والشيء المتيقن هو أنهم اعتزلوا جماعتهم بتحريض من الأشعث ومن يحمل روحه ليشغل أهل الكوفة عن التهيؤ والاستعداد لحرب معاوية ، وفي طريقهم وجدوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم لأنه كان على خلاف ما يعتقدون واستوصوا بالنصراني خيرا ، وقال بعضهم لبعض احفظوا ذمة نبيكم .

ولقيهم عبد الله بن خباب وفي عنقه كتاب الله ومعه امرأته وهي في الشهر الاخير من حملها ، فقالوا له : إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك ، فقال لهم أحيوا ما أحياه القرآن وأميتوا ما أماته ، وفيما هم يحاورونه وإذا برجل منهم يتناول تمرة سقطت من نخلة ويضعها في فمه فصاحوا به فلفظها وعرض لرجل خنزير فقتله فقالوا هذا فساد في الأرض وأنكروا عليه قتله ، ثم التفتوا إلى ابن خباب وقالوا : حدثنا عن ابيك حديثا سمعه من رسول الله ، فقال : سمعت أبي يقول : إن رسول الله قال ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي مؤمنا ويصبح كافرا فكن عند الله المقتول ولا تكن القاتل .

فقالوا : ما تقول في أبي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم وعثمان في السنين الست الأخيرة من خلافته ، فأثنى عليهم خيرا ، فقالوا : ما تقول في علي بعد

التحكيم والحكومة ، فقال : إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : انك لا تتبع الهدى بل تتبع الهوى والرجال على اسمائهم ، ثم جروه إلى شاطىء النهر وذبحوه وجاؤ وا بزوجته فبقروا بطنها وذبحوها مع ولدها إلى جانبه .

ولما بلغ الإمام (ع) ما فعلوه مع ابن خباب وزوجته وفسادهم في الارض سار اليهم في اصحابه وكان يستعد لحرب أهل الشام ، ولما انتهى إلى مكان قريب اليهم ارسل اليهم أن يدفعوا قتلة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب ومن قتلوه من المسلمين في طريقهم إلى النهروان فقالوا لرسوله كلنا قتلة ابن خباب ولو قدرنا على علي بن أبي طالب ومن معه لقتلناهم ، فمشى اليهم بنفسه وقال : أيتها العصابة اني نذير اليكم أن تصبحوا لعنة هذه الأمة غدا وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنَّة ، ألم تعلموا بأني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم كان مكيدة ، وأنبأتكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأني أعرف بهم منكم وهم أهل المكر والغدر فعصيتموني وأكرهتموني حتى وافقت على التحكيم بعد أن شرطت واستوثقت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحياه القرآن ويميتا ما أماته ، ولما خالفا حكم الكتاب والسنَّة وعملا بالهوى نبذنا أمرهما وبقينا على أمرنا الأول وها أنا عائد إلى حرب معاوية وأتباعه ، فقالوا : إنا حيث حكمنا الرجلين اخطأنا وكفرنا وقد تبنا إلى الله من ذلك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت كما تبنا فنحن معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء ، فقال لهم : بعد إيماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر ، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، ويحكم بم استحللتم قتالنا والخروج عن جماعتنا ؟ فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب الرواح إلى الجنة وشهروا السلاح على اصحابه وأثخنوهم بالجراح ، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهام وشد عليهم أمير المؤمنين وأصحابه فما هي إلا ساعات قلائل حتى صرعهم الله كأنما قيل لهم موتوا فماتوا .

وكان أمير المؤمنين (ع) قد أخبر أصحابه قبل المعركة بأنه لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة ، وكان الأمر كما اخبرهم ، فلم ينج منهم إلا تسعة

أو ثمانية ، ولم يقتل من أصحابه إلا تسعة كما روى ذلك اكثر المؤرخين .

وهنا يروي المؤرخون حديث المخدج المعروف بذي الثدية أحد القتلى في هذه المعركة وكان النبي (ص) قد أخبر أمير المؤمنين بقتل الخوارج وقتل المخدج معهم لذلك فإنه بعد انتهاء المعركة فتش عنه وألح في طلبه حتى وجده بين القتلى .

وجاء في الصحاح المتفق عليها على حد تعبير ابن أبي الحديد كما جاء في المجلد الاول من شرح النهج أن رسول الله لما شرع في تقسيم الغنائم بعد انتهائه من معركة حنين قام اليه رجل من بني تميم يدعى ذا الخويعة فقال له : اعدل يا محمد ، فقال : لقد عدلت وأعاد عليه التميمي قوله تانية وثالثة وفي التالثة رد عليه النبي (ص) بقوله : سيخرج من ضئضيء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على حين فرقة من الناس تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود مخدج اليدين احدى يديه كأنها ثدي امرأة وأضافت رواية عائشة إلى ذلك ، يقتله خير أمتي من بعدي .

وفي مسند أحمد بن حنبل عن مسروق أنه قال : قالت لي عائشة انك من ولدي ومن أحبهم إلي فهل عندك علم بالمخدج فقلت نعم : قتله علي ابن أبي طالب على نهر يقال له النهروان ، فقالت : ابغني على ذلك بينة فأتيتها برجال عندهم علم بذلك ، ثم قلت لها : اسألك بصاحب القبر ، ما الذي سمعت من رسول الله (ص) فيه ، قالت سمعته يقول : إنه شر الخلق والخليقة يقتله خير الخلق وأقربهم عند الله وسيلة .

وفي رواية ثانية عنها أنه لما بلغها أن عليا (ع) قد قتله قالت : لعن الله ابن العاص لقد كتب إلي يخبرني أنه قتله بالاسكندرية ، إلا أنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته مس رسول الله ، لقد قال يقتله خير أمتي من بعدي .

وقد اجمعت الروايات على أن أمير المؤمنين قد اهتم بالبحث عنه ، ولما عجز اصحابه عن العثور عليه خرج بنفسه وما زال يبحث عنه حتى وجده فكبر

وكبر معه أصحابه ، ثم قال : والله ما كذبت وما كذبت ، وبلا شك في أنه لولا حديث الرسول (ص) عن هذه الفئة المارقة وعن ذي الثدية لما اهتم أمير المؤمنين ذلك الاهتمام البالغ به ، ولما أخفاه ابن العاص عن السيدة عائشة وأخبرها بأنه قتله في الاسكندرية خلال الفتح الاسلامي لمصر .

وأكتفي بهذه اللمحات في حديثي عمن اسموهم بالخوارج وعدهم المؤرخون والمؤلفون في الفرق الاسلامية منذ أقدم العصور الاسلامية النواة الأولى لتلك الفرقة التي اقضت مضاجع حكام الدولة الأموية خلال قرن من الزمن تقريبا ، وكانت حركتهم في العصر تتميز بالدعوة إلى المساواة والعدالة الاجتماعية ولهم آراء في أصول الاسلام وفروعه كانت مسرحا للجدل والنقاش بين قادة الفكر والرأي عندما ظهرت آراء المعتزلة والمرجئة والقدرية والأشاعرة وغير ذلك في حين أنهم حينما خرجوا على أمير المؤمنين وتمردوا عليه لم يكن لحركتهم أي ميزة على غيرهم من المتمردين عليه كطلحة والزبير ومعاوية وغيرهم ولم يكن لهم هدف خاص كما كان لمعاوية وطلحة والزبير ، وما ينسبه لهم المؤرخون من الجدل حول التحكيم مع أنهم من أنصاره في بداية الأمر ونتائجه لم يلتزم بها أمير المؤمنين (ع) إن صح يدل على أنهم كانوا في منتهى السذاجة والعفوية ، على إني لا أزال عند رأيي في أنهم كانوا ضحايا المتآمرين على أمير المؤمنين بقصد اثارة الفتن في جيشه وإلهائه عن معاوية والرجوع لحربه ، وكان لمقتلهم آثاره السيئة في نفوس الكثيرين من أصحابه ، لأن القتلى كان اكثرهم ينتمي إلى عشائر الكوفة والبصرة ، فليس بغريب إذا ترك قتلهم في نفوس من ينتمون اليهم ما يجده كل قريب لفقد قريبه .

ولما انتهى أمير المؤمنين منهم دب الوهن والتخاذل والخلاف بين اصحابه فجعل يستحثهم على الخروج معه لحرب معاوية ويخطب فيهم المرة تلو الأخرى فلا يجد منهم إلا التخاذل والخلاف عليه فيقولون : لقد نفدت نبالنا وكلت اذرعنا ونصلت أسنة رماحنا وتقطعت سيوفنا ، فامهلنا لنستعد فإن ذلك أقوى لنا على عدونا ، واستمر على ذلك مدة من الزمن كان يدعهم بين الحين والآخر للخروج إلى معسكرهم في النخيلة فلا يخرج إلا القليل الذي لا يغني شيئا .

هذا والأشعث بن قيس وشيث بـن ربعي وأمثالها لا هَمَّ لهم إلا التخريب وبث روح التخاذل في النفوس ، وراح يضع في أذهان الجيش إن عليا كان عليه أن يصنع مع أهل النهروان كما صنع عثمان ويتغاضى عنهم وهم قلة لا يشكلون خطرا عليه ، لقد قال الأشعث ذلك ليحدث تصدعا في صفوف الجيش وليشحن نفوس من تربطهم بأولئك القتلى أنساب وقرابات بالكراهية والعداء لعلي (ع) .

فقد جاء في كتاب علي بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب أن عليا (ع) خطب يوما اصحابه وحثهم على الجهاد وأنبهم على تخاذلهم وقعودهم عنه ، وما أن انتهى من خطابه ينتظر ردهم عليه حتى انبرى له الأشعث بقوله : يا أمير المؤمنين أفهلا فعلت كما فعل عثمان ؟ فقال له الإمام : وما فعل عثمان ؟ فقال : لقد أبى أن يلقى المشاغبين عليه بالقوة وأن يردهم عنه بالسيف حتى قتل ، فرد عليه الإمام بقوله : ويلك وكما فعل عثمان رأيتني فعلت عائذا بالله من شر ما تقول ، والله أن الذي فعل عثمان لمخزاة على من لا دين له ولا حجة معه فكيف وأنا على بينة من ربي والحق معي ، ومضى يقول : والله أن امرأ امكن عدوه من نفسه فنهش عظمه وسفك دمه لعظيم عجزه وضعيف قلبه .

ثم قال : أنت يا بن الأشعث كن كذلك ، أما أنا فوالله دون أن اعطي ذلك ضرب بالمشرفي يطير له فراش الرأس وتطيح منه الاكف والمعاصم وتجذبه الفلاصم ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

وسرت مقالة الأشعث بين الناس فزادتهم تخاذلا وتصدعا ، وأتيح لمعاوية أن يتصل بسراتهم ورؤسائهم اكثر من قبل ، تحمل كتبه لهم الوعود والأماني ، ويقدم بين يدي الوعود والأماني العطايا والصلات يعجل لهم ما يرغبون في عاجله وما يغري قليله المعجل بكثيره الموعود حتى اشترى ضمائرهم وأفسدهم على امامهم وجعلهم يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان .

ومجمل القول ، لقد استطاع المتآمرون من أهل العراق أن يحققوا لمعاوية

كل اطماعه وأن يشلوا حركة الإمام (ع) ويخلقوا له من المصاعب والمشاكل ما يشغله عن لقاء أهل الشام مرة ثانية ، فلم تنته معركة النهروان حتى ظهرت فلولهم في اكثر من ناحية في العراق ، وتركت معركة النهروان في أهاليهم وقبائلهم أوتارا لم يكن من السهل نسيانها ، لا سيما وأن أيدي المتآمرين ممن كانوا على صلة بمعاوية كانت تزودهم بالأموال والعتاد فيخرج الرجل ومعه المائة والمئتان ، فيضطر أمير المؤمنين (ع) إلى أن يرسل اليهم رجلا من أصحابه ومعه طائفة من الجند فيقاتل المتمردين ، حتى إذا قتلهم أو شردهم عاد إلى الكوفة ، وقبل أن يستقر يخرج آخر بجماعة من المتمردين ، وهكذا كانت الحالة بعد معركة النهروان حتى خرج الخريت بن راشد ، وقد جاءه قبل خروجه ، وقال له : والله أني لا أطيعك ولا أصلي خلفك لأنك حكمت الرجال وضعفت عن الحق ، فقال له : اذن تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضر إلا نفسك ، ودعاه للمناظرة ، فقال له : أعود اليك غدا ، فقبل منه وأوصاه أن لا يؤذي أحدا من الناس ولا يعتدي على الدماء والأموال والأعراض فخرج ولم يعد ، وكان مطاعا في قومه بني ناجية وخرج معه جماعة في ظلمة الليل والتقى في طريقه برجلين وكان احدهما يهوديا والآخر مسلما ، فقتلوا المسلم ، وعاد اليهودي إلى عامل علي على السواد فأخبره بأمرهم فكتب العامل لأمير المؤمنين فأرسل اليهم جماعة من اصحابه وأمره بردهم إلى الطاعة ومناجزتهم أن رفضوا ذلك ، وحدثت بينه وبين الخريت وجماعته مناظرة لم تجد شيئا ، فطلب منهم أصحاب أمير المؤمنين أن يسلموهم قتلة المسلم فأبوا إلا الحرب ، وكانت بين الطرفين معارك دامية ، فأرسل اليهم أمير المؤمنين قوة أخرى ، وكتب إلى عبد الله بن العباس وكان أميرا على البصرة يأمره بملاحقتهم ، والخريت مرة يدعي بأنه يطلب بدم عثمان ، وأخرى ينكر على علي (ع) التحكيم وأخيرا قتل الخريت وجماعة من أصحابه وأسر منهم خمسمائة قادوهم إلى الكوفة فمر بهم الجيش على مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عاملا لعلي (ع) على بعض المقاطعات فاستغاث به الأسرى فرق لحالهم كما تزعم بعض الروايات واشتراهم من القائد على أن يسدد أثمانهم اقساطا وأعتقهم ، وجعل يماطل في اداء ما عليه ، ولما طالبه عبد الله بن عباس باداء المبلغ أجابه : لو طلبت هذا المبلغ وأكثر منه من عثمان ما منعني اياه ، ثم

هرب إلى معاوية فاستقبله استقبال الفاتحين وأعطاه ما يريد ، وطمع مصقلة أن يستجلب أخاه نعيم بن هبيرة إلى جانب معاوية ، فأرسل اليه رسالة مع رجل من نصارى تغلب كان يتجسس لصالح معاوية ، ولم يكد يبلغ الكوفة حتى ظهر أمره فأخذه اصحاب أمير المؤمنين وقطعوا يده ، إلى كثير من أمثال هذه الحوادث التي تدين المتمردين ومن كان يعاونهم بالتآمر واشاعة الفوضى في جميع اطراف الدولة لاستنزاف قوة الإمام في الداخل وليكون في شغل عن معاوية وتصرفاته . ومن غير البعيد أن يكون مصقلة الشيباني على صلة بالتمردين وأن حرصه على تخليصهم من الأسر لقاء مبلغ من المال يعجز عن دفعه لم يكن بدافع انساني كما يبدو ذلك لأول نظرة في حادثة من هذا النوع ، بل كان بدافع الاحساس بمسؤوليته عن فئة كان يشترك معها في الهدف والغاية ويمنيها بالمساعدة عندما تدعو الحاجة ، وقد لقي من معاوية هذا الترحيب لأنه اشترك في الفساد والفوضى وساعد المخربين الذين جرعوا عليا الغصص وأرهقوه من أمره عسرا وكانوا إلى ابن هند فرجا ومخرجا .

أما أمير المؤمنين (ع) فلم يزد حين بلغه فرار مصقلة إلى الشام على أن قال : ما له قاتله الله فعل فعل الاحرار وفر فرار العبيد وأمر بداره فهدمت .

وقد أتيح لمعاوية في ذلك الجو الذي ساد العراق في الداخل أن يتحرك من ناحيته على القرى والمدن المتاخمة لحدود الشام فيقتل وينهب وينكل بقوات المخافر المرابطة على الحدود بدون رادع من أحد ووازع من دين ، وأمير المؤمنين (ع) يدعو أهل العراق لنجدة إخوانهم وملاحقة المعتدين فلا يجد منهم ما يرضيه .

وأغارت قوات معاوية على الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أرطأة وأوصاه باستعمال كل ما من شأنه اشاعة الفوضى وبث الخوف والرعب في تلك البلاد فمضى ابن أرطأة ينفذ أمر معاوية فأسرف في الاستخفاف بالدماء والحرمات والأعراض والأموال في طريقه إلى المدينة ولما بلغ المدينة قابل أهلها بكل أنواع الاساءة والقسوة فقتل فيها عددا كبيرا واضطرهم إلى بيعة معاوية ، وكانت اخباره قد انتهت إلى اليمن فانتشر فيها الخوف والرعب وفر منها عامل أمير المؤمنين عبيد الله بن العباس ، ولما دخلها أسرف في القتل والنهب والتخريب،

ووجد طفلين صغيرين لعبيد الله بن العباس ، فذبحهما في حضن أمهما ، فأصابها خلل في عقلها وظلت تندبهما وتبكيهما حتى ماتت غما وكمدا .

وجهز جيشا آخر لغزو مصر ليحقق لابن العاص أمنيته الغالية ، وولاه قيادة ذلك الجيش ، ولما بلغ أمير المؤمنين دعا أهل الكوفة لنجدة إخوانهم في مصر فلم يستجيبوا لطلبه ، وبعد أن ألح عليهم أجابه جماعة منهم وما لبث أن جاءته الأنباء بأن ابن العاص قد تغلب عليها وقتل واليها محمد بن أبي بكر ومُثِّل به ثم أحرقه ، فانتدب مالك بن الحرث الأشتر وولاه عليها لانقاذها من أيدي الغزاة ، وكان كما يصفه المؤرخون حازما قويا مخلصا لأمير المؤمنين كما كان أمير المؤمنين لرسول الله على حد وصف الإمام وغيره له .

ولما بلغ معاوية نبأ اختياره حاكما في مصر اضطرب واشتد خوفه على أنصاره وقواته المرابطة فيها ، واستطاع بعد تفكير طويل أن يجد المخرج من تلك الأزمة التي أحاطت به ، فأغرى أحد أنصاره ممن يسكنون الطريق التي لا بد للأشتر من المرور عليها بالمال لقاء اغتياله ، ولما بلغ الأشتر ذلك المكان ونزل فيه جاءه بعسل مسموم كان قد أعده له بناء لتخطيط معاوية ، فكانت به نهايته ، وكان ناجحا في التخلص من أخصامه بهذا الاسلوب فقد قتل ابن خاله محمد بن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص والإمام أبا محمد الحسن بهذا الأسلوب ، وأحيانا كان يتباهى به ويقول : إن لله جندا من العسل ينتقم به لاوليائه .

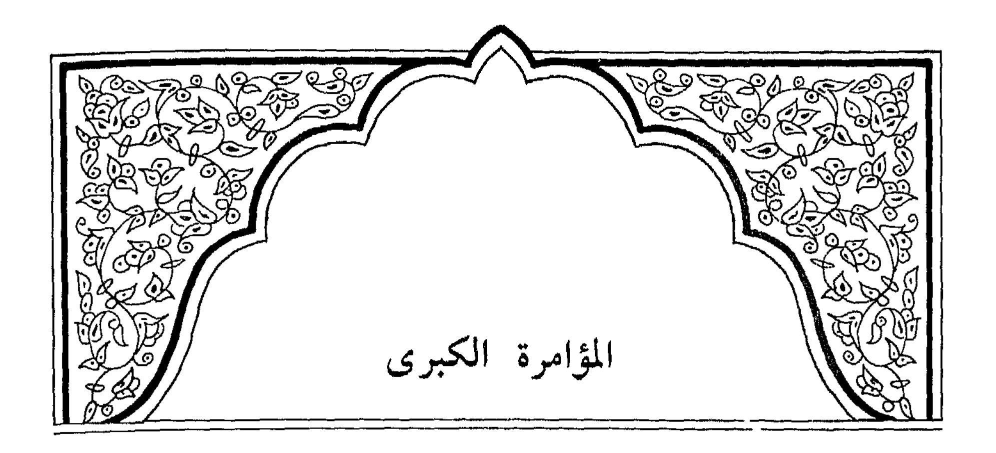
وتوالت الأحداث في داخل العراق والبلاد التي كانت تخضع لسلطة أمير المؤمنين ، فلم يكن يفرغ من تمرد حتى يفاجأ بآخر ولا يسد ثغرة إلا فتحت له أخرى حتى طمع فيه معاوية إلى حدود الاستخفاف ، هذا وأصحابه بالرغم مما يجري حولهم وعلى حدود بلادهم وفي خارجها من احتلال لبعض المقاطعات وقتل ونهب ممعنون في خلافه مفرقون فيما احبوا من طلب العاقبة إذا استنفرهم لا ينفرون وإذا دعاهم لا يجيبون يتعللون بالأعذار الواهية كحر الصيف وبرد الشتاء ، ولا يغضبون لحق أو دين ولا للمشردين والمستضعفين حتى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ويبكي أحيانا على من مضى من أنصاره ويقول : متى

يبعث أشقاها فيخضب هذه من هذا مشيرا إلى رأسه الكريم ولحيته الشريفة ، ويتمنى لو أن معاوية صارفه فيهم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منه عشرة وأعطاه واحدا من أهل الشام ، ووطن نفسه أخيرا أن يخرج لحرب معاوية بمن هم على رأيه من أهله وعشيرته وأنصاره فيقاتل بهم حتى يلقى الله في سبيل الحق والعدل وتحدث اليهم حديثا لا لبس فيه وحملهم تبعات ما سينجم عن تخاذلهم فقال لهم كما جاء في رواية البلاذري في أنساب الأشراف :

اما أني قد سئمت من عتابكم وخطابكم فبينوا لي ما أنتم فاعلون ، فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوي فهو ما أطلب وما أحب ، وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوه لي عن أمركم ، فوالله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين لأدعون الله عليكم ثم لأسيرن إلى عدوكم ولو لم يكن معي إلا عشرة ، ومضى يقول : اجلاف أهل الشام أصبر على نصرة الضلال وأشد اجماعا على الباطل منكم على هواكم وحقكم ما بالكم وما دواؤكم أن القوم امثالكم لا ينشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة .

وكان على ما يبدو لهذا الموقف الحازم منه أثره في نفوس القوم بعد أن أيقنوا بأنه سيخرج بنفسه وأهله وخاصته إلى معاوية ، وسيلحقهم بذلك الخزي والعار ويصبحون حديث الأجيال إذا هم تركوه يخرج على هذا الحال ، فرد عليه زعماؤهم ردا جميلا ، وجمع كل رئيس منهم قومه وتداعوا للجهاد من كل جانب وتعاقدوا على الموت معه ، حتى أصبحت الحرب حديث الناس ، وأرسل إلى عماله في مختلف المناطق يدعوهم للاشتراك معه بمن عندهم من الجيوش والمقاتلين ، وخرج الناس إلى معسكراتهم في النخيلة ينتظرون انسلاخ شهر رمضان من سنة اربعين لهجرة النبي (ص) ، وأرسل أمير المؤمنين زياد بن حفصة في جماعة من أصحابه طليعة بين يديه ، وبقي هو مع الجيش ينتظر انسلاخ الشهر المبارك ، وإذا بالقدر ينقض عليه وعلى أهل العراق فيكمن له اشقى الأولين والآخرين في فجر اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر وهو في بيت الله فيضربه على رأسه الشريف وهو يصلي لربه فيخر منها في محرابه وهو يقول :

فزت ورب الكعبة .



المؤامرة الكبرى

في شهر رمضان من سنة اربعين للهجرة ، وبينما أمير المؤمنين يجاهد ويكابد ليحمل أصحابه على مناصرة الحق والمستضعفين وحرب البغاة وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان ويعدهم لهذه الغاية اعدادا سليما ، ويبعث فرقا من جيشه إلى هنا وهناك لرصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على اطراف العراق والحجاز واليمن ، وفي الوقت ذاته يجاهد عماله ليحملهم على الحق الواضح ويأخذهم بالأمانة في أعمالهم وعدم التفريط بأبسط الحقوق والواجبات ، بينما كان في هذا كله وإذا به يسقط صريعا في بيت الله بسيف ابن ملجم المرادي نتيجة لمؤامرة ذهب اكثر المؤرخين أنها وضعت في مكة المكرمة وفي موسم الحج بالذات ، واشترك فيها ثلاثة من الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك ، وعمرو بن بكر التميمي ، وقيل أن الثالث كان من الموالي يدعى زادوية مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم جمعتهم الصدف أو أنهم خططوا للاجتماع في موسم الحج وتذاكروا أمور المسلمين وما آلت اليه من الخلاف والشقاق والفساد واتفقوا في الرأي على أن الأمة لا يمكن لها أن ترتاح مما تعانيه من الفوضى والفساد والخلاف ما دام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص على قيد الحياة وتعاقدوا على قتلهم فاختار ابن ملجم قتل علي بن أبي طالب ، واختار الحجاج بن عبد الله قتل معاوية ، واختار الثالث ابن العاص وتواعدوا صبيحة اليوم التاسع عشر أو السابع عشر من شهر رمضان لتنفيذ ما تعاقدوا عليه على

أن يتم التنفيذ في الاقطار الثلاثة في ساعة واحدة .

وفي رواية ذكرها البلاذري في الأنساب أنهم تواعدوا في عمرة رجب من سنة اربعين ولم يزد على ذلك وهذه الرواية يكتنفها الغموض من حيث أن تواعدهم في رجب كما يحتمل أنه كان لتنفيذ المؤامرة في ذلك الوقت يحتمل أنهم وضعوها في ذلك الوقت والتنفيذ في شهر رمضان ، ومما يرجح أن تواعدهم يعني اجتماعهم في العمرة ، ما ذكره اليعقوبي من أن عبد الرحمن بن ملجم دخل الكوفة في العشرين من شعبان . وقيل أن الأشعث بن قيس الكندي هو الذي دبر المؤامرة على حياة أمير المؤمنين (ع) واتفق مع ابن ملجم على تنفيذها وكان عداده في كندة على حد تعبير الرواة ، ويعتمد أصحاب هذا الرأي في جملة ما يعتمدون عليه على ما رواه أبو الفرج الأصفهاني عن محمد بن الحسين ، أن الأشعث بن قيس دخل على أمير المؤمنين فكلمه في أمر فأغلظ له علي (ع) فعرض له الأشعث في أنه سيفتك به ، فقال له أمير المؤمنين (ع) :

أبالموت تخوفني وتهددني فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليّ .

وجاء في رواية ثانية أن الأشعث بن قيس في الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين خلا بابن ملجم في بعض نواحي المسجد ومر بهما حجر بن عدي فسمع الأشعث يقول له : النجاة النجاة بحاجتك قد فضحك الصبح ، فقال له حجر بن عدي : قتلته يا أعور ومضى مسرعا إلى أمير المؤمنين فوجد ابن ملجم قد سبقه إليه وضربه بالسيف على رأسه وهو في محرابه ، وأصحاب هذا الرأي اكثر ما يعتمدون عليه تلك المواقف العدائية التي كان يقفها ابن الأشعث مع أمير المؤمنين كما أشرنا إلى بعضها خلال حديثنا عن التحكيم ونتائجه .

وقيل أن المؤامرة تمت بين ابن ملجم ومعاوية بن أبي سفيان ، ونقل هذا الرأي (فلهوزن) في كتابه تاريخ الدول العربية عن الطبري ، وأيد جماعة هذا القول بالأبيات التي خاطب بها أبو الأسود الدؤلي معاوية بعد تنفيذ المؤامرة وفيها يقول :

ألا ابلغ معاوية ابن حرب فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرا اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمبينا

والبيتان الثاني والثالث قد أسند فيهما الجريمة لمعاوية وحزبه مباشرة ولو كان من فعل الخوارج لم يكن لاسنادها لمعاوية وجه مقبول .

ويبدو من حديث الأستاذ أحمد عباس صالح في كتابه اليمين واليسار في الإسلام عن جريمة اغتيال ابن ملجم لأمير المؤمنين أنه قد خرج منه وهو مقتنع بأن الجريمة من تدبير معاوية ، حيث قال متسائلا : لماذا نجحت خطة الاغتيال بالنسبة إلى علي بن أبي طالب ولم تنجح مع عمرو بن العاص ومعاوية ، ومضى يقول : بأن الجريمة هنا مدبرة بإحكام شديد يفوق أي جريمة اخرى ، فقد رتبت ببراعة مستفيدة من كل الظروف ، وانتهى إلى القول : بأنه ليس هناك شك في أن حقيقة الجريمة قد عرفت في حينها وإن الشعب كان يعلمها أو على الأقل يشك في وقوعها فهناك رجال كثيرون قد افصحوا عن هذا ، بل منهم من جهر بها أمام الناس وعلى رأسهم رجل من خيرة المسلمين وفي مقدمة صفوفهم هو أبو الأسود الدؤلي .

في حدود هذه الاحتمالات الثلاثة تناول الباحثون القدامى والمحدثون جريمة الاغتيال التي نفذها ابن ملجم المرادي وفشل رفيقاه في تنفيذها بعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ، وقد أخذ أكثر المؤرخين والمحدثين بالرأي الأول بدون تمحيص للمرويات ولا دراسة للظروف والملابسات والأحداث التي رافقت خلافة الإمام عليه السلام .

والذي أراه أن التخطيط للجريمة إذا صح أنه كان في موسم الحج وفي مكة بالذات كما تزعم اكثر المرويات ورجحه اكثر المحدثين والمؤرخين وأن الثلاثة تواعدوا على تنفيذها في مصر والشام والعراق في ليلة واحدة بل وفي الساعة

الاولى من اليوم التاسع عشر أو السابع عشر من شهر رمضان ، ومعنى ذلك أن بين التخطيط لها وتنفيذها عشرة أشهر تقريبا ، لو افترضنا صحة ذلك وإن كان عندي اكثر من مرجح لبطلان هذا الافتراض لو افترضنا ذلك فليس ببعيد أن يكون التخطيط لها قد تم بالاتفاق مع ابن العاص وابن الزبير وغيرهما من الطامعين في الخلافة على أن يتم التنفيذ بالإمام علي ومعاوية ليخلو الجو لغيرهما ، ولذا فإن ابن العاص لم يخرج في تلك الليلة بالذات دون غيرها من سائر الليالي ، وبلا شك فلقد كان يطمع بها وقد حاول مع الأشعري في دومة الجندل على أن تكون له أو لولده عبد الله كما تشير إلى ذلك بعض المرويات ، وليس ذلك بغريب ولا ببعيد عليه وتمت صياغة المؤامرة بهذا الشكل حتى لا يتهم بها هو أو غيره ، ولا احسب أحدا يلم بتاريخه وتاريخ ابن الزبير وبتلك الفترة من تاريخ المسلمين وما فيها من احداث يستبعد عليهما وعلى غيرهما من ذوي الأطماع ذلك .

ولكن الباحث لا يجد فيها بأيدينا من المصادر دليلا على التخطيط للمؤامرة بهذا النحو ولا بالنحو الذي يعتمده اكثر المؤرخين ذلك لأن المؤامرة كما يدعيها المؤرخون بجميع حلقاتها تدعو إلى الاستغراب والتساؤل لأن اجتماع ثلاثة في موسم الحج ليسوا من قادة الخوارج ولا من المعروفين فيهم ولا تجمعهم قبيلة واحدة أو قطر واحد على أمر عظيم من هذا النوع بعيد وغريب في نوعه ، وكيف اطمأن بعضهم إلى بعض على أمر من هذا النوع ، ولماذا التأخير في التنفيذ من موسم الحج إلى أواخر رمضان من السنة الثانية ، ولماذا تخلف ابن العاص في تلك الليلة واستناب غيره ليصلي بالناس ، ولماذا خرج معاوية دارعا للصلاة في تلك الليلة كما نسب ذلك الأستاذ أحمد عباس لبعض الروايات ، مع أن ذلك من غير المألوف في الصلاة ، والروايات التي تنص على أنه قد أصيب متفقة على أن اصابته كانت طفيفة وليست شيئا ، مع أن جماعة من الكتّاب يشكك بها ، وبعضهم يجزم بكذبها .

وإذا كانت المؤامرة بين ثلاثة من الخوارج في مكة ، فلماذا استعان ابن ملجم بشبيب بن بحران ، ووردان بن مجالد ، ولماذا كان الأشعث متحمسا

للفتك بأمير المؤمنين . كل هذه التساؤلات تثير أكثر من الشك فيما تبناه الجمهور الأعظم من المؤرخين .

فلم يبق اقرب إلى منطق الأحداث وملابساتها إلا الرأي القائل بأن اغتيال أمير المؤمنين كان نتيجة لمؤامرة دبرها معاويه وابن العاص بالاتفاق مع الأشعث بن قيس في الكوفة وغيره من الخونة بعد أن ايقن أن الإمام (ع) صائر إليه بأهل العراق ، ولا تنجيه منه هذه المرة جميع المكائد والمحاولات مهما كان نوعها ، كما ترجح ذلك المرويات التي تنص على أن الأشعث قد هدد أمير المؤمنين بالقتل ، وإن ابن ملجم أقام شهرا بالكوفة عند الأشعث كما في تاريخ اليعقوبي، وأنه في تلك الليلة قال له : النجاة لحاجتك قد فضحك الصبح .

وقد ذكرنا أن كل ما حدث بعد رجوع الإمام من صفين كان من حلقات المؤامرة التي ابتدأت برفع المصاحف في صفين وتوالت بعد ذلك حتى انتهت بمصرع الإمام بذلك النحو من الصياغة التي دبرت ببراعة واتقان . وأبيات أبي الأسود تشير إلى أن ذلك لم يكن خافيا يوم ذاك ولذلك فقد خاطب معاوية بها وأساند القتل اليه .

ومهما كان الحال فقد جاء في رواية أبي الفرج عن أبي مخنف عن عبد الله بن محمد الأزدي أنه قال : إني لأصلي في تلك الليلة بالمسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من اول الليل إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا من السدة قيامة وركوعا لا يسأمون إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب عند الفجر فأقبل ينادي الصلاة الصلاة وبعدها رأيت بريق السيف وسمعت قائلا يقول : الحكم لله لا لك يا علي : ثم رأيت بريق سيف آخر ، وسمعت عليا يقول : لا يفوتنكم الرجل ، وكان الأشعث قال لابن ملجم : النجاة لحاجتك قبل أن يفضحك الفجر .

وقال أبو الفرج : فأما بريق السيف الأول فإنه كان شبيب بن بحيرة ، وقد ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق ، وأما بريق السيف الثاني فإنه ابن ملجم ضربه على رأسه فأثبت الضربة في وسط رأسه وأكثر الروايات تنص على

أنه ضربه بعد أن رفع رأسه من السجود ، ومضى الراوي يقول : فشد الناس عليهما من كل جانب ، اما ابن ملجم فقد قبض عليه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وصرعه وأخذ السيف منه ، وأما شبيب بن بحيرة فقد أخذه رجل وصرعه وجلس على صدره ليقتله بسيفه ، ولما رأى الناس يشدون عليه من كل جانب خشي أن يصيبوه فوثب عن صدره ففر هاربا حتى أتى منزله فجاءه ابن عم له فوجده يحل الحرير عن يده ، فقال له : ما شأنك لعلك قتلت أمير المؤمنين فأراد أن يقول لا فقال نعم ، فخرج وأتى بسيفه وقتله .

وأدخل الناس ابن ملجم على أمير المؤمنين ، فقال عبد الله بن محمد الازدي : فدخلت فيمن دخل فسمعت أمير المؤمنين يقول : النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن سلمت رأيت فيه رأيي ، فقال ابن ملجم : لقد اشتريته بألف وسممته بألف فإن خانني فأبعده الله ، وانصرف وأحدق الناس بابن ملجم يحاولون أن ينهشوا لحمه بأسنانهم ، وتعالت الأصوات بالبكاء والنحيب من كل جانب ، وأصيب أهل الكوفة بالذهول والدهشة لذلك الحادث الجلل ، وهم يقولون : يا عدو الله ماذا صنعت لقد أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس بعد رسول الله وهو صامت لا يتكلم .

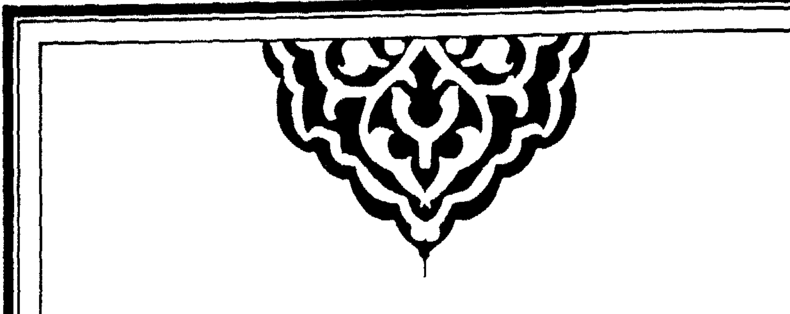
ثم جمعوا له اطباء أهل الكوفة وكان اعلمهم بالطب والجراحة أثير بن عمرو بن هاني ، فلما وقف أثير على جرح أمير المؤمنين ، قال والغصة في قلبه وصوته يتهدج : أعهد عهدك يا أمير المؤمنين ، فإن ضربة اللعين قد وصلت أم رأسك ، فلم يتأفف أو يتضجر من ذلك ، وجمع ولده وأوصاهم بالاعتصام بحبل الله وبما جاء به الاسلام من مكارم الأخلاق والاحسان إلى الفقراء والمساكين .

وجاء في وصيته : الله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في معايشكم ، الله الله في ما ملكت إيمانكم فإن رسول الله في آخر ما أوصى به قال : أوصيكم بالضعيفين مما ملكت إيمانكم ، ومضى يقول : قولوا للناس حسنا كما أمركم الله ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم ، وتدعون فلا يستجب لكم ، وعليكم بالتواضع والتباذل واياكم والتقاطع والتفرق وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، إلى غير ذلك مما كان يحرص أن يجمع الناس عليه طيلة حياته .

وظل يكابد الألم من تلك الضربة حتى قضى نحبه في ليلة احدى وعشرين من شهر رمضان شهيد الحق والعظمة والعدالة ، تاركا وراءه أروع الأمثلة من البطولات والتضحيات والاستخفاف بالدنيا وأمتعتها وعشاقها وقضى وهو يخاطب الدنيا وخيراتها التي كانت تحت قدميه : يا دنيا غري غيري فلقد طلقتك ثلاثا لا وصية لي فيك .

لقد خرج من هذه الدنيا من بيت الله كما دخلها من بيت الله تاركا الحسن والحسين وزينب والذرية الطاهرة بين يدي خصمه في الله معاوية بن أبي سفيان ومن تلاه من اولئك الحكام ، يمزقهم الألم ويقسو عليهم الزمن في سلسلة من المآسي لم تعرف البشرية أشد هولا منها ولا اقسى في تاريخها الطويل وحلت على أخصامه لعنة الله ولعنة اللاعنين من ولدوا وماتوا إلى يوم الدين .



الإمام الثاني

الحسن بن علي المجتبى





الإمام الحسن بن علي (ع)

أما الحسن فله هيبتي وسؤددي وأما الحسين فله جرأتي وجودي .

لقد استقبل رسول الله (ص) سبطه الحسن سيد شباب أهل الجنة في ليلة النصف من رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان في السنة الثالثة من هجرته . ولما بلغه نبأ ولادته غمرته الفرحة وبدا عليه الارتياح وقام من ساعته إلى بيت الصديقة فاطمة الزهراء ونادى يا اسماء أين ولدي ؟ فأسرعت أسماء إلى الوليد المبارك وهو ملفوف بخرقة صفراء فتناوله منها وقال : ألم أعهد اليكم أن لا تلفوا المولود في خرقة صفراء واذن في اذنه اليمنى وأقام في اليسرى ، فكان اول صوت مر على سمع السبط الكريم وتغلغل في اعماق نفسه وقلبه ، صوت جده العظيم : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، هذه الكلمات القصار بمحتوياتها الكثيرة كانت أنشودة الإمام أبي محمد الحسن في كل مراحل حياته يحاول بكل ما لديه من جهد أن يغرسها في أعماق النفوس لتكون أنشودة الحياة جيلا بعد جيل .

والتفت إلى الإمام بعد أن كبر في اذنيه وسأله هل سميت وليدك الميمون يا علي ؟ فأجابه الإمام على الفور : ما كنت لأسبقك يا رسول الله ، فتوقف النبي (ص) عن الكلام لحظات وكأنه ينتظر أمر السماء في ذلك ، وفيما هو يفكر وإذا بالوحي يناجيه بالاسم المبارك من عند الله سبحانه ويقول له : سمه حسنا يا رسول الله كما جاء في بعض المرويات .

وجاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) أن رسول الله عق عنه بكبش ، وقال اللهم عظمها بعظمه ودمها بدمه ولحمها بلحمه وشعرها بشعره ، اللهم اجعلها وفاء لمحمد وآل محمد .

وفي رواية ثانية أنه عق عنه بكبشين وأمر فاطمة (ع) أن تحلق رأسه وتتصدق بوزنه فضة على الفقراء ، وأمر بختانه في اليوم السابع لولادته ، وقال : طهروا أولادكم يوم السابع فإنه أطيب وأطهر وأسرع لنبات اللحم .

وروي في أسد الغابة عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب أنها قالت للنبي : يا رسول الله رأيت كأن عضوا من اعضائك في بيتي ، وفي رواية ثانية في حجري ، فقال لها : خيرا رأيت أن ابنتي فاطمة تلد غلاما فترضعيه بلبن ولدك قثم وكان الأمر كما قال (ص) فلقد أرضعته بلبن قثم كما جاء في بعض الروايات .

والظاهر أن هذه الرواية من صنع الرواة لأن قثم بن العباس اكبر من الحسن سنا ، وحين ولادة الحسن كان العباس في مكة ولم يهاجر إلى المدينة إلا في السنة السابعة أو الثامنة وقد بقي في مكة مع عائلته برأي النبي (ص) يراقب تحركات قريش ويخبره بها وقد خرج مع المشركين إلى بدر مكرها ووقع أسيرا ، وفدى نفسه وابني أخويه عقيل والحارث بن الحرث كما تؤكد ذلك اكثر المصادر ورجع إلى مكة بعد أن دفع الفداء المطلوب منه وبقي بها مع عائلته وأولاده إلى أن التحق بالنبي بعد الفتح .

ومهما كان الحال فلقد كان الحس بن علي (ع) يلقب بالطيب والتقي والزكي والولي والسبط والمجتبى ، ويكنى بأبي محمد ، وهو سيد شباب أهل الجنة بإجماع المحدثين وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله (ص) وأحد الأربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران ، ومن أصحاب الطهر .

الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

ومن القربى الذين أمر الله بمودتهم وجعلها أجرا لرسالته كما نصت على ذلك الآية :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ .

وأحد الثقلين اللذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنهما ضل وغوى كما اتفق على ذلك اكثر الرواة ، ومن أهل البيت الذين شبههم الله بسفينة نوح ، وقد قال فيه وفي أخيه الحسين : اللهم أني أحبهما فأحبهما وأحب من أحبهما ، وقال فيهما : كل بني بنت ينتمون وينتسبون لآبائهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وإلي ينتسبون إلى غير ذلك مما صح من اقواله فيه وفي أخيه الحسين عليهما السلام .

وقال واصفوه أنه كان أشبه الناس برسول الله خلقا وخلقا وسؤددا وهديا ، وقال الغزالي في احياء العلوم : إن النبي (ص) قال له : لقد أشبهت خلقي وخلقي ، ولم يكن أحد أشبه برسول الله منه كما جاء عن مالك بن أنس .

وروى محمد بن مسلم البخاري في صحيحه عن أبي بكرة أنه قال : رأيت النبي (ص) على المنبر والحسن بن علي معه وهو يقبل على الناس مرة وينظر اليه مرة ويقول : إن ابني هذا سيد .

لقد نشأ أبو محمد الحسن بن علي في احضان جده رسول الله ، وغذاه برسالته وتعاليم الاسلام وأخلاقه ويسره وسماحته وظل معه وفي رعايته إلى أن اختاره الله اليه حتى اصبح مفطورا على اخلاقه وآدابه وتعاليمه .

وروت زينب بنت أبي رافع أن فاطمة الزهراء (ع) أتت بالحسن والحسين إلى أبيها في شكواه التي توفي فيها فقالت له : هذا ابناي فورثهما شيئا ، فقال : أما الحسن فله هيبتي وسؤددي ، وأما الحسين فله جرأتي وجودي .

وروى الطبرسي في اعلام الورى عن محمد بن اسحاق أنه قال : ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله ما بلغه الحسن بن علي ، فلقد كان يبسط له فراش على باب داره فإذا خرج وجلس عليه انقطع الطريق فما يمر أحد من خلق الله إجلالا له ، فإذا علم بذلك قام ودخل بيته فيمر الناس ، ومضى الراوي يقول : ولقد رأيته في طريق مكة ينزل عن راحلته ويمشي على قدميه ، فما من

خلق الله أحد إلا وينزل عن راحلته ، وكان مع القافلة سعد بن عبادة فنزل ومشى إلى جانبه .

وجاء في رواية البخاري والترمذي ومسلم في صحاحهم وابن كثير في البداية والنهاية عن البراء بن عازب أنه قال : رأيت النبي (ص) والحسن على عاتقه وهو يقول :

اللهم إني أحبه فأحبه .

كما روت عائشة عن النبي (ص) أنه كان يأخذه فيضمه اليه ويقول اللهم أن هذا ابني وأنا أحبه وأحب من يحبه ، وكان يحمله على رقبته فلقيه رجل وهو على هذه الحالة فقال : نعم المركب ركبت يا غلام ، فقال رسول الله : ونعم الراكب هو ، وكان يأتيه احيانا وهو ساجد فيركب ظهره فيطيل السجود والحسن على ظهره ، فإذا فرغ يسأله المسلمون عن سبب ذلك ، فيجيب لقد ترحلني ابني فكرهت أن أعجله .

وقال فيه وفي أخيه الحسين عشرات المرات :

هذان ريحانتاي من الدنيا من أحبني فليحبهما ، ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله وأدخله النار ، وأنهما سيدا شباب أهل الجنة .

وأحيانا كان يعقب على ذلك بقوله : **أن أباهما خير منهما .**

وحدث أبو هريرة كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير أن النبي (ص) نظر إلى علي وفاطمة والحسن والحسين وقال : أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم ، ويروي الرواة أن أبا هريرة التقى بالحسن ابن علي يوما ، فقال له : يا ابن رسول الله ، أرني جسدك حتى أقبل منه ما كان يقبل رسول الله فكشف له قميصه فقبله في سرته ، وكان ابن عباس مع جلالته إذا ركب الحسن والحسين أخذ في ركابهما ويعد ذلك من نعم الله عليه ، وكانا إذا طافا في البيت يكاد الناس يحطمونها من الازدحام عليهما .

وكان ابن الزبير مع حقده على أهل البيت وحسده لهم يقول : والله ما

قامت النساء عن مثل الحسن بن علي (ع) .

وقال عنه واصل بن عطاء : كان الحسن بن علي عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك ، وكان كما في رواية ابن كثير إذا صلى الغداة في مسجد النبي (ص) يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس فيجلس اليه سادة الناس يسألونه عن أمور دينهم ويتحدثون بين يديه ، وكان إذا توضأ للصلاة تغير لونه وإذا وقف لها ارتعدت فرائصه ، وإذا ذكر الموت أو القبر أو البعث والصراط يبكي حتى يغشى عليه ، وإذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، وقد قاسم الله ماله ثلاث مرات ، وخرج من ماله كله مرتين وحج خمسا وعشرين حجة وأن النجائب لتقاد بين يديه وهو ماش على قدميه يقول : إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته ، وإذا رآه الناس ماشيا ترجلوا اكراما له ، فإذا أعياهم المشي جاؤ وا اليه وقالوا : يا ابن رسول الله أن الناس قد أعياهم المشي على أقدامهم فإما أن تركب بعض نجائبك ليرك الناس ، أو تتنكب الطريق فإن أحدا لا تطاوعه نفسه وأن يركب وأنت تسير على قدميك ، فينحرف بمن معه عن الجادة ، فإذا ابتعد عن الناس ركبوا رواحلهم .

لقد اجتمع في الإمام أبي محمد الحسن بالاضافة إلى شرف النسب ما ورثه من جده النبي وأبيه الوصي من العلم وكريم الصفات ما لم يجتمع في احد من الناس ، ووجد فيه المسلمون ما وجدوه في جده الرسول من أخلاق ومزايا وصلابة في الحق وتضحية في سبيل الله وخير الانسانية ، لقد جسد الإمام الحسن اخلاق جده ومزايا جده وتعاليم الإسلام وكان يذكرهم به من جميع نواحيه فأحبوه وعظموه وكان مرجعهم الأول بعد أبيه في كل ما كان يعترضهم من المشاكل وما يستعصي حله عليهم من أمور الدين ، لا سيما وقد اطل المسلمون في عصره على فجر جديد وحياة جديدة حافلة بالاحداث التي لم يعرف المسلمون لها نظيراً من قبل .



تواضعه وكرمه

لقد روى المؤرخون عن تواضعه وكرمه عشرات الروايات فمن ذلك انه اجتاز على جماعة من الفقراء وقد جلسوا على التراب يأكلون خبزاً كان معهم فدعوه الى مشاركتهم فجلس معهم وقال : ان الله لا يحب المتكبرين ، ولما فرغوا من الأكل دعاهم الى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم من عطائه ، ومرة اخرى مر على فقراء يأكلون فدعوه الى مشاركتهم ، فنزل عن راحلته وأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وأعطاهم ، وقال : اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما اطعموني ونحن نجد ما اعطيناهم .

وروى المحدثون عنه أنه اتاه رجل في حاجة فقال له : اكتب حاجتك في رقعة وارفعها الينا فكتبها ورفعها اليه فضاعفها له ، فقال له بعض جلسائه : ما كان اعظم بركة هذه الرقعة عليه يا ابن رسول الله ، فقال : بركتها علينا اعظم حيث جعلنا للمعروف اهلاً ، اما علمتم أن المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة ، فأما إذا اعطيته بعد مسألة فإنما اعطيته بما بذل لك من وجهه وعسى أن يكون بات ليلته متململاً ارقاً يميل بين اليأس والرجاء لا يعلم بما يرجع من حاجته ابكآبة الروام بسرور النجح فيأتيك وفرائصه ترعد وقلبه خائف يخفق فإن قضيت له حاجته فيما بذل من وجهه فإن ذلك اعظم مما نال من معروفك .

وأعطى شاعراً مبلغاً كبيراً من المال ، فقال له رجل من جلسائه : سبحان الله اتعطي شاعراً يعصي الرحمن ويقول البهتان ؟ فقال : يا عبد الله ، ان خير ما بذلت من المال ما وقيت به عرضك ، وان من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

وسأله رجل فأعطاه خمسين الف درهم وخمسماية دينار ، وقال له : ائت بمن يحملها لك ، فأتى بحمال فأعطاه طيلسانة وقال : هذا كرى الحمال .

وجاءه اعرابي سائلاً ، فقال : اعطوه ما في الخزانة ، وكان فيها عشرون الفاً فدفعوها إليه ، فقال الاعرابي : يا مولاي ألا تركتني ابوح بحاجتي وأنشر مدحتي فقال الإمام (ع) :

نحن اناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والامل
تجود قبل السؤال انفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسل

ومر به رجل من أهل الشام ممن غذاهم معاوية بالحقد والكراهية لعلي وآل علي فجعل للإمام الحسن (ع) السب والشتم والإمام ساكت لا يتكلم وهو يعلم بأن الشامي لا يعرف علياً وآل علي إلا من خلال الصورة التي كان معاوية بن هند يصورهم بها وعندما انتهى الشامي من حديثه بما فيه من صلف وفظاظة ابتسم اليه وتكلم معه بأسلوب هادىء يتم عن سماحة وكرم متجاهلاً كل ما سمع وما رأى ، وقال : أيها الشامي اظنك غريباً فلو انك سألتنا اعطيناك ، ولو استرشدتنا ارشدناك وان كنت جائعاً اطعمناك ، وإن كنت محتاجاً اغنيناك ، او طريداً آويناك ، ومضى يتحدث الى الشامي بهذا الاسلوب الذي يفيض بالعطف والرحمة حتى ذهل الشامي وسيطر عليه الحياء والخجل وجعل يتململ بين يديه يطلب عفوه وصفحه ويقول :

الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهكذا كان في جميع مواقفه مثالاً كريماً للخلق الإسلامي الرفيع الدي دعا اليه القرآن الكريم بقوله :

ادفع بالتي هي احسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عدواة كأنه ولي حميم .

لقد قابل جميع ما كان يوجه إليه من الأذى والمكروه من اخصامه وحساده بالصبر والصفح الجميل حتى اعترف له ألد اخصامه وأنكدهم بذلك ، فقد

روى المؤرخون ان مروان بن الحكم اسرع الى حمل جنازته ومشى مع المشيعين والكآبة بادية عليه ، فقال له ابو عبد الله الحسين : انك لتحمل جنازته وقد كنت بالأمس تجرعه الغيظ ، فقال : لقد كنت افعل ذلك مع من يوازي حمله الجبال .

وروى المدائني وغيره ان الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر خرجوا من المدينة إلى مكة لاداء فريضة الحج يقطعون المسافة مشياً على أقدامهم وتجنبوا الجادة رحمة بالحجاج حتى لا يتكلفوا السير على أقدامهم ففاتتهم اثقالهم وأمتعتهم فجاعوا وعطشوا فقصدوا خباء في بعض نواحي الصحراء فوجدوا فيه عجوزاً فطلبوا منها الطعام والشراب ، فقالت : ليس عندي سوى هذه الشاة فاذبحوها فذبحها احدهم وشوت لهم من لحمها ، ولما ارادوا المضي قالوا لها : يا امة الله نحن نفر من قريش نريد مكة فإذا رجعنا إلى المدينة فألمي بنا فانا صانعون بك خيراً ان شاء الله ، ومضوا في طريقهم ، ولما جاء زوجها اخبرته بما جرى لها ، فقال : ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش .

ومضت الأيام فأصابهم جدب اضر بحالهم فقصدت المدينة هي وزوجها لطلب العيش ، فرآها الإمام ابو محمد الحسن فعرفها ولم تعرفه فقال لها : انا ضيفك يوم كذا وكذا وأعطاها الف شاة وألف دينار ، وأرسلها إلى أخيه الحسين (ع) وعبد الله بن جعفر فأعطاها كل واحد منهما مثل ذلك فعادت الى حيها بعد الفقر المدقع من اثرى اهل الحي وأغناهم كما نص على ذلك الغزالي في المجلد الثالث من احيائه والبستاني في دائرة المعارف .

ويروي المؤرخون عن سخائه ايضاً ان جماعة من الأنصار كانوا يملكون بستاناً يعتاشون منه فاحتاجوا لبيعه فاشتراه منهم بأربعمائة الف ، ثم أصابتهم ضائقة بعد ذلك اضطرتهم لسؤال الناس ، فرد عليهم البستان حتى لا يسألوا احداً شيئاً .

وروى ابن شهراشوب في مناقبه ان جارية حيته بباقة ريحان ، فقال لها : انت حرة لوجه الله فلامه بعض جلسائه على ذلك ، فقال له : أو ما سمعت قول الله :

وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها ، ولا شيء احسن من عتقها .

وسأله رجل ان يعطيه شيئاً فقال له : ان المسألة لا تصلح إلا في غرم فادح أو فقر مدقع أو حمالة مفظعة[1] فقال له : ما جئتك إلا في اجداهن فأعطاه مائة دينار ، ثم اتجه الرجل الى الحسين (ع) فأعطاه تسعة وتسعين ديناراً وكره أن يساوي اخاه في العطاء ، ثم ذهب الرجل الى عبد الله بن جعفر فأعطاه اقل منهما ولما قص عليه ما جرى له معهما ، قال له : ويحك أتريد أن تجعلني مثلهما انهما غرّاً العلم والمال غراً .

وروى المؤرخون صوراً كثيرة من الوان بره وكرمه ومعروفه التي كان يغدق بها على السائلين والفقراء والمحرومين لانقاذهم مما كانوا يعانون من آلام الحاجة والبؤس ابتغاء وجه الله وثوابه لا للجاه والدنيا وتدعيم ملك وسلطان ولا لمكافأة على المديح والثناء كما كان يصنع ابن هند وغيره من حكام الأمويين والعباسيين ، ومن يتلذذون بالمديح والاطراء والجاه والسلطان .

ونكتفي بهذا المقدار اليسير من احاديث الرواة عن كرمه ومعروفه وان كان الكثير مما يرويه الرواة يخضع للنقد و الحساب، إلا أن القليل المتفق عليه بينهم يكفي لأن يجعله في القمة بين اجواد العرب الذين لا يرون للمال وزناً ولا يحسبون له حساباً ، نكتفي بهذا المقدار لننتقل إلى الحديث عن بعض ما رواه عنه الرواة في مختلف المواضيع ، وقد رووا ان له مسنداً ألفه ابو بشير محمد بن احمد الدولابي سنة ٣٢٠ هجرية وأدرجه في ضمن كتابه الذرية الطاهرة[2] .

---

(١) الحمالة هي ما يتحمله الشخص من الدية والغرامة عن قومه . وغيرهم ، والمفظعة الثقيلة الشديدة .

(٢) من مخطوطات المكتبة الاحمدية بجامع الزيتونة في تونس وتوجد منه نسخة مصورة عنها في مكتبة الامام امير المؤمنين كما جاء ذلك في المحلد الثاني من حياة الإمام الحسن للقرشي .

ويبدو ان هذا المسند هو مجموعة من احاديثه عن جده رسول الله مع العلم أنه كان حين وفاة جده ما بين السابعة والسادسة من عمره ، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون قد اخذ عنه مباشرة ما خف عليه ومن ابيه بقية الاحاديث ، وقد اورد منه القرشي في كتابه حياة الحسن (ع) الاحاديث التالية كما هي مروية في المسند المذكور .

روى الإمام الحسن عن جده انه قال : اللهم اقلني عثرتي وآمن روعتي واكفني من بغى علي وانصرني على من ظلمني وارني ثاري منه ، وروى عبد الله بن الحسن عن ابيه عن جده الحسن أن رسول الله كان يقول : يا مسلم اضمن لي ثلاثاً اضمن لك الجنة إن أنت عملت بما افترض عليك في القرآن فأنت اعبد الناس وان قنعت بما رزقك فأنت أغنى الناس ، وان اجتنبت ما حرم الله عليك فأنت اورع الناس . وقال سمعت جدي رسول الله يقول : من صلى الفجر فجلس في مصلاه إلى طلوع الشمس ستره الله من النار .

وجاء في المسند المذكور إن امرأة جاءت إلى النبي (ص) ومعها بناها فأعطاها ثلاث تمرات فأعطت كل واحد منهما تمرة ثم نظر إلى امهما شقت التمرة الثالثة بينهما فقال رسول الله : رحمها الله برحمتها بنيها

وجاء عنه انه قال : علمني رسول الله (ص) كلمات اقولهن في الوتر ، اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما اعطيت وقني شر ما قضيت فانك تقضي ولا يقضي عليك وانه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت .

وقال له رجل من اصحابه : ما تذكر من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول لرجل : دع ما يريبك الى ما لا يريبك فإن الشر ريبة والخير طمأنينة ، وإذا سألك احد حاجة فلا ترده إلا بها او بميسور من القول .

وقال سمعت رسول الله (ص) يقول ادعوا لي سيد العرب ، فقالت له عائشة : ألست سيد العرب يا رسول الله ، فقال : انا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب فدعي له الإمام (ع) ، فلما مثل بين يديه ارسل إلى الأنصار يدعوهم ،

فلما حضروا التفت اليهم وقال : يا معشر الانصار ألا ادلكم على شيء ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي فإن جبريل اخبرني بالذي قلت لكم عن الله عز وجل .

وقد روى الامام الحسن (ع) عن هند بن أبي هالة ربيب رسول الله صفات النبي (ص) في بدنه وخلقه ومجلسه وجميع حالاته ، وكان هند بن ابي هالة بليغاً وصافا وأكثر المؤرخين يروون صفات رسول الله (ص) عنه .

وجاء عن الامام أبي محمد الحسن (ع) أنه قال : سألته عن مجلس رسول الله فقال : كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله ، وإذا دخل على قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ويعطي كلا من جلسائه نصيبه ، فلا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ومن جالسه أو أتاه في حاجة حايرة حتى يكون هو المتصرف ، ولم يرده إلا في حاجته أو بميسور من القول يجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع عنده الاصوات ترى جلاسه متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى وفعل الخيرات ، متواضعين يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

ومضى الراوي عن الامام الحسن يقول : كان رسول الله دائم السرور سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح قد ترك نفسه من ثلاث المراء والاكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث ، كان لا يذم أحداً ولا يعيّره ولا يطلب عثرة أحد ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا ومن تكلم انصتوا له حتى يفرغ يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته .

وكان الامام أبو محمد الحسن يقول لجليسه : إذا أردت عزا بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك وإذا خدمته صانك ، وإذا

أردت منه معونة اعانك ، وإذا قلت صدق قولك وإذا صلت شد صولتك وإذا مددت يدك بفضل مدها وأن بدت منك ثلمة سدها وأن رأى منك حسنة عدها ، وأن سألته اعطاك ، وأن سكت عنه ابتداك ، وإن نزلت بك أحدى الحلمات واساك لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وأن تنازعتما مغنماً آثرك .

وقد روى الرواة أن أمير المؤمنين (ع) وجه إلى ولده الحسن السبط أسئلة حول الاخلاق والآداب وما يمكن أن يتصف به الانسان من الصفات الكريمة فأجابه عليها على البديهة وكانت اجوبته في منتهى الابداع والروعة .

وجاء في المرويات التي تعرضت لهذا الموقف أنه سأله عن السداد والشرف والمروءة والدنية والسماحة والحلم والغنى والفقر والكلفة والعقل والحزم وغير ذلك من الصفات فقال : السداد دفع المنكر بالمعروف والشرف اصطناع العشيرة وحمل الجريرة ، والمروءة العفاف واصلاح المرء ما له ، والدنيئة النظر في اليسير ومنع الحقير ، والسماحة البذل في العسر واليسر ، والشح أن ترى ما في يديك شرفا والنفقة تلفا ، والإخاء الوفاء في الشدة والرخاء ، والجبن الجرأة على الصديق والنكول عن العدو ، والحلم كظم الغيظ وملك النفس ، والغنى رضا النفس بما قسم الله وإن قل فإنما الغنى غنى النفس والفقر شره النفس في كل شيء ، والكلفة كلامك فيما لا يعنيك ، والمروءة اصلاح الرجل امر دينه وحسن قيامه على ماله وافشاء السلام والتودد إلى الناس ، والكرم هو العطية قبل السؤال والتبرع بالمعروف والإطعام في المحل .

وقد تحدث يوماً إلى جماعة من أصحابه عن أصول الجرائم وأمهات الرذائل ، فقال : هلاك الناس في ثلاث الكبر والحرص والحسد ، ففي الكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس ، والحرص عدو النفس وبه اخرج آدم من الجنة ، والحسد رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل .

وكان يحرص على المزيد من العلم ويحرض الناس عليه ويقول : تعلموا العلم فإنكم اليوم صغار القوم وكبارهم غدا ، ومن لم يحفظ منكم فليكتب ،

وقال لبعض جلسائه : علم الناس وتعلم علم غيرك فتكون قد اتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم والسؤال نصف العلم .

ومن المأثور عنه أنه قال : لا أدب لمن لا عقل له ولا مودة لمن لا همة له ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل وبالعقل تدركون سعادة الدارين ومن حرم العقل حرمهما جميعا .

وكان يقول لأصحابه : هل رأيتم ظالما أشبه بمظلوم فيقولون له وكيف ذاك يا ابن رسول الله ؟ فيقول : ذاك هو الحسود فإنه في تعب دائم والمحسود في راحة ، ويقول لهم : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كاذب ، فإن علمت أنه صادق فهو عندي أحمق ، ويقول : فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير اهلها .

وقد سأله رجل عن السياسة ، فقال : السياسة أن ترعى حقوق الله وحقوق الأحياء والأموات فأما حقوق الله فاداء ما طلب والاجتناب عما نهى ، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو اخوانك ولا تتأخر عن خدمة أمتك ، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته ، وترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي ، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم ربا يحاسبهم .

وقال معاوية بن أبي سفيان يوماً : ما يجب لنا في سلطاننا ، فقال الامام (ع) : ما قال سليمان بن داوود ، فقال ما قال سليمان يا ابن رسول الله ؟قال : لقد قال لبعض جلسائه : أتدري ما يجب على الملك في ملكه وما لا يضره إذا أدى الذي عليه ، إذا خاف الله في السر والعلانية وعدل في الغضب والرضا واقتصد في الفقر والغني ، ولم يأخذ الأموال غصبا ولم يأكلها اسرافا وتبذيراً ولم يضره ما تمتع به من دنياه إذا كان من حله .

وجاء في تحف العقول أن رجلاً سأله أن يكون من جلسائه واصدقائه ، فقال له (ع) : اياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب ، أو تغتاب احداً عندي ، فقال له الرجل بعدما سمع هذه الشروط :

ائذن لي في الانصراف ، فقال له نعم إذا شئت .

وفيما هو يطوف في البيت سأله رجل عن معنى الجواد ، فقال له : أن لكلامك وجهين ، فإن كنت تسأل عن المخلوق ، فالجواد هو الذي يؤدي ما افترض عليه ، والبخيل هو الذي يبخل بما افترض عليه ، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد ان اعطى والجواد ان منع ، لأنه ان اعطى عبداً اعطاه ما ليس له ، وان منع منع ما ليس له ، والمعروف هو الذي لا يتقدمه مطل ولا يتبعه من ، والاعطاء قبل السؤال من السؤدد .

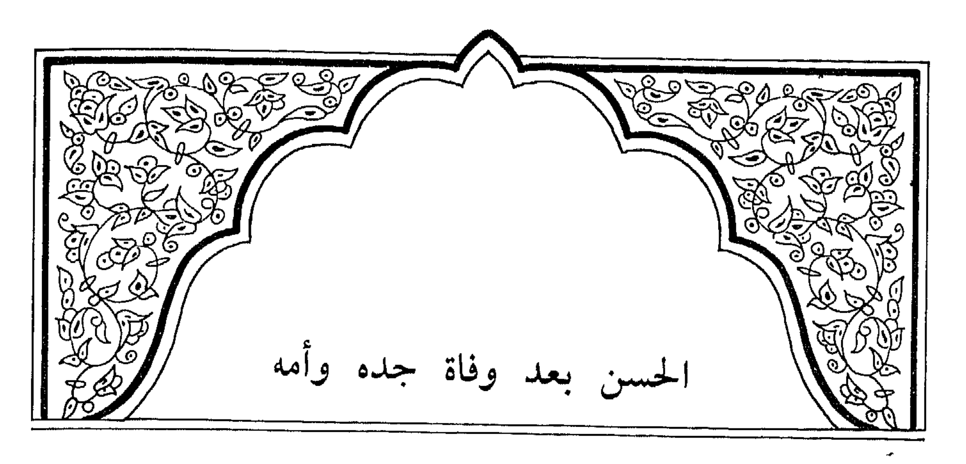
وقال له رجل أني من شيعتكم يا ابن رسول الله ، فقال له : يا عبد الله إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعا فقد صدقت ، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها ، لا تقل أنا من شيعتكم ولكن قل أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادي اعدائكم وأنت في خير والى خير .

وقد روى الرواة مجموعة من الكلمات القصار في الحكم والاخلاق والآداب وغير ذلك من المواضيع فيها من سهولة البيان والعمق في التفكير والخبرة الواسعة بأصول الاخلاق والسياسة ومشاكل الحياة ما يكفي لأن يكون في القمة بين عباقرة العصور في كل زمان ومكان كما تؤكد هذه الحقيقة النماذج التي عرضناها من آثاره وآرائه في مختلف المواضيع ، وليس ذلك بغريب عمن نشأ في بيت الوصي والتنزيل بيت محمد سيد المرسلين وعلي امام الفصحاء والموحدين ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، هذا بالاضافة إلى امامته الثابتة بنصّ الرسول ، والتي يلزمها أن يكون من أوفر الناس حظاً بكل صفة كريمة وأن يحيط بما يحيط به الناس ويختص بما لا يشاركه فيه أحد من الناس .

ونقف بعد هذه اللمحات عن آثاره وعما جاء فيه عند هذا الحد لنعود إلى عرض موجز لحياته مع جده وأبيه ومواقفه السياسة وخلافته القصيرة وما نتج عنها من أحداث كانت ولا تزال مسرحا للجدل وتضارب الآراء بين الكتّاب والمؤرخين طيلة القرون الماضية وفي عصرنا الحاضر .

لقد بقي الإمام ابو محمد الحسن(ع)مع جده المصطفى سبع سنين أو أقل من ذلك بقليل ، وهي السنين الأولى من حياته سنين الطفولة البيض التي كان جده فيها يرسم في روحه ونفسه ما يشاء له ويزوده بما كان يأتيه من السماء بين الحين والآخر وانتقل من جده لأبيه أمير المؤمنين الذي كان يجسد النبي بجميع تصرفاته وأقواله وأفعاله .

لقد كانت السنين الأولى من حياته حافلة بالنور والسعادة بين أبويه العظيمين وفي رحاب جده النبي يلقنه الحكمة ويبث في روحه ونفسه من أسرار السماء ما يؤهله للامامة التي تنتظره بعد أبيه ويؤكد على الناس في كل مناسبة أن يحفظوه فيه وفي أخيه الحسين ويقروا لهما بالامامة فيقول مشيراً إليه وإلى أخيه : هذان امامان قاما أو قعدا ، اللهم أني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما .



الحسن بعد وفاة جده وأمه

لقد انتقل الرسول عن هذه الدنيا وسبطه الحسن (ع) في مطلع صباه لم يتجاوز السابعة من عمره ، والسنين السبع وإن كانت قصيرة في حساب الزمن وفي عمر الناس لا يخرج الانسان بها عن سن الطفولة ، ولكن الامام أبا محمد الحسن (ع) بالرغم من أنه لم يتجاوز يوم ذاك هذا السن ، فلقد كان يعي ويفكر ويتلقى من جده ما يعيه ويتلقاه الكبار من أصحابه ، لذلك فقد أحس بفقد جده وظلت الكآبة بادية عليه وبخاصة حينما كان يرى أمه الزهراء تتلوى من الحزن والألم وتبكيه ليلها ونهارها ويرى ما لاقته من بعده من الأذى والجور والأحداث القاسية التي تجرعت مرارتها وظلت تكافح وتناضل الغاصبين بالحجة والمنطق وهي مع ذلك تذكر أباها وأيامه وتذهب على قبره شاكية باكية وتقول :

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد لا أختشي ضيما وكان جماليا
واليوم أخضع للذليل وأتقي ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا

كل ذلك كان يعانية الامام أبو محمد الحسن ويحس بمرارة ما تقاسيه أمه من ظلم وجور واضطهاد حتى خارت قواها ولم يعد جسمها النحيل يقوى على تحمل تلك الأحداث فأحست بدنو أجلها ودعت أولادها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وأخذت بيدهم تقبلهم تارة وتصمهم إلى صدرها أخرى وكأنها كانت على ميعاد مع الموت وفارقت الدنيا فتعالى صراخهم وبكاؤهم من داخل البيت ،

فأقبل علي (ع) إلى البيت مسرعاً يغالب دموعه الحائرة في مقلتيه ودنا من الجثمان المسجى في وسط البيت ومن حوله الحسن والحسين ، وبعد أن واراها الثرى التفت إلى قبر الرسول (ص) وقال : لقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار لي الله دارك التي أنت فيها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاصفها السؤال واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر ، والسلام عليك سلام مودع لا قال ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الصابرين .

لقد طوى القدر الصفحة الأولى من حياة الامام الحسن بوفاة جده التي كانت من أسعد أيام حياته كلها وظل يتذكرها ويستفيد من ابعادها ، وبقي بعد جده ثلاثة أشهر أو ستة على أبعد التقادير في رعاية أمه الزهراء وأبيه أمير المؤمنين وهما في صراع دائم مع القوم وفي غمرة من الحزن والألم لفقد النبي (ص) ، وما لبث أن عاد القدر بعد تلك الأشهر القليلة فطوى الصفحة الثانية من حياته بوفاة أمه الزهراء وقد حفت بأبيه الأحداث والنكبات والحسن يشاهد كل ذلك ويتجرع مرارتها وهو لا يزال في سن الطفولة فيرى أبا بكر على منبر جده رسول الله والناس محدقون به فيندفع نحوه مسرعاً وهو يقول : أنزل عن منبر أبي ، فيبتسم له ويقول: بأبي أنت يا ابن رسول الله لعمري أنه منبر أبيك لا منبر أبي، ويخيم الصمت على الحشود المجتمعة حول المنبر فيذكرون رسول الله وأيامه يوم كان يضعه على منكبه الأيمن ويضع أخاه الحسين على الأيسر ،ويوم جاءه وهو ساجد فركب رقبته ، ويوم جاءه وهو راكع فأفرج له بين رجليه حتى خرج من الجانب الآخر ، ويوم قيل له : يا رسول الله أنك لتصنع مع الحسن ما لا تصنعه مع غيره فقال لهم : أنه ريحانتي من الدنيا ، وتذكروا جميع تلك المشاهد وأيام رسول الله (ص) وإذا هم بين طوفان من الذكريات غطت بألوانها القاتمة جميع مسراتهم وأفراحهم



الحسن مع مؤذن النبي بلال

لقد نزح بلال الحبشي بعد وفاة النبي إلى أرض الشام والتحق في صفوف المجاهدين رغبة فيما عند الله سبحانه وظل مرابطاً هناك مع المرابطين فرأى في بعض الليالي وهو في سبات عميق رسول الله (ص) فسر في لقائه فقال له : ما هذه الجفوة يا بلال ، أما آن لك أن تزورني ، فانتبه من نومه فزعاً وهو يقول : والله ما غاب رسمك يا رسول الله عن عيني وما نسيتك لحظة واحدة ولا بد وأن أعود إلى يثرب لزيارة قبرك الشريف فانتبهت زوجته على حديثه وسألته عما به ، فقال لها : أني انتظر النهار لأعود إلى يثرب لزيارة قبر الرسول وقد جاءني يعاتبني على هذا الجفاء ، وما أن بزغ فجر ذلك اليوم حتى امتطى راحلته وانطلق في البيداء لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى المدينة ، ولما لاح له قبر النبي (ص) القى بنفسه عليه يبكي ويمرغ وجهه بترابه ، وفيما هو يناجيه وإذا بالحسن والحسين قد اقبلا لزيارة قبر جدهما وأمهما ، فلما رآهما تجددت احزانه وأسرع إليهما يضمهما إلى صدره ويقول : كأني بكما رسول الله . والتفتا إليه وقالا : إذا رأيناك ذكرنا صوتك وأنت تؤذن لرسول الله ونشتهي أن نسمعه الآن بعد غيابك الطويل ، وانطلق بلال من ساعته إلى سطح المسجد تلبية لرغبة السبطين فأجهش بالبكاء وانطلق صوته من ناحية المسجد إلى كل بيت في المدينة ، الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله فهز المشاعر وارتجت المدينة من أصوات الباكين ، ومضى الذهبي في كتابه سيرة اعلام النبلاء يقول : فلما قال بلال : أشهد أن محمداً رسول الله خرجت العواتق من خدورهن ، وظن الناس أن

رسول الله لقد بعث من قبره وما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله من ذلك اليوم .



الحسن في عهد الخلفاء الثلاثة

لم يحدث التاريخ بشيء يلفت النظر عن حياة الامام الحسن (ع) في عهد أبي بكر لأنه لم يتجاوز سن الطفولة في عهده القصير لأنه كان في حدود العاشرة من عمره يوم توفي أبو بكر ، ومع أنه كان بهذه السن ، فلقد كان يقوم بأكثر مما ينتظر من مثله من حيث وعيه وتفكيره وتصرفاته واحساسه بالأوضاع العامة وتطوراتها ، وكان لذلك ولما شاهده من جده الرسول الأعظم وما سمعوه فيه وفي أخيه يتمتع بتقدير المسلمين وعطفهم عليه ، وقطع دور الصبا وأشرف على الشباب في خلافة عمر بن الخطاب ، وانصرف مع أبيه عن السياسة والحكم إلى تعليم الناس وتفقيههم وحل مشاكلهم .

وحينما فرض عمر بن الخطاب لكل واحد من المسلمين نصيبه من العطاء في السنة الثانية من خلافته يوم كانت تتدفق الغنائم على المدينة من كل الجهات فرض لكل واحد ممن قاتل مع النبي (ص) في بدر خمسة آلاف درهم وألحق بأهل بدر أربعة من المسلمين الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان الفارسي ، وفرض لبقية المسلمين لكل واحد حسب جهاده ومكانته من الاسلام كما جاء في تاريخ الطبري .

وأضاف إلى ذلك ابن عساكر في تاريخه من حوادث السنة الخامسة عشرة أنه وردت على عمر بن الخطاب حلل من وشي اليمن فوزعها على المسلمين ونسيهما فبعث إلى عامله في اليمن أن يبعث له حلتين فأرسلهما إليه فأعطى لكل منهما حلة .

ومن المؤكد أنهما لم يشتركا في المعارك الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب بالرغم من أنها قد بلغت ذروتها في مختلف المناطق والانتصارات يتلو بعضها بعضا ، والأموال والغنائم تتدفق على المدينة من هنا وهناك ، ولم تظهر أي بادرة للامام أبي محمد الحسن طيلة عهد الخليفة الثاني ، في حين أنه كان في السنين الأخيرة من خلافة ابن الخطاب قد اشرف على العشرين من عمره ، وهو سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات التي كان المسلمون شبابا وكهولا وشيوخا يتسابقون إليها ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انصراف أمير المؤمنين عن التدخل في شؤون الدولة والحياة السياسية ، ومما لا شك فيه أن عدم اشتراك الامام في الحروب والغزوات لم يكن مرده إلى تقاعس الامام وحرصه على سلامة نفسه ، بل كان كما يذهب أكثر الرواة والمؤرخين لأن عمر بن الخطاب قد فرض على الكثير من أعيان الصحابة ما يشبه الاقامة الجبرية لمصالح سياسية يعود خيرها إليه ، وبقي الحسن السبط إلى جانب والده منصرفا إلى خدمة الاسلام ونشر تعاليمه وحل ما يعترض المسلمين من المشاكل الصعاب ، وكانت تصدر من الخليفة فلتات بين الحين والآخر يستشم منها الجمهور الاعظم من المسلمين بأن عمر بن الخطاب سيعهد إلى علي من بعده ولعل ذلك كان من أسباب اغتياله كما ذكرنا ، وظل هذا الاحتمال يراود الناس حتى كانت الشورى بتلك الصياغة التي لا تختلف في واقع الأمر عن التعيين إلا بالشكل والمظهر كما ذكرنا من قبل ، وقد دخل أمير المؤمنين في الشورى مع علمه بالنتيجة التي انتهت إليها ليفضح نواياهم ومخططاتهم كما جاء في جوابه لمن سأله عن أسباب عدم اعتزاله ، وكان الحسن (ع) إلى جنب والده يشاطره الآلام والنكبات التي لقيها من تحديات القوم وتجاهلهم له .

لقد كان عمر بن الخطاب وهو يصارع الموت يتذكر الأموات ويتمنى بقاءهم بين الأحياء ليعهد إليهم في خلافة المسلمين ، فقال بلغة الآسف الحزين : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته لأنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته لأنه شديد الحب لله تعالى ، لقد تأسف على أبي عبيدة وعلى سالم مولى أبي حذيفة لأنهما قد أحدثا فراغاً لا يسده غيرهما بزعمه ،

وتجاهل علياً وبالأمس القريب كان يقول فيه أنه على الحق الواضح والمحجة البيضاء ولن يعدو كتاب الله وسنّة رسوله ويقسم بالله بأنه لولاه لما قام للاسلام عمود ، وجال ببصره وبصيرته بين الأحياء فلم يجد سوى ستة من المسلمين يصلحون لها زعم أن علياً احدهم ، في حين أنه قد ناقض نفسه وهو يصف الخمسة بصفات لا تسمح له أن يوليهم ابسط الاعمال فضلاً عن الخلافة .

وكان أبو محمد الحسن قد بلغ عشرين عاماً أو تزيد وقد برز بين اعيان المسلمين في مواهبه العالية وتطلعاته إلى حقائق الأمور ومشكلاتها ، ومضى مع أبيه يتجرع مرارة تلك الأحداث القاسية ويستسلم معه للقدر المحتوم ويعملان لصالح الاسلام وانضم الحسن إلى جنود المسلمين الذين اتجهوا إلى افريقيا بقيادة عبد الله بن نافع وأخيه عقبة في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد كما جاء في العبر لابن خلدون ، وتطلع المسلمون إلى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم ، وكانت الغزوة ناجحة وموفقة كما يصفها المؤرخون ، وعاد الحسن منها إلى مدينة جده وقلبه مفعم بالسرور وعلامة الارتياح بادية على وجهه الكريم لانتشار الاسلام في تلك البقعة من الأرض .

ويظهر من رواية ابن خلدون أن الحسين كان مغ أخيه الحسن في تلك الغزوة كما جاء في تاريخ الأمم والملوك في حوادث سنة ثلاثين للهجرة أن سعيد بن العاص غزا خراسان ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله والحسن والحسين وعبد الله بن عباس ، وتحرك عبد الله بن عامر من البصرة بمن معه من المجاهدين باتجاه خراسان فسبق سعيد بن العاص ونزل ابرشهر وبلغ ذلك سعيد بن العاص فنزل قومس وكان قد صالحهم فيها كما صالحهم في نهاوند ، ومضى سعيد ومعه الحسن والحسين إلى جرجان فصالحوه على مائتي ألف ، ثم هاجم طميسة وهي تابعة لطبرستان وصحادة لجرجان على حد تعبير الطبري على ساحل البحر فقاتلهم اهلها قتالاً شديداً وصلى المسلمون صلاة الخوف وأخيراً انتصر المسلمون في تلك المناطق كما نص على ذلك ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

وجاء في الفتوحات الاسلامية وغيرها أن سعيد بن العاص غزا طبرستان

سنة ثلاثين من الهجرة وكان الاجهيد قد صالح سويد بن مقرن على مال بذله في عهد عمر بن الخطاب ، وفي عهد عثمان بعد استيلائه على السلطة بخمس سنوات تقريباً جهز إليهم جيشاً بقيادة سعيد بن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وغيرهم من أعيان المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها[1] .

وتؤكد أكثر المرويات أن الحسن والحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الاسلامية وكان لهما دور بارز في سير تلك المعارك التي كانت تدور رحاها بين المسلمين وغيرهم ، وليس بغريب على علي بن أبي طالب وبنيه أن يجندوا كل امكانياتهم وطاقاتهم في سبيل نشر الاسلام واعلاء كلمته ، وإذا كانوا يطالبون بحقهم في الخلافة فذاك لأجل الاسلام ونشر تعاليمه فإذا اتجه الاسلام في طريقه فليس لديهم ما يمنع من أن يكونوا جنوداً في سبيله حتى ولو مسهم الجور والأذى ، وقد قال أمير المؤمنين أكثر من مرة : والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جوراً إلا علي خاصة .

لقد وقف الامام الحسن إلى جانب أبيه في عهد الخليفة الثالث وقد تكاملت رجولته يعمل مخلصاً لمصلحة الاسلام ويشترك مع أبيه في وضع حد للفساد الذي استشرى في جسم الدولة من عثمان وبطانته الذين استأثروا بأموال العباد وخيرات الشعوب ونكلوا بالعلماء والابرياء ، وتعالت الصيحات من كل جانب ، ولم تكن صيحة أبي ذر التي لا تزال مثلا كريماً يحتذي به كل ثائر على الظلم وكل من ينشد الاصلاح إلا صدى لغضب الجماهير التي لم تعد تستطيع أن تهضم تسلط مروان بن الحكم الطريد ابن الطريد والوليد بن عقبة وابن أبي سرح وغيرهم من المروانيين والأمويين على الأمة ومقدراتها ، وتلفت الناس فرأوا عالما غير ذاك الذي بناه الاسلام وكادت أن تكون معالمه معدومة ولاذوا بعلي (ع) وكتائب الايمان الأولى ، فتوجهوا لعثمان ليأخذ علي أيدي اولئك العابثين

---

(١) انظر المجلد الخامس مں تاريخ الامم والملوك ص ٥٧ والمجلد الأول من الفتوحات الاسلامية ص ١٧٥ .

والمخربين ويجد من مجونهم واستهتارهم بالقيم والأخلاق وحقوق العباد ، ولكنه بدلاً من أن يستجيب لطلب الامام وصحابة النبي الابرار ويراعي شعور الجماهير التي ارتفعت إصواتها هنا وهناك بدلاً من ذلك انتزع مفاتيح بيت المال من زيد بن أرقم ، وراح يهدد ويتوعد ، وضرب ابن مسعود ورفس عمار برجليه وأغرى به غلمانه حتى اوسعوه ضرباً وشتماً وكاد يودي بحياته ، وفعل مثل ذلك بأبي ذر ، وراح يناجز الصلحاء بالقوة والقسوة والتعذيب فأخرج أبا ذر من مدينة الرسول مقهوراً إلى الشام على أسوأ حال ليكون تحت رقابة عاملها معاوية بن أبي سفيان ، ووجد الصحابي الجليل في عاصمة بلاد الشام استئثاراً واسرافا وتبذيراً في أموال المسلمين واستهتاراً بالقيم والمقدسات فارتفع صوته هناك كما كان يرتفع حيث يوجد الظلم والطغيان والفساد لم ترهبه سياط الجلادين وسطوة الحاكمين ولم يجد معاوية بدا من ارجاعه إلى المدينة ، وفيها اختار له عثمان الربذة لتكون مسكنه ومدفنه فنفاه إليها ومنع الناس من الاتصال به ووداعه ، ولكن أمير المؤمنين وولديه الحسن والحسين وعمار بن ياسر وجماعة من خيرة الصحابة قد تحدوا ارادة الخليفة وخرجوا لوداعه ، وحاول مروان بصلفه وغروره أن يحول بين أبي ذر ومودعيه ويخاطبهم بأسلوب الحاكم الذي عليه أن يأمر وعلى الرعية أن تنفذ ، فقال لعلي (ع) : أما بلغك أن أمير المؤمنين عثمان قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيرة وأن يشيعوه .

ثم اتجه إلى الامام أبي محمد الحسن (ع) وقد رأى في وجهه غضبة الاستنكار لاساليب العنف التي بلغت أقصى حدودها اتجه إليه وقال : أيه يا حسن ألا تعلم أن الخليفة قد نهى عن وداع أبي ذر والتحدث إليه فإن كنت لا تعلم فاعلم بذلك ، فلم يتحمل منه أمير المؤمنين هذا الأسلوب المتعجرف وضرب وجه راحلته التي حاول أن يسد بها الطريق وقال له : تنح نحاك الله الى النار فولى مروان منهزماً يشكوه إلى عثمان .

واتجه أمير المؤمنين إلى أبي ذر فودعه وألقى عليه كلمة حدد فيها موقفه من السلطة الحاكمة وموقفها منه تحديداً وافياً بكل أسباب الصراع بين الفئة المتدينة التي لا تهادن على حساب الاسلام ولا تلين لكل الضغوط والاغراءات مهما

كانت النتائج وبين الفئة الحاكمة من غلمان بني أمية الذين استغلوا السلطة للتسلط على الناس واعادة مظاهر الجاهلية بكل اشكالها وقد ذكرنا نص الكلمة التي القاها في وداع أبي ذر خلال حديثنا عن أبي ذر في الفصول السابقة .

واتجه إليه الحسن بن علي (ع) فودعه بكلمات تنم عن ألمه وتأثره من معاملة القوم لأبي ذر وغيره من خيار الصحابة ، فقال : يا عماه لولا أنه ينبغي للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الاسف وقد اتى القوم اليك فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها واصبر حتى تلقى نبيك ويحكم الله بينك وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين .

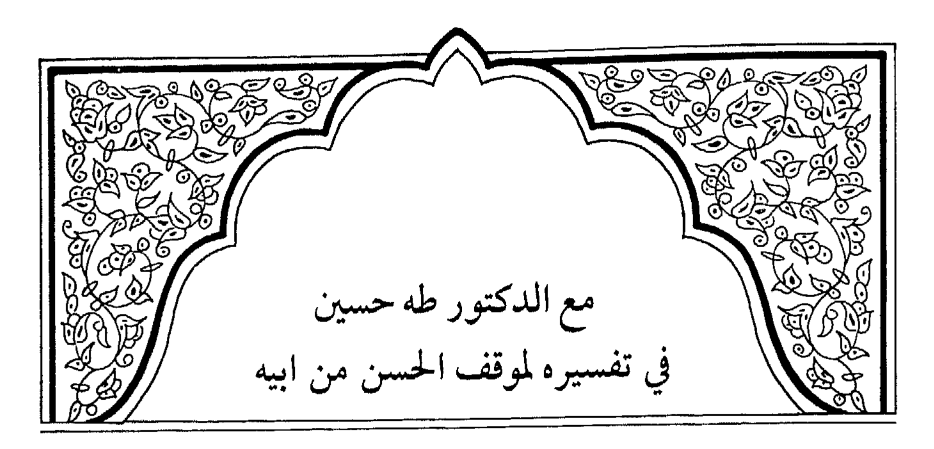
وبعد ان تكلم الحسين وابن عباس وبقية المشيعين ، اتجه ابو ذر إلى علي والحسنين (ع) وقال رحمكم الله يا أهل البيت اذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم اني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره ان اجاور اخاه وابن خاله بالمصرين فصيرني الى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله لا أريد إلا الله صاحبا وما اخشى معه وحشة ، وختم الصحابي الجليل حياته في فلاة من الأرض ليس له فيها صاحب إلا الله وصدق فيه قول النبي : يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن في فلاة من الأرض وحدك وتحشر وحدك .

لقد مل المسلمون سياسة عثمان وأعوانه وعماله وفشلت كل محاولات الاصلاح فخافوه على دينهم ودنياهم فزحفوا اليه من جميع الأقطار يطالبونه باصلاح ما افسده هو وعماله ، أو بالتخلي عن السلطة ، وكان أمير المؤمنين وولده الحسن وسيطين بين الخليفة ووفود الامصار في محاولة للاصلاح ووضع حد للفساد الذي شمل جميع مرافق الدولة ، وكانا كلما اشرفا على النجاح ، ووضعا الحلول الكفيلة بالاصلاح وارجاع الثوار إلى بلادهم ، جاء مروان ونقض كل ما ابرم بين الطرفين من حلول واتفاقات ، حتى تعقدت الأمور اخيرا وهاجمه الثوار بتحريض من السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وقالت لهم عائشة كما تؤكد ذلك أكثر المرويات : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، وأخرجت للمسلمين قميص رسول الله (ص) وقالت بصوت يسمعه الجميع : هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى

عثمان سنّته ، كما تؤكد المصادر الموثوقة ان طلحة لم يقتصر دوره على التحريض على عثمان ، بل اشترك معهم وسهل لهم الوصول إلى داره للقضاء عليه في حين ان أمير المؤمنين كما يدعي الرواة قد ارسل ولديه حسنا وحسينا ليدفعا عنه الثوار ، وحينما بلغه قتله اقبل مسرعا إلى داره ولام ولديه ومن معهما في الدار بلهجة قاسية .

وجاء في رواية ابن كثير ان الحسن بن علي قد اصيب ببعض الجروح وهو يدافع عنه ومضى ابن كثير في البداية والنهاية يروي عن المدائني والزبير بن بكار أن عليا بكى على عثمان حتى ظن الناس أنه سيلحق به وأنه قال : لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان إلى كثير من امثال هذه المرويات التي وضعت في العصر الاموي .

ومما لا شك فيه أن أمير المؤمنين كان كغيره من خيار الصحابة ناقما على تصرفات عثمان وأنصاره وعماله ، ومع ذلك فلم يبلغ به الحال إلى حدود الرضا بقتله والتحريض عليه ، بل وقف منه موقفا سليما وشريفا أراد من عثمان أن ينتهج سياسة تتفق مع الدين والاسلام وان يجعل حدا لتصرفات ذويه وعماله الذين اسرفوا في تبذير الاموال واستعمال المنكرات ، وأراد من الثائرين عليه أن يقفوا عند حدود المطالبة بالاصلاح الشامل لجميع مرافق الدولة وان لا تتخذ ثورتهم طابع العدوان والانتقام ، واستطاع في المراحل الأولى من وساطته ان يضع حدا للصراع القائم بين الطرفين بما يحفظ لكل منهما حقه لولا ان مروان بن الحكم قد افسد كل ما أصلحه الامام (ع) وظل الامام إلى آخر لحظة يتمنى على عثمان أن يتخذ موقفا سليما حتى يتاح له أن يعالج الموقف في حدود ما انزل الله .



مع الدكتور طه حسين في تفسيره لموقف الحسن من ابيه

وأما موقف الحسن (ع) من عثمان وتصرفاته فلم يدّع أحد من المؤرخين بأنه كان من المؤيدين لعثمان وأنصاره المستهترين بكل ما جاء به جده رسول الله ، بل كان إلى جانب ابيه في كل ما يقول ويفعل واشترك معه في جميع حروبه وكان يتمنى على أبيه أن يسمح له بمواصلة القتال وخوض المعارك عندما يتأزم الموقف ويشتد القتال ، ولكن أباه كان شديد الحرص عليه وعلى اخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال وكان يقول لقادة جيشه في صفين : املكوا عني هذين فاني اخاف أن ينقطع بقتلهما نسل رسول الله ، وكان يقاتل مع ابيه من يزعمون انهم يثأرون لعثمان ، وقد اجمع محبوه ومبغضوه على أنه كان ثورة على الظلم والظالمين والمستغلين وأن حياته كلها كانت لله وفي سبيل الله كما تحدثنا عن بعض جوانبها في الفصول السابقة ، ومع أنه كان كذلك فقد ادعى بعض الكتّاب القدامى والمحدثين بأنه كان على خلاف دائم مع أبيه وأضاف إلى ذلك الدكتور طه حسين في كتابه عن علي وبنيه أنه كان عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة وانه أقام مع أبيه وشهد مشاهده كلها على غير حب لذلك أو رغبة منه فيه .

ولم اجد مصدرا لهذا النوع من التحريف والتضليل سوى بعض المرويات التي لا يشك الباحث في سندها ومتنها بأنها من موضوعات الأمويين والعثمانيين الذين كانوا يحاولون براءة عثمان مما وصفه به التاريخ واعطاء تصرفاته صفة الشرعية ، وفي الوقت ذاته ايجاد فجوة بين موقف كل من علي وولده الحسن

السبط من عثمان والسياسة التي انتهجها أمير المؤمنين (ع) .

أما الروايات التي تعلق بها أصحاب هذا الرأي وعلى رأسهم عميد الأدب العربي فقد روى بعضها البلاذري في الأنساب والاشراف بسند ينتهي إلى طارق بن شهاب كما رواها ابن أبي الحديد عن طارق بن شهاب أيضاً ، ورواها الطبري عن سيف بن عمر الذي اكثر من الرواية عنه في تاريخه .

وجاء في رواية البلاذري وشرح النهج أن الحسن بن علي (ع) قال لأبيه : يا أمير المؤمنين اني لا استطيع أن اكلمك وبكى ، فقال له : تكلم ولا تحن حنين الجارية ، فقال أن الناس قد حصروا عثمان فأمرتك أن تعتزلهم وتلحق بمكة حتى تؤوب إلى العرب عوازب احلامها فأبيت ذلك ، ولما قتل عثمان امرتك أن تعتزل الناس فلو كنت في جحر ضب لضربت اليك العرب اباط الأبل حتى يستخرجوك فغلبتني ، وأنا آمرك اليوم أن لا تقدم على العراق ، فاني اخاف عليك أن تقتل بمضيعة ، فقال أمير المؤمنين (ع) : أما قولك تأتي مكة فوالله لا أكون الرجل الذي تستحل به مكة ، وأما قولك : أن القوم قد حصروا عثمان ، فما ذنبي ان كان بين الناس وبين عثمان ما كان ، وأما رأيك بأن اعتزل الناس ولا أقدم العراق ، فوالله لا اكون مثل الضبع انتظر اللدم ، ويدعي شارح النهج ان هذا الحوار كان بين الحسين وأبيه وهو في الربذة في طريقه إلى البصرة .

وفي رواية ثانية للبلاذري عن ابي قبيصة عمرو بن طارق بن شهاب ان الحسن (ع) قال لابيه في الربذة وقد ركب راحلته وعليها رحل رث : اني لاخشى ان تقتل بمضيعة ، فقال له أمير المؤمنين : اليك عني فوالله ما وجدت الا قتال القوم أو الكفر بما جاء به محمد .

وفي رواية ثالثة تنتهي بسندها إلى طارق بن شهاب أنه قال للحسن والحسين وهما يحاولان منعه عن القتال : مالكما تحنان حنين الجارية ، والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن فما وجدت بدا من قتال القوم أو الكفر بما أنزل الله على محمد .

وقال الدكتور طه حسين : وقد روى الرواة أن عليا (ع) مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : اسبغ الوضوء ؛ فأجابه بالكلمة التالية المرة على حد زعم الرواة : لقد قتلتم بالأمس رجلا كان يسبغ الوضوء ، فلم يزد امير المؤمنين على قوله : لقد اطال الله حزنك على عثمان .

من هذه المرويات استنتج بعض الكتّاب أن الحسن (ع) كان على خلاف مع ابيه ، وكان يرى له ان لا يشترك في شيء وان يعتزل الناس والمدينة ويقيم في ماله أو يذهب إلى مكة فيعتصم بها ولا يتعرض للبيعة وان عرضت عليه .

ومضى الدكتور طه حسين يقول : ولو استطاع الحسن أن يعتزل الفتنة كما فعل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما لفعل ، وكان يكره لأبيه أن يترك المدينة ويذهب إلى العراق لحرب طلحة والزبير وعائشة ، وكان أبوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك ، ولم يفارقه حزنه على عثمان وكان عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

والروايات المذكورة على ما بينها من اختلاف في مضامينها تشتمل على بعض الكلمات التي لا يحسن صدورها من عوام الناس مع ابائهم مثل قوله : امرتك فعصيتني والحسن (ع) ارفع شأنا من أن يستعمل هذا الأسلوب مع أبيه ، وهل يعني اعتزاله للناس وعدم ملاحقة طلحة والزبير وعائشة الا اعتزال الأمة ومقدراتها وترك الأمور بيد العابثين والمفسدين يعبثون ويفسدون في الأرض ؟ وكيف يطلب منه ذلك وهو يعلم بأن الإسلام يفرض محاربة البغي والظلم والفساد . هذا بالاضافة إلى أن الرواة لهذه الأحاديث بين من هو معروف بالكذب ووضع الأحاديث كسيف بن عمر وبين مجهول الحال لم يتعرض له المؤلفون في الرجال بمدح أو ذم ، وبين من اهملوا ذكره وكأنه لم يكن كعمرو بن قبيعة ، كما يبدو ذلك من الميزان لابن حجر وميزان الاعتدال للذهبي .

وأما الرواية الأخيرة التي استنتج منها طه حسين أن الحسن بن علي كان عثمانيا بالمعنى الدقيق ، فقد رواها البلاذري عن المدائني ، والمدائني معروف بالكذب والعداء لعلي وآل علي (ع) على أن متن الرواية يشهد بأن المقصود منها

النيل من قدسية الامامين ، واتهام علي (ع) بالاعتداء على عثمان والاشتراك في قتله ، فلقد جاء فيها أن الحسن كان يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فأمره ابوه ان يسبغ وضوءه ، وهذا لا يحتمله أحد في الحسن بن علي (ع) ولو افترضنا وباب الافتراض واسع أن الحسن لا يحسن الوضوء كما يدعي المدائني وان أباه أرشده إلى ما يجب عليه ، فأي مناسبة تستدعي أن يجيب أباه بذلك الجواب الجاف ، لقد قتلتم بالامس رجلاً كان يسبغ الوضوء .

ومهما كان الحال فليس بغريب على المدائني ولا على أسياده أن يضعوا عثمان في صفوف المظلومين وان عليا كان من أولئك الظالمين الذين اعتدوا عليه وسلبوه طعم الحياة بشهادة الحسن بن علي . والأمر الغريب أن يقف عميد الأدب العربي من هذه الرواية موقف المطمئن اليها ويبني عليها هذا الحكم الجائر على الحسن بن علي الذي كان من أحب الناس إلى جده رسول الله وأشبههم به خلقاً وخلقاً والذي قال فيه وفي اخيه :

هذان إمامان قاما أو قعدا .

باجماع المحدثين ، الغريب أن يقف منها موقف المطمئن اليها ويبني عليها حكمه الجائر ، بأنه كان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة مع ما فيها من العيوب التي لا تخفى على عامة الناس فضلاً عن الادباء ونقاد الأدب كالدكتور طه حسين وأمثاله .

ومع أن الدكتور طه حسين حاول أن يظهر بمظهر من لا تعنيه غير الحقيقة لأي جهة كانت فقد بدا عليه التحيز في كثير من مواضيع كتابه، ولكن تحيّزه لم يكن قاسيا كما هو الحال بالنسبة لموقفه من الامام الحسن (ع) لان كونه عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة على حد تعبيره يعني أنه كان يبارك جميع تصرفات عثمان وأعماله التي تخالف كتاب الله وسنّة رسول الله وحتى سيرة من تقدمه من الخلفاء ، ويبارك اخراج ابي ذر من المدينة مطرودا ومهانا ورفسه لعمار وتسليط غلمانه عليه وعلى ابن مسعود وغيرهم من اجلاء الصحابة ويبارك تكريمه وحفاوته بطريد رسول الله الحكم بن العاص وذريته وتسليطه الفساق والمستهترين

من ذويه وبني امية بالاسلام وحقوق العباد ، وبتعبير آخر أن الحسن بن علي لا يكون عثمانيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا إذا كان كمروان وعقبة بن أبي معيط والوليد بن عقبة وابن ابي سرح وأمثالهم من زبانية عثمان ، ولا احسب ان احدا من المسلمين مهما بلغ به الحقد والعداء لاهل البيت يضع ريحانة رسول الله بهذا المستوى الذي لا يرضاه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر لنفسه .

ومضى الدكتور طه حسين يقول : وقد شهد الحسن مع أبيه مشاهده كلها في البصرة وصفين والنهروان ، وأكاد اعتقد مع ذلك أنه وأخاه الحسين قد شهدا هذه الحروب دون أن يشاركا فيها .

وما ادري من اين جاءه هذا الاعتقاد مع أن نصوص المؤرخين تشهد لهما بالمشاركة وانهما كانا يتململان بين يدي ابيهما ليأذن لهما بالقتال .

وقد جاء في شرح النهج أن عليا (ع) حينما احتدمت المعركة في البصرة زحف نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار وحوله الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ودفع له الراية وقال له تقدم حتى تركزها في عين الجمل ، فلما تقدم بها رشقته السهام فقال لاصحابه : رويدا حتى تنفد سهامهم ، ولما أبطأ بها جاءه من خلفه ووضع يده اليسرى على منكبه الايمن وقال له : اقدم لا ام لك ، وأخذ منه الراية ، ودفعها إلى الحسن فحمل الحسن على القوم وفرقهم عن الجمل حتى انتهى اليه وطعنه في عينه ، ثم دفعها إلى الحسين ففعل كما فعل اخوه الحسن إلى كثير من المرويات التي تؤكد انهما كانا يشتركان معه ويفديانه بنفسيهما ، غير انه كان يضن بهما عن الخطر مخافة أن يصيبهما سوء فتنقطع بقتلهما ذرية رسول الله على حد تعبيره احيانا ، وأحيانا كان يقول : انهما ابنا رسول الله ومحمد بن الحنفية إبني وأحياناً اخرى يقول : انهما عيناي ومحمد ساعدي ويدي والمرء يدفع عن عينيه بيديه وساعديه .

ومجمل القول ان الامام الحسن قد اشترك مع ابيه في حياته السياسية والعسكرية وكان موقفه من عثمان كموقف ابيه وخيار الصحابة ، ولما توجه امير المؤمنين (ع) الى البصرة ونزل ذاقار ارسله الى الكوفة مع عمار بن ياسر وزيد بن

حومان وقيس بن سعد ، ليستنفروا اهلها لمساعدته على طلحة والزبير ، وكان قد ارسل قبلهم وفدا فعارضهم أبو موسى ولم يستجب لطلب أمير المؤمنين (ع) ، ومضى الحسن بمن معه باتجاه الكوفة ولما دخلوها استقبلهم اهلها فقرأ عليهم كتاب ابيه ، ووقف أبو موسى نفس الموقف الذي وقفه مع الوفد الأول وافتعل حديثا عن النبي ليثبط الناس عن مساعدة أمير المؤمنين وادعى انه سمعه يقول : ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والنائم خير من القاعد فرد عليه عمار بن ياسر وقال : إذا صح انك سمعت رسول الله يقول ذلك فقد عناك وحدك فالزم بيتك ، أما أنا فأشهد الله أن رسول الله قد أمر عليا بقتال الناكثين وسمى لي منهم جماعة وأمره بقتال القاسطين ، وان شئت لاقيمن لك شهودا ان رسول الله قد نهاك وحدك وحذرك من الدخول في الفتنة .

ووقف الحسن (ع) يستنفر الناس فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال : أيها الناس انا جئنا ندعوكم إلى الله وكتابه وسنة رسوله وإلى افقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون وأفضل ممن تفضلون وأوفى من تبايعون من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة ندعوكم إلى من قربه الله ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون فقرب منه وهم متباعدون وصلى معه وهم مشركون وقاتل معه وهم منهزمون وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون وهو سائلكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا ببيعته وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ومثلوا بعماله ونهبوا بيت ماله فاشخصوا اليه رحمكم الله .

وفي رواية ثانية عن جابر بن يزيد انه قال : حدثني تميم بن جذيم التاجي أن الحسن بن علي (ع) وعمار بن ياسر قدما الكوفة يستنفران الناس إلى علي (ع) ومعهما كتابه فلما فرغا من قراءته قام الحسن فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون : اللهم سدد منطق ابن بنت نبيك فوضع يده على عمود يتساند اليه وكان عليلا من شكوى به فقال الحمد لله العزيز الجبار الواحد الأحد القهار الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل

وسارب بالنهار أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء وعلى ما احببنا وكرهنا من شدة ورخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله امتن بنبوته واختصه برسالته وأنزل عليه وحيه واصطفاه على جميع خلقه وأرسله إلى الأنس والجن حين عبدت الاوثان وأطيع الشيطان وجحد الرحمن فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه افضل الجزاء ، أما بعد فاني لا أقول لكم الا ما تعرفون ، ان امير المؤمنين علي بن أبي طالب ارشد الله امره وأعز نصره بعثني اليكم يدعوكم إلى الصواب والعمل بالكتاب والجهاد في سبيل الله ، وان كان في عاجل ذلك ما تكرهون. فان في آجله ما تحبون ان شاء الله ، ولقد علمتم بأن عليا صلى مع رسول الله وحده ، وانه يوم صدق به لفي عاشرة من عمره ثم شهد مع رسول الله جميع مشاهده ، وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الاسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل رسول الله راضيا عنه حتى غمضه بيده وغسله وحده والملائكة اعوانه والفضل ابن عمه ينقل اليه الماء ، ثم ادخله حفرته وأوصاه بقضاء دينه وعداته وغير ذلك من اموره كل ذلك من منّ الله عليه ، ثم والله ما دعا إلى نفسه ولقد تداك الناس عليه تداك الابل الهيم عند ورردها فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث احدثه ولا خلاف اتاه حسدا له وبغيا عليه فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والاسراع إلى ما دعاكم اليه عصمنا الله واياكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته وألهمنا واياكم تقواه وأعاننا واياكم على جهاد اعدائه واستغفر الله لي ولكم .

وبعد جدال طويل وحوار بين عمار بن ياسر والحسن بن علي من جهة وبين ابي موسى الأشعري التفت الحسن (ع) الى ابي موسى وقال له : اعتزل عملنا لا ام لك وتنح عن منبرنا وظل أبو موسى على موقفه المتصلب يخذل الناس ويوحي اليهم بأن رسول الله قد أمرهم باعتزال هذه الفتنة ، حتى جاء مالك الأشتر ودخل القصر وأخرج منه الحرس ، هذا وأبو موسى في جدال مع الحسن وعمار فجاءه الغلمان والحرس يشتدون اليه وأخبروه بما صنع الأشتر فخرج من المسجد مذموما مدحورا واستجاب الناس لنداء الحسن وخرج معه إلى

البصرة اثنا عشر الفا ، وكان أمير المؤمنين فد اخبر بعددهم وهو في ذي قار كما جاء في رواية الشعبي عن أبي الطفيل واضاف إلى ذلك أبو الطفيل يقول: والله لقد قعدت على الطريق وأحصيتهم واحدا واحدا فما زادوا رجلا ولا نقصوا رجلاً[1] .

وكما ذكرنا لقد اشترك الحسن في معارك البصرة كما اجمع على ذلك المؤرخون ولما زحف أمير المؤمنين في كتيبته الخضراء على حد تعبير المؤرخين التي جمعت المهاجرين والأنصار وحوله أولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وكان قد اعطاه الراية فحمل بها على أنصار عائشة ومضى يتقدم بها حتى تزعزعت صفوفهم . فقال له الانصار : والله يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدمنا على محمد أحدا من العرب ، فقال لهم أمير المؤمنين : اين النجم من الشمس والقمر ، أما أنه قد اغنى وأبلى وله فضله ولا ينقص فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى عليه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين أنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ولا نظلمهما له ولا نظلمه لفضلهما عليه حقه ، فقال : اين يقع ابني من ابني بنت رسول الله وقال خزيمة بن ثابت فيه :

محمد ما في عودك اليوم وصمة ... ولا كنت في الحرب الضروس معردا
ابوك الذي لم يركب الخيل مثله ... علي وسماك النبي محمدا
فلو كان حقا من ابيك خليفة ... لكنت ولكن ذاك ما لا يرى بدا
واطعنهم صدر الكمي برمحه ... وأكساهم للهام عضبا مهندا

إلى أن يقول :

سوى اخويك السيدين كلاهما ... امام الورى والداعيان إلى الهدى

ويجد المتتبع عشرات الشواهد على أنه كان يشارك أباه في حروبه مع

---

(١) انظر شرح النهج جـ٣ ص٢٩٥ .

الناكثين والقاسطين والمارقين بالرغم من أن اباه كان يضن به وبأخيه الحسين عن خوض المعارك ويستعين بأصحابه عليهما .

فقد جاء في نهج البلاغة وقد رأى ولده الحسن يشتد نحو المعركة أنه قال لمن حوله : املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فاني انفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بموتهما نسل رسول الله .

وتشير هذه الكلمة إلى أنه كان يخوض المعارك ويندفع اليها ، ولم يكن يقف عند رغبة ابيه ، ولذا فقد استنجد بأصحابه للحد من حماسته واندفاعه .

وبعد أن أورد شارح النهج هذه الكلمة بين كلماته القصار طرح على نفسه السؤال التالي : أيجوز ان يقال للحسن والحسين وولدهما ابناء رسول الله وولد رسول الله ، أو نسل رسول الله ، مع أنهم أولاد بنته الزهراء من علي بن أبي طالب .

وأجاب عن ذلك : لقد سماهم الله ابناء رسول الله في الآية ، قل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ولم يكن له غيرهما وقد جاء بهما وبفاطمة وعلي (ع) ومضى يقول : لو اوصى رجل لولد فلان دخل بينهم أولاد البنات عند عامة الفقهاء ، وقد جعل الله عيسى من ذرية إبراهيم في الآية ومن ذريته داوود وسليمان ويحيى وعيسى ، ومن المعلوم أن عيسى انما يتصل به من جهة أمه[1] .

وجاء في المجلد الأول من شرح النهج أن الحسن بن علي (ع) دعا الناس إلى الجهاد وقال : الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له وانه مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة ، ونحن انما غضبنا لله ولكم ، انه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد الا اشتد امرهم واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ولا تتخاذلوا فان الخذلان يقطع نياط القلوب وان الاقدام على الأسنّة نخوة وعصمة لم يتمنع قوم قط الا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة وهداهم

---

(١) انظر ص٩ من المجلد الثالث ، ٢ مجلد ١ ص ٢٨٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى معالم الملة ثم إنشد :

والصلح تأخذ منه ما رضيت به   والحرب يكفيك من انفاسها جرع

ووقف بعده الحسين (ع) فقال : يا أهل الكوفة انتم الأحبة الكرام والشعار دون الدثار جدوا في اطفاء ما وتر نبيكم وتسهيل ما توعر عليكم ، إلا أن الحرب شرها وريع وطعمها فظيع فمن اخذ لها اهبتها واستعد لها عدتها ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ومن عاجلها قبل أوان فرضها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن أن لا ينفع قومه وأن يهلك نفسه نسأل الله بقوته ان يدعمكم بالفيئة انه قريب مجيب .

وأرسل عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي أن لي حاجة وكان إلى جانب معاوية بن أبي سفيان فلقيه الامام أبو محمد الحسن فقال له عبيد الله : ان اباك قد وتر قريشا أولا وآخرا وقد شنئه الناس فهل لك في خلعه وتتولى انت هذا الأمر ، فقال له الحسن (ع) : كلا والله لا يكون ذلك ابدا ، ومضى يقول : يا ابن الخطاب والله لكأني انظر اليك مقتولا في يومك أو غدك ، اما ان الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك متخلقا بالخلوق ترى نساء أهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلا .

ثم انصرف كل منهما إلى جهته ، وأضاف إلى ذلك أن احد الرواة قال . فوالله ما كان الا بياض ذلك اليوم حتى قتل عبيد الله وهو في كتيبة رقطاء تدعى الخضرية وكان في أربعة آلاف عليهم ثياب خضر فمر الحسن بن علي (ع) وإذا برجل متوسد برجل قتيل قد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن لمن معه : انظروا من هذا فإذا رجل من همدان واذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب قد قتله الهمداني في أول الليل وبات عليه حتى اصبح .

وتؤكد المصادر الموثوقة أن الحسن بقي إلى جنب والده إلى آخر لحظة وكان يعاني ما يعانيه ابوه من أهل العراق ويتألم لآلامه ومتاعبه وهو يرى معاوية يبث دعاته في انحاء العراق ويغري القادة والزعماء بالاموال والمناصب حتى فرق اكثرهم عنه ، وأصبح أمير المؤمنين يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ؛ ثم

يبكي ويقبض على كريمته ويقول متى يبعث اشقاها فيخضب هذه من هذا والحسن يرى كل ذلك ويتلوى من الألم والحسرة لما يحيط بأبيه من المتاعب والأحداث .

وتشاء الأقدار أن يبعث اشقاها في صبيحة الحادي والعشرين من رمضان وعلي يتأهب لقتال أهل الشام ، فيضربه ابن ملجم بسيفه وهو يصلي الفجر في محرابه ضربة تصل إلى دماغه ، فيخر في المحراب وهو يقول : فزت ورب الكعبة ، ويبقى الحسن بن علي وحده بين تلك الأعاصير وبين أهل الكوفة المتخاذلين وإلى جانب الحدود فلول الخوارج من جهة وتحديات جيش الشام من جهة ثانية ، وعملاؤه في العراق يكتبون اليه بكل صغير وكبير ويعرضون عليه ولاءهم وخدماتهم وحتى لو أراد تسليم الحسن مكتوفا سلموه أياه ، إلى غير ذلك مما استقبله الحسن من احداث لم يعرف التاريخ اسوأ وأشد تعقيدا منها .

وقبيل وفاته أوصى لولده الحسن ونص على امامته وامامة اخيه الحسين مؤكدا نصوص جدهما من قبل ، وجاء في وصيته : أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : اصلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام ، انظروا إلى ارحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، الله الله في الايتام فلا تقيدوا افواههم بجفوتكم ، والله الله بجيرانكم فانها وصية رسول الله (ص) ما زال يوصينا بهم حتى ظننا انه سيورثهم ، والله الله في القرآن فلا يسبقكم الى العمل به غيركم ، والله الله في الصلاة فانها عماد دينكم ، والله الله في بيوت ربكم ، فلا تخلون منكم ما بقيتم ، والله الله في صيام شهر رمضان فانه جنة من النار ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والله الله في زكاة اموالكم فانها تطفيء غضب ربكم ، والله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في معايشكم ، والله الله فيما ملكت ايمانكم فانها كانت آخر وصية لرسول الله .

ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الأشرار عليكم وتدعون فلا يستجاب لكم ، وتوجه إلى جميع اولاده وقال : عليكم بالتواضع والتباذل

واياكم والتقاطع والتفرق والتدابر وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، ولا تبغوا الدنيا وان بغتكم ولا تأسفوا على شيء منها ، وكونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ولا تأخذكم في الله لومة لائم .

والتفت إلى ولده محمد بن الحنفية وقال : اوصيك بتوقير اخويك وتزيين امرهما ولا تقطعن امراً دونهما ، ثم توجه إلى الحسنين وقال لهما : اوصيكما به فإنه سيفكما وابن ابيكما فأكرماه واعرفا له حقه ونص على امامة الحسن والحسين والتسعة من اولاد الحسين .

وقد تواتر عن النبي (ص) انه قال : يكون بعدي اثنا عشر اماماً كلهم من قريش ، وفي رواية ثانية انه قال : لا يزال هذا الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر اماماً وفي رواية خليفة كلهم من قريش . وقد تحدثنا عن الأئمة وعددهم في الفصول السابقة من هذا الكتاب .

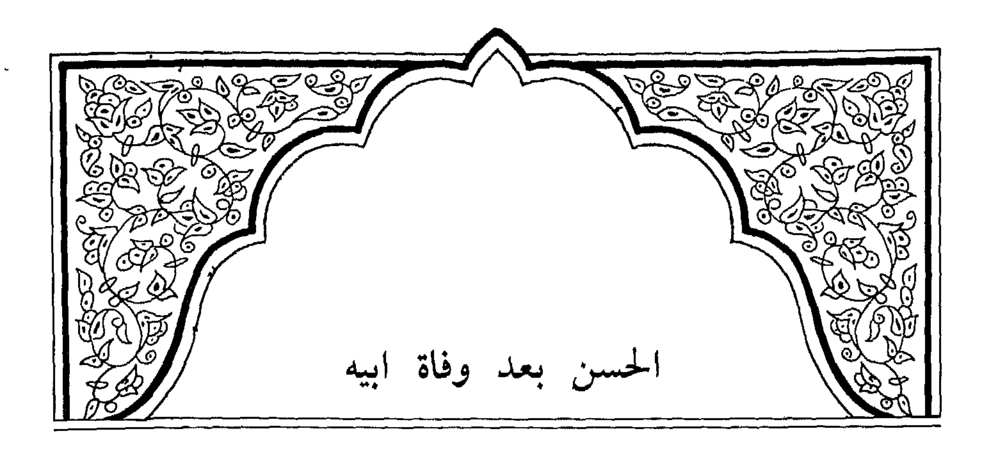
وبعد أن نص امير المؤمنين على الحسن وسلمه مواريث النبوة اجتمع عليه اهل الكوفة وجماعة من المهاجرين والأنصار وبايعوه بالخلافة بعد ابيه عليه افضل الصلاة والسلام .

وجاء في رواية محمد بن يعقوب الكليني أن أمير المؤمنين (ع) اوصى الى ولده الحسن وأشهد على وصيته الحسين ومحمد بن الحنفية وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته ودفع اليه الكتب والسلاح وقال له : يا بني امرني جدك رسول الله ان اوصي إليك وأن ادفع اليك كتبي وسلاحي .

وقال الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت : والإمام الحسن بدون شك هو الخليفة الطبيعي لوالده امير المؤمنين لأنه ريحانة الرسول وسيد شباب اهل الجنة ، وهو إمام قام أو قعد بحكم النص عليه وعلى اخيه الحسين من جدهما رسول الله فيما تواتر عنه ، الحسن والحسين امامان قاما أو قعدا ، ومضى يقول : وقد هذبه الله من كل نقص ورجس كما دلت على ذلك آية التطهير ، بالاضافة إلى توفر جميع ما تتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة في شخصيته كالعلم

والتقوى والحزم والجدارة .

وقد نفذ الإمام الحسن وصية ابيه في قاتله ، فقد استدعاه في صبيحة اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان بعد أن دفن أباه حيث مرقده الآن حسب وصيته كما هو معروف بين جميع المسلمن منذ الفترة التي دفن فيها حتى يومنا هذا ، ولم يتردد واحد في ذلك سوى بعض الحاقدين الذين اعماهم الحقد والحسد عن رؤية الحق والسير على نهجه .



الحسن بعد وفاة ابيه

وجاء في رواية ابي الفرج في مقاتل الطالبيين وغيره انه لما أمر الحسن (ع) بقتل ابن ملجم قال له : ان رأيت ان تؤخرني وتأخذ علي العهود والمواثيق ان ارجع اليك وأضع يدي في يدك بعد أن امضي الى الشام وأنظر ما صنع صاحبي بمعاوية ، فإن قتله وإلا قتلته ثم اعود اليك لتحكم فيّ بحكمك ، فقال له الحسن : هيهات والله لا تشرب الماء البارد او تلحق روحك النار ، ثم ضربه ضربة واحدة قضت على حياته كما اوصاه امير المؤمنين .

وجاء في بعض المرويات أن الناس اخذوه من بين يديه وقطعوه بأسيافهم ثم احرقوا اشلاءه بالنار ، وبعد الفراغ من امره اتجه إلى الإمام الحسن في صبيحة ذلك اليوم حشد كبير من أهل الكوفة غص بهم الجامع على سعته فوقف خطيباً حيث كان يقف امير المؤمنين وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والانصار ، فابتدأ خطابه عن مصابه بأبيه الذي اصيب به جميع المسلمين ، وقال بعد أن حمد الله وصلى على محمد وآله : لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل ، لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه ، وأينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفي في الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم الى السماء وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى ، وما خلف خضراء ولا بيضاء سوى سبعمائة درهم فضلت عن عطائه اراد أن يبتاع فيها خادماً لأهله وقد امرني ان اردها إلى بيت المال ، ثم تمثل له ابوه وما كابده في حياته من

الآلام والمتاعب فاستعبر باكياً وبكى الناس من حوله حتى ارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب من جميع انحاء الكوفة ، وعاد إلى حديثه بعد أن استمصت الناس وقال : أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وأنا ابن النبي والوصي ، وأنا ابن البشير النذير والداعي الى الله بإذنه وأنا ابن السراج المنير وأنا من اهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا ، وأنا من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وافترض مودتهم على كل مسلم فقال في كتابه : قل لا اسألكم اجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنه نزد له منها حسناً فاقتراف الحسنة مودتنا اهل البيت

وقد تضمن خطابه هذا لأول مرة بعد وفاة ابيه علي اختصاره تأبين الراحل العظيم الذي اهتز لقتله العالم الإسلامي من اقصاه الى اقصاه ، لقد أبّنه بغير الاسلوب المألوف في تأبين العظماء من رجال التاريخ ، موجزاً جميع خصائصه ومزاياه بقوله : لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون جاهد بين يدي رسول الله وجبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، فجمع في هذه الكلمات القصار جميع خصائصه كإنسان لا يضاهيه في جميع نواحيه انسان في مراحل التاريخ .

وحينما انتقل الى الحديث عن نفسه دعا الناس إلى بيعته ، ولكن بهذا الاسلوب الذي لا يترك عذراً لمتخلف عنها ، فقال . انا ابن النبي الداعي الى الله والسراجّ المنير ، وأنا من أهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وافترض مودتهم وطاعتهم على كل مسلم ومسلمة .

ومن اذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً وفرض مودته وطاعته على جميع الناس لا بد وأن يكون قد تحلى بجميع الصفات الخيرة الكريمة ومن اولى بالخلافة وقيادة الأمة ممن جمع هذه الفضائل وليس على وجه الأرض يوم داك من هو اكرم على الله منه ومن اخيه الحسين (ع) .

ولما أنهى خطابه قام عبيد الله بن العباس وقبل عبد الله فدعا الناس إلى بيعته وقال : معاشر الناس ، هذا ابن نبيكم ووصي امامكم فبايعوه فاستجاب الناس لهذه الدعوة المباركة وأعلنوا الرضا والانقياد وقالوا : ما أحبه الينا وأوجب

حقه علينا ومن احق بالخلافة والبيعة منه ، وكان اول من تقدم اليه ليبايعه قيس بن سعد بن عبادة الانصاري فقال له : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنّة نبيه وقتال المحلين ، فالتفت اليه الإمام (ع) بعطف ورفق وقال أن البيعة على كتاب الله وسنّة نبيه تغني عن هذا الشرط لأن فيهما تبيان كل شيء وهما يأمران بقتال المحلين والباغين والمفسدين كما يأمران بالصلاة والصيام والزكاة وغيرها من الفرائض .

وأقبل الناس يتسابقون على بيعته وتمت البيعة في الكوفة والبصرة كما بايعه اهل الحجاز واليمن وفارس وسائر المناطق التي كانت تدين بالولاء والبيعة لابيه .

وقد اجمع المؤرخون على أن خلافته كانت في صبيحة اليوم الذي دفن فيه امير المؤمنين ، ولما بلغ نبأ البيعة إلى معاوية وأتباعه بدأوا يعملون بكل ما لديهم من قوة ومكر وخداع لافساد امره والتشويش عليه .

فقد جاء في شرح النهج ومقاتل الطالبيين وغيرهما أن معاوية دس رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني عبد الغني الى البصرة فأخذا وقتلا ، وكتب الحسن (ع) إلى معاوية : أما بعد فانك دسست الي الرجال كأنك تحب اللقاء لا اشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وقد بلغني انك شمّت بما لم يشمت به ذو حجى وإنما مثلك في ذلك كما قال القائل :

فإنا ومن قد مات منا لكالذي يروح ويمسي في البيت ليفتدي
فقل الذي يبقى خلاف الذي مضى تجهز لاخرى مثلها فكأن قد

وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية : اما بعد فانك ودسك اخا بني عبد الغني الى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك كما قال امية بن الصلت :

لعمرك اني والخزاعي طارقاً كنعجة عاد حتفها تتحفر
اثارت عليها شفرة بكراعها فظلت بها من آخر الليل تنحر

شمت بقوم من صديقك اهلكوا اصابهم يوم من الدهر اعسر

فأجابه معاوية بكتاب جاء فيه : اما بعد فإن الحسن بن علي (ع) قد كتب إلي بنحو ما كتبت به وأنبأني بما لم اخبر ظناً وسوء رأي وانك لم تصب مثلكم ومثلي ، ولكن مثلنا ما قاله طارق الخزاعي يجيب امية عن هذا الشعر :

فـوالله مـا ادري واني لصـادق الى اي مـن يـظـنـني اتعـذر
اعنف ان كانت زبينة اهلكت ونـال بني لحيان شـر فـانقـروا

وقال ابن ابي الحديد في شرح النهج : ان عبد الله بن عباس كتب إلى الإمام الحسن من البصرة كتاباً يحرضه فيه على قتال معاوية ، وجاء في كتابه اليه : اما بعد فإن المسلمين ولوك امرهم بعد ابيك فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب اصحابك واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه .

وفي رواية ثانية لعلها أصح من الأولى واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك وول اهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن ائمة العدل ، فقد قالوا : لا يصلح الكذب إلا في حرب أو اصلاح بين الناس فإن الحرب خدعة ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً ما لم تبطل حقاً .

وأضاف إلى ذلك : أن اباك إنما رغب عنه الناس إلى معاوية لأنه واسى بينهم في الفيء وسوى بينهم في العطاء فثقل عليهم ، واعلم بأنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر امر الله ، فلما وحد الرب ومحق الشرك وعز الدين اظهروا الايمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون .

ولما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الاتقياء الابرار وسمو بسيما الصالحين ليظن المسلمون بهم خيراً فما زالوا بذلك حتى شركوهم في امانتهم وقالوا حسابهم

على الله ، فإن كانوا صادقين فاخواننا في الدين وان كانوا كاذبين بما اقترفوا هم الأخسرون ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ، والله ما زادهم طول العمر إلا غباء ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتاً ، فجاهدهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفاً ، فإن علياً اباك لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على امره ، وهم يعلمون انه اولى بالأمر ان حكموا بالعدل فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى اتى اجله ، ولا تخرجن من حق انت اولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام .

وقد عالج عبد الله بن عباس في هذه الرسالة مشكلة الصراع بين بني امية وعلي بن ابي طالب ، والاسباب التي ادت الى خذلان الإمام ونجاح معاوية فيما كان يخطط له ، وأعطى صورة واضحة عن موقف الامويين من الإسلام منذ أن بزغ فجره إلى أن دخلوا فيه مكرهين ولبسوا ثياب الصديقين وهم يضمرون الشرك والالحاد ، وبالرغم من انهم تستروا بالإسلام وقرأوا القرآن وأقاموا الصلاة وتوسموا بسيما الصالحين ، فقد كانت تبدو منهم بين الحين والآخر فلتات تدل على شركهم وإلحادهم وحقدهم على الإسلام .

وقد حدث الرواة عن معاوية مع أنه كان اقدرهم على الدجل والنفاق ، كما جاء في مروج الذهب للمسعودي والمجلد الثاني من شرح النهج أن مطرف ابن المغيرة بن شعبة قال : وفدت مع ابي المغيرة على معاوية وكان ابي يأتيه ويتحدث عنده ثم ينصرف الي فيذكر معاوية وعقله ويعجب مما يرى منه ، وفيما كان هذا حاله وإذا به قد اقبل ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة وظننت انه لشيء حدث فينا أو عملناه ، فقلت له : مالي اراك مغتماً منذ الليلة ، قال : يا بني اني جئت من اخبث الناس ، قلت له : وما ذاك ؟ فقال : لقد خلوت بمعاوية وقلت له قد بلغت مناك يا امير المؤمنين ، فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك من بني هاشم فوصلت ارحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء نخافه ، فقال لي : هيهات هيهات ، ملك اخو تيم وفعل ما فعل فوالله ما عدا ان هلك ذكره إلا أن يقول قائل ابو بكر : ثم ملك اخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عدا ان

هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر بن الخطاب ، ثم ملك اخونا عثمان بن عفان ولم يكن احد في مثل سنيه فعمل ما عمل به ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به ، وإن اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات أشهد أن محمداً رسول الله فأي عمل يبقى بعد هذا لا ام لك إلا دفناً دفناً[1] .

ومهما كان الحال فلقد استلم الإمام ابو محمد الحسن بن علي السلطة بعد ابيه وقام بأفضل ما يمكن القيام به في ذلك الجو المشحون بالفتن والمؤامرات ، فأقر الولاة على اعمالهم وأوصاهم بالعدل والاحسان ومحاربة البغي والعدوان ، ومضى على نهج ابيه وسيرته ، وكان في جميع حالاته خلال خلافته القصيرة وقبلها وبعدها امتداداً لجده المصطفى وأبيه المرتضى في سياسته وسيرته .

وبالرغم من أنه يعرف معاوية وما كانت تنطوي عليه تلك الأسرة من الكفر والالحاد والعداء لمحمد ورسالته والعمل لإحياء مظاهر الجاهلية بجميع اشكالها ، مع علمه بذلك كله فقد أبى أن يعلن الحرب عليه إلا بعد أن كتب إليه المرة تلو المرة يدعوه إلى جمع الكلمة وتوحيد امر المسلمين حتى لا يبقى لأحد عذر أو حجة في التخلف عن نصرته ، فكتب اليه مع رجلين من اهل الكوفة في جملة كتبه ورسائله الرسالة التالية :

من الحسن بن علي (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان سلام عليك فإني احمد الله الذي لا إله غيره ، اما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعاملين ومنّة للمؤمنين وكافة الناس اجمعين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان وبعد ان اظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص قريشاً به خاصة فقال له : وانه لذكر لك ولقومك ، فلما توفي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه فرأت العرب ان القول ما قالت قريش وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم امر محمد فأنعمت لهم

---

(١) أنظر شرح النهج مجلد ٢ ص ٣٧٥ .

وسلمت اليهم ، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب ، فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها ، انهم اخذوا هذا الأمر دون العرب بالانصاف والاحتجاج ، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا فالموعد الله وهو الولي النصير .

لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام وأمسكنا عن منازعتهم مخافة ان يجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما ارادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على امر لست من اهله لا بفضل في الدين ولا اثر في الإسلام محمود وأنت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه الكريم ، والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربك ، ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد .

إن علياً لما مضى لسبيله رحمة الله عليه يوم قبض ويوم منَّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حياً ولّاني المسلمون الأمر من بعده ، فاسأل الله ان لا يؤتينا في هذه الدنيا الزائلة شيئاً ينقصناه في الآخرة بما عنده من كرامة ، وانما حملني على الكتابة اليك الإعذار فيما بيني وبين الله عز وجل في امرك ، ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فانك تعلم اني احق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر اهله ومن هو احق به منك ليطفىء الله النائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين ، وان انت ابيت إلا التمادي في غيك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

لقد كتب الإمام الحسن هذه الرسالة وغيرها إلى معاوية وهو يعلم بأنه لا يستجيب لطلبه وانه سيقف منه موقفاً اكثر صلفاً ووقاحة من مواقفه السابقة مع أبيه امير المؤمنين وامام المتقين لا سيما وقد نجح في مؤامرته التي وضعها لاغتياله

واستمالة القسم الاكبر من قادة اهل العراق إلى جانبه ، وهم بعد غيابه عنهم اكثر تفككاً وتخاذلاً وخيانة منهم بالأمس ، لهذا ولغيره كان الإمام ابو محمد الحسن على يقين من أن معاوية سيكون اصلب عوداً من الأمس وسيتصرف من منطق القوة التي اصبحت بيده وسيتقدم هو إلى الحرب إذا لم يجده المكر والخداع ، لقد كان على بينة من كل ذلك ولكنه اراد أن يظهر للعالم الاسلامي ما يضمره هذا البيت للنبي وآله وللإسلام من حقد وعداء ورثهما من اجداده وأبيه وأمه آكلة الاكباد .

ولقد اجاب معاوية على رسالة الإمام الحسن السبط هذه بجواب لم يدع وسيلة من وسائل المكر والخداع والتضليل إلا وشحن فيها رسالته ، وحاول فيها أن يضع لنفسه فيها مخرجاً مما خلط له تجاه الرأي العام الإسلامي وان يحمل الحسن (ع) تبعة كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من جوابه التالي :

لقد جاء في جوابه : لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل وهو احق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه صغيره وكبيره ، وقد والله بلغ وأدى ونصح وهدى حتى انقذ الله به من الهلكة وأنار به من العمى وهدى به من الجهالة والضلالة فجزاه الله افضل ما جزي نبياً عن امته ، وسلام الله عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم قبض ويوم يبعث حياً ، وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الأمر من بعده وتغلبهم على أبيك فصرحت بتهمة ابي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وجواري رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار ، فكرهت ذلك لك ، انك امرىء عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء ولا اللئيم ، وأنا احب لك القول السديد والذكر الجميل .

ومضى يقول : ان هذه الأمة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكانتكم من الإسلام ، فرأت الأمة ان تخرج هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها اسلاماً وأعلمها بالله وأحبها إليه وأقواها على أمر الله فاختاروا أبا بكر وكان ذلك

رأي ذوي الدين والفضل فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا فيما أتوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحا للاسلام وأهله والله يجزيهم عن الاسلام وأهله خيرا .

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال الذي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص) فلو علمت انك اضبط مني للرعية وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو لاجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلا ، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سنا فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغا ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت ، وخراج أي كور من العراق شئت معونة لك على نفقتك يجيبها أمينك ويحملها اليك في كل سنة ، ولك أن لا يستولي عليك بالاساءة ولا تفض دونك الامور ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله أعاننا الله واياك على طاعته أنه سميع مجيب الدعاء .

ومضى الراوي يقول : فلما سلمت كتاب معاوية إلى الحسن (ع) قلت له أن الرجل سائر اليك فابدأه بالمسير حتى تقاتله في ارضه وبلاده ، فاما أن تقدر أنه ينقاد اليك فلا والله حتى يرى منا أعظم من يوم صفين فقال افعل ، ثم قعد عن مشورتي وتناسى قولي .

وكتب له معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة جاء فيها : أما بعد فإن الله يفعل بعباده ما يشاء ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع الناس وائس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت اعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت وأجريت لك ما شرطت وأكون في ذلك كما قال اعشى بني قيس بن ثعلبة :

وإن أحد أسدى اليك أمانة ... فاوف بما تدعى إذا مت وافيا
ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ... ولا تجفه إن كان في المال فانيا

وجاء في آخر الكتاب : ولك الخلافة من بعدي فأنت اولى الناس بها .

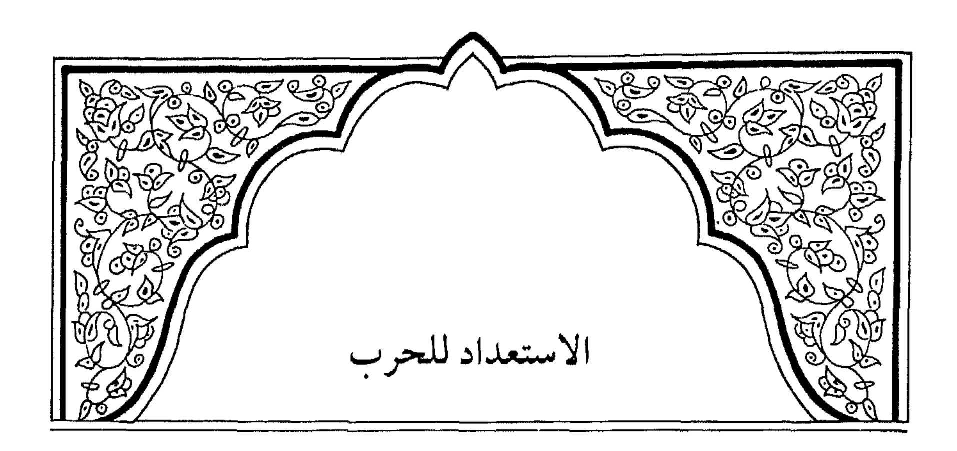
لقد اشتملت رسالة معاوية الأولى على اللف والدوران والمكر والخداع وكان بارعا اقصى حدود البراعة في اساليبه ، فبينما تراه فيها يمجد الحسن وأباه ويشيد بفضلهما وبما قدماه من تضحيات في سبيل الاسلام ويحاول أن يظهر بمظهر القديس الذي يقدر الفضل لأهله ولو كانوا من ألد اعدائه ويذوب في سبيل مصلحة الاسلام ، يعود بعد هذا الاطراء الذي لا يصدر إلا من الصالحين المؤمنين بالله ورسله ورسالاتهم ليغمز من أمير المؤمنين ويجرده ولو من بعض ما وصفه به ، فيقول : إن الأمة رأت أن تولي أقدمها إسلاما وأعلمها بالله وأحبها إليه وأقواها على أمره فولت أبا بكر حيث لم تجد من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه .

ثم مضى يقول للحسن : أنا وأنت كأبيك وأبي بكر ، فلو علمت بأنك اضبط مني للرعية وأحوط على الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو لأجبتك ، وهذا يعني أن المؤهلات التي توفرت فيه لم تتوفر في الحسن بن علي (ع) كما لم تتوفر في أبيه شروط الخلافة يوم بايع الناس أبا بكر فمصلحة الاسلام تفرضه اليوم كما فرضت أبا بكر بعد وفاة الرسول .

وهذا الأسلوب الماكر لم يكن يستعمله مع أمير المؤمنين من قبل ولم يخاطبه بمثله أما في عهد الحسن عليه السلام فلقد كان يتكلم من منطق القوة وبمنطق من كادت الأمور أن تكون ممهدة له ، والقوي كما هي العادة يقول ما يشتهي ولا حرج عليه في ذلك ، وقد اطمأن معاوية على مصيره وعلاقته المتينة مع اكثر القادة كما تشير إلى ذلك بعض رسائله لعماله كما جاء في شرح النهج ، التي يقول فيها : وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، وقوله في بعض رسائله إلى الحسن : واحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس .

وحاول في رسالته اغراء الحسن بالأموال والخلافة من بعده وتضليل الرأي العام الاسلامي بقوله : ولك أن لا تفض دونك الأمور ولا تعصى في أمر من

الأمور أردت بها طاعة الله كما ستتعرض لهذه الناحية خلال حديثنا عن صلح الحسن (ع) .



الاستعداد للحرب

ومهما كان الحال فقد اكد المؤرخون أن الحسن (ع) لم يتغير موقفه من معاوية ولم يلن لتهديده ووعوده ومغرياته ، فكتب اليه : اما بعد فقد وصلني كتابك تذكر فيه ما ذكرت وتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله اعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم اني من أهله وعلي اثم أن أقول فاكذب والسلام .

ولما وصله كتاب الحسن (ع) ادرك أن أساليبه ومغرياته لم تغير من موقفه شيئا ، فكتب إلى جميع عماله في بلاد الشام : أما بعد فاني أحمد اليكم الله الذي لا إله غيره والحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم أن الله بلطفه وحسن صنيعه اتاح لعلي بن ابي طالب رجلاً من عباده فاغتاله وقتله وترك اصحابه متفرقين مختلفين وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الامان لانفسهم وعشائرهم فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد اصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل وأهلك الله أهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله.

فاجتمعت اليه الوفود من كل الجهات وسار بهم باتجاه العراق؛ ويدعي المؤرخون أنه لما بلغ الحسن بن علي خبر مسيره وانه قد بلغ جسر منبج تحرك عند ذلك وكتب إلى عماله يدعوهم إلى التحرك ونادى مناديه في الكوفة يدعوهم إلى الاجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأ بهم فخرج الامام وصعد المنبر فأثنى على الله وصلى على رسوله ، ثم قال : لقد كتب الله الجهاد على خلقه

وسماه كرها وأوصى المجاهدين بالصبر ووعدهم النصر وجزيل الأجر ، ثم قال : ايها الناس انكم لستم نائلين ما تحبونه إلا بالصبر على ما تكرهون ، وقد بلغني أن معاوية كان قد بلغه أنا ازمعنا على المسير اليه فتحرك نحونا بجنده فاخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون . فسكت الناس ولم يتكلم أحد منهم بحرف واحد ، فلما رأى ذلك منهم عدي بن حاتم قام وقال : أنا ابن حاتم سبحان الله ما اقبح هذا المقام ، ألا تجيبون امامكم وابن بنت نبيكم اين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فاذا جد الجد فمراوغون كالثعالب ، اما تخافون مقت الله وعيبها وعارها ، ثم استقبل الامام الحسن بوجهه وقال : أصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره ووفقك لما تحمد وروده وصدوره قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى امرك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهي إلى معسكري فمن احب أن يوافيني فليواف ، ثم مضى لوجهه وخرج من المسجد فركب دابته وكانت على باب الجامع وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه ومضى هو إلى النخيلة .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، ومعقل بن قيس الرباحي ، وزياد بن صعصعة التيمي فأنبوا الناس ولاموهم على تخاذلهم وحرضوهم على الخروج وكلموا الحسن بمثل كلام عدي بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة والنصيحة فجزاكم الله خيرا ، وخرج الناس إلى النخيلة فلما تكامل عددهم لحق بهم الحسن واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن عبد المطلب وأمره بأن يحرك الناس ويحثهم على الخروج والالتحاق بالجيش .

ويروي المؤرخون انه لما تكامل الجيش خرج به الحسن (ع)، وقد حدده بعضهم بأربعين الفا وبعضهم بستين وبأكثر من ذلك ، ولما نزل دير عبد الرحمن أقام به ثلاثة أيام ، ودعا عبيد الله بن العباس وقال له : يا ابن العم اني باعث معك اثني عشر الفا من فرسان العرب وقرأ مضر الرجل منهم يريد الكتيبة فسر بهم على الشاطىء حتى تقطع الفرات وتنتهي إلى مسكن وامض منها حتى تستقبل معاوية فألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم

من مجلسك فانهم من ثقات أمير المؤمنين فان انت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فاني على اثرك وشيكا وليكن خبرك عندي كل يوم .

وأرسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصا وجهادا وتضحية في سبيل الله وهما قيس بن سعد بن عبادة وسعيد بن قيس الهمداني ، وأمره أن لا يقطع امرا دونهما وأن يستشيرهما في جميع الأمور ، وقال له : اذا انت لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يكون هو البادىء في القتال ، فان اصبت فقيس بن سعد على الناس وان اصيب فالقيادة بعده لسعيد بن قيس .

وسار عبيد الله بالناس يقطع الصحاري حتى انتهى إلى الفلوجة ، ومنها إلى مسكن وكان معاوية قد نزل عليها ، فنزل عبيد الله بن العباس بازائه ، وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل إغارت على جيش عبيد الله فوقفوا لها وردوها على أعقابها ، وأيقين معاوية تصميم الحسن (ع) على مواصلة القتال بعد أن رفض العروض المغرية التي قدمها إليه في رسائله ، وكان يؤمن بوحي من طبيعته المفطورة على الغدر والمكر والخداع والكذب والاحتيال بأن أقوم الناس خلقا وأشدهم عزيمة وأتقاهم نفساً قد تستغويه الاطماع ويذله الحرص فرسم سياسته على الاغراء والتغريب والتخويف ، وكان يقول : والله لاستميلن بالدنيا ثقاة علي (ع) ولاقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياي آخرته ، واستطاع بذلك أن يستميل اليه اكبر عدد من جند أمير المؤمنين وقادته ، ولم يبق معه إلا الصفوة من القادة والجند وهم قلة لا تغني شيئا في ساعات المحنة ولذلك اضطر إلى قبول التحكيم والحكم الذي اختاره أهل العراق مع علمه بما تنطوي عليه تلك الدعوة من المفاسد وبما كان يضمره له الأشعري من كراهية وبما كان يتمناه لخلافته من سوء ، ولكنه، كما ذكرنا من قبل لما رأى نفسه تجاه أمر واقع ورأى أن المضي في الحرب ورفض التحكيم يؤدي إلى هلاك الصفوة المختارة من اصحابه وربما إلى قتله وانتصار معاوية ، ويستطيع معاوية عند ذلك ان يقول : لقد رفض ابن ابي طالب حكم القرآن والرجوع إلى القرآن فكانت نهاية ما ترون وسيجد من يسمع له ذلك ، فاختار أمير المؤمنين اهون الشرين ووافق على التحكيم ، مع ما انتهت اليه نتيجته فلقد كان اهون الشرين وأيسر الأمرين .

وكان الحسن (ع) كأبيه خلال خلافته القصيرة فلم ينثر على جنده الأموال نثرا كما كان يفعل معاوية ولم يشتر ضمائر القادة والطامعين ، ولم يستعن بالباطل على الحق ، بل أراد من الناس ان يقاتلوا معه انتصارا للحق وطمعا في الأجر فلم يتحمس له إلا أهل الصدق والوفاء والدين وقليل ما هم لذلك فان معاوية لما أرسل خيله لقتال الجيش الذي يقوده عبيد الله ردها أهل العراق على اعقابها وبمجيء الليل ارسل معاوية رسالة إلى عبيد الله جاء فيها : أن الحسن قد ارسلني في الصلح وسلم الأمر لي فان دخلت في طاعتي الآن تكن متبوعا خير لك من أن تكون تابعا بعد غد ولك أن اجبتني الآن أن اعطيك ألف ألف درهم اعجل لك في هذا الوقت نصفها وعندما ادخل الكوفة ادفع لك النصف الثاني .

ويدعي اكثر المؤرخين أن عبيد الله انسل من قاعدته ودخل عسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوفى له بما وعده ، وانتبه الناس بدخول النهار فانتظروا عبيد الله ليصلي بهم فلم يجدوه فصلى بهم قيس بن سعد ، ولما تأكدوا من خبره خطبهم قيس وذكر عبيد الله فنال منه وأمرهم بالصبر والثبات وعرض عليهم الحرب ومناهضة معاوية مهما كان الحال فأجابوه لذلك فنزل عن المنبر ومضى بهم لقتال معاوية فقابلهم جيشه بقيادة بسر بن ارطاة ، وبث دعاته بين أصحاب قيس يذيعون أن اميرهم عبيد الله مع معاوية في خبائه والحسن بن علي قد وافق على الصلح فعلام تقتلون انفسكم . وهنا يدعي المؤرخون أن قيسا قال لاهل العراق : اختاروا احدى اثنتين اما القتال بدون امام وأما ان تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا بأجمعهم : بل نقاتل بدون امام ، ثم اتجهوا نحوهم واشتبك الفريقان في معركة ضارية كانت نتائجها لصالحهم وتراجع بسر بمن معه إلى معسكراتهم مخذولين مقهورين .

وفي رواية مقاتل الطالبيين ان قيس بن سعد بعد أن صلى بالناس صلاة الصبح قام خطيبا فيمن بقي من الجيش فهدأ روعهم ودعاهم إلى الثبات وجهاد معاوية ، وكان مما قاله في خطابه : أن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيرا قط ، ان اباه عم رسول الله خرج مع المشركين إلى بدر فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري فأتى به رسول الله (ص) فأخذ منه فداءه وقسمه بين المسلمين ، وان

ابنه عبد الله ولاه أمير المؤمنين على البصرة فسرق بيت المال وذهب به إلى مكة فاشترى به الجواري وزعم أن ذلك يحل له ولاسرته ، وان هذا ولاه على اليمن فهرب من بسر بن ارطاة وترك ولديه حتى قتلا وصنع الآن ما صنع ، وترك حديثه هذا اثرا عميقا في نفوس سامعيه فتنادوا من كل جانب الحمد لله الذي اخرجه من بيننا وعاهدوه على المضي في الحرب حتى النفس الأخير .

وكان موقف عبيد الله من جملة العوامل التي تسببت في تفكك جيش الإمام وتخاذله وفتح لهم أبواب الغدر والخيانة والتسلل الجماعي ، وتذرع بذلك ذوو النفوس الضعيفة والقلوب المريضة لان عبد الله بن عمه وأولاهم بمناصرته والتضحية في سبيله وقديما قيل :

إذا فاتك الأدنى الذي أنت حزبـه فـلا عجب أن أسلمتك الأبـاعـد

كما كان لغدر عبيد الله بن العباس في نفس الامام (ع) حزن بالغ وأسى مرير لأنه فتح الباب لغيره وتستر بغدره وخيانته جميع الطامعين والخونة من أهل العراق ونشط أنصار معاوية في نشر الترهيب والترغيب في صفوف الجيش ، ولم يتركوا وسيلة لصالح معاوية الا واستعملوها واستمالوا اليهم حتى رؤساء ربيعة الذين كانوا حصنا لأمير المؤمنين (ع) في صفين وغيرها من المواقف ، فلقد راسله خالد بن معمر احد زعمائها البارزين وبايعه عن ربيعة كلها وبهذه المناسبة كما يدعي بعض المؤرخين قال احد الشعراء يخاطب معاوية :

معاوي اكرم خالد بن معمر فانك لولا خالد لم تؤمر

كما راسله وبايعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم وشاعت الخيانة بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة وأدرك الامام أبو محمد الحسن كل ذلك وصارحهم بالواقع الذي لم يعد يجوز السكوت عنه فقال : يا أهل الكوفة انتم الذين اكرهتم ابي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه وقد اتاني أن أهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي .



معاوية بين الصلح والقتال

لقد اطمأن معاوية بأن المعركة فيما لو وقعت بين أهل الشام وأهل العراق ستكون لصالحه وسيكون الحسن بن علي (ع) والمخلصون له من جنده خلال أيام معدودات بين قتيل وأسير تحت رحمته وأن السلطة صائرة اليه لا محالة ، ولكن استيلاءه عليها بقوة السلاح لا يعطيها الصبغة الشرعية التي كان يحاول التمويه بها على الناس ، هذا بالاضافة إلى ما قد يحدث من المضاعفات الخطيرة التي ستجعله في ضيق من نتائجها وذلك فيما لو أصيب الحسن والحسين خلال المعارك وهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا جدهما وأحب الخلق اليه بالنصوص المتواترة التي لا يجهلها أحد من المسلمين .

لذلك ولغيره كان معاوية على ما يبدو حريصا على أن لا يتورط مع الحسن بن علي (ع) في الحرب ولو كان مطمئنا لنتائجها ، فعرض عليه فكرة الصلح في أولى رسائله وترك له أن يشترط ويطلب ما يريد ، وراح يردد حديث الصلح في مجالسه وبين انصاره في جيش العراق ويأمرهم باشاعته وكاتب القادة والرؤساء به ليصرف انظارهم عن الحرب ويبث بينهم روح التخاذل والاستسلام للأمر الواقع .

وكانت فكرة الصلح كما ذكرنا مغلفة بلون ينخدع له الكثيرون من الناس ويفضلونه على الحرب والقتال ، فلقد عرضها في رسالته الأولى على الحسن (ع) وأشاعها بين أهل العراق على أن لا يقضي امرا من الأمور بدون رأيه ولا يعصيه

في أمر اريد به طاعة الله ورسوله وترك له مع ذلك ان يقترح ما يريد ، كل ذلك لعلمه بأنها ستصادف بهذه الصياغة قبولا من الكثيرين وسيتبع ذلك انقسام في صفوف الجيش يضطره إلى الصلح لانه اهون الشرين كما التجأ والده من قبل إلى قبول التحكيم والرضا بالاشعري حكما لاهل العراق في مقابل ابن العاص لانه أقل خطرا وضررا من المضي في الحرب مع انحياز القسم الأكبر من الجيش إلى جانب فكرة التحكيم التي وضعها معاوية بعد أن ضاق عليه أمره وكاد ان يقع اسيرا بيد الاشتر ومن معه من الجنود البواسل

وبالاضافة إلى أن فكرة الصلح بتلك الشروط ستكون سلاحا بيد الخونة من أهل العراق ستكون أيضا عذرا مقبولا لمعاوية فيما لو كانت الحرب وأصيب الحسنان وخيار الصحابة عند السواد الاعظم من الناس

وكان الأمر كما قدر معاوية فقد ادت فكرة الصلح بتلك الصيغة إلى التشويش والاضطراب في صفوف الجيش والى تسلل عبيد الله بن العباس وعدد من القادة وزعماء العشائر إلى معاوية واتصال بعضهم به عن طريق المراسلة ، وكان هو بدوره بما لديه من وسائل الاعلام يرسل إلى الحسن بجميع اخبارهم وتصرفاتهم ليقطع امله من نتائج الحرب ولا يبقى له خيار في الصلح وكان الأمر كذلك كما سنثبت ذلك بالارقام .

وقال الشيخ المفيد في ارشاده والطبرسي في اعلام الورى : أن أهل العراق كتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة واستحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن اليه اذا شاء عند دنوه من معسكرهم أو الفتك

وجاء في علل الشرائع أن معاوية دس إلى عمرو بن حريث والأشعث بن قيس وحجار بن ابجر وشيث بن ربعي ووعد من يقتل الحسن بمائة ألف وقيادة جند من أجناد الشام وبنت من بناته ، ولما بلغ الحسن ذلك كان لا يخرج بدون لامة حربه ولا ينزعها حتى في الصلاة وقد رماه أحدهم بسهم وهو يصلي فلم يثبت فيه .

وبلا شك لقد كان اغتياله على يد العراقيين ليسلم له الأمر ويخلو له الجو

بدون قتال اذا تعذر الصلح كان من جملة امانيه ومخططاته حتى لا يضطر الى قتاله ويتحمل مسؤولية قتله وقتل آله وأنصاره تجاه الرأي العام الإسلامي الذي لا يغفر له عملا من هذا النوع مهما كانت الظروف .

وهذا لا يعني أنه كان يفكر أن يتنازل عن أهدافه ومصالحه مجاراة للرأي العام أو للاسلام ، فالسلطة كانت اغلى وأثمن عنده من كل شيء وقد استباح الكثير من المقدسات في سبيلها وقتل آلاف الابرياء والصلحاء حيث وجد ذلك عقبة في طريق الوصول اليها أو استقرارها ، ولكنه كان لخبرته الواسعة بأساليب المكر والخداع والتضليل يختار منها الانفع .

ولم يكن الامام أبو محمد الحسن (ع) يفكر بصلح معاوية ولا بمهادنته غير أنه بعد ان تكدست لديه الاخبار عن تفكك جيشه وانحياز اكثر القادة لجانب معاوية اراد ان يختبر نواياهم ويمتحن عزيمتهم فوقف بمن كان معه في ساباط ولوح لهم من بعيد بالصلح وجمع الكلمة فقال : فوالله اني لارجو ان اكون انصح خلق الله لخلقه وما اصبحت محتملا على احد ضغينة ولا مريدا له سوءا ولا غائلة ، إلا وأن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، الا واني ناظر لكم خيرا من نظركم لانفسكم فلا تخالفوا امري ولا تردوا علي رأيي غفر الله لي ولكم وأرشدني واياكم لما فيه محبته ورضاه .

ويدعي الرواة انه لما نزل نظر الناس بعضهم لبعض وقالوا ما ترونه يريد بما قال ، قالوا : نظنه يريد ان يصالح معاوية ويترك الأمر اليه كفر والله الرجل ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى اخذوا مصلاه من تحته ، وشد عليه عبد الرحمن بن عبد الله الازدي فنزع مطرفه عن عاتقه وبقي جالسا متقلدا لسيفه بدون رداء فدعا بفرسه وركبه وأحدق به طوائف من خاصته فمنعوا عنه من اراده ، ثم استدعى ربيعة وهمدان فطافوا به ومنعوا الناس عنه ، فلما مرّ بمظلم ساباط قام اليه رجل يقال له جراح بن سنان وبيده معول فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن لقد اشرك أبوك ثم اشركت من بعده وطعنه بمعول فوقعت ضربته في فخذه فشقته وسقط إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان في يده وتكاثر عليه جماعة فتقلوه وحمل الحسن على سرير إلى المدائن

وبها سعيد بن مسعود الثقفي وكان أمير المؤمنين قد ولاه عليها ، وأقام بها الحسن اياما يعالج نفسه ، وأرسل اليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فزهداه في الأمر وأعطياه كل ما شرطه معاوية على نفسه وانصرف قيس بمن معه إلى الكوفة كما انصرف اليها الحسن وأقبل معاوية قاصدا الكوفة وتم الصلح بينهما كما جاء في بعض روايات شرح النهج .

وقال اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه : ان معاوية ارسل إلى قيس بن سعد الف الف درهم على أن يصير اليه أو ينصرف عنه فرفضها ، فأرسلها معاوية إلى عبيد الله بن العباس فقبلها ومال معه إلى معاوية ثمانية آلاف ممن كانوا معه ، وأقام قيس على محاربته ، وكان معاوية خلال تلك الفترة يدس إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار اليه ، ويدس في نفس الوقت إلى عسكر قيس بأن الحسن قد صالح وسلم له الأمر ، وأرسل إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد اللهَ بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن ام الحكم وهو بالمدائن فتحدثوا اليه وخرجوا من مجلسه وهم يقولون بصوت يسمعه الناس : ان الله قد حقن الدماء بابن رسول الله وسكن به الفتنة ، وأجاب الى الصلح ، فاضطرب العسكر ولم يشك الناس في صدقهم فوثبوا بالحسن وانتبهوا مضاربه وما فيها فركب فرسه ومضى فكمن له الجراح بن سنان الاسدي فجرحه بمعول وقبض الحسن على لحية الجراح فلوها فدق عنقه ، وحمل الحسن إلى المدائن وقد نزف نزفا شديدا واشتدت به العلة فافترق الناس عنه وقدم معاوية إلى العراق فغلب على الأمر والحسن عليل شديد العلة فلما رأى أن لا قوة به وافترق عنه اصحابه صالح معاوية وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وقد سالمت معاوية وان ادري لعله فتنة لكم .

ويبدو من رواية اليعقوبي ان الحسن بقي مصرا على الحرب الى آخر لحظة وان وفد معاوية لم يصل معه إلى نتيجة بخصوص الصلح ، وقد استعمل معاوية أساليب الخداع والتضليل في اعلانه عن وقوع الاتفاق بين الطرفين كما يوحي بذلك قول اليعقوبي أن معاوية قدم العراق وغلب على الأمر والحسن عليل شديد

العلة وان معاوية لم يجد مقاومة تمنعه من دخول العراق واحتلاله ، وان الحسن لما رأى ذلك لم يكن له خيار في تسليمه الأمر .

وتختلف رواية ابن الجوزي في تذكرته عن روايتي شرح النهج واليعقوبي ، فقدجاء فيها أن قيادة الفرقة التي ارسلها الامام الحسن (ع) كانت بقيادة قيس بن سعد ، وروى عن الشعبي انه قال : بينما كان الامام في السرادق الذي اعد له بالمدائن واذا بالمنادي ينادي في أوساط عسكر الامام أبي محمد أن قيسا قد قتل فانفروا فنفروا إلى سرادق الحسن (ع) فنازعوه حتى اخذوا بساطا كان تحته وطعنه رجل بمشقص فأدماه فازدادت رغبته في الدخول في الجماعة وذعر منهم فدخل المقصورة التي في المدائن بالبيضاء وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود عم المختار ابي عبيدة ، فقال المختار لعمه وكان شابا : هل لك في الغناء والشرف ، قال وما ذاك ؟ قال : تستوثق الحسن وتسلمه إلى معاوية ، فقال له سعد بن مسعود : قاتلك الله أثب على ابن رسول الله وأوثقه وأسلمه إلى ابن هند بئس الرجل أنا ان فعلت ذلك .

وروي عن طبقات ابن سعد أن المختار قال لعمه : هل لك في أمر تسود به العرب ، قال : وما هو؟ قال : تدعي اضرب عنق الحسن وأذهب به إلى معاوية ، فقال له : قبحك الله ما بهذا نجازي بلاء أهل البيت ، ومضى يقول : ولما رأى الحسن تفرق الناس عنه واختلاف أهل العراق عليه وغدر اهل الكوفة به رغب في الصلح وكان معاوية قد كاتبه يدعوه اليه فلم يجبه .

وهذه المرويات على ما بينها من اختلاف في المضمون كلها تؤكد على أن معاوية كان يعمل هو وزبانيته بكل ما لديهم من وسائل المكر والخداع والاحتيال على تفتيت جيش العراق وبث الذعر والخوف والتخاذل في صفوفه وشراء قادته وزعماء العشائر بالأموال والوعود المغرية ، وتؤكد اكثر المصادر ان الامام الحسن (ع) بقي مصرا على القتال بالرغم من انه كان على صلة بكل ما كان يجري ويدور بين معاوية وبين اكثر القادة وزعماء العشائر ولكنه بعد ان هوجم وهو في فسطاطه وطعن في فخذه ونهب المهاجمون امتعته ولم يبق معه من يطمئن اليهم سوى اخوته وأهل بيته وعدد محدود من القادة والجنود ورأى أن القتال يعرضهم

إلى أشد المخاطر وافق على الصلح الذي كان ينشده معاوية ويفضله على جميع الحلول لأنه يستطيع التضليل به على الجماهير كما ذكرنا من قبل .

ولعل الذين هاجموا الحسن (ع) ونهبوا امتعته وطعنوه في فخذه كما نصت على ذلك رواية ابن الجوزي التي ربما تكون اقرب إلى الصحة من غيرها ، لعلهم كانوا رسل معاوية لهذه الغاية ، وليس ذلك ببعيد على ابن هند وزبانيته الذين مارسوا كل انواع الفتن والغدر حتى بلغوا القمة في غدرهم وخيانتهم لكل ما جاء به الاسلام من سنن وأخلاق وآداب وتشريعات كما ينص على ذلك تاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات .

ومهما كان الحال فقد تم الصلح بعد أن مرّ الامام بهذه التجارب المريرة مع أهل الكوفة وقادة جنده وكان امرا لا مفر منه ولا خيار للحسن (ع) فيه حرصا منه على مصلحة الاسلام العليا التي كان مسيرا لها ولا يتحرك الا في حدودها كما كان ابوه من قبله وأخوه الحسين من بعده ، ولو مضى الحسن (ع) بتلك الفئة القليلة من اخوته وأهل بيته وأصحابه البررة وحارب معاوية مع تخاذل جيشه . الذي عبثت به دسائس معاوية ومغرياته كما تعبث النار في الهشيم لكانت نهايته المحتومة الاسر أو القتل وربما يتم ذلك على يد أهل العراق بالذات ، ولا يقتل الحسن حتى يقتل معه اخوته وخلص شيعته ، ولو جرى ذلك لوقف ابن هند وابن النابغة على منابر المسلمين في كل بلد يقولان للناس : لقد عرضنا على الحسن الصلح وأن يكون هو الخليفة في الواقع ومعاوية هو المنفذ لا نقطع امرا دونه ولا نخالفه في مرضاة الله ، وله مع ذلك الخلافة في مستقبل حياته خالصة لا ينازعه فيها منازع وهذه رسائلنا اليه بهذا الخصوص ، ولكنه ابى الا الحرب واراقة الدماء . ولو فعل معاوية ذلك لوجد الأكثرية الساحقة من المسلمين الى جانبه يباركون قوله ويحملون الحسن (ع) مسؤولية كل ما حدث ، وبلا شك فان الامام أبا محمد الحسن (ع) قد ادرك جميع هذه الظروف وأحاط بكل ما يترتب على المضي في الحرب والمصالحة من نتائج ومفاسد وبالتالي ادرك أن التنازل عن السلطة على ما فيه من سوء أنفع لمصلحة الاسلام وأقل ضررا وفسادا من المضي في القتال بذلك الجند المتخاذل التي انتشرت فيه الخيانة بين

جميع فئاته .

لقد كان في تنازله عن السلطة في ذلك الجو المحموم منتهى الحكمة والحنكة والسياسة الرشيدة كما كان أبوه أمير المؤمنين من قبل موفقا في قبول التحكيم الذي فرض عليه بحد السيوف وأسنّة الرماح .

هذا بالاضافة إلى أنه لو مضى بمن معه وحارب معاوية بتلك الفئة القليلة لكان حاله كحال غيره من العلويين الذين نهضوا في ظروف مختلفة خلال العصور الاسلامية يهتفون بالاصلاح ويدعون اليه ، ثم غلبوا على امرهم ، ولم يبق من ذكرهم الا اسماؤهم في مجاميع التاريخ والانساب .

وما يدرينا فيما لو قتل الحسن وجميع أهل بيته وقتل من كان على رأيه من خيار المسلمين بعد أن ندبهم معاوية الى الصلح ، ما الذي يمنع معاوية وهو العدو اللدود للاسلام ولكل ما جاء به من المبادىء والمثل وقد كان صدره ضيقا والحقد يعبث في نفسه لان محمدا لا يزال يذكر في كل يوم عشرات المرات من فوق المنابر والمآذن في أوقات الصلاة وفي جميع المناسبات وقد طوى التاريخ اسلافه ومن تعاقبوا على الحكم من قبله كما جاء في رواية المروج للمسعودي وشرح النهج للمعتزلي[1] ما يدرينا فيما لو قتل الحسن واخوته وأهل بيته والصفوة المختارة من شيعته ، ماذا يصنع معاوية ورجاله المنتصرون كزياد بن عبيد وابن النابغة والمغيرة بن شعبة ومسلم بن عقبة وأمثال هؤلاء من عتات بني امية بمقدسات الاسلام ومبادىء الاسلام ، وهل هناك ما يمنع هؤلاء الذين فعلوا ما فعلوا من الجرائم والموبقات أن يعملوا على محق الاسلام أو تحويره وطمس معالمه وتحقيق احلام ابي سفيان والحكم بن العاص وبنيه والعتاة المردة من بني أمية والتاريخ وحده خير شاهد على أن معاوية ومن كان معه من المستهترين والمتسترين بالاسلام لولا البقية الباقية من أهل البيت والصفوة المختارة من

---

(١) انظر ص٣٤٣ من مروج الذهب المجلد التاني والمجلد التاني من شرح النهج طبع مصر ص ٣٥٧ .

المسلمين لغيروا وبدلوا وحققوا لاسلافهم ما كانوا يصبون اليه في حربهم لمحمد بن عبد الله طيلة عشرين عاما أو تزيد ، وهذا يعني بداية عهد اموي جديد له طابعه وخصائصه التي ان اختلفت عن الشرك والوثنية لا تختلف الا بالاسم أو الشكل ، وقد جاء عن النبي (ص) انه قال : لو لم يبق من بني امية الا عجوز درداء لبغت دين الله عوجا .

ومهما كان الحال فقد تم الصلح كما املته الحكمة وفرضته مصلحة الاسلام العليا ، اما المكان الذي تم فيه فقيل انه في مسكن حيث التقى معاوية بجنده مع مقدمة الحسن التي ارسلها عندما تحرك جيشه من معسكراته ، وقيل انه كان باذرح داخل الحدود السورية وقيل في الكوفة وبيت المقدس ، وقيل غير ذلك ومن غير البعيد ان تكون الموافقة عليه كانت في المدائن وتم تنفيذه بعد أن رجع الامام الى الكوفة كما تشير إلى ذلك بعض المرويات .



بنود الصلح كما يرويها المؤرخون

لقد اتفق المؤرخون أن الحسن بن علي (ع) قد تنازل عن السلطة لمعاوية بن هند لقاء شروط وعهود أخذها عليه، وروى الطبري وغيره أن معاوية ارسل إلى الحسن صحيفة بيضاء وختم اسفلها بخاتمه وترك للحسن أن يكتب ما يشاء ويقترح ما يريد كائنا ما كان.

وجاء في رواية ابن عبد البر في الاستيعاب أن من جملة شروط الحسن على معاوية أن لا يطلب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء كان منهم في عهد أبيه أمير المؤمنين فأجابه لذلك ما عدا عشرة قد عاهد الله أنه إذا ظفر سينكل فيهم، ومضى معاوية يقول: إني عاهدت الله أني إذا ظفرت بقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري أن اقطع لسانه ويده، فرد عليه الإمام بقوله: إني لا أوافق على ذلك أبدا وأنت تطلب قيسا أو غيره بتبعة قلت أو كثرت، فبعث معاوية إليه برق أبيض وقال له: اكتب ما شئت وأنا التزم بكل ما تريد فكتب ما أراد وشرط لنفسه الأمر من بعده.

ونص جماعة من المؤرخين على أن بنود الاتفاق لا تتعدى الأمور التالية:
لقد اتفق الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان على أن يسلم له الحسن ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين وليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده بل يكون الأمر شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم

ويمنهم، وعلى أن اصحاب علي بن أبي طالب آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من حقه بالوفاء وبما اعطى الله على نفسه وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله (ص) غائلة سرا ولا جهرا ولا يخيف أحدا منهم في أفق من الآفاق وكفى بالله شهيدا .

ويرى بعض المؤرخين أن هذه الوثيقة لا تحتوي على جميع بنود الاتفاق وقد سقط منها اكثر البنود على حد زعمهم وكان من جملتها أن يكون الأمر بعد معاوية للحسن (ع) وإن حدث بالحسن قبل معاوية حدث يكون الأمر بعد معاوية للحسين (ع) ، والعفو العام عن جميع الناس وبخاصة أهل العراق وشيعة علي أمير المؤمنين (ع) وأن لا يسمي معاوية نفسه بأمير المؤمنين ، وأن لا يسب أمير المؤمنين ولا يذكره إلا بخير ، وأن لا يقيم عنده الشهادة ، وأن ينفق على أيتام من قتل مع أمير المؤمنين في حربي الجمل وصفين ألف ألف درهم ، وأن يأخذ الإمام الحسن جميع ما في بيت مال المسلمين في الكوفة بالغا ما بلغ ، ويدفع اليه معاوية في كل عام مائة ألف درهم .

وتنص بعض المرويات أن ما كان في بيت المال يبلغ نحوا من خمسة ملايين درهم ، وأن الذي شرطه الحسن لنفسه في كل سنة مائتا ألف درهم وأن على معاوية أن يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس إلى غير ذلك من الروايات المتضاربة حول نصوص المواد التي وضعها الحسن (ع) والتزم بها معاوية ، والقدر المتيقن منها أن لا يعهد معاوية بالأمر لأحد من بعده واعلان العفو العام عن جميع الذين كانوا يقاتلون إلى جانب أمير المؤمنين وبخاصة أهل العراق ومن كان منهم شديد الولاء لعلي وبنيه لأن الإمام يعلم بما تنطوي عليه نفس معاوية من الحقد والعداء الشديد لأهل البيت (ع) ، وأنه سوف ينتقم منهم إذا اتيح له ذلك ، ولعل هذه المادة كانت من أهم بنود الاتفاق بنظر الإمام أبي محمد الحسن (ع) ، ومع التأكيد عليها فلقد أبت له نفسه الحاقدة أن يفي بما عاهد الله عليه فتتبع أعيان الشيعة بالقتل والحبس والتشريد ، وقطع ارزاقهم وصلاتهم وشردهم في البراري والآفاق ، وأوصى عماله وأنصاره

في جميع المقاطعات بمطاردتهم وقتلهم ، وأن لا يتركوا سب علي على منابرهم ويعلموا ذلك اطفالهم وصبيانهم كما أجمع على ذلك المؤرخون والمحدثون .

اما الروايات التي تنص على أنه اشترط لنفسه ما في بيت مال المسلمين في الكوفة ومائتي ألف درهم في كل عام بالاضافة إلى ذلك وخراج بعض المقاطعات في الأهواز وتفضيل الهاشميين على بني عبد شمس وغيرهم في العطاء ، هذه الروايات بالاضافة إلى ضعف أسانيدها فمن غير البعيد أن تكون من موضوعات الأمويين أو العباسيين الذين وضعوا حوله عشرات الأحاديث ليضعوا في الأذهان أن الحسن قد باع الخلافة بالأموال وكان منصرفاً إلى الملذات والشهوات عن عظائم الأمور ، كما قالها أحد حكام العباسيين في محاولة منه لانتقاص بعض الحسنيين الذين كانوا لا يتحملون الضيم ويثورون بين الحين والآخر على الظلم والطغيان في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي .

ولو صح أنه اشترط لنفسه ما في بيت مال الكوفة فذاك لينقذه من أيدي الطغاة وينفقه على أيتام المسلمين وفقرائهم في الكوفة وغيرها كما كان ينفق أكثر أمواله في هذا السبيل ، وقد صح عنه أنه قاسم الفقراء أمواله ثلاث مرات وخرج منها بكاملها مرتين ، ولو بقيت في تصرف معاوية ستصرف على الفجور والمنكرات وعلى أعوانه الذين باعوا دينهم كابن العاص والأشعث بن قيس والمغيرة وغيرهم من الأنصار والأتباع والمفسدين في الأرض.



وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين

لقد شاع هذا الحديث بين المرويات عن النبي (ص) في سبطه الحسن (ع) ، ولعل مصدره الوحيد عن النبي أبو بكرة شقيق زياد بن عبيد لأمه سمية ، ورواه البخاري في كتاب الصلح من صحيحه والإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن المبارك عن الحسن عن أبي بكرة ، وورد نصه في الاصابة لابن حجر على النحو التالي عن أبي بكرة ، قال رأيت رسول الله على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

وفي رواية البخاري ومسند أحمد عن أبي بكرة أنه قال : كان رسول الله يصلي بالناس وكان الحسن بن علي يثب على ظهره إذا سجد فعل ذلك مرارا ، فقالوا له : يا رسول الله انك لتفعل بهذا شيئا ما رأيناك تفعله بأحد ، قال أبو بكرة : فذكر شيئا ثم قال : إن ابني هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين .

وجاء في رواية العقد الفريد أن رسول الله (ص) دخل على ابنته فاطمة فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها فقال لها : إن الله سيصلح على يدي ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

بهذه الصيغ المتقاربة في المضمون روى المحدثون حديث نبوءة النبي (ص) بما سيجري على يد سبطه الحسن الزكي من اصلاح بين فئتين عظيمتين

من المسلمين على حد تعبير الراوي وأخذوا به وكأنه من المسلمات وقرت بهذه الرواية عين واضعها معاوية بن أبي سفيان لأنها اعتبرته احدى الفئتين المسلمتين العظيمتين ، في حين أن القرآن الكريم يراه من البغاة الذين يجب على المسلمين قتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله كما اعتبره النبي (ص) باغيا كما يستفاد ذلك من قوله لعمار : تقتلك الفئة الباغية .

واعتبرها اكثر الشيعة كرامة للإمام أبي محمد الحسن لأن النبي أشاد بمقامه وفضله وتم على يده الاصلاح الذي تنبأ به جده الرسول الأعظم ، وقد ذكرنا أسباب الصلح الذي تم بين الطرفين والمراحل الأليمة التي مر بها الحسن حتى اضطرته إلى الصلح حرصا على مصلحة الاسلام بنحو لم يكن له خيار فيه .

اما الرواية فلا أشك بأنها من موضوعات أبي بكرة أو أنها وضعت ونسبت إليه ليثبت أن معاوية من المسلمين لا من البغاة بعد أن وصمة القرآن بهذه الصفة وأكدها النبي في حديثه مع عمار الذي رواه عن النبي أكثر الصحابة وكان من أكثر الأحاديث شيوعا وانتشارا ، وقد اقلق هذا الحديث معاوية بن هند بعد مقتل عمار وكاد جيشه أن ينتقض عليه لولا ابن النابغة الذي استطاع أن يضلل ويموه على الجيش ، بأن الذي قتل عمارا من جاء به إلى المعركة وغرر به وظلت وصمة البغي التي وصمه بها القرآن الكريم والرسول تقلقه حتى تيسر له أبو بكرة بن الحارث بن كلدة شقيق زياد من أمه سمية فوضع له الحديث ليكون هو وجماعته احدى الفئتين المسلمتين . ومما يدل على أنه من الموضوعات ، أن الحديث المذكور لم يروه عن النبي سوى أبي بكرة وادعى أنه رأى الحسن إلى جانب جده على المنبر يلتفت إليه تارة وإلى المسلمين أخرى ثم قال : إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين ، وكما شاهده إلى جانبه على المنبر لا بد وأن يشاهده ويسمع منه جميع من كان حاضراً تحت منبره ، فلماذا تفرد وحده بروايته ، وفي الرواية الثانية أنه شاهده على ظهره وهو ساجد ، وقد سأله المسلمون فقال لهم أنه سيد وسيصلح الله به . وبالطبع فقد سمع منه على تقدير صدق الراوي جميع المصلين ، ومع ذلك فلم يسند الحديث لغيره هذا بالاضافة إلى أن أبا بكرة كان منحرفا عن علي وآل علي ولم يشترك معه في حروبه

وهو الذي روى عن النبي (ص) حينما خرج طلحة والزبير وعائشة على أمير المؤمنين حديث ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ليخذل الناس عنه ، وكان يرى أن الحروب التي دارت في البصرة وصفين قد دعا النبي إلى اعتزالها لأنها من نوع الفتن التي لا خير فيها للإسلام ، وبالاضافة إلى كل ذلك فالذين رووا الحديث عن أبي بكرة يدعون أن النبي (ص) قد قال ذلك للحسن وهو طفل في حدود الثلاث سنوات من عمره حينما كان يدرج ويصعد على ظهر النبي وهو يصلي وعلى منبره وهو يخطب في المسلمين ، وأبو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة يوم ذاك كان لا يزال مشركا في الطائف .

فقد جاء في تهذيب التهذيب لابن حجر أن أبا بكرة شقيق زياد لأمه سمية وكانت أمة للحارث بن كلدة ومضى يقول : وإنما سمي أبو بكرة لأنه تدلى من حصن الطائف يوم حاصرها النبي والتحق بالاسلام في السنة الثامنة للهجرة بعد أن فتح مكة وانتهى من معركة حنين والحسن يوم ذاك في الخامسة من عمره أو اكثر من ذلك[1]

ومما يشير إلى أن الحديث من الموضوعات هو أن معاوية كان يردده بعد عام الجماعة مستبشرا به .

فقد جاء في مروج الذهب للمسعودي أنه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية بالخضراء وكبر أهل المسجد لتكبير أهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرضة من خوخة لها وقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ما هذا الذي بلغك ؟ فقال أتاني البشير بصلح الحسن وانقياده ، فذكرت قول رسول الله : إن ابني هذا سيد أهل الجنة وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين فحمدت الله الذي جعل فئتي احدى الفئتين المؤمنتين[2] .

فلقد كبر مستبشرا لأن الحديث يجعله وفئته من المؤمنين ، في حين أن

---

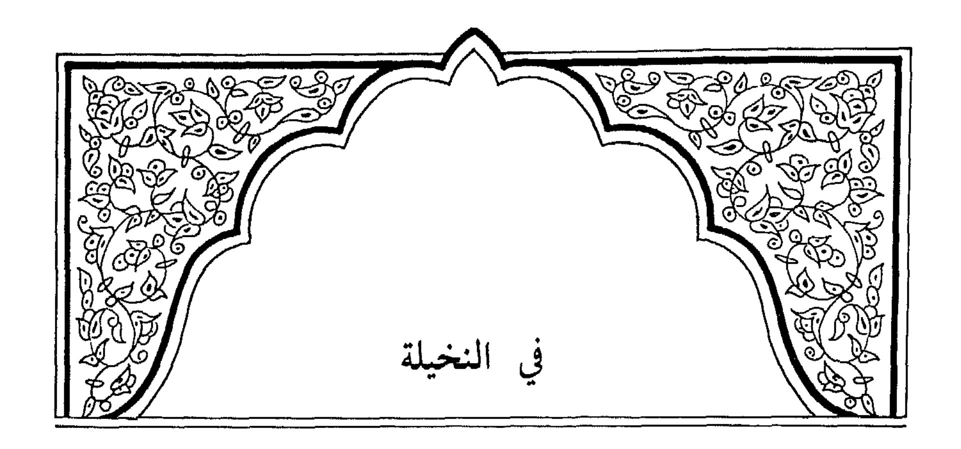
(١) أنظر ص ٤٦٩ جـ ١٠ من التهذيب .

(٢) المسعودي مروج الذهب ص ٥٢ من المجلد الثاني .

حديث الرسول لعمار الذي رواه اكثر الصحابة يجعله وفئته من البغاة الذين يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى أمر الله .

والغريب في المقام أن يقف الدكتور طه حسين من هذا الحديث موقفا سطحيا بعيدا عن منطق الاحداث والظروف التي ترجح أن الحديث من الموضوعات التي لا واقع لها فبعد أن رجح صحة الحديث قال : لقد وقع هذا الحديث موقعا من نفس الصبي أي موقع ، وكأنه ذكره حين ثارت الفتنة وحاول بمشورته على أبيه في مواطنه تلك التي ذكرتها آنفا أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده ، وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقا بأبيه واشفاقا فحسب ، وإنما كان إلى ذلك حزنا لأنه لم يحقق ما توسم به جده فيه ، ومضى يقول : إن الحسن خرج في عدد ضخم من أهل العراق وكأنه خرج يظهر لهم الحرب ويدبر أمر الصلح فيما بينه وبين معاوية ليحقق نبوءة .

ومحل الغرابة في حديث طه حسين هذا الموقف السطحي الذي وقفه من الإمام الحسن (ع) ومن الحديث المذكور ، في حين أن النصوص التاريخية تؤكد أن فكرة الصلح لم تكن واردة عند الإمام أبي محمد الحسن حتى اللحظات الاخيرة ، ولم يجنح إليها إلا بعد أن يئس من جدوى المقاومة ومن أخطارها على الإسلام كما ذكرنا ، وأما الحديث الذي وقف عنده وكأنه اكتشف منجما غنيا بالمعادن ، فقد ذكرنا عيوبه وبعض الشواهد على أنه من موضوعات الأمويين للغاية التي ذكرناها .



في النخيلة

يدلي جماعة من المؤرخين أن المراسيم التي تقضي بتسليم السلطة لمعاوية بن أبي سفيان قد تمت بالنخيلة على أميال من الكوفة ، واجتمع في المكان المذكور حشد كبير من العراقيين والسوريين ، وبلا شك لقد كان الاجتماع المذكور من اقسى ما لاقاه الحسن (ع) في حياته فقد رأى معاوية عدو الإسلام والبيت الهاشمي يدخل عاصمة الدولة الاسلامية الكبرى دخول الجبابرة الفاتحين ، ورأى شيعته وشيعة أبيه الأوفياء للإسلام وحماة الإسلام يتململون مما ينتظرهم من جور واضطهاد وتشريد ، وينتظر الإسلام من أولئك المستهترين العابثين بالقيم والمقدسات وبكل ما جاء به محمد بن عبد الله .

فقد جاء في شرح النهج عن أبي الفرج أن معاوية نزل بالنخيلة فخطب خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة على حد تعبيره ، ومضى يقول : لقد روى الشعبي أن معاوية قال : ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ثم انتبه وقال إلا هذه الأمة .

وروى أبو إسحاق السبيعي أنه قال : إلا وأن كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي له بشيء منه ، وأضاف إلى ذلك كما في رواية الأعمش : والله ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا لأنكم تفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون .

وفي رواية حبيب بن ثابت أن معاوية لما خطب في النخيلة نال من أمير المؤمنين بحضور الحسن والحسين ، ثم نال من الحسن بن علي (ع) فقام الحسين ليرد عليه فأخذ الحسن بيده وأجلسه ، ثم قام فقال : أيها الذاكر عليا أنا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة بنت خويلد وجدتك قتيلة فلعن الله اخملنا ذكرا وألأمنا حسبا وشرفا قديما وحديثا وأقدمنا كفرا ونفاقا ، فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين آمين ومضى في شرح النهج يقول : إن يحيى بن معين يقول آمين وعبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب يقول آمين .

وجاء في بعض المرويات أن معاوية بعد أن خطب في النخيلة طلب من الحسن أن يتحدث إلى الناس بناء لاقتراح ابن العاص ليظهر للناس عجزه فوقف الحسن (ع) بين تلك الجموع المحتشدة وصوّر الأحداث القاسية التي اعترضت طريق أهل البيت منذ وفاة الرسول (ص) حتى يومه ذلك وموقف أبيه منها الذي كانت تمليه مصلحة الإسلام العليا ، وبعد أن استعرض الظروف التي فرضت عليه الصلح فرضا لا مفر منه قال : إن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلا ولم أر نفسي أهلا لها ، لقد كذب معاوية ، نحن اولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبيه ، ولم نزل أهل البيت مظلومين منذ قبض الله نبيه فالله بيننا وبين من ظلمنا وتوثب على رقابنا وحمل الناس علينا ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع أمنا ما جعله لها رسول الله .

وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي بعد رسول الله لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها ، ولما طمعت فيها معاوية ، فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها وطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء أنت وأصحابك ، وقد قال رسول الله (ص) ما ولت أمة أمرها رجلا وفيهم من هو أعلم منه لم يزل أمرهم يذهب سفالا حتى يرجعوا إلى ما تركوا ، فقد ترك بنو اسرائيل هارون وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم واتبعوا السامري ، وتركت هذه الأمة أبي وبايعوا غيره ، وقد سمعوا رسول الله يقول له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة ، ورأوا رسول الله حين نصب أبي يوم غدير خم وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهد الغائب ،

وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى دخل الغار ، ولو أنه وجد أعوانا لما هرب ، وأضاف إلى ذلك : وقد جعل النبي في سعة حين دخل الغار. ولم يجد أعوانا وكذلك أبي ، وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة ، وإنما هي السنون والأمثال يتبع بعضها بعضا .

ثم التفت إلى الحشود المجتمعة وقال : فوالذي بعث محمدا بالحق لا ينقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقص الله من عمله ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ولتعلمنّ نبأه بعد حين .

والتفت إلى معاوية فرد عليه سبه لأبيه وقال : أيها الذاكر عليا أنا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أخملنا ذكرا وألأمنا حسبا وشرفا قديماً وحديثا وأقدمنا كفرا ونفاقا ، فارتفعت الأصوات من جميع الجهات آمين آمين على حد تعبير الراوي ، وأنا مؤلف هذا الكتاب أقول آمين آمين يا رب العالمين .

وقد استعرض الإمام أبو محمد الحسن في خطبته هذه جميع المراحل التي مرّ فيها أمير المؤمنين ، وربط بينها وبين الأحداث التي اضطرته إلى التخلي عن السلطة إلى ابن هند وبين الأحداث التي مرت على أبيه وأدت إلى انتزاع السلطة منه الذي مهد لكل طامع بالاستيلاء عليها إلى أن وصلت إلى الطلقاء وأبنائهم .

ومهما يكن الحال فلقد تم الصلح وبايع أهل العراق لمعاوية وهم بين طائع ومكره ، وكان قيس بن سعد بن عبادة من أوثق الناس في نفس الحسن (ع) ومن أشد أهل الكوفة وأهل الحجاز عداء لمعاوية ، ولقد أصيب بصدمة قاسية عندما علم بموافقة الحسن على الصلح وبقي مصرا على مقاومة معاوية بمن معه من الجيش مهما كانت النتائج لولا أن الحسن (ع) رغب إليه في المهادنة وعدم القتال .

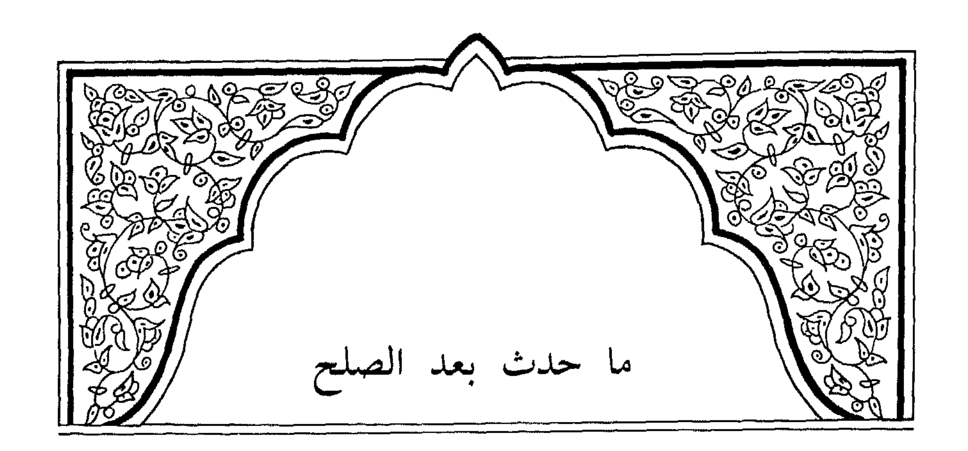
وجاء في شرح النهج أنه لما تم الصلح ارسل إلى قيس بن سعد يدعوه للبيعة وكان رجلا طويلا يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطان في الارض ، ولما

أرادوا ادخاله على معاوية قال : إني حلفت أن لا ألقاه إلا وبيني وبينه السيف أو الرمح فأمر معاوية برمح وسيف ووضعهما بينه وبينه ، والتفت قيس إلى الحسن وقال : أفي حل أنا من بيعتك يا ابن رسول الله ؟ قال نعم ، فألقي له كرسي فجلس عليه وجلس معاوية على سريره والحسن بن علي معه ، فقال له معاوية : أتبايع يا قيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده على فخذه ولم يمدها لمعاوية ، فقام معاوية عن سريره ومسح يده على يده وهي في مكانها ، وانتهى الأمر بعد ذلك لمعاوية بدون معارض ، فسمى الناس ذلك العام بعام الجماعة .

وقال الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية : وهذه نظرة لا تعدو السياسة الظاهرية ، أما في مجال العقيدة فقد كان المسلمون مجتمعين حتى هذا العام فحدث الانشقاق بعد عام الصلح الذي يسمونه عام الجماعة ، ولذا وصفه الجاحظ بحق بقوله عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا والخلافة غصبا قيصريا[1] .

---

(١) أنظر ص ٣٢٨ من الكتاب المذكور عن رسالة الجاحظ في الأمويين .



ما حدث بعد الصلح

لقد بقي الإمام السبط بعد الصلح أياماً في الكوفة تطوف به الآلام وتعلوه الكآبة يرى شيعته يتململون من الأسى والألم ، ويدفعهم الوجد إلى الخروج عن المألوف في حديثهم معه ، ويتلقى كل ذلك بالصبر ويحاول اقناعهم والتخفيف عنهم باستعراض ما حدث من الاحداث التي فرضت عليه الصلح ولم تترك له خياراً فيه ولكن بدون جدوى ، وأخذ بعد برهة وجيزة يعد العدة للرجوع مع اخوته وأهل بيته الى مدينة جده (ص) .

ونص اكثر المؤرخين انه لم يتأخر في الكوفة بعد الصلح سوى ايام قلائل وخرج منها تاركاً فيها من شيعته ومحبيه أضعاف ما له من الشيعة والأنصار في المدينة وجميع انحاء الحجاز ، وموضع التساؤل هل أن معاوية قد شرط عليه فيما شرط أن ينزح عن الكوفة الى المدينة لأن بقاءه فيها ربما يؤدي إلى التفاف اهلها حوله وبالتالي إلى تمردهم عليه ، أو أنه نزح عنها رغبة منه في أن يكون فيما بقي من عمره بعيداً عن قوم غدروا به وبأبيه وجرعوهما أسوأ انواع الاذى والبلاء ، ليس لدينا من المصادر ما يشير إلى أن معاوية قد اشترط عليه أن يترك العراق ، ومن الجائز القريب أن يكون قد تركها باختياره ليبقى بعيداً عن أحداثها ومشاكلها ويتفرغ إلى مصالح الناس وحوائجهم بعيداً عن السياسة ومشاكلها ، ولا أظن ان معاوية يسمح له في البقاء فيها لو أراد ذلك .

ولما علم أهل الكوفة بعزمه على الخروج خرجوا لوداعه وهم بين باك

وباكية يندبون حظهم ومصيرهم المظلم في عهدهم الجديد وقد اصبح بلدهم مصراً من الأمصار وتابعاً لدمشق بعد أن كان عاصمة الأمصار يصدر القرارات ويوزع الولاة وتجبى اليه الخيرات ، ورأوا جيش معاوية الذي كان عدوهم بالأمس يحتل بلدهم نيشوان بلذة النصر والفتح وسمعوا معاوية وهو على منبر امير المؤمنين يقول جذلان مسروراً : اني قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون .

لقد رحل عن الكوفة هو وأهل بيته وسارت قافلته تطوي البيداء ، فلما انتهى الى دير هند القى على عاصمته نظرة مليئة بالأسى واللوعة وتمثل بقول القائل :

ولا عن قلى فارقت دار احبتي هم المانعون حوزتي وذماري

وقبل أن يقطع موكبه مسافة بعيدة عن الكوفة ادركه معاوية يطلب اليه الرجوع اليها ليقاتل طائفة من الخوارج اعلنوا العصيان والتمرد في جوارها ، فأبى أن يرجع وكتب إلى معاوية : لو آثرت أن اقاتل احداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك قبل أي احد من الناس[1] .

ومضى في طريقه وكلما حاذى موكبه قرية أو حياً من الاحياء خف اهله إلى استقباله والترحيب به ، وسألوه عن الصلح وأسبابه وظروفه ، والإمام (ع) يخبرهم بالواقع الذي اضطره إلى ترك السلطة وتسليمها لمعاوية ، ولما انتهت قافلته إلى يثرب استقبله اهلها بالترحاب وذكروا به رسول الله وهو يحمله على كتفه ويقول حسن مني وأنا من حسن اللهم اني احبه فأحبه وأحب من يحبه . فأقام في يثرب عشر سنين انصرف فيها إلى خدمة الإسلام ونشر تعاليمه وكل ما يعود على الإسلام وأهله بالخير وكان مع ذلك موئلاً لذوي الحاجات ونصيراً للمظلومين وموردا كريماً للفقراء والمحتاجين ، وخلال اشهر معدودات من

(١) الكامل لابن الاثير جـ ٣ ص ٣٠٨

استيلاء معاوية على السلطة جعل ينكل بالشيعة ويطاردهم من بلد إلى بلد فأحسوا بمرارة تلك الصدمة ووطأتها فكانوا يفرون اليه من جور معاوية وعماله ويفاجئونه بما هو أشد عليه من وقع الحسام مع علمهم بالظروف القاسية التي الجأته إلى اعتزال السلطة ، فقال له ابو عامر شعبان بن أبي ليلى : السلام عليك يا مذل المؤمنين ، وقال له حجر بن عدي ، حينما سمع معاوية من على منبر الكوفة يسب امير المؤمنين ، أما والله لوددت انك مت في ذلك اليوم ومتنا معك ، فانا رجعنا راغمين ورجعوا مسرورين وقال له عدي بن حاتم الطائي ونفسه تكاد تذهب من الألم والاسى : يا ابن رسول الله لوددت اني مت قبل تسليمك الأمر لمعاوية لقد اخرجتنا من العدل الى الجور فتركنا الحق الذي كنا فيه ودخلنا الباطل الذي كنا نهرب منه وأعطينا الدنية من انفسنا .

وقال له المسيب بن نجية وكان من خيار الصالحين الذين عرفوا بالولاء والاخلاص لأهل البيت : ما ينقضي تعجبي منك بايعت معاوية ومعك اربعون الفا ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعهداً ظاهراً ، اعطاك امراً فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت على ملأ من الناس .

وقال له سليمان بن حرد : السلام عليك يا مذل المؤمنين وتكلم بكلام يشبه كلام غيره من الشيعة في القسوة والشدة ، كما خاطبه بعض اصحابه بقوله : لقد اذللت رقابنا بتسليمك الأمر لهذا الطاغية ، إلى غير ذلك مما رواه المؤرخون من الكلمات القاسية التي كان يسمعها من شيعته وأنصاره والتي لم تكن لتصدر منهم لولا الجور والاضطهاد والتعذيب الذي لحقهم من معاوية وعماله لا لشيء إلا لأنهم يوالون علياً وآله ، وكان (ع) يتحمل منهم كل ذلك ويعرف الدوافع التي اضطرتهم الى مقابلته بهذا الأسلوب ، وكانت اجوبته لهم على ما بينها من اختلاف في الصياغة والأسلوب تلتقي عند تحديده لموقف اهل الكوفة منه وتخاذلهم عن نصرته وانحياز اكثرهم الى جانب معاوية حتى بقي في اهل بيته وخلص شيعته الذين لا يغنون عنه شيئاً .

وكلما بلغ التذمر والاستياء اشدهما في نفوس الشيعة الحريصين على مصلحة الإسلام وتعاليمه من تسلط معاوية على المسلمين ومقدراتهم ، فلقد وقف اكثر

المسلمين موقفاً يتسم بالحذر والخوف من خلافة معاوية ، وحتى انها لم تقابل بالارتياح من اولئك الذين لم يقفوا إلى جانب علي والحسن في الصراع الذي احتدم بينهما وبين معاوية وطلحة والزبير في البصرة وصفين ، وكان رأي تلك الفئة ان الخلافة التي ادعاها معاوية لنفسه وقاتل عليها علياً والحسن بن علي ليس للطلقاء وأبنائهم ولا لمسلمة الفتح ممن اسلموا في السنة الثامنة نصيب فيها ولو صدقوا في اسلامهم .

في حين أن بعضهم كان يتخوف على الإسلام من بني امية إذا اصبحت السلطة في ايديهم ، وقد رووا عن النبي انه قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصبح ملكاً عضوضاً ، وقد عد جماعة من المسلمين ذلك تحولاً في تاريخ الإسلام ستكون له اسوأ العواقب والنتائج على عالم الإسلام .

ويروي الرواة ان سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن تنازل له الحسن بن علي عن السلطة ، وقال له : السلام عليك أيها الملك ، فضحك له معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : السلام عليك يا امير المؤمنين ، فقال له سعد بن ابي وقاص : اتقولها جذلان ضاحكاً والله ما احب اني وليتها بما وليتها به[1] .

كما روى الرواة عن ابن عباس انه قال : ليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة .

وجاء في تاريخ ابن كثير عن ابي هريرة في معرض استنكاره لخلافة معاوية أن رسول الله قال : الخلافة في المدينة والملك في الشام .

وجاء في النصائح الكافية عن سفينة مولى رسول الله (ص) فيما اخرجه ابن شيبة في معرض الحديث عن استخفاف بني امية للخلافة جاء عنه أنه قال : كذب ابن الزرقاء ، انهم ليسوا بخلفاء ، بل هم ملوك من شر الملوك وأول

---

(١) انظر صلح الحسن ص ٢٦٨ عن ابن الاثير في الكامل جـ ٣ ص ١٦٣ والنصائح الكافية ص ١٥٨ .

الملوك معاوية .

وممن انكر خلافة معاوية عائشة ، فلقد جاء في المجلد الرابع من شرح النهج ان الحسن بن علي (ع) دخل على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مكان ضيق فجلس الحسن (ع) عند رجليه فتحدث معاوية بما شاء أن يتحدث ثم قال : عجباً لعائشة تزعم اني في غير ما أنا اهله وان الذي اصبحت فيه ليس لي بحق مالها ولهذا الأمر غفر الله لها ، انما كان ينازعني هذا الأمر ابو هذا الجالس وقد استأثر الله به .

فقال الإمام (ع) أوعجب ذلك يا معاوية ؟ فقال : إي والله ، قال أفلا اخبرك بما هو أعجب من ذلك ؟ قال فما هو قال : جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجليك ، فضحك معاوية وقال : يا ابن اخي بلغني ان عليك ديناً فكم هو؟ فقال : مائة الف ، فقال قد امرنا لك بثلاثمائة الف فقم مكرماً واقبض حلتك ، فلما خرج الحسن قال يزيد بن معاوية لابيه : تالله ما رأيت رجلاً مثلك استقبلك بما استقبلك به ثم اجزته بهذا المقدار ، فقال : يا بني ان الحق حقهم فمن اتاك منهم فأحث له .

وممن انكر على معاوية استيلاءه على السلطة ابو بكرة بن الحارث بن كلدة شقيق زياد من امه سمية فيما يروي صاحب النصائح الكافية عن عبد الرحمن بن ابي بكرة انه قال : كنت مع ابي عند معاوية فأنكر عليه استيلاءه على السلطة وحدثه بقول النبي (ص) الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون الملك فأمر معاوية غلمانه فدفعونا حتى اخرجونا من مجلسه طرداً .

وفيما يرويه الرواة ان معاوية سأل صعصعة بن صوحان العبدي ، اي الخلفاء رأيتموني ، فقال له ابن صوحان : انى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً ودانهم كبراً واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً ، اما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى ، لقد كنت انت وأبوك في العير والنفير ممن اجلب على رسول الله (ص) وإنما انت طليق وابن طليق اطلقكما رسول الله فانى تصلح الخلافة لطليق .

وقد وصفه صديقه الحميم وشريكه في اكثر جرائمه وموبقاته المغيرة بن شعبة بأنه اخبث الناس وألأم الناس وأدانه بالشرك الصريح في حديث رواه مطرف بن المغيرة عن ابيه وقد ذكرناه فيما مضى خلال الفصول السابقة .

وجاء في مروج الذهب ان المأمون العباسي لما حدثه بعض الرواة بما رواه مطرف بن المغيرة عن ابيه بما سمع من معاوية امر مناديه ان ينادي برئت الذمة ممن يذكر معاوية بخير ويقدمه على احد من اصحاب رسول الله (ص)[1] .

وقال الحسن البصري : اربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها امرها بغير مشورة منها وفيها بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه من بعده وهو يعلم بحاله واستهتاره وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجر بن عدي فويل له من حجر وأصحاب حجر إلى أكثر مما قيل فيه من اعلام المسلمين في عصره وبعد عصره ، وأكثرهم كان يرى ان استيلاءه على السلطة حدث عظيم في تاريخ الإسلام وبداية لعهد جديد يهدد الإسلام ومبادئه وحماته بأشد الاخطار .

ولما جاء عهد المعتضد العباسي نشر تاريخ معاوية وجرائمه وما جاء فيه وفي اسرته عن النبي (ص) وما قيل فيه من معاصريه وغيرهم وأمر الخطباء ان تتحدث بجرائمه وأحداثه وبلعنه على المنابر وفي النوادي والمجتمعات .

ومهما كان الحال فلقد تعرض الإمام ابو محمد الحسن الزكي (ع) للنقد اللاذع من شيعته وأصحابه الذين لم يتسع صبرهم لجور معاوية مع أن اكثرهم كان يدرك الظروف القاسية التي إضطرته إلى تجنب القتال واعتزال السلطة كما أحس الكثير من اعيان المسلمين وقادتهم بصدمة عنيفة لهذا الحادث بما تنطوي عليه نفوس الأمويين من حقد على الإسلام ودعاته الأوفياء وحرص على احياء ما اماته الإسلام من مظاهر الجاهلية بكل اشكالها .

---

(١) انظر مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤١ و٣٤٢



موقف المستشرقين من صلح الإمام الحسن (ع)

لقد تعرض الإمام ابو محمد الحسن (ع) لهجمات عنيفة من بعض كتّاب العرب وغيرهم لموقفه من الخلافة خلال الأشهر القليلة التي كانت مسرحاً للصراع بينه وبين معاوية بن ابي سفيان وكان منتقدوه بين فئتين فئة نظرت الى الاحداث التي دونها المؤرخون نظرة سطحية ولم تأخذ بعين الاعتبار ما قامت به اجهزة الأمويين والعباسيين من تشويه وكذب وافتراء على علي وآله الكرام في العصرين الأموي والعباسي وتحريف لحقائق التاريخ ، ومن خلال هذه النظرة إلى التاريخ والأحداث ليس بغريب إذا انتهى الباحث إلى مثل هذه النتائج ، وليس لأحد أن يحاسبه على نتائج بحثه ، وإنما الذي يؤخذ على الباحث ويعرضه إلى الاتهام بسوء النية وبخاصة إذا كان من امثال الدكتور طه حسين الذي يتجاهل جميع الظروف والملابسات والأحداث القاسية التي كانت تعصف بالخلافة في تلك الفترة ويبني احكامه على بعض النصوص التاريخية التي هي تشير إلى من يريد الحقيقة ان يتحراها في غيرها من النصوص والاحداث .

والبعض الآخر وأعني به اكثر المستشرقين من اعداء العرب والإسلام الذين يتعمدون في كتاباتهم وكتبهم تشويه الحقائق والدس والافتراء على الإسلام وأعلام المسلمين وابراز الإسلام من خلال حكامه وتصرفاتهم لا من خلال مبادئه وأنظمته وتشريعاته ، وابراز دعاته وحماته من خلال الصورة التي ارادها اخصامهم السياسيون لهم .

ومن هؤلاء المستشرق لامنس المعروف بعدائه للإسلام وحقده على أعلامه وقادته وتحريفه لحقائق التاريخ بما يخدم الصهيونية والمسيحية العالمية ، كما تؤكد ذلك مؤلفاته في المواضيع الإسلامية المشحونة بالكذب والافتراء والتشويش على الإسلام وقادته الأوفياء ، فقد قال في كتابه فاطمة وبنات محمد : وبويع الحسن بعد مقتل أبيه فحاول انصاره أن يقنعوه بالعودة إلى قتال اهل الشام ، وقلب هذا الالحاح من جانبهم حفيظة الحسن القعيد الهمة ، ولم يعد يفكر إلا في التفاهم مع معاوية ، كما ادى الى وقوع الفرقة بينه وبين أهل العراق وأدى بهم الحال إلى اثخان امامهم اسماً لا فعلاً بالجراح وتملكت الحسن منذ ذلك الوقت فكرة واحدة هي الوصول إلى اتفاق مع الأمويين وترك له معاوية ان يحدد مطالبه جزاء تنازله عن الخلافة ، ولم يكتف الحسن بالمليون درهم التي طلبها معاشاً لأخيه الحسين ، بل طلب لنفسه خمسة ملايين درهم اخرى ودخل كورة في فارس طيلة حياته ، وعارض اهل العراق بعد ذلك في تنفيذ الفقرة الاخيرة من الاتفاق ، بيد انه اجيب إلى كل ما سأله حتى أن حفيد النبي اجترأ فجاهر بالندم على أنه لم يضاعف طلبه وترك العراق مشبعاً بسخط الناس عليه ليقبع بالمدينة .

ويروي بروكلمان ان الحسن لم يكن رجل الساعة إذ رفض أن يصحب جنده ليهاجم عدوه ، كما ذهب المستشرق هـوكلي إلى أن الحسن لم يكن كفؤاً للموقف لميله إلى السلم ، وعد ساكيس الحسن غير جدير بأن يكون ابنا لعلي ذلك الرجل العظيم لانشغاله بملذاته واكتفائه بارسال اثني عشر الفاً كطليعة لجيشه[1] .

وقال راويت رونلدسن في كتابه عقيدة الشيعة الامامية : ان الاخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح .

وقال الدكتور فيليب حتّي : وفي بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير في الأجيال التي تلت وهي اعلان اهل العراق الحسن بن علي

---

(١) العراق في ظل العهد الأموي للدكتور علي الخرطبولي ص ٧٤ .

الخليفة الشرعي ، ومضى يقول : ولعملهم هذا اساس منطقي ، لأن الحسن كان اكبر ابناء علي وفاطمة ابنة النبي (ص) الوحيدة الباقية بعد وفاته ، ولكن الحسن الذي كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى الحكم والإدارة ، لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه اياها معاوية .

إلى غير ذلك مما قيل عن موقف الحسن من اعتزال السلطة ، وأحسب أن ما ذكرته سابقاً حول الصلح وأسبابه يكفي لرد مزاعم المستشرقين وغيرهم ممن كتبوا حول الموضوع . وقبل أن انتقل من هذا الموضوع احب أن اختمه بكلمة للدكتور احمد محمد صبحي في كتابه نظرية الإمامة رد فيها على منتقدي موقف الحسن (ع) وكشف عن اسبابه وملابساته التي لم تترك له اختياراً فيه .

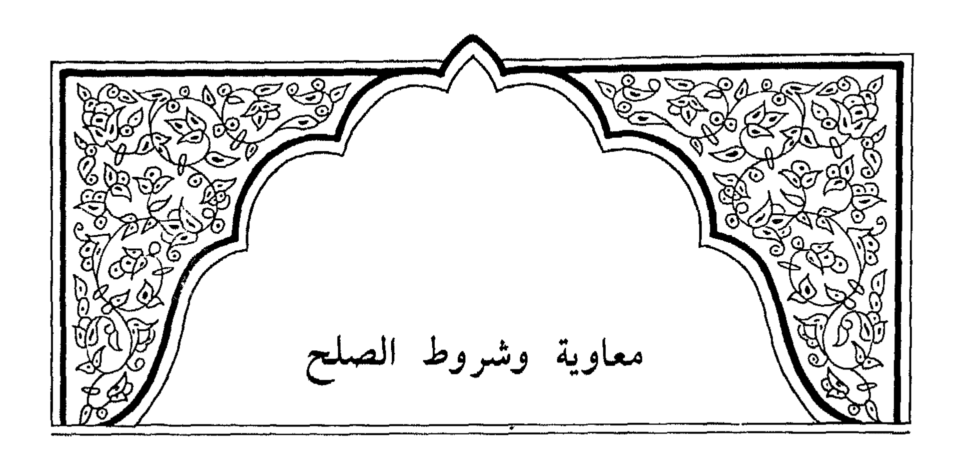
فلقد قال بعد أن عرض بعض الآراء التي ذكرناها : وبلا شك فإن في هذه التعليقات تجاهلاً للموقف وتجنياً على الحسن الذي تولى الخلافة في أدق الظروف ، إذ لم يكن تحت ولايته من الأقاليم غير العراق وما وراءها بعد أن استولى معاوية على معظم ارجاء الدولة ، وكانت الأمور في اواخر عهد أبيه تسير من سيء إلى أسوأ ، ولم يستطع علي مع مقدرته الفائقة للحرب أن يجابهها ، وكان مقتل علي اكبر انهيار في الموقف، ثم توالت الخيانات من أشراف العراق ، وقد عبر الحسن عن اسباب تنازله بقوله : يا أهل العراق اني سخي بنفسي عنكم لثلاث : قتلكم ابي وطعنكم اياي ، وانتهابكم متاعي ، وقد كرهت الدنيا ورأيت اهل الكوفة قوماً لا يثق بهم احد إلا غلب ليس احد يوافق الآخر في رأي ، ولا يطمئن في خير ولا شر وقد لقي ابي منهم اموراً عظاماً .

ومضى يقول : والدي لا شك فيه ان التنازل عن الخلافة قد تم تحت ظروف تجعل حرية الإرادة معطلة والاكراه قائماً ، إذ كان الحسن يواجه عدواً أكثر منه عدداً وأوسع منه حيلة وأملك لناصية الأمور فضلاً عن الخيانة المستمرة في صفوف انصاره .

وأضاف إلى ذلك ، والذي لا شك فيه أيضاً أن الحسن لم يتنازل لمعاوية لاعتقاده أن معاوية أولى منه بالأمر أو اجدر به ، او لاستحقاق معاوية للخلافة ، إذن فالحسن قد تنازل على ملأ من الناس وهو في قرارة نفسه كاره لهذا التنازل

ناقم على الظروف التي هيأت أن يرى بعينه معاوية خليفة للمسلمين فكان تنازل الحسن تقية اصبحت عقيدة لدى الشيعة بعد أن اصبحوا على امرهم مغلوبين وتحت رحمة معاوية خاضعين[1] .

(١) انظر صفحة ٣٢٤ و٣٢٦ من الكتاب المذكور .



معاوية وشروط الصلح

مما لا شك فيه أن الحسن (ع) بالرغم من أنه تنازل عن السلطة في ظل ظروف تفرض عليه التنازل ، ولكنه اشترط لنفسه ولشيعته ولانصار ابيه شروطاً لم تتوفر لدينا المصادر الموثوقة على تحديدها بنحو تطمئن اليه النفس ، وقد اجاب اليها معاوية في بداية الأمر وعاهد الله على الوفاء بها وكان سخياً في عروضه منذ البداية ، لا لأنه لم يجد بديلاً عنها ولا لأن الصلح مخرجه الوحيد ، بل لأنه كان يفضل الاستيلاء على السلطة بالصلح على القوة العسكرية للاعتبارات التي ذكرناها وأهمها أن الصلح يضفي على حكومته صفة الشرعية بنظره ، وبالرغم من العهود التي قطعها على نفسه والمواثيق التي اعطاها للإمام الحسن (ع) على الوفاء بكل ما الزم نفسه به ، فقد اجمع المؤرخون بما فيهم المتعصبون لمعاوية وحزبه على أنه لم يف بشيء منها ، وقد اعلن تراجعه عنها بعد أن دخل الكوفة واستتب له امرها ، فقال وهو يخطب في حشد كبير من اهلها : إلا وان كل شرط واعطيته للحسن بن علي فهو تحت قدمي هاتين لا افي بشيء منه ، وبالفعل فلقد باشر بنقض جميع البنود التي اشتملت عليها وثيقة الصلح ، ولما اشتد بلاؤه على الشيعة وفد جماعة منهم على الحسن في المدينة وعرضوا عليه بإلحاح نقض المعاهدة ووضعوا انفسهم بين يديه ووعدوه بالنصر والصبر وضمنوا له كل ما تطلبه المعركة من السلاح والعتاد ، وقال له سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو يوم ذاك الرئيس المطاع في قومه وفي العراق على حد تعبير ابن

قتيبة : وقد زعم معاوية على رؤوس الناس ما قد سمعت إلا واني كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عدات ومنيتهم اماني فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، ووالله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه فأذن لي ان اشخص إلى الكوفة وأخرج منها عاملها وأظهر فيها خلعه وأنبذ اليه على سواء ان الله لا يهدي كيد الخائنين .

وتكلم بعده حجر بن عدي والمسيب بن جية الغزاري المعروف بفارس مضر الحمراء وغيرهم بكلام يشبه بعضه بعضاً ، وتوالت عليه الوفود من الكوفة وغيرها وكلها تئن وتضج من جور معاوية وعماله ، ولا ترى منفذاً من تلك المحنة إلا بالتراجع عن الصلح وكان جوابه الاخير : ليكن كل رجل منكم حلساً من احلاس بيته ما دام معاوية حياً ، فإن يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على امرنا وان لا يكلنا الى انفسنا فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

وكان جوابه هذا لتلك الفئة من المؤمنين لعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئاً ، ولو تراجع عن الصلح وعاد إلى الكوفة بعد أن استتب امر معاوية فيها وتغلغل انصاره بين قبائلها وبعد أن توالت عليهم صلات معاوية وقطفوا ثمار وعودة ومغرياته فسيكون موقفهم معه أسوأ من الأول لذلك فقد امرهم بالصبر والاخلاد الى السكينة وانتظار امر الله سبحانه .

وكان من الشروط التي اشترطها الإمام الحسن ان لا يتعرض لشيعته وشيعة أبيه بسوء في أي قطر كانوا ، ولكن معاوية بن هند كان من اغلى امانيه القضاء على كل ما يمت إلى البيت العلوي بصلة من الصلاة مهما كان نوعها ، فلم يترك وسيلة من وسائل العنف والارهاب والتعذيب إلا استعملها مع الشيعة ، وكان اشدهم بلاء وأعظمهم محنة وشقاء شيعة الكوفة ، فلقد استعمل عليها المغيرة بن شعبة وأوصاه بالتنكيل بهم وان لا يترك شتم علي وبنيه في مناسبة من المناسبات ، وبعد أن هلك المغيرة استعمل عليها زياد بن سمية وكان بهم عارفاً وبأحوالهم خبيراً فقتل من تمكن منه ومثل بهم بقطع الأيدي والأرجل وصلبهم على جذوع النخل وشرد اكثرهم في الأمصار . وكتب معاوية الى جميع

عماله في العراق وغيرها : انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وامنعوا عنه عطاءه ورزقه ، وكتب كتاباً آخر الى عماله قال فيه : من اتهم بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره ، وجاء عن الإمام محمد بن علي الباقر (ع) وهو يصف ما لاقاه شيعتهم من البلاء والمحن في عهد معاوية ، جاء عنه انه قال : وقتل شيعتنا بكل بلدة ومصر وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة والتهمة وكل من اتهم بحبنا قتل وسجن وهدمت داره ونهب ماله حتى بلغ بهم الحال أن الرجل كان يتمنى ان يتهم بالكفر والزندقة ولا يتهم بحبنا اهل البيت[1] .

ومن الشروط كما يذهب المؤرخون ان لا يتعرض إلى أبيه بسوء ، ولكنه بعد أن استولى على السلطة واستتب له الأمر ووزع عماله على الأمصار كان اول ما اوصاهم به شتم علي بن أبي طالب على المنابر وتسخير جميع الاجهزة لوضع الأحاديث في فضل الخلفاء الثلاثة وانتقاص امير المؤمنين ، ولما استعمل المغيرة ابن شعبة على الكوفة بعد عام الجماعة ترك له أن يتصرف في جميع الشؤون الادارية والعسكرية حسبما تقتضيه خبرته وحكمته وأوصاه بشتم علي ولعنه على المنابر وفي المجتمعات فنفذ المغيرة هذه الوصية كما يريد وتوالى على ذلك الولاة من بعده .

وجاء في شرح النهج ان معاوية لما رجع إلى الشام بعد الصلح اجتمع عليه الناس يهنئونه بالانتصار الذي احرزه ، فقال : ايها الناس ان رسول الله قال لي : انك ستلي الخلافة من بعد فاختر الأرض المقدسة فان فيها الابدال وقد اخترتكم فالعنوا ابا تراب ، فأخذ الناس في سبه وانتقاصه[2] . وكان كما تؤكد جميع المصادر لا يترك مناسبة تمر إلا ويشتم فيها علياً (ع) وبخاصة في خطبتي الجمعة والاعياد حتى اصبح في مفهوم الناس سبه من السنن التي لا تتم بدونها صلاة الجمعة ، وكثيراً ما كان يردد في خطبه : اللهم ان ابا تراب قد ألحد في دينك وحاد عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً اليماً .

---

(١) انظر شرح النهج جـ ٣ ص ١٥ .

(٢) نفس المصدر .

وجاء في تطهير الجنان واللسان انه عزل سعيد بن العاص عن امارة يثرب لا لشيء إلا لأنه امتنع عن سب امير المؤمنين وعين مكانه مروان بن الحكم فبالغ مروان في سبّ الإمام وانتقاصه بالرغم من وجود الحسن والحسين بالمدينة ، وحينما رغب اليه بعض اهل المدينة ان يخفف من لهجته ويراعي جانب العلويين والهاشميين اجاب : لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك كما جاء في رواية الصواعق المحرقة لابن حجر[1].

وفي حياة الإمام الحسن للقرشي عن الحافظ السيوطي انه كان في ايام بني امية اكثر من سبعين الف منبر يلعنون عليها امير المؤمنين (ع) ومضى يقول : وبهذه المناسبة قال احمد حفظي الشافعي في ارجوزته :

وقد حكى السيوطي انه قد كان فيما جعلوه سنه
سبعون الف منبر وعشرة من فوقها يلعنون حيدره
وهذه في جنبها الفطائم تصغر بل توجه اللوائم

في حين أن امير المؤمنين (ع) في حياته سمع جماعة من اصحابه يسبون معاوية فأنكر عليهم ذلك وقال : اني إكره لكم ان تكونوا قوماً سبابين ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان اصوب في القول وأبلغ في العذر قولوا مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم عن ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به .

وهكذا كان الإمام ابو محمد الحسن (ع) يترفع عن استعمال لغة السب والشتم بالرغم من انه كان يبلغه كل ذلك عن معاوية وعماله ، وأحياناً يبلغ السفه والحقد من معاوية وزبانيته حدهما الأقصى فينالون من علي (ع) بحضور الحسن والحسين ومع ذلك فلم يستعمل هذه اللغة ولا دعا احداً من اصحابه اليها ، وكل ما في الأمر انه كان إذا اجتمع بمعاوية وزبانيته كابن العاص وأمثاله

(١) انظر ص ٣٣ من الصواعق.

وأحرجوه على الحديث كما كانوا يصنعون احياناً ، يستعرض تاريخهم الحافل بالمخازي والمنكرات فيخصمهم ويعودون نادمين خاسرين .

وقد حكى عنه صاحب الملاحم والفتن في كتابه المذكور ان معاوية ارسل إلى الإمام الحسن في حاجة له فلما قابله الرسول هابه وعظمه من حيث لا يريد وقال : حفظك الله يا ابن رسول الله وأهلك هؤلاء القوم ، فنهره الإمام (ع) وقال : لا تخن من ائتمنك وحسبك ان تحبني لحب رسول الله وأبي وأمي ، ومن الخيانة ان يثق بك قوم وأنت عدو لهم وتدعو عليهم .

وظل الأمويون على موقفهم هذا من امير المؤمنين إلى أن صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز فمنع من سبه وكتب بذلك إلى جميع عماله في الأمصار وأمرهم أن يستبدلوا سبه في خطب الجمعة والاعياد بقراءة الآية : ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ﴾ .

وكان عمر بن عبد العزيز يحدث عن السبب الذي دعاه إلى محاربة هذه البدعة ويقول : كنت غلاماً اقرأ القرآن على بعض أولاد عتبة بن مسعود فمر بي يوما وأنا العب مع الصبيان ونحن نلعن عليا (ع) فكره ذلك ودخل المسجد فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردي فلما رآني قام إلى الصلاة وأطال فيها وكأنه معرض عني ، فلما انفتل من صلاته كلح في وجهي ، فقلت ما بال الشيخ معرضاً عني ؟ فقال لي : أنت اللاعن عليا منذ اليوم ، فقلت نعم ، قال فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم ، فقلت له : يا أبتي وهل كان علي من أهل بدر ، فقال : ويحك وهل كانت بدر كلها إلا له ، فقلت له لا أعود لمثلها ، وأضاف إلى ذلك ابن عبد العزيز : وكنت احضر تحت منبر المدينة وأبي يخطب يوم الجمعة وهو يوم ذاك أميرها ، فكنت اسمع أبي يمر في خطبته تهدر شقاشقه حتى يأتي إلى لعن علي بن أبي طالب فيجمجم ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به فكنت اعجب من ذلك ، فقلت له يوماً : يا أبتي أنت أفصح الناس وأخطبهم فما بالي أراك إذا مررت بلعن هذا الرجل

صرت الكن عيباً ، فقال : يا بني لو علم من تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد ، فوقرت كلمته في صدري مع ما قال معلمي أيام صغري ، وأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر شيء لأغيرنه ، فلما من الله علي بالخلافة اسقطت ذلك .

ومن الشروط التي أعطاها معاوية للامام الحسن (ع) كما يدعي بعض المؤرخين أن يكون له خراج دار أبجر ويتصرف به كما يريد ، ولم يف له معاوية بذلك كما جاء في تاريخ أبي الفداء .

ونص ابن الأثير في تاريخه أن دار ابجر كانت تابعة للبصرة فأوعز معاوية إلى أهل البصرة ليمنعوه من تسليمه خراجها ، وبالفعل فلقد تم ذلك واحتج معاوية بأهل البصرة كما هو الحال في أكثر تصرفاته التي تقوم على الأحتيال والمكر والخداع ، وكنت قد أبديت رأيي في مثل هذه الشروط خلال الحديث عن الصلح وبنود الاتفاق.

ومن الشروط كما يدعي اكثر المؤرخين أن تكون الخلافة بعد معاوية إلى الإمام الحسن ، فإن لم يكن الحسن موجوداً حين وفاته فإلى الحسين (ع) مباشرة ، والوفاء بهذه المادة يبدو وكأنه من المستحيلات على معاوية ، لأنه منذ أن وطئت قدماه أرض الشام واليا عليها لعمر بن الخطاب وأصبح صاحب السلطة عليها جعل يخطط بكل وسائله لاعادة امجاده التي حطمها الإسلام ، وكانت تراوده الاحلام بأن يساعده الحظ ويأتيه اليوم الذي يصدر فيه المراسيم والأوامر باسم الدولة الإسلامية ، وها هو اليوم الذي كان ينتظره ويحلم فيه وتنتظره اسرته التي عبر عن أمانيها وأحلامها أبو سفيان يوم انتهت الخلافة إلى عثمان ، بقوله : تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ، بعد أن تحققت احلامه وأحلام اسرته وأصبح بامكانه أن يتركها لاسرته ، تتلقفها تلقف الكرة ، فكيف يتركها للحسن والحسين ، وقد حارب هو وأسرته الاسلام عشرين عاما من أجل السلطة ، ومنذ الأيام الأولى التي استولى بها على الحكم أخذ يعمل ويمهد لوارث عرشه يزيد بن معاوية ، وكان وجود الحسن يشغل تفكيره لأن المسلمين لا يعدلون به

أحداً من خيارهم ، فكيف إذا كان البديل للحسن ولده الفاسق الفاجر المستهتر بالاسلام وجميع القيم ، وقد وصفه عبد الله بن حنظلة الصحابي الجليل غسيل الملائكة المعروف بالراهب بقوله : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء إنه رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويترك الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لابليت الله فيه بلاء حسنا.

وجاء عن المنذر بن الزبير فيه وكان قد وفد على الشام فأجازه يزيد بن معاوية بمائة الف ولما رجع قال : لقد أجازني بمائة الف ولا يمنعني ذلك أن أخبركم خبره ، والله أنه ليشرب الخمر حتى يسكر ويترك الصلاة[1] .

وجاء في صبح الاعشى أن أباه معاوية قد كتب إليه يندد به وينهاه عن المنكرات وفيها قال له : بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير وقد قال الله سبحانه : أتبنون بكل ربع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سيرتها عندك جهرا، واعلم يا يزيد أن أول ما سلبك السكر معرفة مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة وهي الجريمة العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها وهو من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب وإظهار العورة وإباحة السر فلا تأمن نفسك على سرك ولا تعتقد على فعلك[2].

ومع أن هذا النوع من المرويات في مجاميع التاريخ أكثره من مراسيل الواقدي والمدائني وأمثالهما وهما من غير الموثوقين كما يبدو ذلك لمن تتبّع تاريخهما ، ولكني لا أستبعد على معاوية أن يخاطب ولده المستهتر الفاجر بهذا النوع من الكلام أو يكتب له بهذه المضامين لا لانه كان يتورع عن هذه المنكرات وما هو اعظم منها ، فلقد قتل مئات الأبرياء والعلماء من الصديقين وعباد الله الصالحين جورا وبلا سبب إلا لأنهم انكروا جوره وطغيانه .

---

(١) ابن عساكر ج٧ ص٢٨ و٣٧٢ والبداية والنهاية ج٨ ص٢١٦ .

(٢) صبح الأعشى ج٦ ص٣٨٨

أما المنكرات ونكاح المحرمات والاستخفاف بالشعائر الاسلامية فلم يكن يتجاهر بها كما كان يفعل ولده يزيد دجلاً ونفاقاً ، وكان يتمنى على ولده أن لا يتجاهر بها ، لا تأثما واحتراما للاسلام ومقدساته وشعائره ، بل لأنه حينما بدأ يتحسس رأي الناس في ولده يزيد ليوليه الخلافة من بعده فوجيء بالمعارضة الشديدة ، وأكثر المعارضين كانوا يحتجون باستهتاره وادمانه على المسكرات وغيرها من المحرمات ، فكان يتمنى عليه التستر لتخف حدة المعارضة وتزول من طريقه بعض الصعاب

ومع أن أباه كان يتمنى عليه ذلك فلم يحدث أحد من المؤرخين على اختلاف نزعاتهم بأن يزيد قد غير إسلوب حياته ، أو تستر فيما كان يتعاطاه من المنكرات .

ومهما كان الحال فلقد اخذ معاوية منذ استيلائه على السلطة يعمل بكل وسائله وإمكانياته ليفرض ولده على الناس من بعده ، ولكن جميع جهوده كانت تصطدم بوجود الإمام الحسن (ع) وحتى إن جماعة من مؤيديه في الحجاز والعراق أشاروا عليه بالتريث في هذا الأمر ريثما يتوفر الجو الملائم لعمل خطير من هذا النوع كما أشار عليه جماعة من كبار المسلمين وأبناء المهاجرين والانصار أن يتحرى الاصلح لهذه الأمة .

وكان مما قاله له الأحنف بن قيس أحد زعماء المسلمين : إنك قد اعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك فإن تف فأنت أهل الوفاء وأن تغدر ستعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جياداً وأذرعا شدادا وسيوفا حدادا وأن تدن له شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصر ، واعلم بأن أهل العراق ما أحبوك منذ ابغضوك ، ولا ابغضوا عليا وحسنا منذ احبوهما .

وقال له في مجلس آخر وكان معاوية يحاول اقناعه بولاية العهد ليزيد من بعده : يا معاوية أنت أعلم بليله ونهاره وسره وعلانيته فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم آنه شر لك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، واعلم بأنه لا حجة لك عند الله أن قدمت يزيد على الحسن

والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما .

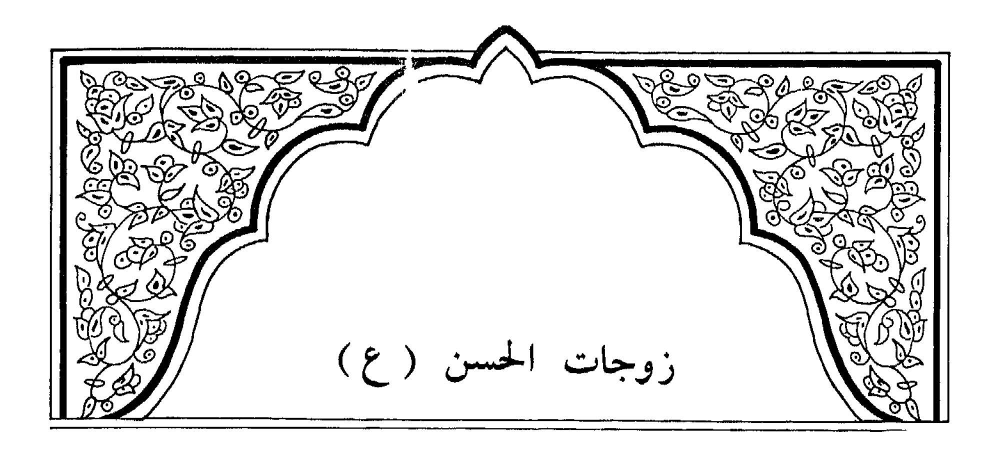
وقال له عبد الله بن العباس : إن الله تقدست اسماؤه وجل ثناؤه اختار محمداً لرسالته واختاره لوحيه وشرفه على خلقه فأشرف من تشرف به وأولاهم بالأمر أحقهم به .

وقال له عبد الله بن جعفر : أن هذه الخلافة إن أخذ فيها بسنّة الشيخين أبي بكر وعمر فأي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ، وايم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه ولاطيع الله وعصي الشيطان وما اختلف في الأمة سيفان فاتق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعياً ونحن لك رعية فانظر لرعيتك فإنك مسؤول عنها غداً .

وقال له ابن الزبير : اتق الله يا معاوية وانصف من نفسك فإن هذا عبدالله بن عباس ، وهذا عبد الله بن عمر وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وقد خلف علي بن أبي طالب حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما وما هما فاتق الله واحكم بيننا وبين نفسك .

وقال له عبد الله بن عمر : إن هذه الخلافة ليست هرقلية ولا كسروية يتوارثها الابناء عن الآباء ولو كانت كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة لمن كان أهلاً لها ممن يرتضيه المسلمون لانفسهم إذا كان ارضى واتقى ، وإن كنت تريد يزيد فاعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً

إلى غير هؤلاء من أعيان المسلمين ووجوههم الذين نصحوه في التريث وحسن الاختيار وذكروه بعهده للامام الحسن ، وكان القريب والبعيد لا يفضل أحداً عليه وينصحه بأن لا يتعداه ولكن ذلك لم يغير من تصميمه وجعل يفكر في التخلص منه ويعد العدة لذلك في الوقت المناسب .



زوجات الحسن (ع)

لقد تحدث المؤرخون عن زوجات الحسن وأكثروا ومال أكثرهم إلى المبالغة في تعدادهن مبالغة لا تعتمد على أساس معقول ، فقال بعضهم انهن يتراوحن بين الستين والسبعين ، وقال البعض الآخر بأنه تزوج بأكثر من مائتين وخمسين امرأة وأن أباه كان يتضجر من ذلك ، ووقف بعضهم منه موقفا يتسم بالاعتدال والتجرد ، فقال بأن تعدد الزوجات كان شائعا ومألوفا بين المسلمين ولم يكن أكثر زواجاً من غيره ، وقل من مات من أعيان المسلمين عن أقل من أربع زوجات ، فلقد تزوج وطلق حتى بلغ عدد زوجاته ومطلقاته نحوا من خمس عشرة امرأة .

أما رواية السبعين والتسعين وغيرها من الروايات التي تصفه بأنه مطلاق ، وأن والده كان يقول : لا تزوجوا ولدي الحسن فإنه مطلاق فلا مصدر لها إلا المدائني وأمثاله من الكذبة كما يبدو من أسانيدها ، والمدائني والواقدي وغيرهما من المؤرخين القدامى قد كتبوا التاريخ في ظل الحكومات التي كانت تناهض اهل البيت وتعمل بكل ما لديها من الوسائل على تشويه واقعهم وانتقاصهم ، ولم يكن حكام الدولة العباسية بأقل سوءاً وتعصباً من أسلافهم الأمويين ، فقد شاركوهم في وضع الأحاديث التي تسيء إلى العلويين ، وكانوا يحقدون على الحسنيين بصورة خاصة لأن أكثر الثائرين على الظلم كانوا من أولاد الحسن وأحفاده .

ولما قبض المنصور على عبد الله بن الحسن أحد الحسنيين الثائرين على الظلم والجور خطب في حشد كبير من الناس ونال من علي ابن أبي طالب ومن الإمام الحسن وجميع الطالبيين، وكان مما قاله :

إن ولد ابي طالب تركناهم والذي لا إله غيره والخلافة ولم نتعرض لهم لا بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكمين فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، وقام من بعده الحسن بن علي (ع) فوالله ما كان برجل ، لقد عرضت عليه الأموال فقبلها ودس إليه معاوية إني جاعلك ولي عهدي فخلعه وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه ، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه .

وفي المجلد الأول من صبح الأعشى أن المنصور كتب إلى النفس الزكية الحسني كتاباً جاء فيه : وافضى امر جدك إلى الحسن فباعها لمعاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه إلى غير ذلك مما كان العباسيون يلصقونه بالحسن (ع) ردا على الانتفاضات الشعبية التي قادوها ردا على جورهم وطغيانهم .

وكما ذكرنا فرواية السبعين رواها المدائني كما جاء في شرح النهج ، ورواية التسعين رواها الشبلنجي في نور الابصار ، ورواية المائتين وخمسين والثلاثمائة رواها المجلسي عن قوت القلوب لأبي طالب المالكي المتوفى سنة ٣٨٠.

وجاء في الكتاب المذكور كما يروي القرشي عنه في المجلد الثاني من كتابه الحسن بن علي أن الحسن تزوج مائتين وخمسين امرأة وقيل ثلاثمائة وأن عليا كان يتضجر من ذلك حياء من اهلهن إذاء طلقهن ، وكان يقول : إن حسنا مطلاق فلا تزوجوه ، فقال له رجل من همدان : والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء فمن أحب أمسك ومن كره فارق فسر بذلك أمير المؤمنين وأنشأ يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومضى في قوت القلوب يقول : وهذا أحد ما كان الحسن يشبه فيه جده رسول الله ، وهو يشبهه في الخلق ، وقد قال له جده : اشبهت خَلقي وخُلقي ، وقال حسن مني وحسين من علي ، وأضاف إلى ذلك أن الحسن كان ربما عقد على أربع وطلق أربعا .

وعلى ما يبدو أن الذين الصقوا بالحسن كثرة الزواج والطلاق هؤلاء الثلاثة المدائني والشبلنجي وأبو طالب المكي في قوت القلوب ، وعنهم أخذ المؤرخون والكتّاب من السنّة والشيعة والمستشرقون ، أما علي بن عبد الله البصري المعروف بالمدائني والمعاصر للعباسيين فهو من المتهمين بالكذب في الحديث . وجاء في ميزان الاعتدال للذهبي أن مسلما في صحيحه قد امتنع عن الرواية عنه ، وأن ابن عدي قد ضعفه ، وقال له الاصمعي : والله لتتركن الاسلام وراء ظهرك ، وكان من خاصة أبي اسحاق الموصلي ، وقد تبعه لثرائه ، ويروي عن عوانة بن الحكم المتوفي سنة ١٥٨ والمعروف بولائه لعثمان والأمويين .

ونص ابن حجر في لسان الميزان أن عوانة كان يضع الأخبار لبني أمية ، وجاء في معجم الأدباء أنه كان مولى لسمرة بن حبيب الأموي ، أما صاحب لسان الميزان فقد قال : أنه كان مولى لعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب الأموي ، هذا بالاضافة إلى أن أكثر رواياته من نوع المراسيل ، كل ذلك مما يبعث على الاطمئنان بأن رواية السبعين التي لم يروها غير المدائني من موضوعاته لمصلحة الحاكمين اعداء العلويين .

أما رواية التسعين فقد أرسلها الشبلنجي في كتابه نور الابصار ولم ينسبها لاحد ، والشبلنجي في كتابه المذكور لم يتحر الصحيح في مروياته وأخباره كما يبدو ذلك للمتشبع فيه ، والمرسل إذا لم يكن مدعوما بشاهد من الخارج أو الداخل للاستدلال ، في حين أن الشواهد والقرائن ترجع بأنه من صنع الحاقدين على أهل البيت .

وأما رواية المكي في قوت القلوب فهي اقرب إلى الأساطير من غيرها لأنها

لم ترد على لسان أحد من الرواة وأبو طالب المكى كان مصابا بالهستيريا كما نص على ذلك معاصروه وحينما وفد على بغداد وجد البغداديون في حديثه هذياناً وخروجاً عن ميزان الاعتدال والاستقامة ، وجاء عنه أنه كان يقول : ليس على المخلوق أضر من الخالق ، ويبيح استماع الغناء ولما عاتبه عبد الصمد بن علي أنشد :

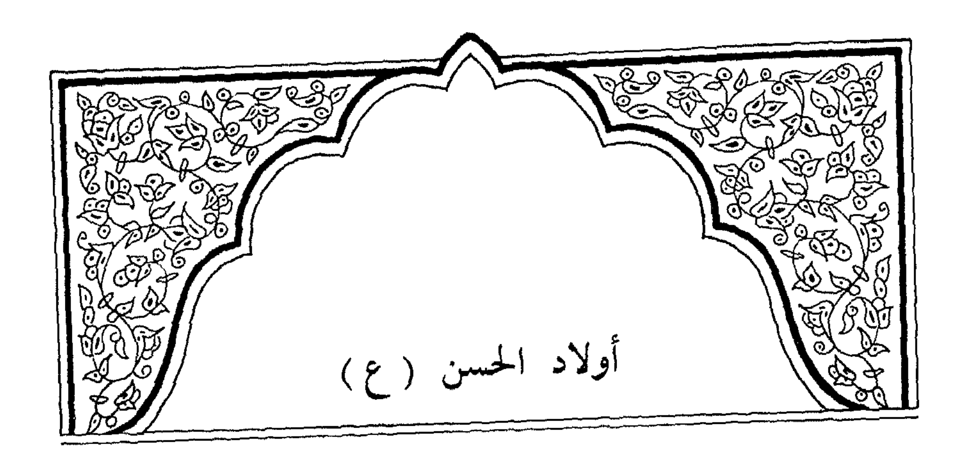
فيا ليل كم فيك من متعة ويا صبح ليتك لم تقرب

ومن شذوذه كما جاء في البداية والنهاية لأبن كثير : والكنى والالقاب للقمي : إنه أوصى أحد اصحابه أن غفر الله له أن ينثر على جنازته لوزا وسكرا وجعل العلامة على ذلك أن يقبض على يد صديقه ساعة الاحتضار فقبض على يده في تلك الساعة ونفذ صديقه ما أوصاه به.

هذا بالاضافة إلى أن جميع من تحدث عنه وصف مرويات كتابه بالضعف والشذوذ ، والذين رووا عنه هذا النوع من المرويات كالمجلسي وغيره لم يكن يعنيهم جمع الحديث من أي مصدر كان كما هو الشأن في مرويات البحار التي لا يثبت الكثير منها في مقام النقد والتمحيص.

وقد روي في البحار كما جاء في كتاب القرشي أنه لما توفي الحسن (ع) خرجت جمهرة من النساء حافيات حاسرات وهن يقلن : نحن زوجات الحسن ، على أن بعض المغفلين من الشيعة لقد تقبلوا هذه المرويات ظنا منهم أن ذلك فضيلة للحسن ودليل على ثقة الناس به ، كما يظهر ذلك من الشيخ راضي ياسين في كتابه ملح الحسن ، وقد أشار في كتابه المذكور إلى أنه كان يحلل المطلقات ثلاثاً لازواجهن ، ولا يثق الأزواج بغيره في هذه المهمة ، فأساء إلى الامام الحسن وإلى أهل البيت (ع) من حيث لا يقصد ، وفي الوقت ذاته أتاح لبعض الجهلة من الشيعة والحاقدين من غيرهم أن يتناولوه بالنقد والتجريح وأن يلصقوا به ما لا يرضاه لنفسه كرام الناس فضلاً عن سيد شباب أهل الجنة وريحانه رسول الله وأشبه الناس به خلقاً وخُلقاً كما أجمع على ذلك الرواة والمحدثون .

على أن المدائني نفسه الذي ادعى أنه تزوج بسبعين ، قد احصى له عشر نساء لا غير وعدهن بأسمائهن كما جاء في المجلد الرابع من شرح النهج ، وزواجه من عشر نساء ليس بغريب في ذلك العصر لأن الزواج كان مألوفاً ومتعارفاً بين الصحابة والتابعين ، وقد مات كل من الزبير وعبد الرحمن بن عوف وطلحة عن أربع زوجات عدا مطلقاتهم كما نص على ذلك أكثر المؤرخين .



أولاد الحسن (ع)

لقد اختلف المؤرخون في عدد أولاده ذكوراً وإناثاً ، فبين من قال بأنه مات عن ثمانية ذكور وأربع إناث ، وبين من قال بأنه ترك أحد عشر ذكرا وخمس إناث وقال آخرون : بأنه مات عن أربعة عشر ذكرا وثماني إناث إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يجدينا تحقيقها وتدقيقها نفعاً ، وقد اشتهر من أولاده الذكور القاسم بن الحسن ، وأمه كما قيل رملة أو نفيلة ، واستشهد مع عمه الحسين في كربلاء وتاريخه يقترن بتلك الفاجعة مع أبطال الطف .

وعبد الله بن الحسن ، وقتل مع عمه أيضاً وكان في مطلع شبابه وقد ابت نفسه الكريمة أن يرى عمه الحسين وحيدا وقد احتوشه أهل الكوفة من كل جانب فبرز وقاتل حتى قتل ، وقيل أن حرملة بن كامل رماه بسهم وهو إلى جانب عمه الحسين فذبحه بعد أن ضربه ابحر بن كعب بالسيف على يده فقطعها فاحتضنه عمه فجاءه السهم وهو بتلك الحالة ، كما جاء في مقاتل الطالبيين أن للحسن ولدا اسمه عبد الله كان صغيراً فلما سقط الحسين عن فرسه خرج يشتد نحوه فجاءه سهم أصاب منه مقتلاً .

وزيد بن الحسن المعروف بزيد الابلج ولم يحدث المؤرخون لواقعة الطف بأنه اشترك فيها ، وجاء في بعض المرويات انه توفي بعد أن بلغ التسعين من عمره سنة مائة وعشرين وكان كما يصفه المؤرخون جليل القدر كثير البر والاحسان يقصده الناس لبره ومعروفه . وقد مدحه محمد بن بشير الخارجي كما

في رواية البحار بأبيات جاء فيها :

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة نفى جدبها واخضر بالنبت عودها
وزيد ربيع الناس في كل شتوة إذا اخلفت انواؤها ورعودها

كما رثاه غيره من الشعراء وأشادوا بمآثره وفضله وممن رثاه قدامة ابن موسى الجمحي بقصيدة جاء فيها :

فان يك زيد غالت الأرض شخصه فقد بان معروف هناك وجود

وكان يلي صدقات رسول الله (ص) كما ذكر المفيد في ارشاده واتنزعها منه سليمان بن عبد الملك وردها عليه عمر بن عبد العزيز ، ورجح توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت أنه مدفون بالقاهرة بالقرب من جامع القراء .

ومن أولاده الحسن الأنور ، الذي يقول فيه الشاعر :

اذا امسى ابن زيد لي صديقا فحسبي من مـودتـه نصيبي

وهو والد السيدة نفيسة ذات المقام المعروف بالقاهرة ، ومن أولاده يحيى المتوج والد زينب التي لازمت عمتها نفيسة في القاهرة ودفنت فيها بجوار قبر ابن العاص وكانت من الزاهدات العابدات وأهل مصر يأتون لزيارة قبرها من كل فج حتى أن الخليفة الفاطمي الظاهر كان يقصده ماشيا ، ولعل القبر المعروف بقبر زينب في مصر هو قبرها[١] .

والحسن بن الحسن المعروف بالمثنى وقد اشترك مع عمه الحسين في معركة الطف وقاتل قتال الابطال وظل يقاتل حتى سقط إلى الأرض لكثرة ما اصابه من الجراح وظنه الناس مع القتلى ، وحينما ارادوا قطع رأسه تبين لهم أنه لا يزال حيا فتشفع به اسماء بن خارجة الفزاري وكانت أم فزارية وعالجه حتى برىء من

---

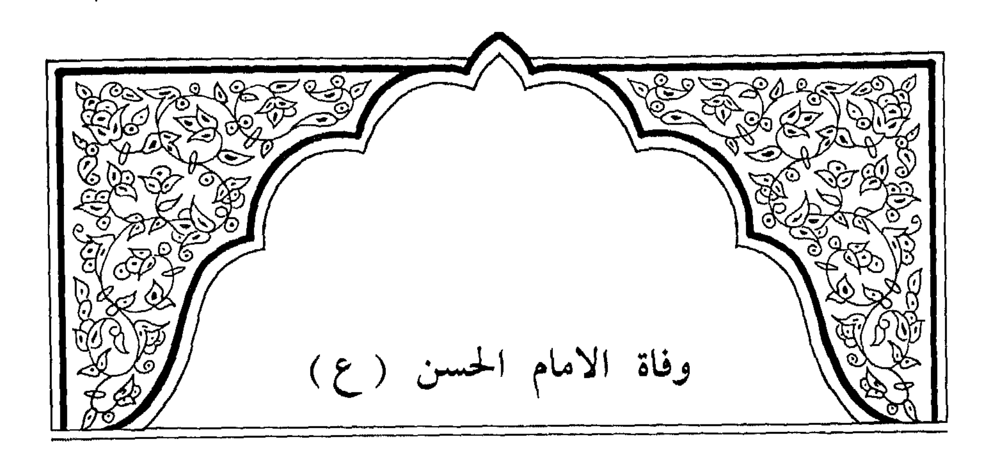
(١) انظر اهل البيت لتوفيق أبو علم ص٥٤٤ وما بعدها .

جراحه وتزوج من فاطمة بنت الحسين (ع) وأكثر الحسنيين الذين ثاروا على الظلم والطغيان في العصر العباسي وغيره من احفاده .

وإليه وإلى أخيه زيد بن الحسن ينتسب السادة الحسنيون الذين لا يزالون حتى عصرنا الحالي يفخرون ويتباهون ويتاجرون بنسبهم كغيرهم ممن يدعون الانتساب إلى رسول الله (ص) بعد مضي ألف وأربعمائة من السنين مع بعد الزمن وتنكرهم لوصاياه وتعاليم الإسلام وأني لا أرى للانتساب إلى الرسول (ص) قيمة إذا لم يقترن بالدين القويم والعمل الطيب ، وقد قال (ص) لابنته فاطمة (ع): اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا .

وسلام الله وتحياته ورضوانه على الامام الصادق (ع) القائل : ولايتي لعلي أحب إلي من ولادتي منه وسلامه على الامام زين العابدين الذي قال لطاووس اليماني وهو يحاوله أن يرحم نفسه ويرفق بها ولا يجهدها في العبادة وقد ذكره بنسبه الرفيع الذي يشده إلى رسول الله (ص): يا طاووس دعني من حديث أبي وجدي وأمي الجنة لمن أطاع الله ولو كان عبدا حبشيا والنار لمن عصاه ولو كان سيدا قرشيا .

وفي عشرات المناسبات كان الأئمة (ع) يحرصون على أن يصرفوا المنتسبين إلى علي وفاطمة (ع) عن الاتكال على انسابهم مؤكدين لهم أن الانساب لا تغني عنهم شيئا وأنه لا شيء يغني عن العمل الصالح كما أكد ذلك القرآن أكثر من مرة ، ولم يرد ذكر في المقاتل ولا في كتب الانساب لغير من ذكرنا من ولد الحسن السبط (ع).



وفاة الامام الحسن (ع)

لقد كان وجود الحسن بين الاحياء ثقيلا على معاوية وعقبة في طريق وصول ولده يزيد إلى السلطة من بعده ، وخاف أن يأتيه يومه والحسن (ع) بين الاحياء فأخذ يعد العدة للتخلص منه كما ذكرنا من قبل ، ففكر وأطال التفكير واستعرض أساليب الغدر والفتك التي كان يستعملها في سبيل مجده وملكه فلم يجد أشد فتكا وأخف مؤونة من العسل المسموم الذي جربه أكثر من مرة مع اخصامه ومناوئيه ، لقد جربه مع مالك الاشتر وهو في طريقه إلى مصر واليا عليها لعلي (ع) فدس إليه من قتله قبل وصوله إليها بعسل مسموم وتخلص منه ، وبعدها بسنوات قليلات كانت ترتفع أسهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان محبوبا ومتزنا في سلوكه ومرموقا أكثر من ولده يزيد ، وخاف أن يجد في بلاد الشام من يقدمه على ولده فدس إليه السم وقتله .

وثقل عليه سعد بن أبي وقاص وهو أحد الستة الذين رشحهم ابن الخطاب للخلافة ، والمسلمون لا يضعون يزيدا إلى جانبه ولا يقدمونه عليه ، فدس إليه من قتله بالسم كما جاء ذلك في شرح النهج وغيره .

قال شارح النهج : أن معاوية لما أراد البيعة لولده يزيد من بعده لم يكن شيء اثقل عليه من الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدس إليهما سما فماتا منه في أيام متقاربة بعد مضي عشر سنوات من استيلائه على السلطة[1] .

(١) انظر ج٤ ص١٧ من شرح النهج .

وكان العسل المسموم أحد جنوده ، وقد اشتهر عنه أنه كان يقول : إن لله جنودا من عسل ، ولما جاء دور الحسن أرسل إلى ملك الروم يطلب منه سما فتاكا سريع التأثير فامتنع عن إجابته وكتب إليه أنه لا يصلح في ديننا أن نعين على قتل من لم يقاتلنا ، فأجابه معاوية أن الرجل الذي أردت قتله هو ابن الرجل الذي خرج في أرض تهامة ، وقد خرج الآن يطلب ملك أبيه ، وأنا أريد قتله بالسم لأريح منه العباد والبلاد، فأرسل إليه ما أراد، واستطاع معاوية أن يغري زوجة الحسن جعده بنت الأشعث بن قيس فوعدها بأن يزوجها من ولده يزيد ويدفع لها مائة ألف درهم إن هي دست إليه السم ومات منه ، فوافقت على طلبه ووضعت له السم في طعامه فتقطع كبده منه .

وجاء في شرح النهج وتذكرة الخواص عن عمران بن اسحاق أنه قال : كنت مع الحسن والحسين في الدار فدخل الحسن المخرج ، فلما خرج قال : لقد سقيت السم مرارا ما سقيت مثل هذه المرة ، لقد لفظت قطعة من كبدي وجعلت أقلبها بعود في يدي فقال له الحسين (ع): ومن سقاك يا أخي ، قال : وما تريد منه ، أتريد أن تقتله إن يكن هو هو فالله أشد منك نقمة ، وإن لم يكن هو فما أحسب أن يؤخذ بي برأي ، وأضاف إلى ذلك ابن الجوزي في تذكرته أنه جزع وبكى بكاء شديدا ، فقال له الحسين (ع) يا أخي ما هذا الجزع ، وما هذا البكاء وإنما تقدم على رسول الله وعلى أبيك وعمك جعفر وفاطمة وخديجة ، وقال لك جدك : إنك سيد شباب أهل الجنة ، ولك سوابق كثيرة لقد حججت ماشيا خمسا وعشرين مرة وقاسمت الله مالك مرتين وفعلت وفعلت ، ومضى يعدد مكارمه وما قدمه في سبيل الله وخير الناس ، فقال له الحسن (ع): إني أقدم على خطب عظيم وهول جسيم لم أقدم على مثله قط ، ولست أدري أتصير نفسي إلى النار فأعزيها أو إلى الجنة فأهنيها .

وفي رواية ثانية أنه لما أشرف على الموت قال : اخرجوا فراشي إلى صحن الدار فأخرجوه فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إني أحتسب عندك نفسي فإنها أعز الأنفس علي ولم أحب بمثلها اللهم ارحم صرعتي وآنس في القبر وحدتي .

وجاء عن الامام زين العابدين (ع) أن الاشعث اشترك في دم أمير المؤمنين وابنته جعدة سمت الحسن (ع) وابنه محمد بن الاشعث اشترك في دم الحسين .

ولما مات الحسن طلبت جعدة من معاوية أن يفي لها بما وعدها فدفع لها المال ورفض أن يزوجها من ولده وقال لها : إننا نحب حياة يزيد ونخشى أن تصنعي به ما صنعت بابن رسول الله ، وتزوجها بعد الحسن رجل من آل طلحة فأولدها فكان إذا وقع بين ولدها وبين أحد من بطون قريش كلام قالوا لهم : يا بني مسمة الأزواج .

ولما توفي الحسن (ع) تولى أمره الحسين وأخرجه ليدفنه إلى جانب جده رسول الله (ص) فخرجت عائشة ومعها بنو أمية وقالت : لا يدفن الحسن مع جده أو تجز هذه ؟ وأشارت إلى ناصيتها وكاد الشر أن يقع بين الفريقين ، وكانت قد خرجت على بغلة شهباء فقال لها القاسم بن محمد بن أبي بكر : يا عمة ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر أتريدين أن يقال يوم البغلة الشهباء ، وقال لها بعض من حضر : يوم على جمل ويوم على بغل يا أم المؤمنين تجملت تبغلت ولو عشت تفيلت لك التسع من الثمن وبالكل تملكت .

ولما اشتد الأمر بين الفريقين عدل به الامام أبو عبد الله الحسين إلى البقيع ودفنه إلى جانب أمه فاطمة الزهراء .

وفي بعض المرويات أن بني أمية وأنصارهم رشقوا المشيعين بالسهام وأصيبت الجنازة ، ولم يمكن الحسين (ع) أحدا من الهاشميين بالرد عليهم بالمثل عملا بوصية الحسن (ع).

ولما فرغ من دفنه وقف على قبره وأنشد :

أدهن رأسي أم تطيب مجالسي وخدك معفور وأنت سليب
سأبكيك ما ناحت حمامة ايكة وما اخضر في دوح الرياض قضيب
غريب واكناف الحجاز تحوطه الا كل من تحت التراب غريب

ووقف على قبره أخوه محمد بن الحنفية وابنه بقوله :

رحمك الله أبا محمد لئن عزت حياتك لقد هدت دقاتك ولنعم الروح روح عمّر بها بدنك ولنعم البدن بدن تضمنه كفنك وكيف لا وأنت سليل الهدى وحليف أهل التقى وخامس أصحاب الكسا ربيت في حجر الإسلام ورضعت ثدي الإيمان ولك السوابق العظمى والغايات القصوى فعليك من الله السلام ، فلقد طبت حيا وميتا .

وكان له من العمر ست وأربعون سنة وقيل ثمان وأربعون ، وأصيب الناس بدهشة لوفاته وأيقنوا بأن معاوية لم يعد يحاذر من أحد وقال قائلهم لقد ذل الناس بموت الحسن بن علي .

وبلغ نبأ وفاته البصرة في يومين وليلتين فقال الجارود بن أبي سبرة :

إذا كان شرا سار يوما وليلة   وإن كان خيراً خر والسير اربعا
إذا ما يريد الشر أقبل نحونا   بإحدى الدواهي الدهم سار وأسرعا

وكان الذي نعاه في البصرة عبد الله بن سلمة نعاه لزياد فخرج الحكم بن أبي العاص الثقفي فنعاه فبكى الناس وأبو بكرة يوم ذاك مريض فسمع الضجة ، فقالت له امرأته قيسة بنت سخام الثقفية مات الحسن والحمد لله الذي أراح الناس منه ، فقال لها اسكتي ويحك فقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيرا كثيرا يرحم الله حسنا .

وحدث ابن جرير الطبري وغيره عن عبد الله بن العباس أنه قال : والله إني لفي المسجد إذ كبر معاوية في الخضراء فكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد لتكبيرة أهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرضة من خوخة لها فقالت ، سرك الله يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك ؟ قال : موت الحسن بن علي ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكت وقالت : مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله ، فقال معاوية : إنه كذلك وأهل لأن يبكى عليه ، ولما بلغ

الخبر عبد الله بن العباس دخل على معاوية فاستقبله معاوية بقوله : أعلمت يا ابن عباس أن الحسن قد توفي ، فقال له : ألذلك كبرت يا معاوية ؟ قال : نعم ، فقال : والله ما موته بالذي يؤخر أجلك ولا حفرته بسادة حفرتك ، ولئن أصبنا به فقد أصبنا بسيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بسيد الأوصياء فجبّر الله تلك المصيبة ورفع تلك العبرة ، فقال معاوية : ويحك يا ابن عباس ما كلمتك إلا وجدتك صعدا .

وكانت وفاته في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة خمسين للهجرة وقيل غير ذلك .

الفهرست









